

للإمام اللغوي الأديب

أبي هِـلال العسكري

شرحه وضبط نصّه

أحمد حسن بسج

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠ - ٦٠٢١٣٣ / ٩٦١١ / ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

هذا الكتاب «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، كتاب حوى من الشعر أعذبه، وفيه من المقتطفات النثرية ما يسر النفس.

وقد جعله المؤلف أبواباً وفصولاً، حسب الأغراض، وفي كل فصل طائفة من الأشعار والأقوال، كلها تدور حول موضوع واحد، ثم لا يلبث أن يدلي بدلوه في ما يوافق المقام شعراً أو نثراً، فضلاً عن انتقاداته اللاذعة حيث يقتضي الأمر.

وتعود قيمة الكتاب لما يحويه من غزارة المادة وجودتها؛ فهو قد اختار ما اختاره عن شعراء فحول مشهود لهم، ومن عصور مختلفة، مما جعل الكتاب عدة دواوين في ديوان واحد. وقد اكتسب الكتاب قيمة دينية وأخلاقية، لما اشتمل عليه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. بالإضافة إلى طائفة كبرى من الحكم والأمثال كلها استحضرها المؤلف، لتكون رديفاً لما قدمه من الشعر.

أما تحقيق الكتاب، فقد اعتمدت على طبعة القدسي ١٣٥٢ هـ، التي تفتقر إلى الضبط، كما أنها لا تخلو من أخطاء، أصلحتها بالمقابلة مع النسخة البريطانية، وضبطت الكتاب، بالعودة إلى الدواوين حيناً وإلى أمهات كتب الأدب حيناً آخر، وقابلت الأبيات في مصادرها وأشرت إلى ذلك في الهوامش. ومن أهم المصادر تلك: «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، و «عيون الأخبار» لابن قتيبة و «الأمالي» لأبي علي القالي.

ومع ذلك، لا أدعي أنني وفيت هذا العمل حقّه، ولكنني بذلت من الجهد ما استطعت، فإن حاز على رضى القارىء الكريم، فذلك لحسن ظنه بنا، وإنه بفضل الله أولاً وآخراً، فله الحمد وله الشكر على ما أعطى. وإن كنت قصّرت، أو زلّت لي قدم فإني ألتمس لديكم العذر أيها القرّاء الكرام، وأرجو الله أن يسددنا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

والحمد لله رب العالمين

المحقق: أحمد حسن بسج

بيروت في: ٢٧ محرم ١٤١٤ هجرية

الموافق ١٩٩٣/٧/١٧ رومية

ترجمة المؤلف

أبو هلال العسكري

هو الحسن[1] بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، صاحب الصناعتين.

وهو تلميذ أبي أحمد[2] العسكري وابن اخته، وينسب كلاهما إلى عسكر مُكرَم[3]، ويبدو أن أبا هلال نشأ في هذه الناحية وليس لدينا من أخباره الأولى أكثر من ذلك. إلاّ أنه كان يتزّز احترازًا من الطمع والدناءة. وكان موصوفًا بالعلم والفقه، والغالب عليه الأدب والشعر. وقد روى عنه أبو سعد السمّان الحافظ وغيره.

أما وفاته فلم تؤكد المصادر تاريخها، وقد أفاد ياقوت بأنه لم يبلغه شيء في وفاته، إلاّ أنه فرغ من إملاء «الأوائل» يوم الأربعاء لعشر خَلَتْ من شعبان سنة ٣٩٥ هـ[4].

مؤلفاته[5]:

١ ـ جمهرة الأمثال.

٢ ـ كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. وصنفه سنة ٣٩٤ هـ.

٣ ـ ديوان المعاني في اثني عشر بابًا.

٤ ـ كتاب المعجم في بقية الأشياء.

٥ ـ كتاب الزواجر والمواعظ[6].

٦ ـ شرح ديوان أبي محجن.

٧ ـ كتاب الأوائل. أتمه سنة ٣٨٩ هـ. وقيل سنة ٣٩٥ هـ. واختصره السيوطي.

---

(١) ترجمته في: بغية الوعاة: ١/٥٠٦. معجم الأدباء: ٨/٢٥٩. الأعلام: ٢/١٩٦.

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري، خال أبي هلال. فقيه أديب رئيس في الإملاء والتدريس في بلاد خوزستان، ولد ونشأ في عَسْكَر مُكرَم، وهي بلد مشهور من بلدان الأهواز. أخذ عن ابن دريد وأقرانه. مات سنة ٣٨٢ هـ. (الأعلام ٢/١٩٦). وواضح توافق الإسمين.

(٤) معجم الأدباء: ٨/٢٥٩.

(٥) تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان: ٢/٢٥٢.

(٦) نسبه الذهبي في (سير أعلام النبلاء: ١٦/٤١٢) إلى أبي أحمد العسكري.

٨ ـ الفروق اللغوية. وله مختصران.
٩ ـ رسالة في ضبط وتحرير مواضع من ديوان الحماسة لأبي تمّام.
١٠ ـ النوادر في العربية (مجموعة جوابات على مسائل في اللغة والأدب).
١١ ـ كتاب الكرماء. ونُشر بعنوان «فضل العطاء على العسر».
١٢ ـ الحث على طلب العلم.
١٣ ـ التلخيص معرفة أسماء الأشياء.
١٤ ـ ما احتكم به الخلفاء إلى القضاة.
١٥ ـ المعرب عن المغرب.
١٦ ـ رسالة فيما يشق على الإنسان.
١٧ ـ تفسير القرآن الكريم.
١٨ ـ أشعاره.
١٩ ـ محاسن النثر والنظم من الكتابة والشعر.
٢٠ ـ مجموعة رسائل العسكري.

وقد ذكر أبو هلال من كتبه:

١ ـ كتاب الدينار والدرهم. وذكره في كتاب الكرماء.
٢ ـ صنعة الكلام. ذكره في كتاب الأمثال، وفي ديوان المعاني.
٣ ـ شرح الفصيح. ذكره في كتاب الأمثال.

مكانته:

أبو هلال العسكري، وبشهادة من ترجموا له، أديب بارع متفنن، فقيه وشاعر متفوق، وفوق كل ذلك هو ناقد ثاقب النظر، لاذع في انتقاداته، لا يثنيه عما عزم على قوله أي مانع فيما يراه حقًا.

ونظرياته في الأدب والنقد، مبثوثة ـ خصوصًا ـ في كتابيه: الصناعتين وديوان المعاني. وملخص نظريته في الأدب أنه يحث على طلب العلم وتعلم الكتابة، واشترط للكتّاب شروطًا وهي إعداد ما يلزم لها من «معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى، وإلى الحساب، وعلم المِساحة والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة»[1]. وهو إذ يهتم بالكتابة ويطيل الحديث عنها، فلأنها ترتبط بالسلطان وعليها مداره، وهي مرتبطة بالخطابة والخطابة بدورها ترتبط بالدين.

وللشعر عند العسكري أهميته فهو «ديوان العرب»، وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها، ومستودع علومها» وانساب العرب تستمد من الشعر وكذلك أيامهم ووقائعهم وتواريخهم، والشعر من المصادر، التي تضبط من خلالها اللغة.

(١) كتاب الصناعتين: ١٥١ وما بعدها.

وعناصر العمل الأدبي، عند أبي هلال تدور حول أمرين عظيمين ورئيسين: اللفظ والمعنى، فمن «حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف»[1]، ومع شريف اللفظ يشترط عذوبته وفخامته وسهولته ووضوحه وقربه إلى النفس، وعدم مجافاته للأذواق السليمة.

ومع اهتمامه باللفظ والمعنى، فإنه لم ينس أن يشير إلى أهمية سبل الفصاحة وسنن البلاغة التي ينبغي لعلماء العربية وكتابها وشعرائها أن يسلكوها دون خروج على قوانين اللغة في التركيب.

أما أبو هلال الناقد، فإنه ذو بصر حاد ثاقب، ولا يدع شاردة أو واردة إلّا وينبه إلى ما فيها من مواطن الضعف أو القوة، والقبح أو الجمال، دون مراعاة أو محاباة وبسخرية لاذعة في كثير من الأحيان. ففي قول امرىء القيس في وصفه للفرس:

وللسوط ألهوب وللساق دِرّة　　وللزجر منه وقع أخرج مُهذِبِ

يعلق أبو هلال عليه قائلاً: «فلو وصف أخسّ حمار وأضعفه ما زاد على ذلك»[2].

ومن مآخذه على المؤلفين من العلماء والكتاب أن بعضهم يضع الشيء في غير مكانه المناسب، فيتهمهم، لذلك، «بسوء الرأي وقلة العقل»، «فيخاطبون السوقي، والمملوك الأعجمي، بألفاظ أهل نجد».

وبما أن الكلام المنظوم ثلاثة أجناس عند أبي هلال: وهي الرسائل والخطب والشعر، فجميعها يحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً، فإذا كان المعنى سيئًا ورصف الكلام رديئًا، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة»[3].

شعره[4]:

كان ذا شاعرية مفلقة، وذا إحساس مُرهف، لذلك جاء بما يبذ به شعراء عصره وغيرهم. فكان شعره قوي الرصف، حسن الديباجة، عليه طلاوة تجعله محبباً إلى النفس لا تمجه الأذن. وقد ارتبط شعره بعوامل اجتماعية أو طبيعية واقعية، فتراه يصف حاله وهو يجلس في السوق، ويربط ذلك بالمجتمع ويتهمه بالتقصير ويلقي بمسؤولية فقره على الناس أجمعين:

جلوسي في سوق أبيع واشتري　　دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم تذل كرامهم　　ويعظم فيهم نذلهم ويسود
وتهجوهم عني رثاثة كسوتي　　هجاءً قبيحاً ما عليه مزيدُ

وللأسباب التي ذكرها هي نفسها، يشكو مرّة أخرى من ظلم المجتمع:

لا يغرنكم علوُّ لئيمٍ　　فعلوٌّ لا يستحق سفالُ

---

(١) كتاب الصناعتين: ١٥١ وما بعدها.

(٢) عن القلقشندي. صبح الأعشى: ٢/٢٢٠.

(٣) كتاب الصناعتين ١٦٧.

(٤) راجع: تاريخ الأدب العربي: بروكلمان: ٢/٢٥٢.

فارتفاعُ الغريقِ فيه فضوحٌ وارتفاعُ المصلوبِ فيه نكال

ومما أنشده القاضي أبو أحمد الموحد بتستر عن أبي أحمد العسكري عن أبي هلال لنفسه بالعسكر:

إذا كان مالي مال من يلقط العجم وحال فيكم حالُ من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالأصالة والحجا وما ربحت كفي على العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يُبصرُ حالتي فلا يلعنُ القرطاسَ والحبرَ والقلم

وواضح في هذه الأبيات شكواه من عمله ومن علمه ومن الناس إذ إنهم لا يبصرون ولا يقدرون العلم وأهله.

وفي الزهد يقول:

قد تعاطاك شباب وتغشاك مشيب
فأتى ما ليس يمضي ومضى ما لا يؤوبُ
فتأهب لسقام ليس يشفيه طبيب
لا توهمه بعيدًا إنما الآتي قريب

وهو يخرج الزهد بالحكمة والعودة إلى الذات لاستخراج العبر والعظات مما فات من سالف الأيام، استعدادًا للمرحلة المقبلة. وكما نراه يشكو، نراه يصف فها هو يصف[1] فصل الشتاء، ويفضله على غيره:

فترت صبوتي وأقصر شجوي وأتاني السرور من كل نحو
إن روح الشتاء خلص روحي من حرور تشوي الوجوه وتكوي
برد الماء والهواء كأن قد سرق البرد من جوانح خِلو
ريحه تلمس الصدور فتشفى وغماماته تصوب فتروي
لست أنسى منه دماثة دجن ثم من بعده نضارة صحو
وجنوباًتبشر الأرض بالقطر كما بُشر العليل ببرو
وغيومًا مطرزات الحواشي بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها جمع القطر بين سفل وعلو
وهي تعطيك حين هبّت شمالاً برد ماء فيها ورقة جو
وترى الأرض في ملاءة ثلجٍ مثل ريط لبسته فوق فرو
فاستعار العراء منها لباساً سوف يُمنى من الرياح بنضو
فكأن الكافور موضع ترب وكأن الجمان موضع قرو
وليالٍ أطلن مدة درسي مثلما قد مددن في عمر لهوي
مر لي بعضها بفقه وبعض بين شعرٍ أخذت فيه ونحو

---

(١) هذه الأبيات والتي قبلها لم ترد في ديوان المعاني. وقد رواها ياقوت عن السلفي وغيره.

وحـديـث كـأنـه عـقـد ريّـا بـتٌّ أرويـه لـلرجـال وتـروي

في حـديث الرجـال روضـة أنس بـات يـرعى بـأهـل نبـل وسـرو

ولم يقتصر، في شعره، على التشكي والهجاء والوصف، بل كانت له اليد الطولى في الفنون الأخرى كالمدح والحكمة والعتاب وغير ذلك مما عرف من الفنون في عصره، وفي بيئته المشرقية.

وأخيراً، قال بعض الشعراء(١):

وأحسنُ مـا قـرأتُ عـلى كـتـاب بـخط الـعـسكـري أبـي هـلالِ

فـلو أنـي جُـعلت أمـيـر جيش لـمـا قـاتـلت إلاّ بـالـسـؤالِ

فـإنّ الـنـاس يـنـهـزمـون مـنـه وقـد صبـروا لأطـراف العـوالـي

(١) معجم البلدان: ١٢٤/٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جلائل نعمه، وفواضل آلائه وقسمه، والرغبة إليه فيما يزلف لديه، ويمهد المنزلة عنده، ويوجب الحظوة قبله، والصلاة على خير بريته محمد ﷺ وعترته.

قال الشيخ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، رحمه الله تعالى: جمعت في هذا الكتاب أبلغ ما جاء في كل فن، وأبدع ما روي في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها، إلى عواديها وشذاذها، وتخيرت من ذلك ما كان جيد النظم محكم، الرصف غير مهلهل رخو، ولا متجعدٍ فج، وهذا نوع من الكلام لا يزال الأديب يسأل عنه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا أريد الوقوف على مبلغ علمه ومقدار حفظه، فإن سبق إليه بالجواب جل قدره وفخم أمره، وإن نكص عن ميدانه وشال في ميزانه، قلت الرغبة فيه، وانصرفت القلوب عنه، وذلك مثل ما أخبرنا به أبو أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد[1] رحمه الله تعالى قال: كان بعض من ينتحل الأدب يريد الدخول في جملة أبي الفضل محمد بن الحسن بن العميد[2] لمنادمته، وشفع له في ذلك جماعة من بطانته، فأحضره يومًا وفاوضه ليقف على مقداره في المعرفة، فقال له فيما قال: ما أحسن ما قيل في صفة شعر؟ فبقي ملياً يتفكر، فقال أبو الفضل: فندٌ عند خاطرك حُداجة[3]، ثم قال: هات أيها الشيخ: فقلت: أحسن ما قاله قديم في ذلك قول الشاعر:

فإن أهلكْ، فقد أبقيتُ بعدي ... قوافيَ تُعجبُ المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات ... لو أنَّ الشعرَ يُلبَسُ لارتَدينا

وأحسن ما قاله محدَث قول أبي تمام[4]:

والله لا أنفكُّ أُهدي شوارداً ... إليك يُحملنَ الثناء المنخَّلا

---

(١) هو الأديب العلامة صاحب التصانيف، يعرف بالعسكري، وهو شيخ المؤلف ابي هلال. من مؤلفاته: الحكم والأمثال. توفي سنة ٣٨٢ هـ.

(٢) ابو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد، (هكذا الاسم في سير اعلام النبلاء: ١٦/١٣٧)، وزير من ائمة الكتاب، وكان متوسعاً في الفلسفة وعلم النجوم. ويلقب بالجاحظ الثاني. مات سنة ٣٦٠ هـ.

(٣) حُداجة وفند: فتيان يضرب بهما المثل في السرعة والابطاء.

(٤) ابو تمّام: حبيب بن اوس الطائي الشاعر العباسي المشهور مات سنة ٢٣٢ هـ. والأبيات في ديوانه: ٢٢٥.

تُخالُ بِهِ بُرداً عليكَ محبَّراً　　وتحسبها عقدًا عليك مُفصَّلا
ألذَّ من السلوى، وأطيبَ نفحةً　　من المسكِ مفتوقاً، وأيسرَ محملا
أخفَّ على رُوحٍ، وأثقلَ قيمةً　　وأقصرَ في سمع الجليس وأطولا
ويُزهى به قومٌ ولم يُمدحوا بها　　إذا مثل الرَّاوي بها أو تمثَّلا

وقوله[1]:

إنَّ القوافيَ والمساعيَ لم تَزَل　　مثلَ النظَامِ إذا أصابَ فريدا
هي جوهرٌ نثرٌ، فإن ألَّفته　　بالشعرِ صارَ قلائداً وعُقودا
في كلِ معتركٍ وكلِ مقامةٍ　　يأخذن منها ذِمَّةً وعهودا
فإذا القصائدُ لم تكن خفراءها　　لم ترضَ منها مَشهداً مشهودا
من أجلِ ذلك كانت العُرُبُ الأُلى　　يدعون ذلك سُؤْدَداً محدودا
وتندّ عندهم العُلا الأعْلىً التي　　جعلت لها مُرَرُ القريضِ قيودا

قال: وبقي الرجل لا يفيض بكلمة ثم خرج ولم يعد. قوله فند: يعني أن خاطره بطيء، وفند هذا مخنث كان بالمدينة مولى لعائشة بنت أبي وقاص[2]، وكانت بعثته ليقتبس نارًا، فأتى مصر وأقام بها سنة، ثم جاء بنار وهو يعدو، فعثر فتبدد الجمر فقال: تعست العجلة، فقالت فيه:

بعثتك قابساً فلبثتَ حَولا　　متى يأتي غياثُك من تغيثُ

وقال الشاعر:

ما رأينا لغراب مَثَلا　　إذ بعثناه لحملِ المشمله[3]
غير فِند أرسلوه قابساً　　فثوى حولاً وسبَّ العجله

فتمثلت العرب به فقالت أبطأ من فند[4]. وحُداجة رجل يضرب به المثل في السرعة فقيل أسرع من حُدَاجة[5].

وممن سبق إلى الجواب عن هذا النوع فحظي النضر بن شميل[6]، أخبرنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن حامد قال: حدثنا أبو بشر محمد بن ناصح الأصبهاني عن النضر بن شميل المازني قال: كنت أدخل على المأمون[7] في

---

(١) الأبيات في الديوان: ٨١ وفيه «مثل الجمان» وفي البيت الأخير «القصيد» و «يدعون هذا».
(٢) هي عائشة بنت بن ابي وقاص، كانت تقيم بالمدينة. ماتت سنة ١١٧ هـ وكانت تروي الحديث. (الاعلام: ٢٤٠/٣).
(٣) غراب: اسم رجل. المشملة ما يُشتمل به من كساء وغيره.
(٤) مثل يُضرب للبطيء: مجمع الأمثال ١١٧/١. جمهرة الأمثال: ٢٠٣/١.
(٥) مثل يُضرب للسريع: مجمع الأمثال ٣٤٧/١. جمهرة الأمثال: ٤٣٢/١.
(٦) النضر بن شُميل بن خَرَشه بن زيد العلامة ابو الحسن المازني البصري، نزيل مرو كان امامًا في العربية والحديث. تولى قضاء مرو، وتوفي فيها سنة ٢١٢ هـ . (سير اعلام النبلاء: ٣٢٨/٩).
(٧) الخليفة العباسي، أبو العباس كان محباً للعلم والعلماء، مات سنة ٢١٨ هـ .

سمره، فدخلت عليه ذات ليلة وعليَّ قميص مرقوع، فقال: يا نضر ما هذا القشف؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا شيخ ضعيف وحر مرْوَ شديد فأتبرد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك قشف، فأجرينا الحديث إلى أن أخذ المأمون في ذكر النساء فقال: حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل امرأة لدينها وجمالها كان فيها سَدَادٌ من عَـوَز» فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تزوج الرجل امرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عَوَز»(١). قال وكان متكئاً فاستوى جالساً فقال يا نضر كيف قلت سِداد؟ قلت: يا أمير المؤمنين، السَّداد ههنا لحن، قال: ويحك أتلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال فما الفرق بينهما؟ قلت: السَّداد القصد في الدين والسبيل، والسِّداد البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد، قال: وتعرف العرب هذا؟ قلت: نعم العرجي(٢) يقول(٣):

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا! ... ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ

قال قبح الله من لا أدب له، ثم أطرق ملياً ثم قال: أنشدني أخلب بيت قالته العرب، قلت: حمزة بن بِيض(٤)، يقول في الحكم بن مروان:

تقول لي: والعُيونُ هاجعةٌ ... أقِمْ علينا يوماً فلَمْ أُقِمِ
أيُّ الوجوهِ انتجعت قلت لها ... وأي وجه إلاّ إلى الحَكَمِ
متى يَقُلْ صاحبا سُرادقه ... هذا ابن بيض بالباب يبتسِم
قد كنتُ أسلمتُ فيك مقتبلاً ... فهات إذ حلَّ أوفني سلَمي

فقال أحسن ما شاء، أنشدني أنصف بيت قالته العرب قلت: أبو عروة المدني حيث يقول(٥):

إني وإن كان ابن عمي واغراً ... لَمزاحمٌ من خَلْفِه وورائِه

---

(١) الحديث في جمهرة الأمثال: ١/٤٢٩، وفي هامشه: اخرجه الشيرازي في الألقاب. وفي الجامع الصغير ٥٢٧.

(٢) العرجي: من ولد عثمان بن عفّان، وهو اشعر بني امية، وينسب إلى العرج وهو موضع بالطائف. مات سنة ١٢٠ هـ. (الاعلام: ٤/١٠٩).

(٣) البيت من شواهد اللسان (سدد). وفي الشعر والشعراء: ٢/٤٧٨).

(٤) شاعر كوفي، من البلغاء، كان منقطعاً إلى المهلب بن ابي صفرة وبنيه. له أخبار في الأغاني ١٦/٢٠٢ مات سنة ١٢٠ هـ. الأبيات في الأغاني ١٦/٢١٤ وفيه. «قالت فأي الوجوه قلت لها» «لأي وجه» و «يقل حاجباً» و «أعطني سلمي». والسلم: السلف. مقتبل: مستأنف.

(٥) الأبيات من الأغاني: ١٦/٢١٤ ونسبها الى ابي عروبة المدني. وفيها «عمي عاتباً» و «مفيدة نصري» «كنت امرءاً» و «عن ارضه».

وَمُمِـده نصـري وإن كـان امرأً ... مُتَزَحزِحـاً في أرضه وسمـائـه
وأكـون وَاليَ سـره فـأصُـونُـه ... حتى يَحِين عَليَّ وَقْتُ أدائِـه
وإذا الحـوادثُ أجحفت بسوامه ... قُرِنت صَحيحَتُنا إلى جربائـه
وإذا دعـا باسمي لَنركب مـركبـا ... صعباً قعدتُ لـه على سيسائـه[1]
وإذا رأيـت لـه رداءً نـاضـراً ... لم يُلْفِني مُتَمنّيـاً لـردائـه[2]

فقال أحسن ما شاء، أنشدني أقنع بيت للعرب قلت الراعي[3] حيث يقول[4]:

أطلُبُ مـا يَـطلُب الـكـريمُ من الـرزق لنفسي فـأُجْمِـلُ الـطَّلبـا[5]
واحـلُبُ الـثرة الـصـفـي ولا ... أجهـد أخـلاف غيـرهـا حَـلَبـا[6]
إنـي رأيتُ الـفَتـى الـكـريـمَ إذا ... رَغَّـبتـه فـي صـنـيـعـة رَغِـبـا
والـنَّـذْلُ لا يَـطْلُبُ الـعَـلاءَ وَلا ... يُـعـطـيـك شـيـئـاً إلاّ إذا رَهِـبـا[7]
مَثَـلُ الحـمـار المـوقـع السُّـوء لا ... يُـحْسِـنُ شـيـئـاً إلاّ إذا ضُـرِبَـا[8]
ولـم أجـد غُـرةَ الـخـلائـقِ ... لا الـدينَ لمـا اعتبـرتُ والحَسَبـا[9]
قـد يُـرزَقُ الـخـافِق الـمقيـمُ ومـا ... شـدَّ لـعـيس رَحْلاً ولا قـتـبـا[10]
ويُـحْـرَمُ الـرِّزْقَ ذو الـمـطيـةِ والـرحـلِ ومَـنْ لا يـزالُ مُـغْـتَـرِبـا

فقال أحسنِ ما شاء، ما مالك يا نضر؟ فقلت أريض لي بمرو أتصابها وأتمززها قال: ألا نفيدك مع ذلك مالاً؟ قلت: إني إلى ذلك محتاج، قال: فأخذ القرطاس وكتب ولا أدري ما كتب، قال: كيف تقول من التراب إذا أمرت أن تترب؟ قلت أتربه، قال: فهو ماذا، قال قلت مترب، فمن الطين؟ قلت طنه، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطين، قال هذه أحسن من الأولى، ثم قال يا غلام أتربه وطنه، ثم صلى بنا العشاء ثم قال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل[11]. فأتيته فلما قرأ

---

(١) في الأغاني «ليركب مركباً». والسيساء من الحمار: ظهره.
(٢) في الأغاني:
وإذا ارتـدى ثـوبـاً جـمـيـلا لـم اقـل ... يـا لـيـت انّ عـلـيّ حـسـنَ ردائـه.
(٣) الراعي النميري عبيد بن حصين، شاعر أموي مداح مات سنة ٩٠ هـ. الأعلام ٤/١٨٨.
(٤) الأبيات في الأغاني ونسبها إلى آبن عبدل الأسدي. ١٦/٢١٤. وفيه اختلاف. والأبيات ليست في الديوان.
(٥) في الأغاني «وأجمل الطلبا».
(٦) الثرّة من العيون: الغزيرة.
(٧) في الأغاني: «والعبد لا».
(٨) في الأغاني: «يحسن مشياً».
(٩) في الأغاني: «أجد عدّة».
(١٠) في الأغاني: «بعيس» والقتب: الرمل.
(١١) السرخسي الوزير، اسلم على يد المأمون ولقب بذي الرئاستين: الوزارة والحرب. مات سنة ٢٠٢ هـ. (الاعلام ٥/١٤٩).

الكتاب قال: يا نضر إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبرته ولم أكذبه، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلا إنما لجن هشيم، وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع الفقهاء، فأمر لي الفضل بثلاثين ألفاً فأخذت ثمانين ألفاً بحرف استفاده مني.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرني الصولي قال: أخبرنا أحمد بن يحيى المهلبي قال: حدثني أبي قال: جرى في مجلس الواثق بالله(1) تعالى ذكر ما قيل في أصحاب النبيذ، فأمرت أن يُسأل أبو محلم عن أحسن ماقيل في ذلك، فسئل بعد أن أحضر، فقال: أحسنه قول حكيم وهو شاعر عصره النمر بن تولب العكلي(2):

وفِتية كالسيوفِ أوجهِهم ... لا حَصَرٌ فيهمُ ولا بخلُ
بيضٌ مساميحُ في الشتاء وإن ... أخْلفَ نجمٌ عن وَبْله وبلوا(3)
لا يتأرَّوْنَ في المضيق وإنْ ... نادَى مُنادٍ أنِ انْزِلوا نَزَلوا(4)
لا يعنري شربنا اللحاء وقد ... تُوهب فينا القيانُ والحللُ

فاستحسن الواثق الأبيات ووهب أبا محلم.

فحاجة الأديب إلى هذا الفن شديدة وفاقته إليه عتيدة، وأولى ما يصنف ويؤلف، ويقرب مأخذه، ويسهل ما كانت الحاجة إليه هذه الحاجة، فوقعت العناية عليه، وانصرفت بالاهتمام إليه، حتى تهذب وتثقف وتشذب، وتدانت شعبه وتقاربت سبله، ولم أبال ما ألفى فيه من زيادة تعب، وفضل كد ونصب، إذ لم يكن الانسان يبلغ ما يريد وينال ما يريغ(5) إلّا بتكلفة لغوب(6) ومواصلة دؤوب، لا سيما إذا كان الغرض الذي ينزع إليه جسيماً يكسبه حسن الذكر، ويمنحه طيب النشر، من علم يتقنه أو يصنفه ويدونه، أو رياسة أرادها فارتادها، وسيادة طلب اقتيادها، وليس ذلك للمتواني المتهاون، ولا المتواكل المتواهن، وقد قيل:

سَهِرَتْ عُيُونُهُمُ وأنْتَ عنِ الذي ... قاسُوهُ حالِمْ

وقيل:

وإنَّ سِيادَةَ الأقوامِ فاعْلَم ... لهَا صعدَاءُ مَطْلَعُها طَويلُ

وقيل:

إن السِيادَةَ والرِّياسَةَ والعُلى ... أعباؤهنَّ كما عَلِمْتَ ثِقالُ

وقيل:

---

(1) الخليفة العباسي ابو جعفر، ولي سنة ٢٢٧، بعهد أبيه، وكان وافر الأدب مات بسامراء سنة ٢٣٢ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٠/٣٠٦).

(2) شاعر جواد مخضرم بين الجاهلية والإسلام. شعره حسن، ومات سنة ١٤ هـ. (الأعلام: ٨/٤٨).

(3) الوبل: المطر الغزير.

(4) تأرى المكان: احتبس.

(5) يريغ: يطلب.

(6) تكلفة لغوب: مشقة.

وإن جَسيماتِ الأمورِ مَنُوطَةٌ بِمُسْتَودَعاتٍ في بُطونِ الأساوِدِ

وقلت:

إن الأمور مريحها في المتعب

وفي المثل(1) «عند الصباح يحمد القوم السرى»

وقيل:

ما لمن لم يركب الأهوال حظ

وقلت:

ولَمَ يتسهل للفتى دَرَكُ العُلا إذا هو لم يصبر على المتصعّبِ

ومن كانت له حاجة في الشيء اشتغل به، وفرغ له، واستندب التعب فيه، حتى بلغ مراده منه، وقيل:

طوامِسُ لي من دُونهنَّ عَداوَةٌ ولي من وَراء الطامِساتِ حَبيبُ

بعيدٌ على من ليس يطلب حَاجة وأما على ذي حاجة فقريبُ

والذي حداني على جمع هذا النوع أيضاً أني لم أجد فيه كتابًا مؤلفًا، ولا كلاماً مصنفاً، يجمع فنونه ويحوي ضروبه، ورأيت ما تفرق منه في أثناء الكتب، وتضاعيف الصحف، غير مقنع. بشفي الراغب ويكفي الطالب، فجمعته ههنا، وأضفت إلى كل نوع منه ما يقاربه من أمثاله وما يجري معه من أشكاله ليكون مادة للمناقضة وقوة للمفاوضة، وجعلته نظماً ونثراً، وخبراً وشعراً، لأبعث به نشاط الناظر وأجلي به صداء الخاطر، لأن الخروج من ضرب إلى ضرب أنفى للملال وأعدى على الكلال، من لزوم نهج لا يتعداه والاقتصار على أمر لا يتوخى سواه.

وجعلته إثني عشر بابا:

الباب الأول: في التهاني والمديح والافتخار.

الباب الثاني: في الخصال.

الباب الثالث: في المعاتبات والهجاء والاعتذار.

الباب الرابع: في الغزل وأوصاف الحسان.

الباب الخامس: في ذكر النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب وما يجري مع ذلك.

الباب السادس: في ذكر السماء والنجوم والشمس والقمر وما يجري مع ذلك.

الباب السابع: في ذكر السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين والرياض والأشجار والثمار والرياحين والنسيم وما يجري مع ذلك.

الباب الثامن: في ذكر السلاح والحرب وما يشبه ذلك.

الباب التاسع: في ذكر القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة وما يجري مع ذلك.

الباب العاشر: في ذكر الخيل والابل والسير والفلوات والسراب وصفة سائر الحيوانات.

---

(1) المثل في مجمع الأمثال: ٢/٣. وجمهرة الأمثال: ٢/٣٨.

الباب الحادي عشر: في ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمراثي والتعازي والزهد.

الباب الثاني عشر: في صفات أشياء مختلفة.

ثم رأيت أصحابنا يشكون طوله، وكبر حجمه، وبعد غايته، فجعلت كل باب منه ينفرد بنفسه، ويتميز من جنسه، ليخف محمله ويقرب مأخذه، على أن فوائد الكتاب على قدره في صغره وكبره، ولكن ينبغي أن يحمل على كل بقدر طاقته، ويكلف على حسب مقدرته، ويحدّث بما ينشط لاستماعه ويتسع لوعيه، وتقريب الحكمة حكمة ثانية ويكسوها المحبة، ويوجد إليها الرغبة، وأرجو أن أوافق الصواب في جميع ما ضمنت هذه الأبواب، وإن وجد في بعض فصوله خطل أو تعرض فيه زِلل أو تخلله خلل، فغير بديع ولا قبيح شنيع، لأن النقصان منوط بالإنسان، لا يسلم منه خَلقه وخُلقه، وقوله وفعله، وقد شمل العيب كل شيء، حتى صارت في وجنة القمر سفعة، وقد قلت:

وفي كل شيء حينَ تَخْبُر أمرَه ... معايبُ حتى البدر أكلَفُ أسفعُ

والشيء إذا سلم جله فقد حسن كله وبالله التوفيق.

كتاب المبالغة

في المديح والتهاني والافتخار وهو الباب الأول من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول.

الباب الأول من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول في المديح

سمعت أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، رحمه الله تعالى يقول: أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبياني[١].

ألـم تَـرَ أنّ الـلَّهَ أعـطاكَ سُـورة ... تَـرى كـلَّ مَـلْك دُونـهـا يَـتَـذَبْـذَب
بـأنـك شـمسٌ والـمـلوك كـواكـبٌ ... إذا طـلعت لـم يـبْـدُ منـهـنّ كـوكـبُ[٢]

ثم قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى بن العباس قال: حدثني أبو ذكوان قال:

أدخلت إلى إبراهيم بن العباس[٣] وهو بالأهواز لخدمته، فقال: ما تقول في شعر النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ـ البيتين فقلت: ما عندي فيه إلاّ الظاهر المشهور، يقول: فضلك على الملوك، كفضل الشمس على الكواكب فقال: نفهم معناه قبل هذا، إنما يعتذر إلى النعمان من مدحه آل جفنه الغسانيين وتركه له، ويريد أن له، في مدحه لهم عذراً ألا ترى إلى قوله[٤]:

ولـكـنـني كـنـتُ أمـرأ لـيَ جـانـبٌ ... مـن الأرض فـيـه مـسـتـرادٌ ومَـذْهَـبُ
مُـلُوك وإخـوان إذا مـا أتـيـتـهـم ... أحَـكَّـم فـي أمْـوالـهـم وأُقـرب[٥]
كـحكـمـك في قـوم أراك اصـطفـيتـهم ... فـلم تَـرَهم فـي شُكـر ذلـك أذنـبوا[٦]

---

(١) الشاعر الجاهلي زياد بن معاوية أبو أمامة. من أصحاب المعلقات مدح امراء الحيرة والغساسنة. مات سنة ١٨ ق. هـ. والبيتان في ديوانه: ٤٦.

(٢) في الديوان: «فإنك شمسٌ».

(٣) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، كاتب العراق في عصره، كان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل. وكان شاعراً مجيداً. مات سنة ٢٤٣ هـ. (الأعلام: ١/ ٤٥).

(٤) ديوانه ٤٦.

(٥) ملوك: هم ملوك غسّان.

(٦) في الديوان: «كفعلك في قوم اراك اصطنعتهم».

يقول: لا تلمني على شكري، وقد أحسنوا إليّ إذ لجأت إليهم، وإن كانوا أعداءك، كما أحسنت إلى قوم فشكروك عند أعدائك، فقد أحسنوا ولم يذنبوا، ثم قال: اعمل على أني أذنبت فمن أين تجد من لا يذنب فقال:

ولستَ بمُسْتَبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ؟

فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته ... وإن يك ذا عتبي فمثلك يُعتبُ

يقول: مثلك يعفو ويحسن وإن كان عاتبًا، وفي كرمك ما يفعل ذلك، ولك العتبي والرجوع إلى ما يجب، ثم فضله عليهم فقال:

ألم ترَ أن الله أعطاك سُورةً ... ترى كل مَلك دونها يتذبذبُ

بأنك شمسٌ والملوك كواكب ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكب

يقول: ما صلحت لي أنت، فإني لا أريد غيرك من الملوك، كما أن من طلعت عليه الشمس لم يحتج إلى النجوم. قال أبو ذكوان: وما رأيت أعلم بالشعر منه. ثم قال: لو أراد كاتب بليغ، أن ينثر منْ هذه المعاني ما نظمه النابغة، ما جاء به في أضعاف كلامه، وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس. وقد سبق بعض شعراء كندة النابغة إلى هذا المعنى فقال يمدح عمرو بن هند[1]:

تكادُ تَميدُ الأرضُ بالناس إن رأوا ... لِعَمْرو بن هِندٍ غضبَةٌ وهو عاتِبُ

هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت ... على كل ضوءٍ والملوك كواكبُ

وقالت[2] صفية الباهلية:

أخْنَى على مالكٍ ريبُ الزمان ولا ... يُبقي الزمانُ على شيء ولا يَذَرُ

كنا كأنجُم ليلٍ بَيْننا قَمَرٌ ... يجْلو الدُّجَى فهوَى من بيننا القمر

ومن ههنا أخذ أبو تمام:

كأن بني نبهانَ يومَ وفاته ... نجومُ سماء خَرّ من بينها البدرُ[3]

وقال نصيب[4] في معنى النابغة:

هو البدر والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ ... وهل يشبه البدرَ المضيءَ الكواكبُ؟

ومثل قول النابغة:

احكم في أموالهم وأقرب[5]

---

(١) عمرو بن هند هو عمرو بن المنذر اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية كانت له وقائع مع الروم والغسانيين، قتله عمرو بن كلثوم الشاعر سنة ٤٥ ق. هـ.

(٢) البيتان في عيون الأخبار: ٦٦/٣.

(٣) الديوان: ٣٢٩. وشرّ: سقط.

(٤) هو نصيب بن رباح، ابو محجن الأسود الشاعر، مدح عبد الملك بن مروان، له شعر جيد، وترك التغزل. توفي سنة ١٠٨ هـ. (الأعلام ٣١/٨).

(٥) ديوانه: ٤٦.

قول الأشجع(١):

لا تَعْذلوني في مديحي معشرًا ... خَطَبوا المديح إليَّ بالأموالِ

يتزحزحُونَ إذا رأوني مُقْبلا ... عن كل مُتَّكإٍ من الإجلال

وسمعت أبا أحمد يقول: أبرع بيت قيل في المديح(٢) قول النابغة:

فإنكَ كالليل الذي هو مُدْركي ... وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ثم قال: أخبرني محمد بن يحيى قال: أخبرنا عون بن محمد الكندي، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سمعت الأصمعي(٣) قال: سمعت أبا عمرو يقول: كان زهير يمدح السوقة، ولو ضرب أسفل قدميه مائة على أن يقول مثل قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

ما قاله، فما لا يقول مثله زهير(٤) كان غيره أبعد منه.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن السكن بن سعيد، عن محمد بن عباد قال سمعت أبا عبد الله نفطويه(٥) يذكر عن الفراء قال: قال الكسائي(٦): حضرت مجلساً للخليل(٧) بن أحمد وقد جمع بينه وبين يونس بن حبيب(٨) عند العباس بن محمد في مفاتقه اللغات ومجاريها، ونوادر الإعراب ومذاهب العرب ومجازها وأخبارها، فكان الخليل كالسابق قرن به، ذو الزوائد الحطم في حلبة المضمار، إلى أن تذاكروا(٩) الأشعار والشعراء فأكثر يونس من ذكر زهير وتقديمه، وذكر الخليل النابغة وقدمه وعظم أمره، فقال العباس للخليل: بم تذكر النابغة؟ قال: كان النابغة أعذب على أفواه الملوك وأبسط قوافي شعر، كأن الشعر ثمرات تدانين من خلده، فهو يجتنيهن اختياراً، له سهولة السبك، وبراعة اللسان، ونقاية الفطن، لا يتوعر عليه الكلام لعذوبة مخرجه وسهولة مطلبه.

---

(١) هو اشجع بن عمرو السُّلمي اتصل بالبرامكة ومدحهم واتصل بالرشيد. مات سنة ١٩٥ هـ.

(٢) ديوانه: ٨٤.

(٣) الأصمعي: الإمام اللغوي الأديب الأخباري. مات سنة ٢١٥ هـ.

(٤) هو زهير بن أبي سُلمى، الشاعر الجاهلي الحكيم، من اصحاب المعلقات.

(٥) هو محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي، الامام الحافظ النحوي صاحب التصانيف مات سنة ٣٢٣ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٥/ ٧٥).

(٦) هو شيخ العربية، ابو الحسن علي بن حمزة كان له منزلة رفيعة عند الرشيد. من تصانيفه: «معاني القرآن» مات سنة:

(٧) الخليل: صاحب العربية ومنشىء العروض. مات سنة ١٦٠ هـ.

(٨) يونس: إمام النحو يونس بن حبيب الضبر، له تآليف في القرآن واللغات. مات سنة ١٨٣ هـ. (سير اعلام النبلاء: ٨/ ١٩١)

(٩) في الأصل: «تذاكر».

أخبرنا شيخ لباهلة يكنى أبا جحار أن النابغة وفد على النعمان معتذراً من تلك البلاغات ومعه اعتذاره الذي يقول فيه:

فـإنــك كـالـليــل الــذي هــو مــدركي

فقال النعمان: أقبل منك عذرك وأصفح لقدرك عنك، ثم أمر فخلع عليه خلع الرضا، وكنَّ حبرات خضرا مطرفة بالدر في قضب الذهب، وانصرف إلى منزله. قال الباهلي: وإن النابغة جاء يوماً مستأذناً معتذراً فقال له الحاجب: الملك على شرابه، قال: فهو وقت الملق، والشعر تقبله الأفئدة عند السكر، فإن يبلج لي فلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفدت. فقال الحاجب: والله ما تفي عنايتي بك بدون شكرك لي، فكيف أرغب فيما تصف ودون ما ترغب رهبة التعدي؟ فهل من سبب يمكن الاستئذان؟ فقال النابغة: فعلت ما يجب عليك في الأدب، وقضاؤها ومعقود بشكرك، فمن عنده؟ قال: خالد بن جعفر الكلابي[1]. فقال: أين أنت عنه بما أقول لك؟ قال: قل. قال: تقول له خالياً: إن زياداً يقول: إن قدرك فوق الغمام، ووفاءك وفاء الكرام - وقال الفراء: تقول له خالياً إن زياداً يقول: إن من قدرك نيل الدرك بك - وزكاة الجاه رفد المستعين، وناحيتي من الشكر ما علمت، وحاجتي ملاطة الأسباب، حتى يحرك ذكراً يمكن بمثله الاستئذان - وقال الفراء يجري ذكراً - فلما صار خالد إلى بعض ما يبعث موارد الشراب، نهض، فاعترضه الحاجب فقال: ليهنك أبا البسام حادث النعم. قال خالد: هنأك عيشك، كل ما نحن فيه تجديد للتفضيل، وإتمام للشرف وكل ذلك ببقاء الملك وحسن مواده، فما ذاك؟ فأخبره بما قال النابغة، فقال: آذنه بالطاعة وانتظار المراجعة. وكان خالد رفيقاً يتأنى الأمور والأسباب لطفاً وحسن بصيرة في الارتياد، فدخل متبسماً وهو يقول:

ألا لـمـثـلك، أو مَـن أنـتَ سـابـقـهُ   سبقَ الجواد، إذا استولَى على الأمَـد[2]

ثم قال: واللات[3] والعزى لكأني أنظر إلى أملاك ذي رعين وذي فايش[4]، وقد مدت لهم قصبان المجد إلى معالي الأحساب، ومناكب الأنساب، في حلية أنت - أبيت اللعن - غرتها، فجئت سابقاً متمهلاً، وجاؤا لم يتم لهم سعي، وجاء زياد فقال النعمان: والله لأنت في وصفك أبلغ إحساناً من إحسان النابغة، فينا في نظم قوافيه، فقال خالد: أيها الملك، واللات ما أبلغ فيك حسناً إلا غمره قدرك استحقاقاً للشرف الباهر، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا، فقال النعمان: النابغة يا غلام! فخرج الحاجب، فقال النابغة: ما وراءك؟ قال: رفع الحجاب وأذن في السيادة والافضال، فدخل فانتصب بين يدي النعمان، وحياه بتحية الملك، ثم قال: أيفاخرك - أبيت اللعن - ابن جفنة وأنت سائس العرب وغرة الحسب؟ واللات، لأمسك أبهى من يومه، ولقذالك

---

(١) خالد بن جعفر: فارس شاعر، قتله الحارث بن ظالم سنة ٣٠ ق. هـ.

(٢) الأمد: الغاية. والبيت للنابغة الذبياني: ديوانه ٢٥.

(٣) اللات والعزى: من أوثان العرب في الجاهلية.

(٤) ذو رعين: من ملوك اليمن، وذو فايش: من ملوك اليمن واسمه يزيد.

أحسن من وجهه، وليسارك أسمح من يمينه، ولعبدك أكثر من قومه، ولنفسك أكبر من جده، وليومك أشرف من دهره، ولوعدك أنجز من رفده، ولهزلك أصوب من جده، ولفترك أبسط من شبره، ولأمك خير من أبيه، ثم أنشأ:

أخلاقُ مَجدك جَلَّتْ مالها حصر ... في البأس والجودِ بَينَ البدْوِ والحضَرِ
مُتَوَّجٌ بالمعالي فوقَ مَفْرَقِهِ ... وفي الوغى ضَيغمٌ في صُورَةِ القَمَرِ[1]

قال: فتهلل وجه النعمان بالسرور، وأمر فحشى فمه دراً، وقال: لمثل هذا ترتاح القلوب وبمثله تمدح الملوك، ثم قال الخليل: أفيحسن زهير أن يقول مثل هذا؟ فقال يونس للعباس: إني لأعجب مما حدث عن قصة النابغة وشعره قوله:

وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

أجود شيء قيل في الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدمين ومن شعر المحدثين قول أبي العتاهية[2] يمدح الرشيد وولده:

بَنو المصطفى هارون حول سريره ... فخير قيام حَوْله وقُعُودِ
يُقلِّبُ ألحاظَ المهَابة بَيْنهم ... عُوينُ ظِباءٍ في قلوب أُسُودِ

وأخذه مسلم بن الوليد[3] فقال:

كأن في سرجه بدراً وضرغاما

وقلت:

فتى على نفسه من نفسه رَصدُ ... يَصدّه ان نطق الشين والذاما[4]
ما زالَ يَغْنَم مالاً ثم يغرمُه ... ما زال للمال غَنّاماً وغَرّاما
أغر أروع يحكي الغيثَ مكْرمُه ... والنجمَ مَنزلة، والطودَ أحلاما[5]
تجله حين يبدو أن تقول له ... كأن في سَرجه بدراً وضِرغاما

وقد تداول الناس معنى قوله:

كأنك كالليل الذي هو مدركي

فقال الفرزدق:[6]

---

(١) الضيغم: الأسد. والبيتان في ديوان النابغة. ٦٦.

(٢) هو اسماعيل بن القاسم وغلب عليه اللقب «ابو العتاهية لعتوه وهو من الشعراء المطبوعين. والبيتان ليسا في ديوانه. مات سنة: ٢١١ هـ.

(٣)لقبه صريع الغواني، وهو شاعر محسن مفوّه مدّاح مات سنة: ٢٠٨ هـ.

(٤) الذام: العيب.

(٥) الطود: الجبل.

(٦) هو همّام بن غالب بن صعصعة من بني دارم وهو احد اهم ثلاثة شعراء في العصر الأموي، له مع رفيقيه نقائص وهما جرير والأخطل مات سنة: ١١٠ هـ. والبيت في ديوانه: ٢٢٢. وفيه «كشيء ادركته».

ولـو حـملتني الـريـحُ ثـم طلبتني ... لـكـنـت كـحـيٍّ أدركـتـه مـقـادره

وهو دون قول النابغة، لأن الليل أعم من الريح، والريح أيضاً يمتنع منه بأشياء، والليل لا يمتنع منه بشيء.

وأخذ الأخطل[1] قول الفرزدق فقال[2]:

فـأنت كـالـدهـر مبثـوثـاً حَبـائـله ... والـدهـرُ لا مـلكـأ مـنـه ولا هَـرَب
ولـو ملكتُ عِنانَ الـريـح أصـرِفُـه ... في كـل نـاحيـة مـا فـاتـكَ الـطلبُ

وأخذ مسلم البيت الأول من الأخطل فقال:

وإنّ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ وفِـعـلَه ... لكـالـدَّهـرِ لا عـار بمـا فعـل الـدهـرُ

وهو أيضاً مأخوذ من قول النابغة؛ وأخذه أبو تمام فقال[3]:

خشَعـوا لصـوْتـك التي هي عنـدهم ... كـالـمـوتِ يـأتـي لـيس فِـيـه عـار
فـالـقـول همسٌ، والـنِـداءُ إشـارةٌ، ... خَـوفَ انتقـامِـك، والحـديثُ سـرارُ[4]

وأخذه علي بن جبلة[5] فقال:

ومـا لامـرىء حـاولتـه منـك مَهـرَبٌ ... ولـو رَفَعتُـه فـي السـمـاء المـطالـعُ
يلي هـارب لا يـهتـدي لـمكـانـه ... ظـلامٌ ولا ضَـوْء من الصبـحِ لامِـعُ

وقال البحتري[6]:

ولـو أنـهم ركبُـوا الكـواكـبَ لم يَكُـنْ ... لِمُجِـدِّهِـمْ مِنْ أخـذ بـأسِـكَ مـهـرَبُ

وقلت في قريب منه:

ويـدنـو لـه الـمـطلوبُ حتى كـأنمـا ... يـواكب ضوء الصبـح في كـل مـطلَبِ

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول أبي الطمحان[7]:

أضـاءَتْ لـهم أحسـابُهم وَوجُـوهُـهـم ... دُجَى الليـل حتى نَـظَّمَ الجـزعَ ثـاقبـة
نـجـومُ سـمـاء كـلمـا انـقضّ كـوكـبٌ ... بـدا كـوكـب تـأوي إلـيـه كـواكـبـه

---

(١) هو غياث بن غوث التغلبي، ابو مالك كان شاعراً مداحاً لبني امية، معاصراً لجرير والفرزدق، مات سنة ٩٠ هـ.
(٢) البيتان ليسا في الديوان.
(٣) البيتان في ديوانه: ١٢٩.
(٤) في الديوان: «فالمشي همسٌ».
(٥) هو الشاعر الفحل المعروف بالعكوّك وكان حسن الأنشاد وقد ولد أعمى. قتله المأمون لكفره وقيل عفا عنه مات سنة ٢١٣ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٠/١٩٢)
(٦) البحتري هو شاعر الوقت ابو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي الطائي وكان مدّاحاً وخصوصاً للمتوكل العباسي. مات سنة ٢٨٤ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٣/٤٨٦).
(٧) هو حنظلة بن الشرقي، شاعر جاهلي فاسق. له اخبار في الأغاني والبيت الأول في الأغاني ١٣/٩.

وما زال منهم حيث كان مسودُ تسيرُ المنايا حيثُ سارتْ كتائبه

ومثله قول الحطيئة[1]:

نمشي على قول أحسابٍ أضأنَ لنا كما أضاءت نجوم الليل للساري

ومثله قول الآخر:

وجُوهٌ لَوَ أنّ المُدْلجين اعْتشوا بها صَدَعنَ الدُّجَى حتى يُرى الليلُ ينجلي

وقال بعض الأعراب في رجل: ما دفعته في سواد إلا محاه، ولا قابلت به ملماً إلّا كفاه.

ومثل قوله:

صد عن الدجى

قول بعض المحدثين:

ومِصباحُنا قَمرٌ زَاهِرٌ كقوسِ لُجَينٍ يَشقُّ الدُّجَى

وقلت:

وانْشقَّ ثوبُ الظَلامِ عن قمر يَضْحكُ في أوجه الدُّجُناتِ
كأنما النجم حين قابله قبيعة في نصاب مرآة

وقلت:

بليل كما ترنو الغزالةُ أسودٍ على أنه مِنْ نُورِ وَجْهكَ أبيضُ
كواكبه زهر وصُفْر كأنها قبائع منها مُذَهبٌ ومُفَضضُ

وقلت:

وذي غنجٍ يأوي إلى فرعه الدُّجى ولكنها عن وَجْههِ تتفرج
ففيه ظَلامٌ بالصباح مُقنعٌ وفيه ظَلامٌ بالصباحِ مُتوَّجُ

وقول أبي الطمحان مولى ابن أبي السمط:

فتى لا يُبالي المدْلجونَ بنوره إلى بابه ألَّا تضيء الكواكبُ
له حاجبٌ عن كل أمر يَشينُهُ وليس له عن طالبِ العُرفِ حاجبُ

وقول آخر:

من البيض الوُجوه بني سنانٍ لَو أنكَ تستضيءُ بهم أضاؤوا

وقول الآخر:

غلامٌ رماه الله بالحسن يافعا له سيماء لا تشقُّ على البصرِ
كأن الثريا عُلقت في جبينه وفي أنفه الشعرى وفي وجهه القمر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه تردَّى بثوب واسع الذَّيل واتزر

---

(١) هو الشاعر الجاهلي ثم الاسلامي: جرول بن أوس وكان هجاءً مقذعاً. له اخبار في الأغاني وشعر ٢/١٥٧.
والبيت في الديوان: ١٩٠ وفيه:
نمشي إلى ضوءِ أحساب اضأن لنا ما صوّأت ليلةُ القمراء للساري

إذا قيلت العوْراءُ غض كأنه ... ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانتصر

وقول آخر(١):

إختر فِناءَ بني عَمْرو فإنهمُ ... أولُو فضولٍ وأقدار وأخطارِ(٢)

إن يُسألوا الخير يُعطُوهُ وإن جهدوا ... فالجهد يخرج منهم طيبَ أخبار

وإن تودَّدتهم لانوا، وإن شتموا ... كَشَفْتَ أذمارَ سرٍّ غير أسرار(٣)

هَينون لَيْنون أيسْارٌ ذوو يُسرِ ... أربابُ مَكرُمة أبناء إيسارِ(٤)

من تلقَ منهم تقلْ: لاقيتُ سيدَهم، ... مثلَ النجوم التي يُهدَى بها الساري(٥)

وهذا عندي أمدح شيء قيل في وصف جماعة.

وأنشدنا أبو أحمد لعيسى بن أوس(٦) في الجنيد بن عبد الرحمٰن(٧):

إلى مُستنير الوجهِ طالَ بسؤود ... تقاصرَ عنه الشاهِقُ المتطاوِلُ

مَدَحْتكَ بالحق الذي أنتَ أهله ... ومن مِدَحِ الأقوامِ حقٌ وباطلُ

يعيشُ النَّدى ما دمتَ حياً فإن تَمُتْ ... فليس لحيٍّ بعد موتك طائلُ

وما لامرىء عندي مُخيلَة نِعمة ... سِواكَ وقد جادَت عليَّ مخايلُ

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى(٨):

فتىً لو ينادي الشمسَ ألقت قِناعَها ... أو القمرَ الساري لألقى المقالِدا

وهذا وقول أبي الطمحان من الغلو، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك، ولو كان مذموماً، لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت العرب، وهما من الغلو على ما هما عليه، ومثل هذا الغلو قول طريح بن إسماعيل(٩):

---

(١) روى الجاحظ هذه الأبيات في كتاب الحيوان: ٢/٨٩ وفي ٣/٩٤ ونسبها إلى «بعض غِنى وهو يمدح جماعة إخوة» ورواها المبرِّد في الكامل ص ٤٧ وقال: «وأنشدني عبد الوهاب بن جنبة الغنوي لعُبيد بن العرندس الكلابي يصف قوماً نزل بهم. وفي الأمالي إلى العرندس الكلابي يمدح بني عمرو الغنويين.

(٢) في الحيوان: ٣/٩٤: «حبِّر ثناء بني» و «أنفال وأخطار». والأنفال: العطايا.

(٣) في الحيوان: ٣/٩٥: «وإن شهموا» و «أذمار حرب». أذمار: ما يُحفَظ، مفرده: ذِمار.

(٤) في الحيوان: ٢/٩٢: «سوّاس مكرمة».

(٥) في الحيوان: ٣/٩٥: «يسري بها».

(٦) هو ابو الجويرية العبدي من نزار، شاعر محسن، استقر في العراق مات سنة ١٢٠ هـ. (الأعلام: ٥/١٠١).

(٧) (المرّي هو امير خراسان من الأجواد الممدحين، مات في خراسان سنة ١١٥ هـ. شذرات الذهب: ١/١٥١.

(٨) الأعشى: أبو بصير، ميمون بن قيس بن جندل من قيس، وكان أعمى، قيل: أدرك الاسلام ولم يسلم، وهو شاعر متقدم. له اخبار وترجمه وشعر في الأغاني: ١٢/٣. مات سنة ٧ هـ. (الأعلام: ٧/٢٤١) والبيت في ديوانه: ٦٥.

(٩) طريح: هو ابن عبيد بن اسيد الثقفي، أبو الصلت، شاعر الوليد ابن يزيد الأموي، وأكثر شعره في مدحه. مات سنة ١٦٥ هـ (الأعلام: ٣/٢٢٦)

أنتَ ابنُ مُسلَنْطح البطاحِ ولم يضرب عليك الحنّي والولج(1)
لو قلت للسيل دع طريقك والموج عليه كالهضب يعتلج
لارتدَّ أوساخَ أو لكانَ له في جانبِ الأرضِ عنك مُنعَرج

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لا ترد وجهته هيبة ولا مخافة، والعرب تقول أجرأ من السيل فيهمز ولا يهمز، والهمز من الجراءة وترك الهمز من الجري، ويقال في المثل: «لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل»(2)، وليس هذا الشعر بمختار الرصف واللفظ، وإنما جئت به لمكان غلوه.

ومن الغلو المشهور المستفيض الذي قبله الناس واستحسنوه ورووه بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم(3):

بِيُمنِ أبي إسحاق طالتْ يدُ العلا وقامتْ قَناةُ الدِّينِ واشتدَّ كاهلُه(4)
هوَ البحرُ مِن أيِّ النواحِي أتَيته فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ
تعوَّدَ بَسطَ الكفِّ حتى لو أنه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أنامِله
ولو لم يكنْ في كفهِ غيرُ نفسه لجادَ بها، فليتق الله سائِله

وقلت في قريب منه:

وكيف يبيتُ الجارُ منك على صدى وكفُّكَ بَحرٌ لُجةُ البحرِ ساحلهْ

أخبرنا أبو أحمد قال: سمعت أبا بكر - يعني ابن دريد(5) - يحكى عن أبي حاتم قال: قال الأصمعي سمعت أعرابياً يقول: انكم معاشر أهل الحضر لتخطئون المعنى، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول: كأنها الشمس، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ ثم قال: لانشدك شعراً يكون لك إماما، ثم أنشدني:

إذا سَألتَ الوَرَى عن كل مَكرمةٍ لم تلفِ نسبتَها إلاّ إلى الهَوْل
فتىً جَواداً أعاد النيل نائله فالنِّيلُ يشكرُ منه كثرة النيل

وليس هذا الشعر مختاراً عندي:

والموتُ يَرهبُ أن يَلقَى مَنيتهُ في شِدَّةٍ عند لفِّ الخَيل بالخيلِ
لو عارض الشمسَ أبقى الشمسَ مُظلمةً أو زاحم الصم ألجاها إلى الميل
أو بارز الليلَ غطَّته قوادِمُه دونَ القَوافي كمثل الليلِ بالليلِ
أمضَى من النَّجمِ إن نابتهُ نائبةٌ وعندَ أعدائِه أجرى من السيل

---

(1) اسلَنطَح: وقع على وجهه. والمسلَنطِح: الفضاء الواسع.
الوُلَج: النواحي والأزقة. والحِني: موضع.
(2) جمهرة الأمثال: ١/٢٦٧.
(3) المعتصم العباسي: الخليفة ابو اسحاق، كان شجاعاً هماماً. مات سنة ٢٢٨ هـ.
(4) ديوان ابي تمام: ٢٠٥.
(5) ابن دُريد، الأديب اللغوي البصري، صاحب التصانيف وهو شاعر العلماء وعالم الشعراء. مات سنة ٣٢١ هـ. واسمه محمد بن الحسن، أبو بكر.

ومن الجيد في هذا المعنى قول الآخر:

عَلَّم الغيثَ النَدَى حتى إذا ... ما حَكَاه عَلمَ البأسَ الأسدْ

فلهُ الغيثُ مُقِرٌ بالندى ... وله الليث مُقِرٌ بالجلَد

وقد أنكر عبد الملك ما أنكره الأعرابي من تشبيه الممدوح بالأسد والصخر والبحر، فأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الأول بن مزيد ـ أحد بني أنف الناقة ـ عن ابن عائشة عن أبيه قال: قال عبد الملك يوماً وقد اجتمع الشعراء عنده: تشبهوننا بالأسد، الأسد أنجز، وبالبحر والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعر، ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم[1] بن فاتك في بني هاشم:

نَهاركمُ مكابدةٌ وصومٌ ... وليلكُمُ صلاةٌ واقتراءُ

أأجعلكم وأقواماً سواءً ... وبينكمُ وبينهمُ الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأعينهم وأرؤسهم سماء

وهذا من قول أمية بن أبي الصَّلت[2] وهو أول من أتى به قوله في عبد الله بن جدعان:

أأذكرُ حاجَتِي أمْ قد كفاني ... حياؤكَ، وإن شِيمتَكَ الحياءُ

كريم لا يُغيره صباحٌ ... عن الخُلقِ الكريم ولا المساءُ

وأرضُك أرضُ مَكرمةٍ بنتها ... بَنو تَيْم، وأنتَ لهم سَماء

ونحوه قوله:

لِكلِّ قَبيلةٍ شرفٌ وعزٌّ ... وأنتَ الرأسُ يَقدُمُ كلَّ هادي

وتصرَّف فيه المحدثون فقال ابن الرومي[3]:

قومٌ يَحُلونَ من مَجد ومن شَرفٍ ... ومن غَناء مَحلَّ البيضِ واليلبِ[4]

حَلوا مَحلَّهما من كل جُمجمةٍ ... نفعاً ورفعاً وإطلالاً على الرتبِ

قومُ همُ الرأس إذ حسادهم ذنب ... ومن يُمثِّلُ بَينَ الرأس والذَّنبِ؟

ومنه قول الحطيئة[5]:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ وغيرُهمُ ... ومنْ يُسوِّي بأنفِ الناقةِ الذَّنبا[6]

---

(١) شاعر من بني أسد، كان له مكانة عند عبد العزيز بن مروان بمصر، ثم تحوّل عنه إلى أخيه بشر بن مروان بالعراق، شارك في الغزو، ومات سنة ٨٠ هـ. (الأعلام: ٢/٣٥)

(٢) هو أمية بن ابي الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف، قرأ الكتب المتقدمة ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يبعث. قال عنه النبي ﷺ: «آمن لسانه وكفر قلبه». الأغاني ٤/١٢٠ مات سنة ٥ هـ.

(٣) ابن الرومي هو علي بن العباس، ابو الحسن شاعر زمانه، مات سنة ٢٨٣ هـ.

(٤) البيت وما يليه في ديوان ابن الرومي: ١/١٩٠. اليلَب: السلاح.

(٥) ديوان الحطيئة: ١٧.

(٦) أنف الناقة: بغيض وأهل بيته. وكانوا يعيّرون به في الجاهلية، فلما قال الحطيئة هذا البيت صار مدحاً لهم. الأذناب: الزبرقان وأهل بيته.

وقال غيره:

النـاسُ أرضٌ بكـل أرضٍ ... وأنـتَ من فـوقـهـم سَمـاءُ

وقلت:

أبشـر فإنـك رأسٌ، العُـلا جسـدٌ ... والمجدُ وجهٌ، وأنتَ السمعُ والبصرُ

لـولاكَ لم صح لـلأيـامِ مَنقَبـةٌ ... تَسمـو إليهـا ولا للدَّهـر مُفتخـرُ

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بإسناد ذكره عن الهيثم بن عدي قال: دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين! قد امتدحتك فاستمع مني! فقال: إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك، وإن كنت قلت: كما قالت أخت بني الشريد[1] لأخيها صخر، فهات. فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين؟ قال: هي التي تقول[2]:

فمـا بَلغتْ كفُّ امـرىءٍ متنـاولٍ ... بهـا المجدَ إلّا حيثُ مـا نلتَ أطولُ

ولا بَلغَ المهـدونَ في القولِ مِـدحةً ... ولـو أطنبـوا إلّا الـذي فِيـكَ أفضـلُ

فقال الأخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها، قال: هات فأنشد:

إذا مُتَّ مـات العـرفُ وانقـطعَ النَّـدَى ... من النـاسِ إلا في قَليـلٍ مُصـرَّدِ[3]

ورُدَّتْ أكـفُّ السـائليـنَ وأمسكـوا ... من الـدينِ والـدنيـا بخـلْف محـرد

وليس يحسن عندي أن يقال للممدوح: إذا مت، فإن استماع ذلك مكروه، وإن كانت الشعراء قد استعملته في كثير من مقاماتها، أنشدنا أبو أحمد عن ابن دريد:

إذا مُتَّ لم تـوصَـلْ بِعـرْفٍ قَـرابـةٌ ... ولم يَبقَ في الـدنيـا رَجـاءٌ لِنـائِـلِ

وهو من قول النابغة:

فـإن يَـهلكْ أبـو قـابـوسَ يـهلكْ ... ربيـعُ الناس، والشهـرُ الحرام[4]

ويُـمسَـك بَعـدَه بـذَنـاب عَيشٍ ... أجـبَّ الـظهـرِ ليس لـه سَـنـامُ

وهذا أجود من الأول، لأنه لم يخاطب به الممدوح، ولو قيل: لولا فلان لكان كذا وكذا لكان كما قال عليّ بن جبلة:

لـولا أبُـو دُلَف لم تحيى عـارِفـةٌ ... ولـم يـنـؤنـؤ مـأمـول بـآمـالِ

يـا بن الأكارِمِ من عَـدنانَ قـد عَلموا ... وتـالـدُ المجـدِ بين العمِّ والخـال

---

(١) هي الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد قالت الشعر زمن النابغة في الجاهلية اشتهرت برثاء أخويها صخر ومعاوية، أسلمت. ماتت سنة ٢٤ هـ. (الأعلام ٢/٨٦)

(٢) ديوانها: ١٠٧.

(٣) مصرّد: قليل.

(٤) البيت في ديوان النابغة: ٢١٤. وأبو قابوس: كنية النعمان، وهو أيضاً ربيع الناس. الشهر الحرام: كناية عن الأمن.

وناقلُ الناسِ من عُدْمٍ إلى جِدةٍ ... وصارفُ الدهرِ من حالٍ إلى حال[1]
أنتَ الذي تُنزِلُ الأيامَ مَنزِلَها ... وتُمسك الأرضَ عن خَسفٍ وزلزال
وما مَدَدتَ مَدَى طرفٍ إلى أحد ... إلّا قضيتَ بآجالٍ وآمالِ[2]
تزور سخطاً، فتمسي البيضُ راضية ... وتَستَهلُّ، فتبكي أوُجهُ المالِ

وأخبرنا أبو أحمد في كتاب الورقة عن ابن دواد قال: قال أبو هفان: اجتمع الشعراء بباب المعتصم، فقعد لهم محمد بن عبد الملك الزيات[3]، فقال: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: من كان يحسن أن يقول مثل قول النمري[4] في الرشيد:

خليفةُ الله إنَّ الجودَ أوْدِيةٌ ... أَحلكَ الله منها حيثُ تجتمعُ[5]
إن أخلف القَطرُ لم تُخلفْ مخايله ... أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فَيتَّسِعِ[6]

فقال ابن وهب[7]: فينا من يقول مثله:

ثَلاثةٌ تشرقُ الدُّنيا بِبَهجتِها ... شَمسُ الضحَى وأبو إسحاقَ والقمرُ
تحكِي أفاعيلهُ في كلِّ نائبةٍ ... الغيث والليث والصَّمصامَة الذكر[8]

قال فأجازه وفضل ابن وهب.

ولبعض الشعراء في المهلب.

أمْسَى العراقُ سليباً لا أنِيسَ لهُ ... إلّا المهلَّبُ بَعدَ الله والمطرُ
هذا يَجودُ ويَحمِي عن ذِمارِهم ... وذا تعيشُ به الأنْعامُ والشجرُ

ومنه أخذ ابن وهب.

وقلت في معناه:

لمَ تَزلْ للورَى ثَلاثُ شُموسٍ ... وَجهُكَ المستضيءُ والقَمرَانِ

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول زهير[9]:

---

(١) البيت في الأغاني: ٢٠/٤٢. وفيه و «تنقل الدهر».

(٢) البيت في الأغاني: ٢٠/٤٢. وفيه «بأرزاق وآجال».

(٣) ابن الزيات: محمد بن عبد الملك بن أبان، أبو جعفر، وزير المعتصم والواثق العباسيين، عالم باللغة والأدب مات سنة ١٧٣ هـ. (الأعلام ٦/٣٤٨).

(٤) النَّمري: منصور بن الزبرقان، ابو القاسم من بني النمر بن قاسط شاعر عباسي مدح هارون الرشيد. له اخبار في الأغاني. والأبيات في الأغاني ١٣/١٤٧. مات سنة ١٩٠ هـ.

(٥) البيت في الأغاني:
إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تتسعُ

(٦) البيت في الأغاني: ١٣/١٤٨. وفيه «أخلف الغيث». ومَخايل: سُحُب.

(٧) هو الحسن بن وهب بن سعيد؛ كاتب شاعر مترسل اصله من واسط اخباره في الأغاني: ٢٣/٩٥.

(٨) الصمصامة: السيف لا ينثني.

(٩) ديوانه: ٦٨.

تَــراه إذا مــا جِئْتَــهُ مُــتــهــلِّلا كــأنــك تُـعـطِـيــهِ الــذِي أنتَ ســائِلُهْ

وعاب بعضهم هذا البيت، فقال: جعل الممدوح فرحاً بعرَض يناله وليس هذا شأن الكبير الهمة، والجيد قول أبي نوْفل عمرو بن محمد الثقفي(١):

ولَئـنْ فـرِحْتَ بـمـا يُنيـلُكَ إنــه بـمـا يُنـيـلُكَ مــن نَـداهُ أفـرَحُ
مــا زَالَ يُعـطِي نــاطِقاً أو ســاكتاً حتى ظَننتُ أبــا عقيــل يَمـزَحُ

فجعله يفرح بما ينيل. ومثله قول(٢) أبي تمام:

أســائِــلَ نَـصـرٍ لا تَـسـلْهُ فـإنــهُ أحنُّ إلى الإرفادِ منكَ إلى الـرِّفْدِ

وقال بعض الأعراب: ما زال فلان يعطيني حتى حسبت أنه يودعني، ونحو ذلك أن الحجاج قال لإياس بن معاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: من أعطاني. قال: ثم من؟ قال: من أعطيته.

وقال أبو السمح الطائي في خلاف ما قال زهير:

فتىً لا يـرى سـوقَ المهـورِ غـرابـةً ولا غـالياتِ المـالِ حَلياً على نحْـرِ
فتى كـان مِكـرامـاً لِنفسٍ كـريمـةٍ مُهيناً لـدنيـا غيرِ مـأمـونـةِ الغـدْرِ

وعندي أن بيت زهير أجود ما قيل من الشعر القديم، وممن أبدع في ذلك البحتري في قوله(٣):

ســلامٌ وإن كــانَ الســلامُ تحيّــةً فَـوجْهُـكَ دُونَ الـرَّدِ يكفي المُسلِّمـا

ومن الجيد في ذلك قول ابن الرومي(٤):

كــأنَّمــا الـقــطرُ مِنْ نـدى يَـدهِ والبـرْقُ مِنْ بِشـرهِ ومِنْ ضَحكهْ

وقول أبي الأسد(٥):

وَلائـمــةٍ لاَمتــك يــا فَـيْضُ في الـنـدَى فَقلتُ لهــا لن يَـقـدَحَ اللومُ فـي البحـرِ
أرادتْ لتثـني الـفيضَ عـن عَــادة النـدَى وَمن ذا الذي يثني السحابَ عن القطرِ؟(٦)
إذا مــا أتــاهُ الســائِـلونَ تَـوَّقـدَتْ عَـليـهِ مَصـابيـحُ الـطلاقَـةِ والـبشـرِ
لــه في بنـي الحـاجـات أيـد كــأنَّـهـا مــواقِـعُ مـاءِ المـزْنِ في البلدِ القفـرِ(٧)

---

(١) من موالي ثقيف، شاعر عالم بالغناء كان خصيصاً بالمتوكل العباسي، توفي سنة ٢٧٨ هـ. اخباره في الأغاني ١٥/ ٢٦٩.

(٢) ديوانه: ١٠٢.

(٣) ديوانه: ١/ ٨٤ ص.

(٤) ديوانه: ٥/ ١٨.

(٥) ابو الأسد: نباته بن عبد الله الحِمّاني التميمي، شاعر من اهل الدينور. اتصل بوزير المهدي العباسي، الفيض بن ابي صالح. مات سنة ٢٢٠ هـ. (الأعلام: ٨/ ٧). اخباره والأبيات في الأغاني: ١٤/ ١٣٤.

(٦) في الأغاني: «ارادت لتنهى».

(٧) في الأغاني صدر البيت: «مواقع جود الفيض في كل بلدة».

وقريب منه قول أبي تمام[1]:

عَهــدي بِهِمْ تَستنيــرُ الأرضُ إن نــزلــوا فيهــا وتجتمــع الــدنيــا إذا اجتمعــوا
ويَضحــكُ الــدَّهــرُ منهم عن غَـطارفـةٍ كــأنَّ أيــامهــمْ مــن أنسهــا جُمــعُ[2]

وقلت:

إذا عبس الــزمــان فمــل إليــه تجده البشر في وجه الزمــانِ

وقلت:

كـأنـك في خــدِّ الـزمـان تـورد وفي فمه ضحكٌ وفي وجهه بشرُ
فمنْ يـكُ ممدوحاً بنظم يصوغُه فـإنك ممـدوحٌ بك النـظمُ والنثرُ

وقال البحتري[3]:

وتَــواضُــعٌ لــولا التكــرُّمُ عــاقــةُ عنــه علوٌّ لـم يَـنلهُ الـفـرقـدُ[4]
وفُـتـوةٌ جمـعَ الـتقـى أطـرافَـهـا ونــدى أحــاطَ بجــانبيــه السؤددُ[5]
وشبيبــةٌ فيهــا النُّهى فــإذا بــدتْ لــذوي التــوسمِ فهي شيبٌ أســودُ
طـلقُ الـيـديـن إذا تـفـرقَ مـالُـه جمـع العــلا فيمـا يفيـد وينفـذُ
جــذلانُ يــطربُ للسؤالِ كـأنـمـا غنـاه مـالـكُ طيءٍ أو مـعـبـدُ

وقال ابن الرومي[6]:

أغــرُّ أبـلجُ يكســو نفسَـه حُـللاً من المحـامِـد لا تبلَى على الحقبِ
تلقاه من نهضه للمجدِ في صمدٍ ومـن تـواضعـه لـلحقِّ فـي صببِ
كـأنــه وهــو مسـؤولٌ ومـمـتـدَحٌ غنـاه إسحـاقُ والأوتـارُ في صَخَبِ
يهتـزُّ عـطفاه عنـد الحمـدِ يسمعهُ من هـزةِ المجدِ لا من هـزةِ الطربِ

وهذا المصراع من قول أبي تمام[7]:

مــوكــلٌ بــيـفــاع الأرض يــشــرفــه من خفةِ الخوفِ لا من خِفةِ الـطرَبِ[8]

وقلت:

وقـد يؤنسُ الـزوارَ منـك إذا التقـوا سـخـاء عـليـه لـلطَّلاقـة شـاهِـدُ

---

(١) ديوانه: ٣٣١. وفي البيت الأول: «بها وتجتمع».
(٢) غطارقة: جمع غِطريق: سيد شريف.
(٣) ديوانه: ٢/ ٢٧٧ عـ .
(٤) الفرقدان: نجمان.
(٥) في الأصل: «ويدي احاطهما بماء السؤدد».
(٦) ديوانه: ١/ ١٩٢.
(٧) ديوانه: ١٧.
(٨) في الديوان «موكلاً بيفاع». واليفاع: ما ارتفع من الأرض.

وقلت: [أخذ] زهير قول بعضهم فقال[1]:

تـراه إذا مـا جئتـه متـعـتـبـاً كـأنك بـالمِنْقاش تَنتفُ شـارِبَهْ[2]

وقد أحسن جحظة في هذا المعنى أنشدناه أبو أحمد عنه[3]:

قـومٌ أحـاوِل نَـيلَهـم فكـأنـني حـاولتُ نَتفَ الشَّعـر من آنـافِهِمْ
قُمْ فـاسقنيهـا بـالكبيـر وغَنّني ذَهبَ الـذين يُعـاشُ في أكتـافهم

وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول جرير[4]:

أَلَسْتم خيـرَ مَن رَكبَ المـطايـا وأنـدَى العـالمينَ بُـطون راحِ[5]

وليس هذا الاستفهام للشك وفي القرآن الشريف:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[6].
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[7].
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[8].

وسئل بعض العرب عن أشعر الناس؟ فقال[9] جرير وذلك أن بيوت الشعر أربعة: المديح والهجاء والافتخار والغزل وفي كلها سبق جرير:

قال في المديح:

ألـستم خيـرَ مـن ركـب الـمـطايـا وأنـدى الـعـالـمـيـن بـطون راحِ

وقال[10] في الهجاء:

فَغضَّ الـطَّرْفَ إنـك مـن نُـمَيـرٍ فـلا كـعبـاً بَـلغتَ ولا كِـلابـا

وقال[11] في الافتخار:

إذا غَـضبَتْ عَـليـكَ بَنـو تَـميـم حَـسبتَ النـاسَ كـلُّهمُ غِـضـابـا

---

(١) البيت ليس في ديوانه.
(٢) المنقاش: ما تقتلع به الشعر وغيره.
(٣) جحظة: ابو الحسن احمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحي بن خالد البرمكي، البغدادي الشاعر، كان ذا نوادر وله علم في التنجيم ولعب النرد والغناء. مات سنة ٣٢٦ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٥/٢٢١).
(٤) جرير: شاعر زمانه، ابو حرزة جرير بن عطية الحظفي، مدح خلفاء بني أمية، وكان عفيفاً منيباً. توفي سنة ١١٠ هـ. (سير اعلام النبلاء: ٤/٥٩٠).
(٥) البيت في ديوانه: ٧٧. وهو في مدح بني أمية.
(٦) سورة الزمر: آية ٣٧.
(٧) سورة التين: آية ٨.
(٨) سورة الزمر: آية ٣٦.
(٩) الخبر في الأغاني: ٨/٤١.
(١٠) ديوانه: ٦٣.
(١١) ديوانه: ٦٤.

وقال[1] في الغزل:

إنَّ العيونَ التي في طَرْفها حَورٌ ... قَتلْننا ثمَّ لم يُحيينَ قَتلانا
يَصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به ... وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

وقال التنوخي[2] في هذا المعنى:

فكلّما ازدادت قوَى أجْفانِها ... ضَعْفاً تَقوَّينَ على ضَعفِ القوَى

وأمثال هذا كثيرة نوردها فيما بعد، ونقضَ بعضُهم قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم

فقال:

لقد غَضبتْ عليك بنو تميم ... فما نكأتْ بغضبتها ذُبابا

وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول حسان[3]:

يغشون حتى ما تهر كلابُهم ... لا يسألونَ عن السَّواد المقبلِ[4]

يقول: قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تنبحهم، وهم من شجاعتهم لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكتراثهم بهم؛ ولثقتهم ببسالة أنفسهم وشدتهم على أعدائهم. ومثله ما أنشد أبو تمام:

إذا استنجدوا لم يَسألوا من دَعاهُم ... لأيَّةِ حَربٍ أو لأيِّ مكانِ

وقال ابن هرمة[5] في أثر الكلب بالضيف:

ومُستَنبح تَستكشطُ الريحُ ثَوْبه ... ليسقطَ عنه وهو بالثوب معصمُ[6]
عوَى في سوادِ الليلِ بعدَ اعتسافِه ... لينبحَ كلبٌ أو ليفزع نُوَّمُ
فجاوبه مستسمع الصوت لِلقرَى ... له عند إتيانِ المهبين مطعمُ
يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبِلا ... يكلّمهُ من حُبهِ وهو أعجمُ

وقال عِمران بن عِصام[7]، ويروى لنصيب:

---

(١) ديوانه: ٤٩٢.

(٢) التنوخي: القاضي العلّامة، ابو القاسم علي بن محمد، كان معتزلياً مناظراً منجماً، شاعراً اديباً ولي قضاء الأهواز، له تصانيف. مات سنة ٣٤٢ هـ. (سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٩٩).

(٣) حسان بن ثابت الأنصاري؛ شاعر الرسول ﷺ، وهو من المخضرمين مات سنة ٥٤ هـ.

(٤) ديوانه: ٣٦٥.

(٥) ابن هرمة هو ابراهيم بن علي بن سلمة بن هرمه بن هذيل، وكان مولعاً بالشراب، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية؛ مدح الأمويين ثم العباسيين ثم انقطع إلى الطالبيين. الأعلام: ١/٥٠، والأغاني: ٤/٣٦٧. والأبيات في خزانة الأدب: ٤/٥٨٤. والبيت الأخير في الشعر والشعراء: ٢/٦٤٠.

(٦) تستكشط: ترفع الشيء عن الشيء.

(٧) عمران بن عِصام العنزي: خطيب شاعر، شجاع، اشتهر أيام عبد الملك بن مروان. قتله الحجاج سنة ٨٥ هـ. (الأعلام: ٥/٧١). ونسب صاحب الأغاني الأبيات إلى نصيب: ١/٣٣٣.

لعبد العزيز على قَوْمِه | وغيرهم مِنَنٌ غامرهْ
فبابُك ألينُ أبوابِهم | ودارُك مأهولةٌ عامره
وكلبُك آنَسُ بالمعتفينَ | من الأمِّ بابنتِها الزائره
وكفُّكَ حينَ ترى السائلين | أندَى من الليلة الماطرة
فمنكَ العَطاء ومنا الثناء | لكل مُخَبِّرة سائره

وقال[1] الحطيئة في خلاف ذلك:

مَلوا قِراه، وهرَّتْه كلابُهمُ | وضرَّسُوه بأنيابٍ وأضراسِ[2]

وقال بشار[3] في قريب من المعنى الأول:

سقى اللّهُ القبابَ وتَل عيدي | وبالشَّرفينِ أيامَ القبابِ[4]
وأيام لنا قَصُرَتْ وطالتْ | على فرعانَ نائمة الكلابِ[5]

وقال آخر:

ومايكُ فيَّ من عيب فإني | جبان الكلبِ مهزولُ الفَصيلِ

معناه أن الكلب يضرب إذ نبح الضيف، فهو جبان ويؤثر الضيف باللبن، والفصيل مهزول.

وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الجعدي[6]:

فتى تمَّ فيه ما يسرُّ صديقَه | على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا

وهذا غاية المدح، لأن الرجل إذ قدر على النفع والضر فقد كمل، ولهذا قيل في البرامكة:

عندَ الملوكِ مضرةٌ ومنافع | وأرى البرامكَ لا تضرُّ وتنفعُ

لا يعرف أهجاهم أم مدحهم، لأنه إذا نفى عنهم أن يضرُّوا فقد قصرهم، وقد قيل:

إذا أنت لم تنفع فضرَّ فإنما | يُراد الفتى كيما يضرُّ وينفعُ

وقد تداول الناس معنى النابغة فقال بعضهم، وهو من أحسن ما يروى عنه:

متى تهزز بني قطن تجدهم | سيوفاً في عواتقهم سيوفُ
جلوسٌ في مجالسهم رزانٌ | وإن ضيفٌ ألمَّ فهم وقوفُ
إذا نزلوا حسبتهم بدوراً | وإن ركبوا فإنهمُ حتوفُ

---

(١) ديوان الحطيئة: ١٠٨. وفيه: «وجرّحوه بأنيابٍ».
(٢) هرّته كلابهم: ضجروا به.
(٣) هو ابو معاذ البصري الضرير، بلغ شعره ١٣ ألف بيت. مدح الكبراء واتهم بالزندقة. مات سنة ١٦٧ هـ. (سير أعلام النبلاء: ٢٤/٧).
(٤) البيت والذي يليه في ديوان بشار: ١١٠. تل عيدي والشرفان: موضعان.
(٥) نائمة الكلاب: كناية عن غفلة الحراس.
(٦) هو عبد الله بن قيس من جعدة بن كعب، كنيته أبو ليلى، اتى النبي ﷺ وأنشده شعراً، فقال له: «لا يفضض الله فاك» قال: فبقي عمره لم تنقض له سن. مات بأصبهان سنة ٥٠ هـ. الأعلام: ٢٠٧/٥ والأبيات في الشعر والشعراء مع ترجمته: ٢٠٨/١ ـ ٢١٢. واسمه في الأعلام: قيس بن عبدالله.

وقال آخر:

فـذَلـلَ أعنـاق الصعـاب بيـأسـه ... وأعنـاق طلاب النـدَى بـالفـواضـلِ
فمـا انقـبضـت كفـاهُ إلَّا بـصـارم ... ولا انبسـطت كـفـاه إلَّا بنـائـلِ

وقال محمد بن بشر الأزدي:

فتىً وقفَ الأيـامَ بـالـعتب والـرضـا ... على بـذلِ مـال أو على حـدِّ منصـلِ
ومـا إن لـه من نـظرةٍ ليس تحتهـا ... غمـامـةُ غيث أو ضبـابـةُ قسطل

وقال آخر:

فتىً دهـرُه شـطرانِ فيمـا ينـويـه ... ففي بـأسه شطرٌ وفي جـوده شطرُ
فـلا من بغاة الخير في عينه قـذى ... ولا من زئيـر الأسـد في أذنـه وقـرُ

وقد أحسن البحتري في هذا المعنى وهو قوله(١):

هـو العـارضُ الثـجّـاجُ أخضـلَ جـودُهُ ... وطـارتْ حـواشـي بـرقِـه فـتـلّهـبـا
إذا مـا تـلظّى في وغـىً أصْعقَ الـعِـدى ... وإن فـاض في أكـرومَـةٍ غمـر الـرُّبـا
رزيـنٌ إذا مـا الـقـومُ خفـت حـلومُـهـم ... وَقُـورٌ إذا مـا حـادِثُ الـدهـرِ أجْـلبـا
حيـاتُـك أن يلقـاكَ بـالـجـود راضيـاً ... ومـوتُـك أن يلقـاكَ بـالبـأسِ مُغضَبـا
حَـرُونٌ إذا عـازَزتَـه فـي مـلـمَّـة ... فـإن جئتَـه من جـانبِ الـذُّلِّ أصحبـا
إذا هـمَّ لم يـقعـدْ بـه الـعجـزُ مَقعـداً ... وإنْ كفَّ لم يـذهبْ بـه الحـزنُ مَذهبـا

وقال الأسدي(٢) في نفي الخير والشر عن المذكور وهو من أشد الهجاء وأدله على الخمول:

فحسبـكَ في الـقوم أن يعلمـوا ... بـأنـك فـيهـم غـنـيّ مـضـرُ
وأنـت مـليـح كـلحـم الـحـوار ... فـلا أنـتَ حلوٌ ولا أنـت مـر

وقال غيره:

شـيـيـخ مـن بـنـي الـجـارو ... د لا خـيـرٌ ولا شـر

وقال آخر:

ولقـد نـزلت عـلى زيـادٍ مـرةً ... فـظننتـه شيخـاً يضـرُّ وينفـعُ
فـإذا زيـادٌ في الـديـارِ كـأنـهُ ... مشطٌ يـقـلبـهُ خـصـيٌّ أصلعُ

وقد أحسن البحتري في المعنى الأول وهو قوله(٣):

هـو الملكُ الموهـوبُ للبأس والتقى ... فـلله تـقـواهُ ولـلـمجـدِ سـائـرُه(٤)

---

(١) ديوانه: ١/٥٥ ص.

(٢) هو ابن مطير الأسدي، الحسين بن مطير بن مكحل. شاعر متقدم في القصيد والرجز، كان مداحاً. مات سنة ١٦٩ هـ. (الأعلام: ٢/٢٦٠).

(٣) ديوانه: ١/٢٣٨ عـ.

(٤) في الديوان: «الموهوب للدين والعلا».

لـه البـأسُ يُخشى والسمـاحـةُ تُـرتجى فـلا الغيثُ ثـانيـة ولا الليثُ عـاشـره[٤]

كأنه من قول منصور وهو من المعنى الذي نحن فيه:

هـو الملكُ المملوكُ للمجـد والتقى وصـولتـهُ لا يستـطاعُ خـطارُهـا
لقـد نشأتْ للشـامِ منـك سحـابـةٌ يُؤمـلُ جـدواهـا، ويُخشى ذمـارهـا
فـطوبى لأهل الشـامِ أم ويـل أمهـا أتـاهـا حيـاهـا أم أتـاهـا بـوارهـا
فـإن سلمـوا، كـانت غمـامة نعمـةٍ وخيـرٍ، وإلّا فـالـدمـاءُ قـطارهـا
أبـوكَ أبـو الأمـلاك يحيى بن خـالـدٍ أخو الجود والنعمى اللباب صغارهـا
وكـائن تـرى في البـرمكيين من بـه ومن سـابقـات لا يشق غـبـارهـا
طبيبٌ بـأخبـار الأمـور إذ التـوت من الـدهـر أعنـاقٌ فـأنت قصـارهـا

وبعد بيت النابغة الجعدي قوله[٢]:

فـتى كـملتْ أخـلاقـهُ غيـر أنـه جـوادٌ فمـا يبقي من المـالِ بـاقيـا
أشم، طـوال السـاعـدين، شمـردلٌ إذا لم يُـرح للمجد أصبحَ غاديـا[٣]

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا محمد بن علي الأجري ببغداد، حدثنا أبو العيناء قال: قال الأصمعي: أنشدت الرشيد أبيات النابغة الجعدي حتى انتهيت إلى قوله:

أشم، طـوا السـاعـدين، شمـردلٌ إذا لم يـرح للمجـد أصبح غـاديـا

فقال الرشيد: ويله ولم لم يروحه للمجد؟ ألا قال:

إذا راح لـلمـعـروف أصـبـح غـاديـا

فقلت: وأنت، والله، يا أمير المؤمنين أعلم منه بالشعر، وكان الرشيد جيد المعرفة ثاقب الفطنة، قال لأبي نواس[٤]: لم وثب بك أهل مصر؟ قال لقولي:

فـإن يـكُ بـاقي إفـك فـرعـونَ فيكمُ فـإن عـصـا مـوسى بـكفٍّ خـصيـبِ

قال: فوثبوا بي وأرادوا قتلي، وقالوا: جعلت معجزة موسى لخصيب؟ فقال له الرشيد: ألا قلت:

فـإن كـان بـاقي إفـك فـرعـونَ فيكمُ فبـاقي عصـا مـوسى بكفِّ خـصيـبِ

فيكون شعرك أحسن ويكون سالماً من التبعة؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إنك لأشعر مني، وإني لم أفطن لذلك، وأنشده العماني[٥] الراجز في صفة الفرس:

---

(١) في الديوان: «الليث عاشره».
(٢) البيتان في الشعر والشعراء: ١/٢٠٢.
(٣) الشمردل: الفتي السريع من الإبل وغيره، الحسن الخَلقِ.
(٤) هو الحسن بن هانيء، الشاعر المشهور، الماجن، كان له نظر في العلوم العقلية والنجوم. مات سنة ١٩٩ هـ. وكان ممن مدحوا الخليفة العباسي الأمين. (الشعر والشعراء: ٢/٦٨٠). والبيت في ديوانه: ٨٥.
(٥) العماني: هو محمد بن ذؤيب الفقيمي، لم يكن من اهل عُمان، وإنما قيل له عُماني لأن دُكينا الراجز نظر إليه =

كأنَّ أذنيه إذا تشوّفا قادمةً أو قلماً محرّفا

فقال له الرشيد: دع «كأن» وقل: «تخال» حتى يستوي شعرك، وكان قد لحن العماني ولم يعرف ولم يفطن له أهل المجلس حتى قال له الرشيد ذلك، فتعجبوا من علمه وفطنته.

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول حسان[1]:

بِيض الوجوه كريمةٌ أحسابهم شم الأنوفِ من الطراز الأولِ
يغشونَ حتى ما تهرُّ كلابُهم لا يَسألون عن السوادِ المقبل

وقبله:

لله در عِصابة نادمتهم يوماً بجلقَ في الزمانِ الأولِ
أولاد جفنةَ حولَ قبر أبيهم قبر ابن ماريةَ الكرِيم المفضل

ثم قال:

فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهم ثم ادكرت كأنني لم أفعل
وفتىً يحب المجدَ يجعل ماله من دون والده وإن لم يسأل

قوله: «بيض الوجوه» معناه مشهورون ببهاء ولم يعن بهم البياض، وقد تضمن هذا اللفظ معنى البأس والجود وغيرهما من خلال الخير، لأن الإنسان لا يكون نبيهاً مشهوراً حتى يقال عنه: أبيض الوجه، وأغر، ووضاح، إلاّ إذا جمعها وما يجري معها. قال الراجز:

فهن يحملن فتىً وضاحاً

وقال أبو طالب[2] عن النبي ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمامُ بوجههِ ثمالُ اليتامَى عِصمةٌ للأراملِ[3]

وقال السموءل[4]:

وأيامُنا مشهورةٌ في عدونا لها غَررٌ معروفةٌ وحُجولُ[5]

أراد بالغرة والحجول الشهرة.

وقلب بعض أهل البصرة قول حسان:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

فقال:

= ويسقي الإبل ويرتجز فقال: من هذا العماني؟ فلزمه الإسم. انشد مروان ويزيد، ثم الرشيد والمنصور والمهدي العباسيين. مات سنة ٢٢٨ هـ . (الأعلام: ٦/١٢٣)

(١) ديوانه: ٣٦٥. والأبيات في مدح أولاد جفنة.

(٢) ابو طالب: عم النبي ﷺ، المتوفى سنة ٣ ق. هـ . والبيت في طبقات فحول الشعراء: ١/٢٤٤.

(٣) الثِّمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه.

(٤) هوالسموأل بن غريض بن عادياء الأزدي: شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر. توفي سنة ٦٥ ق. هـ . (الأعلام: ٣/١٤٠).

(٥) البيت في ديوان السموأل: ٩٢. وفيه: «معلومة وحجول». والحجول: جمع الحجل: الخلخال.

سودُ الوجوهِ لئيمةٌ أحسابُهم ... فُطسُ الأنوفِ من الطراز الآخرِ

كما قلب بعضهم بيت أبي نواس(١):

يا قمراً في مأتمٍ ... يندبُ شجواً بين أترابِ
يبكي فيذري الدرَّ من نرجسٍ ... ويلطمُ الوجهَ بعنّابِ

فقال:

وأعور أبصرتُ في مأتمٍ ... يندبُ شجواً بتخالطِ
يبكي فيذري البعر من كوة ... ويلطم الشوك ببلوطِ

وأخذ حسان قوله:

ثم ادركرت كأنني لم أفعل

من قول أبي كبير(٢):

فأذنْ وذلك ليس إلّا حينه ... وإذا مضى شيءٌ كأن لم يفعل

وقال ابن شبرمة أمدح ما قالت العرب قول الحطيئة(٣):

أولئك قومٌ إن بنَوا أحسنوا البُنا ... وإن عاهدوا أوفَوا وإن عقدوا شدُّوا(٤)
وإن كانتِ النعماءُ فيهم جَزَوا بها ... وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا(٥)
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللومِ أو سدوا المكان الذي سدّوا
ويعذلني أبناءُ سعدٍ عليهمُ ... وما قلتُ إلّا بالذي علمتْ سعدُ(٦)
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها ... وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والحدُ(٧)

ولعمري إن معاني هذه الأبيات أبكار ليس للعرب مثلها، وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيئة، وهي جامعة لخصال المدح كلها، وقوله:

جاء الحفيظة والحد

ـ وروي والجد ـ والحد من قولك حد السيف وحد السنان، والجد خلاف الهزل والمختار الحد بالحاء. يقول الحطيئة في بني لأي بن شماس من قريع، وكان الزبرقان بن بدر لقي الحطيئة في سفر فقال: من أنت؟ فقال: أنا حسب موضوع أبو مليكة. فقال له الزبرقان: إني أريد وجهاً، فصر إلى منزلي وكن هناك حتى أرجع فصار الحطيئة إلى امرأة الزبرقان، فأنزلته وأكرمته، فحسده

(١) ديوان ابي نواس: ٥٣. وقالهما في قينة يهواها اسمها جنان.
(٢) ابو كبير الهذلي هو عامر بن الحليس، شاعر جاهلي. ترجمته والبيت في الشعر والشعراء: ٢/٥٦١. وفي الأمالي: ١/١٤٢.
(٣) البيتان الأولان في الأغاني: ٢/١٧٨ والابيات كلها في الديوان: ٣٩ ـ ٤٢.
(٤) البنا: جمع البُنية.
(٥) لاكدّروها: بالمطل. كدّوها: بالالحاح. وفي الديوان: «كانت النعمى».
(٦) في الديوان: وتعذلني.
(٧) في الديوان: والجد.

بنو عمه، وهم بنو لأي فدسوا إلى الحطيئة وقالوا له: إن تحولت إلينا أعطيناك مائة ناقة، ونشدُّ إلى كل طنب من أطناب بيتك حلة محبرة، وقالوا لامرأة الزبرقان: إن الزبرقان إنما قدّم هذا الشيخ ليتزوج بنته، فقدح ذلك في نفسها، فلما أراد القوم النجعة تخلف الحطيئة وتغافلت امرأة الزبرقان عنه، فاحتمله القريعيون ووفوا له بما قالوا، فأخذ في مدحهم وهجا الزبرقان فقال[1]:

أزمعتُ يأساً مبيناً من نَوالكم ولا ترَى طارداً للحرِّ كالياس
دع المكارمَ لا ترْحلْ لبغيتها واقعد، فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي[2]
من يفعلِ الخيرَ لا يعدم جوازيهُ لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

فاستعدى الزبرقان عليه، فحكَّم عمر حسان[3]، فقال حسان: ما هجاه ولكن سلح عليه. ثم حبس عمر[4] الحطيئة فقال يستعطفه[5]:

ماذا تقولُ لأفراخ بذي مَرَخٍ حمرِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مظلمةٍ فاغفرْ عليكَ سلامُ الله يا عمرُ
ما آثروكَ بها إذ قدموك لها لكنْ لأنفسِهم كانت بكَ الأثر[6]

فأخرجه عمر وأجلسه على كرسيّ، وأخذ شفرة وأوهمه أنه يريد قطع لسانه، فضج وقال: إني والله يا أمير المؤمنين، قد هجوت أمي وأب ونفسي فتبسم عمر وقال: ما الذي قلت؟ قال: قلت[7] لأبي وأمي:

ولقد رأيتُك في النساء فسؤتني وأبا بينك، فساءَني في المجلسِ

وقلت[8] لأبي خاصة:

فبئس الشيخُ أنتَ لدى تميم وبئس الشيخ أنت لدَى المعالي

وقلت[9] لأمي خاصة:

تنحي فاجلسي مني بعيداً أراحَ الله منكِ العالمينا
أغربالاً إذا استوْدعتِ سراً وكانوناً على المتحدثينا

---

(١) الأبيات والخبر في الأغاني: ٢/١٨٤. وفي الشعر والشعراء: ١/٢٤٤. وفي ديوانه: ١٠٥.

(٢) الطاعم الكاسي: الذي يرضى بالمأكل والملبس.

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري.

(٤) هو الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) الأبيات في الأغاني: ٢/١٨٦. والشوق والشعراء: ١/٢٤٥. وفي ديوانه: ١٦٤.

(٦) في الديوان: «لم يؤثروك» و «بك الخير».

(٧) الديوان: ١١٠.

(٨) البيت في الديوان: ٢٦٩ وروايته:

فنِعمَ الشيخُ أنت على المخازي وبِئسَ الشيخُ أنت لدى المعالي

(٩) ديوانه: ١٢٣.

وقلت(١) لامرأتي خاصة:

أطـوّف مـا أطـوّف ثـم آوي إلى بيـتٍ قَعـيـدتُـهُ لَكـاعِ (٢)

وقلت (٣) لنفسي:

أبـت شـفـتـاي الـيـومَ إلاّ تَـكَـلُّمـاً بسـوءٍ فـلا أدري لمن أنـا قـائلهُ(٤)

أرى لـيَ وجـهـاً قـبّـحَ الله خَـلقَـهُ فقُبّـحَ من وجـهٍ وقُبّـحَ حـامـلُه (٥)

وقد هجا أيضاً من أحسنَ إليه فقال (٦):

منحتَ، ولم تبخَـلْ، ولـم تُعطِ طـائـلاً فـسـيّـان لا ذمٌ عـليـكَ ولا حـمـدُ

ثم خلّى سبيله عمر، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً، وجعل له ثلاثة آلاف درهم اشترى بها من أعراض المسلمين، فقال(٧) يذكر نهيه إياه عن الهجاء ويتأسف:

وأخـذتَ اطـرارَ الـكـلامِ فلم تـدع شتمـاً يـضـرُّ ولا مـديحـاً يـنفـعُ(٨)

ومنعتني عِـرضَ البـخيـل فـلم يخفْ شتمي، وأصبـح آمنـاً لا يجـزعُ(٩)

وكان الحطيئة يذم البخل، كما ترى، وهو أبخل الناس، اعترضه رجل وهو يرعى غنماً له، فقال له: يا راعي الغنم، وكان بيد الحطيئة عصاً يزجر بها الغنم، فرفعها وقال:

عجراء من سلم؟ فقال الرجل: إنما أنا ضيف فقال: للأضياف أعددتها. فتمثلت به العرب وقالوا: أبخل من الحطيئة.

وكان أحد الحمقى أوصى عند موته بأن يحمل على حمار وقال: لعلّي إن حملت عليه لا أموت، فإني ما رأيت كريماً مات عليه قط.

وقال (١٠):

لـكـل جـديـد لَـذَّةٌ غيـر أنـنـي رأيتُ جـديـدَ المـوتِ غيـرَ لـذيـذِ

وقيل له: أوصِ فقال: أوصي أن مالي للذكور دون الإناث، قالوا: فإن الله لا يقوله! قال:

---

(١) ديوانه: ٢٥٦.

(٢) قعيدة البيت! سيدته. لكاع: سب للأنثى.

(٣) ديوانه: ٢٥٧.

(٤) في الديوان: «بشرٍّ فما»

(٥) في الديوان: «شوَّه الله»

(٦) في الديوان: «سُئلتَ، فلم» ص: ١٩٤.

(٧) الديوان: ٢٣٣.

(٨) اطرار الكلام: نواحيه.

(٩) في الديوان: «ومنعتني شتم»، و«فأصبح آمناً لا يفزع». وفي الأغاني: ٢/١٨٩:

وحـمـيـتـني عـرض اللـئيـم فـلم يـخـف دمّـي وأصـبـح آمـنـاً لا يـفـزع

(١٠) البيت ليس في الديوان. وهو في الشعر والشعراء: ١/٢٣٩ دون عزو.

لكني أقوله، وقالوا له: قل لا إله إلاّ الله. قال: أشهد أن الشماخ[1] أشعر غطفان: وأخذ قوله:

أغـربـالاً إذا اسـتـودعـت سـرا

من قول كعب[2] بن زهير حيث يقول[3]:

ولا تَمسكُ بالعهدِ الذي عهدتْ … إلاّ كما يمسك الماءَ الغرابيلُ

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أبي خليفة عن دماذ عن أبي علي القداح وعباد بن سليم الخضرمي قال: أنشد[4] الحطيئة عمر:

مهاريسُ يُروي رِسلُها ضيفَ أهلِها … إذا النارُ أبدتْ أوجُهَ الخفِراتِ[5]

عظامُ مَقيلِ الهامِ غُلبٌ رقابُها … تباكر ورد الماء في السَّبراتِ[6]

يُزيلُ القتادَ جذبُها عن أصولِه … إذا ما غدت مقورةً خرِصاتِ[7]

وكان هجا قومه فلما بلغ إلى قوله:

فإن يصطنعني الله لا أصطنعكمُ … ولا أعطكم مالي على العثراتِ

لكم دَفَرٌ مثلُ التيوسِ ونسوةٌ … مماجينُ مثل الآتُنِ النَّعِراتِ[8]

قال عمر: بئس الرجل أنت، تمدح إبلك وتهجو قومك؟

فخرج وقال[9]:

رأيتُ ابنَ خطاب تجاهل بعدما … رأيتُ له عقلاً وما كان جاهلا

ألا قد علمنا أن ما قال هكذا … ومن قال حقاً غيرَ ما قال باطلا

وقالوا: أمدح أبيات قيلت ما أنشدناه أبو أحمد عن مهلهل[10] بن يموت عن أبيه عن الجاحظ:

اخترْ فناءَ بني عمرو فإنهمُ … أولو فضولٍ وأقدارٍ وأخطارِ

---

(١) الشمّاخ: شاعر غطفان اسمه معقل بن ضرار، وهو جاهلي إسلامي، وهو من اوصف الشعراء للقوس والحُمُر توفي سنة ٢٢ هـ. (الأعلام: ٣/١٧٤).

(٢) كعب بن زهير بن ابي سُلمى شاعر فحل مجيد، جاهلي اسلامي، اهداه النبي ﷺ بردته عندما اعلن اسلامه، توفي سنة ٢٦ هـ. (الأعلام: ٥/٢٢٧).

(٣) ديوانه: ٦١. وهو من قصيدته في مدح النبي ﷺ «بانت سعاد».

(٤) الأبيات في ديوانه: ١١٣. وفي الأغاني: ٢/١٦٦.

(٥) في الأغاني: «إذا الريح». والرِّسل: اللبن. الخفرات: الحِسان الحييات. والمهاريس: شديدات الأضراس.

(٦) في الديوان: «يباكرن برد الماء بالسبرات». ومقيل الهام: مستقره. الغُلْب: الغلاظ الرقاب. السبرات: جمع السبرة: الغداة الباردة.

(٧) في الأصل: «مقرورة خرصات». القتاد شجر له شوك. مقرورة: مبتردة وجائعة.

(٨) في الديوان: «لهم نفرٌ» و«الآتن النّعرات». والنعرات: الجامحات.

(٩) البيتان ليسا في ديوانه.

(١٠) هو مهلهل بن يموت بن المزرع العبدي، شاعر مصري خليع. مات سنة ٣٣٤ هـ. والأبيات تقدمت.

إن يُسألوا الخيرَ يُعطَوه وإن جهدوا فالجهدُ يخرجُ منهم طيب أخبار
وإنْ تـوددتـهم لانـوا وإنْ شتمـوا كشفت أذمـارَ سـرٍ غيـر أسـرارِ[1]
هيْنـون لـيْنـون أيسـارُ ذوو يسـرٍ أبـنـاءُ مَكـرمـةٍ أبـنـاءُ إيسـارِ
من تلق منهم تقـل: لاقيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وهي على الحقيقة أمدح أبيات قيلت.

وقالوا: أمدح بيت قيل قول[2] الخنساء في أخيها:

أغـرُّ أبـلجُ تـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأنـه عـلمٌ فـي رأسـه نـارُ

أخبرنا أبو أحمد، حدثنا الأنباري عن أبي عكرمة الضبي، أخبرنا أبو دعامة عن صالح بن محمد بن المسيب قال: سمعت المفضل[3] الضبي يقول: أتاني رسول المهدي فقال: أجب فهالني ذلك، فمضيت معه حتى دخلت، وعنده علي بن يقطين، وعمر بن بزيع، والمعلّى مولاه فسلمت فرد وقال اجلس، فجلست فقال: أخبرني بأمدح بيت قالته العرب. فتحيرتُ ثم جرى على لساني قول الخنساء:

وإنَّ صخـراً لمـولانـا وسـيـدنـا وإن صخـراً إذا يشتـو لنـجَّـارُ
أغـرُّ أبـلجُ تـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأنـه عـلمٌ فـي رأسـهِ نـارُ

فقال: أخبرت هؤلاء فأبوا عليَّ، فقلت: يا أمير الؤمنين كنت أحق بالصواب. فقال: يا مفضل، أسْهَرَتْني أبيات ابن مطير الأسدي:

وقـد تغـدرُ الـدنيـا فيضحي غنيهـا فقيـراً ويغنى بعـد بـؤسٍ فقيـرهـا
وكـم قـد رأينـا مـن تَكَـدُّرِ عيـشـةٍ وأخـرى صفا بعـد اكـدرارٍ غـديـرُهـا
فـلا تَـقـربِ الأمـرَ الـحـرامَ فـإنـه حـلاوتهـا تفنى ويبـقى مـريـرهـا

ثم قال: حدثني يا مفضل، فقلت: أي الأحاديث يشتهي أمير المؤمنين؟ قال: أحاديث الأعراب، فحدثته حتى كاد النهار ينتصف، فقال: كيف حالك؟ فقلت: كيف حال رجل مأخوذ بعشرة آلاف درهم. فقال: يا عمر بن بزيع أعطه عشرة آلاف درهم لقضاء دينه، وعشرة آلاف درهم لنفقة عياله، فانصرفت بها. وكانوا يقولون: قاتل الله الخنساء، ما رضيت أن جعلت أخاها جبلاً حتى جعلت في رأسه ناراً، فبالغت أشد المبالغة.

واعترض ابن الرومي قولها فقال:

هـذا أبـو الصقـر فـرداً في مكـارمـه من نسـل شيبـانَ بين الطَّلح والسَّلم[4]

---

(١) اذمار: جمع ذِمار: وهو ما تخفيه وتحفظه.

(٢) البيت في ديوان الخنساء: ٤٩. وأوله: «وإن صخراً لتألم» . . .

(٣) هو المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، ابو العباس، راوية علامة بالشعر والأدب وايام العرب. مات سنة ١٦٨ هـ . (الأعلام: ٧/ ٢٨٠).

(٤) البيت في الديوان: ٦/ ١٥١ . وفيه: «فردٌ في كتابته» و «هو ابن شيبان». أبو الصقر: وزير، أديب، بليغ، اسمه اسماعيل بن بلبل الشيباني وزير للمعتمد. قتل سنة ٢٧٨ هـ .

كـأنـه الشمسُ في البـرج المنيفِ بـه — عـلى البـريـةِ لا نـارٌ عـلى عـلمِ[1]

وتبعته فقلت:

خيـرُ الـورى لخيـارِ النـاس كلهم — وشـرُّهـم لشـرارِ النـاسِ سـوارُ

منبـه الـذكـرِ معروفُ طـرائقـه، — كـالشمسِ، لا عَلمٌ في رأسـه نـار

ومن جيد ما قيل في النباهة قول الأول، أنشده أبو تمام:

إني إذا خفي الـرجـالُ وجـدْتَني — كـالشمسِ لا تخفى بكـلِّ مكـانِ[2]

وقال بشار:

أنـا المـرعَّثُ لا أخفى على أحـدٍ — ذرتْ بي الشمسُ للقاضي وللداني[3]

وقلت:

أتـأمـلُ أن تنـالَ نـدى كـريمٍ — نـداهُ أوَّلٌ والـغـيـثُ ثـانـي

ويـجـري والمجـرة في عنـانٍ — فـلا يـخـفـى عـلى نـاءٍ ودانِ

تصـوَّر في القلوبِ فـليس ينـأى — عـلى نـأي المـحـلةِ والمكـانِ

إذا عـبسَ الـزمـانُ فمِـل إليـهِ — تجـدْهُ البشرَ في وجـهِ الـزمـانِ

وقلت:

تـريدون أن أخشى وأخضـعَ لـلأذى — وجار ابن عيسى، كيف يَخشى ويخضعُ

فتىً بـأسُـه كـالـدهـر مـأمن ملجـأ — ولا فيـه إقصـارٌ ولا عنـهُ مـرجـعُ

أغـرُّ شهيـرٌ في البـلادِ كـأنـمـا — به البدرُ يعلو أو سنىَ الصبحِ يسطع

ومثله قول القاسم بن حنبل رحمه الله تعالى:

مـن البـيضِ الـوجـوهِ بني سِنـانٍ — لـو انـك تستضيءُ بـهم أضـاؤوا

لـهم شـمسُ النـهـار إذا استـقـلتْ — ونـورٌ لا يـفـنـيـه الـعـمـاء

هـمُ حلوا مـن الشـرفِ المـعلى — ومن حسب العشيـرةِ حيث شـاؤوا

فـلو أنَّ الـسـمـاءَ دنـت لـمـجـد — ومكـرُمـة دنـت لـهـم الـسـمـاء

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول[4] الحطيئة:

متى تـأتـهِ تَعشـو إلى ضـوءِ نـارهِ — تجـدْ خيرَ نـارٍ عندهـا خيرُ مُـوقـدِ

وقالوا: أمدح المدح ما يكون بالتفضيل، وهو أن يقول: فلان خير من فلان، وفلان أكرم من فلان، ومن أجود ما جاء في ذلك قول[5] أبي تمام:

---

(١) الديوان: ١٥١/٦. وفيه: «في الاوج المنيف بها».

(٢) ليس في ديوان ابي تمّام.

(٣) المرّعث: لقبه. والرّعث: الاسترسال والتساقط. وسمّي كذلك لأنه (اي بشار) كان لقميصه جيبان واحد عن اليمين والآخر عن الشمال. والمرّعث: لابس القُرط. والبيت في ديوانه: ٦١٧.

(٤) البيت في ديوانه: ٥١. وفي الأغاني: ٢/٢٠٠.

(٥) ديوانه: ١٨٣. وفيه: «وِساع الجود عندي والندى» و «كان قطوفا».

كم من وساعِ الخطو في طلبِ الندى ... لما جرى وجريتُ كنت قطوفا
أحسنتما صفدي ولكن كنتَ لي ... مثلَ الربيع حيّاً وكان خريفاً
وكلاكما اقتعد العلا فركبتَها ... في الذّروة العليا وكان رديفا

وقال:

كواكب مجدٍ يعلم المجدُ أنها ... إذا طلعتْ باءتْ بصغرٍ كواكبُهْ

وقال[1] ابن الرومي:

تلوحُ في دولةِ الأيامِ دولتهم ... كأنها مِلةُ الإسلامِ في المللِ

وقلت:

نصرتَ على الأعداء فليهنك النصر ... ودانتْ لك الدنيا وذَلَّ لك الدهرُ
فأنت كإقبالِ الشبيبة والصبا ... تطيبُ بك الدنيا وينعمرُ العمرُ
وليس كرامُ الناسِ إلاّ كواكبا ... على صَفْحَتَيْ ليلٍ وأنت لهم بدرُ
وفي الناس أجوادٌ كثيرٌ وإنما ... أولئك أثماد وأنتَ لهم بحرُ[2]
فإنْ أظلم الأحداثُ واسودَّ ليلُها ... فهم شفقٌ فيها وأنت بها فجرُ
أبا قاسمٍ فخراً على المجد والعلا ... فإن العلا روضٌ وأنت به زهر
غدت أرضنا منكم سماءً مظلَّةً ... لها أنجمٌ من زهر أخلاقكم زهرُ

وبعد بيت الحطيئة:

وأنت امرؤٌ من تعطه اليوم نائلاً ... بكفيك لم يمنعْك من نائلِ الغدِ[3]
ترى الجودَ لا يدني من المرء حتفه ... كما البخل للانسان ليس بمخلدِ[4]

ومثله قول ليلى الأخيلية[5] في توبة[6]:

فلا يبعدنك الله يا توبُ إنها ... لقاءُ المنايا دارعاً مثلُ حاسرِ[5]

---

(١) البيت في ديوانه: ٥/٢٣٣ وفيه «الأيام دولتكم».
(٢) اثماد: جمع ثمد: ماء قليل.
(٣) الديوان: ٥١ وفيه: «وذاك امرؤ إن يعطك» و «بكفيه لا يمنعك».
(٤) هي ليلى بنت الأخيَل، من عقيل بن كعب، من أشعر النساء ماتت بساوة سنة ٨٠ هـ. وفي الأعلام ٥/٢٤٩: هي ليلى بنت عبد الله بن الرّحال بن شداد بن كعب.
(٥) توبة بن الحميِّر، ابو حرب شاعر عاشق كان يهوى ليلى الأخيلية رده أبوها وزوجها غيره. قُتل سنة ٨٥ هـ. الأعلام ٢/٨٩.
(٥) الأبيات في الأغاني ١١/٢٢٥ وما بعدها. ورواها كالتالي:

فلا يبعدنك الله يا توبُ إنما ... لقاء المنايا دارعاً مثلُ حاسرِ
ونعم الفتى إن كان توبةُ فاجراً ... وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
وتوبة أحيا من فتاةٍ حييّةٍ ... وأجرأ من ليثٍ بخفّان خادرِ

والبيت الرابع لا اختلاف فيه. والدارع: لابس الدرع. الحاسر: الأعزل.

فنعمَ فتى الدنيا وإن كان فاجراً وفوقَ الفتى إن كان ليس بفاجرِ
فتىً كان أحيا من فتاةٍ خريدةٍ وأشجعَ من ليثٍ بخفان خادرِ[1]
فتى ينهلُ الحاجاتِ ثم يُعلّها فيطلعها عنه ثنايا المصادر[2]

تقول: لا يمنعه قضاء الحاجة الأولى عن قضاء الحاجة الأخرى، كما قال الآخر:

وأرضعُ حاجةً بلبانِ أخرى كذاك الحاجُ ترضعُ باللبانِ[3]

يقول: فيرفعها المثنون عليه حتى كأنها ثنية رجع:

فأُقسم أبكى بعد توبةَ هالكاً وأفعل من نالت صُروفُ المقادرِ

وكان بيت الأعشى:

نُشبُّ لمقرورين يَصطليانها وبات على النارِ النَدَى والمحّلقُ[4]

يستحسن حتى قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

على أن قول الأعشى:

وبات على النار: الندى والمحلق

من أجود الكلام وأبلغه، والمحلق الممدوح ومثله قول حماس بن ثامل:

فقلتُ له أقبل فإنكَ راشدٌ وإنَّ على النارِ: الندى وابن ثامل

وأخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو الحسن الأخفش، أخبرنا ثعلب قال: اجتمعنا عند أحمد بن إبراهيم فأنشده رجل:

أمر مالك قاصرٌ فقره على نفسه ومشيعٌ غِناهُ

فقال أحمد: قد جاء مثل هذا كثيراً.

فأنشد:

فتى إذا عدت تميم معاً سادتها عدوه بالخنصرِ
ألبسه اللّهُ ثيابَ العلا فلم تَطل عنهُ ولم تَقصرِ

فقال أحمد: وقد جاء مثل هذا، فأنشد الرجل:

أعدد ثلاثَ خلالٍ قد عرفنَ له هل سَب من أحد أو سُبَّ أو بخلا[5]

فقال أحمد: وقد جاء مثله هذا، فغاظني فقلت: هات. فقال: نعم المدح الغريب الذي لم يؤت مثله:

---

(١) الخريدة: الفتاة الشابة. خفّان: موضع.
(٢) ينهل ويعل: يشرب ثم يكرر الشرب.
(٣) لبان: رضاع.
(٤) البيت في الديوان: ٢٢٥. والمقرور: من أصابه البرد.
(٥) خلال: جمع خلة: خصلة.

لله درُّ أبـي الـمـغـيـثِ فـإنـه   حسنُ الفعالِ ضعيفُ خَبطِ الدرهمِ

وقريب من هذا قول أبي البحتري:

حـتـى تـوهـمـنـاه مـخـروق الـيـد[1]

وفي خلاف قوله:

فـلـم تـطـل عـنـه ولـم تـقـصـر[2]

قول ابن الرومي:

مـدحتُ سليمـانَ المغلبَ مِـدحـةً   تجاوزُ حدَّ الحسنِ لـو كان يَشكـرُ[3]
فعـمي عـنـهـا نـاظـراهُ كـأنـمـا   بعـوراءِ عيني جـدِّه كـانَ ينـظرُ[4]
سبغـت عليـه حـليـةٌ ليس عيبُهـا   سـوى أنهـا ظلّت تـطولُ وتقصـرُ[5]

يهجو سليمان بن عبد الله بن طاهر.

وسمعت عم أبي يقول: أمدح شيء قيل قول الأول:

قـوم سـنـان أبـوهـم حين تـنسبهم   طـابـوا وطـابَ من الأولاد مـا وَلـدوا
لـو كان يَقعـدُ فـوقَ الشمسِ من كرمٍ   قـومٌ بـعـزهم أو مـجـدهـم قـعـدوا
مـحسَّـدوَن عـلى مـا كـانَ من نِعمٍ   لا ينـزعُ الله عنـهم مـالـه حُـسـدوا

فأخذ جماعة قوله:

مـحـسَّـدون عـلى مـا كـان من نـعـم

فصرفوه فيه وحده. ومنها قول أبي تمام:

لـولا التخـوفُ للعـواقبِ لم يـزل   للحاسـدِ النُعمى على المحسودِ[6]
لـولا اشتعـالُ النـارِ فيمـا جـاورَتْ   مـا كـان يُعرفُ طيبُ عُـرفِ العـودِ

وقال[7] البحتري:

ولن يستبينَ الـدهـرَ موضـعَ نعمـةٍ   إذا أنتَ لم تـدلـلْ عليهـا بحـاسـدِ

وقال[8]:

محسـدون كـأن المكـرمـاتِ أبتْ   أن تـوجدَ الـدهـرَ إلّا عنـد محسـودِ

---

(١) وتمام البيت من ديوانه ٢/٤٢ ص:

حـتـى تـوهـمـنـاه مـخـروق الـيـد   بـث الـفـوائـد فـي الأبـاعـد والـدنـى.

(٢) ديوانه: ٣/٦١.

(٣) في الديوان: «تجاوز قدر العبد لو كان يشكر».

(٤) في الديوان: «فعمي عنه كأنه» و «جده ظل».

(٥) في الديوان: «شننت عليه» و «تطول ويقصر».

(٦) البيت والذي يليه في ديوان ابي تمام: ٧٧. وفيه: «لم تزل».

(٧) ديوانه: ١/٣٧ ص. وفيه: و «لن تستبين».

(٨) ديوانه: ١/٢٢٧ ص. وفيه: «محسد وكأن».

محســـدونَ وشــرُّ النــاسِ منــزلــةً من عاش في الناس يوماً غيرَ محسودِ

وسمعته يقول: من أوائل المدح الجيد الذي لا نظير له، قول[1] أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان:

عــطاؤكَ زينٌ لامـرىءٍ إن حبـوتــه ببــذل ومـا كــلُّ العــطاء يَــزينُ[2]
وليس بشينٍ لامــرىءٍ بــذلُ وجهــه إليــكَ، كمــا بعضُ السـؤال يَشـين

وقال[3] زهير:

من يلقَ يـومـاً على عِـلَّاتِـه هَـرِمـاً يلقَ السمـاحةَ منـه والنـدَى خُلقـا[4]
لـو نـال حيٌّ من الـدنيـا بمكـرمـة أفقَ السمــاءِ لنـالت كفــه الأفقـا[5]
قـد جعلَ المبتغـونَ الخيرَ في هَـرِمٍ والســائلونَ إلى أبـوابــه طُــرقـا[6]

وروى [7] بعض الرواة للنابغة، وروي لسعيد:

والله واللهِ لِــنــعــمَ الــفــتــى الاعـرجُ لا النكسُ ولا الخامــل[8]
الـحــاربُ الــوافــرُ والـجـابـر الـ ـمحـروبُ والمرجـل والجـامـل
والــطاعنُ الـطعنـةَ يـومَ الـوغـى ينهــلُ منهــا الأســلُ النـاهــلُ [9]
والـقــائـل الـقـولَ الـذي مـثـله يـمــرع منــهُ البـلدُ الـمـاحــلُ[10]
والغــافــرُ الــذنبَ لأهـل الحِجـا والقــاطــعُ الأقــرانَ والــواصــل[11]

وقال بعض الإسلاميين وأحسن:

خُـلقتْ أنــامـلهُ لـقـائِـم مُـرهَـفٍ ولـبــثِّ فــائــدةٍ، وذروة مــنــبــرِ
يلقى الـرمـاحَ بـوجهــه وبصـدره ويقيمُ هــامتــه مـقــام المغفـرِ[12]
ويقـول للطِّرفِ: اصطبر لشبا القنا فهـدمت ركن المجد إن لم تعقـر[13]

---

(١) البيتان في طبقات ابن سلام: ١/٢٦٥.
(٢) في بعض النسخ: «بشيب وما».
(٣) ديوانه: ٤٣.
(٤) في الديوان: «إن تلق»، و«تلق السماحة».
(٥) في الديوان: «الدنيا بمنزلة»، و«وسط السماء».
(٦) هرم: هو هِرم بن سنان المعروف بجوده وتعقله في الجاهلية.
(٧) الأبيات ليست في ديوان النابغة.
(٨) النُّكس: الضعيف.
(٩) الأسل: الرماح والنبل.
(١٠) يمرع الوادي: يخصب.
(١١) الحجا: العقل.
(١٢) الهامة: القامة، أو الرأس.
(١٣) الطِّرف: الفرس. شبا القنا: حده.

وإذا تـأمـلَ شخصَ ضيفٍ مُقبـلٍ		متسـربـلٍ سـربـالَ ليـل أغبـرِ[1]
أومـأ إلى الكـومـاءِ: هـذا طـارقٌ		نَحـرتنيَ الأعـداءُ إن لم تنحـري[2]

وسمعت الشيخ أبا أحمد يقول: أمدح شيء قاله محدث قول مروان بن أبي حفصة[3] في معن بن زائدة الشيباني[4]:

بنـو مـطرٍ يـومَ اللقـاءِ كـأنـهـم		أُسـودٌ لها في غيـل خفّـان أشبـل[5]
هم المـانعـونَ الجـارَ حتى كـأنمـا		لجـارهم بين السمـاكينِ مَنـزلُ[6]
بهـاليلُ في الإسـلام سادوا ولم يكن		كـأولهم فـي الجـاهـليـة أول[7]
همُ القومُ إن قالوا أصابـوا وإن دُعوا		أجـابوا وإن أعـطَوا أطابـوا وأجـزلـوا
ثـلاثٌ بـأمثـال الجبـالِ حيَـاهـمُ		وأحلامُهم منها لدى الوزنِ أثقـلُ[8]
ولا يَستـطيـعُ الفـاعلونَ فعـالهـم		وإن أحسنـوا في النـائبـاتِ وأجملوا

ثم أخبرنا المفجع، أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد قال: بلغني أن يحيى بن خالد البرمكي قال لشراحيل بن معن بن زائدة: أي شعر قاله ابن أبي حفصة في أبيك أشعر؟ قال: قوله:

نـعمَ الـمـنـاخُ لسراغـبٍ أو راهـبٍ		ممن تصيـبُ جـوائـحُ الأزمـانِ[9]
معن بن زائـدةَ الـذي زيـدت بـه		شَـرفـاً إلى شـرفٍ بنـو شيبـانِ
مـطر أبـوكَ، أبـو الأهلةِ، والـذي		بـالسيف حـاز هجـاينَ النعمـان
نفسي فـداءُ أبي الـوليـد إذا عـلا		رهـج السنـابِـك والسرمـاحُ دواني

فقال يحيى: أنت لا تعلم ما قيل في أبيك، أين أنت عن قوله:

بنـو مـطرٍ يـومَ اللقـاءِ كـأنـهـمْ		أسودٌ لهـا في غِيـلِ خفّـان أشبـلُ

وأنشد الأبيات المتقدمة وزاد:

تشـابَـهَ يـومـاهُ علينـا فـأشكـلا		فمـا نحنُ نـدري أيّ يَـوميـه أفضلُ

---

(١) السربال: الثوب.
(٢) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.
(٣) هو مروان بن سليمان بن أبي حفصة، شاعر عالي الطبقة. مدح المهدي والرشيد العباسيين ومعن بن زائدة. مات سنة ١٨٢ هـ. (الأعلام: ٧/٢٠٨).
(٤) هو معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني، ابو الوليد، من اجواد العرب، اكرمه المنصور العباسي. وولاه اليمن ثم سجستان، قُتل غيلة سنة ١٥١ هـ. الأعلام: ٧/٢٧٣. والأبيات في الأغاني: ١٠/٩٠.
(٥) الغيل: المأسدة، الأجمة. خفّان: موضع قرب الكوفة. وفي الأغاني: «بطن خفّان».
(٦) السماكان نجمان، أو هما رجلا الأسد. في الأغاني: «هم يمنعون».
(٧) في الأغاني: لها ميم.
(٨) البيت ليس في الأغاني.
(٩) الجوائح: جمع الجائحة وهي الشدة التي تجتاح المال.

أيوم نداه الغمر أم يوم بأسِه؟ وما منهما إلّا أغرُّ محجّلُ

وأخبرنا قال: أخبرنا محمد بن يحيى بن علي عن أبيه عن إسحاق الموصلي، أخبرنا أبو يوسف القاضي ـ وكان عديل الرشيد في طريق الحج ـ قال: اعترضه أعرابي فأنشد أبياتاً فزبرهُ[1] وقال: ألم أنهكم عن قول مثل هذا الشعر؟ ألم أقل لكم امدحوني بمثل قول القائل:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم

وذكر الأبيات المتقدمة، قال أبو يوسف: فقلت له: فيمن قيلت؟ قال: في أب هذا الشاب، الذي يسير في ظل القبة، فقلت للشاب: من أنت؟ فقال: شراحيل بن معن بن زائدة. قال إسحاق: فسمعت شراحيل يقول: ذلك اليوم آثر عندي من الدنيا بحذافيرها.

وأنشد بعض أهل الأدب قول ابن أبي طاهر[2] وقال: لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر:

إذا أبو أحمدٍ جادتْ لنا يدُه لم يُحمدِ الأجودان: البحرُ والمطرُ
وإن أضاءتْ لنا أنوارُ غُرته تضاءلَ النيِّران: الشمسُ والقمرُ
وإن مضى رأيه أو حَدَّ عزمته تأخر الماضيان: السيفُ والقدر
من لم يكن حذراً من حدِّ صولتهِ لم يدر ما المزعجان: الخوفُ والحذرُ
حلوٌ إذا أنت لم تبعث مرارتَه فإن أمرَّ فحلوٌ عندَه الصبرُ
سهلُ الخلائقِ إلّا أنه خشنٌ ليِّنُ المهزةِ إلّا أنه حجرُ
لاحيةٌ ذكرٌ في مثلِ صَوْلته إن صال يوماً ولا الصمصامةُ الذكرُ[3]
إذا الرجالُ طغت آراؤهم وعموا بالأمر رُدَّ إليه الرأيُ والنظرُ
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتيابَ به إذ جودُ كلِّ جواد عنده خبرُ

ومن المديح القليل النظير، قول علي بن محمد بن الأفوه:

أوفوا من المجدِ والعلياءِ في قُللٍ شُمٍّ قواعدهنَّ: البأسُ والجودُ
سبطُ اللقاءِ إذا شيمت مخائلهم بُسلُ اللقاءِ إذا صيدَ الصناديدُ
محسَّدون، ومن يَعلقْ بحبلهم من البرية يُصبحْ وهو محسودُ

وقال[4] الفرزدق وهو أجود ما قيل في الجود عَوداً على بدء:

له راحةٌ بيضاءُ يندى بنانُها قليلٌ، إذا اعتلّ البخيلُ، اعتلالُها
جوادٌ إذا اعطتْكَ يوماً يمينُه وُعدتَ غداً عادَتْ عليك شمالُها[5]

---

(١) زَبره: انتهره.

(٢) هو احمد بن طيفور بن ابي طاهر الخراساني، ابو الفضل، مؤرخ من الكتاب البلغاء مولده ووفاته ببغداد (٢٠٤ ـ ٢٨٠ هـ). له شعر. (الأعلام: ١/١٤١).

(٣) الصمصامة: السيف.

(٤) البيتان في ديوان الفرزدق: ٤٧١.

(٥) في الديوان: «إذا مِسمعٌ»، و «فعدت غداً».

ونحوه قول الأعرابي في عبدالملك:

ولقد ضَربنا في البلادِ فلم نجد ... أحداً سِواكَ إلى المكارمِ يُنسبُ
فاصبر لعادتِنا التي عوَّدتنا ... أو لا، فأرشدنا إلى من نَذهبُ

وقول الآخر، وهو من أجود ما قيل في حمدِ الرجلِ مكانه من قومه:

رأيتكمُ بقيةَ حيٍّ قيسٍ ... وهضبتَه التي فوقَ الهضابِ
تُباورنَ الرياحَ إذا تبارتْ ... وتمتثلونَ أفعالَ السحابِ
يذكرني مقامي في ذُراكم ... مقامي أمسِ في ظلِّ الشبابِ

ومن عادة الناس أن يتكرهوا ما هم فيه من العيش وما هم عليه الأحوال وقد حمد هذا حاله معهم، وعيشه فيهم، حتى شبهه بعيشه في ظل الشباب، وهو من أجود ما قيل في هذا المعنى.

وقالوا: أمدح بيت قاله محدث، قول علي بن جبلة المعروف بالعكَّوك في أبي دُلف[1]:

إنما الدنيا أبو دُلفٍ ... بين مبداه ومحتضَرِهْ
فإذا ولَّى أبو دلفٍ ... ولَّت الدنيا على أثَرِه

قال بعض من حضر: لا يجوز أن يكون مثل هذا الشعر لهذا، وإنما ازدراه لدمامته وعمشه، فقال له أبو دلف: أما تسمع ما يقول الناس فيك؟ إن الشعر لغيرك لأن ألفاظه ألفاظ كاتب متأدب. قال: الإمتحان يزيل الظنة عني، وما ظلم من استبرأ، فكيف رأى الأمير في الامتحان؟ قال: نعطيك صدوراً لتردفها بأعجاز. قال: ما اشتططت ولا كلفت، إلاّ الذي من نكب عنه، حق عليه القول. فدعا أبو دلف بدواة وقرطاس وكتب:

ريعتْ لمنشورٍ على مفرقهِ ... ذمٌّ له عهدَ الصبا حين انتسبْ
اهدام شيب جُدد في رأسهِ ... مكروهة الجدة انضاء العقب

ثم ناوله الدرج فقال: كم لي في ذلك من الأجل؟ قال: شهر. قال: فانطلق بهما إلى رحلي. قال: ليس الامتحان للشاعر في بيته بمزيل للظنة عنه، ولكن تبوأ حجرة من القصر. قال: فليأمر الأمير بها. ففعل وركب إلى دار المأمون، فأبطأت كرته، فلما رجع دخل عليه عليّ والدرج بيده، قال: قد أجزت البيتين بقصيدة. قال: لقد خشيت عليك النقص من الإعجال! قال إليك تساق الرفاق. ثم أنشدني بيتي أبي دلف.

ثم قال[2]:

أشرقنَ في أسودَ ازرينَ به ... كان دُجاه لهوى البيضِ سَببْ
فاعتضن أيام الغواني والصبا ... عن ميِّتٍ مطلبه فن الأدبْ[3]

---

(١) ابو دُلف: صاحب الكَرَج وأميرها، القاسم بن عيسى العجلي، حدّث عن هشيم وغيره. كان فارساً شجاعاً جواداً ممدّحاً شاعراً، مات سنة ٢٢٥ هـ في بغداد. (سير أعلام النبلاء ١٠/٥٦٣). والبيتان مع الخبر التالي في الأغاني: ٢٠/٢٢، و٨/٢٥٤.

(٢) الأبيات في الأغاني: ٢٠/١٥.

(٣) في الأغاني: «واعتقن»، و«حي الأدب».

فـنـازلٌ لـم يُـبـتـهـج نـزولـه ... وراحـل أبقى جـوىً حين ذهب[١]
لـم أرَ كـالشيب وَقـاراً يُـحـتـوَى ... وكـالشباب الغضِّ ظـلاً يُستلب[٢]
كـان الـشبـابُ لـمّـةً أزهى بـهـا ... وصـاحباً حـراً، عـزيـز المصـطحب
إذ أنـا أجـري واثـبـاً في غـيّـه ... لا أعتب الـدهرَ إذا الـدهـرُ عتبْ[٣]
وأذعـرُ الـربـربَ عـن أطـفـالـه ... بـاعـوجـيٍّ دلفـيِّ الـمـنـتـسَبْ[٤]
مـطردٌ يـرتـجُّ فـي أقـطارِه ... كالماءِ جالتْ فيه ريحٌ فاضطربْ[٥]
تـحسبـه أقعـد فـي استقبـالـهِ ... حتى إذا استـدبـرتـهُ قلتَ أكـبّ
وهـو عـلى إرْهـاقـه وطـيّـه ... يقصـرُ عنه المخـزمـان واللبب[٦]
تـقـولُ فـيـه جَـنبٌ إذا انـثـنـى ... وهـو كمثل القـدحِ مـا فيـه جنبْ[٧]
يخـطو على عُـوجٍ ينـاهبن الثـرى ... لم يتـوا كل عن شَـظاً ولا عصب[٨]
تـحـسبـهـا نـاتـئـةً حـيـن خـطـا ... كـأنـهـا واطـئـةٌ عـلى نـكـب[٩]
يـرتـاد بـالصيـد فعـارضنـا بـه ... أوابـد الـوحش فـأجدى واكتسب[١٠]
لا يـبـلغُ الـجـهـدَ بـه راكـبُـه ... ويبلغُ الـريـحَ بـه حـين طـلب[١١]
إذا تـظـنـيـنـا بـه صـدقـنـا ... وإن تـظنى فـوتَـه الـطرفُ لـزب[١٢]
ثـم انقـضى ذاك كـأن لـم تـبـقـه ... وكـل بُقيـا فـإلى يـوم عـطب[١٣]
وخـلفَ الـدهـر عـلى أعـقـابـه ... في القدح فيه وارتجاع ما وهب[١٤]
فحمّـل الـدهـر ابن عيسى قـاسمـاً ... ينهض بـه فـرَّاجُ هـمٍّ وكـرب[١٥]

(١) في الأغاني: «يبتهج بقربه وذاهب».
(٢) في الأغاني: «وقاراً يُجتوى».
(٣) في الأغاني: «أجري سادراً». والسادر: المتحير.
(٤) الربرب: القطيع من بقر الوحش. أعوجي: فرس منسوب إلى اعوج وهو فرس لبني هلال.
(٥) في الأغاني: «مرتهجٌ يرتجّ».
(٦) في الأغاني: «عنه المحزمان» والمحزم: الحزام. اللبب: ما يُشد على صدر الدابة.
(٧) في الأغاني: «فيه حنب» و «كمتن القد ح ما فيه حنب».
(٨) في الأغاني: «يناهبن». العُوج: النوق الضامرة. شظى: شقاق العصب.
(٩) في الأغاني: «ناتئة إذا خطت». و «على الرُّكب».
(١٠) في الأغاني:

رُمـنـا بـه الـصـيـد فـراديـنـا بـه ... أوابـد الـوحش فـأجـرى واكـتـسـب

(١١) في الأغاني: «حيث طلب».
(١٢) في الأغاني: «فوته العير كذب». والتظنّي: إعمال الظن.
(١٣) في الأغاني: «لم تبقه».
(١٤) في الأغاني: «على ابنائه بالقدح فيهم».
(١٥) في الأغاني: «ينهض به أبلج فرّاج الكرَب».

كـرونق السيف انبلاجـا بـالنـدى أو كغـراريـه على أهـل الـريـب
لا وسـنـتْ عـيـنُ رأت غُـرتـهُ واستيقـظت نبوتـه من النوب [1]
لـولا الأمـيـرُ لـغـدونـا هـمـلاً لم يمتثل مجد ولم يـرع حسب [2]
ولـم يـقـم بـبـأسٍ يـوم ونـدىً ولا تـلاقـى سببٌ إلـى سـبـب [3]
تكـادُ تبـدي الأرضُ مـا أضمـره إذا تـداعـى خيـله هـلا وهـب [4]
ويـسـتـهـلُّ أمـلاً وخـيـفـةً إذا استهـلَّ وجهـهُ وإن قـطـب [5]
وهـو وإن كـان ابنُ فَـرعَي وائـل فبسمـاعيـه تـرقَّى في الحسب [6]
وبـعـلاهُ وعُـلا آبـائـه تُحوى غـداةَ السبقِ أخطارُ القصب
يـا واحدَ الـدنيـا ويـا بـابَ الـنـدى ويا مُجيرَ الرعبِ في يوم الرَّهَب [7]
لـولاك مـا كـان سـدى ولا نـدى ولا قـريشٌ عُـرفـت ولا الـعـرب
خـذهـا امتحـاناً من مليءٍ بـالحجـا لـكنـه غـيـرُ مـليءٍ بـالـنـشـبْ [8]
وقـرَّ بـالأرض أو اسـتـقـر بـهـا أنتَ عليهـا الـرأسُ والنـاسُ ذنبْ [9]

قال: فجعل ينشد وأبو دلف يرجف إليه حتى مست ركبتاه ركبتيه، فلما بلغ قوله:

لـكـنـه غـيـر مـلـيء بـالـنـشـب

قال: لا ملأني الله إن لم أملأك؛ يا غلام! كم في بيت المال؟ قال: ما قبضته من عامل الجبل، وهو مائة ألف درهم، قال: أعطه إياها وقليل له ذلك، قال: فأقبل عليه عقيل أخوه يعذله ويقول له: أنت على باب أمير المؤمنين، وبين ظهراني قواده وأمرائه، ولا وجه لما لا يرد عليك من الجبل، فادفع إليه البعض. قال: إليك عني، والله لو شاطرته عمري لكان ذلك دون ما يستحقه عليّ.

ومن المديح الجيد قول مروان بن أبي حفصة:

كـفـى الـقـبـائـلَ مـعـنٌ كـلَّ مـعـضـلةٍ يُحمى بها الـدينُ أو يُـرعى بهـا الحسبُ
كـنـز الـمـحـامـدِ والـتـقـوى ذخـائـرُه ولـيس مـن كـنـزهِ الأوراق والـذهـب [10]

---

(١) في الأغاني: «ما وسنت عين رأت طلعته فاستيقظت» . . .
(٢) في الأغاني: «لولا ابن عيسى القرمُ كنّا» و لم يؤتثل».
(٣) في الأغاني: «في يوم بأس وندى».
(٤) في الأغاني: « ما تضمره» و «إذا تداعت».
(٥) في الأغاني: «جانبها إذا استهل أو قطب».
(٦) في الأغاني: «فبسماعيه يوافي».
(٧) في الأغاني: «يا زهرة»، و «من يوم».
(٨) في الأغاني: «خذها إليك من مليء بالثنا».
(٩) في الأغاني: «فاثو في الأرض او استفزز بها».
(١٠) في الأصل: «كثرة» وليس «كنزه».

أنت الشهابُ الذي يُرمَى العدوُّ به ... فيستنير، وتخبو عنده الشهب
بنو شريك، همُ القومُ الذين لهم ... في كل يوم رهان تحرزُ القصبُ
إن الفوارسَ من شيبانَ قد عُرفوا ... بالصدق إن نزلوا، والموتِ إن ركبوا
قد جَرَّب الناسُ قبل اليومِ أنهم ... أهلُ الحلومِ وأهلِ الشغب إن شغبوا
قل للجواد الذي يسعَى ليدركه ... أقصر! فمالك إلّا الفوتُ والطلب

قوله: فما لك إلّا الفوت والطلب. من أحسن معنى وأجوده، وأبينه بياناً، وأشده إختصاراً، وهو من قول زهير[1]:

سعى بعدهم قومٌ لكي يُدركوهمُ ... فلم يفعلوا، أو لم يلاموا، فلم يألوا

وقال طريح:

قد طلب الناسُ ما طلبتَ فما ... نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا
يرفئك الله بالتكرم والتقوى فتعلو وأنت مقتصدُ

وقلت في قريب منه:

إذ عنَّ مجدٌ أو تعرضَ سُؤددٌ ... تسامى له ضخمُ الهمومِ هُمامُ
إذا اهتزَّ للهيجاءِ فهو مُهنَّدٌ ... أو اهتزَّ للإفضال فهو غمام
تواضعَ، وهو النجمُ عِزاً ورِفعةً ... وخفَّ على الأرواحِ وهو شمام[2]
أرجيهِ يوماً أو ألاقيه ساعةً ... فيخصبُ عامٌ ويمرعُ عامُ
يُريدونَ منه أن يَضنَّ وإنما ... أرادوا جُمودَ الغيم وهو رُكام
ولا عيبَ فيه غير أن ذوي النَدَى ... خِساسٌ، إذا قيسوا به، ولئام
بلغتَ من العلياءِ ما فاتهم معاً ... كأن لم يروموا ما بلغتَ وراموا
فمن مُبلغٌ عني الأكارمَ أنهم ... إذا استيقظوا للمكرومات، نيامُ

وأجمع بيت قيلَ في المديح قول أبي العميثل[3] في عبد الله بن طاهر[4]

قالت: ركعتَ، فقلتُ: إن وراءكم ... أن قد كبرت ومنِ يعمّرْ يركعِ
وعهدتني أمضي لشأني مطلقاً ... فبليتُ بعدك بالنَّسا والأجدعِ[5]
يا من يؤملُ أن تكون خِلاله ... كخلال عبد الله، أنصتْ واسمعِ

---

(١) ديوان زهير: ٦٣.
(٢) شمام: من الشمم اي الرفعة.
(٣) ابو العَميثَل هو عبد الله بن خليد بن سعد، من الشعراء الفضلاء، مؤدب، وكان أبو خليد مولى لبني العباس. توفي سنة ٢٤٠ هـ. (الأعلام: ٤/٨٥).
(٤) عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، من الولاة في العصر العباسي على الشام ثم مصر ثم الدينور ثم خراسان. له أعمال عظيمة. مات بمرور سنة ٢٣٠ هـ. (الأعلام: ٤/٩٣).
(٥) النَّسا: عِرق من الورك إلى الكعب. الأجدع: المقطوع الأنف، والشيطان.

فلأنصحنك في المشورةِ والذي حجَّ الحجيجُ إليه فأقبلْ أو دَعِ
أصدق وعفَّ، وجد وأنصت وأحتمل وأصفح وكاف ودار واحلم واشجع

وقد جمع هذا البيت جميع خصال المدح، وسمعه المتنبي فأراد أن يعيب على قالبه فأتى بما لا ينطق به اللسان ولا ينطوي عليه الجنان.

ومن الأبيات الجامعة في المديح، قول ابن الرومي:

هو الغرة البيضاءُ من آلِ هاشمٍ وهم بعده التحجيلُ، والناسُ أدهمُ[(١)]

ومن الأبيات الجامعة لمعاني الحسن قول[(٢)] البحتري:

ذاتِ حسنٍ لو استزادتْ من الحُسـ ـنِ إليه لما أصابتْ مَزيدا
فهي الشمسُ بهجةً، والقضيبُ الـ ـلدنُ ليناً، والريمُ طرْفاً وجيدا[(٣)]

وقال في هذه القصيدة:

وإذا ما عددت يحيى وعمرا وإياساً وعامراً ووليداً[(٤)]
وعَبيداً ومُسهِراً وجديا وتدولاً وبحتراً وعتودا
لم أدع من مَناقبِ ما يُقـ ـنع مَن همَّ أنْ يكون مجيدا

وقلت في المديح:

حليفُ عَلاءٍ ومَجدٍ وفخرٍ وبأسٍ وجودٍ وخَيرٍ وخيرِ
أضاءَ فاطرقَ ضوءُ الشموسِ وتمَّ فأغضى تمَامُ البدورِ

وقلت في المديح أيضاً:

من الغرِّ لاحوا أشمساً ومضوا ظبىً وصالوا أُسوداً واستهلوا سواريا

ومن المديح البليغ قول الأوَّل:

متبذِّلٌ في الحيِّ وهو مُبجَّلٌ متواضعٌ في القومِ وهو مُعظَّمُ

وما أحسن في ذكر التواضع أحد كإحسان أبي تمام في قوله:

إذا أحسن الأقوامُ أن يَتطاولوا بلا مِنةٍ أحسنتَ أن تتطولا
فعظمتَ عن ذاك التعظم منهم وأوَصاك نبلُ القَدر أن تتنبلا[(٥)]

وقال[(٦)] البحتري في التواضع مع علو الرتبة:

دنوت تَواضعاً وعلوتَ قَدْرا فحالاك: انحدارٌ وارتفاعُ

---

(١) ديوانه: ٥/٢٨١. التحجيل: البياض. الدهمة السواد.
(٢) ديوانه: ٢/٤٩. عـ.
(٣) في الديوان: «الغض ليناً والرئم».
(٤) في الديوان: «وأباناً وعامراً والوليدا».
(٥) ديوانه: ٢٢٣. وفي البيت الثاني: «تعظمت عن». والتنبل: التفضل.
(٦) ديوانه: ٢/٢١٧ ص. وفيه:
دنوت تواضعاً وبعدت قدراً فشأناك انحدار وارتفاع

كـذاك الشمسُ تبعُـد أن تـسـامى ... ويـدنـو الضـوءُ منهـا والشعـاعُ

فأتيت بهذا المعنى في بيت:

تـواضـع إذا مـد العـلاء بضبعـه ... كما انحطَّ ضوءُ البدرِ وارتفعَ البـدرُ

وأجود ما قيل في صفة الرجل الحازم من قديم الشعر، قول لقيط بن يعمر(١):

فـقـلدوا أمـرَكـم لله دَرُّكـم ... رحبَ الذراعِ بأمر الحق مضطلعا(٢)

لا متـرفاً إنْ رَخـاءُ العيشِ سـاعـدَه ... ولا إذا عضَّ مكـروهٌ بـه خَشَعـا(٣)

مـا انفكَّ يحلب هـذا الدهـر أشطرَه ... يكـون مُتبِّعـاً طـوراً ومُـتَّبِعـا(٤)

لا يـطعـمُ النـومَ إلاّ ريث يبعثـه ... همٌّ يكـادُ حشاه يحـطم الضِّلعـا(٥)

حتى استمـرَّ على شـزرٍ مـريـرتـهِ ... مستحكمَ الرأي لا قَحماً ولا ضَرَعا(٦)

ومن هنا أخذا الشاعر قوله:

ولستُ بمفـراح إذا الـدهـرُ سـرَّني ... ولا جـازعٍ من صَـرفـهِ المتقلّبِ

وقول دريد بن الصِّمة(٧):

يـنـازلُ أخـدانَ الـرجـالِ وإنّـه ... لـمـجـدُ ثـنـاءٍ ثـمّ يـزدد

ويخـرجُ من العـزاءِ الشـدة مصدقاً ... وطـولُ السُّرى درى عَضْبٍ مهنّـدِ

هذا البيت أجود ما قيل في سمة الخلق من قديم الشعر:

كـمـيشُ الإزار خـارجٌ نـصـفُ سـاقـهِ ... صبـورٌ على العـزّاءِ طـلاعُ أنـجُـدِ(٨)

قـليـلُ التشكي لـلمصـيبـاتِ حـافظٌ ... من اليـوم أعقابَ الأحـاديثِ في غـدِ(٩)

---

(١) لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي، شاعر جاهلي فحل من اهل الحيرة. (الأعلام ٥/٢٤٤).

(٢) في الديوان: ٤٧. وفيه: «بأمر الحرب».

(٣) في الديوان: ٤٨. وفيه: «لا مشرفا إنْ...».

(٤) في الديوان: ٤٨. وفيه: «در الدهر».

(٥) في الديوان: ٥٥. وفيه: «يكاد سناه يقصم».

(٦) في الديوان: ٤٩. وفيه: «حتى استمرت». و«مستحكم السن». والشزر: الذي لا يفتل على وجهه. المريرة: الإحكام.

(٧) دريد بن الصِّمة: من جُشم من هوزان، شاعر جاهلي من الشجعان كنيته ابو قرّة. مات قتيلاً. والبيتان في ديوانه: ٤٩ باختلاف كبير:

لـه كـل مـن يـلقـى مـن الـنـاس واحـداً ... وإن يـلقـى مـثـنـى الـقـوم يـفـرح ويـزددِ

وتـخـرج مـنـه صـرّة الـقـوم جـراة ... وطـولُ الـسُّـرى ذرّى عـضـبٍ مـهـنـدِ

والـصـرّة: الـشـدة. ذرّيـه: وشـيـه. يـشـبـهـه بـأثـر الـذر اي الـنـمـل.

(٨) كميش الإزار: مشمّره. أنجُد: جمع نجد: ما ارتفع من الأرض. والبيت وما يليه في ديوان دريد: ٤٩. وأراد: إنه سريع في أموره، صبور على الشدائد.

(٩) في الديوان: «قليل تشكيه».

إذا سارَ بالأرضِ الفضاءِ تزينت ... لرؤيته كالمأتم المتبددِ[1]
فلا يبعدنك الله حياً وميتاً ... ومن يعله ركنٌ من الأرض يبعد

موضع هذه الأبيات من باب المرائي وإنما أوردتها هنا لأن قوله فيها: «قليل التشكي للمصيبات» شبيه بما تقدم من قوله الآخر:

ولا جازع من صرفه المتقلب

ومن شعر المحدثين قول[2] أبي تمام:

وعززتُ بالسبع الذي بزئيرهِ ... أمستْ وأصبحتِ الثغورُ عزيفا[3]
قطب الخشونةِ والليان بنفسه ... فغدا جليلاً في العيونِ لطيفا[4]
هزّته معضلةُ الأمورِ وهزّها ... وأُخيفَ في ذاتِ الآله وخيفا
يقظان أحصدت التجاربُ جزمه ... شزراً وثقّف عزمَه تثقيفاً[5]
وسلكن من أترابه الشعل التي ... لو أنهن طبعن كنَّ سيوفا[6]

وإنما أخذ وصف هذا البيت من ديك الجن[7] وكان أبو تمام كثير الإناحة عليه وهو قوله [8] في مرثيته:

ماء العبرات خدي أرضُه ... لو كان من مطرٍ لكان هزيما[9]
وبلابل لو أنهن مآكل ... لم تخطىء الغسلين والزقّوما[12]
وكرمي بر وعسى لو أنه ... ظلّ لكانَ الحرَّ واليحوما[13]

ونقل البيت الأول أبو تمام إلي موضع آخر فقال[14]:

مطرٌ من العَبَرات خدي أرضُهُ ... حتى الصباحِ ومقلتاي سماؤهُ

---

(١) في الديوان: «إذا هبط الأرض الفضاء».
(٢) الأبيات في ديوانه: ١٨٣.
(٣) العزيف: صوت الجن.
(٤) في الديوان:
قطب الخشونة بالليان معاقباً ... فغدا جليلاً في القلوب لطيف
(٥) في الديوان: «التجارب عقده» و «ثقف حزمه». والشرز: الشدة.
(٦) في الديوان: «واستل من آرائه الشعل التي».
(٧) ديك الجن: هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب، الكلبي الحمصي، شاعر طريف ماجن، مات سنة ٢٣٥. (سير اعلام النبلاء: ١١/١٦٣).
(٨) الأبيات ليست في ديوانه.
(٩) الهزيم: صوت الرعد، والرعد نفسه.
(١٢) الغسلين والزقوم: طعام اهل النار.
(١٣) اليحموم: شدة الحر.
(١٤) الديوان: ٣٨١. وفيه «قطراً من». و «ومقلتاه».

ومن ذلك قول[1] أبي تمام:

وإذا رأيتَ أبا يزيدٍ في ندى … ووغىً ومبدى غارةٍ ومُعيدا
أيقنت أن من السماحِ شجاعةً … تُدمي وأن من الشجاعة جوداً[2]
ومكارماً عُتُقَ النِّجارِ تَليدةً … إن كان هَضْبُ عمايتين تليدا
متوقدٌ منه الزمانُ وربما … كان الزمانُ بآخرين بليدا

وقال[3] البحتري:

أغرُّ، لنا من جُوده وسماحهِ … ظهيرٌ عليه ما يخيبُ وشافِعُ
ولمّا جرى للمجدِ، والقومُ خلفَهُ … تغوّل أقصى جهدِهم وهو وادِعُ
وهل يتكافا الناسُ شتى خِلالهم … وما يتكافى في اليدين الأصابعُ[4]
إذا ارتدَّ صمتا فالرؤوس نواكسٌ … وإن قال فالأعناقُ صُوْرٌ خواضِعُ[5]
وأغلبُ ما ينفكُّ من يَقَظاتهِ … ربايا على أعدائه وطلائِعَ[6]
جَنانٌ، على ما جرَّت الحربُ، جامعٌ … وصدرٌ لما يأتي مِنَ الدهرِ واسعُ[7]
جديرٌ بأن ينشقَ عن ضَوْءِ وجههِ … ضبابةُ نقعٍ تحتَه الموتُ ناقعُ
تذودُ الدنايا عنه نفسٌ أبيةٌ … وعزمٌ، كصدرِ الهندوانيّ، قاطعُ[8]
بعيدٌ مقيلُ السرِّ لا يُدركُ التي … يحاولُها منه الأريبُ المخادعُ[9]
ومنكمُ التدبيرُ ليس بظاهرٍ … على طَرفِ الرائي الذي هو تابعُ[10]
ولا يعلمُ الأعداءُ من فرطِ عزمهِ … متى هو مَصبوبٌ عليهم فواقعُ

لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة، وتصوب الرأي، ومضاء العزيمة، والدهاء وشدة الفكر، إلّا قد اجتمع ذكره في هذه الأبيات، ولا أعرف أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه إلّا البحتري.

وقال بعضهم: أجود ما قيل في صفة الرجل الحازم قول زينب[11] بنت الطثرية:

---

(١) ديوانه: ٨١.
(٢) في الديوان: «من السماحة جوداً».
(٣) ديوانه: ١/٤٨ ص.
(٤) في الديوان: «تتكافي في ..».
(٥) صور: جمع أصور أي مائل.
(٦) في الديوان: «ما تنفك». والربايا جمع الربيئة وهي طليعة الجيش.
(٧) في الديوان: «يأتي به».
(٨) في الديوان: «كحد الهندواني».
(٩) في الديوان: «مبيدّ مقيل» و«يدرك الذي».
(١٠) ليس في الديوان.
(١١) هي زينب بنت سلمة القشيرية، شاعرة لها قصيدة في ديوان الحماسة في رثاء أخيها يزيد. لها اخبار في الأغاني، ماتت سنة ١٣٥ هـ. (الأعلام: ٣/٦٦). البيتان في الأغاني: ٨/١٨٢. وقيل هما لأم يزيد.

إذا جَدَّ عندَ الجدِّ أرضاك جدهُ ... وذو باطلٍ إن شئت ألهاك باطلهْ
يَسرُّك مظلوماً ويُرضيك ظالماً ... وكلّ الذي حملته فهو حامله

ومثله قول الآخر:

أخو الجد إن جَدَّ الرجالُ وشمروا ... وذو باطلٍ إن كان في الناس باطلُ

ومن المديحِ المفرط قول منصور النمري في هارون:

إذا ما عددَت الناسَ بعد محمدٍ ... فليس لهارونَ الإمامِ نظيرُ

فضله على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وهذا مكروه جداً، وأكره منه قول[1] أبي نواس:

تَنازعَ الأحمدانِ الشبهَ فاشتبها ... خَلقاً وخُلقاً كما قُدَّ الشراكان

فجعل النبي ﷺ ومحمد بن هارون سواءً في الخَلْق والخُلُق.

وبعد بيت النمري أبيات جياد منها قوله:

منيع الحمى لكنّ أعناقَ ماله ... بظلِّ الندى يسطو بها ويسورُ

كأنه من قول كثيِّر[2]:

غُمر الرداءِ إذا تبسمَ ضاحكاً ... غلقت لضحكته رقابُ المالِ

وهذا في قول[3] الأخطل:

وقفتُ على حاليكما فإذا الندَى ... عليك أميرَ المؤمنين أميرُ
خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأنني ... عليك أميرَ المؤمنين أمير
يروحُ ويغدو ساجياً في وقاره ... على أنه يوم المرام ذكير[4]
وليس لأعباءِ الأمور إذا عرت ... بمكترثٍ لكن لهنَّ قَهور
يرى ساكنَ الأوصال باسط جهده ... يريك الهوينا والأمورُ تطير

ولا أعرف في هذا المعنى أجود من هذا البيت.

وقالوا: أمدح بيت قاله محدث قول النمري في هارون:

إن المكارمَ والمعروفَ أوديةً ... أحلك الله منها حيثُ تجتمع[5]

أخذه من قول أبي وجزة السعدي[6]:

---

(١) البيت ليس في ديوانه.

(٢)كثيِّر: هو كثيِّر بن عبد الرحمن بن ابي جمعة من خزاعة، شاعر رافضي، وهو من العشاق المشهورين، صاحبته عزّة. مات سنة ١٠٥ هـ (الأعلام ٥/٢١٩).

(٣) ديوانه: ١٨٩.

(٤) سجى: سكن، ذكير: قوي.

(٥) البيت في الأغاني: ١٣/١٤٥.

(٦) ابو وجزة: هو يزيد بن عبيد من بني سعد، كان شاعراً مجيداً، راوية للحديث. توفي بالمدينة سنة ١٣٠ هـ. (الشعر والشعراء: ٢/٥٩١).

أتـاك الـمـجـدُ مـن هـنّـا وهـنـا وأنـتَ لـهُ بـمـجـتـمـع الـسـيـولِ

وأخذه ابن أمية[1] الكاتب فقال في غزل:

تـركـت فـيـك الـتـي .....؟ وأنت منهـا بـمـجـمـع الـطرقِ[2]

ونقلته إلى الهجاء فقلت:

أتغـدو بمستن العيـون مخيمـا وأنـتَ بعيبِ العـالمين مـوكـلُ

وفي قصيدة النمري أبيات قليلة النظير منها قوله[3]:

مستحكم الـرأيِ، مُستغنٍ بوحدته عن الـرجال، بـريب الدهـرِ مضطلعُ
يقـري العـدوَّ المنـايـا والقَنـاةُ نـدى من كـلِّ ذاك القـرى أحـواضـه تـرعُ
إذا بلغنـا جمـال الأرض لم تـرنـا للحـادثـاتِ، بحمـدِ الله، نختشـع
لمـا أخـذتُ بكفي حبـلِ طـاعتـه أيقنت أني مـن الأحـداثِ ممتنـع
إن الخليفـةَ هـارونَ الـذي امتـلأت منـه القلوبُ وجـارتْ تحتـه تـرع
إن أخلف الغيثُ لم تخلف مخـائله أو ضـاقَ أمـرٌ ذكـرنـاه فـيتّسـعُ

أخبرنا أبو أحمد، رحمه الله تعالى، عن الصولي عن المبرد وغيره قال: شكا منصور إلى العتابي طلقاً استمر بامرأته ثلاثة أيام، تخوف عليها منه، فقال العتابي: دواؤه معك، أقرب منها وقل: «هارون»، فإن أمرها يسهل. فغضب منصور فقال له: لا تغضب فأنت قضيت بذلك في قولك:

إن أخلف الغيثُ لم تخلق مخـائلُهُ أو ضـاق أمـرٌ ذكـرنـاه فـيتسـعُ

فأسكت منصور.

ومن المديح البارع قول[4] بشار:

ألا أيـهـا الـطلبُ الـمـبـتـغي نـجـومَ الـسـمـاءِ بـسـعـيٍ أمَـمْ
سمعـتَ بمكـرمـةِ ابن الـعـلاءِ فـأنـشـأتَ تـطلبهـا لـستَ تـم
إذا عَـرضَ الـهـمُّ فـي صـدرهِ لـهـا بـالـعـطاءِ وضـربِ الـبُهُـم
فـقـل لـلخـلـيـفـةِ إن جِئـتـهُ نصيحـاً، ولا خيـر في المتهـم
إذا أيـقـظتـك جسـامُ الأمـور فـبـنـه لـهـا عـمـراً ثـمَّ نَـمْ
فـتـىً لا يَـبـيـتُ عـلى رمـقـهِ ولا يـشـربُ الـمـاءَ إلّا بـدم
يحبُّ العـطاءَ، وسفـكَ الـدمـاءِ، فـيـغـدو عـلى نِـعَـمٍ أو نِـقَـمْ

---

(١) ابن امية: انظر الفهرست لابن النديم: ٢٣١.
(٢) الفراغ هكذا في الأصل.
(٣) الأبيات في الأغاني: ١٤٥/١٣.
(٤) ديوان بشّار: ٥٨٩. وفي الأغاني ١٣٨/٣.

وقال[1] البحتري:

إذا المهتدي بالله عُدَّتْ خِلالُهُ ... حسبتَ السماءَ كاثرتك نجومُها

وقلت:

كم غايةٍ لكُم تقاصَرَ دُونها ... مَنْ رامها فكأنه ما رامها
يعلو كرام العالمين وإنما ... يعلو كرامُ العالمين لئامَها
وإذا تسامى الأكرمون إلى العلا ... نالوا مناسمها ونلت سنامها
أمِنَ المكارم أن يُبدِّدَ شملها ... لما رأتك نظامَهُ ونظامها
ذلت له نُوَبُ الزمان وأصبحت ... في عقوتيه جبالها آكامها

وقال[2] البحتري:

إذا ذُكِرت أسلافُه، وتُشُوهِرَت ... أماكنها، قلت: النجوم قبورُها
إذا ماتت الأرضُ ابتدوها، كأنما ... إليهم حياها، أو عليهم نشورها
ودون عُلاهُم للمُسامِين برزخٌ، ... إذا كلفته العيرُ طال مَسيرُها
بتدبير مأمونِ على الأمر، رأيُهُ ... ذكيرٌ، وأمضى المرهفات ذكورها
وذو هاجِسٍ لا يحجبُ الغيبُ دونه، ... تريه بطونَ المشكلات ظهورُها

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن عبد الله بن الحسن، عن البحتري قال: سمعت إبراهيم ابن الحسن بن سهل يقول: كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية، وكان عمي الفضل بن سهل يقول: الأوائل حجة وهؤلاء أحسن تفريعاً، إلى أنه أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمي[3] شعراً يمدحه فيه فلما بلغ إلى قوله:

ترى ظاهرَ المأمونِ أحسن ظاهر ... وأحسن منه ما أسرَّ وأضمرا
يناجي له نفساً تريع بهمة ... إلى كل معروفٍ وقلباً مُطهرا
ويُخشع إجلالاً له كلُّ ناظرٍ ... ويأبى لخوف الله أن يتكبرا
طويلٌ نجاد السيفِ، مضطمر الحشا ... طواه طراد الجيش حتى تحسرا
رِفِلٌ إذا ما السلمُ رفل ذيله ... وإن شمرت يوماً له الحرب شمر[4]

فقال للفضل: ما بعد هذا مدح وما أشبه فروع الإحسان بأصوله.

ومن المدح القليل النظير، قول أمامة بنت الجلاح الكلبية:

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو الحسن البرمكي أحمد بن جعفر، حدثني محمد بن ناجية

---

(١) ديوانه: ١/٧١ ص.

(٢) ديوانه: ٢/١٣٩ ص.

(٣) التيمي: عبد الله بن أيوب، أبو محمد التيمي، من تيم اللات بن ثعلبة، أحد شعراء الدولة العباسية. مات سنة ٢٠٩ هـ. (الأعلام: ٤/٧٣).

(٤) رفّل في ثيابه: أطالها، وذلك كناية عن هدوء البال.

الرصغاني قال: كنت أحد من رقعت عليه التهمة أيام الواقعة بمال مصر، فطلبني السلطان طلباً شديداً حتى ضاقت عليَّ الأرض برحبها، فخرجت إلى البلاد مرتاداً رجلاً عزيزاً منيع الدار، أعوذ به وأنزل عليه، حتى انتهيت إلى بني شيبان ابن ثعلبة، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية منيعة، وإلى جانبه فرس مربوط ورمح مركوز يلمع سنانه، فنزلت عن فرسي، وتقدمت فسلمت على أهل الخباء، فردّ عليّ نساء من وراء السجف، يرمقنني من خلل الستور بعيون كعيون أخشاف الظباء، فقالت إحداهن: اطمئن يا حضري! فقلت: وكيف يطمئن المطلوب أو يأمن المرعوب، وقلما ينجو من السلطان طالبه، والخوف غالبه، دون أن يأوي إلى جبل بعصمه، أو معقل يمنعه، فقالت: يا حضري! لقد ترجم لسانك عن قلب صغير وذنب كبير، قد نزلت بفناء بيت لا يضام فيه أحد، ولا يجوع فيه كبد، ما دام لهذا الحي سبد أو لبد[1] هذا بيت الأسود بن قنان، إخوانه كلب، وأعمامه شيبان، صعلوك الحي في ماله وسيدهم في فعاله، لا ينازع ولا يدافع، له الجوار وموقد النار، وطلب الثار، وبهذا وصفته أمامة بنت الجلاح الكلبية حيث تقول:

إذا شئتَ أن تَلقى فَتىً لو وزنته ... بكلِّ معديٍّ وكلِّ يَماني
وَفَى بِهم حلماً وجُوداً وسُؤدداً ... وبأساً، فهذا الأسودُ بنُ قنان
فتىً كالفتاة البكر يسفر وجهه ... كأن تلالي وجهه القمرانِ
أغر، أبر ابني نزار ويَعرُب، ... وأوثقهم عقداً يقول لسانِ
وأوفاهمُ عهداً، وأطولهم يداً، ... وأعلاهمُ فعلاً بكل مكان
وأضربهم بالسيفِ من دون جاره، ... وأطعنهم من دُونهِ بسنانِ
كأن العطايا والمنايا بكفه ... سحابان مقرونان مؤتلفان

فقلت:

الآن ذهبت عني الوحشة وسكنت الروعة، فأنّى لي به؟ قالت: يا جارية اخرجي فنادي مولاك، فخرجت الجارية فما لبثت إلاّ هنيهة، حتى جاءت وهو معها في جمع من بني عمه، فرأيت غلاماً حسناً اخضر شاربه واختط عارضه وخشن جانبه، فقال: أي المنعمين علينا أنت؟ فبادرت المرأة فقالت: يا أبا مرهف! هذا رجل نَبَتْ به أوطانه، وأزعجه سلطانه، وأوحشه زمانه، وقد أحب جوارك ورغب في ذمتك، وقد ضمنا له يضمنه له لمثله مثلُك، فقال: بلَّ الله فاكِ! قال: فأخذ بيدي وجلس وجلست، ثم قال: يا بني أبي وذَوي رحمي! أُشهِدكم أن هذا الرجلِ في ذمتي وجواري، فمن أراده فقد أرادني، ومن كاده فقد كادني، وما يلزمني من أمره من حال إلاّ ويلزمكم مثله، فليسمع الرجل منكم ما يسكن إليه قلبه وتطمئن إليه نفسه. فما رأيت جوابا قط أحسن من جوابهم إذ قالوا أجمعهم: ما هي أول منة مننت بها علينا، ولا أول يد بيضاء طوقتناها، وما زال أبوك قبلك في بناء الشرف لنا ودفع الذم عنا، فهذه أنفسنا وأموالنا بين يديك. ثم ضرب لي قبة إلى جانب بيته فلم أزل عزيزاً منيعاً، حتى سنح لي السلطان ما أملت فانصرفت إلى أهلي.

---

(١) يقال: ما له سبد أو لبد اي ما له قليل أو كثير.

ومن المديح البارع قول[1] الأخطل:

شُمسُ العـدواةِ حتى يستقـادَ لهـم ... وأعـظمُ النـاسِ أحـلامـاً إذا قـدروا

أخذه خارجة بن مليح المكي وأحسن:

آل الـزبـيـر نـجـومٌ يُـسـضـاء بـهـم ... إذا احتبى الليـلُ في ظلمـائـه زهـروا
قـومٌ إذا شـومسـوا لـجَّ الشمـاسُ بهم ... ذاتَ الإبـاءِ، وإن يـاسـرتهم يسـروا[2]

ومنه قول كثير في عبد الملك[3]:

أبوك الـذي لمـا أتى مـرجَ راهط ... وقـد ألبوا من جمعهم مـا تـألبـا[4]
تسنـأ لـلأعـداء حتى إذا أتـوا ... لمـا شـاء منهم طـائعين تحببـا

وقال[5] البحتري:

حَـرونٌ، إذا عـازرتَـه في مُلمـةٍ، ... فإن جئته من جانب الذلِّ أصحبا

ونحوه:

كـريمٌ يغضُّ الطرفَ فضـلُ حيـائـه ... ويـدنـو، وأطـرافُ الرمـاحِ دواني
وكـالسيفِ إن لاينتـه لانَ مَتنـهُ، ... وحـدّاه، إنْ خـاشنتـه، خَشنـان

ومثل قول خارجة:

إذا احـتبى الليـل في ظـلمـائـه زهـروا

قول الأشجع[6]:

إذا غـاب عنـا الفجـرُ خُضنـا بـوجهـه ... دُجى الليـلِ حتى يَستنيـرَ لنـا الفجـرُ

وقال خارجة أيضاً:

ويـسـفـر لـلسـاري إذا جُـنَّ لـيـلهُ ... سبيـل المطايا بـالـوجوه السـوافـرِ[7]

وقال إدريس بن أبي حفصة:

لمـا أتتـك، وقـد كـانت منـازعـة، ... وَافَى الـرضـا بين أيـديهـا بـأقيـاد
لهـا أمـامـك نـورٌ تستضيء بـه ... ومن رجـائـك في أعقـابهـا حـادي
لهـا أحـاديثُ من ذكـراك تشغلُهـا ... عن الـرتـوعِ وتلهينـا عـن الـزادِ

---

(١) ديوانه: ١٠٦.
(٢) يُقال: شَمسَ له: أبدى عداوة.
(٣) عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي. توفي سنة ٨٦ هـ.
(٤) مرج راهط: موضع دارت فيه معركة تمكن فيها بنو أمية وأنصارهم.
(٥) ديوانه: ١/ ٥٥ ص.
(٦) الأشجع: هو ابن عمرو السُّلمي، كان متصلاً بالبرامكة وله فيهم شعر كثير مات سنة: ١٩٥ هـ. الأعلام: ٣٣١/١.
(٧) الساري: السائر ليلاً.

ولا أعرف في معناها مثلها.

وقال غيره:

إذا أشـرقت في جنح ليـل وجوهُهم كفى خـابطَ الظلمـاءِ ضـوءُ المصـابحِ
وإن نـاب خَـطبٌ، أو ألـمت مُـلمـةٌ فـكم ثـمَّ مـن آسـي جـراحٍ وجـارح

ومن أجود ما قيل في صفة الرجل الجواد، قول(1) أبي الأسد الدِّينَوري(2):

ولائـمـة لامتـك يـا فيضُ في النـدَى فقلتُ لهـا لن يَقـدَحَ اللومُ فـي البحـرِ
أردات لتثني الـفيضَ عـن عـادة النـدى ومن ذا الـذي يَثني السحابَ عن القـطرِ
مـواقـع جـودِ الـفيضِ فـي كـلِّ بـلدة مـواقـع مـاءِ المـزنِ في البلد القفـرِ

ولا أعرف في معناها مثلها.

وقلت:

تـقـضـي مـآربـه مـن كـلِّ فـائـدة لكن من المجـد مـا تقـضي مـآربُـهُ
أفـاده الـعـزَّ آبـاءٌ ذوو كـرم وزادهُ الـخلقُ الـمخـضـر جـانـبـه
لـقـد فضلتَ كـرامَ النـاس كـلهـم فـهم منـاسـمُ مَجـد أنـت غـاربـه
يـا ليتَ شعري هَـل يستـطيعُ شكرَكم دهـرٌ مسـاعيكم فيـه مَنـاقـبـه
وحيـنَ أرضـيتـم كـنتـم نـوافـلـه وأنـتمُ، حين أسخـطتم، نـوائبـه
منكم على الـدهـر عينٌ لا تنـاومـه ولـلحـوادث قِـرن لا تـغـالـبـه

ومن أجود ما قيل في ذكر الجود قول(3) الأشجع في جعفر بن يحيى(4):

يـرومُ المـلوكُ جدى جـعـفـر ولا يَـصنعـونَ كـمـا يَصنـعُ
وكـيـف يـنـالـونَ غـايـاتِـه وهـم يَـجـمـعـونَ ولا يَـجمـعُ
ولـيس بـأوسعـهم فـي الـغنـى ولـكـنَّ مـعـروفَـه أوسـع
فمـا خلفـه لامـرىء مـطمـعٌ ولا دونـه لامـرىء مـقـنـع
إذا رفـعـت كـفـه مـعـشـراً أبى العِـزُّ والفضـل أن يـوضعـوا
ولا يـرفـعُ الـنـاسُ من حـطهُ ولا يضـع النـاسُ من يَـرفـعُ
رأيـتُ المـلوكَ تَـغضُ العـيـون إذا مـا بـدا المـلكُ الأتـلعُ(5)
بـديـهـتـهُ مـثـلُ تـدبـيـره متى هـجتـهُ فـهـو مُستجمـع

---

(1) الأغاني: ١٤/١٣٤.
(2) ابو الاأسد: نُباتة بن عبد الله الحماني التميمي، شاعر من اهل الدينور، مات سنة ٢٢٠ هـ. (الأعلام: ٨/٧).
(3) الأغاني: ١٨/٥٢٤.
(4) جعفر: هو الوزير أبو الفضل بن الوزير يحيى بن خالد البرمكي، كان فصيحاً أديباً، قتل سنة ١٨٧ هـ.
(5) يقال أتلع: مدّ رأسه تطاولاً.

أخذ قوله «بأوسعهم في الغنى» من قول الأول:

له نارٌ تشبُّ بكلِّ أرضٍ ... إذا النيرانُ جللتِ القناعا
وما أن كان أكثرهم سواداً ... ولكن كان أرحبهم ذِراعا

وقال بعض المولدين:

وما رأيتُك في حالٍ تكونُ بها ... أدنى إلى كلِّ خيرٍ منك في العدمِ

ومن أجود ما قيل في الصلة على بعد الدار قول نهشل بن حرِّي[1]:

جزى الله خيراً، والجزاء بكفه ... بني الصلتِ إخوان السماحةِ والمجدِ
أتاني وأهلي بالعراق نداهُمُ ... كما صاب غيثٌ من تهامةَ في نجد
فما يتغيرُ من زمانٍ وأهله ... فما غير الأيام مجدَكُمُ بَعْدِي

فأخذه البحتري أخذاً ما رأيت أعجب منه، وقد وجه إليه بنو السمط برمي حمص إلى منبج فقال:

جزى اللَّهُ خيراً، والجزاء بكفه ... بني السمطِ إخوانِ السماحةِ والمجدِ
همُ حضروني والمهامهُ بيننا ... كما ارفضَّ غيثٌ من تهامةَ في نجدِ[2]

إلّا أن قوله:

هم حضروني والمهامهُ بيننا

أبدع وأحسن من قول نهشل:

أتاني وأهلي بالعراق نداهم

وأخذه ابنِ المولى[3] فقال:

فرحتُ بجعفرٍ لما أتانا ... كما سُرَّ المسافرُ بالإيابِ
كممطورٍ ببلدتهِ فأضحى ... غنياً عن مطالعةِ السّحابِ

وأخذه أبو السمط بن أبي حفصة فقال في عبد الله بن طاهر:

لعمري لنعمَ الغيث غيثٌ أصابنا ... ببغدادَ من أرضَ الجزيرة وابُلهْ[4]
ونِعمَ الفتى والسدُّ بيني وبينه ... بسبعينَ ألفاً صبحتني رسائله
فكنا كحيّ صبَّح الغيثُ دارَهُ ... ولم يحتمل أظعانه وجمائله[5]

---

(١) نهشل: هو نَهشَل بن حَرِّي بن ضَمرة الدارمي، شاعر، حسن الشعر. أسلم وصحب علياً. مات سنة ٤٥ هـ. (الأعلام: ٨/٤٩).

(٢) المهامِه: الفلوات. ارفضّ: تفرّق.

(٣) ابن المولي: محمد بن عبد الله بن مسلم، مولى بني عمرو بن عوف، من الأنصار شاعر متقدم مجيد مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية، كان ظريفاً عفيفاً، حسن الهيئة، له مدائح كثيرة. مات سنة ١٧٠ هـ. (الأعلام: ٦/٢٢١).

(٤) الوابل: المطر الغزير.

(٥) الظعائن: جمع الظعينة: الهودج فيه امرأة.

وأخذه أبو تمام فقال[1]:

لم أستطع سيراً لِمدحةِ خالدٍ فجعلتُ مِدحَتَ إليه رسولا
فليرحلنَّ إليك نائلُ خالدٍ وليكفينَّ رواحلي الترحيلا[2]

وأخذه أبو هفان[3] فقال في أحمد بن محمد بن ثوابة[4]:

نفسي فداءُ أبي العباس من رجلٍ لم ينسني قطُّ في نأيٍ ولا كَثَبِ
يقري وبالرقةِ البيضاءِ منزلةً من بالعراقينِ من عُجم ومن عرَبِ[5]
أغنيتني عن رجالٍ أنت فوقهم في المكرماتِ ودونَ القوم في النشب

وأصل ذلك كله من قول جرير:

أخبرنا أبو أحمد، عن علي بن سليمان الأخفش، عن ثعلب، عن محمد بن سلام قال: قال أبو الغراف: بعث عبد العزيز بن مروان إلى جرير بمال من الشام فتجهز يريده فأتاه نعيه فقال جرير يرثيه[6]:

بنفسي امرأً والشامُ بيني وبينهُ أتتني ببشرى بردُهُ ورسائلُه

قال أبو أحمد قال أبو الحن لا يجوز عندنا (إلا امرئ) إلّا أن الرواية هكذا، معناه أفدي.

أتى زمنُ البيضاءِ بعدك فانتحى على العظم حتى أثلمته حوامِلُه[7]
فيومانِ من عبدِ العزيزِ تفاضَلا ففي أيِّ يومَيه تلومُ عواذلُه[6]؟
فيومٌ تحوطُ المسلمين جيادُهُ ويومٌ عطاه ما تغبّ نوافله[8]

ومن المديح البارع قول[9] إبراهيم بن العباس:

أسدٌ ضارٍ إذا هيجته وأبٌ بَرٌّ إذا ما قدرا
يعلمُ الأبعد إن أثرى ولا يعلمُ الأدنى إذا ما افتقرا

ومن بليغ المديح ما أنشدناه أبو أحمد في جملة خبر أخبرناه عن أبيه، عن أحمد ابن أبي طاهر النديم، عن عبد الله بن السري، عن أحمد بن سليمان قال: قال عبد الله بن زيد القسري:

---

(١) ديوان ابي تمام: ٢١٥.

(٢) الفائل: العطاء.

(٣) ابو هفّان: هو عبد الله بن احمد بن حرب المهزمي العبدي، راوية عالم بالشعر والأدب، من أهل البصرة. كان متهتكاً فقيراً مات سنة ٢٥٧ هـ. (الأعلام: ٤/٦٥).

(٤) ابن ثوابة: هو احمد بن محمد بن ثوابة، من كبار الكتاب في العصر العباسي، كتب لمعز الدولة احمد بن بويه. مات سنة ٣٤٩ هـ. (الأعلام: ١/٢٠٨).

(٥) العراقان: الكوفة والبصرة.

(٦) البيت ليس في ديوانه.

(٧) أثلم: شق.

(٨) تغب نوافله: تنقص عطاياه.

(٩) الأغاني: ١٠/٦٥.

كنت قائماً على رأس ابن هُبيرة(١) وعنده سماطان من وجوه الناس، إذا أقبل شاب لم أر مثل جماله، وكماله، فقال:

أصلح الله الأمير، إني امرؤ فدحته كربة، وأوحشته غربة، ونأت به الدار، وأقلقه الأمعار(٢)، وحل به عظيم خذله أخلاؤه، وشمت به أعداؤه، وجفاه القريب وأسلمه البعيد، فقمت مقاماً لا أرى فيه معولاً، ولا جازى نعمه إلاّ رجاء الله تعالى، وحسن عائدة الأمير، وأنا، أصلح الله الأمير، ممن لا تجهل أسرته ولا تضيع حرمته، فإن رأى الأمير أن يسد خَلّتي، ويجبر خَصاصتي(٣)، فعل، فقال ابن هبيرة: ممن الرجل؟ قال: من الذين يقول لهم القائل:

فـزارة بيتُ المجدِ والعزِّ فيهم ... فـزارةُ قيسٍ حَسبُ قَيس فعالُها
لها العزة القعساءُ والشرفُ الذي ... بناهُ لقيسٍ في القديم رجالُها
وهل أحدٌ إنْ مدَّ يوماً بأنفهِ ... إلى الشمسِ في جَوِّ السماءِ ينالها
لهيهات ما أعيا القرونَ التي مَضتْ ... مآثرُ قيسٍ واعتلاها خصالها

فقال ابن هبيرة: إن هذا الأدب حسن مع ما أرى من حداثة سنك، فكم أتت لك؟ قال: تسع وعشرين ـ فلحن الفتى ـ فتبسم ابن هبيرة كالشامت به وقال: ألحن أيضاً مع جميل ما أتى عليه منطقك، شبته بأقبح عيب، فأبصر الفتى ما وقع فيه فقال: إن الأمير، أصلحه الله تعالى، عظم في عيني وملأت هيبته صدري، فنطق لساني بما لا يعرفه قلبي.

فقال له ابن هبيرة:

وما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده، ويحضر بها سلطانه ويزين بها مشهده، ويتبوأ بها على خصمه، أو يَرضى أحدكم أن يكون لسانه مثل لسان مملوكه وأكّاره(٤) وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، فإن كان سبقك لسانك، وإلاّ فاستعن على إصلاحه ببعض ما أوصلناه إليك، ولا يستحي أحدكم من التعلم، فإنه لولا هذا اللسان لكان الإنسان كالبهيمة المهملة، قاتل الله الشاعر حيث يقول(٥):

ألم تَرَ مفتاحَ الفؤادِ لسانُه ... إذا هو أبدى ما يقولُ من الفمِ
وكائنْ تَرَى من صامِت لك مُعجب ... زيادَتُه أو نقصهُ في التكلم
لسانُ الفتى نصف ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدَّمِ

ومن بارع المديح:

---

(١) ابن هُبيرة: هو عمر بن هبيرة بن سعد بن عدي الفزاري، من الأمراء الشجعان تولى امارة العراق وخراسان ليزيد بن عبد الملك. مات سنة ١١٠ هـ. (الأعلام: ٦٨/٥).

(٢) الأمعار: سقوط الشعر، والفقر.

(٣) الخَلّة والخصاصة: الحاجة والفقر.

(٤) الأكّار: الحرّاث.

(٥) ديوان زهير: ٧٤.

وليِ منـك مـوعـودُ طلبتُ نجـاحَـهُ ... وأنتَ امـرؤ لا تخلفُ الـدهـرَ مَوْعِـدا
وَعـوَّدتَـنـي أن لا تـزال تُـظلنـي ... يـدٌ منك قـد قَـدَّمْتَ من قبلهـا يـدا
فـلو أن مـجـداً أو نـدى أو فـضيـلةَ ... تـخـلدُ شـيئـاً كـنـتَ أنـتَ الـمـخـلدا

ومن بليغ المديح ما أنشدناه أبو أحمد عن الصُّولي عن أبي العيناء عن الأصمعي للصموت الكلابي: وقال مرة للصّموت الكلابية امرأة:

لله دَرُّكَ أيُّ جُـنّـةِ خـائـف ... ومتـاع دُنيـا أنتَ في الحِـدثـان[1]
مـتـخـمط يـطأ الـرحـال غُـلبَّـةً ... وطـأ الـفـنـيـق دوارج الـقـردان[2]
وتفـرج البـابَ الشـديـدَ رتـاجُـه ... حـتـى يـكـونَ كـأنـه بـابـان

وتبعه أبو تمام فقال[3] في ابن دؤاد:

فـلتبـكِ الأحسـابُ أي حيـاةٍ ... وحـيـا أزمـةٍ وحـيّـةِ وادِ[4]
عـاتـقٌ مَـتـقٌ مـن الـلومِ إلاّ ... من مقـاساةِ مغرمٍ أو نِجـادِ[5]

ومن أجود ما قيل في صفة الكمال قول كشاجم[6]:

ومـهـذبِ الألـفـاظ مَـنـطقـهُ ... مـا فيـه من خَـطلٍ ولا مَـيـنِ
مـا شئتَ من ظَـرفٍ ومـن شيم ... مـا في محـاسنهن مَن شيـن
مـا كـان أحـوج ذا الكمـال إلى ... عـيـبٍ يـوقـيـه من الـعـيـن

قد أحسن وظرف ولم يقصر في تقليل الحز وإصابة المفضل. ومثله قوله:

يـا كـامـلَ الآدابِ مُنفـردَ العـلا ... والمكرمـات، ويـا كثير الجـاسدِ
شَخصَ الأنـامُ إلى كمالـك فاستعذ ... مـن شـر أعينهم بـعـيـبٍ واحـدِ

وقال[7] ابن الرومي يمدح بعض العمال وقد نُكب:

لا يستـطيعـك بـالتنقصِ حـادثٌ ... وأبى لـك التكميـلُ أن تـتـزيـدا
وكـأنني بـك قـد نجوتَ محمـد ... في الـنـائبـاتِ كمـا دعيت محمـدا
فـطلعتَ كـالسيفِ الحسامِ مجـرّداً ... لـلحقّ أو مـثـلِ الهـلالِ مـجـددا
شهـد النهـارُ وكشفـه غُممَ الـدجى ... إنّ الـزمـانَ مُـبـيِّضٌ مـا سـودا

---

(١) الحِدْثان: الحوادث.

(٢) متخمّط: قاهر. الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته. القردان جمع قُرْد وهي دويبة.

(٣) ديوان ابي تمّام: ٧٠. من قصيدة يمدح فيها احمد بن ابي داؤاد. وابن ابي دؤاد هو قاض مشهور معتزلي، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، وكان كريماً ذا دهاء محباً للخير. مات سنة ٢٤٠ هـ. الأعلام. ١/١٢٤.

(٤) في الديوان: «مَلِيَتْكَ الأحسابُ».

(٥) في الديوان: «من الهون إلاّ». عاتق: من العِتق: الحرية. النَجاد: الذي يقوم بالأمر.

(٦) كشاجم: شاعر زمانه، أبو نصر محمود بن حسيب، وكان كاتباً منجماً. مات سنة ٣٦٠ هـ. (الأعلام: ٧/١٦٧.

(٧) ديوان ابن الرومي: ٢/٢٠٢.

ومثله قول الآخر:

فما كنت إلّا السيف جُرِّدَ في الوغى ... وأخمد في الهيجاء وردّ إلى الغمد

ومن أبلغ المديح:

بديهته وفكرتهُ سواءُ ... إذا ما نابَهُ الخطبُ الكبيرُ
وصدرٌ فيه للهمِّ اتساعٌ ... إذا ضاقت من الهمِّ الصدور

ومن أبلغ المديح قول[1] البحتري:

أخذوا النبوةَ والخلافةَ، وانثنوا ... بالمكرُماتِ كثيرِها وقليلِها
وإذا قريشٌ فاضلتك فضَلْتَها ... بأبي خلائفها، وعم رسولها
وجوادُها ابن جوادِها وكريمُها ابن ... كريمها ونبيلُها ابن نبيلها
لوْ سارت الأيامُ في مسعاتهم ... لتنالها لتقطّعت في طُولها
رَفعتْهمُ الأياتُ في تنزيلها، ... وَقضتْ لهم بالفضلِ في تأويلها
وإذا انشعبتَ أخذتَ خيرَ فروعها، ... وإذا رجعتَ أخذت خير أصولها

وقلت:

لئن قلَّ أربابُ المكارم والعلا ... ليحيى كثيرٌ في العلا والمكارمِ
يذكرني جودَ الغمائم جودُهُ ... وشكري له شكرَ الثرى للغمائمِ
تخال به بدراً مع الليلِ باهراً ... يلوحُ على عرف من الليل فاحم
يديلُ من الأيام والدهرُ مُنصف ... بعزم على الأيام والدهر حاكم
يبزُّ من الأنجاد كل مَساور ... ويعلو من الأمجاد كل مكارم[3]
بخلق كمتنِ الصخر في كفِّ لامسٍ ... وطور كجري الماء في عين حائمِ
ورأي كصدر الراغبية شارعٌ ... وعزم كحدِّ المشرفية صارم
على بلدة يسقي الضراغمَ ملؤها ... ويسقي بها الألى دماء الضراغمِ[4]

ومن بارع المديح قول أبي تمام:

رأيت لعياشٍ خلائفَ لم تكن ... لتكملِ إلّا في اللباب المهذّبِ[5]
له كرمٌ لو كانَ في الماء لم يَغِض ... وفي البرق ما شامَ امرؤٌ برقُ خلّبِ[6]

---

(١) ديوانه: ١/٣٢٧ عـ.

(٢) في الديوان: وشريفها ابن شريفها ونبيلها».

(٣) المساور: الذي ينازعك.

(٤) الضراغم: الأسود.

(٥) البيت وما يليه في ديوان ابي تمّام: ٢٧. وفيه «خلائق لم».

(٦) شام البرق: نظر إليه. البرق الخلب: المخلف.

أخـو عَـزَمــاتٍ بـذْلــه بـذلُ مُحسنٍ إلينا، ولكن عُـذرُه عُـذرُ مـذنبِ[1]
يَهـولُـك أن تلقـاه في صـدرِ مَحْفـل وفي نحر أعداءٍ، وفي قلبِ مَوكبِ[2]
ومــا ضيقُ أخـطارِ البــلادِ أضـاقني إليك، ولكن مذهبي فيك مذهبي[3]
وهـذي ثيابُ المـدح فاجـرر ذيولهـا عليك، وهذا مركبُ الحمدِ فاركبِ[4]

وقد أحسن التنوخي[5] في أبيات له منها:

وفتيــة من حِمْيــرَ حُمــر الـظُّبى بيض العطايا حينَ يسودُّ الأمـل[6]
شمــوسُ مجـدٍ في سمــواتِ عــلا وأسـدُ مـوتٍ بين غـابـاتِ أسـل

وقلت:

المجـدُ إلاّ سمــاءٌ أنت كـوكبهــا والـجـود إلاّ غمــامٌ أنـت سـلسـله
فكـل سـابقِ قــوم أنـتَ سـابقـهُ وكـل فـاضـلِ حـزب أنت تفضله
بــالعقـد تحكمــه، والأمرِ تبـرمُـهُ والعـرض تَمنعـهُ، والمـال تَبذلـهُ

وللمحدثين أبيات بارعة سائرة في المديح منها قول[7] أبي تمام:

أيــامُنــا مـصـقـولـةٌ أطـرافُـهــا بـك، والـليــالي كـلُّهـا أسـحـارُ

مأخوذ من قول عبد الملك بن صالح، حدثنا أبو أحمد أخبرنا الصولي حدثنا شيخ ابن حاتم العكلي حدثنا يعقوب بن جعفر قال: لما دخل الرشيد منبج، قال لعبد الملك: أهذا البلد منزلك؟ قال: هو لك ولي بك. قال: كيف بناؤك فيه؟ قال: دون منازل أهلي وفوق منازل غيرهم، قال: فكيف صفة مدينتك هذه؟ قال: هي عذبة الماء، باردة الهواء، قليلة الأدواء. قال: كيف ليلها؟ قال: سحر كله قال: صدقت! بإنها لطيبة. قال: لك طابت وبك كملت، وأين بها عن الطيب، وهي تربة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، فياف فيح بين قيصوم وشيح. فقال الرشيد لجعفر بن يحيى: هذا الكلام أحسن من الدر المنظوم، فأخذه ابن المعتز[8] فقال:

---

(١) في الديوان: «اخو أزمات».

(٢) في الديوان:

يـهـولـك أن تـلقـاه صـدراً لـمـحـفـل ونـحـراً لأعـداء وقـلـبـاً لـمـوكـب

(٣) في الديوان: «أضافني إليك».

(٤) في الديوان: «وهاك ثياب».

(٥) التنوخي ؛ القاضي العلامة أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم مولده سنة ٢٧٨ هـ بأنطاكية، كان معتزلياً شاعراً منجماً أديباً، تولى قضاء الأهواز. مات سنة٣٤٢ هـ . (الأعلام : ٤/ ٣٢٤).

(٦) الظُّبى: جمع ظباة: حد السيف.

(٧) ديوانه: ١٣١.

(٨) ابن المعتز: عبدالله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي خليفة يوم وليلة، شاعر مجيد له مصنفات منها: «أشعار الملوك». خلعه من الخلافة المقتدر العباسي. ثم قتلوه خنقاً سنة ٢٩٦ هـ . ومولده سنه ٢٤٧ ه . (الأعلام: ٤/١١٨). والبيتان في ديوانه: ٣٦٢.

يـا رُبَّ لـيـلٍ، سَـحَـرٌ كـلُّه، مفتَضِـحُ البـدرِ عـليـلُ النسيمِ
تـلـتقطُ الأنـفـاسُ بـردَ الـنـدَى فـيـه فـتـهـديـه لـنـارِ الـهـمـومْ

وقال(1) ابن الرومي:

كـأن أيـامـهـن كـالـبُـكَـرِ

وقلت:

أيـامُـنـا فـي جـوارهُ بـكـرُ ولـيـلنـا فـي فِـنـائـه سـحـر

ومنها قول(2) أبي نواس:

أنـت الـخـصـيـبُ وهـذه مـصـرُ فـتـدفـقـا فـكـلاكـمـا بـحـرُ

وقوله(3):

ولـيس عـلى الله بـمسـتـنـكـرٍ أن يـجـمـعَ الـعـالـمَ في واحـد

وقوله(4):

فتى يشتـري حسنَ الثنـاءِ بمـالـه ويـعـلـمُ أن الـدائـراتِ تـدورُ
فمـا جـازه جـودٌ، ولا حـل دونـه، ولكن يصيـرُ الجـودُ حيثُ يصيـر

وقول(5) أبي العتاهية:

أتـتـه الـخـلافـةُ مـنـقـادة إلـيـه تـجـررُ أذيـالـهـا
ولـم تـكُ تـصـلحُ إلاّ لـهُ ولـم يـكُ يَـصـلحُ إلاّ لـهـا
ولـو رامَـهـا أحـدٌ غـيـرُه لـزلـزلـتِ الأرضُ زلـزالَـهـا

وقول مسلم إلاّ أنه مرثية:

وإني وإسمـاعـيـل يـومَ وفـاتـه لكـالغمد يـوم الروع فـارقهُ النصلُ
فـإنْ أغشَ قـومـاً بعـده أو أزرهُمُ فكالوحش يدنيها من الأنَسِ المحل

الأنس جمع مثل خدم.

وقول بعض الأعراب في معن بن زائدة:

أنتَ الجـوادُ ومنـك الجـودُ أولـه فـإن فُقدتَ فمـا جـودٌ لمـوجـود
أضحت يمينُـك من جودٍ مصـورة لا بـل يمينك منهـا صـورةُ الجـودِ
من نور وجهك تضحي الأرضُ مشرقةً ومن ثنـائك يجـري المـاءُ في العـودِ

---

(1) ديوان ابن الرومي: ٣/٢٦. وتمام البيت:

كـانـت لـيـالـيـه كـلهـا سـحـراً وكـان أيـامـهـن كـالـبُـكـر.

(2) ديوانه: ٣٢٦.

(3) ديوانه: ١١٨.

(4) ديوانه: ٣٢٨.

(5) الأبيات ليست في ديوانه. هي في الأغاني: ٤/٣٣.

وقول(1) البحتري:

وقد قلتُ للمعلي إلى المجدِ طَرفَهُ: دَع المجدَ فالفتحُ بنُ خاقان شاغلهُ
صفْت مثلَ ما تصفو المُدامُ خلالَه، ورقّتْ كما رقّ النسيمُ شمائلُه

والعرب تتمدح بطول القامة، فمن أجود ما قيل فيه، قول(2) أبي تمام:

أناس إذا يدعى نزالِ إلى الوغى رأيتَهمُ رجلى كأنهم ركْبُ(3)
من المطريّينَ الأولى ليس ينجلي بغيرهم للدهرِ صِرفٌ ولا كرْبُ
جعلتَ نظامَ المكرمات فلم تدرْ رحا سؤددٍ إلّا وأنت لها قُطبُ
إذا افتخرتْ يوماً ربيعةُ أقبلتْ مجنبتي مجدٍ وأنت لها قلبْ

ومن أجود ما قيل في قدم الشرفِ ووضوحِ النسبِ قول(4) أبي تمام:

نسَبٌ كأن عليه من شمس الضّحى نوراً ومن فلق الصباحِ عمودا
عُريانُ لا يكبو دليلٌ من عمىً فيه ولا يبغي عليهِ شهودا
شرفٌ على أولي الزمانِ وإنما خَلَقُ المناسبِ ما يكون جديدا
لو لم تكن من نبعةٍ نجديّة علويّة لظننتُ عودك عودا
مطرٌ أبوك أبو أهلّة وابل ملأ البسيطةَ عدّةً وعديدا(5)
ورِثوا الأبوّةَ والخطوطَ فأصبحوا جمعوا جدوداً في العلا وجدودا
أكفاؤه تلدُ الرجالَ وإنما ولد الحتوفُ أساوداً وأسودا(6)

أخذه السري فقال في المهلبي:

نسبٌ أضاءَ عمودُه في رفعه كالصبح فيه ترفُّعٌ وضياءُ
وشمائلٌ شهدَ العدوُّ بفضلها والفضلُ ما شهدت به الأعداء

وهذا من قول البحتري:

لا أدَّعي لأبي العلاءِ فضيلةً، حتى يسلّمها إليه عِداهُ(7)

وقلت:

قد نلتَ بالرأي والتمييز منزلةً ما نالها أخواك: البحر والمطرُ
وبالتكرم والأفضال مرتبةً لم يُعطها خادماك: السيفُ والقدرُ

---

(1) ديوان البحتري: ١/٥٣ ع.
(2) ديوانه: ٣٥.
(3) في الديوان: «كماة إذا».
(4) ديوانه: ٨٠.
(5) الوابل: المطر الغزير.
(6) أساود: جمع سود: حية.
(7) ديوان البحتري: ١/٢٨٠ ع. وأبو العلاء: صاعد بن مخلد الوزير.

قالوا: أيمطرُ من محل ألمَّ بـه؟ فقلتُ: قـد تمطر الأنهـارُ والغدرُ
مـالٌ يبـددُهُ في جمـع مَكـرُمـةٍ فـالمجـدُ مُجتمـعٌ، والماءُ منتشـرُ
كروضةٍ أخـذت بـالغيثِ زُخـرُفَهـا فـالـروضُ منتـظمٌ، والغيثُ منتشـرُ
مناقبُ مـا يكـادُ الـدهـرُ يهـدمُهـا كـأنّهـا أَصَـلٌ لـلدهـرِ أو بُـكَـرُ
فابشر فـإنـك رأسٌ والعـلا جسـدٌ والمجـدُ وجهٌ وأنتَ السمعُ والبصرُ
لـولاك لـم تـك لـلأيـام منقبـةٌ تسمـو إليهـا ولا للدهـر مفتخـرُ

وقلت:

هـل أنت إلاّ البـدرُ تـمَّ تمـامُـه والغيثُ بـاكـرَ وبلهُ وسـجـامُـه[١]
والسيفُ أرهفَ لـلمضـاءِ غـرارُه والـرمـحُ قـوَّمَ لِـلُقـاءِ قـوامُـه
أنت الـربيـعُ الغضُّ رقّ نسيمُـه واخضـرَّ روضتـه وصـاب غمـامـه
خُلقٌ كنشـرِ الـروضِ طـلّ نباتـهُ أو مثل صرفِ الراحِ فُضَّ خِتامـه[٢]
لـلأولـيـاء رخـاؤه ورخـاؤه وعلى العداةِ سمـومه وسِمـامُـه[٣]
يـا من أدلّ على الـزمـانِ زمـانُـه وزرى عـلى أيـامِـه أيـامُـه،
يـدنـو فـيغـمـرُ كـلَّ شيءٍ فـضلُه كـالخصب يُنعش كـل خلق عـامـهُ
مـا أن يـزال من المـآثـر والعـلا في مـوكـب منشـورة أعـلامـه
عـالٍ تَسَوَّرَ فـوق قِمـة سؤددٍ أوفى على قمم النجـوم سَنـامـه
يبـدو فيبـدي الصبـحُ غُـرةَ وجهـه والليـل قـد قبَض العيـونَ ظلامـهُ
سبق الجيـادَ فـمـا يُشقُّ غُبـارُه وعـلا القـرينَ فمـا يُـرام مـرامـه
ولئن أبـرَّ على الحسـامِ عـزيمـةً فكمـا أبـرَّ على القضـاءِ حُسامُـه
وكـأنـمـا أقـلامُـه أَسـيـافُـهُ وكـأنـمـا أسـيـافُـه أقـلامُـه
مـا المجدُ إلاّ العقـدُ، جودُك شـذرُه ونـداك لـؤلـؤُه، وأنـت نـظامُـه
والجـودُ في يـدِك اليمين عِنـانـهُ والبأسُ في يدك الشمـالِ خطامه[٤]
مـا زال فـوتـك في اللواءِ مـوليـا مـولي المخـافـة خلفـه وأمـامُـه
فـاعمـر على زمنٍ أغـر محجّـل قـد تمَّ فيك على الـورى إنعـامُـه

وقال آخر وأحسن:

كـم صغـروا منهـمُ والله يكـلؤهـم نعمـاء مـا صغـرت إلاّ لأن عـظمـوا

---

(١) الوبل: المطر الغزير. السجام: انهمار الدمع.
(٢) الراح: الخمرة.
(٣) سَموم وسِمام بمعنى: السم.
(٤) الخِطام: الزمام، مايعلق في انف البعير.

وقال أبو يعقوب الخريمي(١):

فلو لم يكن إلّا بنفسك فخرُها ... لكان لها يومَ الفخارِ بك الفضلُ
جريتَ على مهل فأتعبت من جرى ... فلا تعبٌ يدني إليك ولا مهلِ
ويبذل دنياه ويمنعِ دينهُ ... فلا مثلَ ذا بذلٌ ولا مثلَ ذا بُخْلُ

وقلت:

وقفتُ على يحيى رجائي وإنما ... وقفتُ على صوبِ الربيع رجائيا
إذا ما الليالي أدركت ما سعت له ... تمطيت جدواه ففقت اللياليا
إذا غاب جاء المزن في الجود سابقا ... وإن آب جاء المزن في الجود تاليا(٢)
إذا الغيثُ باراه ثنى الغيثَ مقصرا ... أو البرق جاراه ثنى البرق كابيا
فتى لم نزنه بالقوافي وإنما ... حططنا إليه كي نزينَ القوافيا
من الغرِّ لاحوا أشمساً ومضوا ظبى ... وصالوا أسوداً واستهلوا سواريا
رأيت جمالَ الدهر فيك مجدداً ... فكن باقياً حتى ترى الدهرَ فانيا

وقلت:

في فتية أخلاقُهم وفعالهم ... عِرسٌ تكامل حسنها وعرائس
حَلَّ السرور حباهمُ في مجلس ... للمجد والعلياء فيه مجالس
فهمُ إذا نظروا الصديق كواكبٌ ... زهرٌ وإن نظروا العدوَّ حنادس(٣)
أو قيل تلتف الجياد بمثلها ... فهم ضراغم والعداة فرائس
فالليل منهم شامسٌ والصبح منهم دامسٌ والدهرُ منهم وارس

وأظن ابن الرومي سبق إلى معنى قوله(٤):

نفائس ماله أدناه مجنىً ... من الأيدي جميعاً والأماني
كذاك فوارضُ الثمراتِ تدنو ... لجانيها فتمكِن كلَّ جاني

وأخبرنا أبو أحمد عن العبشمي، عن المبرد قال: أتى شاعر أبا البختري وهب بن وهب، وكان من أجود قريس، كان إذا سمع المادح له ضحك وسرى السرور بجوانحه، وأعطى وزاد، فأنشده هذا الشاعر:

لكلٍّ أخي فضلٍ نصيبٌ من العلا ... ورأس العلا طراً عقيدُ الندى وهبُ
وماضرَّ وهباً عيبُ من جحد الندى ... كما لا يضر البدرَ ينبحه الكلب

---

(١) الخريمي: اسحاق بن حسّان بن قوهي، أبو يعقوب، شاعر مطبوع، مدح البرامكة. مات سنة ٢١٢ هـ. (الأعلام: ١/٢٩٤).

(٢) المزن: جمع المزينة: السحابة الماطرة.

(٣) حنادس: ليلي مظلمة.

(٤) ديوانه: ٦/٢١٠.

فثنى له الوسادة وهشَّ إليه ورفده وحمله وأضافه، فلما أراد الرحيل وهو أشد خلق الله اغتباطاً، لم يخدمه أحد من غلمان أبي البختري[1]، ولا عقب له ولا حل، فأنكر ذلك مع جميل ما فعل به، فعاتب بعضهم فقال: إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعين المرتحل على الفراق، فبلغ ذلك جليلاً من القرشيين فقال: والله لفعل هؤلاء العبيد أحسن من رفد سيدهم.

ومن بليغ المعاني في المديح قول ابن الرومي:

لعـاً من عـاثـر لـك يـا ابن يحيى ... يموتُ الكاشحـونَ وأنت تحيا[2]
عـلى أن الـمـمـاتَ لـكـلِ حـيّ ... وقيتَ بـه من الحِـدثـان محيـا

وقال خلف بن خليفة[3]:

إن استجهلوا لم يغـرب الحلمُ عنهمُ ... وإن آثـروا أن يجهلوا عَظم الجهـلُ
همُ الجبلُ الأعلى، إذا مـا تناكـرت ... ملوكُ الـرجـالِ أو تخاطـرتِ النـزلُ
مـواعيـدُهم فعـلٌ إذا مـا تكلمـوا ... بتلك التي إن سُميت وَجب الـفعـلُ
ألم تـر أن القتـلَ غـالٍ إذا رضـوا، ... وإن غضبـوا في موطن رَخُصَ القتـلُ

وقلت:

لقـد علمت يحيى مـوافيـة العـلا ... فـضـائـل آبـاء تلتهـا فـضـائـلهُ
فحـاز طـريفَ المجـدِ بعـدَ تليـدهِ ... رفيـع يـطول النجمَ حين يـطاولـه
فتى غُـرَّةُ الأيـام حسنُ صنيعـه ... وتيجـانُـهـا أخـلاقُـهُ وشمـائله
ومـا هـو إلاّ المـزن تصفـو خـلالـه ... ويـعـلو مـبـواه ويبـكـرُ هـاطـلُهْ

---

(١) ابو البَخْتَري: وهب بن وهب بن كبير القرشي، قاضٍ من العلماء بالأخبار والأنساب، اتهم بوضع الحديث، كان كثير العطايا للشعراء. مات في بغداد سنة ٢٠٠ هـ. (الأعلام: ٨/١٢٦).

(٢) البيتان في ديوانه: ٦/٣٦٧. لعاً: دعاء للعاثر. الكاشح: المبغض.

(٣) هو خلف بن خليفة الأقطع: شاعر أموي مطبوع، راوية، كان لسناً بذيئاً من الظرفاء. مات سنة ١٢٥ هـ. الأعلام: ٢/٣١٠). (والشعر والشعراء: ٢/٦٠٢)

الفصل الثاني من الباب الأول في الافتخار

قالوا: أفخر بيت قالته العرب قول[1] جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناسَ كلهم غضابا

وقالوا: قال عبد الملك بن مروان للفرزدق وجرير والأخطل: من أتاني منكم بصدر هذا البيت: «والعود أحمد»، فله عشرة آلاف درهم، فما كان فيهم مجيب، فأدخل أعرابي من عذرة إليه، فأنشده:

فإن كان مني ما كرهتَ فإنني أعودُ لما تهواهُ، والعودُ أحمدُ

قال لم تصب ما أردت فأنشد:

وأحسن عمرو في الذي كان بيننا فإن عاد بالإحسان فالعودُ أحمدُ

فقال عبد الملك: أحسنت، ولكن لم تصب ما أردتُ، فأنشد:

جزينا بني شيبانَ قِدماً بفعلهم وعُدنا بمثل البدءِ والعودُ أحمدُ

فقال: هذا طلبت. ثم قال: أخبرني عن أهجى بيت قالته العرب. قال:

قول[2] جرير:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ولو وضعت فِقاحُ بني نميرٍ على خَبثِ الحديدِ إذاً لذابا

قال: فأخبرني عن أمدح بيت قالته العرب العرب! قال:

قول[3] جرير:

ألستم خَيرَ من ركب المطايا وأندى العالمينَ بُطونَ راح

قال: فما أفخر قالته العرب؟ قال: قول جرير:

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلّهمُ غِضابا

---

(١) ديوانه: ٦٤.

(٢) ديوانه: ٦٣.

(٣) ديوانه: ٧٧.

قال: فما أغزل بيت قالته العرب؟ قال: قول[1] جرير:

إن العيونَ التي في طَرفها مرض، قتلننا، ثم لم يحيينَ قتلانا[2]
يَصرعنَ ذا اللبِ حتى لا حَراك بهِ؛ وهُنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

قال: فما أحسن بيت قيل؟ قال: قول[3] جرير:

وطوى الطراد مع القياد بطونها طي التجار بحضرموت برودا

قال: فما أقبح بيت قيل؟ قال قول[4] جرير:

ألم تَرَ أنَّ جِعْثنَ وَسْطَ سعدٍ تُسمى بَعدَ قِضتها الرحابا
ترى برَصاً بأسفل إسكتيها كنفقةِ الفرَزْدَق حينَ شابا

قال: فما أهجن بيت قيل؟ قال: قول[5] جرير:

طرقتك صائدةُ القلو وليس ذا حين الزيارة، فارجعي بسلام

قال: فهل تعرف جريراً؟ قال: لا ولكن ترد علينا أقاويل الشعراء، فلم أرَ شعراً أرق في الوزن، ولا أملأ للفم من شعره، فقام جرير فقبل رأسه، وجعل جائزته في هذا العام له، وأضاف عبد الملك إليها مثلها، وكتب إلى عامله باليمامة أن يُنصف من خصم تظلم منه.

وقد قال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير[6]:

بدأتم فأحسنتم فأثنيتُ جاهداً وإن عدتمُ أثنيتُ والعودُ أحسن

وقال[7] ابن المعتز أو غيره:

خليليَّ قد طابَ الشرابُ المبرَّدُ، وقد عُدتُ بعد النسك والعودُ أحمد

وقال ابن حبيب: دخل رجل من بني سعد على عبد الملك بن مروان فقال له: ممن الرجل؟ قال من الذين قال لهم الشاعر:

أذا غَضبتْ عليكَ بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلّهم غِضابا

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم القائل:

يزيد بنو سعد على عدد الحصى وأثقل من وزن الجبال حلومها

---

(١) ديوانه: ٤٩٢.
(٢) في الديوان: «في طرفها حَوَرٌ».
(٣) ديوانه: ١٣٤.
(٤) البيتان ليسا في ديوانه.
(٥) ديوانه: ٤٥٢.
(٦) هو عُمَارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الكلبي. شاعر مقدّم من اهل اليمامة، كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء العباسيين، فيجزلون صلته. مات سنة ٢٣٩ هـ. (الأعلام: ٥/٣٧).
(٧) ديوان ابن المعتز: ١٥٨.

قال: فمن أيها أنت؟ قال من الذين يقول لهم الشاعر:

ثيابُ بني عوفٍ طهارى نقيةٌ وأوجههُم عند الشاهدِ غُرّانُ[1]

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

فلا وأبيك ما ظلمت قريع بأن يبنوا المكارم حيث شاؤوا

قال: فمن أيهم أنت؟ قال من الذين يقول لهم الشاعر[2]:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ومن يسوّي بأنفِ الناقةِ الذنبا

قال: اجلس لا جلست والله لقد خفت أن تفخر عليَّ.

وقالوا: أفخر بيت قالته العرب، قول[3] الفرزدق:

ترى الناسَ ما سِرنا يَسيرونَ خلفَنا وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقَّفوا

ورواه لنا أبو علي بن أبي حفص: «أربأنا» قال: والإرباء الإشارة إلى خلف والإيماء إلى قدام، والناس يجعلون هذا البيت لجميل في قصيدته التي يقول فيها[4]:

وكانت تجيدُ الأسدُ عنا مُخافةً فهل يقتلني ذو بنان يطرفُ
لقد أخلفت ظني وكانت مخيلة وكم من مخيل يرتجي ثم يخلفُ
إذا انتهبَ الأقوامُ مجداً فإننا لنا مِغرفا مجدٍ وللناسِ مغرفُ
وضعنا لهم صاعَ القصاصِ رَهينةً بما سوفَ نُوفيه إذا الناسُ طفّفوا[5]
ترى الناسَ ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقّفوا

وكان جميل جيد الافتخار قال[6]:

والشاعر المتألي الشاعرون به كي يلمسوه وأين اللمسُ من زُحَل

وعند الناس قصيدته الفائية أحسن وأسلس من قصيدة الفرزدق. وأخذ بعضهم قوله:

وكم من مخيل يرتجى ثم يخلف

فقال وأحسن:

ظننتُ به ظناً فقصّرَ دونهُ فيا رُب مظنونٍ به الخيرُ يُخْلِفُ
وما الناسُ بالناسِ الذين عرفتهم وما الدارُ بالدار التي كنتُ أعرف
وما كلُّ من تَهواه يَهواك قلبه وما كلُّ من أنصفته لك منصف

---

(١) غُرّان: جمع أعز وهو الأبيض.
(٢) البيت للحطيئة؛ ديوانه: ١٧.
(٣) ديوان الفرزدق: ٣٩٣.
(٤) ديوانه: ٦٣.
(٥) طفقوا: أنقصوا.
(٦) البيت ليس في ديوانه.

أخبرنا أبو أحمد، عن المبرمان، عن أبي جعفر بن العبسي عن العبسي قال: من أحسن ما مدح به الرجل نفسه قول أعشى ربيعة[1]:

ومـا أنـا في نفسي ولا في عَشيـرتي ... بـمنـهـضـمٍ حـقي ولا قـارعٍ سـنـي
ولا مـسـلمٍ مـولايَ عـنـد جـنـايـةٍ ... ولا خـائف مولاي من شـرِّ ما أجني
وإن فـؤادي بـيـنَ جـنـبـيَّ عـالـمٌ ... بمـا أبصـرتْ عيني ومـا سمعتْ أذني
وفـضـلي في الـشـعـر والـلب أنـني ... أقـولُ عـلى عـلمٍ وأعـلمُ مـا أعـنـي
فـأصبحتُ إذا فضـلت مـروانَ وابنـه ... على النـاس قـد فَضلت خيـرَ أب وابن

وأنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي حاتم عن الأصمعي قال وهو من أجود ما مدح به الرجل نفسه، قال أبو هلال وهو لمسكين الدارمي[2]:

ورُبَّ أمـون قـد بـريت لحـاءهـا ... وقـومت من أصـلابهـا ثم رشتُهـا
أقيم بـدارِ الحـزمِ مـا لم أهَن بهـا ... فـإن خفتُ من دار هـوانـا تـركتهـا
وأصلحُ جـلِ المـال حتى حَسبتني ... بخيـلاً وإن حقٌّ عـرابي، أهنتُهـا
ولـستَ بـولاّجِ البيـوتِ لـفـاقَـةٍ ... ولكن إذا استغنيتُ عنهـا ولجتهـا
إذا قصّـرت أيدي الكـرامِ عن العلا ... مـددتُ لهـا بـاعـاً طـويـلاً فنلتُهـا
وعـوراءُ من قيل امرىء ذي عـداوةٍ ... تصـاممتُ عنها بعـد أن قد سمعتها
رجـاء غـدٍ أن يَعـطفَ الـودُّ بيننـا ... ومــظلمـة من بجنبي عـركتُهـا

غيره:

ومـاليَ وجـهٌ في اللئـامِ ولا يـدٌ ... ولكنَّ وجهي في الكـرامِ عـريضُ
أصـحُّ إذا لاقـيتـهـم وكـأنـنـي ... إذا أنـا لاقـيتُ الـلئـامَ مـريض

وقلت في معناه:

وخـلٍّ الـجـهـولَ وبُـغـضـي لـه ... فـإني لـبـيـب أُحـبُّ الـلبـيـبـا
يصـادُفني الضيف طلقـاً ضَحـوكـاً ... وإن كـنتُ لـم أرِ بـدعـا عجيبـا
وأستعـمـلُ الحـلمَ مـا لـم أكـن ... أصبتُ مـن الـذلِّ فيـه نـصيـبـا
مـن الحـلمِ ضـربٌ إذا رُمـتـه ... لـقيتَ مـن الـذلِّ فيـه ضـروبـا

وأنشدنا أبو أحمد قول أبي هفان:

فـإن تسـألي عنـا فـإنـا حلى العـلا

ثم قال: ليس لقوله:

---

(١) اعشى ربيعة: عبدالله بن خارجة بن حبيب، شاعر اسلامي، من ساكني الكوفة، كان مرواني المذهب. مات سنة ١٠٠ هـ. (الأعلام: ٤/٨٤). والأبيات في الأغاني ١٨/١٣٢.

(٢) مسكين الدارمي: ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح. شاعر عراقي شجاع، من أشراف تميم. له اخبار مع معاوية. مات سنة ٨٩ هـ. (الأعلام: ٣/١٦).

فــإنــا حــلى الــعــلا

نظير، وأنشدنا له:

لعمـري لئن بُيِّعت في دار غَـربـةٍ ثيـابيَ إذا ضـاقت عليّ المـآكـلُ
فمـا أنـا إلّا السيف يـأكـلُ جفنَـه لـه حِليةٌ من نفسـهِ وهـو عـاطـل

وقد زاد في هذا البيت على النمر بن تولب في قوله، وهو أول من أتى بهذا المعنى:

فـإن تـكُ أثـوابي تمـزق عن بلى فإني كمثلِ السَّيفِ في خَلَقَ الغمدِ

ولأبي هفّان أيضاً:

تـعجّبَتْ دُرٌّ من شيـبي فـقلتُ لـهـا: تعجبي من بياضِ الصبحِ في السَّدف[1]
وزادهـا عـجبـاً أن رحتُ في سَمَـلٍ ومـا دَرَت دُرُّ أنّ الـدرَّ فـي الـصَّـدفِ[2]

فرأيت في المعنى تكلفا فقلت:

عـيـرتني أن رحتُ في سَمَـلٍ والـدرُّ لا تـزري بـه الـصـدفُ

وله أيضاً في هذا المعنى:

يُعيـرني عـربي رجـالٌ سفـاهـةً فعـزّيتُ نفسي مصـدراً ثم مـورِدا
بـأني مثـل السيف أحسن مـا يُـرى وأهـيـب مـا يُـلقى إذا هـو جُـرّدا

في ألفاظه فضول لا يحتاج إليها.

ومثله في المعنى قول علي بن الجهم أورده في مصراع وهو:

والـسـيـف أهـيـبُ مـا يُـرى مـسـلولا

ولا أعرف في الافتخار أحسن مما أنشده[3] أبو تمام:

فـقـل لـزهـيـرٍ إن شـتـمـتَ سَـراتـنـا فـلـسـنـا بـشـتّـامِـيـن لـلـمـتـشـتـمِ
ولـكـنـنـا نـأبـى الـظلامَ ونـعـتـصـي بـكـلِّ رقيـقِ الـشـفـرتـين مـصـمـصَـم
وتـجـهـلُ أيـديـنـا، ويَـحـلـمُ رأيـنـا، ونَـشـتـمُ بـالأفـعـالِ لا بـالـتـكـلّـم

هذا أحسن من كل شيء في الافتخار، وقريب من هذا المعنى قول لقيط بن زرارة[4]:

أغـركـمُ أنـي بـأحـسـنِ شـيـمـةٍ بـصـيـرٌ وأنـي بـالـفـواحشِ أخـرقُ
وأنـك قـد سـابـبـتـنـا فـغـلـبـتَـنـا هنيئـاً مـريئـاً أنت بـالفحشِ أحـذقُ

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الجوهري عن عمر بن شبة قال: يروي أنه قيل للفرزدق أي

---

(١) في الأمالي ١/١١١: «لا تعجبي فبياض». السّدف: الظلام.
(٢) في الأمالي ١/١١١. والسَّمَل: الثوب الخَلَق.
(٣) الأبيات ليست في ديوان أبي تمام.
(٤) هو لقيط بن زُرارة بن عدس الدارمي، فارس شاعر جاهلي من أشراف قومه.
كان مجوسياً، مات مقتولاً سنة ٥٣ ق. هـ. (الأعلام ٥/٢٤٤).

بيت قالته الشعراء أفخر؟ قال: قول[1] امرىء القيس:

فلو أنّ ما أسعى لأدنى مَعيشةٍ ... كفاني، ولم أطلب، قليلٌ من المالِ
ولكنني أسعى لمجدٍ مُؤثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

قيل له: فأيها أحكم؟ قال قوله[2]:

الله أنجحُ ما طلبتَ به ... والبرُّ خيرُ حَقيبةِ الرّجُلِ

قال: فأيها أرق؟ قال قوله[3]:

وما ذَرَفت عيناكِ إلاّ لتضربي ... بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتَّلِ

قال: فأيها أحسن؟ قال قوله[4]:

كأن قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً ... لدى وَكرِها العُنّابُ والحشَفُ البالي

وقالوا: أفخر بيت قالته العرب قول كعب بن مالك الأنصاري[5]:

وببئرِ بدرٍ إذ يَرُدُّ وجوهَكم ... جبريلُ تحتَ لوائِنا ومحمد

ومن بليغ الافتخار قول الجحاف[6]:

صبرت سليمٌ للطعانِ وعامرٌ ... وإذا جَزِعنا لم نجد من يَصبرُ
نحن الذين إذا عُلوا لم يَضجروا ... يومَ اللقا وإذا عَلَوْا لم يفخروا

وقال ضمرة بن ضمرة[7]:

أذيق الصديقَ رأفتي وإحاطتي ... وقد يشتكي مني العداةُ الأباعدُ
وذى تِرَةٍ أوجعتهُ وسبقته ... فقصر عني سَعيهُ وهو جاهدُ[8]

«قصر وهو جاهد» بليغ جداً، ومنه أخذ المحدثون.

ومن جيدِ الافتخار بالجود وطيبِ النفسِ قولُ بعض العرب:

تُسائلني هوازنُ أينَ مالي ... ومالي غير ما أنفقتُ مالُ

---

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، شاعر جاهلي متقدم من اصحاب المعلقات، ويعرف «بالملك الضّليل» و«بذي القروح». مات سنة ٨٠ ق. هـ. والبيتان في ديوانه: ١٤٥.

(٢) ديوانه: ١٥٢. وفيه «حقيبة الرّحل».

(٣) ديوانه: ٣٨.

(٤) ديوانه: ١٤٥. العناب: ثمر كالعنب. والحشَف: التمر اليابس.

(٥) كعب بن مالك بن ... بن العين الأنصاري السلمي الخزرجي، صحابي من اكابر الشعراء. اشتهر في الجاهلية، وفي الإسلام صار من شعراء النبي ﷺ. شهد الوقائع اكثرها مات سنة ٥٠ هـ. (الأعلام: ٢٢٨/٥).

(٦) الجحّاف بن حكيم السلمي؛ فاتك ثائر شاعر عاش في العصر الأموي، مات سنة ٩٠ هـ. (الأعلام: ١١٣/٢). له اخبار في الأغاني: ١٩٨/١٢.

(٧) ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي من بني دارم: شاعر جاهلي، من الشجعان، (لأعلام: ٢١٦/٣).

(٨) تِرَة: ثأر.

فـقـلتُ لـهـا هـوازن إنَّ مـالـي ... أضـرَّ بـه الـمـلمـاتُ الـثِّـقـالُ
أضـر بـه نَـعَـمْ ونَـعَـمْ قـديـمـاً ... عـلى مـا كـان مـن مـالٍ وبـالُ

المعنى حسن جداً، وفي الألفاظ تكرير شائن.

أبلغ ما افتخر به في كثرة العدد قول الأول:

مـا تـطلعُ الشمسُ إلاّ عـنـد أولنـا ... ولا تـغـيـبُ إلاّ عـنـد أخـرانـا

وقول أبي جندب:

فـلو نُـزاد ألـفَ ألـفٍ لـم نـزد ... ولـو فَـقـدنـا مثلهم لـم نفـتـقـد

وهو من أبيات أخبرنا بها أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن عمه، عن أبيه عن ابن الكلبي، وأخبرنا به غيره فأوردنا أجود اللفظين، وأصح الروايتين، قال:

بلغني أن عبد الرحمٰن بن حسان كان يخبر أبيه قال: خرجت حاجاً في الجاهلية فإذا أنا بشاب حسن العينين، وضيء، وبشيخ يسابُه، قال: فسبه الفتى، ثم إن الشيخ عيَّره بأن أمه من بني الأصفر، فخزي الفتى، فبلغ ذلك أمه فأقبلت ترقل إرقال الناقة الصعبة حتى أخذت بمنكبي الشيخ وهزته وقالت:

سـائـل وخَـلـل فـي إيـاد بـنِ مـعـدْ ... هـل كـانـتِ الـرومُ عـبـيـداً لاحـدْ
هـمُ الـربـيـعُ والـسَّـنـام الـمـعـتـمـدْ ... والـذُّروة الـعـلـيـاءُ والـركـن الأشـدْ
وأنـت حـرمـيٌّ لـئـيـمُ الـمـسـتـنـدْ ... عُـصـارة الـلؤمِ الـتـي فـيـهـا تـلدْ

فسألتُ عن الشيخ فقيل: المغيرة بن عبد الله المخزومي، وسألتُ عن الشاب، فقيل: ورقة بن نوفل. ثم مررت من فوري حتى آتي مِنىً، فإذا رجل على جمل عظيم لا يمر يقوم إلاّ هجاهم، لأنه بالأوس والخزرج فهجاهم، لا هجوته، فنظر إلى قباب بيض في شرقي الجبل فقال: لمن هذه؟ فقيل: لقرد بن تميم من هذيل، فأَمَّها وقال:

هـل هـهـنـا مـن ولـد قـرد من أحـدْ ... أعـطـيهم مـن رجـزيَ الـيـومَ وغـدْ

فخرج أبو جندب[1] وهو يقول:

نِـعـمَ غـلامٌ مـنـهـمُ جَـلد عَـتَـد ... إنـي وربِّ الـراقـصـاتِ فـي الـسَّـنـدْ
يـنفـرن مـن وقـع العصبيّ والقـدَد ... إنـي لـذو الـيـومِ وذو أمسٍ وغَـدْ
وابـن هُـذيـلٍ وابن أشـيـاخِ مـعـدّ ... ثـم لِـفَـهَـمٍ، ولـفـهـمٍ الـعـدد
فـلو نـزادُ ألـفَ ألـف لـم نـزد ... ولـو فـقـدنـا مثلهم لـم نـفـتـقـدْ
فـارجـع إلى مِعـزاك تيسـاً ذا جِيَـدْ ... أوفـي على رأسِ يـفـاعِ فصخـدْ[2]

قال: فخلفت إني لا أهجو أحداً ما دام أبو جندب حياً.

---

(١) هو ابو جندب بن مرّة، من شعراء هذيل، وأخواه أبو خِراش وعُروة وكلهم شعراء.

(٢) صخد: موضع.

والعرب تفتخر بكثرة العدد وتذم قلته قال الأخطل:

الأكـثـيـرن حـصـي والأطـيـبـيـن ثـرى

واحتج السمؤال لقلة العدد فأحسن[1]:

تُعيـرُنـا أنـا قـليـلٌ عَـديـدنـا ... فـقـلت لـهـا إن الـكـرامَ قـليـلُ
ومـا قـلَّ من كـانت بقايـاه مِثلنا ... شـبـابٌ تسـامـى للعـلا وكـهـولُ
ومـا ضَـرَّنـا أنـا قليـلٌ وجـارُنـا ... عـزيـزٌ، وجـارُ الأكثـرين ذلـيـلُ

وهذه قصيدة في الافتخار ليس لها نظير، وإنما تركتُ إيرادها كلها لشهرتها.

ومن أجود ما افتخر به محدث قول[2] أبي تمام:

لنـا جَـوْهـرٌ لـو خـالطَ الأرضَ أصبحتْ ... وبُـطنـانُـهـا مـنـه وظَـهـرانُـهـا تِـبـرُ
مقـامـاتنـا وقفٌ على الـحِلمِ والـحِجـا ... وأمـردُنـا كـهـلٌ وأشيـبُنـا حَـبـرُ[3]
إذا زينـةُ الـدنيـا من المـالِ أعـرضتْ ... فـأزيَنُ منهـا عنـدنـا الحمـدُ والشكـرُ
لـيـفـخـرَ بـجـودٍ مـن أرادَ فـإنـه ... عـوانٌ لهـذا الخلقِ وهـو لنـا بِكـر[4]
جـرى حـاتمٌ في حلبـةِ منه لـو جـرى ... بهـا القـطرُ يـومـاً قيـلَ: أيهمـا القـطر؟[5]
فـتى ذخـرَ الـدنيـا أنـاسٌ ولـم يـزل ... لهـا بـاذلاً فـانـظر لمن بقيَ الـذُّخـرُ

ومنها:

كـمـاةٌ إذا ظـلَّ الكـمـاةُ لـدى الـوغى ... وأرمـاحـهم حُـمـرٌ وألـوانـهـم صفـر[6]
بخيـلٍ لـزيـد الخيـل فيهـا فـوارسٌ ... إذا نـطقـوا في مسهبٍ خـرسَ الـدهـرُ[7]
طـوى بـطنـهـا الإسـادُ حتى لـو أنّـه ... بـدا لـك مـا شـكَّكْتَ في أنـه ظَـهـر
صـبـيـتـه مـا أن تـحـدثُ نـفـسـهـا ... بمـا خلفهـا مـ دامَ قُـدّامَهـا وتـرُ[8]
فـإن ذَمَّـتِ الأعـداءُ سـوءَ صبـاحـهـا ... فليس يؤدي شكـرَهـا الـذئبُ والنسـرُ
مسـاعٍ يضـل الشّعـر في طُرقِ وصفهـا ... فمـا يهتـدي إلاَّ لأصغـرِهـا الـشعـرُ[9]

وقوله:

---

(١) ديوان السموأل: ٩٠.

(٢) ديوان ابي تمام: ٤٢٣.

(٣) الحجا: العقل. الحبر: العالم.

(٤) عَوان: قديم. بكِر: جديد. ومعناهما مجازيّان. وفي الديوان: «ليسحج بجودٍ».

(٥) في الديوان: «القطرُ شأواً». والشأو: السبق والبعد.

(٦) كُماة: جمع كمي: مدجّج بالسلاح.

(٧) في الديوان: «بخيلٍ لزيد». و «مسهبٍ خَرسَ».

(٨) في الديوان: «ضُبيبيةٌ ما إن».

(٩) في الديوان: «كُنه وصفها. والكُنه: السِّر.

مضـوا وكـأنّ المكـرمـاتِ لـديهـم ... لـكـثـرةِ مـا أوصَـوا بـهـنَّ شـرائـعُ[1]
بـهـاليـلُ لـو عـاينـتَ فَـيضَ أكـفـهـم ... لأيقنتَ أن الـرزقَ في الأرضِ واسـعُ[2]
وأيُّ يـدٍ فـي المجـدِ مُـدَّتْ فلم تـكن ... لـهـا راحـةٌ من جـودهـم وأصـابـع[3]
أصـارت لـهـم أرضَ الـعـدوِّ قـطـائـعـا ... نفـوسٌ لحـدِّ الـمـرهَفـاتِ قـطـائـع[4]
إذا مـا أغـاروا فـاحتـووا مـالَ معشـرٍ ... أغـارت عليهـم فـاحتـوتـه الصنـائـعُ
فيعـطي الـذي يعـطيهم الجـود والقنـا ... أكـفَّ لإرث الـمـكـرمـاتِ مـوانـعُ[5]
يـمـدون بـالـبيض الـقـواطـعِ أيـديـا ... وهـنَّ سـواء والـسـيـوف الـقـواطـعُ

وقلما تجد في الافتخار شعراً يداني هاتين القطعتين.

وقلت:

خليليَّ بـاعُ الـدهـرِ بـالعـرُفِ ضيقٌ ... على كـلِّ ذي عقل وبـالنكـرِ واسعُ
وواقـعُ نُعمـاء عن الحـرِّ طـائـرٌ ... وطـائـر بـلواه على الحـرِّ واقـعُ
متى مـا يُصبني بـالقـوارع طرفـهُ ... أصـابتـه هـمـاتي وهُـنَّ قـوارع
وهمـاتُ مثلي للخـطوب جـوالبٌ ... كـمـا أنهـنَّ لـلخـطوبِ دوافـع
تـريـك اشتغـالاً بـالنجـومِ طـوالعـاً ... وهُـنَّ إذ لاحـت نـجـومٌ طـوالـع
وتزري على البيضِ الطوالع أن مضتْ ... وهنّ على العـلّاتِ بيضٌ قـواطـعُ
تـخـافنـيَ الأيـامُ، فهـي تخيـفنـي ... وللنكسِ تهـديـدٌ إذا ريـعَ رائـعُ
ولـو كنّ في عيني لمـا قـذيتْ بهـا ... فكيف تـرى أني إذا صلنَ خـاشـع
أتـطلعُ منهـا في ديـاري طـوالـعٌ ... بسـوءٍ وهمـاتي عليهـا طـلائـع
يقـارعُ مني بـاسـلاً ذا حفيـظة ... يـقـومُ إزاء النصـرِ حينَ يُقـارع
فتى بـأتمِّ الفضـلِ ليس بقـانـعٍ ... ولكن بـأدنى بُلغـةِ العيشِ قـانـع[6]
فمـا صحبتـه لـلأنـام صنيعـةٌ ... وبصحبهـم منـه، وفيـه صنـائـعُ
ولم يتـواضـع فـي مصـاَداةِ منّـةٍ ... وكـلّ مـصـادي منـةٍ متـواضـعُ
لـه شـرفٌ في آلِ سـاسـانَ بـاذخٌ ... وذكـرٌ بـأطـرافِ البسيطةِ شـائـعُ

إلى أن قلت:

تـؤدِّبُـهُ الأيـامُ حـيـن تَـضـرُّه ... وكم ضَـرَرٍ للمـرءِ فيـه منـافـعُ
ومـا ضـاعَ مثلي حيثُ حلّت ركـابـهُ ... بلى حيثُ ضاعَ المجدُ مثلي ضـائعُ

(١) ديوانه: ٤٢٧.

(٢) بهاليل: جمع بهلول: سيد جامع لكل خير.

(٣) في الديوان: «فأيُّ يدٍ في المحل فلم يكن».

(٤) المرهفات: السيوف الحادة. القطائع: ما يُقطعه الحاكم للجند ولغيرهم.

(٥) في الديوان:
«فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنا».

(٦) بُلغة العيش: الشيء اليسير القليل.

ومثلي مخضوعٌ له غيرَ أنه … إذا كان مجهولَ الفضائلِ خاضع
ومثليَ متبوعٌ على كلّ حالةٍ … فإن ينقلبْ وجهُ الزمانِ فتابعُ

وقال ديك الجن يفتخر بكلب:

كلبُ قبيلي وكلبُ خيرُ من وَلدت … حواءُ من عرب غُرٍّ ومن عجمِ
وعيرتنا وما إن طلٌّ را؟ … كل وحدُّك والدينٌ لم يُرم؟[1]
غلاة موتة والاشراكُ مكتهلٌ … والدينُ أمردُ لم يبفع فيحتلم
إن تعبسي لدمٍ منا هُريقَ بها … فقد حقّنا دمَ الإسلام فابتسمي
أقعد وقم عالماً أن لو تطوقها … بغير أحمدَ لم تقعد ولم تقم
أقام حصنٌ عليهم حصن مكرمةٍ … يرتج طوداه: من نُعمى ومن نِقَم
إذا غدت خيلهم تستنجد المطي … لنجدة عُدّتِ الآجال في الحُوَم
كم عرِّضُوا أيدياً بيضاً مُكرَّمةً … للعدم من طولِ ما انتاشوا من العدم[2]
أسدٌ يرون الردَى المفضي بأنفسهم … إلى الثرى عمراً يُفضي إلى الهرمِ

وقال الحِماني[3]:

ونحنُ سَنَنا الصبرَ في كلِّ موطنٍ … وحطّتْ مساعينا على حططِ الفخرِ

وقال:

بنا يستشارُ العزُّ عن مستقرِّه … وعن سخطِنا تدنى ألوفُ المتالفِ

وقال[4] ابن المعتز:

فقري غنى، وشبابي كهلُ … وكلُّ فضلٍ لي عليه فضلُ
أشكي لجودي حين يشكي البخلُ

وقرأت لقابوس[5] بن وشمكير الختلي رسالة في الافتخار والعتاب ليس لها نظير في علوها وإفراطها وهي:

الإنسان خلق ألوفا، وطبع عطوفا، فما بال الإصبهد[6] لا يحيل عوده ولا يرجى عَوده، ولا

---

(١) في البيت نقص واضطراب كذا في الأصل.

(٢) انتاشه: أخرجه.

(٣) الحِمّاني: هو يحي بن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني الكوفي، ابو زكريا. من حفاظ الحديث. مات سنة ٢٢٨. وله شعر. (الأعلام: ١٥٢/٨).

(٤) ديوانه: ٣٢٠.

(٥) قابوس بن وَشْمكير بن زياد بن وردان شاه الجِيْلي، أبو الحسن الملقب شمس المعالي. أمير جُرجان وبلاد الجبل وطبرستان. نابغة في العلم والأدب والإنشاء. جمعت رسائلهُ بكتاب «كمال البلاغة». مات سنة ٤٠٣ هـ. (الأعلام: ١٧٠/٥).

(٦) الاصبهذ: فارسي معرّب.

يخال لفيئه مخيلة، ولا يخال عن تنكره بحيلة، أمِن صخر تَدْمَرَ قلبه فليس يلينه العتاب؟ أم مِنَ الحديد جانبه فلا يميله الاعتاب؟ أخلق من صفاقة الدهر حجر نُبُوِّه فقد نبا عليه غرب كل حجاج، أو من قساوته إباء مزاج إبآئه فقد أبى على كل علاج. ما هذا الاختيار الذي يعد الوهم فهما؟ وهذا التمييز الذي يحسب الجهل علما؟ وهذا الرأي الذي يزين له قبح العقوق، ويمقت إليه رعاية الحقوق، وما هذا الإعراض الذي صار ضربة لازب، والنسيان الذي أنساه كل واجب؟ أين الطبع الذي هو للصدور، وللتألف ألوف ودود وأين الخلق الذي هو في وجه الدنيا البشر وفي مبسمها الثنايا الغر؟ وأين الحياء الذي يجلى به الكرم، وتحلى بمحاسنه الشيم؟ كيف يُزهَدُ فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قيادة، وتبع مراده، ينتظر أمره ليمتثل، ويرتقب نهيه ليعتزل. وكيف يهجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه فصارت له في الانقياد كبعض خدمه. إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجدبت. وكيف يُستغنى عمن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالي والأيام؟ من هرب منه أدركه بمكائدها، ومن طلبه وجده في مراصدها. وكيف يُعرض عمن تُعرِضُ رفاهةُ العيش بإعراضه؟ وتنقبضُ الأرزاقُ بانقباضه؟ وأضاء نجم الاقبال إذا أقبل، وأهل هلال المجد إذا تهلل؟ وكيف يُزهى على من تحقرُ في عينه الدنيا، وتُرى تحته السماء العليا؟ وقد ركب عنق الفلك، واستوى على ذات الحبُك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وآثرت لمحاسنه أوضاح الثريا بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصّل تراكيب الأشياء، وألّف بين النار والماء، وأخمد ضياءَ الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد مناخِرَ الرياح الزعازع، وأطبق أجفان البروق اللوامع، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم صوب الغمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى ما يراه على القضاء النازل، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان، وكَحَلَ العيون بصُوَرِ الغيلان، وأنبت العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار، أو لم يعلم أن مهاجَرَةَ من هذه قدرته ضلال، ومنابذة من هذه صورته خبال وأن من له هذه المعجزات، يشتري رضاه بالنفس والحياة، ومن يأتي بهذه الآيات، يُبتغى هواه بالصوم والصلاة، ومن لم يتعلق منه بحبل كان بهيماً لا شِيَـة[1] به، ومن لم يـأوِ منه إلى ظـل ظليل ظـلَّ صريعـاً لا عصمة لـه، ولِمَ لا يستردُّ عـازبَ الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون[2]، ويستعيدُ غائبَ الفكر فيفهَمَ أنه إن أقام على الفرقة مغبون، أظنه يقدِّرُ أن الاستغناء عني هو الغناء والغنى، ولا يظن أن الالتواء عليّ هو البلاء والبِلى، ويخال أنه مكتفٍ بماله وعرضه، ومتعزز بسمائه وأرضه، ولا يشعر أني كلّ لبعض، وطول في عرض وأن قوة الجناح بالقوادم[3] دون الخوافي، وعمل الرماح بالأسنة دون العوالي، ليس إلحاحي على سيدي مستعيداً وصاله ومستصلحاً بالالحاف خصاله، وعَدِّي عليه هذه العجائب، لاستمالته من

---

(١) لا شية به: لاشيء يخاط لونه.

(٢) المأفون: ضعيف الرأي.

(٣) القوادم والخوافي: ريشات مقدم جناح الطائر وما دونها.

جانب إلى جانب، لأني ممن يرغب في راغب عن وصلته، أو ينزع إلى نازع عن خلته، أو مؤمّل حالاً عند من ينحت أثلته ومقبل بوده على من لا يجعله قبلته، فإني لو علمت أن الأرض لا تسفّ تراب قدمي لما وضعت عليها جانباً، وإن السماء لا تتوق إلى تقبيل هامتي لما رفعت إليها طرفاً، ولكني أكره أن يَعرَى نحرُه من قلادة الحمد، ويجنب جبينه إكليلُ المجد، ويظلَ وجهُ الوفاء بقبضهِ على يده مسوداً، وركنُ الإخاء بفته في عضده منهدّاً، ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخَمُول، ويأذن لطوالع بالأقوال، فإن فضّل سيدي الخمود على الوقود، والعدم على الوجود، ونزل من شامخٍ إلى خفض، ومن حالقٍ إلى دحضٍ، وجاهر بهجره، وأصر على صرمه، ومال إلى الملال، ولم يَصْلَ نارَ الوصال، حللتُ عنه معقود خنصري، وشغل عن الشغل به خاطري، بل محوت ذكره من صفحة فؤادي واعتددت ودّه فيما سال به الوادي:

وفي الناس إن رثّت حبالُكِ واصلٌ ... وفي الأرضِ عن دارِ القِلى مُتحوَّلُ[1]

وفي بعض ألفاظ هذه الرسالة تكلّف إلّا أني أوردتها لعلو معانيها.

وقال بعضهم:

ومن يَفتقر منا يَسلُّ حُسامه ... ومن يَفتقر من سائرِ الناس يَسألُهُ

وقال[2] ابن المعتز:

سألتكما بالله ما تُعلمانني ... ولا تكتما شيئاً فعندكما خُبري
أأرفع نيرانَ القِرى لعُفاتها ... وأصبرُ يومَ الروعِ في ثغرةِ الثّغر[3]
وأسألُ نيلاً لا يُجادُ بمثلهِ ... فيفتحُهُ بِشري ويختمُه عُذري
ويا رُبَّ يومٍ ما توارى نجومُهُ ... مددتُ إلى المظلومِ فيه يدَ النصرِ[4]

وقال:

وقمت إلى اللوم الصفايا بمنصلي ... فصيرتُها مجداً لقومي وأحسابا[6]

وأنشدنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، لعبد العزيز بن زرارة[7]:

قد عشتُ في الدهرِ أطواراً في طُرُقٍ ... شتى فصادفتُ فيه الليـنَ والقطعا
لا يملأُ الأمرُ صدري قبلَ موقعهِ ... ولا يضيقُ به ذَرعي إذا وقعا

---

(١) القلى: الكراهية.

(٢) ديوانه: ١٧٠.

(٣) القِرى: اكرام الضيف. العفاة: طالبو العون. وفي الديوان: «وأضرب يوم».

(٤) في الديوان: «لا تورّى».

(٥) الديوان: ٣٣.

(٦) الصفايا: جمع الصفية: الناقة كثيرة اللبن. المنصل: السيف.

(٧) عبد العزيز بن زرارة: قائد من الشجعان المقدمين في زمن معاوية، كان فيمن غزا القسطنطينية، وأبلى في قتال الروم البلاء العجيب. قُتل في احدى الوقائع سنة ٥٠ هـ. (الأعلام: ٤/ ١٧).

كُـلًّا لـبستُ، فـلا النعمـاءُ تُبـطرنـي ولا تـخشـعـتُ مـن لأوائـهـا جَـزعـا

وسألني بعض أدباء البصرة فقال: ما أدل بيت على عقل صاحبه وحزمه؟ فقلت: قول الأُقَيْبِل القيني[1]:

إذا لـم أجـد بُـداً من الأمـرِ خِلتني كـأنَّ الـذي يـأبـى علـيَّ يَـسـيـرُ

فقال: ما عدوت ما في نفسي.

ومثله قول أبي النشناش[2]:

على أيِّ شيء يصعبُ الأمـر قـد تـرى بـعـيـنـك أن لا بـدَّ أنـك راكـبـه

وفي ألفاظ هذا البيت زيادة. وقلت في معناه:

عـلامَ تَـسـتـصـعـبُ الأمـ ـرَ لا تـرى مـنـهُ بُـدا
بـادر وخـلِّ الـهـويـنـا وجـدَّ كـيـمـا تـجـدا
فـلـن تـلاقـيَ جـداً حـتـى تـلاقـيَ كـدّا

ومن بليغ الافتخار بذلاقة اللسان قول[3] جرير:

ولـيس لسيـفـي فـي الـعـظام بـقـيـةٌ ولا السيفُ أشـوى وقعـةً من لسـانيـا

وهي من قول[4] حسان:

ويـبـلغ مـا لا يـبـلغُ الـسـيـفُ مِـذودي

وقلت:

ولـي لـسـانٌ إذا أطـلـقـتـهُ عـرضـا سـعى مـسـاعيَ ضـرغـامٍ وثـعـبـانِ
وقـد نـمتـنـيَ أمـجـادُ جـحـاجـحـةُ من نجلِ ساسانَ تزهو نجل ساسانِ[5]
هـمُ الكـواكبُ في أطـرافِ داجـيـة أو الـقـنـان عـلى أثـبـاج أعـنـانِ[6]
قـومٌ إذا مـا أتـوا بـالسـوءِ مـا اعتـذروا ولا يـمـنـونَ إن مـنـوا بـإحـسـانِ

وقلت:

مـن يكـن صـائـلاً بمثـلِ لسـانـي لـم يضـرهُ أن لـم يَـصُـلْ بـسـنـانِ

وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: قلت لرجل من جذام، وأكثر من وصف ملوك الحيرة: لو كان هؤلاء الأنصار لم ترد! فقال: لئن كان هؤلاء القوم نصروا

(١) الأقيبل القيني: الأقيبل بن نبهان بن خنف من بني القَين بن جسر من قضاعة، شاعر اسلامي، صرعته ناقته فمات سنة ٨٥ هـ. (الأعلام: ٢/٦).

(٢) ابو النشناش: شاعر إسلامي من لصوص بني تميم أيام مروان بن الحكم.

(٣) ديوانه: ٥٠١.

(٤) ديوانه: ١٨٣.

(٥) جحاجحة: جمع جحجاح: سيِّد. بنو ساسان: اسرة حكمت بلاد فارس حتى الفتح الاسلامي.

(٦) أثباج: جمع ثَبَج: وسط الشيء. أعنان السماء: صفائحها.

الدين، لقد نصر أولئك الكرم؛ ولئن كان هؤلاء خصوا بالاسلام، لقد خص أولئك بالإنعام، ولئن حاز هؤلاء شرف اليوم وغد، لقد سبق لأولئك شرف هو باق على الأبد، ولو علا فعل هؤلاء على الهواء، لجازت مكارم أولئك أعنان السماء، ومن يقرن بالبلد الخراب اليباب بلداً تحل به السحاب في كل مغدى ومآب؟ ومن جيد الافتخار قول مبشر بن هذيل[1] الشمخي:

ألم تعلمي يا عَمركِ الله أنني ... كريمٌ على حين الكرامُ قليلُ
وإني لا أخزى إذا قيل مُملقٌ ... جوادٌ، وأخزى أن يُقالَ بخيلُ
فإن لم يكن عظمي طويلاً فإنني ... له بالخصال الصالحاتِ وصول
وإن أكُ قَصْداً في الرجالِ فإنني ... إذا حلَّ أمرٌ سَاحتي لجليلُ
إذا كنتُ في قومٍ طوالٍ فضلتهم ... بعارفةٍ حتى يُقالَ طويلُ
ولا خيرَ في طولِ الجسومِ وعَرضِها ... إذا لم تَزِنْ طولَ الجسومِ عقولُ
ولم أرَ كالمعروفِ، أمَّا مَذاقهُ ... فحلوٌ، وأما وجههُ فجميلُ

وقلت:

غنايَ غنى نفسي، ومالي قناعتي ... وكنزيَ آدابي وزيي عفافيا
وفخريَ أسلامي وذخري أمانتي ... وجنديَ أشعاري وسيفي لسانيا
ولي عزَماتٌ كالسيوفِ قواضِبا ... إذا عَنَّ خطبٌ والحتوفُ قواضيا
وتغشى صدورَ النائباتِ صدورُها ... كما غشيتْ سُمرُ العوالي التراقيا
ألا لا يذمُّ الدهرَ من كان عاجزاً ... ولا يعذلُ الأقدارَ من كان دانيا
فمن لم تبلِّغْهُ المعاليَ نفسُهُ ... فغير جديرٍ أن ينالَ المعاليا

ولا أعرف في افتخار الجاهلية أجود ولا أبلغ من قول عمرو بن كلثوم[2]:

ونحنُ العاصمون إذا أُطعنا ... ونحن العازمون إذا عصينا
ونحنُ التاركونَ لما سخطنا ... ونحن الآخذون لما رضينا

وقد أحسن إبراهيم بن العباس في قوله:

أما تَريني أمامَ القوم متبعاً ... فقد أرى من وراء الخيل أتبِعُ
يوما أنيخ فلا أدعى على نشبٍ ... واستبيحُ فلا أبقى ولا أدعُ
لا تسألي القومَ عن حيٍّ صحبتهمُ ... ماذا صنعت وماذا أهله صنعوا

وقال:

أميلُ مع الذمامِ على ابن عمي ... وأقضي للصديقِ على الشقيقِ

---

(١) مبشّر بن هذيل بن زافر الفزاري، شاعر، لعله جاهلي، اكتفى ثعلب بقوله: إنه أحد بني شمخ ولد نضلة بن خمار. (الأعلام: ٥/٢٧٣).

(٢) عمرو بن كلثوم: ابو الأسود، شاعر جاهلي من اصحاب المعلقات، وهو من الفتّاك الشجعان، ساد قومه وهو فتى. مات سنة ٤٠ ق. هـ. (الأعلام: ٥/٨٤). والبيتان في المعلقات السبع: ١٣٠.

أفـرقُ بـيـن مـعـروفـي ومـنـي ... وأجـمـع بين مـالـي والـحـقـوقِ
فـإمـا تـلـفـنـي حُـراً مـطاعـا ... فـإنـك واجـدي عبـدَ الصـديـقِ

وهذا من قول الأول:

وإني لعبـدُ الضيفِ مـادامَ ثـاويـا ... ومـا فيَّ إلَّا ذاك من شيمـة العبـدِ

وقال الآخر:

وعـبـد لـلـصـحـابـة غـيـر عـبـد

وسمعت بعض الشيوخ يقول: أبلغ شيء قيل في الافتخار قول الآخر:

أبَني حنيفـة أحكمـوا سُفَهـاءَكم ... إنـي أخـافُ عليكـمُ أن أغـضـبـا

قوله «أخاف عليكم ان أغضب» بليغ في الوعيد، وفي دلائل القدرة على ما يسوؤهم، قال أبو هلال: هو لجرير فهدد فيه بالهجاء، ولو كان لمن يتمكن من القتل والاسر والنكاية لكان أفخر بيت قيل.

وأخبرنا أبو أحمد عن ابن دريد عن عبد الرحمٰن عن عمه قال: ذكر أعرابي قوما فقال: ما نالوا بأطراف أناملهم شيئاً إلَّا وطئناه بأخامص أقدامنا، وان أقصى مُنَاهم لأدنى فعالنا. وقال أبو دلف العجلي:

وكن على الـدَّهـرِ فـارسـاً بـطلا ... فـإنـمـا الـدهـرُ فـارسٌ بـطـلُ
لا بُـدَّ للخيـلِ أن تـحـولَ بنـا ... والخيـلُ أرحـامنـا التي نصـلُ
فـمـرةً بـاللّجـيـن نـنـقـلـهـا ... ومـرةً بـالـدمـاء تـنـتـقـلُ[1]
حتى تـرى المـوت تحتَ رايتنـا ... تُـطفـأ نـيـرانُـهـا وتـشـتـعـلُ

---

(١) اللجين: الفضة.

الفصل الثالث من الباب الأول في التهاني

لم تكن من الأقسام التي كانت العرب تصوغ فيها شعراً، وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبب والمراثي، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو، الاعتذار، فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري، فانه قد أجاد القول في صنوفه، وأحسن وأبلغ، ولم يذر لأحد مزيداً، حتى قال بعضهم: هو في هذا النوع النابغة الثاني. ولا أعرف للعرب شيئاً ينسب إلى التهاني، ومهما جاء عنهم من شكلها شيء فهو عند العلماء معدود في جملة المديح، مثل قول أبي الصلت الثقفي[1] يذكر سيف بن ذي يزن[2] وإتيانه بالفرس ومحاربته بهم الحبشة حتى أزالهم عن أرضه، وهو قوله[3] بعد ذكر الفرس:

فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً　　في رأس غُمدانَ دار منك مِحْلالا
تلك المكارمُ لأقعبانِ من لَبَنٍ　　شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

أخذه بعض شعراء الجبل فقال في بعض رؤسائه:

فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً　　في شاذ مهر، ودع غمدانَ لليمنِ
فأنت أولى بتاج الملكِ تقصدُهُ　　من هوذة بن عليّ، وابن ذي يزن

ولست أختار من التهاني بالأعياد على أبيات أشجع[4] شيئاً:

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها　　تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً غرة الدنيا وبهجتَها　　أيامها لك نظمٌ في لياليها[5]

---

(١) ابو الصلت: هو ابن أبي ربيعة بن عبد عوف... الثقفي. شاعر جاهلي. وهو والد الشاعر أمية بن ابي الصلت.

(٢) سيف بن ذي يزن: من ملوك العرب اليمانيين. حكم نحو ٢٥ سنة وقتل في صنعاء سنة ٥٠ ق. هـ. (الأعلام: ٣/١٤٩).

(٣) طبقات ابن سلام: ١/٢٦١. في الشعر والشعراء: ١/٣٧٢: «داراً منك». وفي الأغاني ١٦/٧٣.

(٤) هو الأشجع السلمي. والأبيات في الأغاني: ١٨/٢٤٦.

(٥) في الأغاني: «أيامنا لك لا تفنى وتُفنيها». و «مستقبلا زينة».

العيد والعيد والأيام بينهما ... موصولةٌ لك لا تفنى وتُفنيها
ولا تقضتْ بك الدنيا ولا برحت ... تطوي بك الدهر أياماً وتطويها[1]
وليهنكَ النصرُ والأيامُ مقبلةٌ ... إليك بالفتحِ معقودٌ نواصيها[2]
أمست هرقلةُ تدمي من جوانبها ... وناصرُ الملكِ والإسلامِ مُدميها
إن الخليفةَ سيفٌ لا يجردُهُ ... إلا الذي يملك الدنيا وما فيها
ما قارعَ الدين والدنيا عدوهما ... بمثل هارون راعيه وراعيها[3]

وقلت:

ما لليالي والأيامِ منقبةٌ ... غراءُ تسمو بها إلا مَساعيكا
ربي يبقِّيك ما تهوَى على فرحٍ ... كما يُلقِّيك ما تهوى ويعليكا
لألف فصلٍ كهذا الفصل تبلغه ... باليُمنِ والخير تبليهِ وينميكا
ولا تزالُ لك الأيامُ موطأة ... تمضي قضاياكَ منها في أمانيكا

ووجدت بخط أبي أحمد من أجود ما قيل في التهنئة بالنوروز[4] قول هارون[5] بن عليّ لعلي بن محمد الحواري:

عليُّ يا ذا الجودِ والمعالي ... يا معدنَ الإنعام والإفضالِ
يا مَن به نيطت عُرى الآمال ... فحكمٌ الآمال في الاموالِ
جودٌ بلا منٍّ ولا آعتلالِ ... مبتدأ يُغني عن السؤال
قابله النوروزُ بالإقبالِ ... ونعَمٌ تأتي على اتصالِ
محروسةٌ مأمونةُ الزوالِ ... شبهك في تصرُّفِ الأحوالِ
فليلهُ أزهرُ ذو اشتعالِ ... كأنه وجهك في الجمال
وصحبهُ بالمالِ ذو انهمال ... يحكي ندَى كفِّك ذا الأسيالِ
جرى بماءٍ ... وجرت بمالَ

ومنها:

قولٌ غدا يوفي على الأقوالِ ... كمثل ما توفي على الرجال
فاشتبهَ الاجوادُ بالبُخّالِ ... وعدت مسروراً رَضِيَّ البالِ

---

(١) في الأغاني: «تطوي لك».
(٢) في الأغاني: «وليهنك الفتح» و «معقوداً».
(٣) في الأغاني:
ما روعي الدين والدنيا على قدم ... بمثل هارون راعِيهِ وراعيها
(٤) النوروز: من أعياد الفرس.
(٥) هو هارون بن علي بن يحي المنجم البغدادي، عالم بالأدب له تصانيف منها «كتاب النساء». مات سنة ٢٨٨ هـ. (الأعلام: ٨/٦١).

فــي نــعــمــةٍ ضــافيــة الأذيــالِ بــعــزٍّ ذي الــعــزةِ والــجــلال

وأخبرني بعض أصحابنا قال: كتب أحمد بن أبي طاهر إلى إسماعيل بن بلبل:

أنا وإن كنت في عدد الحشم والأتباع الذين يخرجون من تفضيل الخاصة، ويرتفعون عن الدخول في جملة العامة، فإني في وسط القلادة منهم، وبمكان من نظام نعمتك التي تجمعهم، وهذا يوم من أيام الملوك السادة، الذين لم تزل تجري لهم السنة على عبيدهم وأصحابهم، وقوادهم وكتابهم، بالإهداء إليهم وقبول ما أهدوه منهم، ليعرف مكان التشريف في مرتبته، من مكان المنحطِّ عن منزلته، وموضع النعم من المنعم عليه، في التقدم بقبول ما يهديه إليه، وكل يهدي على قدر بضاعته ورتبته، ومقداره في نفسه وهمته، وعلى حسب موضعه من سيده ومالكه، وما يحويه ملكه وتبلغه مقدرته، وكرهت أن أمسك عن البر، فأخرج عن جملة العبيد والحشم، وأهدي ما يقصر عن الواجب اللازم والحق المفترض، فجعلت هبتي مع الثقة بعذرك، والاعتماد على تفضيلك وصفحك، أبياتا اقتصرت فيها على الدعاء لك، والثناء عليك، أسأل الله تعالى أن يقرنه بالإجابة فيك، كما قرن مدحي لك بالتصديق.

فقلت:

أبـا الصقـرِ لا زالتِ من اللّه نِعمـةٌ تجــدِّدُهـا الأيــام عنـدك والــدهــرُ
ولا زالتِ الأعيــادُ تَمْضِي وتَنـقضـي وتبقى لنــا أيـامُـك الغُررُ الـزُّهـر
فــإنَّــك لـلدنيـا جمــالٌ وزينــةٌ وإنَّـك لـلأحـرارِ ذخرٌ هـو الـذخـر
رأيت الهــدايـا كـلهـا دونَ قــدرهِ وليس لشيءٍ عنـد مـقـداره قـدر
فـلا فضلَ إلاَّ وهـو من فضل جُـودهِ ولا بِــرَّ إلاَّ دونَـهُ ذلــك الــبِــرُّ
فـأهديتُ من حَلْي المـديحَ جَـواهراً منصلةً يــزهى بهــا الـنـظمُ والنثـر
مـدائـحِ تبقَى بعـد مـا نفـد الـدهـر وتبهى بهـا الإيـامُ مـا اتصـل العمـرُ
شكـرتُ لإسمـاعيــل حُسنَ بـلائِـه وأفضـل ما تُجزى بـه النعمُ الشكـرُ

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، عن أبي هفان قال: دخلت على سعيد بن حميد[1] في يوم نيروز وهو مستعد يكتب إلى إخوانه، فقرأت عليه كتابك وشعرك إلى أبي الصقر[2] ـ يعني الكتاب والشعر الذي تقدم ـ فكتب وأنا حاضر إلى الحسن بن مخلد:

أيها السيد النجيب، عشت أطولَ الأعمار في زيادة من النعم، موصولة بقرائنها من الشكر، لا تقضي حق نعمة حتى تتجدد لك أخرى، ولا يمرُّ بك يوم إلا كان موفياً على ما قبله، مقصراً عما بعده، قد تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة في هذا اليوم، والتمست التأسي بهم في الإهداء إليك، وإن قصرت الحال عن الواجب لك، فرأيتني أن أهديت نفسي،

(١) سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان؛ كاتب مترسل من الشعراء قلّده المستعين العباسي ديوان رسائله. توفي سنة ٢٥٠ هـ. (الأعلام ٣/٩٣).

(٢) ابو الصقر هو الوزير اسماعيل بن بلبل.

فهي لك لاحظَّ فيها لغيرك، ورميت بطرفي إلى كرائم مالي، فوجدتها منك، فكنت ان أهديت شيئاً كمهدي مالك إليك، ولم يزد على أن نبّه على نعمتك، واقتضى نفسه بشكرك، وفرغت إلى مودتي وشكري، فوجدتهما لك خالصتين قديمتين غير مستجدتين، وإنّي إنْ جعلتهما هديتي، لم أجدد لهذا اليوم براً ولا لُطفاً، ولم أقس منزلة شكري بمنزلةٍ من نعمتك، إلاَّ كان الشكر مقصراً عن الحق، والنعمة زائدة على ما لم تبلغه الطاقة؛ ولم أسلك سبيلا ألتمس بها ما أعتد به في مجازاتك، إلاَّ وجدت فضلك قد سبقني إليها، فقدم لك الحق وأحرز لك السبق، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك تفي ما يجب لك، والعذر في العجز عن برك براً أتوصّل به إليك:

إنْ أُهـدِ نفسي فهـو مـالكهـا ... ولـهُ أصـونُ كـرائـمَ الـذُّخْـرِ
أو أُهـدِ مـالاً فـهـو واهـبـهُ ... وأنـا الحقيقُ عـلـيـه بـالشكـرِ
أو أهـدِ شُكـري فهـو مُـرتهنٌ ... بجميـلِ فعلك آخـرَ الـدهـرِ
والـشمسُ تَستغني إذا طـلعت ... أن تـسـتـضـيء بـسنـة الـبـدرِ

ثم قرأه علي فقلت: أبا عثمان! الساعة قرأت عليك لابن أبي طاهر هذه المعاني بأعيانها، قال: والساعة عملتها وليس بيننا حشمة.

ولا أعرف لهاتين الرسالتين في هذا الباب نظيراً في رقة معانيها وحسن تخريجها، ورسالة سعيد بن حميد أكثرهما معاني.

وأول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنوروز والمهرجان أحمد بن يوسف، أهدى إلى المأمون سفط ذهب فيه قطعة عود هندي، في طوله وعرضه، وكتب معها: هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد السادة.

وقد قلت:

على العبـد حقٌّ فهو لا شـكَّ فـاعُلُه ... وإن عَـظمَ المولى وجلت فضـائِلُهْ
ألم تـرنـا نُهـدِي إلى اللّه مـالَـهُ ... وإن كـان عنـهُ ذا غِنىً فهـو قـابلُهْ
ولـو كـان يُهـدَى للجليـل بقـدرِهِ ... لقصـر عـلُّ البحـر عنك ونـاهلُهْ
ولـكننـا نُـهـدي إلـى مـن نُـجِـلُّهُ ... وإن لم يكن في وُسعنا مـا يُشـاكُلهْ

فأخذ سعيد بن حميد هذه المعاني وكتب الى ابن صالح بن يزداد:

النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمر مصروف إليك، فما عسانا أن نهدي لك في هذا اليوم؟ وهو يوم شملت فيه العدة للأتباع الأولياء. بإهدائهم إلى السادة العظماء، وكرهنا أن تحليه من سننه فنكون من المقصرين، أو ندعي أن في وسعنا ما يفي بحقك علينا، فنكون من الكاذبين، فاقتصرنا على هدية تقضي بعض الحق وتقوم عندك مقام أجمل البر، وهي الثناء الجميل والدعاء الحسن فقلت:

لا زلت أيها السيد الكريم، دائم السرور والعطية، في أتم العافية وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأيام المفرحة والأعياد الصالحة، فتخلقها وأنت جديد.

فأول كلامه مأخوذ من قول المعلى بن أيوب للمعتصم:

النفس لأمير المؤمنين والمال منه، وليس فيما أوجبه الحق نقيصة، ولا على أحد فيه غضاضة، وباقيه من كلام أحمد بن يوسف، والدعاء الذي في آخره لعلي بن عبيدة الريحاني لم يزد سعيد بن حميد فيه شيئاً.

وأحسن ما سمعت من الدعاء قول علي بن هارون بن يحيى المنجم:

أمتع الله الأمير بما خوله، واستقبل به من العمر اسرَّه وأطوله، وملأه من العز وأمدَّه وأكمله، وألبسه من الإنعام أسبغه وأجزله، ومهد له من العيش أرغده وأفضله، وجمع له من الخبر آخره وأوله.

وللصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عياد فصول في التهاني قليلة النظير، منها ما كتب بهنيء بالوزارة:

أنا أهنىء أطال الله بقاء سيدي الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظله ارادتها، وانحيازها إلى ذراه واضحة المجد والفخر، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر، واشكر له حسن أثره عليها، وعطفه عنان الفكر إليها، حتى قرت لديه قرارها، وأثقبت بيديه نارها، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أيادي النقص لها، وحرج صدرها من تحدث احلاس الجهل بها، ولا غرو فهي وليدة ذراه، قد آلت لَا تَخَطت خطته، وعاهدت لَا برحت ساحته، فالحمد لله الذي أقر عين الفضل، ووطأ مهاد المجد، وترك الحساد يتعثرون في ذيول الخيبة، ويتسقطون في فضول الحسرة، حمداً يديم أيام مولانا ويطيل بقاءه، ويحرس عزه وينصر لواءه، فقد شرح صدور المجالس وشد ظهور المحامد بتفويض الصدر إلى من وليه بحقين: قديم وحديث، وبفضلين: مكتسب وموروث.

وكتب:

الأستاذ الربيع الذي يتصل مطره من حيث يؤمن ضرره، ويدوم زهره من حيث يتعجل ثمره، لا زالت الأيام مسعودة بقرعها إلى إنفاذ وتقديره، والأزمان محسودة بانحيازها إلى إمضائه وتدبيره، فما اكتسى الدهر حلة أبهى من حصول عِنانه في يديه، ومثوله من جملة العبيد لديه، لا زال آمراً ناهياً، سامياً عالياً، تتهنأ الأعياد بمصادفة سلطانه، وتستفيد المحاسن من رياض إحسانه.

وكتب:

الأستاذ عيد الزمان وربيع الأيام، وهذا الفضل الجامع لأحكام الفضل معتز إليه، معتز بما لديه، فغيثه متشبه بكفه، واعتداله مضاهٍ لخلقه، وزهره موازٍ لنشره، وان تسعد به سعادات لا يبلغ حدها ولا يحصر عدها، وهو ـ أطال الله بقاءه ـ يحظر المهاداة بما يحضر، ما خلا الكتب التي لا

يترفع عنها كبير، ولا يمتنع منها خطير، لا زال جنابة موروداً بالعلم، ومتحملا عنه بالغنم.

ومثله ما كتب:

قد أقبل النوروز إلى الأستاذ ناشراً حلله التي استعارها من شيمته، ومبدياً حُليه التي أخذها من سجيته، ومستصحباً من أنواره ما اكتساه من محاسن أيامه، ومن أمطاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه، مؤكداً الوعد بطولِ بقائه، حتى يتحلى العمر، ويستغرق الدهر، ويستكمل من الرتب أعلاها، ويحل من المنازل أسماها، ويرى السادة الفتيان قد اقتفروا سعيه واقتفوا هديه، وأسعده سعادة تستوفي معها الهمة، وما ترتقي إليه، والأمل وما يشرف عليه.

وكتب:

أما بعد تهناء سيدي الموهبة التي ساقها إليه ومدَّ رواقها عليه، إذ كانت من عقائل المواهب، مسفرة عن خصائص المراتب، وكيف لا تكون كذلك وقد صدرت عن مالك الأرض، وولي البسط والقبض، ومصرف الثقلين ومدبر الخافقين، أدام الله سلطانه وأيد أعوانه، مكنوفة بكرم رأيه وشرف اختصاصه واجتنائه، وخطبتها عناية مولانا الأمير أدام الله أيامه، ونصر أعلامه، وحلت من سيدي محل الإيجاب والاستيجاب، والاستحقاق دون الاتفاق، فعرفه الله ميامن أغزر شريعة بأشرف ذريعة، وأبرع فضيلة حصلها بأرفع وسيلة.

وكتب في فصل له يهنىء فيه عضد الدولة، وقد ولد له ابنان توأمان:

وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مفردة، وامتنعت العارفة فيها أن تسنح موحدة، حتى تيسرت منحتان في موطن، وانتظمت موهبتان في قرن، وطلع من النجيبين أبي القاسم وأبي كالنجار، أدام الله عزهما، طالعاً ملكٍ، ونجماً سعدٍ، وشهابا عزٍ، وكوكبا مجدٍ، فتأهلت بهما رباع المحاسن، ووطئت لهما أكناف المكارم، واستشرفت إليهما صدور الأسرة والمنابر، وفهمته وشكرت الله تعالى شكر من نادى الآمال فأجابته مكبة، ودعا الأماني فأجابته مصحبة، وحمدته حمداً مكافئاً جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد، واكتنفني من السرور ما فسح مناهج الغبطة، وسهل موارد وسعت ما ورد اتساعه، شرحت صدور الأولياء بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها، وسألت الله اتمام ما أدناه من الأميرين السيدين من سعادة لا يهتدي إليها الاختيار علوًّا، ولا ترتقي إليها الأفكار سموًّا، وسلطان تضيق البحار عن اتساعه، وتنخفض الأفلاك عن ارتفاعه، وتبليغهما أفضل ما تقسمه السعود وتعلو به الجدود، حتى يستغرقا مع السابقين أخويهما مساعي الفضل، ويشيدا قواعد الفخر، ويرحما صروف الدهر، ويغبطا أطراف الأرض، وهو تعالى قريب مجيب.

وله تهنئة بتجدد رتبة:

وصل كتاب الأستاذ من الحضرة البهية، يشير أن آنسها الله وحرسها بذكر ما لقاه كرم مولانا ورقاه إليه من مراتب تشريف لا تكمل القرائح لاقتراحها واستدعائها، ولا تتسع الخواطر

لالتماسها واقتضائها، فحمدت الله وليّ الحمد والشكر، وأخذت بالحظ من قوة القلب وانشراح الصدر، وسألته أن يطيل بقاء مولانا في العز الراهن، والسلطان القاطن، ويعرف الاستاذ بركة ما درعه من شرف لا يرحل مقيمه، ولا يتحَيَّف عميمه، إنه فعَّال لما يريد.

وكتب في تهنئة بالسلامة من الغرق:

لولا أن الله تعالى، عز اسمه، حماني عن سماع المكروه إلا في ضمان المحبوب، حتى تقدم نبأ التبشير ذكر السبب المحذور، لما وجدت في التماسك به بصيرة، ولا من ترك التهالك ذخيرة، إلا أن لطف الله وعطفه عجلا إلي خبر البشرى، فانتفت الروعة قبل استقرارها، وانتقلت الوحشة قبل استمرارها، فتلقيت جميل صنع الله بالحمد لله رب العالمين، أفضل ما قوبلت به النعم، وشكرت الرغائب والقسم.

وللبحتري تهنئة للمتوكل ببلوغ المعتز يقول فيها[1]:

يا كالىءَ الإسلامِ في غَفَلاتهِ ... ومقيمَ نَهجَيْ حَجِّه وجهادِهِ[2]
يهنيكَ في المعتزِّ بشرى بيَّنتْ ... فينا فضيلةَ هديهِ ورشادِهِ
قد أدركَ الحِلمَ الذي أبدى لنا ... عن حِلْمِهِ ووقارِهِ وسَدادِهِ
ومباركٌ ميلادُ مُلككَ مخبرٌ ... بقريبِ عهدٍ كان مِن ميلادِهِ
تمت لنا النعماءُ فيك مُمتَّعا ... بعلوِّ همّتهِ وَوَرْيِ زنادِهِ[3]
وَبقيتَ حتى تستضيءَ برأيهِ ... وترى الكهولَ الشيبَ من أولادِهِ

وقلت في تهنئة لمولود:

قد زادني عددُ الكرامِ كريمُ ... محضٌ صريحٌ في الكرامِ ضَميمُ
عالي المحلةِ لا يزالُ كأنه ... للعزِّ قِرنٌ والسِّماكُ نديمُ[4]
فلأمره التتميم، كيف تصرفت ... حالاته، ولشأنِهِ التفخيمُ
فأبشر، فقد وافاك يومَ رُزقته ... حظٌ بتخليدِ السرور زعيمُ
فَرْعٌ تكفَّلَ دهرُهُ بنمائه ... حتى يكرَّ الدهرُ وهو أروم
إن الهلالَ يصيرُ مدة كاملاً ... ويهد سدَّ الليلِ وهو بهيم
وهو الوجيهُ إذا تبدَّى وجههُ ... وغداً إذا نزل العظيمُ عظيمُ
وجهٌ كتنويرِ الرياضِ، وتحته ... خلقٌ لمحسودِ الرياحِ وخيمُ
فلأهله شرفٌ به مُتوطدٌ ... ولديهمُ شرفٌ أشمُّ عميمُ
فأقْررْ به عيناً فإنَّ خلالهُ ... تصفو وتسلسُ أو يقال نسيمُ

---

(١) ديوان البحتري: ١/٤٤ عـ.

(٢) كالىء: حافظ.

(٣) في الديوان: «تمّت لك النعماء فيه ممتّعاً». ورْي الزناد: اشعال النار.

(٤) القِرن: المِثل. والسِّماك: ما سُمِكَ به الشيء، والسماء.

ولحـده التصميمُ حين تـلاحـقت		أقـرانـهُ ولـشـأوه الـتـقـديـمُ

ومن أعجب ما جاء في التهنئة والتعزية قول عبد الملك بن صالح: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال: قيل للرشيد: إن عبد الملك بن صالحُ يُعِدُّ كلامه، فأنكر الرشيد ذلك وقال: بل هو طبع فيه، حتى جلس يوماً ودخل عبد الملك، فقال للفضل: قل له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن، ومات له ابن، ففعل الفضل ذلك، فدنا عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين! سرك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدة: ثواب الشاكر وأجر الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي زعموا أنه يصنع الكلام؟ ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة؟

وقلت في تهنئة بمولود:

فـاستقبل الخيـرَ في نجيب		عمـا يَعيبُ الـورى نـزيـهِ
شمسُ نهـار، وبـدرُ لـيـلٍ		يَـملك أبـصـارَ نـاظـريـهِ
يـمـلأهـا بـهـجـة إذا مـا		كشفَ عن وجهـه الـوجيـهِ
رُزقـتـه كـامـلاً سـويـاً		تـكـثـر عـلات عـائـبيـهِ
جنىً لـذيـذُ المـذاق حُلوٌ		يـقـربُ من كـفٍّ مجتـنيـهِ
وعن قليـلٍ يـصيـرُ شـهـمـا		يشقى بـه جـد كـاشحيـهِ
ألا فـعش في ضـمـانِ خيـرٍ		حتى تـرى الشيبَ من بـنيـهِ

وقلت في تهنئة بإملاك(١):

تجلى لـك الأمـلاكُ عمـا تحبـه		فـإنـك قـد فصَّلتَ بـالتبـر جـوهـرا
فَصَيَّـرتـهُ للدهـرِ عِقـداً مفصَّـلا		وطيَّـرتـهُ في الأفق نَشـراً مُـعـطَّرا
هو اليُمن لم يعدِمْك محبوبـةً دنت،		ومكـروهـةً شـطت، وصعبـاً تيسـرا

ومن عجائب المعاني تهنئة لأبي اسحاق الصابىء مشوبة بالعقد لرجل زوَّج أمه:

قد جعلك الله، وله الحمد، من أهل التحصيل والرأي الأصيل، وخلوص اليقين، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره، ويأوي إلينا من ايقاعك العقد بين الوالدة ـ نفس الله لها في مدتك وأحسن بالبقية منها امتاعك ـ وبين فلان، ما علمنا أنك فيه بين طاعة الديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها(٢)، وانك قد جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت خد الحمية فيها، وأسخطت نفسك بارضائها، وعصيت هواك لرأيها، فنحن نعزيك على فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وان يجعلها أبداً معك، فيما شئت وأتيت، وتجنبت وأنبت، والسلام.

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله تعالى: جدعت أنفي الغيرة، من قول رسول الله ﷺ، وقد

---

(١) الاملاك: الزواج.
(٢) تجشّم: تحمّل.

رأى علياً وفاطمة عليهما السلام في بيت فرد عليهما الباب وقال: «جدعَ الحلالُ أنفَ الغيرة».

وهنأ بعضهم بخروج اللحية. وهو أبو نصر بن هبة الله:

الحمد لله الذي له عند خلقه في الأحوال التي يتصرفون فيها، والطبقات التي ينتقلون بينها، والمراتب التي يندرجون عليها لطائف من حكمه، وفوائد من نعمه، توافق مصالحم وتطابق حوائجهم في تصاريف نشوهم، الطفولية والإيفاع[1]، والشبيبة والاجتماع، والبلوغ والاكتهال، والانتهاء والكمال، وجعل لكل واحد منهم في كل حد من الحدود، وسنٍّ من الأسنان، قدراً من الأسر والقوة، وصنفاً من اللون والصورة، ومسافةً في السعي والهمة، وغايةً في الطلب والبغية، يكون به قوام عيشه وسداد أمره، محظوطاً من الاضطراب بزيادة في بعض ذلك يعطاها، قبل بلوغ أدواته منتهاها، يناقص سائره وينافي نظائره، فيفتح بالزيادة في الزوائد صورته، ويظهر بالنقصان في الناقص آفته، حتى إذا تعالى في المراتب أمد النهاية، وتوافت إليه أقسامه في الكفاية، كمل الله إحسانه إليه، وأتم إنعامه عليه، و لله المنة والفضل، وبه القوة والحول، الحمد لله الذي كساك باللحية حلة الوقار، ورداك بها رداء الأبرار، وصانك عن ميسم الصبا، ومطالع أهل الهوى، ما جلك من الهيبة البهية، وألبسك من لباس ذوي اللب والروية، وألحقك في متصرفاتك بمن يستقبل بنفسه ساعيا، ويستغني عمن يصحبه حافظاً، وجعلك بما جمل من صورتك، وكمل من اداتك وآلتك، قرناً لمن جاذبك، وخصماً لمن نازعك، ونفى عنك ذلة الاحتقار من أهل المراتب والأخطار، تستوي معهم في المجالس الحافلة، وتجري مجراهم في المشاهد الجامعة، مسموعاً قولك إذا قلت، مصغي لك إذا نطقت، آمناً من انصراف الأبصار عنك لقرب ولادك، ونبو الاستماع من حديثك لقلة الثقة بسدادك، وجارياً مجرى جلة الرجال على الحملة، إلى أن تكشف مخابرك بالمحنة، وتعطي المهابة من الذاعر العادي، ومن السبع الضاري، إذا اتفق لكما مقام يخلو فيه كل واحد منكما من رفد يمده، وناصر يؤيده، يملكه الاشفاق من صاحبه، ويقطعه من مواليه إليه، من ترك إبقائه في السطوة عليه، ولو كان عاريا من هذه الكسوة الشريفة، والحلية النفسية، لسبقت إليه بالازدراء الأعين، وبالاستصغار القلوب والألسن، وبالطمع أصناف الحيوان، من البهيمة والإنسان، ثم لا يحسن من نفسه قوة على الدفع عنها، ولا من حريمه قدرة على ما يدها منها، وتلك نعمة من الله حباك بمزيتها في جمال غشاك، وكمال أتاك، فليصدق بها اعترافك وشكرك، وليحسن ثناؤك ونشرك، قضاءً لحق الله عليك، واستدراراً للمزيد في إحسانه إليك.

وكتب الصاحب تهنئة بتزوج أم وتعزية بموت أب:

الأيام ـ أطال الله بقاءك ـ تجري على أنحاء مختلفة وشعب متفرقة، وأحكامها تتفاوت بيننا بما يسوء ويسرّ، وينفع ويضرّ، وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخك، رحمه الله تعالى، ما

---

(١) الإيفاع: الفتوة.

أزعجني، وأبهم طرق السلوة دوني، وان كان من خلفك غير خارج عن رؤية الأحياء، ولا حاصل في زمرة الأموات، والله يأسو كَلْمَك، ويسد ثلمك، وقد فعل ذاك بأن أتاح الله لك، بعد أبيك أباً، لا يقصر عنه شفقة عليك وحنواً، وإيثاراً لك وبراً، وقد ـ لعمري ـ وفقت حين وصلت بحبلك حبله، وأسكنت الكبيرة ـ حرسها الله ـ ظله، لئلا تفقد من الماضي، عفا الله عنه، إلا شخصه، فالحمد لله الذي أرشدك لما يعيد الشمل مجتمعا بعد فراقه، والعدد موفوراً بعد انتقاصه، حمداً يقضي لك بالمسرة، ويحسم دونك مواد الوحشة، ويلقيك ثواب ما قضيته من الحق، وتحملته فيه من الأرق، إنه فعّال لما يريد.

وكتب تهنئة بقدوم:

قد جدد الله، وله الحمد، جمال الدنيا وضاعف بهاءها، وزادها محاسن ترفل في حللها وتتبختر في حليها، واكتنفها بميامن يمرع جنابها ويفتح بالخيرات أبوابها، ما استأنف ـ جل اسمه ـ من النعمة الشاملة، والمنة الكاملة، في تقريب ركاب مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ وكبت أعداءه وكب حساده، وزادهم رغماً بزيادته تعالى إياه، نعما لا يرحل مقيمها ولا يتحيف عميمها، ما اختلف العَصْرَانِ وتعاقب النَيِّرانِ، واستقبل به في وفدته ما ينقاد له أقصر الأبيار، ويحتوي عليه أربعة غايات الاختيار، بمنه وجوده.

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، حمداً لا يبلغ نداه، ولا ينفصل أخراه من أولاه، حتى يستغرق نعمهُ، ويستوفي فواضله وقسمه، وأنَّي ذلك وهي متطرفة إلى غير غاية، وممدودة إلى غير نهاية، لا يتخطى إلى شكر بعضها إلاَّ بتجدد أمثاله من جملتها، وترادف نظائره من جماعتها، والحمد لله الذي أعطى كثيراً، وقبل من الشكر قليلا، وأوجب به مزيدا، والصلاة على نبيه محمد وآله وسلم كثيراً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني

كتاب المبالغة

في أوصاف خصال الإنسان المحمودة من: الجود والشجاعة، والعلم والحلم، والحزم والعقل، وما يجري مع ذلك

سمعت الشيوخ، رحمهم الله تعالى، يقولون: أجود بيت قالته العرب قول مسلم ابن الوليد:

يجـودُ بـالنفس إن ضَنَّ الجـوادُ بهـا والجـودُ بـالنفس أقصى غـايـةِ الجـودِ

وأول من جاء بهذا المعنى علقمة بن عبدة[1]:

تـجـودُ بنـفس، لا يُـجـادُ بـمـثـلهـا فـأنتَ بهـا، يـومَ الـلقـاءِ، خصـيبُ

وهذا مثل قول بزيد بن أبي يزيد الشيباني: من جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء،، فقد جاد بنفسيه كلتيهما. وقال أعرابي: من جاد بماله، فقد جاد بنفسه وإن لا يكن جاد بها، فقد جاد بفولمها.

---

(١) هو علقمة بن عبدة بن ناشرة التميمي، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. كان معاصراً لامرىء القيس. مات سنة ٢٠ ق. هـ. (الأعلام: ٤/٢٤٧).

وقال(١) علي بن الجهم:

طلبت هديةً لك باحتيالي ... على ما كانَ من حسي وبَسّي
فلما لم أجِدْ شيئاً نَفيساً ... يكونُ هديةً، أهديت نفسي

وكتب العباس بن حرب إلى بعض الأمراء وأهدى إليه هديه:

لا أعلم بمنزلة توحشه من الأمير، أعزه الله، ولا توحشه مني أنا موقر من بلائه، وفي الطاعة له كَيْدِه، وفي المودة له كنفسه، وفي الخاصة كأحد أهله، وإنما ألطفه من ماله، وقد بعثت إليه ما يصلح ليومه، وأهديت له نفسي التي هي لبذلته وخدمته.

وقال(٢) أبو تمام:

ولو لم يكن في كفهِ غيرُ نفسهِ ... لجادَ بها فليتقِ الله سائلُهْ

وقد أنكر خلف بن خليفة إهداء النفس: قدم أخ له من سفر فاقتضاه خلف الهدية فقال: أهديت نفسي، فقال خلف:

أتانا أخٌ من غَيبةٍ كان غابها ... وكنتُ إذا ما غابَ أنشدهُ الركبا
فقلتُ لهُ: هل جئتنا بهديةٍ؟ ... فقال: بنفسي. قلتُ: انحفْ
هيَ النفسُ لا آسى عليها إذا نأت ... ولا أتمنى ما حييتُ لها قُربا
إذا هي وافت من ثمانينَ قامةً ... فلا السهلَ لقاها الآلةُ ولا الرحبا(٣)

وقالوا: قول مروان بن أبي حفصة:

كأنه حين يعطي المال يغنمه

أجود من قول(٤) زهير:

كأنك معطيه الذي أنت سائله

لأن للغنيمة حلاوة ليست للعطية.

وأجود ما قيل عندي قول(٤) أبي العتاهية:

لو قيلَ للعباس: يا بن محمد ... قل: «لا»، وأنت مخلدٌ، ما قالها

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، حدثنا الحسن بن الحسن الأزدي، حدثنا محمد بن حبيب، وعن الصولي أيضاً عن إبراهيم بن المعلى، عن ابن حبيب قال:

قال(٥) أبو العتاهية يمدح العباس بن محمد:

لو قيلَ للعباس: يا بنَ محمد ... قل: «لا» وأنت مخلدٌ، ما قالها

---

(١) ديوانه: ١٥٠.

(٢) ديوانه: ٢٠٥. وفيه: «غيرُ روحه».

(٣) قامة: مصدر قام، ويكون للمرّة الواحدة.

(٤) ديوانه: ٦٨.

(٥) ليس في ديوانه بل في الأغاني: ٤/٣٤.

إن السماحةَ لم تزل معقولةً حتى حللتَ براحتيك عِقالَها
وإذا الملوكُ تسايرت في بلدةٍ كانوا كواكبها، وكنتَ هلالَها

فلم يثبه فقال[1]:

هززتُك هزَّةَ السيفِ المحلَّى فلما أن ضربتُ بك انثنيتُ
فهبها مِدحةً ذهبت ضَياعاً كذبتُ عليك فيها وافترقتُ

فلما قرأ العباس الأبيات غضب وقال: والله لأجهدن في حتفه، قال: فمر أبو العتاهية بإسحاق بن العباس، فقال له إسحاق: أنشدني شيئاً من شعرك.

فأنشده[2]:

ألا أيها الطالبُ المستغيثُ بمن لا يفيدُ ولا يَرفدُ
ألا تسأل الله من فضله فإن عطاياه لا تنفذُ
إذا جئت أفضلهم للسؤال ردَّ وأحشاؤه تُرَعدُ
كأنك من خشيةٍ للسؤالِ في عينه الحيةُ الأسودُ
فَفِرَّ إلى الله، من لُؤمهم فأني أرى الناسَ قد أصلدوا
وإني أرى الناسَ قد أبرقوا بلؤمِ الفعال، وقد أرعدوا

ثم مضى، فقيل لإسحاق، ما هذا الشعر إلا في أبيك! فقال إسحاق: أولى له أن عرَّض نفسه، وأحوج أبي العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقعدته. ومثل قوله:

كذبت عليك فيها وافتريت

قول علي بن جبلة، وقال له أبو دلف: إنك تحسن أن تمدح ولا تحسن أن تهجو، فقال: الهدم أيسر من البناء، ثم قال[3]:

أبو دلفٍ كالطبل يَذهب صوتُهُ وبالطنهُ خلوٌ من الخيرِ أخربُ
أبا دلف يا أكذبَ الناسِ كلهم سواي فأني في مديحك أكذبُ

وأخذ البحتري قوله:

كانوا كواكبها وكنت هلالها

فقال[4] في المتوكل:

إذا غبتَ عن أرض، ويممتَ غيرها، فقد غابَ عنها شمسُها، وهلالُها
غدتْ بك آفاقُ البلادِ خَصيبةً وهل تمحلُ الدنيا وأنتَ ثِمالُها؟[5]

---

(١) ليسا في ديوانه.
(٢) ديوانه: ٧٨.
(٣) الزهرة: ٢/٧٨١.
(٤) ديوانه: ١/٢٥٢ عـ.
(٥) ثِمال القوم: الذي يقوم على أمورهم.

فأما قوله :

كأنك من خشيةٍ للسؤالِ ... في عينهِ الحيةُ الأسود

فمن قول بعض العرب :

من دون سيبك وجهُ ليل مظلم ... وحفيفُ نافحة وكلب موسدُ
وأخوك محتملٌ عليك ضغينة ... وخسيفُ قومك لائمٌ لا يَحمدُ
والضيفُ عندك مثل أسودَ سالخٍ ... لا بل أحبهما إليك الأسودُ

ومن جيد ما جاء في خلاف ذلك من الحث على الإنفاق ومجانبة الإمساك، قول ديك الجن :

قالوا: السلامُ عليك يا أطلالُ ... قلتُ: السلامُ على المحيل مُحالْ
عاج الشقيّ مراده دِمَن البلى ... ومرادُ عيني قلةٌ وحِجالُ
لأنادمَنَّ الراحَ - وهي زُلال ... ولأطرقنَّ البيتَ فيه غزال
ولأتركن حليلها وبقلبهِ ... حُرقٌ وحشوُ فؤاده بلبال
وليشفين حبي فمٌ وحنى يدٌ ... وكلاهما لي بادرٌ سلسال[1]
ماذا الغنى والبخل مالك من غنى ... وكذاك يا ذا المال مالك مال
أطلقْ يديكَ فإن بين يديك ما ... يرديهما، ووراءَ حالك حال
قد تسلم الأوكالُ وهي مواكلٌ ... للتُّرهَّاتِ وتُقتلُ الأبطال
ورجالُ هذي النائباتِ وإن رَأَوْا ... شظفاً من الأيام فهي رجال

وقلت :

ولم يكن لك مالٌ يوم تكسِبُه ... لكنه لك مالُ يومُ تنفقه
تحبُّ من أجلهِ الدنيا وتورثها ... وسوف توبقك الدنيا وتوبقه
سترتَهُ عن عيون الناس كلهم ... ولستَ تعلم أن الدهرَ يرمقه
إن لم تبكر إليهِ في نوائبهِ ... فسوف يطرقهُ ركضاً فيرهقه

وقد أحسن القائل :

إذا أعجبتك خصالُ امرىء ... فكنهُ، تكن مثلَ ما يعجبكْ
فليس على الجودِ والمكرمات ... حجابٌ إذا جئتهُ يحجبك
هو المالُ إنْ أنت لم تخترب ... أباحَ لك الدهرُ ما يخربك

وإذا كان أفضل الجود ما كان مع الحاجة، على حسب ما مدح الله تعالى به الأنصار، فقال: ﴿ويُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَة﴾[2].

---

(١) ماء سلسال: جارٍ.

(٢) سورة الحشر آية ٩.

وأجود ما قيل قول عروة بن الورد[١]:

فــلا تشتـمني يــا بنَ ورد فــإنّـني تعـودُ على مالي الحقـوقُ والعـوائـدُ
ومن يؤثـر الحقَّ الـنؤوبَ يـكن بــه خَصـاصةُ جسم وهـو طيَّانُ مـاجد[٢]

وقال عبد الملك بن مروان: ما ودِدت أن أحداً من العرب ولدني إلاَّ قائل هذه الأبيات.

ومن جيد ما قيل في الإيثار على النفس قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهـر[٣]، كتبه عبيد الله بن سليمان[٤] حين ولي الوزارة:

أبى دهـرنُـا إسعـافَنـا في نفـوسِنـا فـأسعـفنـا فـيمـن تُـحبُّ ونكـرمُ
فـقلت لـه: نـعمـاكَ فيهـم أتـمهـا وَدَعْ أمـرنَـا، إنَّ الـمهـمَّ الـمـقـدَّمُ

وهذا غاية لأنه جعل أمر الممدوح أهمّ له من نفسه وإصلاح شأنه.

ومن جيد ما قيل في جود على قوم دون قوم قول[٥] البحتري:

سـحـابٌ عـداني جـودُهُ وهـو هـامـرٌ وبـحـرٌ خـطاني فـيضُـه وهـو مـفـعَـمُ
وبـرقٌ أضـاءَ الأرضَ شـرقـاً ومغـربـاً ومـوضـعُ رجـلي مـنـهُ أسـودُ مـظلمُ

ومن أجود ما قيل في كبر الهمة قول بعض العرب:

لــهُ هِـممٌ لا مُـنتـهى لـكبـارهـا وهمتـهُ الصغرى أجلُّ من الـدهـر
لــه راحـةٌ لــو أن مِعشـارَ جُـودِهـا على البرِّ كان البرُّ أندى من البحر[٦]

أخذه المتنبي[٧] فقال وقصر:

تـجـمـعـتْ فـي فـؤاده هـمـمٌ مـلءُ فؤادِ الـزمـانِ إحـداهـا

وموضع التقصير فيه أن الأول جعل همته الصغرى أجل من الدهر، وجعل المتنبي إحدى هممه ملء فؤاد الزمان، فإذا كانت ملء فؤاده فليس بأجل منها.

ومما يذكر في وصف كبر الهمة أن سيف بن ذي يزن دخل على كسرى، فتطأطأ في طاق

---

(١) عروة بن الورد بن زيد العبسي الغطفاني، من شعراء الجاهلية من الفرسان الصعاليك وهو رئيسهم. مات سنة ٣٠ ق. هـ. (الأعلام: ٤/٢٢٧).

(٢) الخصاصة: الفقر. رجل طيّان: جائع. والبيتان ليسا في ديوانه.

(٣) هو الأمير أبو أحمد، ولي شرطة بغداد نيابة عن أخيه محمد. ثم استقل بها بعد موته، كان رئيساً جليلاً، وشاعراً محسناً ومترسلا بليغاً، له تصانيف منها كتاب «الاشارة» في اخبار الشعراء. مات سنة ٣٠٠ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٤/٦٢).

(٤) هو الكاتب الوزير ايام المعتمد والمعتضد، عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي ابو القاسم. مات سنة ٢٨٨ هـ. (الأعلام: ٤/١٩٤).

(٥) ديوانه: ١/٦٨ عـ.

(٦) معشار الشيء عُشره.

(٧) المتنبي: شاعر زمانه ابو الطيب، احمد بن الحسين الجعفي. قُتل سنة ٣٥٤ هـ. والبيت في ديوانه: ٤/٢٧٧.

رفيع من طيقان قصره، وجلس فدفعت إليه مخدة، فجعلها على رأسه وكسرى يرمقه، فلما سأل سيف حاجته قيل له: إن الملك قد رأى منك خلتين عجيبتين: وضع المخدة على رأسك وإنما أعطيتها لتجلس عليها، وتطأطؤك في الطاق الرفيع. فقال: أما المخدة فرأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم موضع عندي، وأما تطأطئي في الطاق الكبير فإن همتي أكبر منه. فاستحسن كلامه وضم إليه جيشاً أزاح بهم الحبشة عن بلده:

ومن بليغ ما قيل في كبر الهمة، قول علي بن محمد البصري:

قلبي نظيرُ الجبلِ الصعب وهمّتي أكبرُ من قلبي
فاستخر الله وخذْ مُرهفاً وافتك بأهلِ الشرقِ والغربِ
ولا تمت إن حَضرت ميتةٌ حتى تميتَ السيفَ بالضربِ

ومن المذكور في ذلك قول[1] أبي تمام:

رأى ابنُ دهرٍ عَرقاً في خيلهِ أعلم منه بِحُذاءِ ابلِهِ
قد لعبت أيدي النَّوَى بشمْلهِ ممتّعاً مُضْطَلِعاً بحمْلهِ
مُنصلِتاً كالسّيفِ عند سلّهِ مولودَةٌ هِمَّتهُ من قَبْلِهِ
قد دانَ ذو الفضل له بفضلهِ كالصّابِ من يذقه لا يَسْتَحْلِهِ
إلاَّ بأن يسكنَ تحت ظِلِّهِ

وقال[2]:

هِمَّةٌ تَنْطَحُ النجومَ وجدٌّ آلِفٌ للحضيضِ فهو حَضِيْضُ

أبلغ ما قيل في يُمن النقيبةِ قول[3] الأعشى:

ولو رُحتَ في ظُلمةٍ قادحاً حصاةً بنبعٍ لأوريتَ نارا

الحصاة مع النبع لا تورى، قال: فأنت من يمن نقيبتك لو قدحت بهما لأوريت.

وقال بعض الأعراب:

يذكّرني سعداً دعاءُ بالقرى لو أشرفَ القومُ على أرضِ العِدى
واختلطَ الليلُ بألوانِ الحصى وأرسلوا سَعداً إلى الماءِ سرى
من غير دلوٍ ورشاءٍ لاستقى

وهو بليغ في هذا المعنى جداً:

وقلت:

ليس للعينِ وراء شأوِهِ إلى العلى والمكرُماتِ مُطَّرَحْ

---

(١) الأبيات ليست في الديوان.

(٢) ديوانه: ١٦٠.

(٣) ديوانه: ٥٣. وفيه: «ولو رُمت في ليلةٍ...».

قد شحَّ بالعرض وجاد باللُّهى ... فحوى المجد بما جاد وشَحّ[1]
فإذا هَمّ بأمرٍ نالَه ... فسواءٌ جَدٌّ فيه أو مَزَحْ

وقلت:

إذا ما بدت فينا عطاياهُ عقبت ... وكم بادىء للمزنِ غير معقبِ
ولما يقرره تقلّب دهره ... فقلت لعلَّ الدهرَ لم يتقلب
ويدنو له المطلوبُ حتى كأنما ... يواكب ضوء الصبح في كل مطلب

أبلغ ما قيل في اهتمام الرجل بأمر أخيه قول بعضهم:

سأشكرُ عمراً إن تراخَتْ مَنيّتي ... أيادي لم تُمنن وإن هي جلَّتِ
فتى غير مفراح إذا الخيرُ مسهُ ... ولا مظهر الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خلتي من حيثُ يُخفى مكانُها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلَّتِ

قوله: «قذى عينيه» لا يقوم مقامه شيء في شدة الاهتمام، لأن الانسان، إذا قذيت عينه، صرف الهمة إلى تقذيتها من غير اشتغال بشيء غيرها، وهو على قوله: «من حيث يخفي مكانها» أبلغ لأنه يدل على تفقد شديد وعناية تامة.

ومما هو في هذه الطريقة قول[2] أمية بن أبي الصّلت.

إذا ليلةٌ نابتك بالشكوِ لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرقتَ به دوني فعيني تهمُلُ

وقالوا: أشجع بيت قالته العرب، قول عباس بت مرداس السلمي[3]:

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي ... أحتفي كان فيها أم سواها[4]

قالوا: أربعة من الشجعان تتبين دلائل الجبن في شعر ثلاثة منهم، فمن الثلاثة عنترة[5] في قوله:

فإذا شربتُ، فإنني مستهلِكٌ ... مالي، وعرضي وافرٌ لم يكلمِ
وإذا صحوتُ فما أقصِّر عن ندىً ... وكما علمتِ شمائلي وتكرمي
وَخليلِ غانيةٍ تركتُ مجدلا ... تمكو فريضتهُ كشدقِ الأعلم[6]

---

(١) اللهى: جمع اللهية: المبلغ من المال.

(٢) الأغاني: ٤/١٣٠.

(٣) ابو الهيثم، شاعر فارس من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة عاش بين الجاهلية والاسلام له صحبة. مات سنة ١٨ هـ. (الأعلام: ٣/٢٦٧).

(٤) البيت في ديوانه: ١٦٢. وفي (عيون الأخبار: ٢/١٩٤).

(٥) عنترة بن شداد العبسي: اشهر فرسان العرب في الجاهلية من شعراء الطبقة الأولى، وكان عزيز النفس، أحب ابنة عمه عبلة وذكرها كثيراً. قتله الأسيد الرهيص سنة ٢٢ ق. هـ. (الأعلام: ٥/٩١). والأبيات في ديوانه: ١٢.

(٦) خليل غانية: صاحب حسناء. مجدّل: صريع. تمكو: تحك وتضطرب. الأعلم: الفرس.

هـلاَّ سـألتِ الخيـل يـا بنـة مـالـكٍ　　إن كنت جـاهلةً بمـا لـم تعلمي[1]
يخبـرك من شهـدَ الـوقيعـةَ أنني　　أغشىَ الـوَغى، وأعفُّ عنـد المغنم
ومُـدَجَّـجٍ كـرِهَ الكُمـاةُ نِـزَالـهُ　　لا ممعـن هَـرَبـاً ولا مستـسلـم[2]
سبقت يـدايَ لـهُ بعـاجـلِ طعنـةٍ　　ليس الكـريم على القنـا بمحـرمِ
نبئت عمـراً غيـر شـاكـر نعمـتي　　والـكفـرُ مـخبـلةٌ لنفسِ المـنعـمِ

ثم قال:

إذ يـتقـون بـي الأسـنـةَ لـم أخـم　　عنهـا، ولكنـي تضـايـقَ مقـدمـي

قالوا: فدل على أنه وقف ولم يقدم، واعتذر بتضايق المقدم. وكان عنترة هجيناً، أمه أمة فاستعبده أبوه، وهذه كانت العرب عادتها في الهجناء، فكان يرعى ثم اتخذ سلاحا وصنع مهراً فأغارت طيء على عبس فسبوا أهله وجيرانه، فركب مهره واتبع القوم ثم جنبهم حتى أتى من أمامهم، فما زال يطعن في أعين القوم حتى ردوا عليه أباه وأمه ثم عمه وابنته عبلة، ثم قال: لا انصرف بأهلي وأترك جيراني، فَكَرَّ عليهم فقتل منهم أربعين، فردوا عليه جيرانه، وكان يقول له أبوه وعمه: كرَّ، فيقول: لا يحسن العبد الكر، وإنما يحسن الحلب والصرَّ، يقرِّعهم بذلك إذا كانوا قد استعبدوه، فاستلحقه أبوه يومئذٍ، وزوجه عمه عبلة ابنته، وكان عنترة يسمى الفلحاء وكانت أمه حبشية تسمى زبيبة، وقال النبي ﷺ: «ما سمعتُ بأعرابي فاشتهيتُ أن أراه إلا عنترة».

والآخر قول عمرو بن معد يكرب[3] في قوله:

ولـقـد أجمـعُ رجلـيَّ بـهـا　　حـذرَ المـوتِ وإني لفـرورُ
ولـقـد أعـطفـهـا كـارهـةً　　حينَ للنفسِ من الموت هريرُ
كـل مـا ذلـك مـنّي خـلق　　وبكـل أنـا في الـروع جـديـرُ

فقال: «وإني لفرور». وقال بعض أهل الأدب: إنّما هو «لقرور» بالقاف لأن الشجاع لا يمدح نفسه بالفرار سيما باللفظ البليغ من فرور. وليس كذلك لأن قوله:

«كل ما ذلك مني خلق».

على أنه ذكر حال فرار، وحال ثبات. فحال الثبات قوله:

«ولقد أجمع رجلي بها».

والحال الأخرى حال للفرار إذا كان ذلك أحزم. ولو ذكرنا حالا واحدة لم يحسن أن يقول:

«كل ماء لك مني خلق».

---

(١) ابنة مالك: عبلة.

(٢) الكماة: جمع الكمي: المحارب المدجج بالسلاح.

(٣) هو فارس اليمن، عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبدالله الزبيدي، اسلم وشهد اليرموك والقادسية، شعره جيد. مات سنة ٢١ هـ. (الأعلام: ٥/٨٦). والأبيات مع ترجمته في (الشعر والشعراء: ١/٢٩١).

وإنما دل على أصالته وعقله في ثباته وقت الثبات، وفراره ساعة الفرار، وليس الشجاعة أن يحمل الرجل نفسه على الهلكة، إنما ذلك هوج، والشجاعة أن يتقدم، وغالب ظنه أن يظفر، فأما أنه إذا علم أنه إذا أقدم هلك، ثم أقدم، فإن ذلك جنون؛ لأن كل أحد يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك، وإنما الشأن في أن يحمد غب إقدامه. وفي قريب من ذلك قوله:

فجاشت إليَّ النفسُ أولَ مرة ... فرُدَّتْ على مكروهها فاستقرَّتِ

فما جاشت نفسه إلا وجبن، ولو وصف عمرو هذه الأشياء من نفسه قيل: إنه ممن يصدق عن نفسه، على أنه ربما كذب الكذبة الصلعاء.

وروى لنا أبو أحمد عن العبشمي، عن المبرد، وعن غيره، قال: وقف عمرو بن معد يكرب وخالد بن الصقعب النهدي في جماعة بالكُنَاسه يتحدثون، فقال عمرو: أغرنا مرة على بني نهد، فخرجوا مستر عفين بخالد[1] بن الصقعب، فحملت عليه، فطعنته فأرديته، ثم ملت عليه بالصمصامة، فأخذت رأسه، فقال خالد: حلاً أبا ثور! فان قتيلك هو المحدِّث. فقال عمرو: يا هذا! إذا حدثت فاسمع، فانما نرهب هؤلاء المعدية. مسترعفين أي متقدمين، وقوله: حلا أبا ثور! أي قل إن شاء الله. ويقال: حلف ولم يتحلل، أي لم يستثن.

ويروى عن العرب كذب كثير، فمن ذلك ما يزعمون أنهم يرون الجن، ويكلمون الغيلان والسَّعالي، حتى زعم تأبط[2] شراً انه طلب نكاح السعلاة في قوله:

وادهم قد جبت جلبابه ... فيا جارتا أنت ما أهولا
فطالبتها بُضعَها فانثنت ... بوجه تهوّل واستغولا
وكنت إذا ما هممتُ اعتزمتُ ... وأحرى إذا قلتُ أن أفعلا[3]

وقال آخر:

أخو قَفراتٍ حالفَ الجنَّ واتقى ... من الانس حتى ما تقضت رسائلُهْ
له نسبُ الإنسيِّ يعرفُ نحله ... وللجنِّ منهُ خَلقُهُ وشمائلُهْ

وقال عبيد بن أيوب[4]:

---

(١) ابن الصقعب: خالد بن الصقعب النهدي، شاعر من الفرسان، من اشراف الكوفة في صدر الاسلام. مات بعد سنة ٢٠ هـ. (الأعلام: ٢/٢٩٧).

(٢) تأبّط شرّا: هو ثابت بن عمسل او ابن جابر. كان شاعراً بئيساً من الصعاليك. قُتل وهو يغزو. ترجمته مع الأبيات في (الشعر والشعراء: ١/٢٣٠) وفيه:

فأصبحت والغول لي جارةٌ ... فياجارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتُها بُضعها فالتوتْ ... بوجه تهوّل فاستغولا

(٣) في الشعر والشعراء: ١/٢٣١: «وأحْرِ إذا ...».

(٤) عبيد بن أيوب العنبري، ابو المطراب، شاعر من شعراء العصر الأموي كان لصاً حاذقاً، هرب من السلطان وصحب الوحوش في الفلوات وذكر ذلك في اشعاره. (الأعلام: ٤/١٨٨). والبيت في (الحيوان للجاحظ: ٤/٤٨٢).

فـللّه درُّ الـغـولِ أيُّ رفـيـقـةٍ   لـصـاحبِ قـفـرٍ خـائفٍ مـتقـفـرٍ

وكان كثيرٌ من شعرائهم يدَّعي أن له شيطاناً يعلمه الشعر، منهم الفرزدق كان يكني شيطانه أبا لبينى، وذكر أنه ذهب إلى جبل فناداه، فجاء مثل الذباب، فدخل في حلقه، فقال قصيدته التي أولها:

عـزفت بـأعشـاشٍ ومـا كـنـت تـعـزف

وقال أبو النجم[١]:

وجـدت كـلّ شـاعـرٍ من البشـرْ   شـيـطانـهُ أنثى وشيـطاني ذكـر

وزعموا أن عروة بن عتبة[٢] صرخ بقومه فأسمعهم من مسيرة ليلة. ورووا أن لقمان بن عاد[٣] لما ضعف بصره كان يفصل بين أثر الذكر والأنثى، والذرّ إذا دبَّ على الصفا في الليلة الظلماء.

وقال رجل لأبي حنيفة: ما كذبتُ قط! قال: هذه كذبة أشهد بها عليك.

وسأل الحجاج قاصاً عن اسم بقرة بني اسرائيل، قال: حنتمة. فقال له رجل من أولاد أبي موسى الأشعري: في أي كتاب وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص.

ودخل عبد الله بن الزبير يوما على معاوية، فقال: اسمع أبياتاً قلتها:

إذا أنتَ لم تنصف أخـاكَ وجـدتَـهُ   على طـرفِ الهجرانِ إن كـان يعقـلُ
ويـركب حـدَّ السيفِ من أن تضيمـهُ   إذا لم يكن عن شفرةِ السيفِ مزحل

ثم دخل معن بن أوس[٤] المزني فأنشد:

لـعـمـرك مـا أدري وإنـي لأَوْجَـلُ[٥]

حتى صار إلى البيتين، فقال معاوية: ما هذا يا أبا بكر؟ فقال: أنا أصلحت المعاني، وهو ألف الكلام، وهو بعد ابن ظئري، وما قال من شيء فهو لي. وكان عبد الله بن الزبير مسترضعاً في مزينة.

---

(١) ابو النجم: هو الفضل بن قدام العجلي، راجز، حسن الانشاد للشعر، كان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان. مات سنة ١٣٠ هـ. (الأعلام: ١٥١/٥). البيت مع ترجمته في (الشعر والشعراء: ٥٠٢/٢). وفيه: «إني وكلّ شاعر ...».

(٢) عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب، جاهلي من جلساء الملوك، سمي «الرحال»، وبسببه هاجت حرب الفِجار الثانية. قُتل سنة ٣٢ ق. هـ. (الأعلام: ٢٢٦/٤).

(٣) لقمان بن عاد بن ملطاط من بني وائل، من حمير. معمَّر جاهلي.

(٤) معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني، شاعر فحل له مدائح في الصحابة. مات سنة ٦٤ هـ. (الأعلام: ٢٧٣/٧).

(٥) وعجز البيت: ... «على أينا تعدو المنية أول».

والثالث عمرو بن الأطنابة(١) حيث يقول:

وقولي كلما جشأتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تحمدي أو تستريحي

فزعم أن نفسه جشأت وجاشت، وليس ذلك إلاّ من الجبن.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن الرياشي، حدثنا العتبي عن أبيه، قال: دخل الحارث بن نوفل بابنه على معاوية، فقال: ما علمت ابنك؟ فقال: القرآن والفرائض، فقال روِّهِ من فصيح الشعر، فإنه يفتح العقل، ويفصح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة، ولقد رأيتني ليلة صفين وما يحبسني إلاّ أبيات عمرو بن الأطنابة حيث يقول:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

وإعطائي على المكروهِ مالي ... وضربي هامةَ الشيخ المشيحِ

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانكِ تحمدي أو تستريحي

لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيحِ

بذي شطبٍ كلونِ الملح صافٍ ... ونفس لا تقرُّ على القبيحِ

قالوا: والذي يدل على الشجاعة الخالصة قول(٢) العباس بن مرداس:

أشدُّ على الكتيبةِ لا أبالي ... أحتفي كان فيها أو سِواها

وهذا على مذهب من ذكرنا قبلُ هوج، والذي يدل على أن التثبت والتأنّي وسكون النفس من تمام الشجاعة قول بلعاء بن قيس(٣):

وفارس في غمارِ الموتِ مُنغمس ... إذا تأنّى على مكروهِهِ صدقا

غشيتُهُ وهو في جأواء باسلة ... عضباً أصابَ سواءَ الرأس فانفلقا

بضربةٍ لم تكن مني مخالسةً ... ولا تعجلتها جبناً ولا فَرَقا

فذكر أن مخالسة الضرب من الجبن.

وأحسن ما قيل في التقدم في الحرب قول(٤) زهير:

ليث، بعثّر، يصطادُ الرجالَ إذا ... ما الليثُ كذّب عن أقرانِهِ صَدَقَا

يَطْعنهمُ، ما ارتَمَوا، حتى إذا طعنوا ... ضَارَبَ، حتى إذا ما ضارَبُوا اعتنقا

وصفه بالتقدم على كل حال. وقلَّ أحد منهم لم يصف نفسه بالتأخر.

---

(١) ابن الاطنابة: هو عمرو بن زيد مناة الكعبي الخزرجي، شاعر جاهلي فارس. (الأعلام: ٥/ ٨٠). والبيت في (عيون الأخبار: ١/١٢٦).

(٢) ديوانه: ١٦٢.

(٣) بلعاء بن قيس: رأس بني كنانة، شاعر محسن مات قبل يوم الحريرة. (من حاشية الحيوان للجاحظ: ٣/٦٠). وانظر (العقد الفريد: ٣/٢٧٢).

(٤) ديوانه: ٤٣. وفيه: «ما كذّب الليث عن». وفي البيت الثاني: . . . «إذا اطعنوا».

قال حصين بنُ حمام[1]:

تـأخـرتُ أستبقي الحيـاةَ فلم أجـد ... لنفسي حيـاةً مثـلَ أنْ أتـقـدّمـا

فلسنـا على الأعقـاب تـدمى كلومُنـا ... ولكن على أقـدامنـا تُقـطِر الـدمـا

ذكر أنه تأخر، ثم رأى أن التقدم أحرز لظفرٍ يعيش به عزيزاً، أو موتٍ يموته شريفاً.

وأخبرنا أبو أحمد، رحمه الله تعالى، عن أبيه عن علي، قال: قال المهدي لابن داب: أنشدني أحسن ما قيل في وصف الفتى الشجاع.

فأنشده للشّمّاخ[2]:

وأشعثَ قـد قـدَّ السِّفـارُ قميصَـه ... يجـر شِـواءً بـالعصا غيـرَ مُنضَـجِ

دعـوتُ إلى مـا نـابني فـأجـابني ... كـريمٌ من الفتيـان غيـرِ مُـزلَّـجِ[4]

فتى يمـلأ الشِّيـزى ويُـروي سِنـانَـهُ ... ويضربُ في رأس الكميِّ المدجَّـجِ[5]

فالتفت إلى عبد الله بن مالك الخزاعي وقال: هذه صفتك.

وقالوا: أشجع بيت قالته العرب، قول كعب بن مالك[6]:

نصـلُ السيـوفَ إذا قَصُـرنَ بخـطونـا ... قِـدْمـاً ونُـلحِـقـهـا إذا لـم تَـلحَـقِ

ورأى بعض العرب سيفاً فقال: ما أجوده لولا قصر فيه! فقال صاحبه: نصله بخطوة. فقال الرجل: تلك الخطوة أشد من مشيتي إلى الصين.

وأبلغ ما قيل في سعة الخطو في الحرب قول[7] أبي تمام:

خـطوٌ ترى الصـارمَ الهنديَّ منتصراً ... بـه من المـارنِ الخـطيِّ منتصفـاً[8]

يقول: لسعة الخطو ينتصف صاحب السيف من صاحب الرمح . .

وقالوا: أشجع ما قيل قول الشاعر:

---

(١) هو الحصين بن حُمام بن ربيعة المري الذبياني، أبو يزيد، شاعر جاهلي فارس. لقبه مانع الضيم. مات سنة ١٠ ق . هـ . وقيل انه ادرك الاسلام. (الأعلام: ٢/٢٦٢). والبيتان في (الشعر والشعراء: ٢/٥٤٢).

(٢) الشمّاخ: هو ابن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني، شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام. وهو من طبقة لبيد والنابغة، وكان أرجز الناس على البديهة. توفي في غزوة موقان وكان شهد القادسية. مات سنة ٢٢ هـ . وقيل اسمه معقل والشمّاخ لقبه. (الأعلام: ٣/١٧٥) والأبيات في (الأغاني: ٩/١٦٥).

(٣) السِّفار: السفر.

(٤) المزلج: الملصق بالقوم وهو ليس منهم.

(٥) الشِّيزي: خشب تتخذ منه القصاع.

(٦) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السَّلَمي، الخزرجي صحابي من اكابر الشعراء. شاعر مخضرم وكان شاعر النبي ﷺ توفي سنة ٥٠ هـ . (الأعلام: ٥/٢٢٨). والبيت مع ترجمته في الأغاني: (١٦/٢٢٦ ـ ٢٣٤).

(٧) ديوان ابي تمّام: ١٧٩.

(٨) المارن الخطّي: الرمح.

أقــولُ لنفسٍ لا يجــادُ بمثلهــا أقلّي شكوكـا إنني غيـرُ مـدبـرِ

وأجود ما قيل في صدق اللقاء مع قلة العدد قول(1) **أبي تمام**:

قلّوا، ولكنهم طـابـوا فـأنجدهـم جيشٌ من الصبـر لا يُحصى لـه عـددُ
إذا رأوا للمنـايـا عـارضـاً لبسـوا مـن اليقيـن دُروعـاً مـالهـا زردُ
نـأوا عـن المصـرحِ الأدنى فليس لهـم إلا السيـوفُ عـلى أعـدائهـم مـددُ

وأجود ما قيل في وصف الفتى الشجاع وصاحب الحرب من شعر المحدثين، قول(2) مسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد الشيباني(3):

لـولا يـزيـد لأضحى الملكُ مضـطرداً أو مـائلَ الـرأس أو مسترخيَ الـطَّوَلِ(4)
حـاطَ الخـلافـةَ سيفٌ من بني مَـطَرٍ أقـام قـائـمَـهُ مَـنْ كـان ذا مَـيَـلِ
سـدَّ الثغورَ يـزيـدٌ بعـد مـا انفرجت بقـائم السيف لا بـالختـل والحِيَـلِ
مـوف على مهجٍ، في يـوم ذي رهَـجٍ كـأنـه أجـلٌ يـسـعـى إلـى أمـلِ
ينـالُ بـالـرفقِ مـا يَعْيَـا الـرجـالُ بـه كـالمـوتِ مستعجـلاً يـأتي عـلى مَهَـلِ
يكسـو السيـوف نفـوس النـاكثيـن بـه ويجعـل الهـام تيجـان القنـا والـذُّبُلِ(5)
يغـدو فتغـدو المنـايـا في أسنّتِـه شـوارعـاً، تتحـدى النـاسَ بـالأجـلِ
قـد عـودَ الطيـرَ عـادات وثقنَ بهـا فهـن يَـتّبـعَـنـهُ فـي كـلِّ مُـرتـحـلِ
إذا انتضى سيفَـهُ كـانت مسـالكُـهُ مسـالـكَ المـوتِ في الأبـدان والقُـلَلِ
الـزائـديُّـون ـقـومٌ فـي رمـاحـهـم خـوفُ المخيفِ وأمن الخائفِ الـوَجِلِ(6)
كـبيـرهُـم لا تـقـومُ الـراسيـاتُ لـه حـلمـاً وطفلُهُـم فـي هُـدى مُكـتـهـلِ
إسـلم يـزيـدُ فمـا فـي الملكِ مـن أوَدٍ إذا سـلمتَ، ولا فـي الـدينِ مـن خللِ(7)
وافـخـر فمـالـك في شيبـانَ من مثـلٍ كـذاك مـا لـبـني شيبـانَ من مثـلِ
لله مــن هـاشـمٍ فـي أرضـهِ جـبـلٌ وأنـت وابـنُـك ركنـا ذلـك الجـبـلِ

وقوله:

---

(1) ديوانه: ٨٨. والبيت الثالث في الديوان: «نأوا عن المصرخ...».

(2) الأغاني: ١٩/ ٣٥، والشعر والشعراء: ٢/٧١٢، وديوانه: ٩ ـ ٢٣.

(3) يَزيد بن مَزْيَد بن زائدة الشيباني، أبو خالد، أمير قائد شجاع كان والياً بأرمينية وأذربيجان، انتدبه هارون الرشيد لقتال الخوارج، وللشعراء شعر كثير فيه. مات سنة ١٨٥ هـ. (الأعلام: ٨/١٨٨).

(4) هذا البيت، والثاني والثالث والخامس والسابع، لم ترد في الأغاني.

(5) في الأغاني: «يقري السيوف ... ويجعل الروس». والناكث: الذي يخلف الوعد. وفي بعض النسخ: «ويجعل الهامة».

(6) في الأغاني:

وإن خـلت بـحـديـث الـنـفس فـكـرتـه عـاش الـرجـاء ومـات الخـوف من وَجَـلِ.

(7) أوَد: اعوجاج.

سَـلَّ الخليفـةُ سيفـاً من بني مـطر يمضي فيختـرقُ الأحشاءَ والهـامـا[1]
كـالـدهـرِ لا ينثني عمَّـا يهُمُّ بـه قـد أوسعَ النـاسَ إنعامـاً وإرغامـا[2]
تـظلمَ المـال والأعـداء من يـده لا زالَ للمـالِ والأعـداءِ ظـلاَّمـا
إذا بـدا رفـعَ الأسـتـار عن ملك تُكسى العيـونُ بـه نُـوراً وإظـلامـا
تمضي المنـايـا لمـا تمضي أسنّتـهُ كـأنّ في سَـرجـهِ بـدراً وضِـرغـامـا

وله أيضاً:

يلقى المنيّـة في أمثـال عُـدتِهـا كـالسيـلِ يقـذفُ جُلمـوداً بجلمـودِ
كـالليثِ بل مثلهُ الليثُ الهصُورُ إذا غنَّى الحـديـدُ غنـاءً غيـر تغـريـدِ

وقالوا: أشجع بيت قاله محدث قول أبي تمام[3]:

فمـا بـلّ في مـستـنقـع الـمـوتِ رجله وقـال لهـا من تحتِ أخمصـك الحشـرُ[4]
وقـد كـان فـوتُ المـوت سهـلاً فـردَّهُ عليـه الحِفـاظُ المـرُّ والخُلُقُ الـوعـرُ[5]
غـدا غَـدْوَةً والـحـمـد نـسـجُ ردائـهِ فـلم يـنـصـرف إلا وأكـفـانُـهُ الأجـرُ

أخذ معنى البيت الأول من قول عوف بن قطن بقوله يوم الجمل:

لا أبـتغـى اللَّحـدَ ولا أبـغي الـكـفـنْ من هـا هنـا محشـرُ عـوفِ بن قـطنْ

وأجود ما قيل في سكون الجأش في الحرب، قول[6] البحتري.

لقـد كـانَ ذاك الجـأش جـأشَ مسـالمٍ عـلى أنَّ الـزيَّ زيُّ مـحـاربِ
تسـرَّعَ حتى قـالَ من شـهـدَ الـوغى لـقـاء عـداءٍ أم لـقـاء حـبـائـب
وصـاعـقـة في كـفـه ينـكـفي بـهـا على أرؤسِ الأقـران خمسُ سحـائب[7]

وهذا البيت أجود ما قيل في معناه، جعل السيف صاعقة، وأصابع الضارب سحائب تجود على مؤملين بغيتها، وتقتل معاوية بصاعقتها.

أصدق بيت قالته العرب

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن أبي العيناء، قال: قال الأصمعي: أصدق بيت قالته العرب وأحكمه[8]، قول الحطيئة:

---

(١) في الأغاني ١٩/٣٩: «فيخترم الأجساد». الهام: جمع الهامة: الرأس. وفي الديوان: «فيخترق الأجساد».
(٢) في الديوان: ٦٣: لا ينثني عمن يَهُمّ.
(٣) ديوانه: ٣٢٩.
(٤) في الديوان: «فأثبت». والأخمص: باطن القدم.
(٥) في الديوان: «إليه الحفاظ».
(٦) ديوانه: ٢/٢١٣ ص.
(٧) الأقران: جمع قِرن وهو المِثل أو الخصم.
(٨) ديوانه: ١٠٩.

من يفعل الخيرَ لا يَعدم جوازِيَهُ، لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

وقال المحدث في معناه:

ما ضاع عرف وان أوليته حجراً

وقال الأفوه[1]:

والخيرُ تزدادُ منهُ ما كفيتَ بهِ والشرُّ يكفيكَ منهُ قلما زادَ

وقيل: خير من الحير فاعله، وخير من الذهب معطيه، وقال[2] عبيد بن الأبرص:

الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد[3]

وأخبرنا أبو أحمد رحمه الله تعالى، أخبرنا الجوهري، أخبرنا عمر بن شبة، حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا سفيان بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمٰن، يحدث بحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أصدق كلمة قالتها[4] العرب:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وكل أناس سوفَ تدخلُ بَيْنَهُم دويهيةٌ تصفرُّ منها الأناملُ[4]

وأخبرنا أبو أحمد رحمه الله تعالى، أخبرنا الجوهري، أخبرنا أبو زيد، حدثنا ابراهيم بن المندر، حدثنا محمد بنُ فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، أن عثمان بن مظعون كان في جوار الوليد بن المغيرة، وكان لا يُؤذى كما يُؤذَى أصحابه يعني من المسلمين، فسأل الوليد أن ينزل من جواره فبرىء منه، فلما جلس مع القوم ولبيد ينشدهم:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت، ثم أنشد لبيد رأس البيت:

وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال عثمان: كذبت. فأسكت القوم ولم يدروا ما أراد، ثم أعاد ثانية فصدقه عثمان وكذبه، لأن نعيم الآخرة لا يزول. فقال لبيد: ما هكذا كانت مجالسكم، فنزا رجل من قريش فلطم عين عثمان، فأحضرت، فقال له الوليد: كنت في ذمة منيعة فخرجت منها، وكنت عن الذي لَقِيَت عينُك غنيا. فقال: بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً، وعيني التي لم تلطم إلى مثل ما لقيت صاحبتها

---

(١) الأفوه: هو صلاءة بن عمرو الأودي، من مذحج، أبو ربيعة شاعر جاهلي فحل.

(٢) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جُشم الأسدي المضري. أبو زياد، شاعر من اصحاب المعلقات ومن دهاة الجاهلية. قتله النعمان حين وفد عليه يوم بؤسه. سنة ٢٥ ق. هـ. (الأعلام: ٤/١٨٨).

(٣) في الديوان: ٦٣:

لأعرفنّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة: ١٣٢.

(٥) دويهية: تصغير داهية: مصيبة.

فقيرة، فقال: إن شئتَ أجرتُك ثانية، فقال: لا أرب لي في جوارك.

وأول هذه القصيدة:

ألا تسألان المرءَ ماذا يُحاولُ ... أَنَحْبٌ فيُقضَى؟ أم ضلالٌ وباطلُ
حبائلُهُ مبثوثةٌ بسبيله ... ويَفنَى إذا ما أخطأتهُ الحبائلُ[1]
إذا المرءُ أسرَى ليلةً ظنَّ أنهُ ... قضى عملاً والمرءُ ما عاشَ عاملُ

وأجود من هذا سبكاً ورصفاً قول الصلتان[2]:

نرُوحُ ونَغْدُو لحاجاتنا ... وحاجةُ من عاش لا تنقضي

وأخبرنا أبو أحمد عن رحالة، قال: قيل لرجل سماه: أنشدنا أصدق بيت قالته العرب؛ قال: الناس يقولون:

كل امرىء في شأنه ساعي

وأنا أقول:

كأن مُقرّ حين يغدو لحاجة ... إلى كلٍّ من يلقى من الناس مذنبُ

وأصدق بيت قاله محدث قول[3] البحتري:

نصليك في الأكرُومتين، فإنما ... يسودُ الفتى من حيثُ يسخو ويَشْجَعُ[4]
زرعتُ رجاءً في ذراك مُبكراً، ... وجُلُّ حصادِ المرءِ من حيثُ يزرع[5]

أجود ما قيل في القناعة قول الشاعر:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دونِ حاجةٍ ... فدعها لأخرى لينٌ لك بابُها
وإن قرابَ البطنِ يُغنيك ملؤه ... ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

أخذه ابن الرومي فقال[6] وأحسن:

إذا ما شئت أن تعرفَ ... يوماً كذبَ الشهوَهْ
فكل ما شئت يعنيكَ ... عن العذبةِ والحلوَهْ[7]
وطأ من شئتَ يغنيك ... عن الخناء في الذِّرْوَهْ[8]

---

(١) الأبيات في ديوان لبيد: ١٣١. والحبائل: مصايد الموت.

(٢) الصلتان: قثم بن خبية العبدي، شاعر إسلامي حكيم، مات سنة ٨٠ هـ. (الأعلام: ٥/١٩٠). والبيت مع ترجمته في (الشعر والشعراء: ١/٤٠٩).

(٣) ديوانه: ١/٢٠٠ ص.

(٤) في الديوان: «نصيبك في الأكرومتين».

(٥) في الديوان: «زرعت الرجاء».

(٦) ديوانه: ٦/٣٤٧.

(٧) في الديوان: « . . . ما شئت يصددْك».

(٨) في الديوان: « . . . . . . شئت يصددك» و«عن الخناء».

فكم أنساك ما تهوا ... هُ نَيْلُ الشيءِ لم تَهْوَهْ[1]

وقال ابن هرمة:

إذا مطمعٌ يوماً غزاني غزوتهُ ... كتائب ناس كرّها وآطرّادُها
أمصّ ثِمادي، والمياه كثيرة، ... أعالج منها حضرَها واكتدادَها[2]
وأرضى بها من بحر آخر أنه ... هو الرأي أن ترضى النفوس ثمادِها

وأبرع بيت قيل من قديم الشعر، قول أبي ذؤيب[3]:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبّتها ... وإذا تُردُّ إلى قليلَ تقنعُ

وقد أحسن أبو العتاهية في قوله[4]:

أنت محتاج فقيرٌ أبدا ... دون ما ترضى بأدْنَى ما لديك

وذمَّ بعضهم القناعة فقال: هي خلق البهيمة، معناه أنها إذا وجدت أكلت، وإن لم تجد باتت على الخسف، ليس لها محالة دون الانطواء على الجوع، ولا نكير دون الإقرار بالهزل. كما قيل:

ولا يقيم على ضيمٍ يُرادُ به ... إلا الأذلّان: غيرُ الحي والوتدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برمتهِ ... وذا يُشَجُّ فلاَ يَرثي له أحدُ

وإلى هذا المذهب ذهب علي بن محمد في قوله:

إذا اللئيمُ مطَّ حاجبيّهِ ... وذادَ عن حريم درهميهِ
فاترك عنانَ البخيل في يديهِ ... وقم إلى السيف وشفرتيهِ
واستنزل الرزق بمضربيهِ ... إن قعدَ الدهرُ فقم إليهِ

وقلت:

سأستعطف الأيامَ حتى تردَّني ... إلى جانب منها يلينُ ويسهلُ
وأقنعُ لا أن القناعة لي هوى ... ولكنَّ صونَ العرض بالحر أجمل

وقال ديك الجن:

لا تقم للزمانِ في منزلِ الضيـ ... ـم ولا ترتبطكَ رقةُ حالِ
وإذا خفتَ إن يراهقك العد ... مُ فعذ بالمثقفات العوالي
وأهن نفسكَ الكريمةَ للمو ... ت وقحم بها على الأهوال
فلعمري للموتُ أجملُ بالحرِّ ... من العيشِ ضارعاً للرجال

---

(١) في الديوان: «وكم أسلاك».

(٢) الثِّماد: الماء القليل.

(٣) ابو ذؤيب؛ خويلد بن خالد بن محرّث، من بني هُذيل، شاعر فحل، مخضرم، ادرك الجاهلية والاسلام، مات سنة ٢٧ هـ. (الأعلام: ٢/٣٢٥). والبيت في السعر والشعراء ٢/١٩١.

(٤) ليس في ديوانه.

أي مـاءٍ يجـولُ في وجهـك الحرّ … إذا مـا امـتـهـنـتـهُ بـالـسـؤال
ثم لا سيـمـا وقـد عصفَ الـدهـ … ـرُ بـأهـل النـدَى وأهـل النـوال
فـقـليـلٌ مـن الـورَى مـن تـراهُ … يُـرتجى أن يصونَ عـرضاً بمـال

وفي المعنى الأول ما أنشدنا أبو أحمد رحمه الله تعالى، أنشدنا أبو بكر بن دريد، أنشدني أحمد بن المعذّل لأخيه عبد الصمد[1]:

رأت عـدمي فـاستـراثـت رحيـلي … سـبـيـلك إن سـواهـا سـبـيـلي
يـرجـى اليـسـار لهـا بـالقفـول … لـعـلَّ الـمـنـيـةَ قـبـل الـقـفـولِ
لـعـمـر الـتي وعـدتـك الـثـراءَ … بجـدوَى الصـديقِ وبـرِّ الخـليـل
لقـد قـذفتْ بـك صعبَ المـرامِ … واستجملت لـك غيـر الجميـلِ
سـأقني العفـاف وأغـني الكفـال … فليسَ غِنَى النفس جـودُ الجزيـلِ
ولا أتـصـدَّى لشـكـر الـجـوادِ … ولا أسـتـعـدُّ لـذمِّ الـبـخـيـلِ
وأعـلمُ أن بـنـات الـرجـاءِ … تحـلُّ العـزيـزَ محـلَّ الـذليـلِ
وأن لـيس مستغـنيـاً بـالكـثيـرِ … مـن ليسَ مُستغـنيـاً بـالقليـلِ

قال أبو أحمد: لو كان شعر عبد الصمد كله هكذا، لرأيته نبي الشعر.

وقال البصير:

قـلتُ لأهـلي ورامـوا أن أميـرَهُـم … بمـاء وجهـي فـلم أفـعـلْ ولـم أكـدِ
لا تـجـمـعـوا أن تهـيـنـوني وأكـرمكم … ولا تـمـدُّوا إلـى نـيـل الـلئـامِ يـدي
تبلغـوا وادفعـوا الحـاجـاتِ مـا انـدفعت … ولا يـكـن هـمكـم في يـومكـم لـغـدِ
فـربَّ مـلتـمسٍ مـا لـيس يُـدركـهُ … ومـدركٌ مـا تـمـنى غـيـر مـجتـهـدِ

أبلغ ما قيل في مساعدة الرجل أخاه وأجوده، قول دريد بن الصمة، وقد أغار هو وأخوه عبد الله على نعم لقيس، فاستاقوها، فلما كانوا ببعض الطريق نزل عبد الله ليريح ويستريح ويقسم المال بين أصحابه، فنهاه دريد؛ فبينما هما كذلك رأوا غبرة فقالوا لرقيبهم: ما ترى؟ قال: خيلاً كالعقبان، عليها فوارس كالصبيان، فقال: فزارة ولا بأس. ثم رأوا غبرة أخرى فقالوا له: ما ترى؟ قال خيلا كأن قوائمها تنقلع من صخر، قال تلك عبس والموت، فلما خالطوهم قتل عبد الله، فقال[2] دريد:

أمـرتُـهـم أمـرى بـمُـنـعـرجِ الـلّوَى … فلم يستبينوا الرشـدَ إلا ضُحى الغدِ
فلمـا عصَـوني كنتُ منهم وقـد أرى … غَـوايتهـم أو أنـفي غـيـر مـهـتـدي

---

(١) هو عبد الصمد بن المعذّل بن غيلان بن الحكم العبدي، ابو القاسم، من شعراء العصر العباسي. كان هجّاءاً سكيراً. مات سنة ٢٤٠ هـ. (الأعلام: ٤/١١).

(٢) ديوانه: ٤٧.

وما أنا إلا من غَزيّةَ إن غوتْ غويْتُ وإن ترشُد غزيّةُ أرشَدِ

وأسر دريد ثم نجا فغزاهم من قابل[1] فقتل قاتل أخيه.

ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه بأنها غي، وترك مخالفته مع معرفته أنها رشد، كراهة الخروج من هواه، وترك مطابقته على رضاه.

وقريب منه قول عمر بن أبي ربيعة[2] وروي لغيره:

وذي ودٍّ أملتُ إليه نصحاً وكان لما أشيرُ به سميعا
أطافَ بغيَّةٍ ونهيتُ عنها وقلتُ: تجنبِ الأمرَ الفظيعا
أردتُ رشادَهُ جَهدي، فلما عصى وأبى، ركبناها جميعا

وأنشدنا أبو أحمد عن الصولي، عن الحسن بن محمد المهري، عن التوزي:

تنخّلتُ آرائي وسقتُ نصيحتي إلى غير طلق للنصيح ولا هشٍّ
فلما أبى نُصحي سلكتُ سبيلهُ وأوسعتهُ من زور قولٍ من غشٍّ

وقال آخر:

ألم تعلما يا بني دجاجةَ أنني أغشُّ إذا ما النصحُ لم يُتقبل

ومن جيد ما قيل في النصيحة، قول مُخَيّس بن أرطاة[3]:

عرضتُ نصيحةً مني ليحي فقال: غششتني، والنصحُ مرُّ
وما بي أن أكونَ أعيب يحيى ويحيى طاهرُ الأخلاق بَرُّ
ولكن قد أتاني أنَّ يحيى يُقالُ عليه في نقعاء شرُّ
فقلتُ له: تجنبْ كلَّ شيء يُقالُ عليك: إن الحرَّ حرُّ

ومثل ما تقدم قول الشاعر، أنشدناه أبو أحمد عن جماعة:

---

(١) من قابل: اي في العام التالي.

(٢) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وكنيته أبو الخطاب شاعر الغزل في العصر الأموي. مات شهيداً سنة ٩٣ هـ. (الأعلام: ٥/٥٢).
والأبيات في ديوانه: ٢/٢٠٩.
والبيت الأول في الديوان:
وخِلٍّ، كنت عين النصح منه إذا نظرَتْ، ومستمعاً مطيعاً
والثاني:
أطاف بغيّةٍ، فنهيتُ عنها، وقلت له: أرى أمراً شنيعا
وأطاف بغيّة: ألمّ بضلالة.
وفي الثالث: «عصى وأبى، أتيناها جميعاً».

(٣) المخيِّس بن أرطاة الأعرجي، أبو ثمال، أول شاعر مدح بني العباس في خلافتهم. وهو راجز شامي. مات سنة ١٤٥ هـ. (الأعلام: ٧/١٩٥).

إن أخا الصدقِ الذي لمن يخدعك ... ومن يضرُّ نفسهُ لينفعكَ
ومن إذا صرفُ زمانٍ صدعك ... شتَّتَ شملَ نفسه ليجمعَك
وإن غدوتَ ظالما غدا معك

فسَّروه: يَكُفُّكَ عن الظلم، وليس كذلك، لأن معنى الأبيات لا يقتضيه، إنما أراد أنه: يعاونك على الظلم، على حسب ما قال عمر بن أبي ربيعة: «ركبناها جميعا» وقال ابن ميادة(٤) في النصيحة:

نصحتك يا رباحُ بأمرِ حزم ... فقلت، هشيمةٌ من أهل نجد(١)
نهيتك عن رجال من قريش ... على محبوكةِ الأصلابِ جُردِ
ووجداً، ما وجدتُ على رياح ... وما أغنيت شيئاً غير وجدي

وقال العباس(٢) بن جرير:

إرعَ الإخاءَ أبا محمـ ... ـد الذي يصفو وصُنْهُ
وإذا رأيتَ منافساً ... في نيل مَكرُمَة فَكُنْهُ
أن الصديقَ هو الذي ... يرعاك حينَ تغيبُ عنه
وإذا كشفتَ غِطاءَهُ ... أحمدتَ ما كشفتَ عنهُ
مثل الحسام إذا انتضا ... هُ أخو الحفيظةِ لم يَخُنْهُ
يسعى لما تسعى له ... كرماً وإن لم تَسْتَعِنْهُ

ومن أبلغ ما قيل في إرضاء الرجل عن أخيه قول الراجز:

لم أقضِ من صُحبةِ زيدٍ أربي ... فتىً إذا نبهتهُ لم يَغضبِ
أبيض بسَّام وإن لم يعجبِ ... ولا يَضن بالمتاع المحقبِ
موكل النفسِ بحفظِ الغيبِ ... أقصى رفيقين له كالأقربِ

وهذا خلاف ما قيل:

من غاب غاب نصيبه

وقلت في قريب منه:

بذلتُ من شكريَ ما لم يبذل ... لما جد أجملَ إذا لم أُجْمِلِ
يحمل من ثقليَ ما لم يحملِ ... فعزَّ في عينيَ حين ذَلَّ لي
إن جمالَ الحرِّ في التجمُّلِ ... وقد يكون العزُّ في التذللِ
والمجد شهد يُجتَنى من حنظلِ

---

(٤) ابن ميّادة: هو الرمّاح بن ابرد بن ثوبان الذبياني، أبو شرحبيل، شاعر رقيق هجاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. مات سنة ١٤٩ هـ. (الأعلام: ٣١/٣). والأبيات مع ترجمته في الأغاني: ٣٣٨/٥.

(١) هشيمة كَرَم: جواد.

(٢) عمر بن عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي، وكنيته ابو الخطاب. شاعر الغزل في العصر الاموي. مات شهيداً سنة ٩٣ هـ. (الأعلام: ٥٢/٥).

ومن قديم ما جاء في هذا النحو قول أوس[1]:

وليس أخـوك الـدائم العهـد بـالـذي ... يلومُـكَ إن ولّى ويـرضيـكَ مُقبـلا
ولـكنـهُ الـنـائي إذا كـنـت آمِـنـا ... وصـاحبك الأدني إذا الأمـرُ أعضـلا

أبلغ ما قيل في التأني وأجوده، وأشده اختصاراً، ما أنشدناه أبو أحمد للمرار الفقعسي[2]:

تـقـطع بـالـنـزول الأرض عـنـا ... وبـعـد الأرض يقـطعـه الـنـزولُ

وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ: «ألا إنَّ الدِّينَ مَتِينٌ، فأوغِلْ فيه بِرفقٍ، فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقى»[3].

وتقول العرب: «شر السير الحقحقة»[4] وهي شدة السير.

وقلت في نحو قول المرار:

وحطّ بـهـا أكـوارِ خـوصٍ لـواغـب ... يـقـلُّ إكـثـار الـذميـلِ ذميـلُهـا
نغض عبـرة حـلَّ الفـراقُ عقـالـهـا ... وأقـلقَ هجـران الـحـبيـبِ مقيـلهـا
فـلا غـروَ إن فـاضـت دمـوعُ متيمٍ ... عـلى الـدارِ يسقي ظلهـن طلولـهـا

ومن المشهور في التأني قول القطامي[5]:

قـد يُـدركُ المتـأني بعض حَاجتـهِ ... وقـد يكونُ مـع المستعجـلِ الـزلـلُ

وقال غيره:

ومستعجـل، والمكثُ أدنى لرشـدهِ، ... ولـم يـدر مـا يلقـاه حـين يُبـادرُ

وقيل لبعض العلماء: لِمَ لَمْ يقل «كل حاجته» فيكون أبلغ؟ قال: ليس «كل» من كلام الشعر، وقد صدق. ولو قال كل حا جته لكان متكلفاً مردوداً، وكثيراً ما يقع «كل» في الشعر قلق المكان، كوقوعه في بيت ابن طباطبا.

فيـالأئمي دعني أغـالي بقيـمتـي، ... فقيمـةُ كـلِّ الـنـاسِ مـا يحسنـونـهُ

ولا أعرفُ أن «كلا» وقع في بيت أحسن منه في بيت[6] أبي العتاهية:

أعـلمـتُ عُـتـبـةُ أنـنـي ... مـنـهـا عـلى أجـلٍ مـطلٍ
وشـكـوتُ مـا ألـقـى إلـيـ ... ـهـا والـمـدامـعُ تـسـتـهـلُ

---

(١) أوس: هو أوس بن حجر بن عتّاب، كان عاقلاً في شعره، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ومن أوصفهم للحمر والسلاح. (الشعر والشعراء: ١/١٣١). والبيتان في ديوانه: ٩٢.

(٢) الفقعسي: هو المرار بن سعيد بن حبيب، أبو حسّان، من شعراء الدولة الأموية. (الأعلام: ٧/١٩٩).

(٣) رواه الإمام أحمد: ٣/١٩٩. وفيه: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه.

(٤) جمهرة الأمثال: ١/٢٦٧.

(٥) القُطامي: هو عُمير بن شييم بن عمرو بن عبّاد، شاعر غزل فحل من الإسلاميين مات سنة ٣٠ هـ. (الأعلام: ٥/٨٨).

(٦) الأبيات في الاعجاز والايجاز: ١٦٠. وليست في ديوانه.

حتى إذا بَرِمَتْ بما أشكوكما يشكو الأذل
قالت: فأي الناسِ تعرفُ ما تقولُ؟ فقلتُ: كل
ومن الذي يهوى فلا يزَهى عليه ولا يذل

وقد أصاب القائل في صفة العقل:

وجدتُ العقلَ نوعين فمطبوعٌ ومسموعٌ
ولا ينفعُ مسموعٌ إذا لم يكُ مطبوع

أجود ما قيل في الاختيار قول ابن المعذل أظنه:

إذا لم تَقدحي زَنْديك يوماً فما يدريك أيهما الوريُّ[1]

وأول الأبيات:

رأتنا أمُّ عمرو فازدرتنا ونقضُ الحرب منظرُهُ زريُّ
إذا لم تقدحي زنديك يوماً فما يدريك أيهما الوريُّ
سلي بي تخبري أني طروب إلى الإيسار أبلجُ بختريُّ
وإني حين تختلف العوالي إلى الإبطال أكيس قسوريُّ
كِليني للندَى والبأسِ، إني بكل بسالة وندىً حَرِيُّ

ومثله قول الآخر:

زِني القومَ حتى تعرفي عندَ وزنهم إذا رُفِع الميزانُ كيفَ أميلُ

وقال النبي ﷺ[2]: «أخبر تَقْلَهُ» معناه اختبر من شئت تجد دون ما تظنه فيه، وتطلع على ما تكره منه فتبغضه، وليس في جميع ما قيل في هذا المعنى أبلغ منه ولا أوجز.

وقد شرحه ابن الرومي فقال:

دعتني إلى فضلِ معروفكم وجوهٌ مناظرُها مُعْجِبَهْ[3]
فأخلفتمُ ما توسمته وقلٌ حميدٌ على التجرِبَةُ
وكَمْ لمْعة خلتُها رَوْضَةً فألفيتُها دِمنةً مُعشِبَهْ
ظلمتكُم: لا تطيب الفروعُ إلا وأعراقُها طيِّبَهْ
وكنت حسبت، فما حَسَبْتُ عفَّى الحساب مع المحسِبَهْ
فهل تعذروني كعذريّكم بأنَّ أصولكم المذنبَهْ
جزيتُ موازينكم بالسواءِ وعُذرٌ بعذر فلا مَعتبه

وقد قال الناس: الطمأنينة قبل التجربة حمق. والمثل السائر.

---

(١) تقدح الزند: تشعل النار.

(٢) جمهرة الأمثال: ١/ ٨٩. وقال: المثل لأبي الدرداء فيما زعم بعضهم. وروي عن النبي ﷺ.

(٣) الأبيات في ديوان ابن الرومي: ١/ ١٣٨.

لا تحمدنَّ امرأ حتى تجربه(١).

سمعت عم أبي، يقول: ما سمعناه في الشكر أوجز من قول يحيى بن خالد:

الشكر كفؤ النعمة

ولا أطرف من قول البحتري:

الشكر نسيم النعمة

وأنا أقول لم يسمع أجمع في الشكر من قول إبراهيم بن العباس: أخبرنا به أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن إسماعيل، قال: قال إبراهيم بن العباس:

الشكر داعية المزيد، وقيمة العارفة، ورباط النعمة، ولسان المعطفة.

وأبلغ ما قيل في الشكر، من الشعر قول يحيى بن زياد(٢) الحارثي أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

حلفت بربِّ العيسِ تهوِي بركبها ... إلى حرم ما عنه للركبِ معدلُ
لما بلغ الأنعامُ في الفضل غايةً ... تفضلُ، إلَّا غايةُ الشكر أفضلُ
ولا بلغت أيدي المنيلين بَسطة ... من الطولِ، إلَّا بسطةُ الشكر أطولُ
ولا ثقلت في الوزنِ أعباءُ منةٍ ... على المرء إلَّا منَّةُ الشكر أثقلُ
فمن شكرَ المعروف يوماً فَقد أتى ... أخا العرف من جنس المكافاة من عل

وقال الآخر:

فعلتَ خيراً كثيراً ... وأنت أكثرُ منهُ
ونحنُ أكثرُ منه ... لشكرنا لك عنهُ

وأجود ما قيل في عظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشعر، قول طريح بن إسماعيل:

سعيت ابتغاءَ الشكر فيما صنعت بي ... فقصرت مغلوباً وإني لشاكرُ

قوله: «وإني لشاكر» مع قوله: «مغلوباً» حسن الموقع، وهو مأخوذ من قول الآخر:

فراق حبيب لم يَبنْ وهو بائنُ

لأنك توليني الجميلَ بداهةً ... وأنت لما استكثرت من ذاك حاقر
فأرجع مغبوطاً وترجع بالتي ... لها أولٌ في المكرُمَاتِ وآخرُ

وقول الآخر:

ولو أنّ لي كلِ منبتِ شعرةٍ ... لساناً يبثُّ الشكر فيك لقصرًا

---

(١) نصف بيت للنجاشي قيس بن عمرو. وشطره:

ولا تذ من لم يبله الخُبرُ

عيون الأخبار: ٣/١٧٠.

(٢) يحي بن زياد بن عبيد الله الحارثي، أبو الفضل، شاعر ماجن، يُرمى بالزندقة، من أهل الكوفة. توفي أيّام المهدي. مات سنة ١٦٠ هـ. (الأعلام: ٨/١٤٥).

وقال دعبل:

هُـجـرتُـك لاعـن جـفـوةٍ ومـلالـةٍ ... ولا لـقـلى أبـطأتُ عـنـك أبـا بـكـر
ولـكـنـنـي لـمـا أتـيـتـك راغـبـاً ... فـأفـرطتَ في بـرِّي عجزتُ عن الشكـر
فـمـلآنَ لا آتـيـك إلا مـعـذراً ... أزورُك في الشهـرين يـومـاً أو الشهـر
فـإن زدتَ في بـري تـزايـدتُ جفـوةً ... فـلا نـلتقي حتى القيـامـة والحشـرِ

وقول[1] أبي نواس:

قـد قـلتُ للعبـاسِ مُعـتـذراً ... من ضعف شُكـريه، ومعترفـا:
أنت امـرؤٌ قـلدتـنـي نـعـمـاً[2] ... أوهت قـوَى شُكري وقـد ضعفـا
لا تـسـديـنَّ إلـيَّ عـارِفَـةً ... حتى أقـومَ بشكـر مـا سَلفـا

وهو أول من أتى بهذا المعنى، إلا أنه عبر عنه عبارة طويلة، وأحد أدواء الكلام فضل ألفاظه على معانيه.

وقال[3] البحتري.

هـاتيـك أخـرقُ إسمـاعيـل في تعبٍ ... مـن العـلا، والعـلا منهـن في تـعبِ
أدابتُ شكـري فـأمسي منـك في نصبٍ ... أقـصـر، فمـالِيَ في جَـدواك مـن أربِ
لا أقبـلُ الـدهـرَ نيـلاً لا يقـومُ لـهُ ... شُكـري، ولـو كـان مسـديـهِ إليَّ أبي
لـمـا سـألـتـك وافـانـي نـداك عـلى ... أضعـاف شكـري، فلم أظفـر ولم أخِبِ

وقلت في معناه:

تـقـاصـرَ عـن نـداه بـاعُ شـكـري ... قـصـورَ الـزجِّ عـن زلـقِ الـلسـانِ
وآسـى أن تـطـولَ يـداي مـنـهُ ... إلـى مـا لا يُـطـاوِلُـهُ لـسـانـي
كـأن نـدى يـديـه عـنـاقُ بـيـنٍ ... فـليس يَـسـرُّنـي إلا شـجـانـي
لـهـجـتُ بـذكـره لأبـيـنَ عـنـه ... فـضـاقَ بـوصـفـه ذرعُ الـبـيـان
حـنـانـي ثـقـله ولـو أنَّ قـوسـاً ... تـلقـى مـنـكـبـيّ لـمـا حـنـانـي
فـهـا أنـا مـنـه مـفـتـقـرٌ وغـان ... وقـلبـي فـيـه مـنـطلقٌ وعـان

وقال[4] البحتري:

إني هجـرتـك، إذ هجـرتـك، وحشـةً ... لا الـعـودُ يـذهـبـهـا، ولا الإبـداءُ
أخجلتَني بـنـدى يـديـك، فسـوَّدتْ ... مـا بـيـنـنـا تـلك الـيـدُ الـبـيـضـاءُ
وقـطعـتَني بـالجـودِ، حتى إنـني ... مـتـخـوِّفٌ أن لا يـكـون لـقـاء
صلةٌ غـدتْ في النـاسِ، وهي قـطيعةٌ ... عـجـبـاً، وبـرٌّ راحَ وهـو جـفـاء

(١) ديوانه: ٤٢٧.
(٢) في الديوان: «جللتني نعماً».
(٣) ديوانه: ٢/ ٦٧ ص.
(٤) ديوانه: ٢/ ٢٢٢ ص.

لَيُواصِلَنَّكَ ركبُ شعرٍ سائرٍ يرويه فيك، لحسنهِ، الأعداء
حتى يتمَّ لك الثناءُ مخلَّداً أبدا، كما تمّت لك النّعماء
فتظلّ تحسدَك الملوكُ الصِّيد بي وتظلُّ تحسدُني بكَ الشعراء

وقد أحسن ثمامة فيما كتب إلى بعضهم: قد حيرني سوء رأيك فيَّ، فما أهتدي لطلب الاعتذار وأنت مولى نعمة أنا عبد شكرها، فلا تفطمني من حسن رأيك فأضوي، ولا تسقطني عن حيطتك فأثوي.

وقريب من المعنى الأول قول(1) البحتري:

مَنْ مُعيني منكم على ابنِ فُراتٍ ومكافاةِ ما أنالَ وأسدَى
كلما قلتُ أطلقَ الشكرُ رقي رجعتني لَهُ أياديه عبدا

سمعت عم أبي يقول: ما سمعنا بالرضا بالقسمة والشكر وأحسن من قول صالح بن مسمار: ما أدري أنعمة الله فيما بسط عليَّ أفضل أم نعمته فيما زوى عني، فجعل ما منعه نعمة، والناس يجعلونه محنة ونقمة.

وكتب بعضهم في المعنى الأول: أنا وإن كنت ذا فاقة إلى طولك، فليست، لي طاقة بما حملتنيه من برك، وما أجد لنفسي معقلاً، ولا أعرف لها متعللا، إلا في الاقتداء بمن عجز عن شكر ما أولى، فجبر نقيصته بالاعتراف والتقصير، واعتمد من شكره على تصريف المعاذير.

وكتب إليّ بعض الأصدقاء:

وصل كتابك مقرونا بالتوقيع في معنى المعيشة، فأعاد الأمل جديداً والجد سعيدا، والهمة سامية تمسح وجه النجم، وتقبل عارض الشمس، وتمسك بعنان البدر فآذن بعمارة الجاه، وتكفل برفع القدر وضمن أعلاء الأولياء، وكبت الحساد وكبّ الأعداء، إلى غير ذلك من أنس أورده، وسرور جدده، ووحشة صرفها، وكربة كشفها، وفهمته وتأملت التوقيع، فتصور لي الغناء بصورته، وقابلني بصدق مخيلته، وعرفت أن الدهر قد غضت جفونه، ونامت عيونه، وتنحت عن ساحتي خطوته، وهذه نعم أعيا بذكرها، فكيف أطمع في أداء شكرها، بل عسى أن يكون الاعتراف بقصور الشكر عنها شكراً لها، ومقابلة لما خلص إليّ منها، وأنا معترف بذلك، اعتراف الروض بحقوق الأنواء، إذا تحلى بيواقيت الأنوار ولآلىء الأنداء.

وجعل جعفر بن يحيى البرمكي (2) الشكر بإظهار حسن الحال أبلغ من الشكر بالقول:

أخبرنا أبو أحمد أخبرنا المبرمان أخبرنا أبو جعفر بن القتيبي عن القتيبي قال:

أراد جعفر بن يحيى حاجة، كان طريقه إليها على باب الأصمعي، فدفع إلى خادم له كيساً

---

(1) ديوانه: ٢٢٦. ص.

(2) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل، وزير الرشيد العباسي. كان كاتباً مجيداً، وفصيحاً بليغاً كريماً. مات سنة ١٧٨ هـ. (الأعلام: ٢/ ١٣٠).

فيه ألف دينار، وقال: إني سأنزل في رجعتي إلى الأصمعي، ثم سيحدثني ويضحكني، فإذا ضحكت فضع الكيس بين يديه، فلما رجع ودخل عليه فرأى حُباً مكسور الرأس، وجرة مكسورة العنق، وقصة مشعبة، وجفنة أعشار، ورآه على مصلى بال، وعليه بركان أجرد، فغمز غلامه أن لا يضع الكيس بين يديه، فلم يدع الأصمعي شيئاً مما يضحك الثكلان والغضبان إلا أورده عليه، فما تبسم ثم خرج، فقال لرجل يسايره: من استرعى الذئب ظلم، ومن زرع سبخة حصد الفقر، إني والله لما علمت أن هذا يكتم المعروف بالفعل، ما حفلت بنشره له باللسان، وأين يقع مديح اللسان من آثار العيان! إن اللسان قد يكذب، والحال لا يكذب، ولله درّ نصيب حيث يقول:

فعادوا فأثنوا بالذي أنتَ أهلهُ ... ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[1]

ثم قال: أعلمت أن ناس أبرويز أمدح لأبرويز من شعر زهير لآل سنان؟ قد أتى جعفر في هذا الفصل من المعاني بما لم يأت به أحد قبله وشرحه شرحاً ليس مثله لأحد سواه.

وقالت الحكماء:

لسان الحال أصدق من لسان الشكوى.

وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال[2].

حال تبيحُ بما أوليتَ من حسنٍ ... وكل ما تدعيه غيرُ مردودِ
كلي هجاءٌ وقتليْ لا يحلُّ لكم ... فما يداويكمُ مني سوى الجودِ

وقالوا:

«شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال»[3].

ومما يجري في باب الشكر، وهو من أبدع ما قيل في معناه، ما أنشدناه أبو أحمد قال: أنشدنا الصولي قال: أنشدنا أحمد بن إسماعيل الخطيب لنفسه:

وإني وإنْ أحسنتُ في القولِ مرَّةً ... فمنك ومن آثارك امتار هاجسي
تعلمتُ مما قلتهُ وفعلتهُ ... فأهديتُ غصناً من حناي لغارسي

أخذه ابن طباطبا فقال في ابن رستم الأصبهاني:

لا تُنكرن اهداءَنا لك منطقاً ... منك استفدنا حُسنهُ ونظامهُ
فالله جَلَّ وعزَّ يشكرُ فعلَ من ... يتلو عليه وَحْيَهُ وكلامه

وفي غير هذا المعنى يقول[4] أبو تمام:

كم غارةٍ لك في المكارمِ ضخمةٍ ... غادرتَ فيها ما ملكتَ قتيلا
فرأيتَ أكثر ما بذلتَ من اللُهى[5] ... نزراً وأصغرَ ما شُكرتَ جزيلا

---

(١) الأغاني: ١/٣٣٧.
(٢) ديوان ابن الرومي: ٢/١٣٣.
(٣) مجمع الأمثال: ١/٣٩١.
(٤) ديوانه: ٢١٦.
(٥) اللُهى: العطايا.

وقد أحسن ابن الرومي (1) :

هاجرت عنك إلى الرجا ل فكان عُرفهمُ كنُكرِكْ
ورجعتُ من كَثَبٍ إليـ ـكَ مفرَّغاً نفسي لِشُكرِك
ولما أرومُ بما أقو ل زيادةً في رفع ذِكرك
لكنّه حقٌ أوَفّيـ ـه عِوانَك بعدَ بِكرِكْ
كم نعمةٍ لك ملء فِكـ ـري لا تُلاحِظها بفِكْرِكْ

أحسن ما قيل في الصبر

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن ابن الرياشي، عن أبيه عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو: أحسن ما قيل في الصبر قول أبي خِراش[2]:

تقولُ أراهُ بعدَ عروة لاهيا وذلك رزءٌ لو علمت جليلُ[3]
فلا تحسبي أني تناسيتُ عهدهُ ولكنَّ صبري يا أميمُ جميلُ

وبعده:

ألم تعلمي أنْ قد تفرقَ قبلنا خليلا صفاءٍ مالكٌ وعقيلُ[4]

وقال الأصمعي: أحسن ما قيل فيه مع الشرح وقول أبي ذؤيب:

وتجلّدي للشامتين أريهمُ أني لريبِ الدهرِ لا أتضعضعُ[5]
حتى كأني للحوادثِ مروةٌ بصفا المشقر كل يوم تُقرعُ[6]

وقوله:

وإني صبرتُ النفسَ بعدَ ابن عنبسٍ وقد لجَّ من ماء الشؤون لجوجُ
لأحسبَ جلداً أو لينبأ شامتٌ وللشرِّ بعد القارعات فروج

وأجود ما قاله محدث فيه قول ابن الرومي أنشدناه أبو أحمد عن ابن المسيب، راوية ابن الرومي عن ابن الرومي[7]:

أرى الصبرَ محموداً وفيه مذاهبُ فكيف إذا ما لم يكن عنهُ مَذهبُ

---

(١) ديوانه: ٦٢/٥.

(٢) أبو خِراش: هو خويلد بن مرة الهذلي، شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام. مات سنة ١٥ هـ. (الأعلام: ٣٢٥/٢). والأبيات في الأغاني: ٢٠٥/٢١.

(٣) في الأغاني: «قالت اراه».

(٤) مالك وعقيل: نديما جذيمة الأبرش.

(٥) انظر الفاضل للمبرّد: ٥١.

(٦) انظر جمهرة اللغة لابن دريد: ٣٤٦/٢. والصفا: الحجر.

(٧) ديوانه: ٢٢٣/١.

هنــاكَ يحقُّ الصبرُ والصبــرُ واجبٌ — وما كــان منـهُ كــالضـرورةِ أوجب
فشــدَّ امـرؤٌ بــالصبر كفّــاً فــإنــه — لــه عصمــةٌ أسبــابهــا لا تـقضـبُ
هو المهربُ المنجى لمن أحدقتْ به — مكــارِهُ دهــرٍ ليس عـنهـنَّ مهــربُ
لبــوسُ جمــال جُنـةٌ من شمــاتـة — شـفــاءُ أسى يـثـني بــه ويـثــوب
فيــا عجباً للشيء هــذي خـلالــهُ — وتــاركُ مــا فيــه من الخطِّ أعجب
وقــد يـتـظى النــاسُ أنَّ أســاهـمُ — وصبــرهــمُ فيــه طبــاعُ مــركب
وإنـهـمــا لـيس كـشـيء مـصــرَّفٍ — يـصــرفـهُ ذو نكبــةٍ حيـن ينكـبُ
فـإن شاءَ أن يـأسى أطاعَ لـه الأسى — وان شـار صبراً جاءهُ الصبر يجلبُ
وليسَ كما ظنوهمـا بـل كــلاهمـا — لـكــل لبيـبٍ مُستـطاعُ مسببُ
يصــرفــه المـخـتــار منهـا فـتــارةً — يــرادُ فيــأتـي أو يــزادُ فيــذهـب
إذا احتجَّ محتجٌ على النفسِ لم يكد — عـلى قــدر مــا يمنى لــه تـتعتب
وسـاعدهـا الصبرُ الجميلُ فـأقبلت — إليهــا لــه طــوعــاً جنــائب تجنب
وإن هــو منــاهــا الأبــاطيــلَ لم تـزل — تقــاتــلُ بــالغيب القضــاء فتغـلب
فتضحي جـزوعاً ان أصابت مُصيبة — وتمسي هلوعــاً إذا تـعـذر مــطلب
فـلا يعـذرنَّ التــاركُ الصبر نفســه — بــأن قيــل إن الصبــر لا يتـكسبُ

ومن أجود ما قيل في ذم الحقد قول[1] ابن الرومي:

الــحـقــد داءٌ دفـيــنٌ لا دواءَ لــه — بيـري الصدور إذا مـا جمرُهُ حـرثـا
فـاستشفِ منه بصفـحٍ أو معـاتبـةٍ — فـإنمـا يـبـرىء المصـدورَ مـا نفثـا
واجعل طلابـك بالأوتـار مـا عـظمت — ولا تكن لصغيـرِ الأمـر مكـتـرثـا

ثم قال[2] يمدحه:

وخيــرُ سجيّــاتِ الــرجــالِ سجيّــةٌ — توفيكَ ما تُسدي من القرضِ والفرضِ
وما الحقدُ إلا تـوأمُ الشكر في الفتى — وبعضُ السجـايـا ينتسبنَ إلى بعضِ
فحيثُ تـرى حقـداً على ذي إسـاءةٍ — فثمَّ ترى شكراً على حسنِ القـرْضِ
ولـولا الحقـودُ المستكنـاتُ لم يكن — لينقض وتـراً آخرَ الـدهـرِ ذو نقضِ

وأول من مدح الحقد عبد الملك بن صالح[3] في قوله:

إن كنت تريد الحقد بقاء الخيرُ والشر عندي إنهما الباقيان.

وأجمع كلمة قيلت في الصبر قول بعضهم:

الصبر مظنة النصر.

---

(١) ديوانه: ١/٤٦٣.

(٢) ديوانه: ٤/٢٤.

(٣) من امراء بني العباس، تولى على الموصل ثم مصر ولم يذهب إليها ثم الشام. توفي سنة ١٩٦ هـ.

وقال الآخر:
الصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليه الزمان.
وسمعت عم أبي يقول:
«الصبر شرية تثمر أرية» (١) وقال:

نـفـرج أيـام الـكـريـهـة بـالـصـبـر

وقال آخر:

وهـل جـزعٌ يُـجـدي علـيَّ فـأجـزُع(٢)

فجعل الصابر الصبر ضرورة لعلمه أن الجزع غير مجد.
وقلت:

قـالـوا صبـرتَ ومـا صبـرتُ جـلادةً ... لـكـن لـقـلـةِ حـيـلتـي أتـصـبـرُ

وليس في الحيوان شيء أصبر من الحمار والجمل، وذلك أنهما يحملان الحمل الثقيل، على الدبر، ويبلغان به الغاية البعيدة على الحفا، حتى قالت العرب: «أصبر من ذي ضاغط»(٣) وهو أن يضغط موضع الأبط أصل الكركرة حتى يدميه.
ويقولون:

أصبـرُ من عـودٍ بـجنبيـه جـلب ... قـد أثّـر الـبِـطانُ فيـه والـحِقَبُ

قاله حلحلة بن قيس من أشيم فصار مثلاً، وقال سعيد بن ابان بن عيينة بن حصن:

أصبـرُ مـن ذي ضـاغِط مُـعَـرَّكِ ... ألـقـى بـواني صـدرِه لـلمَـبـركِ

ويقولون: «أصبر من ضب»(٤) لما هو فيه من القشف واليبس.
وقالوا: «حيلة من لا حيلة له الصبر»(٥). وسمعت والدي يقول: لعن الله الصبر، فإن مضرته عاجلة، ومنفعته آجلة، وذلك أنك معجل بالصبر ألم القلب، لتنال المنفعة في العاقبة، ولعلها تفوتك لعارض يعرض، وكنت قد تعجلت الضرر، من غير أن تصل إلى نفع.
فنظمته بعد ذلك وقلت:

الـصـبـرُ عـمـن تـحـبـه صـبـرُ ... ونـفـعُ من لامَ فـي الـهـوى ضـررُ
من كـان دون الـمـرادِ مُـصـطبـراً ... فـلـسـتُ دون الـمـرادِ أصـطبـرُ
مـنـفـعـةُ الـصـبـرِ غـيـرُ عـاجـلةٍ ... وربـمـا حـالَ دُونـهـا الـغـيـر
فـقـم بـنـا نـلـتـمسْ مـآربـنـا ... أقـامَ أولـم يـقـم بـنـا الـقـدر
ان لـنـا أنـفـسـاً تـسـودنـا ... أعـانـهـن الـزمـان أو يـذر

---

(١) الشري: شجر الحنظل. والأرْي: العسل.
(٢) جمهرة الأمثال: ١/٢٨٦. وهو نصف بيت.
(٣) جمهرة الأمثال: ١/٤٨٣.
(٤) جمهرة الأمثال: ١/٤٨٣.
(٥) جمهرة الأمثال: ١/٢٨٦.

وابـغ مـن الـعيش مـا تـسـرُّ بـه   إنْ عـذَل الـنـاس فيـه أو عـذروا

وقال أبو هلال:

أجمع كلمات سمعناها في الحلم ما سمعت عم أبي يقول:

الحليم ذليل عزيز، وذلك أن صورة الحليم صورة الذليل الذي لا انتصار له، واحتمال السفه والتغافل عنه، في ظاهر الحال ذل، وان لم يكن به. وقيل[1]: «الحليم مطيةُ الجهول لاحتمالِ جهله وتركه الانتصاف منه».

وقال الأوَّل:

وليس يتـمُّ الحـلمُ للمـرءِ راضيـاً   إذ كـان عـنـدَ السخطِ لا يتـحـلمُ
كمـا لا يتمُّ الجودُ للمـرء موسراً   إذا كـان عـنـدَ العسـرِ لا يتكـرمُ

ولهذا قال شيخ من الأعراب وقد قيل له ما الحلم؟ قال الذي تصبر عليه.

وقال[2] الشاعر:

لن يـدركَ المجدَ أقـوامٌ وإن كـرمُـوا   حـتى يـذِلـوا وإن عَـزّوا لأقـوامِ
ويُشتَمـوا فتـرى الألـوان مُسفـرةً   لاصفـح ذُلّ ٍ ولكن صفحَ أحـلام[3]

وسمعته يقول:

الحلم عقال الشر، وذلك أن من سمع مكروهة، فسكت عنها انقطع عنه أسبابه، وإن أجاب أتصلت بأمثالها.

وأنشدوا في هذا المعنى:

وتخـرج نفسُ المـرءِ عن وقـع شتمـةٍ   ويشتـمُ ألفـاً بـعـدهـا ثـم يَـصـبـرُ

ولا أعرف في الحلم معنى أحسن من معنى معاوية في قوله: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنبٌ أورثه من حلمي، وما غضبي على من أملك أو ما غضبي على من لا أملك.

يريد: إني إذا كنت مالكا للمذنب، فإني قادر على الانتقام منه، فلم ألزم نفسي الغضب؟ وإن لم أكن أملكه، فليس يضره غضبي، فلم أغضب عليه فأضر نفسي ولا أضره.

وقال الشاعر في الحلم والاغضاءِ عن المكروه مع القدرةِ على التغيير:

مـغض عـلى الـعـوراء لَـو   لا الـحلمُ غـيـرهُ انـتـصـارهُ

وأسمع بعضهم الشعبي فقال له:

إن كنت صادقا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك.

وهذا أعجب ما جاء في هذا الباب وأحسنه.

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/ ٢٨٤.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٨٧ ولم يعزه.

(٣) وفي العيون: «الألوان مشرقة».

وأجود شيء قيل في الحلم من الشعر، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا ابن دريد، أخبرنا أبو عثمان، عن الأخفش قال: نال رجل من الخليل بن أحمد[1] وأسمعه فقال الخليل:

سألزم نفسي الصفحَ عن كلِّ مُذنبٍ ... وإن كثرت منهُ عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ: ... شريفٌ، ومشروفٌ، ومثلٌ، مُقاوم
فأما الذي فوقي، فأعرفُ فضلهُ ... وأتبعُ فيه الحقَّ، والحقُّ لازم
وأما الذي مثلي، فإن زلَّ أو هفا ... تفضلتُ، إنَّ الفضلَ بالعزِّ حاكم
وأما الذي دوني، فإن قالَ صُنتُ عن ... إجابتهِ عرضي، وإن لامَ لائمُ

قسم هذا الشاعر ثم فسر فأحسن ولم يدع مزيداً. ومن عجيب ما روي في الحلم، ما أخبرنا به أبو أحمد عن رجاله، قال: جيء قيس بن عاصم، بابن له قتيلاً، وابن أخ له كتيفا، وقيل له: هذا قتل ابنك، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته، فلما فرغ من حديثه، التفت إلى بعض بنيه، فقال: قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه وإلى أم القتيل فاعطها مائة ناقة، فإنها غريبة، لعلها أن تسلو عنه ثم اتكأ على شقة الأيسر، وقال[2]:

إني امرؤٌ لا يعتري خُلُقي ... دَنَسٌ يغيرُهُ ولا أفنُ[3]
من مِنقرٍ في بيتِ مَكرُمَةٍ ... والفرعُ يَنبتُ فوقهُ الغصنُ
خُطباءُ حينَ يقولُ قائلهم ... بيضُ الوجوهِ مصاقعٌ لُسنُ
لا يفطنونَ لعيبِ جارِهم ... وهمُ لحفظِ جوارهم فُطنُ

ويوصف الحلم بالرزانة، وأجود ما قيل في ذلك قول مروان بن أبي حفصة:

ثلاثٌ بأمثالِ الجبالِ حياهمُ ... وأحلامُهم منها لدَى الوزنِ أثقلُ

وقد ذكرناه.

والعرب تسمي العلم حلماً قال المتلمس[4]:

لذي الحلم قبلَ اليومِ ما تُقرع العصا ... وما عُلّم الانسانُ إلا ليعلما

ومن أشرفِ نعوت الإنسان، أن يدعى حليماً، لأنه لا يدعاه حتى يكون عاقلاً، وعالماً ومصطبراً محتسباً، وعفوّاً وصافحاً ومحتملاً وكاظماً، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال.

---

(١) الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، من ائمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، ولد ومات في البصرة، وعاش فقيراً صابراً. وفاته سنة ١٧٠ هـ. (الأعلام: ٢/٣١٤).

(٢) الخبر والأبيات في عيون الأخبار: ١/٢٨٦.

(٣) الأفن: الكذب.

(٤) المتلمس: اسمه جرير بن عبد العزى. شاعر جاهلي من اهل البحرين، مات سنة ٥٠ ق. هـ والبيت: الشعر والشعراء: ١/١١٢ وفي الفاضل للمبرد: ١٢.

وقد خولف هؤلاء، فقيل في خلاف مذهبهم هذا أنشد المبرد:

أبـا حسن مـا أقبـحَ الجهـلَ بـالفتى ... وَللحلْم أحيـانـاً من الجهـلِ أقبـحُ
إذا كـانَ حلمُ المـرءِ عَـوْنَ عـدوِّهِ ... عـليـه فـإنَّ الجـهـلَ أعـفـى وأروحُ

وقال غيره:

قليـلُ الأذى إلا عن القـرن في الـوغـى ... كثيـرُ الأيـادي واسـعُ الـذرعِ بـالفضلِ
ويـحـلم مـا لـم يـجـلب الـحـلمُ ذلـةً ... ويجهـلُ مـا شـدت قـوى الحلم بـالجهـل

وقال غيره:

تـرفـعـتُ عـن شـتـم الـعـشيـرةِ أنـني ... رأيـت أبي قـد كـفَّ عن شـتمهم قـبـلي
حـليمٌ، إذا مـا الـحـلمُ كـان جـلالـةً ... وأجهـلُ أحيـانـاً، إذا التمسـوا جهـلي

وقال غيره:

إذا الحلم لـم ينـفعـك فـالـجهـل أحـزم

وقالوا: ليس شيء خيراً من الحق إلا العفو، وذلك أن عقاب المستحق للعقاب حق، والعفو خير منه.

ومن أحسن ما جاء فيه قول بعضهم:

لو أن المسيء لي عبد لأخ لي، لرأيت تغمده، والصفح عنه إجلالاً لقدر مولاه وإعظاماً لحق صاحبه، فأنا بالصفح عن عبد الله أولى.

وفي ذم العفو قول عمارة[1] بن عقيل:

ومـا يـنفـكُّ مـن سعـد إلـينـا ... قـطوعُ الـرحم بـاديـة الأديمِ
ونغفـرهـا كـأن لـم يفـعلوهـا ... وطـولُ الـعـفـوِ أدربُ لـلظلومِ

أجود ما قيل في المشهورة قول بشار.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا محمد بن يحيى حدثنا الغلاني، حدثنا محمد بن عبد الرحمن التميمي، قال: دخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، فأنشده قصيدة، يهجو فيها المنصور، ويشير برأي يستعمله في أمره، فلما قتل إبراهيم، خاف بشار فقلب الكنية وأظهر أنه قالها[2] في أبي مسلم[3].

أولها:

أبـا جعفـر مـا كـلُّ عيشٍ بـدائم ... ومـا سـالمٌ عمـا قليـلٍ بسـالمِ[4]

---

(١) شاعر مقدم فصيح من ولد جرير الشاعر المشهور. وفاته سنة ٢٣٩ هـ.

(٢) ديوان بشّار: ٥٩٢. الأبيات والخبر في الأغاني: ١٥٧/٣.

(٣) ابو مسلم: هو عبد الرحمن بن مسلم الخراساني. القائد المشهور في الثورة العباسية ضد بني أمية، وكان فصيحاً، مهيباً، راوية للشعر. توفي سنة ١٣٧ هـ. (الأعلام: ٣٣٧/٣).

(٤) في الديوان: «أبا مسلم ما طول».

على الملك الجبارِ يقتحمُ الردى ويصرعُهُ في المأزقِ المتلاحمِ
كأنك لم تسمع بقتل متوّجٍ عظيم ولم تعلم بهلك الأعاجم(١)
تقسم كسرَى رهطهُ بسيوفهم وأمسى أبو العباسِ أحلامَ نائم
وقد ترد الأيام عزاً وربما وردن كلوماً باديات الشكائم(٢)
ومروانُ قد دارت علي نفسه الردى لاجرامه لا بل قليل الجرائم(٣)
وأصبحت تجري سادراً في طريقهم ولا تتقي أشباه تلك الفقائم(٤)
تجردتَ للاسلامِ تعفو رسومه وتُعري مطايا لليوث الضراغم(٥)
فما زلتَ حتى استنصر الدينُ أهلَه عليك فعاذوا بالسيوفِ الصوارمِ (٦)

لحى الله قوماً رأسوك عليهم وما زلتَ مرؤوساً خبيثَ المطاعمِ
أقول لبسامٍ عليه جلالةٌ غدَا أريحياً عاشقاً للمكارمِ (٧)
من الفاطميين الدعاةِ إلى الهدى جهاراً ومن يهديك مثل ابنِ فاطم(٨)
سراجٌ لعينِ المستضيء وتارةً يكونُ ظلاماً للعدوِّ المزاحم
إذا بلغَ الرأيِ المشورةَ فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورَى عليك غضاضةً فإن الخوافي قوةٌ للقوادم(٩)
وما خيرُ كفٍّ أمسك الغُلُّ اختها وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّد بقائم
وخلِّ الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوماً فإنَّ الحزمَ ليس بنائم
وحارب إذا لم تُعطَ إلا ظُلامةً شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالم(١٠)

---

(١) في الديوان: «ولم تسمع بفتك الأعاجم».
(٢) في الديوان: «وقد ترد الأيام غُرّاً . . . وردنَ كلوحاً . . . الشكائم». والشكائم: جمع الشكيمة وهي الحديدة توضع على فم الفرس.
(٣) في الديوان:
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمْتَ نزر الجرائمِ.
والرحى: حجر الطاحون.
(٤) في الديوان: «فأصبحت» . . . «تلك النقائم». وسادر: حائر وغير مهتم.
(٥) في الديوان: «تعفو سبيله» . . . «وتُعري مَطاه». وتعفو: تمحو.
(٦) في الديوان: «فعاذُوا بالسيوف».
(٧) الأريحي: الواسع الخلق، الذي يهتز للمعروف.
(٨) في الديوان: «من الهاشميين» . . . «مثلُ ابن هاشم».
(٩) الغضاضة: الذلة والمنقصة. الخوافي: ريشات صغار تحت جناح الطائر. والقوادم: الريشات الكبار الأماميات.
(١٠) الشبا: جمع الشباة: حد السيف.

هذا ما أورده أبو هلال العسكري، وفي بعض الكتب زيادة في هذه القصيدة وهي[1]:

فآذن على الشورى المقرب نفسه ولا تُشهدِ الشورى أمرأً غير كاتمٍ
فإنك لا تستطردُ الهمَّ بالمنى ولا تبلغُ العليا بغير المكارم
وما قارعَ الأقوامَ مثلُ مشيَّع أريبٍ ولا جلى العمى مثلُ عالمٍ[2]

وما خير كف ـ البيت.

قال أبو بكر: فحدثني الجمحي قال: سمعت المازني يقول: سمعت أبا عبيدة يقول: ميمية بشار هذه أحب إليَّ من ميميتي جرير والفرزدق.

وقيل لبشار: ما أحسن أبياتك في المشورة؟ فقال: المستشير بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه فقيل له: هذا والله أحسن من شعرك.

ومن الأفراد التي لا شبيه لها قول عبد الملك بن صالح في ذم المشورة:

ما استشرت أحداً إلا تكبر علي، وتصاغرت له، ودخلتني الذلة، فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليل في العيون، مهيب في الصدور، فإذا افتقرت إلى العقول، حقرتك العيون فتضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخف بك الكبير، وما عز سلطان، لم يغنه عقله من عقول وزرائه وآراء نصحائه.

فذم المشورة كما ترى وهي ممدوحة بكل لسان.

وقال رومي لفارسيٍّ: نحن لا نمّلك من يشاور. فقال الفارسي: نحن لا نملك من لا يشاور، وقد أجمع الناس أن الفرس أعقل من الروم.

ومن أوجز ما قيل في الطمع قول بعضهم: إذا طمعت مللت.

ويقولون: الطمع طبع، والطبع الدنس، وأنشد:

لا خيرَ في طمع يدعو إلى طَبع وغَفةٌ من قوام العيش تكفيني

والغفةُ القوت، وأصلها الفأرة وسميت بذلك لأنها قوت للسنور.

وأنا أقول: إن أول الطمع ذلة، وأوسطه شقوة وآخره حسرة.

وقال ثابت قطنة[3]:

ألائمتي عميرة أن رأتني عزفت النفس عما لم ينالا

أحزم كلما سمعناها عن العرب قولهم: «إن ترد الماء بماء أكيس»[4] معناه ينبغي أن تحتفظ بما عندك حتى تصل إلى غيره، ولا تلقي ما في يدك رجاء لما هو أكثر منه، فلعلك لا تناله لحادث يحدث.

---

(١) الأبيات في الديوان ٥٩٣.

(٢) المشيّع: الشجاع.

(٣) ثابت قطنة: هو ثابت بن كعب بن جابر العتكي، كنيته ابو العلاء، وكانت ذهبت عينه فحشاها بقطنه، وقد شهد الوقائع في خراسان. مات سنة ١١٠ هـ (الأعلام: ٢/٩٨).

(٤) جمهرة الأمثال: ١/٦٨.

ومثل ذلك قولهم(١): «لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقا» أي لا يترك معتمداً إلَّا إذا وجد مثله. وأصله في الحرباء لا يترك ساق شجرة حتى يمسك بساق أخرى.

قال الشاعر:

أنَّى أتيحَ لها حرباء تنضبة ... لا يرسل الساقَ إلا ممسكاً ساقا

أجود ما قيل في الحياء قول(٢) الخنساء:

ومخرقٌ عنه القميص تخالُهُ ... بين البيوتِ من الحياءِ سقيما
حتى إذا رُفعَ اللواء رأيتَهُ ... تحت اللواءِ على الخميسِ زعيما(٣)

أخذه بعضهم وأحسن:

يشبهون سيوفاً في صرامتهم ... وطول أنضيةِ الأعناقِ والقممِ
إذا غدا المسكُ يجري في مفارقهم ... راحوا كأنهمُ مرضى من الكرم

وقال غيره:

كريمٌ يغضُّ الطرف فضلُ حيائه ... ويدنو وأطرافُ الرماحِ دوانِ
وكالسيف إن لاينتهُ لان مسهُ ... وحَدَّاه إن خاشنتهُ خشنان

وقال أبو دهبل(٤):

نَزْرُ الكلامِ من الحياءِ تخالُهُ ... صمتاً وليس بجسمه سُقمُ
عُقِمَ النساءُ فلا يلدن شبيههُ ... إن النساءَ بمثله عقمُ

غيره:

إني كأني أرى من لا حياءَ لهُ ... ولا أمانةَ بين الناسِ عُريانا

أجود ما قيل في تفضيل الجد على العقل والاخبار بأن الحظ والعقل لا يجتمعان قول الأول:

وما لبُّ اللبيبِ بغيرِ حظٍ ... بأغنى في المعيشة من فتيلِ
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ ... وهيهاتَ الحظوظُ من العقولِ

والعرب تقول(٥): «اسع بجَدٍّ أو دع».

أجود ما قيل في التنزه والتصون وترك السؤال قول بعضهم:

السخاء أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعا. فجعل اليأس مما في أيدي الناس

---

(١) جمهرة الأمثال: ٢/ ٣٠٦

(٢) البيتان ليسا في ديوانها. وهما في عيون الأخبار ونسبهما إلى ليلى الأخيلية. وفيه: «وسط البيوت».

(٣) الخميس: الجيش. الزعيم: الكفيل.

(٤) ابو دهبل الجُمحي: وهب بن زمعة، من شعراء قريش العشّاق توفي سنة ٦٣ هـ. (الأعلام: ٨/١٢٥). والأبيات في عيون الأخبار ١/ ٢٧٩ ويمدح فيها النبي ﷺ.

(٥) جمهرة الأمثال: ٢/٣٠٦.

سخاءً، لأن النفس، إذا سخت وسمحت، لم تتطلع إلى مال الغير، كما أنها إذا ضاقت وحرصت، تاقت إلى ما ليس لها.

وهو معنى حسن دقيق أخذه ابن أبي خازم[1] فقال:

ومنتظر سؤالك بالعطايا وأفضل من عطاياه السؤال
إذا لم يأتك المعروفُ طوعاً فدعهُ فالتنزه عنه مالُ

وما أحسب أني سمعت في هذا المعنى أحسن من هذا وقلت:

ألا إنَّ القناعةَ خيرُ مالٍ لدى كرمٍ يَروحُ بغيرِ مال
وان تصبر فإنّ الصبر أولى بمن عثرت به نُوَب الليالي
تجمل إن بُليتَ بسوءِ حالٍ فإنّ من التجملِ حسن حالِ

أجود ما قيل في مضاء العزم، وثبوت الرأي والفطنة، من الشعر القديم قول أوس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظن كأنْ قد رأى وقد سمعا[2]

وقالت الحكماء: لا ينتفع الرجل بعلمه، حتى ينتفع بظنه. وكان عمر رضي الله عنه يقول: إذا أنا لم أعلم ما لم أر، ما علمت ما رأيت.

وقلت:

أمانُك مصروفٌ إلى كلِّ راهبٍ وسيبُك موقوفٌ على كل راغبِ
تباشرتِ الدنيا بجدواك واكتفتْ فلم تتباشر بالغيوثِ الصوائب
تبسمَ منك الدهرُ عن زائن له وعين عليه في اختلافِ النوائب
بصيرٌ له دونَ العواقبِ فكرةٌ تكشف عن رأي وراءَ العواقب
ليشكركَ مجدٌ لا تزال تحوطهُ وتحميهِ بالنصلينِ: عزمٍ وقاضب
كأني إذا أمسكتُ منك بعُرْوةٍ أخذت بأهدابِ الغيومِ السواكبِ

وليس في المضاء والعزيمة أجود من قول[3] أبي تمام:

وَرَكْب كأطراف الأسنةِ عرّسوا على مثلها والليلُ تسطو غياهبه[4]
لأمرٍ عليهم أن تتمَّ صدورُهُ وليس عليهم أن تتمَّ عواقبُه

مأخوذ من قول الأول:

غلام وغى تقحمها فأودى وخانَ بلادَهُ الزمنُ الخؤونُ

---

(١) هو بشر بن ابي خازم عمرو بن عوف الأسدي، ابو نوفل، شاعر جاهلي فحل. قتل في الغزو سنة ٢٢ ق. هـ. (الأعلام: ٢/٥٤).

(٢) الألمعي: الذكي. والبيت في ديوان أوس: ٥٣.

(٣) ديوانه: ٤٤.

(٤) الغياهب: الظلمات. عرّسوا: نزلوا ليلاً للاستراحة.

وكـــان على الفتى الأقـدامُ فيهـــا وليس عليـــهِ مـــا جنتِ المنـــون

وقوله:

وقــد علم الأفشينُ وهــو الــذي بـه يُصانُ رداء الملك من كل جـانبِ[1]

بـأنك لمـا استخـذل الأمـر واكتسى إهابي سيفي في وجوه التجاربِ[2]

تـجـللتـهُ بـالـرأي حتـى أريتـه بـه مـلءَ عينيـه مكـانَ العـواقبِ

سللت لـه سيفيـن رأيـاً ومنصـلاً وكـلٌ لنجمٍ في الـدُّجُنَّـةِ ثـاقب[3]

وكنت متى تهـزز لخـطب تـغشـه ضـرائب أمضى من رقاق المضـارب

وقال[4]:

وســارت بـه بين القنـابـل والقنـا عـزائمُ كـانت كـالقنا والقنـابـلِ

ومن جيد ما قيلَ في كتمان السرّ قول الأول:

تـلاقت حيـازيمي على قلب حـازم كتـوم لمـا ضمت عليه أصابعهْ[5]

أواخي رجـالاً لستُ أطلعُ بـعضـهم عـلى ســرٍّ بـعضٍ ان قـلبي واسـعـة

وقال الآخر:

ســأكتمــه سـري وأحفظُ ســرَّهُ ولا غــرَّني أنّي عـليـه كـريـمُ

عليمٌ فينسى أو جهــولٌ يـذيعــهُ ومـا النـاسُ إلا جـاهــلٌ وعليمُ

والمثل السائر[6]:

إذا ضــاقَ صدرُ المــرءِ عن سِـرِّ نفسـهِ فـصـدرُ الـذي يستــودعُ السـر أضيـقُ

أحسن ما قيل في العقل ما أنشدناه أبو أحمد عن ابن دريد[7]:

وأفــضــلُ قـســم الله لـلمــرءِ عــقــلهُ فـليسَ مـنَ الـخيـرات شـيءٌ يـقـاربـه

إذا كــمـلَ الـرحـمٰـنُ لـلمـرء عـقـلَه فـقـد كـملت أخـلاقُـه وضـرائبـه[8]

---

(١) الأفشين هو حيدر بن كاوس قائد من قواد الدولة العباسية، له مواقع كثيرة مع الثائرين، وكان حبسه المعتصم وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات سنة ٢٢٦ هـ . تاريخ ابن الأثير: ٦/٥١٠ وما بعدها.
والبيت وما يليه في ديوان ابي تمّام: ٤٢ . وفيه: «رداء الملك عن كل جاذب».

(٢) في الديوان: «استخذل النصر . . . اهابي تسفي». واستخذل النصر: خاب.

(٣) في الديوان: «وكلٌ كنجم».

(٤) ديوان ابي تمّام: ٢١٩ .

(٥) الحيازيم: جمع الحيزوم وهو وسط الصدر.

(٦) جمهرة الأمثال: ١/٤٧٣ .

(٧) ابن دُريد: هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ابو بكر، وهو من ائمة اللغة والأدب. له تصانيف منها «جمهرة اللغة». توفي في بغداد سنة ٣٢١ هـ . (الأعلام: ٦/٨٠). والأبيات في العقد الفريد منسوبة إلى محمد بن يزيد: ٢/٢٥٢ .

(٨) ضرائبه: مآربه وحاجاته.

يعيشُ الفتى بالعقل في الناس أنه | على العقل يجري علمهُ وتجاربه
ومن كان غلاباً بعقل ونجدةٍ | فذو الجدِّ في عقل المعيشة غالبه
يزين الفتى في الناس صحةُ عقله | وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
ويزري الفتى في الناس قلةُ عقله | وإن كرُمَتْ أعراقه ومناسبه

ونحوه قول الآخر:

ولم أرَ مثلَ الفقر أوضع للفتى | ولم أرَ مثلَ المالِ أرفع للنذلِ
ولم أرَ من عدمٍ أضرّ على الفتى | إذا عاشَ بين الناسِ منعدم العقل

وقال سهل بن هارون[1]: العقل راية الروح، والعلم راية العقل والبيان ترجمان العلم.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أحمد بن عبد الواحد، أخبرنا أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، قال: قال قُس بن ساعدة[2]: أفضل العقل معرفة الرجل بنفسه، وأفضل العلم وقوف المرء عند علمه، وأفضل المروءة استبقاء الرجل ماء وجهه، وأفضل المال ما قضيت منه الحقوق. ومن العجب، أن العرب تمثلت في جميع الخصال، بأقوام جعلوهم أعلى ما فيها، فضربوا بها المثل، إذا أرادوا المبالغة، فقالوا: «أحلم من الأحنف ومن قيس بن عاصم»[3].

«وأجود من حاتم ومن كعب بن أمامة[4]».

«وأشجع من بسطام»،

«وأبين من سحبان»[5]،

«وأرمى من ابنِ تقن»[6]،

«وأعلم من دغفل» [7]،

ولم يقولوا أعقل من فلان، فلعلهم لم يستكملوا عقلٍ أحد، على حسب ما قال الأعرابي، وقد قيل له: حدّ لنا العقل، فقال: كيف أحده ولم أره كاملاً في أحد قط.

ووصف بعضهم الحجاج بالعقل، وعكس أمره آخر فوصفه بالحمق، قال عتبة بن عبد الرحمٰن:

---

(١) سهل بن هارون بن راهبون: أبو عمرو الدستميساني، كاتب بليغ حكيم، من واضعي القصص، اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، فولاه خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ. (الأعلام: ٣/١٤٣).

(٢) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك الإيادي، من حكماء العرب في الجاهلية. رآه النبي ﷺ، قبل النبوة، في سوق عكاظ فقال: «يُحشر أمة وحدَه». مات سنة ٢٣ ق. هـ. (الأعلام: ٥/١٩٦).

(٣) جمهرة الأمثال: ١/٣٢٨.

(٤) جمهرة الأمثال: ١/٢٧٢.

(٥) كتاب الحيوان للجاحظ: ١/٣٩.

(٦) جمهرة الأمثال: ١/٤٠٧.

(٧) جمهرة الأمثال: ٢/٦٧.

رأيت عقول الناس تتقارب إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية، ثم قال أبو الصفدي: كان الحجاج أحمق بني مدينته في بادية النبط، ثم حماهم دخولها فلما رحل عنها دخلوها من قرب. وقال يونس بن حبيب: كان والله يفتق ولا يرتق، ويخرق ولا يرفق، وقال بعضهم: ما دخل العراق أكثر أدباً من الحجاج، فلما طال مكثه في ولايته، واشتد في سلطانه، وترك الناس الرد عليه فسد أدبه، وقال له عبد الملك: إن الرجل لا يكون عاقلاً حتى يعرف نفسه، وأمير المؤمنين يقسم عليك لتخبره عن نفسك، فقال: أنا حديد حقود، ذو قسوة حسود، فانتحل الشر بحذافيره وجمعه بزوبره[1]. ومن العجب، أنهم قالوا: من عرف نفسه نجا، وقد عرف الحجاج نفسه وهو هالك. وقالوا: العاقل لا يخبر بعيب نفسه، وقال بعضهم لا يعرف الرجل حقيقة ما اشتمل عليه من العيب، كما أن آكل الثوم لا يجد رائحته من نفسه:

وقلت في ذلك:

لـو تمَّ شيءٌ مـنَ الـدنيـا لـذي أدبٍ — لانـضـاف مـال إلى عـلمـي وآدابـي
فتمَّ جـاهيَ عنـدَ الـنـاسِ كلهـم — وطـابَ عيشيَ في أهلي وأصحـابي
عـز الكمـالُ فـلا يحظى بـهِ أحدٌ — فكـلُّ خلقٍ وان لم يـدرِ ذو عـاب

وقال إسماعيل بن غزوان: كل علم لا يكون في مغرس عقل وبيان، لا يكون في نصاب علم وخلق، لا يجري على عرقه فليس له ثبات، إذا احتيج إلى الثبات وقال أبو داود:

عـلى أعـراقـهِ يجـري الـمـذكى — ولـيس عـلى تـكـلفـهِ وجـهـده

وقال بعض الملوك لحاجبه: أدخل عليّ رجلاً عاقلاً، فأدخل عليه رجلاً قال: بم عرفت عقله؟ قال: رأيته يلبس الكتان في الصيف، والقطن في الشتاء واللبيس[2] في الحر، والجديد في القر[3].

وما قيل في علامة العاقل أعجب إليَّ من قول الأول: علامة العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شانه. وقال بعضهم: إنما تنفع التجارب من كان عاقلاً.

ومما يدخل في الباب، ما أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن عبد الرحمٰن، عن عمه قال: لم يقل أحد في التفرح بالمنادمة إلى الإخوان، والتسلي بمناعة أهل الحفاظ بمثل قول[4] بشار حيث يقول:

وأبثثتُ عَمراً بعضَ ما في جـوانحي — وجـرعـتـهُ مـن مـرِّ أتـجـرّعُ
ولا بـدَّ من شكوى إلى ذي حفيـظةٍ — إذا جـعلتْ أسـرارُ نـفسـي تـطلّعُ

---

(١) اخذه بزوبره: أي بأجمعه.
(٢) اللبيس: الثوب الذي أخلق لقدمِه.
(٣) القر: البرْد.
(٤) ديوان بشّار: ٥٥٣. وفي الأمالي دون عزو: ٣/ ٢١٩.

ومن أجود ما قيل في ترك الشيء إذا أدبر قول بعض الأعراب:

إذا ضيعت أولَ كل أمرٍ ... أبت أعجازُهُ إلا التواء
وإن حملتَ أمرك كل وغدٍ ... ضعيفٍ كان أمركما سواء
وإن داويتَ دنيا بالتناسي ... وباليان أخطأت الدواء

وقال الأعشى [1]:

إذا حاجةٌ ولّتك لا تستطيعُها ... فخذْ طرَفاً من غيرِها حينَ تسبِقُ
فذلك أحرى أن تنالَ جسيمَها ... وللقصدِ أهدى في المسيرِ وألحقُ

ومن أجود ما قيل[2] في المهابة من قديم الشعرِ ما يُنسب إلى الفرزدق وهو لغيره في علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما:

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته ... فما يُكلَّمُ إلّا حينَ يبتسِمُ

جعله مهيباً في السكون والإغضاء، ولو جعله مهيباً مع الصَّولة والبطشِ لما كان كذلك فهو بليغ جداً.

وأنشدنا أبو أحمد عن بعض رجاله، لشاعر في بعض العلماء هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى:

يأبى الجوابَ فما يراجعُ هيبةً ... والسائلونَ نواكسُ الأذقانِ[3]
هدى التقيّ وعزُّ سلطانِ النهى ... وهو المهيبُ وليس ذا سلطانِ

ومن أحسن تشبيه جاء في الهيبة قولهم: «كأن على رؤوسهم الطير»[4]، وذلك أن الهائب تسكن جوارحه فكأن على رأسه طائراً يخاف طيرانه إن تحرك.

وقال[5] أبو نواس:

أضمرُ في القلبِ عِتاباً لهُ ... فإن بدا أُنسيتُ من هيبته

ومثل هذا في النسيب كثير وشبيهه قول الأول:

أهابُك إجلالاً وما بك قُدرةٌ ... عليَّ ولكنْ ملءُ عينٍ حبيبها
وما هجرتك النفسُ أنك عندها ... قليلٌ ولا ان قلَّ منك نصيبها

ولا ترى أجود من قوله: «ملءُ عين حبيبها» ولا أحسن ولا أبلغ ولعلك لا تجد لفظة تقوم مقامها، ويقولون: حسن يملأ العين، وهيبة تملاء الصدر.

وقال:

---

(١) ديوانه: ٢٢١.

(٢) ديوانه الفرزدق: ٥١١.

(٣) نواكس: خافضون.

(٤) جمهرة الأمثال: ١٢١/٢.

(٥) ديوان ابي نواس: ١٢٤. وفيه: «أُضمِر في البُعد».

وتملأ عين الناظر المتوسم

وقال[1] ابن الرومي:

في فتيةٍ من ولدَ المنصورِ ... أملأ للعين من البدورِ[2]

وقال آخر:

إذا ذكَرت أمثالها تملأ الفما

وقد أجاد أبو تمام في صفة الهيبة والمخافة فقال[3]:

ثَبتُ المقامِ يرى القبيلة واحداً ... ويُرى فتحسبهُ القبيلُ قبيلا

وقال[4]:

قد أترغْت منه الجوانحُ هيبةً ... بطلتْ لديها سَورةُ الأبطالِ

لو لم يزاحفْهم لزاحفَهم لهُ ... ما في قلوبهم من الأوجال

ومثله قول[5] ابن المعتز:

أنا جيشٌ إذا غدوتُ وحيداً ... ووحيدٌ في الجحفلِ الجراء

وقلت في نحو ذلك:

قبيلكُم في العزِّ يعلو قبائلاً ... وواحدكم في المجدِ يكثر معشرا

وقال[6] الأشجع في إبراهيم بن نهيك وقد وُلّي لمعونة:

شدَّ الخطامَ بأنفِ كلِّ مخالفٍ ... حتى استقامَ له الذي لم يخطم[7]

لا يصلح السلطان إلا هيبةً ... تلقى البريءَ بفضلِ جرم المجرمِ

منعت مهابتك النفوسَ حديثها ... بالشيء تكرهه وإن لَم تعلم

ونهجتَ من حزمِ السياسة منهجاً ... فهمت مذهبه الذي لم يفهم

وأبلغ من هذا كله ما أنشدناه أبو أحمد عن العبشمي عن المبرد[8]:

وأتيت حياً في الحروب محلهم ... والجيش باسم أبيهم يستهزم

يقول: به الجيش يستهزم إذا ذكر فليس أبلغ منه.

---

(١) ديوانه: ٣/٨٦.

(٢) المنصور: الخليفة العباسي ابو جعفر.

(٣) ديوان ابي تمّام: ٢١٥.

(٤) ديوانه: ٢٣٠. وفيه: «الجوانح رهبةً». وفي الديوان: «ما في صدورهم».

(٥) ليس في ديوانه.

(٦) الأغاني: ١٨/ ٢٢٧.

(٧) الخِطام: ما يُشد به على الأنف.

(٨) المبرّد: ابو العبّاس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، الأزدي، النحوي، البصري، صاحب الكامل، وكان متفنناً في كل العلوم. مات سنة ٢٨٦ هـ. (سير أعلام النبلاء: ١٣/٥٧٦).

ومثله قول الفرزدق:

لبيكِ وكيف خيلُ ليلٍ مغيرةٌ ... تساقي الحِمامَ بالرُّدينيةِ السُّمرِ[1]
لقُوا مثلَهم فاستهزموهم بدعوةٍ ... دعوها وكيفا والجيادُ بهم تجري

ومثله قول الآخر:

سماؤك تمطر الذهبا ... وحربك يلتظي الهبا
وأي كتيبة لاقتك ... لم تستحسنِ الهربا

فجعلها تستحسن الهرب إذا لاقته، ولا تخشى اللائمةَ إذا فرّت منه فهو غاية.

ومما هو بليغ في باب المهابة قول[2] الأشجع:

وعلى عدوك يا بنَ عمِّ محمد ... رصدان ضوءُ الصبحُ والأظلامُ
فإذا تنبهَ رعتهُ وإذا هذى ... سلت عليه سيوفك الأحلامُ

فنقله أبو نواس إلى غزال فقال[3]:

قسيتُ فيِ الهمومَ والأطما ... وصرتُ فيه بينَ الورى علما
أكون يقظان في تذكرهِ ... حتى إذا نمتُ كانَ لي حلما

ومما هو أبلغ من ذلك كله قول النبي ﷺ «نُصرت بالرُّعب»[4] وما وصف أحد هيبة صاحب السلطان إذا بدا كما وصفها البحتري في قوله[5]:

إذا ما مشى بين الصفوفِ تقاصرت ... رؤوسُ الرجالِ عن أشمّ سميدعِ[6]
يقومون من بُعدٍ إذا أبصروا بهِ ... لأبلج موقورِ الجلالةِ أروعِ
يدعونَ بالأسماءِ مثنى وموحداً ... إذا حضروا بابَ الرّواق المرفعِ
وإن سار كُفَّ اللحظ عن كلِّ منظر ... سواه وغُضَّ الصوتُ عن كلِّ مَسمَعِ
فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخص ... إليهِ بعينٍ أو مشير بأصبعِ

وقوله[7]:

تراءوك من أقصى السماطِ فقصروا ... خُطاهم وقد جازوا الستورَ وهم عجلِ
ولما قضوا صدرَ السلامِ تهافتوا ... على يدِ بسام سجيتهُ رسلُ
إذا أسرعوا في خطبة قطعتهمُ ... جلالةُ طلقِ الوجهِ جانبهُ السهلُ

---

(١) في ديوان الفرزدق: ١٨٠. وفيه: «لبيك وكيعاً».
(٢) الأغاني: ١٨/٢٣٣.
(٣) ديوانه: ٥٧١.
(٤) اخرجه البخاري: تيمم ١، صلاة ٥٦. ومسلم: مساجد ٣.
(٥) ديوانه: ١/٥٩ ص.
(٦) السَّميدَع: السيد الكريم.
(٧) ديوان البحتري: ١/٤٠ ص.

إذا نكسوا أبصارَهم من مَهابة ... ومالوا بلحظٍ خلتَ أنهم قبلُ

وقال أبو بكر الصولي وهو من البليغ:

إذا ما بدا والقومُ فوقَ سروجهم ... تناثرتِ الأشرافُ منهم على الأرضِ

وقال[1] البحتري:

ومبجل وسطَ الرجالِ خفوفهم ... لقيامِه وقيامهم لقعودِهِ
فالله يكلؤهُ لنا ويحوطهُ ... ويعزهُ ويزيدُ في تأييده[2]

أبلغ ما جاء في وصف العلم قول علي رضي الله تعالى عنه:

قيمة كل امرىءٍ ما يحسنه.

وشذ به بعضهم فقال: قيمة كل امرىء علمه.

ولا أعرف في مدح العلم، وعدِّ خصاله، أبلغ من كلامه رضي الله تعالى عنه، خاطب به كُميل[3] بن زياد، أثبته لك هنا وإن كان مشهوراً:

أخبرنا أبو أحمد، حدثنا الهيثم بن أحمد الزيداني، حدثنا علي بن حكيم الأذري، حدثنا الربيع بن عبد الله المدني، حدثنا عبد الله بن حسن، عن محمد بن علي، عن آبائه عن كميل بن زياد، قال: أخذ بيدي علي رضي الله تعالى عنه، فلما أصحرنا قال:

«يا كميل إن هذه القلوب أوعية، وخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يأووا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كميل محبة العلم دين، تدان به تكتسب به الطاعة في حياتك، وجميل الأحدوثة بعد وفاتك، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، يا كميل، مات خزان المال، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه إن ههنا لعلماً جماً، لو أصبت له حملة بلى أصبت لقناً[4]، غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا فيستظهر بحجج الله على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق، لا بصيرة له في أجنائه، فيقدح الشك في قلبه عند أول عارض من شبهة، أولا ذا ولاذا فمنهوم باللذات، سلس القياد للشهوات، ومغرم بالجمع والادخار، ليس من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة: إما ظاهر وإما خائف، لئلا تبطل حجة الله وتبيانه، وكم وأين أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله تعالى

---

(١) ديوانه: ٢/١٧٥ ص.

(٢) يكلؤه: يحفظه.

(٣) كُميل بن زياد بن نهيك النخعي، تابعي، وكان شريفاً مطاعاً، شهد صفين مع علي. قتله الحجاج سنة ٨٢ هـ. (الأعلام: ٥/٢٣٤).

(٤) اللقِن: السريع الفهم.

حججه حتى يودعوها أسماع نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم؟ هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعده المترفون، وآنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها، متعلقة بالمحل الأعلى، يا كُميل، أولئك أولياء الله من خلقه، وعماله في أرضه، والدعاة إلى دينه، هاه شوقاً إلى رؤيتهم.

ومما حُث به على تحفظِ العلوم، قول بعض الأوائل:

خير العلم ما إذا غرقتَ بسفينتك سبحَ معك.

وقال الخليل:

أفخر وكاثر بالقريـ ... ـحة إنها فخرُ المكاثر

وأعلم بأنَّ العلمَ ما ... أوعيتَ في صحف الضمائر

وقال أبو هلال رحمه الله تعالى: لو قال «ما ضمنته صحف الضمائر» كان أجود

وقال[1] غيره:

استودعَ العلم قرطاساً فضيعهُ ... وبئس مُستودَعُ العلمِ القراطيسُ

وقلت:

تقل غناء عن جهولٍ مغمر ... دفاتر تلقى في الظروفِ وترفعُ

تروح وتغدو عنده في مضيعةٍ ... وكائن رأينا من نفيسٍ يضيع

ومن المختار في طلاقة اللسان قول الآخر:

إذا قال لم يترك مقالا ولم يقف ... لعيّ ولم يثن اللسانَ على هُجرِ

يصرِّفُ بالقولِ اللسانَ كما انتحى ... وينظرُ في أعطافهِ نظرَ الصقر

ونحوه:

لا خيرَ في حشوِ الكلا ... م إذا اهتديتَ إلى عيوبه

وأجود ما قيل في إقامة الإعراب، وترك التغيير ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

ويعجبني زيُّ الفتى وجمالُه ... ويسقط من عينيَّ ساعةَ يلحنُ

على أن للإعراب حداً ورُبما ... سمعت من الأعراب ما ليس يحسنُ

ولا خيرَ في اللفظ الكريه استماعه ... ولا في قبيح اللحن والقصدُ أزينُ

سمعت أبا أحمد يقول: أحسن ما سمعت في السؤال: قول عبد الله بن العباس وقد سئل: بم أدركت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول.

ثم أخبرنا قال: أخبرنا الحسن بن علي بن عاصم، ثنا الهيثم بن عبد الله، حدثنا علي بن موسى الرضى، حدثني أبي، حدثني أبو جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي بن الحسن رضي الله تعالى عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) في الأمالي: ١/٢٢٣. ولم يعزه.

«العلم خزائن مفتاحها السؤال فاسألوا فإنـه يؤجر فيه أربعة: السائل والمستمع والعالم والمحب لهـم»

وأجود ما جاء في السؤال من الشعر ما أنشدناه أبو أحمد أنشدنا ابن الأنباري عن أبيه:

شفـاء العـيِّ في طـولِ الـسؤالِ ... وعـدلـك في المقـالِ وفي الفعـالِ
وبحثـك في الأمـورِ عن المعـاني ... وتخـريـج المقـالِ من الـمقـالِ
وقـولـك بـالـصـواب إذا أنـارت ... شـواهـدُهُ ورفـضـك لـلجـدال
وصمتُـك حينَ تَسمـعُ مـن حكيم ... ليفهمَـك الصحيـحَ من الـمحـالِ

أجود ما قيل في صفة اللسان وأتمه، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، قال أحمد بن عيسى العكلي: حدثنا الخليل عن عبد الله بن صالح بن مسلم القاضي قال: قال بعض الحكماء لابنه:

يا بني، اللسان أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحـاكم يفصل بـه الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، ومعز يرد الأحزان، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يذهب بالضغين، ومُلهٍ يوقف الأسماع، ألا ترى أن الله تعالى رفع درجة اللسان بأن أنطقه بالتوحيد، وليس شيء من الجوارح ينطق به غيره.

ومن أجود ما أحتج به للكلام: ما أخبرنا به أبو أحمد، حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي طاهر، حدثنا أبو تمام، قال: تذاكرنا الكلام في مجلس سعيد بن عبد العزيز التنوخي وحسنه، والصمت ونبله، فقال سعيد: ليس النجم كالقمر، إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبر منه.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد، حدثنا أبو تمام، حدثنا أبو عبد الرحمٰن الأموي، قال: ذكر الكلام في مجلس سليمان بن عبد الملك، فذمه أهـل المجلس، فقال سليمان: كلا! إنَّ من تكلم فأحسن، قدر أن يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن، قـدر أن يتكلم فيحسن.

ومن أجود ما أحتج به للصمت، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبي أخبرنا أحمد بن أبي طاهر، حدثنا حبيب بن أوس، حدثني عمرو بن هاشم البيروتي قال: تحدثنا بباب الأوزاعي، وفينا أعرابي من بني عليم بن جناب، لا يتكلم فقيل له: بحق ما سميتم خرس العرب، ألا تتحدث مع القوم؟ فقال إن الحظ للمرء في أذنه وإن الحظ في لسانه لغيره، وإنما جعل للمرء أذنان ولسان؛ ليكون استماعه ضعف كلامه. قال فحدثنا الأوزاعي، فقال والله لقد حدثكم فأحسن.

وقد سوى بعضهم بين الصمت والكلام، فحدثني أبو أحمد عن أبيه عن أحمد بن أبي طاهر، عن أبي تمام، حدثني يحيى بن إسماعيل الأموي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله قال جدي: الصمت منام العاقل والنطق يقظته ولا منام الا بيقظة ولا يقظة إلا بمنام.

قال أبو هلال: وأنا أقول الصمت يورث الحبسة والحصر وإن اللسان كلما قلب وأدير بالقول كان أطلق له: أخبرني بعض أصحابنا قال: ناطقت فتى من بعض أهل القرى، فوجدته ذليق اللسان، فقلت له: من أين لك هذه الذلاقة؟ قال: كنت أعمد كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ، فأقرأها برفع صوت، فلم أجر على ذلك مدة حتى صرت إلى ما ترى. وسمى البيان سحراً لدقة مسلكه، وأول من نطق به رسول الله ﷺ وهو من أجمع ما مدح به البيان:

حدثنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم، أخبرنا أبو بكر أحمد بن حماد العقدي، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن الحارث الخزاز، أخبرنا المدائني قال: قال أبو الحسن بن مسلم بن محارب بن مسلم بن زياد، عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزبرقان بن بدر»: فقال: مطاع في أذنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله يا رسول الله إنه لزمر المروءة[1]، ضيق العطن[2]، أحمق الوالد، لئيم الخال، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، رضيت فقلت أحسن ما أعلم، وسخطت فقلت أسوأ ما أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة»[3]. وإنما تعجب رسول الله ﷺ من نقضه وإبرامه في حال واحدة، ومثل هذا من البلاغة أصعب مراماً وأعجز مطلباً، وقد أشبعنا القول فيه في كتاب صنعة الكلام.

ومما يدخل في بابه، ما أخبرنا به أبو أحمد أخبرنا الصولي، حدثني الطيب بن محمد الباهلي، قال موسى بن سعيد بن مسلم عن أحمد بن يوسف الكاتب قال: دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب فقال له ما تقول في أخوالي؟ قال:

هم هامة الشرف، وخرطوم الكرم، وغرس الجود، إن فيهم لخصالاً ما اجتمعت في غيرهم من قومهم، إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شيماً وأطعمهم طعماً، وأوفاهم ذمماً وأبعدهم هماً، هم الجمرة في الحرب، والرفد في الجدب، والرأس في الخطب، وغيرهم بمنزلة العجب.

فقال: لقد وصفت أبا صفوان فأحسنت، فزاد أخواله في الفخر، فغضب أبو العباس لأعمامه فقال: أفخر يا خالد، فقال أعلى أخوال أمير المؤمنين؟ فقال: نعم وأنت من أعمامه، فقال:

---

(١) زمر المروءة: قليلها

(٢) ضيق العطن: بخيل.

(٣) أخرجه البخاري: نكاح ٤٧. ومسلم: جمعة ٤٧. بلفظ: «إن من البيان سحراً».

وكيف أفاخر أقواماً هم بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابغ جلد، دل عليهم الهدهد وغرقتهم الفأرة وملكتهم امرأة؟ فأشرق وجه أبي العباس وجعل يضحك.

قال وحدثني ابن المزرع قال: سمعت عمرو بن بحر الجاحظ، وقد ذكر كلام خالد هذا يقول: والله لو نفكر في جمع معايبهم، واختصار اللفظ في مثالبهم، بعد ذلك المدح المهذب سنة، لكان قليلاً فيكف على بديه لم يرض فكراً.

وأجود ما قيل في كراهة المزاح قولهم: إن المزاح هو السباب الأصغر، وقيل المزاح سباب النوكى[1].

وأجود ما قيل في تخوف عاقبته قول[2] أبي نواس:

إنه نار وقدحُ القادحِ ... وأيّ جدٍ بلغ المازحُ

ومثله:

صارَ جداً ما فرحت به ... رُبَّ جدٍ جَرَّه لعبُ

وقلت:

غضبت للمزح ولم تنظر في موقعهِ ... المزح في موضعهِ كالجدِّ في موضعهِ

أجود ما قيل في التضافر والتعاون، قول قيس بن عاصم[3] المنقري يوصي ولده وقومه: وجدت في كتاب غير مسموع، لما حضر عبد الملك بن مروان الوفاة، وعاينته قال:

يا بني أوصيكم بتقوى الله، وليعطف الكبير منكم على الصغير، ولا يجهل الصغير حقّ الكبير، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك فإنه نابُكم[4] الذي عنه تعبرون، ومجنّكم[5] الذي به تستجيرون، ولا تقطعوا من دونه رأياً، ولا تعصوا له أمراً، وأكرموا الحجاج بن يوسف، فإنه الذي وطأ لكم المغابر، وذلل لكم قارب العرب، وعليكم بالتعاون والتضافر، وإياكم والتقاطع والتدابر.

فقال قيس بن عاصم لبنيه:

بصلاح ذاتِ البينِ طولُ بقائكم ... إن مُدَّ في عمري وإن لم يُمددِ
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ... لمسوَّد منكم وغير مسوَّد
إن القداحَ إذا جُمعنَ فرامها ... بالكسر ذو حَنق وبطش أيّدِ
عزت ولم تُكسر وإن هيَ بُدِّدَتْ ... فالوهنُ والتكسيرُ للمتبدد

---

(١) النوكى: الحمقى.

(٢) ديوانه: ١٧٥.

(٣) هو قيس بن عاصم بن سِنان المنقري السعدي، من امراء العرب وعقلائهم، كان سيداً في الجاهلية وشاعراً. روى احاديث. مات بالبصرة سنة ٢٠ هـ. (الأعلام: ٥/٢٠٦).

(٤) الناب: السيد.

(٥) المِجن: ما يقي ويحفظ كالترس وغيره.

ثم قام علي بن خالد بن يزيد بن معاوية وخالد بن عبد الله بن أسيد فقال لهما: قد حضر من الأمر ما تريان، فإن كان في نفوسكما شيء من بيعة الوليد نزعتماه وجعلتما الأمر حيث شئتما: قالا: بل رضينا أكمل الناس لها، وأقواهم عليها، قال: أما والله لو غيرها قلتما لمتما قبلي، ثم رفع طرف فراشه، فإذا تحته سيف مجرد، فقال: للوليد لا أعرفنك إذا أنا مت تعصر عينيك وتمسحها نعل الأمة الوعكاء شمر وابرز والبس جلد النمر، وادع الناس إلى بيعتك، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا. ثم لم يزل متمثلاً بقول الشاعر:

وهــل مـن خــالــد أمــا هــلـكـنــا وهــل بــالـمــوتِ يـا للنــاسِ عــار

ثم قال: الحمد لله الذي لا يبالي صغير هلك في ملكه أم كبير ثم قضى.

فقال هشام بن عبد الملك:

ومــا كــان قيسٌ هلكــهُ هــلك واحــدٍ ولــكـنــه بــنـيــانُ قــومٍ تــهــدمــا

فسمعها الوليد فتطير منها، فرفع يده فلطمه، وقال: إنك أعور مشؤوم، هلا قلت كما قال التميمي:

إذا ســيــدٌ مــنــا ذرا حــدُّنــا بــه تـخبط فـينــا نــابُ آخــر مـقــرمِ

فسمع مسلمة الصيحة، فقال: ذروا الصياح، فإنكم إن استقمتم استقام الناس، وإن اختلفتم اختلفوا.

أخبرنا أبو حمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، أخبرنا أبو حاتم، عن أبي عبيدة، قال: كان عبد الملك بن مروان، ذات ليلة، في سمره مع ولده، وأهل بيته، وخاصته، فقال: ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل من الشعر، وليفضل من رأى من الشعراء تفضيله، فأنشدوا وفضلوا، فقال بعضهم: أمرؤ القيس، وقال بعضهم، النابغة وقال بعضهم: الأعشى، ولما فرغوا قال: أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندي الذي يقول:

وذي رحـمٍ قلمـتُ أظفــارَ ضـغنــهِ بحلميَ عنـهُ وهــو ليس لــهُ حلُم(1)
إذا سُمتـهُ وصـلَ القــرابـةِ ســامني قــطيعتهـا تلك السفــاهــةُ والــظِلمُ
وأسعى لكي أبني ويهــدم صــالحي وليس الــذي يبني كمن شأنــهُ الهدمُ
يحــاولُ رغمي لا يحــاولُ غيــرَهُ وكــالموتِ عـنـدي أن يحـل بـه رغمُ
فــإن أنتصـر منـهُ أكن مثـلَ رائش سهــامَ عدوٍّ يستهــاضُ بها العـظمُ(2)
وبــادرت منـه النــأي والـمــرءُ قــادرٌ على سهمــهِ مــا دام في كـفــه السهم
فإن أعفُ عنهُ أغض جفناً على القذى وليس لـهُ بـالصفـحِ عن ذنبـهِ علم
حفـظتُ الـذي قـد كـان بيني وبينـهُ وهل يستوي حـربُ الأقاربِ والسلم

---

(1) الخبر والأبيات في الأغاني: ١٢/ ٦٠.

(2) راش السهم: وضع له الريش.

فمـا زلتُ في لِين لـهُ وتعـطفٍ عليهِ كما تحنـو على الولـدِ الأمُّ
لأستـلَّ منـهُ الضغنَ حتى سللتـه وإن كـان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحـزم

فقالوا: يا أمير المؤمنين، من قائل هذه الأبيات؟ فما أحسنها وأرضاها! قال: معن ابن أوس المزني.

ومن أجمع ما قيل في المعروف، قول النبي ﷺ: «المعروفُ كاسمه[1]».

أخبرني عم أبي عن أبيه قال: قال العتابي كنت واقفاً بباب المأمون، أنتظر من يستأذنه لي، فأقبل يحيى بن أكثم، فقمت إليه، فقلت: أستأذن لي على أمير المؤمنين، فقال: لست بحاجب، فقلت: ولكنك ذو فضل، وذو الفضل معوان، قال: سلكت بي غير سبيلي، قلت: ان الله قد أتحفك بجاه، وهو مقبل عليك بالزيادة إن شكرت، وبالنقصان إن كفرت، وأنا لك منذ اليوم أنفع منك لنفسك، أدعو إلى ازدياد نعمتك وتأبى علي، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه رفد المستعين، وقد قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ المعروف فضلُ جاهكَ تعود به على من لا جاهَ له»[1] فعقدت ودخل، فما لبث ان خرج الحاجب يسأل عني، فدخلت فقال: حدثنا أبو نصر التمار عن سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وجعفر الطيار، وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فتذاكروا المعروف فقال علي: المعروف حصن من الحصون، وكنز من الكنوز، فلا يزهدنك فيه كفر من كفره، فقد يشكر الشاكر ما أضاعه جحود الكافر. وقال العباس: المعروف أفضل الأمور، وأوثق الحصون، ولا يتم إلاّ بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته تممته، إن بأهل المعروف من الرغبة، أكثر مما بأهل الحاجة إليهم، وبيان ذلك أن لهم ذكره وسناه وفخره، فمهما أتيت من معروف، فإنما أتيته لنفسك. وقال عمر: إن لكل شيء أنفاً، وأنفُ المعروف السراح. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «فيمَ أنتم»؟ فقالوا: نتذاكر المعروف، فقال عليه الصلاة والسلام:

«المعروف كاسمه، وأولُ من يدخلُ الجنةَ المعروفُ وأهلُهُ».

ومن أجود ما قيل في بذل المعروف، وإن كان قليلاً، ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجوهري، عن المنقري، عن الأصمعي، عن بعض العباسيين، قال: كتب كلثوم بن عمرو إلى رجل في حاجة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه وجنته. أما بعد فإنك كنت روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماماً لزهرتها، وشفقة على نضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى مرت بنا في سفرتنا هذه سنة، كانت قطعة من سنيّ يوسف، اشتد علينا كلبها، واخلفتنا غيومها، وكذبتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعي بك كثير الشفقة عليك، مع علمي بأنك نعم موضع

(١) الكامل في ضعفاء الرجال ٥/ ١٩٠٠ ولفظه: «المعروف باب من ابواب الجنة وهو يمنع مصارع السوء».

الزاد، واعلم بأن الكريم إذا استحى من إعطاء القليل، ولم يحقر الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته، وأنا أقول في ذلك:

ظَلَّ اليسارِ على العباسِ محدودُ … وقلبهُ أبداً بالبخلِ معقودُ
إنَّ الكريمَ ليخفي عنك عسرتَهُ … حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عللٌ … زرقُ العيونِ عليها أوجهٌ سود
إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم … تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بثَّ النوالَ ولا يمنعك قلتهُ … فكل ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه قيمة نصف خاتمه وفرد نعله.

ومن مليح ما جاء في هذا المعنى قول[1] ابن الرومي:

أبا عمروٍ لك المثلُ المعلّى … وجدُّ عدوِّك التُّربُ الذليلُ[2]
رأيتُ المطلَ ميداناً طويلاً … يروضُ طباعَهُ فيهِ البخيلُ[3]
فما هذا المطالُ فدتك نفسي … وباعُكَ بالندى باعٌ طويلُ
أظنُّك حينَ تقدرُ لي نَوالاً … يقلُّ لديك لي منهُ الجزيلُ
فلا تقدرْ بقدرِكَ لي نوالاً … ولا قدري فيحقرُ ما تنيلُ
وأطلِقْ ما تهمُّ بهِ عساهُ … كفافي أيها الرجلُ النبيلُ
وإلا فالسلامُ عليكَ مِنّي … نبتْ دارٌ فأسرعَ بيَ الرحيلُ
إذا ضاق على أملٍ بلادٌ … فما سُدَّتْ على عزمٍ سبيلُ

وقال غيره:

وما الجودُ عن فقرِ الرجالِ ولا الغنى … ولكنهُ خيمُ الرجالِ وخيرُها

ومن عجيب المعاني في عظم السؤال، وموازنته للنوال[4]، بل رجاحته عليه، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، أخبرنا السكن بن سعيد، عن محمد بن عباد قال: دخل كوثر بن زفر بن الحارث الكلابي على يزيد بن المهلب فقال له: أيها الأمير، أنت أعظم قدراً من أن تستعان أو يستعان عليك، وليس تفعل المعروف شيئاً ألّا وهو يصغر دونك، وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب أن لا تفعل. فقال: سل حاجتك، قال: حملت عشر ديات وقد بهظتني، فقال: قد أمرت لك بها، وشفعتها لك بمثلها، فقال: أما ما سألتك بوجهي فأقبله منك، وأما ما أبتدأتني به فلا حاجة لي فيه. قال ولم وقد كفيتك مؤنة السؤال؟ قال لأني رأيت الذي أخذت مني بمسألتي إياك بوجهي، أكثر مما نالني من عرفك، وكرهت الفضل على نفسي. فقال

---

(١) ديوانه: ٥/١٣٠.

(٢) في الديوان: «أبا بكر لك . . .».

(٣) المطل: الوعد والتسويف.

(٤) النوال: العطاء.

له يزيد أسألك بحقك عليٍ لما رأيتني أهله من إنزال الحاجة بي إلا قبلتها فقبلها.

وسأل العتابي رجلاً فحصر وأقل، فقيل له: قد أقللت، فقال وكيف لا أقل ومعي ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخضوع الهيبة، وخوف الرد. وقيل لآخر متى يكون البليغ عيياً؟ قال: إذا سأل حاجة لنفسه.

وقال أحمد بن أبي خالد الأحول: ما استكثرت بذلاً بذلته قط، لأني أرى الأجر والشكر أكثر منه، ولا استصغرت معروفاً قط لأني أراه أكبر من تركه.

ومن جيد ما قيل في الترغيب في المعروف قول الأول:

فإنك لا تدري إذا جاءَ سائلٌ ... أأنتَ بما تعطيهِ أم هو أسعدُ
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ ان منعتهُ ... من اليومِ سؤلاً أن يكون لهُ غدُ

هذا آخر كتاب الخصال، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي بصرنا سبل الحمد، ووقفنا على طرق الذم، لنضع كلاً منهما في موضعه، ونستعمله في حينه، ونلحقه بمستحقه، إذ ذكر من أحبه فقال:

﴿نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّاب﴾(١)،

ووصف من مقته فقال:

﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيم، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أثِيم، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم﴾(٢).

فذم قوله وفعله، وعاب شيمته، وخلقه وهتك الشتم عرضه، وسود بالذم وجهه، جزاءً بما اكتسب من ذميم الفعال، ووفقاً لما أطلقه من اسم المقال، نكالاً من الله والله عزيز حكيم. وصلى الله على نبيه محمد البشير النذير الداعي إلى الله باذنه والسراج المنير وعلى آله الطيبين وعترته.

هذا كتاب المبالغة

فى المعاتبات والهجاء والاعتذار وهو

الباب الثالث من كتاب ديوان المعاني

وهو يشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الأول في المعاتبات

فمن أوائل ذلك، ما أخبرنا به أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: قال عليه الصلاة والسلام لطلحة، حين رأى تلونه عليه: «فِراقٌ جميلٌ خيرٌ من صُحبةٍ على دَخَنْ» والدخن والدخل: الفساد والمدخول: الفاسد، وقد دخل فسد، وروي «على دخل».

---

(١) سورة ص: آية ٣٠.

(٢) سورة القلم: آية ١١، ١٢، ١٣.

ومن قديم ما جاء في ذلك قول[1] أبي ذؤيب:

تُـريـدينَ كيمـا تجمعيني وخـالـداً | وهل يُجمعُ السيفانِ ويحك في غمدِ

يقول لأم عمرو، امرأة من هذيل، وكان رجل منهم يقال له وهب بن عمرو ـ وقيل وهب بن جابر ـ هويها فامتنعت عليه، فخرج يوماً يتصيد، فختل ظبية، فلما أخذها أنشد:

فـمـالـكِ يـا شبيهـةَ أمِّ عـمـروٍ | إذا عـايـنـتـنـا لا تـأمـنـيـنـا
فـعينُـك عـينُـهـا إذ تـنـظرينـا | وجيـدُك جيـدُهـا لـو تنـطقينـا[2]
وسـاقـك سـاقـهـا ولأمِّ عـمـروٍ | خـدلّجـةٌ يضيقُ بهـا البـرينـا[3]
ورأسُـك أزعـر ولأمِّ عـمـروٍ | غـدائـرُ ينعفـرنَ وينثنينـا[4]

ثم خلا منها فبلغ ذلك أم عمرو، فواصلته، وكان رسوله إليها أبو ذؤيب، فلما أينع وترعرع، رغبت إليه، واطرحت وهباً، وخشي أبو ذؤيب الفضيحة، فقصر عنها وجعل يرسل إليها خالد بن إبراهيم فلم تلبث أن علقت خالداً وتركت أبا ذؤيب، فجعل أبو ذؤيب يعاتب خالداً، مثل قوله[5]:

فنفسـكَ فـاحفـظهـا ولا تُبْـدِ للعـدى | من السـرِّ مـا يُـطوَى عليـهِ ضميـرُهـا
رعى خـالـدٌ سـرِّي ليـاليَ نفسُـهُ | تـوالى على قصـدِ السبيـلِ أمـورهـا
فـلمـا تـراماهُ الشـبـابُ وغـيّـهُ | وفي النفس منـهُ غَدرة ونحـورهـا[6]
لـوى رأسـهُ عـنـي ومـال بـودِّهِ | أغـانيجُ خَـوْدٍ كـان فينـا يـزورهـا[7]
تـعـلقـهُ مـنـهـا دلالٌ ومُـقـلـةٌ | تَـظلُّ لأصحـاب الشقـاءِ تُـديـرهـا
ومـا أنـفسُ الـفـتـيـانِ إلا قـرائـنُ | تبِيـنُ ويبـقى هـامُـهـا وقبـورُهـا[8]

فأجابه خالد[9]:

لا يـبـعـدن الله حـلـمـك إذ غـزا | وسـافـرَ والاحـلام جمٌّ عثـورُهـا
لـعلك إمـا أمُّ عـمـرو تـبـدلـت | سـواك خليـلاً شـاتمي تستخيـرهـا

---

(١) الأغاني: ٢٧٦/٦.

(٢) «تنظرينا» غير موجودة في الأصل.

(٣) «ساقها» غير موجودة في الأصل.

(٤) رأس أزعر: قليل الشعر.

(٥) الشعر والشعراء: ٥٤٨/٢.

(٦) في الشعر والشعراء: «غدرة وفجورها».

(٧) خود: شابة. وفي الشعر والشعراء: «كان قِدماً يزورها».

(٨) في الشعر والشعراء: «وتبقى هامها».

(٩) الشعر والشعراء: ٥٤٨/٢. وخالد في الشعر والشعراء هو خالد بن زهير ابن اخت أبي ذُؤيب. انظر الأغاني ايضاً: ٢٧٦/٦.

فلا تجزعن من سنةٍ أنت سرتها ... فأول راضيُ سنة من يسيرها

وهذا جواب لا نرى أقطع منه، لأنه ذكر أنه إنما جوزي بمثل فعله:

فإن التي فينا زعمتَ ومثلها ... لفيك ولكنني أراك تجوزُها(١)
ألم تتنقذها من ابنِ عُويمر ... وأنت صَفيٌّ نفسه وسجيرُها
فان يك يشكو من قريب مخانة ... فتلك الجوازي عَقبها ونُصورها(٢)

وفيه يقول أبو ذؤيب:

يُرى ناصحاً فيما بدا فإذا خلا ... فذلك سكينٌ على الحلق حاذقُ

ثم إن وهباً بعث ابنه عمراً، فوهب لها ذات يده، فواصلته، وكان لعمرو علانيتها، ولخالد سرها، فجاء خالد ليلاً، وعمرو معها، على شراب فقتله وهرب، فبلغ الخبر وهباً، فركب في جمع، فتبعوه حتى لحقوه فقتلوه، فقال أبو ذؤيب يرثيه:

لعمرو أبي الطيرِ المرية غدوة ... على خالدٍ أن قد وقعنَ على لحمِ
كليه وربي لن تعودي بمثله ... عشيةَ لاقته المنيةُ بالردم
فإنك لو أبصرتِ مصرعَ خالدٍ ... بجنب الستارَ بين أظلم فالحزم
علمت بأن النابَ ليست رزيه ... ولا البكر لاضمت يداك على غنم
ضَروب لهامات الرجالِ بسيفهِ ... إذا التفت الأبطالُ مجتمعَ الحزمِ(٣)

ومن قديم العتاب الممزوج بالشكوى قول جميل(٤):

لحى اللّهُ من لا ينفعُ الودُّ عندهُ ... ومن حبلهُ إن مُدَّ غير متينِ
ومن هو إن تحدث له العينُ نظرةً ... تقصب لها أسباب كل قرين
ومن هو ذو لونينِ ليس بدائم ... على العهدِ خوانٌ لكل أمين
ومن هو عند العينِ أما لقاؤهُ ... فحلوٌ وأما غيبهُ فظنون

وكتب بعض الكتاب: لو كنت أعلم أنك تعتب، إذا عاتبتك، سلكت في ذلك مذهباً، لا أبلغ فيه القصوى، ولا اقتصر على الأدنى، ولا أخليتك من الاستزادة في غير شكوى، والتعريف في غير تعنيف، والاحتجاج في غير تنكيت ولا توقيف، ولكن شر القوم ما لا يسمع، وليس لقائله فيه منتفع، وأشبه البر بالعقوق، ما استكرهت عليه النفوس، وقد قال الشاعر:

وليس بمغن في المودةِ شافعٌ ... إذا لم يكن بينَ الضلوعِ شفيعُ

---

(١) تجوزها: تعدل عنها.
(٢) في ديوانه: « وان كنت تشكو من خليل مخانة».
(٣) هامات: جمع هامة: رأس.
(٤) جميل بن عبدالله بن معمر، من العشّاق، صاحبته بثينة. توفي سنة ٨٢ هـ والأبيات في ديوانه: ٩٤.

وكتب الكرخي: قد واصلت أياماً تباعاً غدوّاً إليك ورواحا[1]، حتى ملني البكور، وسئمني التهجير[2]، وشكاني الطريق، ولحاني الصديق، في كل ذلك أعاق بالحجاب، وتستقبلني ردة البواب:

ولا خيرَ في ودِّ امرىء متكارهٍ عليك ولا في صاحبٍ لا توافقُه

وهذا ذرء[3] عتاب جاش به الصدر، وضاق عن كتمانه الصبر، فإن عطفك حفاظ، فأهل الفضل والبر أنت، وإلا فإني على العهد الذي بيننا، ولا أقول كما قيل:

فما ملني الإنسانُ إلا مللتهُ ولا فاتني شيءٌ فظلت له أبكي

ولا أقول كما قيل:

وإني على عهدِ الأخلاءِ دائم ولستُ إذا مالَ الصديقُ على حرفِ
إذا أنا لم أصفح وأغضض على القذى فلا انبسطتُ في الحادثاتِ إذاً كفى[4]

ومن ألطف الكلام، قول بعض الكتاب:

أنفذ إليّ أبو فلان كتاباً منك، فيه ذرء عتاب، كان أحلى عندي من تعريسة الفجر، وألذ من الزلال العذب، فلك العتبى ولبيك وسعديك داعياً مستجاباً له، وعاتباً معتذراً إليه، ولو شئت مع ذلك أن أقول: إن العتب عليك أوجب، والاعتذار لك ألزم لقلت، ولكني أسامحك ولا أشاحك، وأسلم لك ولا رادك، لأن أفعالك عندي مرضية، وشيمك لديّ مقبولة، ولولا أن للحجة موقعها، لقصرت العنان عما أجريت إليه من هذا العتاب، وكففت اللسان عما أطلقته فيه من مر الخطاب.

وقلت:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمُ وتذنبونَ فنأتيكم ونعتذرُ

ولا ترى كلاماً ألطف من هذا ولا أحسن في معناه. وكتب بعضهم لست أقتضى الوفاء بكثرة الالحاح فأثقل عليك، ولا أقابل الجفاء بترك العتاب فأغتنم القطيعة منك، والمثل السائر ويبقى الود ما بقي العتاب».

وقلت:

أمنعاً إذا جئتكمْ أستعيرُ فكيفَ إذا جئتُ أستوهبُ
ومثلي إذا كان في مَعشرٍ فللعزِّ عندَهُم منكب
يُقرِّب مثلي إذا ما نأىَ ويكرمُ مثلي إذا يقرب
عتبتك للودِّ لا للقلى وواصلْ صديقاً ما تعتب[5]

---

(١) الغدو: الذهاب صباحاً. الرواح: الذهاب عند الظهيرة.

(٢) التهجير: نصف النهار واشتداد الحر.

(٣) ذرء عتاب: شيء منه.

(٤) القذى: ما يقع في العين.

(٥) القِلى: البغض.

وما يجري مع هذا الباب قول الآخر:

إذا رأيتُ أزوراراً من أخي ثقةٍ ضاقتْ عليَّ برحبِ الأرضِ أوطاني
فإن صَدَدْتُ بوجهي كي أكافئَهُ فالعين غضبى وقلبي غيرُ غضبانِ

وقد أحسن العباس بن الأحنف[1] في قوله:

كنا نعاتبكم لياليَ عودكم حلو المذاقِ وفيكمُ مستعتبُ
فالآن إذ ظهرَ التعتبُ منكمُ ذهبَ العتابُ وليس عنكم مذهب

ومن مشهور العتاب قولهم:

طال المطالُ فلا خلودَ فحاجةٌ مقضيةٌ أو برٌّ ينفعُ
واعلمْ بأني لا أسرُّ بحاجة إلا وفي عمري بها مستمتع

ومن جيد المعاتبات قولُ أبي تمام في أبي دُلف[2]:

يا أيها الملكُ النائي بغرَّتهِ وجودهُ لمرجِّي جودِه كثبُ
ليس الحجابُ بمقصٍ عنك لي أملاً إنَّ السماءَ تُرجَّى حِين تحتجِبُ
ما دونَ بابك لي بابٌ ألوذُ به وما وراءَك لي مثوىً ومطلبُ

وقوله[3] في أبي سعيد:

لعمرك لليأسُ غيرُ المريثِ خيرٌ من الطمع الكاذبِ
وللريبُ تحصره بالنجاحِ خيرٌ من الأملِ الخائب

وقال يعاتب موسى بن إبراهيم الرافعي في ضنه عنه بجاهه:

سأقطع أرسانَ العتابِ بمنطق قصيرُ عناءِ الفكر فيهِ يطولُ
وانَّ امرأً ضنت يداهُ على امرئٍ بنيلِ يدٍ من غيره لبخيل

أخذه من قول مسلم:

وأحببتُ من حبها الباخلينَ حتى رمقتُ ابن سلم سعيدا
إذا سئل عرفاً كسا وجهه ثياباً من البخل صفراً وسودا[4]
يغارُ على المالِ فعلَ الجوادِ وتأبى خلائقه أن يسودا[5]

وقول[6] أبي تمام:

---

(١) هو العباس بن الأحنف بن أسود بن طلحة الحنفي اليماني، من فحول الشعراء، له غزل فائق. توفي ببغداد سنة ١٩٢ هـ. (سير اعلام النبلاء: ٩/٩٨).

(٢) ابو دلف: القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل من بني عجل أمير شجاع، تقلد أعمال الجبل أيام الرشيد، له مصنفات توفي سنة ٢٢٦ هـ. (الأعلام: ٥/١٧٩). الأبيات في ديوان ابي تمّام: ٢٦.

(٣) ديوان ابي تمّام: ٣٥٢.

(٤) في ديوانه: «ثيابا من اللؤم حمراً وسوداً».

(٥) في ديوانه: «أن يجودا». والأبيات في الشعر والشعراء مع ترجمته: ٥/٧١٦.

(٦) ديوانه: ٣٦٥.

لآل وهبٍ أكفٌّ كلما اجتديتْ ... فعلنَ في المحلِ ما لم تفعل الديمُ
قومٌ تراهم غيارَى دُونَ مجدهم ... حتى كأنَّ المعالي عندهم عرمُ

ومنها:

دنيا ولكنها دنيا سَتنصرم ... وآخرُ الحيوانِ الموتُ والهرمُ

ومنها:

فلا تقل قدمٌ أزرى ببهجتهِ ... لبس العلا طللا يزري به القدمُ

وقد أحسن[1] ابن الرومي وأجاد، في قوله لقوم إستعان بهم فأعانوا خصمه:

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا ... نِبالَ العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خيرَ ناصر ... على حين خذلانِ اليمين شمالها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودتي ... ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا مَوْقفَ المعذور مني بمنزلٍ ... وخلوا نبالي للعدى ونبالها
هي النفسُ إما أن تعيش عزيزةً ... وإلا فغنمٌ أن تزولَ زوالها
عفاءٌ على ذكر الحياة إذا حمت ... على المرءِ إلا رفقها وسمالها

وهذا مثل قوله أيضاً:

عفاءٌ على الدنيا إذا مستحقها ... بغاها ولن يرجى لديه منوعها

وسأل بعض الرؤساء أن يكتب له كتاباً إلى رئيس فقال:

أتبخلُ بالقرطاسِ والخطِّ عن أخ ... وكفاكَ أندى في العطايا من المزنِ
فلا يكن المبذول للوم سمعه ... وقرطاسهُ بينَ الصيانةِ والخزنِ

وهي طويلة.

وقال جحظة يعاتب على شدة الحجاب:

الله يعلمُ أنني لكَ شاكرٌ ... والحرُّ للفعلِ الجميلِ شكورُ
لكن رأيتُ بباب دارك جفوةً ... فيها لصفو صنيعة تكديرُ
ما بال دارك حين تدخلُ جنة ... وبباب دارك منكرٌ ونكير

غيره[2]:

سأترك هذا البابَ ما دامَ إذنه ... على ما أرى حتى يلينَ قليلا
إذا لم أجد يوماً إلى الأذنِ سلما ... وجدتُ إلى تركِ المجيء سبيلا

وقول أبي تمام:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٥/٩٧.

(٢) في وفيات الأعيان؛ ونسبتها لأبي العميثَل: ٣/٩٠. وفي البيت الأول: «حتى يخف». وفي البيت الثاني: «ترك اللقاء سبيلا».

إن السماء ترجى حين تحتجب

مأخوذ من قول الأوَّل:

وأني لأرجوكم على بطءِ سعيكم ... كما في بطونِ الحاملاتِ رجاءُ

وقد أحسن أبو تمام في معاتبة ابن أبي دؤاد واستبطائه إياه في قوله(١):

رأيت العلا معمورةً منك دارها ... إذا اجتمعتْ يوماً وقرَّ قرارُها
وكم نكبةٍ ظلماءَ تحسبُ ليلةً ... تجلى لنا منْ راحتيك نهارها
فلا جارك العافي تناولَ محلها ... ولا عرضك الوافي تناولَ عارها
فلا تمكننَّ المطلَ من ذمةِ الندى ... فبئس أخو الأيدي الكبار وجارها(٢)
فإن الأيادي الصالحات كبارها ... إذا وقعت تحتَ المطالِ صغارها
وما نفع من قد باتَ بالأمسِ صادياً ... إذا ما سماءُ اليوم طالَ انهمارها(٣)
وخيرُ عداتِ المرءِ محتضرَاتها ... كما أنَّ خيرات الليالي قصارها(٤)
وما العرفُ بالتسويف الا كخلةٍ ... تسليتَ عنها حينَ شطَّ مزارها(٥)

وقد أحسن في هذه الأبيات ما شاء، وفي قوله(٦) أيضاً لمالك بن طوق(٧)، وقد حجبه:

قل لابنِ طوقٍ رحا سعدٍ إذا خبطتْ ... نوائبُ الدهرِ أعلاها وأسفلَها
أصبحتَ حاتمها جوداً وأحنفَها ... حِلماً وكيّسها علماً ودغفلَها(٨)
ما لي أرى الحجرةَ الفيحاء مقفلةً ... عني وقد طالَ ما استفتحتُ مقفلَها(٩)
كأنها جَنةُ الفردوسِ معرضةً ... وليس لي عملٌ زاكٍ فأدخلَها

وليس لهذا التمثيل نظير في حسنه وبراعته

وكتب الصاحب أبو القاسم، إلى بعضهم يعاتبه في صغر كتابه إليه:

كتابي وعندي نعم من أعظمها خلوص ودِّك، وبقاء عهدِك، وردَ لي كتاب، حسبته يطير من

---

(١) ديوان ابي تمّام: ٣٥٥. وفي البيت الأول بديوانه: «اجتمعت جأشاً».

(٢) في الديوان: «الأيدي الغزار».

(٣) صادي: عطشان.

(٤) عدات: جمع عِدَة وهي الوعد. وفي الديوان: «عدات الحر».

(٥) في الديوان: «وَما النفع بالتسويف».

(٦) ديوانه: ٢٠٩.

(٧) هو مالك بن طوق بن عتاب التغلبي، امير من الاشراف الفرسان الأجواد تولى إمرة دمشق للمتوكل العباسي. له شعر، توفي سنة ٢٥٩ هـ. (الأعلام: ٥/٢٦٢).

(٨) يشبه الممدوح بحاتم الطائي في الكرم، وبالأحنف بن قيس في الحلم، ويشبهه بدغفل في علم الأنساب.

(٩) في الديوان: «الحجرة البيضاء».

يدي لخفته، ويلطف عن حسي لقلته، وعهدي بك تروي إذا سقيت، وتجزل إذا أعطيت، فما الذي أحالك وبدل حالك: أملال أم كلال أم إقلال؟ وليس عندي أنك تملُّ صديقاً صدوقاً، وشفيقاً شقيقا، ولا عندي أنك تكل، ولو ملأت الأرض كلاماً، وشحنت صفحات الجوِّ نظاما، ولا عندي أنك تقلُّ، وبحر فضلك فياض، وثوب علمك فضفاض، فما أملك وقد نبوت وزهدت وجفوت، إلا أن أصبر على هجرتك، كما تمتعت بصلتك، لتكون عني نسخة أخلاقك إذا قربت وبعدت، ووصلت وصددت، وأكره أن أطيل وقد قصرت، وأكثر وقد أقللت فتسأمني، كما سئمت عادتك، وتتركني وقد تركت شيمتك، فأحب أن تطالعني بأخبارك، وعوارض أوطارك، إن شاء الله تعالى:

إذا أنتَ عاتبتَ الصديقَ ولم يكنْ ... يودُّك لم يعتبك حينَ تعاتبُه

ومن يرعَ شرقيَّ البلادِ سَوامُه ... وغربيها يملكه صاحبه[1]

ومن يخلط الماءَ الزُّلال بآجنٍ ... من الماء تخبث ما تطيب مشاربه[2]

وكتبت جواباً عن كتاب، نقصت فيه من الخطاب:

وقفت على الفصل المؤذن بالجفاء، المشتمل على سوء الجزاء، وعلى ما احتواه من دنيء الخطاب، ووضيع الدعاء، وعجبت كيف حططت الدعاء من رتبته المعروفة، وخفضت الخطاب عن درجته المألوفة، وأنت على منزلتك لم تزدد نقيرا، وأنا في درجتي لم أنقص قطميرا، فكيف لو زدت زادك الله بصراً بمالك وعليك، وأراك من عيبك ما لا يتصور لديك، وكفاك من شر نفسك ما هاصر عليك، من كيد عدوك، وشماتة حسودك، ولا أختار لك أن تتكبر كلما تكبر، وتتجبر كلما تجبر، فقد سمعت ما قال يحيى بن خالد:

من بلغ رتبة فتاه أخبر أن محله دونها، ومن بلغها فتواضع، أعلم أن حقه فوقها، فكيف والأحوال على ما كانت عليه، لم يصر الهلال بدراً، ولا الشبل ليثاً، ولا الغصن ساقا، ولا القطوف معتاقا. والعرب تسمى الكبر تيهاً، وهو الحيرة، لأن صاحبه لا يهتدي لرشاد، ولا يصل إلى سداد، ولو لم يكن إلا التطير من اسمه، دون التحلى بقبح سمته ورسمه، لكان العاقل حقيقاً بتركه وخليقاً برفضه، وقد قيل: ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق، فإياك أن تحرم نفسك بكبرك الذي يضرك ولا ينفعك، ويحطك ولا يرفعك، استفادة الاخوان الذين هم أبلغ في الخير والشر من البيض الحداد، وأحضر عناء في الأمن والخوف من الطرائف والتلاد[3]، فإن ذلك غبن كبير، وحرمان جسيم، وقد قال الأول:

ما بالُ من أولهُ نطفةٌ ... وآخره جيفةٌ يفخرُ

ولبعض بني هاشم وهو الرضى[4] رحمه الله تعالى:

---

(١) في البيت اضطراب.

(٢) الماء الآجن: المتغير.

(٣) التالد: المال القديم الموروث ضده الطارف.

(٤) الرضى: هو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، ابو الحسن، من أئمة اهل البيت وهو الثامن عند =

ولـربَّ مـولى لا يغضُّ جمـاحَـهُ طـولُ العتـابِ ولا عنـاءُ العـذَّلِ
يـطغى عليك وأنت تـلأمُ شعبـه والسيفُ يـأخـذ من بَنـانِ الصَّيقلِ
ضـاقَ الزَّمـانُ فضاقَ فيـه تقلبي والمـاءُ يجمـعُ نفسَـه في الجدولِ

وقال بعضُهم في يزيد بن المهلب[1]:

فـمـن يـلازم الـنـازلـون مـحـله فمنـزلكم لـلحمـدِ والـشكـرِ منـزلُ[2]
رأى النـاسُ فوقَ المجـد مقدارَ مجـدكم فقـد يسـألـوكم فـوقَ مـا كـان يسـألُ
وقـصّـر عـن مسـعـاكُـم كـلُّ آخـرٍ ومـا فـاتـكـم مـمـن تـقـدَّمَ أوَّلُ
بـلغتُ الـذي قـد كـنتُ آمـله لـكـم وان كـنتُ لـم أبـلغ بـكـم مـا أؤمِّـلُ
ومـالـيَ حـقٌّ واجـبٌ غـيـر أنـنـي إلـيكم بكـم في حـاجتي أتـوسَّـلُ
فـان أنـتـمُ أنـعـمـتـمُ وبـررتـمُ فـقـد يستتمُّ النـعمـةَ المـتـفـضـلُ
وان كـنـتـمُ أو لـيـتـمـوني تـفـضـلاً جميـلاً فـان العـودَ بـالفضـلِ أفضـلُ
وكم مُلحفٍ قـد نـالَ منكم رغيبـةً ويـمـنـعـنـا مـن أن نُـلحَّ التـجـمـلُ
وعـودتمـوني قبـل أن أسـأل الغنى ولا يكمـل المعـروفُ والـوجـه يبـذلُ

وقال[3] ابن الرومي:

من الحيفِ تخسيسُ النـوال ومطله فعجـلْ خسيساً أو فـأجِّـل مـوفـرا
وكن نخلةً تُلوي وتُسني عـطاءَهـا وإلا فـكن عَـفـصـاً أقـلّ ويـسـرا

وقال[4]:

يـا شبيـهَ البـدرِ في الحـــــنِ وفـي بُعـد الـمـثـالِ
جُـدْ فقـدْ تنفجـرُ الصخـــرةُ بـالـمـاءِ الـزُّلالِ

وله في المعاتبات ما لا أعرف لغيره ـ قال[5]:

يـا بن الـوزيـر الـذي تمَّتْ وزَارَتـهُ لا تـجـمـعنَّ عـليَّ الـعـارَ والـنـارَا
إن كنتُ أحسنتُ في وصفي مـآثركم فـآثِـروا فـيَّ بـالإحسـانِ آثـارا
وإن أكن قلت مـا لا أستحقُّ بـهِ منكم ثـوابـاً فـردُّوهُ ومـا سـارا[6]

إنَّ المـديـح إذا مـا سـارَ مُنفـردا من الثـوابِ كسى من قـالـهُ عـارا

= الامامية الشيعة. مات سنة ٢٠٣ هـ. (الأعلام: ٥/٢٦).

(١) يزيد بن المهلب بن ابي صُفرة الأزدي، قائد من الأجواد، مات سنة ١٠٢ هـ. (الأعلام: ٨/١٨٩).

(٢) في البيت اضطراب.

(٣) ديوانه: ٣/١٠٣. وفيه: «تخسيس» وفي اصل هذا الكتاب: «تطفيف».

(٤) ديوانه: ٥/٩٧. وفيه «بُعد المنال».

(٥) ديوانه: ٣/١٠٧.

(٦) في الديوان: «او كنت قد قلت ما لا استحق به».

فقد يعزُّ بليغ في بلاغته   وقد يظنُّ سوى المختار مختارا
أسهبتُ فيكم لكي أعلى فطأطأني   تقصيركم بي فقد أزمعت إقصارا
إنَّ السلاليمَ لا تبني أطاولها   يوماً ليهبطَ بانيهنَّ اغوارا
لكنْ ليصعدَ انجاداً تشرُّفُه   حتى يمدَّ إليها الناس أبصارا[١]
وقد هبطتُ بما شيدتُه لكمُ   من حالقٍ ولعلَّ الله قد خارا[٢]
كم هابطٍ صاعدٍ من بعد مهبطه   وغائرٍ منجد من بعد ما غارا[٣]
ثقلتَ في كَفَّةِ الميزان فانكدَرَتْ   تهوي وشالَ خفاف الناس أقدارا[٤]
صبراً فكم ناهضٍ من بعدِ وقعتهِ   يوماً وكمْ واقع من بعد ما طارا
لابني سميرٍ صروفٌ غير غافلةٍ   يحْسنَّ نقضاً كما أحسنَّ امرارا[٥].

وقال[٦]:

وتابع بعد الفتح قوماً سبقتهم   فلِمْ أنا في نُعماكَ ردِفٌ، وهم صدرُ؟
ولم يصفُ من شيءٍ صفاءَ طوِّيتي   فلم شربهم صفوٌ ولم مشربي كدرُ
وما جاء مدحٌ مثلَ مدحيَ فيكمُ   فلم كسبهم مدٌّ ولم مكسبي جزرُ
وما ليَ لا أنفكُّ أنعي مسنداً   ولي منكُم ظهرٌ وما مثلكم ظهرُ
لعمري لقد غوثت غيرَ مقصرٍ   لتجبر من مالي وقد أمكن الجبرُ
وكم قائلٍ أبلغتَ فيما تقوله   فقلت له غنيتُ لو ساعدَ الزَّمرُ

وقلت:

قد كنتَ تولينيَ الحسنى وتُكرمني   وكنت أشكرُ ما تأتي من الحسنِ
فما بدا لك في جُودٍ ومَكرمةٍ   تجري من المجد مجرى الروح في البدنِ
ارجع إلى الحالةِ الأولى فإنّ لنا   شكراً يكونُ لها من أوْفرِ الثمنِ
وحسنَ أحدوثةٍ لو كنتَ تبصرها   حسبتها غُرَّةً في جبهة الزَّمنِ
أزكى منَ المسكِ في أصداغ غانيةٍ   كأنها قمرٌ أوفى على غصنِ[٧]

وللصاحب[٨] بن عباد في الاستزادة والعتاب، أبيات لم يمر بي من شعره أجود منها فمنها:

---

(١) في الديوان · «اله».
(٢) خار لك: [illegible]
(٣) في الديوان: «بعد هبطته».
(٤) في الديوان: «القوم اقدارا».
(٥) ابنا سمير: الليل والنهار.
(٦) ديوان ابن الرومي: ٢٠٨/٣.
(٧) الغانية: الشابة الحسناء.
(٨) الصاحب: هو الوزير، العلامة، الأديب، الكاتب، ابو القاسم اسماعيل بن عبّاد بن عبّاس الطالقاني. وزير

سيشهدُ أبناءُ المفاخرِ كلهم   بأنّ مضيعَ الأكرمينَ مُضيّعُ
يزعزعك الواشونَ عن حومةِ العلا   وكان بعيداً أن يزعزعَ لعلع

وقد طرف البحتري في قوله[1] يستبطىء محمد بن العباس الكلابي:

المئةُ الدنيارِ منسيةٌ   في عِدَةٍ أشبعتها خلفا
لا صدقَ إسماعيل فيها ولا   وفاء إبراهيم إذ وفى
إن كنت لا تنوي نجاحاً لها   فكيفَ لا تجعلها ألفا

وقوله[2]:

عمرتَ أبا إسحاق ما صلح العمرُ   ولا زال مَزهواً بآبائك الدَّهرُ[3]
فأنتَ ندى نحيا به حيث لا ندى   وقطرٌ يرجَّى جودُهُ حيثُ لا قطرُ
على أنني بعدَ الرِّضا مُتسخطٌ   ومستعتبٌ من خطةٍ سهلها وعرُ
وقد أوحشتني ردَّةٌ لم أكن بها   بأهلٍ ولا عندي بتأويلها خبرُ
فلم جئت طوعَ الشوقِ من بعد غايتي   إلى غيرِ مشتاقٍ ولم رَدّني بشرُ
وما باله يأبى دخولي وقد رأى   خروجيَ من أبوابِه ويدي صفرُ

ومن جيد ما قيل فس حسن الاقتضاء قول أبي تمام[4]:

وإذا المجدُ كان عوني على المر   ءِ تقاضيتهُ بتركِ التقاضي

وقول الآخر:

أروح بتسليم وأغدو بمثله   وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وفي خلاف ذلك قول بعضهم:

ثقتي بكرمك تمنع من اقتضائك، وعلمي بشغلك يحدو على اذكارك.

ومما يجري مع هذا الباب قول الآخر:

أنتَ أمضى من أن تحرِّكَ للمجـ   ـدِ ولكنْ شراهةُ الشعَراءِ

وفي خلاف ذلك قول الآخر:

أروحُ وأغدو نحوكم في حوائجي   فأصبحُ منها غدوةً كالذي أمسى
وقد كنتُ أرجو للصديقِ شفاعتي   فقد صرتُ أرضى أن أشفعَ في نفسي

وقول الآخر:

الملك مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة. مات سنة ٣٨٥ هـ. وله مصنفات. (سير اعلام النبلاء: ١٦/٥١١).

(١) ديوانه: ١/٢٤٧ ص.

(٢) ديوانه: ١/٢٠٨ ع.

(٣) في الديوان: «بأيامك الدهر». وأبو اسحاق: هو ابراهيم بن المدبر.

(٤) ديوان ابي تمّام: ١١٦.

وللمـوتَ خيـرٌ من حيـاةٍ زهيـدةٍ   ولَلمنـعُ خيـرٌ من عـطاءٍ مكـدَّرِ

ومن مليح الاستبطاء ما كتبَ بعضهم:

كتابي ليس باستبطاء، وامساكي ليس باستغناء، ولكن كتابي تذكرة لك، وامساكي ثقة بك.

وكتب عثمان إلى علي رضي الله تعالى عنهما:

أما بعد فقد بلغ الماء المزبى، والحزام الطبيين، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه:

فـإن كنتُ مـأكـولاً فكن خيرَ آكـل   وإلّا فـأدركـني ولـمـا أمـزَّق[1]

ومما جاء في ذم العتاب، قول بعض الحكماء:

العتاب رسول الفرقة وداعي القلى وسبب السلوان وباعث الهجران. وقال بعضهم: العتاب التجني، والتجني ابن المحاجة، والمحاجة أخت العداوة، والعداوة أم القطيعة. وقال بعضهم: سبيل من يأخذ على أيدي الأحداث، أن لا يكدرهم بالتوبيخ، لئلا يضطروا إلى القحة. وقال غيره: العتاب داعية الاجتناب، فإذا انبسطت المعاتبة انقبضت المصاحبة. وقال آخر: حرك إخوانك ببعض العتاب لئلا يستعذبوا أخلاقك، وأغض عن بعض ما تنكر منهم لئلا يوحشهم إلحاحك. وهذا أقصد ما قيل في هذا المعنى.

وكتبت في فصل لي:

العتاب مقدمة القطيعة، وطليعة الفرقة، فتجنبه قبل أن يجنبك حظك من السرور، برؤية أحبابك، وانتقل عنه قبل أن ينتقل بك عن مقر غبطتك، بمشاهدة أودائك، وإن لم تجد منه بداً، فاقتصد فيه ولا تكثر منه، فإن الكثير من المحبوب مملول، فكيف من المكروه، والاقتصاد في المحمود ممدوح فكيف من المذموم.

وقال[2] ابن الرومي:

أرَفِّـه مـا أرَفِّـهُ في التقـاضي   وليسَ لـديكَ غيـرُ المطلِ نقـدُ
خـلا وعـدٍ مـددت إليـهِ كفي   فـأعـرضَ دونـهُ مـطلٌ يُمـدُّ[3]
إذا إنـجـازُ وعـدِكَ كـانَ وعـداً   فـيكفيني مـن الـوعـدينِ وعـدُ

وقال:

سـألتُ قفيـزين مـن حنـطةٍ   فجـدتَ بكـرٍّ من المنـعِ وافِ[4]
وأتبعتَ منعَـكَ لي بـالحجـابِ   مهـلاً هُديتَ ففي المنـعِ كـافِ

---

(١) في طبقات ابن سلام ونسبته إلى الممزق العبدي. الطبقات: ١/٢٧٤.

(٢) ابن الرومي: ٢/٢٧٦.

(٣) في الديوان: «مددت إليه عيني».

(٤) الديوان: ٤/٢٣٥. والقفيز: مكيال للحبوب.

كـأنـي سـألتُـكَ حَـبَّ الـقـلوبِ ذاك الـذي مـن وراءِ الـشـغـافِ

وقد أجاد الآخر حيث يقول:

وكنْ عنـدَ مـا نـرجـوهُ منـك فـإننـا جميعـاً لمـا أوْليتَ من حسنٍ أهـلُ
ولا تَعتـذرْ بـالشغـلِ عنـا فـإنمـا تناطُ بك الآمـالُ ما اتَّصـلَ الشغلُ

الفصل الثاني من الباب الثالث في الهجاء

قالوا: أهجى بيت قالته العرب قول[1] جرير:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا أبو عثمان عن التوزي، عن أبي عبيدة، عن يونس، قال: قال عبد الملك بن مروان يوماً وعنده جلساؤه: هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعر ودوا أنهم افتدوا منه بأموالهم، وشعر لم يسرهم به حمر النعم؟ فقال أسماء بن خارجة: نحن يا أمير المؤمنين، قال وما قيل فيكم؟ قال قول الحارث بن ظالم[2]:

وما قومي بثعلبة بن سعدٍ ... ولا بفزارة الشعر الرِّقابا[3]

فوالله يا أمير المؤمنين، إني لألبس العمامة الصفيقة، فيخيل لي أن شعر قفاي قد بدا منها.

وقول قيس بن الخطيم[4]:

هممنا بالإقامةِ ثم سرنا ... مسيرَ حُذيفة الخيرِ بن بدرِ

فما يسرنا أن لنا بها أو به سود النعم. فقال هانىء بن قبيصة أولئك نحن يا أمير المؤمنين، قال ما قيل فيكم؟ قال قول[5] جرير:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

والله لوددنا أننا افتديناه بأملاكنا، وقولُ زياد الأعجم:

لعمرك ما رماحُ بني نميرٍ ... بطائشة الصدور ولا قصار

فوالله ما يسرنا به حمر النعم. قال أبو بكر وذكر أن جريراً لما قال:

---

(١) ديوانه: ٦٣.

(٢) الحارث بن ظالم بن غيظ المري، من فتّاك الجاهلية، مات سنة ٢٢ ق. هـ.

(٣) ثعلبة بن سعد، وفزارة من بطون العرب.

(٤) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس ومن شجعانهم في الجاهلية. قتل سنة ٢ ق. هـ. (الأعلام: ٥/٢٠٥). والبيت في ديوانه: ١٨٢.

(٥) ديوان جرير: ٦٣.

والتغلبيُّ إذا تنحنحَ للقرى حكَّ استهُ وتمثَّلَ الأمثالا[1]

قال: قد قلت بيتاً فيهم لو طعن أحد في استه لم يحكها.

وأخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: مرت امرأة ببني نمير فتغامزوا إليها، فقالت: يا بني نمير لم تعملوا بقول الله تعالى ولا بقول الشاعر. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلمؤْمِنينَ يَغضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾.

ويقول الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير

فخجلوا وكان النميري إذا قيل له ممن أنت؟

قال من نمير فصار يقول: من بني عامر بن صعصعة.

ولو قيل: إن أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو[2]:

ولو تُرمى بلؤم بني كليب تجومُ الليلِ ما وضحتْ لساري

ولو يُرمى بلؤمهم نهارٌ لدنَّسَ لؤمهُم وضحَ النهارِ[3]

وهذا مثل قول الآخر:

ولو أنَّ عبدَ القيس ترمي بلؤمها على الليل لم تبدُ النجومُ لمن يرى

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول[4] الأعشى:

تبيتونَ في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثَى يبتنَ خمائصا[5]

وكان من حديث هذا الشعر، أن عامر بن الطفيل بن مالك، وعلقمة بن علاثه، تنازعا الزعامة فقال عامر: أنا أفضل منك، وهي لعمي ولم يمت - وعمه عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب وكان قد اهتز وسقط - وقال علقمة: أنا أفضل منكَ أنا عفيف وأنت عاهر، وأنا وفيّ وأنت غادر، وأنا ولود وأنت عاقر، وأنا أدنى إلى ربيعة. فتداعيا إلى هرم بن قطبة[6] ليحكم بينهما، فرحلا إليه ومع كل واحد منهما ثلثمائة من الإبل، مائة يطعمها من تبعه، ومائة يعطيها الحاكم، ومائة يعقرها إذا حكم. فأبى هرم ابن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر، وأبيا أن يرحلا فخلا بعلقمة وقال له: أترجو أن ينصرك رجل من العرب على عامر، فارس مضر أندى الناس كفاً، وأشجعهم لقاءً، لسان رمح عامر أذكر في العرب من الأحوص، وعمه ملاعب الأسنة[7] وأمه كبشة

(١) الأست المؤخرة.

(٢) البيتان في ديوانه: ٣٠٥. وفي عيون الأخبار: نسبهما إلى البعيث.

(٣) في الديوان: «ولو لبس النهار بنو كليب».

(٤) ديوان الأعشى: ١٤٩.

(٥) غرثى: جائعات. خمائص: ضامرات البطون.

(٦) هرم بن قطبة بن سيّار الفزاري، من قضاة العرب في الجاهلية، مات بعد سنة ١٣ هـ. (الأعلام: ٨/٨٣).

(٧) ملاعب الأسنّة: عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، أبو براء. فارس قيس، من أبطال الجاهلية. مات سنة ١٠ هـ.

بنت عروة الرحال، وجدته أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء [1]، وأمك من النخع وكانت أمه مهيرة وأم علاثة من النخع، ثم خلا بعامر، فقال له: أعلى علقمة تفخر أأنت تناوئه؟ أعلى ابن عوف بن الأحوص أعفّ بني عامر وأحلمه وأسوده وأنت أعور عاقر مشؤوم، أما كان لك رأى يزعك عن هذا، أكنت تظن أن أحداً من العرب ينصرك عليه. فلما اجتمعا، وحضر الناس للقضاء، قال أنتما كركبتي البعير، فرجعا راضيين. والصحيح أنه توارى عنهما ولم يقل شيئاً فيهما، ولو قال أنتما كركبتي الجمل، لقال كل منهما أنا اليمنى فكان الشر حاضراً. ولقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما بعد ذلك: لمن كنت حاكماً لو حكمت؟ فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، فلو قلتها لعادت جذعة. فقال عمر صدقت مثلك فليحكم. فارتحلوا عن هرم لما أعياهم نحو عكاظ، فلقيهم الأعشى منحدراً من اليمن، وكان لما أرادها قال لعلقمة: اعقد لي حبلًا، قال: أعقد لك من بني عامر قال: لا تغني عني قال: فمن قيس قال لا قال: فما أنا رائدك. فأتى عامر بن الطفيل، فأجاره من أهل السماء والأرض، فقيل له: كيف تجيره من أهل السماء؟ قال ان مات وديته، فقال الأعشى لعامر أظهر انكما حكمتماني، ففعل، فقام الأعشى فرفع عقيرته في الناس فقال[2]:

حكمتموهُ فقضى بينكمْ ... أبلج القمر القمر الزَّاهرِ
لا يأخذُ الرَّشوةَ في حكمه ... ولا يبالي غَبنَ الخاسرِ

علقمُ ما أنتَ إلى عامرِ ... الناقضِ الأوتارَ والواترِ
واللامسِ الخيلَ بخيلٍ إذاً ... ثارَ عجاجُ الكَّبةِ الثائرِ
ساد وألفى رهطه سادةً ... وكابراً سادوك عن كابرِ

وشد القوم على الإبل المائة فعقروها وقالوا[3] عامر وذهبت به الغوغاء وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك فجعل يتهدد الأعشى فقال الأعشى[4]:

أتاني وعيدُ الخوص من آل جعفرٍ ... فيا عبدَ عمروٍ لو نَهيتَ الأحاوصا
فما ذنبنا أن جاشَ بحر ابن عمكمٍ ... وبحرك ساجٍ لا يُواري الدَّعامصا[5]
كلا أبويكم كانَ فرع دعامةً ... ولكنهم زادوا وأصبحتَ ناقصا
تبيتونَ في المشتى ملاءً بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتنَ خمائصا[6]

---

(١) فارس الضحياء: عمرو بن عامر بن ربيعة بن صعصعة. جد جاهلي من عدنان. (الأعلام: ٥/ ٧٩).
(٢) ديوان الأعشى: ١٣٩.
(٣) فراغ في الأصل.
(٤) ديوانه: ١٤٩.
(٥) الدعامص: جمع الدعموص، وهي الدودة، وكذلك الزوار للملوك والسائح.
(٦) خمائص: جمع خميص: ضامر البطن.

يـراقـبـن مـن جـوع خـلالَ مـخـافـةٍ   نجـومَ العشاءِ القـائمـاتِ القـوامصـا[1]
رميٍ بـك في أخـراهمُ تـركـك النـدى   وفـضـل أقـوامـاً عليـك مـراهـصـا[2]
فعضَّ حـدَيـدَ الأرض ان كنت سـاخـطاً   بفيـك وأحجـارَ الكـلابِ الـرواهصـا[3]

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة في العار.

والعرب تعير بالبكاء، قال مهلهل[4]:

يبكى علينـا ولا نبكي عـلى أحـدٍ   لـنحنُ أغـلظُ أكـبـاداً مـن الإبـلِ

وقال[5] جرير:

بـكى دوبـلٌ لا يـرقـأُ الله دمـعَـهُ   ألا إنـمـا يـبـكـي مـن الـذلِّ دوبـلٌ[6]

وكان الحطيئة مع علقمة وليد مع عامر[7] فقال الحطيئة[8]:

يـا عـام قـد كنت ذا بـاعٍ ومكـرمـةٍ   لـو أنَّ مسعـاةَ من جـاريتَـهُ أَمَـمُ
جـاريت قرمـاً أجـادَ الأحَـوصـان بِـه   ضخم الدسيعة في عِـرنينِهِ شَمَم[9]
لا يصعبُ الأمـرُ إلا حيث يـركبُـه   ولا يبيتُ على مـالٍ لـه قَسَمُ[10]

وقال:

فما ينظر الحكامُ في الفصلِ بعـدما   بـدا واضـحٌ ذو غُـرَّةٍ وحُـجُـولِ[11]

وهاتان القصيدتان جيدتان بارعتان في معنيهما، ولكن الناس استخفوا قول الأعشى:

عـلقـم لا لـسـت إلـى عـامـر

فمر على ألسنتهم وسقط شعر الحطيئة.

أخبرنا أبو علي بن أبي جعفر، أخبرنا جعفر بن محمد، حدثنا أبو عبيدة العسكري، حدثنا

---

(١) القوامص: المتحركات. قمص البحر بالسفينة: حرّكها.
(٢) المراهص: المراتب.
(٣) الأحجار الرواهص: التي تنكب الدواب.
(٤) مهلهل: عدي بن ربيعة بن مرة، ابو ليلى، من الشعراء الجاهليين الشجعان. وهو من اول من هلهل الشعر. مات سنة ١٠٠ ق. هـ. (الأعلام: ٤/ ٢٢٠).
(٥) ديوان جرير: ٣٦٦.
(٦) دوبل: حمار.
(٧) هكذا في الأصل.
(٨) ديوانه: ٩٥.
(٩) في الديوان: «جَزْل المواهب، في عرنينه» . . . والأحوصان: احدهما الأحوص بن جعفر بن كلاب واسمه ربيعة. وثانيهما: عمرو بن الأحوص. والد سيعة: العطية. العرنين: البيت المنيع.
(١٠) في الديوان: «إلا ريث يركبه».
(١١) الديوان: ٩٤. وفيه: «بالفضل بعدما» . . .

محمد، يعني ابن الوليد، حدثنا أبو زكريا عن الأصمعي، قال: قال عبد الملك ابن مروان لأمية مالَكَ وللشاعر إذ يقول[١]:

إذا هتفَ العصفورُ طارَ فؤادهُ ... وليثُ حديدُ النابِ عند الثرائدِ

قال: أصابه حد من حدود الله تعالى فأقمته عليه، قال: فهلا درأته عنه بالشبهات؟ قال: كان أهون عليّ من أن أعطل حداً من حدود الله تعالى، فقال: يا بني أمية أحسابكم أحسابكم، أنسابكم أنسابكم، لا تعرضوا للهجاء فإن للشعر مواسم لا يزيدها الليل والنهار إلا جدة والله ما يسرني اني هجيت ببيت الأعشى حيث يقول[٢]:

تبيتونَ في المشتى ملاءً بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ولي الدنيا بحذافيرها، ولو أن رجلاً خرج من عرض الدنيا، كان قد أخذ عوضاً لقول[٣] ابن حرثان:

على مكثريهم حَق من يعتريهم ... وعندَ المقلينَ السماحةُ والبذل

هكذا رواه لنا والبيت لزهير.

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب[٤] قول الحطيئة في الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها ... وأقعد فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي

وأخبرني أبو أحمد، سمعت بعض الشيوخ يقول: اجتمع مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد وجعفر بن أبي وزة، في مسجد الكوفة، فامتروا في أهجى بيت قالته العرب ثم اتفقوا على قول الفرزدق في جرير:

أنتم قرارةُ كلِّ معدنِ سَوءةٍ ... ولكلِّ سائلةٍ تسيلُ قرارُ[٥]

أخذه أبو تمام فقال[٦]:

وكانت زفرةُ ثمّ أطمأنت ... كذاك لكلِّ سائلةٍ قرارُ

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب قول[٧] الأخطل لجرير:

ما زال فينا رباطُ الخيلِ معلمة ... وفي كليبٍ رباطُ اللؤمِ والعارِ

قومٌ إذا استنبحَ الأضياف كلبهم ... قالوا لأمهم: بولي على النارِ

---

(١) في الأصل: «لابنه». وفي الأمالي: أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

(٢) البيت في الأمالي: ٢/١٥٧. والشاعر: حُرثان بن عمرو. وفي الأمالي: «إذا صوت».

(٣) ديوانه: ١٤٩.

(٤) البيت في ديوان زهير: ٦٢. وفي الأغاني: «رزق من يعتريهم».

(٥) ديوانه: ١٠٥.

ديوان الفرزدق: ٣٢٣. وفيه: «مدفع سوءة»، «ولكل دافعةٍ». وقرارة: مجتمع الماء في باطن الأرض.

(٦) ديوانه: ١٢٤. وفيه: «وكانت لوعة».

(٧) ديوانه: ١٦٦.

قالت بنو تميم: ما هجينا بشيء هو أشد علينا من هذا البيت. وهو يتضمن وجوها شتى جعلهم بخلاء بالقرى، وجعل أمهم خادمتهم، يأمرونها بكشف فرجها، وجعلهم يبخلون بالماء، أن يطفئوا به النار، فيأمرونها بأن تطفئها ببولها بينهم وبين المجوس لتعظيم المجوس النار، إلى غير ذلك، وان نارهم من قلتها كانت تطفئها ببولها.

وقالت بنو مشاجع ما هجينا بشعر أشد علينا من قول جرير:

وبـر حـرحـانَ غـداةَ كبـْـلَ معبـد نكحتْ نسـاؤهُم بغيـرِ مهـورِ[1]

وقالت بنو كليب ما هجينا بشعر أشد علينا من قول الفرزدق:

ألـستَ كـليبيـاً إذا سيـمَ سـوءةً أقـرَّ كـإقـرارِ الحـليلةِ لـلبعـلِ

وقالوا بل أهجى بيت قالته العرب قول الطرماح[2]:

تـميـمٌ بـطرقِ اللؤمِ أهـدى من القـطا ولـو سلكت سُبـلَ المكـارمِ ضلْتِ

وقال بعض الشيوخ: لو أن هذا البيت لجرير أو لمن في طبقته، لحكم على جميع ما في معناه وبعده وهو أبلغ ما قيل في الاحتقار والتقليل والجبن:

ولـو أن حـرقـوصـاً على ظهـرِ نملةٍ تشـدُّ على صفي تـميـمٍ لَـوَّلتِ[3]
ولـو جمعت يـومـاً تميمٌ جُمـوعَهـا عـلى ذرةٍ مـعـقـولـةٍ لاستـقـلتِ
ولـو أنَّ أمَّ الـعنكـبـوتِ بنتْ لـهـا مـظلتها يـومَ النـدى لاستـظلتِ[4]
ولـو أنَّ بـرغـوثـاً يـزقق مسكـه إذا نـهلت مـنـه تـمـيم وعـلتِ[5]

وأبلغ ما قيل في الخمول قوله أيضاً:

لـو كان يخفى على الرحمٰن خافيـةٌ من خلقـهِ خَفيتْ عنـهُ بنـو أسـدِ
قـومٌ أقـامَ بـدارِ الـذُّلِّ أولـهـم كمـا أقـامت عليه جـذمـةُ الـوتـدِ

وقال ابن الأعرابي: قال أبو عمرو بن العلاء: أحسن الهجاء ما تنشده العاتق في خدرها،

---

(١) ديوان جرير: ٢٠٢ وفيه:

تـرى شـرط الـمـعـزى مـهـور نـسـائـهـم وفـي قـزم الـمـعـربـى لـهـن مـهـور

حرجان: اسم جبل. وشَرَط المال: أخسه.

(٢) الطرماح: هو ابن حكيم بن الحكم، شاعر اسلامي من طيء، ومن الفحول، كان على مذهب الأزارقة، وكان هجّاءاً، مات سنة ١٢٥ هـ. (الأعلام: ٣/٢٢٥). والبيت وما يليه في الشعر والشعراء: ٢/٤٩٠. وفي ديوانه: ١٣١.

(٣) في الشعر والشعراء:

ولـو أن بُـرغـوثـاً عـلى ظـهـر نـمـلة تشدّ...

(٤) في الشعر والشعراء: «... الندى لا كنت».

(٥) في الشعر والشعراء:

ولـو أن حـرقـوصـاً... إذن نـهـلت...

وهذا البيت ليس في ديوانه.

فلا يقبح بها مثل قول[1] أوس:

إذا ناقة شعرت برحل ونمرقٍ ... إلى حَكَمٍ بعدي فضلّ ضلالُها

وقال ابنٍ الأعرابي: وأنا أقول مثل قول[2] جرير

ولو أنّ تغلبَ جَمعتْ أحسابها ... يوم التفاخرِ لم تزنْ مثقالا

وقيل أهجى ما قالته العرب قول الأعرابي:

اللؤم أكرمُ من وبر ووالدهِ ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

قومٌ إذا جرّجانٍ منهم أمنوا ... من لؤم أحسابِهم أن يقتلوا قودا[3]

وقال النجاشي[4] في بني العجلان:

قبيلة لا يغدرونَ بذمةٍ ... ولا يظلمون الناسَ حبّة خردلِ

ولا يردون الماءَ إلا عشيةً ... إذا صَدَرَ الورَّادُ عن كلِّ منهلِ

فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب فقال ما قيل فيكم؟ فأنشدوه:

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ورقةٍ ... فعادى بني العجلانِ رهطَ ابن مقبلِ

فقالَ عمر إن كان مظلوما استجيبَ له، قالوا وقد قال:

قبيلة لا يغدرونَ بذمةٍ ... ولا يظلمونَ الناسَ حبةَ خردلِ

فقال: ليت آل الخطاب هكذا. قالوا: وقد قال:

ولا يَردونَ الماءَ إلا عشيةً ... إذا صدَر الوُرَّادُ عن كلِّ منهلِ[5]

قال عمر: ذاك أقل للكاك - يعني الأزدحام، قالوا: وقد قال:

تعاف الكلاب الضارياتُ لحومهم ... ويأكلنَ من عوفٍ وكعبٍ ونهشلِ

قال أحيا القوم قتلاهم ولم يضيعوهم، قالوا وقد قال[6]:

وما سُميَ العجلان إلا لقيلهم ... خُذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجل

فقال عمر: خير القوم خادمهم، ثم بعث إلى حسان فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم، فتهدد النجاشي وقال إن عدت: قطعت لسانك.

وكانوا يتمدحون بتقديم الورد، وكان أعزهم أسبقهم إلى الماء بإبله ومثل قوله:

تعاف الكلابُ الضارياتُ لحومهم

---

(١) ديوان اوس بن حجر: ١٠٠. وفيه: «ناقة شدت».

(٢) ديوان جرير: ٣٦٣. وفيه: «التفاضل».

(٣) في الأصل: «إذاجرّ جانيهم أمنوا».

(٤) النجاشي: قيس بن عمرو بن مالك من بني الحارث بن كعب، شاعر هجّاء مخضرم، قيل إنه كان فاسقاً. توفي سنة ٤٠ هـ. (الأعلام: ٥/٢٠٧). والبيتان في العقد الفريد: ١٧/٣، وقالهما في رهط تميم بن مقبل.

(٥) الوُرّاد: طالبو الشرب. المنهل: مورد الماء.

(٦) البيت للنجاشي في العقد الفريد: ١٧/٣.

قول[1] البحتري:

وردَّدتُ العتابَ عليك حتى ... سئمت وآخر الودِّ العتابُ

وهانَ عليك سخطي حينَ تغدو ... بعرضٍ ليسَ يأكلهُ الكلاب

ومن التناهي في الاحتقار والخمول قول[2] بعضهم:

قالوا! الأشاقر تهجوهمْ فقلت لهم ... ما كنتُ أحسبهم كانوا ولا خلقوا

قومُ من الحسبِ الزاكي بمنزلةٍ ... كالفقعِ بألقاعِ لا أصلٌ ولا وَرَقُ[3]

أنَّ الأشاقرَ قد حلوا بمنزلةٍ ... لو يرهبونَ بنعلٍ عندنا علقوا[4]

لا يكثرون وإن طالتْ حياتُهمُ ... ولو تبولُ عليهم فأرةٌ غرِقوا[5]

وقول الآخر:

لو يحلوا بالحرير ما وجدوا

وقول الآخر، أستغفر اللهٰ من قوله:

يكادُ من رقَّةٍ ولؤمٍ ... يخفى على البارىء القديمِ[6]

وقول أبي الهيذام[7]:

يا جعفرَ بن القاسم بن محمدٍ ... ما لي أراك عن الندى معزولا

إني أقولُ مقالةً تجري بها ... لو كنتَ من كرم لكنت قليلا

وقول[8] أبي تمام:

ما كنت أحسبُ أنَّ الدَّهر يمهلني ... حتى أرى أحداً يهجوهُ لا أحد

ونحوه قوله:

هبْ من له شيءُ يريدُ حجابهُ ... ما بالُ لا شيء عليه حجابُ

وقال:

وأنت أنزر من لا شيء في العدد.

---

(١) ديوان البحتري: ٢/١٨٢ ص.

(٢) الأبيات في العقد الفريد: ٣/٣٨٧ ونُسبت إلى زياد الأعجم.

(٣) في العقد: «وهم من الحسب . . . كطحلب الماء».

(٤) البيت ليس في العقد.

(٥) في العقد: «لا يكثرون . . . ولو تبول عليهم فأرة غرقوا».

(٦) هذا الكلام كفر.

(٧) ابو الهيذام: هو كلاب بن حمزة العقيلي، شاعر، عالم باللغة، من اهل حرّان. مات سنة ٢٩٠ هـ.

(٨) ليس في ديوان ابي تمّام.

وشكا رجل إلى أبي العيناء رجلا، فقال فاك دخل في العدد وخرج من العدد، يقول: هو يعد في الحساب ويخرج من عدد التحصيل، وهو من قول القائل:

خـرجنـا الـغـداةَ إلى نـزهـةٍ وفيـنـا زيـاد أبـو صعـصـعـهْ
فـسـتـةُ رهطٍ بـه خـمـسـةٌ وخـمـسـةُ رهطٍ بـهِ أربـعـه

وقلت في معناه:

أنـظر إليهمْ ولا تعجبـك كثـرتهـم فـانـمـا النـاسُ قلوا كلمـا زادوا
ولا يهـولنـك من دهمـائهم عـددٌ فليسَ للناس في التحصيل أعـدادُ
عجبتُ من زهـدهم فيمـا يـزينهُم والنـاسُ مُذ خلقوا في الخسرِ زهادُ

ومن التناهي في صفة الخمولَ، قول[1] عبد الصمد في أبي العباس محمد بن يـزيد المبرد:

سـألنـا عن ثـمـالـةَ كـلَّ حيٍّ فـقـالَ القـائلونَ ومن ثـمـالَـهْ
فـقلتُ محـمـدُ بنُ يـزيـد منهـم فـقـالـوا زدتنـا بـهم جـهـالَـهْ

ومن الاستحقار الشديد قول مسلم[2]:

أمـويسُ قـل لـي أينَ أنـتَ من الـورى لا أنـتَ مـعـلومٌ ولا مـجـهـولُ
أمـا الـهـجـاءُ فـدقَّ عـرضـك دونـهُ والـمـدحُ عنـك كـمـا علمتَ جليـل
فـاذهـب فـأنتَ طليقُ عـرضـك إنـهُ عـرضٌ عـززتَ بـهِ وأنـتَ ذليـل

فجعله دون الهجاء، والهجاء فوقه فلا يهجى لضعته وقلته.

ومن ههنا أخذ ابراهيم بن العباس قوله:

فـكـنْ كـيـفَ شئـتَ وقـلْ مـا تـشـا وأبـرقْ يـمـيـنـاً وأرغـد شـمـالا
نـجـابـك لـؤم مـنـجـى الـذبـاب حـمـتـهُ مـقـاذيـرهُ أن يـنـالا

وهذه الأبيات، وإن كانت مشهورة، فإن لإيرادها ههنا معنى كبيراً وذلك أني لست أجد خيراً منها في معناها وأجود، وقد شرطت أن لا أضمن هذا الكتاب إلّا كل جيد اللفظ بارع المعنى، وأنت أيضا إذا احتجت إليه تتناوله من قرب.

وأنشد الجاحظ:

ووثـقـتَ أنـك لا تـسـبُّ حـمـاكَ لـؤمـكَ أن تُـسـبَّـا

وقال الآخر:

---

(١) البيتان في العقد الفريد دون عزو: ٣/٨٦.
وثُمالة هو عوف بن اسلم بن أبجر بن كعب، ومنهم محمد بن يزيد المبرّد.
(٢) الأغاني: ١٩/ ٤٦.

بـذلـةِ والـديـك كـسيـتَ عـزاً وبـاللؤمِ أجتـرأتَ على الجـوابِ

وقال غيره:

دنـاءَةُ عـرضـك حـصنٌ منيـع تـقيـك إذا سـاء منـك الصنيـعُ
فـقـلْ لـعـدُوِّكَ مـا تـشتـهـي فـأنتَ الـرَّفيـعُ المنيعُ الـوضيـعُ

وقلت:

لست الـوضيـعَ ولا الصغيـرَ وإنمـا أنتَ الـوضيعُ عن الـوضيعِ الأصغر
لا تفخـرنَّ وإنْ غَـدوْتَ مـقـدَّمـا فعلى جبينـك سيـميـاء مـؤخـر[1]

وقال[2] أبو نواس:

مـا كـان لـو لم أهجُهُ غـالـب قـامَ لـهُ هجـوي مقـامَ الشـرفْ
يقـولُ قـد أسـرفَ في هجـونـا وإنـمـا زادَ بـذاك الـسّـرَفْ
غـالبُ لا تسعى لـتبني الـعـلا بـلغتَ مـجـداً بهـجـائي فـقفْ
قـد كـنتَ مـجهـولاً ولـكـنني نَـوَّهْتُ بـالمجهـولِ حتى عـرف

فجعل شرفهم ونباهتهم بهجائه إياهم، وقوله:

ومـا أبـقـيـتُ مـن غـيـلانَ إلا كمـا أبقتْ من البظرِ المـواسي[3]

ومن قديم الهجاءُ لمن لا يقع في حياته وفي موته فجيعة قول بعضهم:

وأنتَ امـرؤٌ منـا خُـلقتَ لـغيـرنـا حيـاتُـك لا نفـعٌ ومـوتُـك فـاجـعُ

وقال[4] ابن الرومي:

فـلا تخش من أسهمي قـاصـداً ولا تـأمـنـنَّ مـن الـعـايـرِ
ولـكـنْ وقـاك مـعـرَّاتـهـا تضـاؤلُ قَـدرِكَ في الـخـاطـرِ

وقال غيره:

إنـي هجـوتُ بـكـلِّ لفظٍ مـقـذعٍ زيـداً وكـان لـهُ الهجاءُ مـديحـا

وقلت:

يـا أبـا الـقـاسم هـل أبصـرت شـبـهـاً لـك فـي قـبـحـكَ
ونـظيـراً لـك فـي شـؤمـك أو لـؤمـك أو شـحـك
إن مـن شـبـهـك الـكـلـب فـقـد بـالـغَ فـي مـدحـكَ

وقلت:

أهنت هجـائي يـا بـنَ عـروةَ فـانتحى عليَّ مـلامُ النـاسِ في البعـدِ والقـربِ

---

(١) سيمياء: علامة.
(٢) ديوانه: ٤٣٠.
(٣) البظر: ما بين أَسكَتَي المرأة. المواسي: السكاكين.
(٤) ديوان ابن الرومي: ٣/٨٥.

وقـالـوا أتـهـجـو مِثله في سُقـوطـهِ ... فـقلتُ لـهم جـريتُ سيفي عـلى كـلبِ

وقال(1) ابن الرومي :

خسأت كلباً مَرَّ بيَ مرَّةٍ ... فقال مهلاً يا أخا خالدِ

حسبكُم خزياً بني آدم ... شركتكم إياه في الوالد

ومثله ما أنشدناه أبو أحمد قال أنشدني ابن لنكك(2) لنفسه :

وعصبةٍ لما توسَّطتهمْ ... صارت عليَّ الأرضُ كالخاتمِ(3)

كأنهمْ من سوءِ أفهامهمْ ... لم يخرجوا بعدُ إلى العالم

يضحكُ إبليس سروراً بهم ... لأنهم عارٌ على آدم

وقلت :

قلتُ للكلبِ حينَ مرَّ بيَ اخسأ ... فكأني كويتُ قلبك كيا

أترى أنني أعُدُّك كلباً ... أنتَ عندي إذا نبحتَ الثريا

ومن التناهي في الاستصغار والخمول قول زياد الأعجم :

إذا ما اتقى الله امرؤٌ وأطاعَهُ ... فليسَ به بأسٌ وان كان من جَرْمِ

ولو جمعتْ جَرْمٌ على رأسِ نملةٍ ... لباتوا شِباعاً يضرطون من الشحم

ومن بليغ ما جاء في الاستصغار، ما رواه قدامة قال: قال محمد بن ناشد سألني فلان عن رجل فقلت يساوي فلساً، فقال: قد زدت في قيمته درهمين.

ومن أبلغ ما قيل في الهجاء قول ذي الرّمة(4) :

وأمثلُ أخلاقِ امرىءِ القيسِ ... نها ... صلابٌ على طولِ الهوانِ جلودُها

وما انتُظرتْ غُيّابُها لملمةٍ ... ولا استؤمرتْ في حلِّ أمرٍ شهودُها(5)

إذا أمرئياتٌ حللن ببلدة ... من الأرض لم يصلح طهوراً صعيدها(6)

وقال غيره :

لعمركَ ما تبلى سرابيلُ عامرٍ ... من اللؤم ما دامتْ عليهِ ظهورُها

وقال أبو سعيد المخزومي :

---

(1) ديوانه: ٢/١٨٣.

(2) ابن لنكك: هو محمد بن محمد بن جعفر البصري، أبو الحسن الصاحب بن لنكك، شاعر، اكثر شعره ملح وطرف. توفي سنة ٣٦٠ هـ. (الأعلام: ٧/٢٠).

(3) ويروى: «ضاقت علي».

(4) ذو الرُّمة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، ابو الحارث، شاعر فحل امتاز بإجازة التشبيه. توفي سنة ١١٧ هـ. (الأعلام: ٥/١٢٤) والأبيات في ديوانه: ٣١.

(5) في الديوان: «غيابها العظيمة». «في جل أمر».

(6) في الديوان: إذا مرئيّات». والمرئيات: النسبة الى امرىء القيس.

يــا ثــابــت بن أبي سعيــدٍ إنـهــا دوَلٌ وأحــراهــا بــأنْ تــتــنــقــلا
هــلا جعلتَ لنـا كحــرمةِ دعبــلٍ في أستِ أمِّ كلبٍ لا تساوي دعبلا

وقالوا أهجى بيت قاله محدث بيت حماد(1) في بشار:

نُسبتَ إلى بُــردٍ وأنتَ لـغيــره فهبــك لبــرد نِلتَ أمـك مَنْ بُــردُ

وأخبرني أبو أحمد، أخبرني أبو الحسن الصيمري عن أبي العلاء، قال حماد عجرد:

نــســبــت إلــى بــرد وأنــت لــغــيــره

قال بشار: تهيأ لحماد في هجائي في هذا البيت خمسة معان، أوردها جرير في الفرزدق، فلم يقدر عليها حيث يقول(2):

لمــا وضعتُ على الفـرزدق ميسمي وضع البعيثِ جدعتُ أنفَ الأخـطلِ

ومن أجود ما هجي به الدعي قول دعبل(3) في مالك بن طوق:

الـنــاسُ كـلهـم يـسـعـى لـحــاجـتــهِ مــا بينَ ذي فــرحٍ مـنهــا ومـهـمـومِ
ومــالــكٌ ظــلَّ مشغــولاً بـنسبـتــهِ يــرمُّ منهـا خَرابـاً غيــر مـرمــومِ
يبني بيــوتــاً خــرابــاً لا أنيسٍ بهــا مـا بينَ طـوقٍ إلى عمـرِو بنِ كلثوم

وقال(4) إبراهيم بن إسماعيل النسوي:

لــو أنَّ مــوتى تميم كلهم نُشِــروا وأثبتــوك لـقيــل الأمــرُ مـصنــوعُ
إنَّ الجــديــدَ إذا مــا زيــدَ في خَلَقٍ تبينَ النــاسُ أنَّ الـثــوبَ مـرقــوعُ

وقالوا أهجى بيت قاله محدث قول الآخر:

قبحتْ منــاظــرُهـمْ فحينَ خبــرتهـم حسنتْ منــاظــرهــم لقبــح المـخبــرِ

ولست أعرف أبلغ في الهجاء من قول الأول:

إن يــفــجــروا أو يــغــدروا أو يــبــخــلوا لــم يــحــفــلوا
وغَــدَوْا عــلــيــك مــرّجــلــيـ ـنَ كــأنــهــم لــم يــفــعــلوا

هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات.

ومن البليغ قول(5) حسان:

(1) حمّاد: هو حمّاد بن يحي بن عمر بن كليب، أبو عمر، نشأ في الكوفة، وكان يتكسب بشعره، كان متهماً في دينه وفاسقاً توفي سنة ١٦١ هـ. (الأعلام: ٢/٢٧٢). والبيت في الأغاني: ١٤/٣٤٥ وفيه: «دُعيت إلى برد». «نكت امك».

(2) ديوان جرير: ٣٥٧.

(3) دعبل: هو دعبل بن علي بن رزين، شاعر هجّاء، اصله كوفي أقام ببغداد، له أخبار، وشعره جيد، كان صديقاً للبحتري، بذيء اللسان. مات سنة ٢٤٦ هـ. (الأعلام: ٢/٣٣٩). الأبيات في عيون الأخبار: ٢/١٩٧.

(4) عيون الأخبار: ٢/١٩٦.

(5) ديوان حسّان: ٢٨٣. وفيه:

أولاد حسامٍ فـلـن تُـلقـى لـهـم شـبـهـاً إلا الـتـيـوس عـلى اكـتـافـهـا الـشَّـعَـرُ =

أبنـاء طـارف لنْ تلقى لهم شبهـاً ... إلا التيـوس على أقفـائهـا الشعـرُ
إن نـافـروا نفـروا أو كـاثـروا كثـروا ... أو قامروا الزَّنجَ عن أحسـابهم قمروا
كـأنَّ ريحهمُ في النـاس إذ خـرجـوا ... ريحُ الكـلابِ إذا مـا مسهـا المـطرُ

قد استوفى المعنى عند قوله: «ريح الكلاب» ثم قال: «إذا ما مسها المطر» فجاء بتتميم حسن.

وقالوا قول[1] جرير:

نُـتِـفَـتْ شـواربُـهُـم عـلى الأبـوابِ

وقالوا قول[2] حسان:

أبـوك أبـو سُـوءٍ وخسالـك مـثلهُ ... ولستَ بخيـرٍ من أبيـك وخـالِكـا
وإنَّ أحـقَّ الـنـاسِ أنْ لا تـلومَـهُ ... على اللؤمِ من ألفى أبـاهُ كـذلِكـا

ومن الأفراط في صفة البخل قول[3] ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر:

تـجنب سـليمـان قـفـلَ الـنـدَى ... فـقـد يئسَ الـنـاسُ من فـتحـهِ
فـلو كـانَ يـمـلكُ أمـرَ استـهِ ... لـمـا طمـعَ الحشُ في سلحـهِ

وأبلغ ما قيل في الهجاء باللؤم قول[4] الفرزدق:

ولـو تُـرمـى بـلؤم بـنـي كـليبٍ ... نجـومُ الليـل مـا وضَحتْ لسـارِ
ولـو لـبسَ الـنهـارُ بـنـي كـليـبٍ ... لـدَنسَ لـؤمـهـم وضـحَ الـنـهـارِ
ومـا يـغـدو عَـزيـزُ بني كـليبٍ ... لـيـطلبَ حـاجـةً إلا بـجـارِ

وقد مر البيتان الأولان فيما تقدم.

ومن الافراط في الهجاء قول الآخر:

لـو اطَّـلعَ الغـرابُ عـلى تـمـيم ... ومـا فيهـا من الـسـوآتِ شـابـا

وقول الآخر:

سَـل الله ذا الـمـنِّ مـن فـضْـلهِ ... ولا تـسـألـنَّ أبـا وائـلهْ
فـمـا سـألَ الله عـبـدٌ لـهُ ... فـخـابَ ولـو كـانَ من بـاهـلْه[5]

وقال الآخر:

إن سـابـقـوا سُـبـقـوا أو نـافـروا نُـفـروا ... أو كـاثـروا أحـداً مـن غـيـرهـم كُـثِـروا
كـأن ريـحـهـم فـي الـنـاس إذ بـرزوا ... ريـح الـكـلاب إذا مـا بـلّهـا الـمـطرُ

(١) ديوان جرير: ٥٢. وصدره: «قوم إذا حضر الملوك وفودهم».

(٢) البيتان ليسا في الديوان واوردهما ابن سلام في طبقاته: ١/٢٤٩.

(٣) ديوانه: ٢/٤٠٧.

(٤) ديوانه: ٣٠٥.

(٥) باهله: قبيلة عربية.

ولـو قيـل للكـلبِ يـا بـاهلي لأعْـوَلَ من قبـح هـذا النسبْ

وأنشدني أبو أحمد، أنشدني أبو مسلم بن بحر، لإبراهيم بن العباس، وهي أبيات مشهورة أوردتها لأني لست أجد مثلها في معناها:

ولـمـا رأيـتـك لا فـاسـقـاً تـهـابُ ولا أنـتَ بـالـزَّاهـدِ
ولـيسَ عَـدُوّك بـالـمـتـقـي ولـيس صـديقـك بـالحـامـدِ
أتيت بـك السوقَ سُـوقَ الرَّقيقِ فـنـاديتُ هـل فيـك من زائـد
عـلى رجـلٍ غـادرٍ بـالصـديقِ كـفـورٍ لـنـعـمـائـهِ جـاحـد
سـوى رجلٍ حـار منـه الشقـا وحَـلَّتْ بـه دَعْـوةُ الـوالـد
فـمـا جـاءنـي رجـلٌ واحـدٌ يـزيـدُ عـلى درهـم واحـد
فـبـعـتـك مـنـهُ بـلا شـاهـدٍ مَـخَـافَـةَ أدرك بـالـشـاهـدِ
وأبتُ إلـى مـنـزلـي سـالـمـاً وحَـلَّ الـبـلاءُ عـلى الـنـاقـدِ

وقد أحسن التصرف فيها فما قاربه في معانيها أحد.

وأبلغ ما قيل في البخل قول ابن الرومي(١):

يُـقـتـرُ عـيـسى عـلى نـفـسـهِ ولـيـسَ بـبـاقٍ ولا خـالـدِ
فـلو يـسـتـطـيـعُ لـتـقـتـيـرهِ تـنـفس مـن مـنـخـر واحـد
رضـيـت لـتـشـتـيـت أمـوالـه يـدا وارثٍ ليسَ بـالحـامـدِ(٢)

والناس يظنون أن ابن الورمي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه مما رواه الجاحظ أن فلاناً كان يقير(٣) أحدى عينيه ويقول: إن النظر بهما في زمن واحد من السرف.

ومن الفرد الذي لا شبيه له قول بعضهم:

إلى الله أشكـو أنـني بـتُّ طـاهـراً فـجـاءَ سلـولـيٌّ فـبـالَ عـلى رجـلي
فـقلتُ اقـطعـوهـا بـارَكَ الله فـيكُـم فـإني كـريمٌ غيـر مـدخلهـا رحـلي

وقلت:

وقـفت لـديكـمْ لـلسـلام عليكُـم وقـوفي على أطلال سلمى وعـاتكـهْ
يـرومـك تـسليـم العـفـاة كـأنـه بـوادرُ طعن في الضلوع مواشكـهْ(٤)
ومـا فـيكُـم حـرٌّ يكـرمُ ضيـفـهُ ولـكن إذا مـا سـاء أكـرم نـائـلَهْ
وإن كـنتـم نـاسـا ومـا أنـتمُ بـهِ فـإن القـرودَ والكـلابَ مـلائكـةْ(٥)

---

(١) ديوانه: ٢/ ١٦٠.
(٢) في الديوان: «رضيت لتفريق».
(٣) في بعض النسخ: «يقتر».
(٤) العفاة: طالبو العون.
(٥) لا يُقال مثل ذلك عن الملائكة.

وليس في هذا الباب أبلغ من هذا، ولا أعرفني سبقت إليه.

وقال بعضهم:

سمعت المديح أناساً دون مالهم ... رد قبيح وقول ليسَ بالحسنِ
فلمْ أفز منهمُ إلا بما حملتْ ... رجلُ البعوضةِ من فخّارةِ اللبن

وهكذا كما تراه بليغ جداً.

وقال الآخر:

يعطيك ما تعطيك مكحلة

وأنشدنا أبو أحمد عن أبيه عن أبي طاهر لدعبل:

أتقفلُ مطبخاً لا شيءَ فيهِ ... من الدُّنيا تخافُ عليه أكلُ
فهذا المطبخ استوثقتَ منه ... فما بالُ الكنيفِ عليهِ قفلُ
ولكن قد بخلتَ بكلِّ شيءٍ ... فحتى السلح منكَ عليك بخل

وأنشدنا:

وإنَّ له لطباخاً وخبزاً ... وأنواعَ الفواكهِ والشرابِ
ولكن دُونَه حبسٌ وضربٌ ... وأبوابٌ تطابقُ دُونَ بابِ
يذودونَ الذُّبابَ يمرُّ عنه ... كأمثالِ الملائكةِ الغضابِ

وقال[1] الخليل بن أحمد:

لا تعجبنَّ لخيرٍ زلَّ عن يدِهِ ... فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرضَ أحيانا

وقال[2] أبو تمام:

صَدَّقْ الِيتَّهُ إن قال مُجتهداً ... «لا والرغيف»، فذاك البِر من قَسَمِهْ
وإن هممتَ به، فافتكْ بخبزتهِ ... فإن موقعها من لحمهِ ودمِهْ
قد كانَ يعجبني لو أنَّ غيرتهُ ... على جرادقةٍ كانتْ على حُرَمِهْ[3]

وقال آخر:

يَزْدادُ لؤماً على المديح كما ... يَزدَادُ نتنُ الكلابِ بالمطرِ

وقلت:

خُبزُ الأميرِ عشيَّةً ... يَغْدُو عليهِ يُلاعبُهْ
وإذا بَدَا لجليسهِ ... أفضى إليه يعاتبُهْ
وَتحوطُهُ أحراسُهُ ... وَتذبُّ عنهُ كتائبه
فالزورُ يُصفعُ عنده ... والضيفُ ينتفُ شاربه

---

(١) البيت في العقد الفريد: ٣/ ١٢٢ دون عزو.

(٢) الأبيات ليست في ديوان أبي تمّام. البيت الثالث في عيون الأخبار ونسبه إلى دعبل.

(٣) الجردقة: الرغيف. والأبيات الثلاثة في العقد الفريد: ٦/ ١٩٠. وفيه: «فإن هممت».

وقال آخر:

فتى لرغيفهِ فرط وشغف ... واكليلانِ من دُرٍّ وشذرِ
إذا كسر الرَّغيف بكى عليهِ ... بكا الخنساءِ إذا فجعتْ بصخر
ودونَ رغيفهِ قلعُ الثنايا ... وحَرْبٌ مثل وقعةِ يوم بدرِ

وقال آخر[1]:

إنَّ هذا الفتى يصون رغيفاً ... ما إليه لآكلٍ من سبيلِ
هو في سفرتين من أدمِ الطا ... ئف في سلتين في منديل
خُتمتْ كلُّ سلةٍ برصاصٍ ... وسيورٍ قُددن من جلدِ فيلِ
في جرابٍ في جوف تابوتِ موسى ... والمفاتيحُ عندَ ميكائيلِ[2]

وقلت:

لنا سيدٌ واحدٌ ماجدٌ ... يقتل في الجود آباءَهُ
لئيمٌ إذا جاءَهُ طارقٌ ... فقد جاءَه كلُّ ما ساءَهُ
وهل يطمعُ الناسُ في خبزه ... إذا كان يمنعهم ماءَه
فما ولغ الكلب في لؤمه ... لما زال يقذفُ أمعاءَه

وسمعت عن أبي حفص يقول: قال جعفر بن محمد العسكري: أبلغ ما قاله محدث في البخل قول بعضهم:

الحابس الرَّوْثَ في أعفاج بغلته ... خوفاً على الحبِّ من لقطِ العصافيرِ[3]

وأجود ما قيل في البخل قول بعضهم:

وعدت فأكدت المواعيد بيننا ... وأقلعت إقلاع الجهام بلا وبلِ[4]
وأجررت لي حبلا طويلا تبعته ... ولم أدر أن اليأسَ في طرف الحبلِ

وقال[5] أبو نواس:

رأيتُ قدور الناس سوداً من الصِّلى ... وقِدر الرَّقاشين زهراء كالبدرِ[6]
يُبيتُها للمعتفي بفِنائهمْ ... ثلاثا كنقط الثاء من نُقَط الحِبرِ[7]

---

(١) الأبيات في العقد الفريد: ٦/١٩٠. وفي الأول: «ما إليه لناظر».

(٢) في البيت إشارة إلى قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

(٣) الأعفاج: الأمعاء.

(٤) الجهام: السحاب لا ماء فيه. الوبل: المطر الغزير.

(٥) ديوانه: ٣٣٣، وقالها في فضل الرقاشي. وأورد صاحب العقد ثلاثة منها. وفيه:

يضيق بحيزوم البعوضة صدرها ... ويخرج ما فيها على طرف الظفر

(٦) الصّلى: النار. ووصف القِدر بالسواد كناية عن كثرة الطعام.

(٧) المعتفي: طالب العون.

إذا ما تنادَوا للرَّحيل سعى بها أمامهمُ الحوليّ من ولد الذّر[1]
ولو جئتها ملأى عبيطاً مجزراً لأخرجت ما فيها على طرف الظفر[2]

غيره:

يحصنُ زَاده عن كلِّ ضرسٍ ويعمل ضرسه في كلِّ زادِ
ولا يَرْوِي من الآداب شيئاً سوى بيتٍ لأبرَهَةَ الأيادي[3]
قليلُ المالِ تُصلحهُ فيبقى ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ

وقلت في مثله:

يطعمُ دُونَ الشبع أولادَهُ ويختمُ البُرْمَةَ والجفنَه[4]
لم يَرْوِ إلاَّ خبراً واحداً قد تَذْهبُ البطنةُ بالفطنة

وقال آخر:

ظلمتك إذ سألتك ماءَ كرم وماءُ الكرم للرَّجلِ الكريمِ

وقلت:

لك بُرْمَةٌ نَزَّهتها من أن تدنَسَ بالدَّسَمْ
بيضاءَ يُشرِقُ نورُها كالبدرِ في غَسقِ الظلم[5]
لو كانَ عرضُك مثلها كنتَ الممَدَّح في الأمَمْ
أو كانِ فعلك مثلَ قو لك كنتَ تاريخَ الكرم

ومن أبخل بيت قيل:

وما رَوَّحْتَنا لتذبَّ عنا ولكنْ خفتَ مَرزئَةَ الذباب[6]

وقال[7] أبو نواس يصف قدراً:

يغصُّ بحلقومِ الجرادَةِ صدرُها، وينضحُ ما فيها بعودِ خلالِ[8]
وتغلى بذكرِ النارِ من غير حرِّها، وتنزلها عفواً بغير جِعالِ[9]
هي القدرُ، قدرُ الشيخِ بكرِ بنِ وائلٍ ربيعِ اليتامى عامَ كلِّ هزالِ

---

(١) الحولي من الذر: ما عمره حول من النمل.
(٢) اللحم العبيط: الطري.
(٣) في بعض النسخ: «من الأشعار».
(٤) البرمة والجفنة: القصعة بمعنى وعاء الطعام.
(٥) الغسَق: أول الليل.
(٦) البيت لأبي الشمقمق كما في البخلاء ٥٩.
(٧) ديوان ابي نواس: ٥٢٧.
(٨) في الديوان: «ويُنضحُ ما فيها اتّقادُ ذُبالِ». وعود الخلال: عود يُجعل في فم الفصيل كي لا يرضع. والحيزوم: الصدر. ذُبال جمع ذُبالة: فتيلة.
(٩) في الديوان: «ويُنزلها الطاهي بغير جِعالِ».

وقال(١) ابن الرومي:

رأى البخلَ طباً فهو يحمي ويحتمي ... فلستَ ترى في بيته غيرَ جائعِ

ومن أجود ما قيل في زيادة البخل والشح، مع زيادة المال قول(٢) ابن الرومي:

إذا غمر المالُ البخيلَ وجَدْتهُ ... يزيد به يَبساً وإن ظنّ يرطبُ
وليس عجيباً ذاك منهُ فإنَّهُ ... إذا غمرَ الماءُ الحجارةَ تصلبُ

وهو مأخوذ من قول بعض حكماء الهند.

وأنشدنا أبو أحمد عن أبيه عن أبي طاهر:

رغيفك في الحجابِ عليه قفلٌ ... وحرّاسٌ وأبوابٌ منيعَهْ
رأوا في بيتِهِ يوماً رغيفاً ... فقالَ لضيفهِ هذا وديعهْ

وأنشدنا عنه:

له حاجبٌ دُونهُ حاجبٌ ... وحاجبُ حاجبهِ مُحتجبُ

وقال(٣) أبو تمام:

لا تكلفنَّ وأرضُ وجهك صخْرَةٌ ... في غيرِ منفعةٍ مؤونةَ حاجبِ

وقال آخر:

لا تتخذْ باباً ولا حاجباً ... عليك من وجهك حُجَّابُ

وأنشدنا:

أعجبت أن ركب ابن حزم بغلة ... فركوبُه ظهرَ المنابرِ أعجبُ
وعجبتَ أن جعل ابن حزم حاجبا ... سُبحانَ من جعلَ ابنَ حزم يحجب

وقال آخر:

إحتجب الكاتب في دَهْرِنا ... وكان لا يحتجبُ الحاجب
القومُ يخلون بحجابهم ... فينكحُ المحجوبُ والحاجب

وقال آخر وأحسن:

وصاحبٌ أسرفتُ في مدحه ... وبخلُه يُسرعُ تكذيبي
حجابهُ ألزمني منزلي ... وبخلهُ أحسنَ تأديبي

وقلت في معناه:

مدحت فلم تصدق ولم تك مُذنبا ... ولكنَّ دهراً لم يساعدك مذنب
وما الجهلُ إلا أن تقرِّظَ معشراً ... خلائقهم يَشهدْنَ أنك تكذبُ

وأنشدنا أبو أحمد:

---

(١) ليس في ديوانه.

(٢) ديوانه: ١/١٤١.

(٣) ليس في ديوانه.

لا خيـرَ في صاعـدٍ فـأذكـرهُ والخيـرُ يـأتيـك من يـدي عمـرِ
ليسَ لـهُ مـا خـلا اسمـهِ نسبٌ كـأنَّـهُ آدمٌ أبـو الـبشـر

ومن أظرف ما قيل في هذا البابِ قول[1] ابن الرومي:

لـك وجـهٌ كـآخـر الصـكِّ فيـهِ لـمحـاتٌ كـثيـرة مـن رجـالِ
كـخـطوطِ الشهـودِ مشتبـهـاتٍ معلمـاتٍ أن لستَ بـابـن حـلالِ

وقلت:

إن كـانَ شكـلك غيـر مُتـفق فـكـذا خـلالـك غيـرُ مؤتـلفـة
من عصبـةٍ شتى إذا اجتمعـوا شـبـهـت داركـم بـه عـرفَـهْ
صـورتَ من نـطفٍ قـد احتلفت فـأتـتْ خـلالُـك وهي مـختـلَفـهْ
فـورثْـتَ من ذا قـبـحَ مـنـظرهِ وورثـت ذاك خنـاه أو صـلفـه[2]
عيـرتـني أنْ رُحـتُ فـي سَمـلٍ والـدُّرُّ لا تـزري بـه الـصـدفـهْ

وأجود ما قيل في عظم الجسم، مع قلة العقل، من الشعر القديم قول[3] حسان:

جِسْـمُ الـبغـالِ وأحـلامُ الـعـصـافـيـرِ

وقال[4] ابن الرومي:

طـولٌ وعَـرْضٌ بـلا عقـلٍ ولا أدبٍ فَـليسَ يحسـنُ إلا وهـو مِصْـلوبُ

وقال وأحسن:

إذا فـقتَ الـذَّميمَ بحسن جسمٍ فـلا يسبقـك بـالشيَم الـشـريفـة
فيصبـح أفضـلَ الـرجلين نـفسـاً وتصبـحُ أعـظمَ الـرجلينِ جيفـه

وأنشدنا أبو أحمد أنشدني ابن لنكك لنفسه:

إثـنـان لم ينكـرهـمـا منكـرٌ بـغضُ أبـي إسحاقَ والـمـوتُ
ويـدعـي الـعـلمَ عـلى أنـهُ قـد طارَ بـالجهـلِ لـهُ الصوتُ
لا يـلتقـي والـعـلم في مـجلسٍ أو يـلتقـي الإدراكُ والـفـوتُ

وكتب ابن العميد:

وليت شعري بأي حلي تصديت له، وأنت لو توجت بالثريا، وتمنطقت بالجوزاء، وتوشحت بالمجرة، وتقلدت قلادة الفكة، ما كنت إلاَّ عطلاً، ولو توضحت بأنوار الربيع الزاهر، وشدخت في جبينك غرة البدر الباهر، واستعرت من الصباح ثوباً، وخضت أوضاح النهار خوضاً، ما كنا إلاّ غفلا.

---

(١) البيتان ليسا في ديوانه.

(٢) الخَنا: الفحش. الصلف: التكبّر.

(٣) ديوان حسّان: ٢١٠. وصدره: «لا بأس بالقوم من طول».

(٤) البيت وما يليه ليس في الديوان.

وأبلغ ما قيل في صفة ثقيل ما أنشدناه ابن أبي حفص عن جعفر:

وثقيل أشدّ من غصص المو ... تِ ومن زفرةِ العذابِ الأليمِ
لو عصتْ ربَّها الجحيمُ لما كا ... نَ سواهُ عقوبةً للجحيمِ

وأبدع ما قيل في هذا المعنى قول بشار[1]:

ربما يثقل الجليسُ وإن كا ... نَ خفيفاً في كفَّةِ الميزانِ
ولقد قلتُ حين طلّ على القو ... مِ ثقيلٌ أربى على ثهلانِ[2]
كيف لم تحملِ الأمانةَ أرضٌ ... حملتْ فوقها أبا سفيانِ[3]

أخذه ابن الرومي فقال[4]:

أنتَ فضلٌ وفضلةُ الشيءِ لغوٌ ... ثم أردفتَ ذلةَ التصغيرِ
حُقرَ الفضلُ ثم صُغِّرْتَ عنهُ ... زادك الله يا صغيرَ الحقيرِ
ثم عَرَّجْتَ فاحتواك انتقاصٌ ... في اسمِ سورٍ وجسمِ سوءٍ ضريرِ
ثم بردتَ فانتصفتَ من النا ... ر ببردٍ يربى على الزمهريرِ[5]
فقبولُ النفوس إياكَ عندي ... آيةٌ فيك للطيفِ الخبيرِ
إنَّ قوماً أصبحتَ تنفقُ فيهم ... لعلى غاية من التسخيرِ
أو أناس غدوا وراحوا من الظَّرْ ... فِ على حالةِ الفقيرِ الوقيرَ
فمتى ظفروا بزور ظريفٍ ... أعجبتهم زخارفُ التزويرِ
كالأعاريب لم يروا درمك البُرِّ ... فهم يعظمونَ خبزَ الشعيرِ
وكذا القومُ لم يروا لجة البحـ ... ـر فهم يكبرونَ ماء الغديرِ
يا ثقيلاً على القلوب خفيفاً ... في الموازين دونَ وزن النقيرِ
طر سخيفاً وقع مقتياً فطوراً ... كسفاةٍ وتارةً كثبيرِ[6]

وله:

وثقيل سبحانهُ من ثقيل ... وتعالى عن كلِّ مثلٍ وندٍّ
حمل الله أرضه ثقيلها ... وعلاها بثالث من أدٍّ

وأجود ما قيل في تباعد الأشباه من الأقرباء ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي قال: سمعت المبرد يقول: لم يقل في تباعد الأشباه من الأقرباء أجود من قول ابن أبي عيينه[7] يهجو

---

(١) ديوانه: ٦٠٩. (٢) ثهلان: اسم جبل.

(٣) أبو سفيان: أحد الثقلاء.

(٤) ديوانه: ٦٠٩.

(٥) الزمهرير: البرد الشديد.

(٦) السفاة: ما تذروه الريح. ثبير: اسم جبل.

(٧) محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة، شاعر ظريف، غزِل، هجّاء. الأبيات وترجمته في الأغاني:

خالد بن يزيد المهلبي ويمدح أباه في كلمة:

أبـوك لـنـا غيـثٌ نعيشُ بـفـضـلـه وأنتَ جـرادٌ ليس يبقي ولا يَـذَرْ[1]
لــه أثـرٌ في المكـرمـاتِ يسـرُّنـا وأنـت تعـفـي دائـمـاً ذلـك الأثـر
لقـد قنعتْ قحـطان خـزيـاً بخـالـد فهـل لك فيـه يخـزك اللَّهُ يـا مُضـرُ

فسمع المهدي بيته هذا فقال: بل تكرمون وتؤثرون.

وله في مثل ذلك يقول[2] في قبيصة بن روح بن حاتم يفضل عليه ابن عمه داود بن يزيد بن حاتم:

أقبيصُ لستَ وإن جهـدتَ ببـالـغ سعَى ابـن عـمـك فـي الـنـدى داودِ[3]
شتـانَ بينـك يـا قـبيصُ وبينـه إنَّ الـمـذَمَّـمُ لـيس كـالـمـحـمـودِ
داودُ مـحـمـودٌ وأنـتَ مُـذَمَّـمٌ عجبـاً لـذاك وأنـتـمـا مِـن عـودِ
ولـربَّ عـود قـد يشقُّ لـمسجـد نـصـفـاً وسـائـرُهُ لـحشٍّ يـهـود

وقلت في خلاف ذلك:

كـم حـاجـةٍ أزلـتَـهـا بـكـريـمِ قـومٍ أو لئيمِ
فـإذا الكـريمُ مـن اللئيـ ـم أو اللئيم من الكـريمِ
سُـبـحـانَ ربِّ قـادرٍ قـدرَ البـريَّـةَ من أديمِ
فـشـريفُـهم ووضـيـعُـهـم سيـان في شـرَفٍ ولـومِ
قـد قـلَّ خيـرُ غنيـهم فـغنيهـمْ مثـلَ الـعـديمِ
وإذا اختبـرت حميـدَهـم ألـفيتَـه مثـلَ الـذميمِ
لا نـفـعَ فيـه لـلصـغيـ ـرِ من الأمورِ ولا العظيمِ[4]
أنـظر إلى كبـرِ الجسـو مِ ولا تسـلْ رفعَ الجسيمِ

وقالوا: أنصف بيت قيل في الهجاء قول[5] حَسان:

هجـوتَ محمـداً فـأجبتُ عنـه وعـنـدَ الله فـي ذاك الـجـزاءُ
أتـهـجـوهُ ولـسـتَ لـهُ بـكـفءٍ فشـركمـا لخيـرِكمـا الفـداءُ

يقوله في أبي سفيان بن الحارث.

وفيه يقول أيضاً:

= ٢٠/٧٥ - ١١٦.

(١) في الأغاني: «غيث يُعاش بوبله».

(٢) الأغاني: ٢٠/١٠٥.

(٣) في الأغاني: «جهدت بمدرك . . . ذي العلا داوود».

(٤) «لا نفع فيه» ليست في النسخ، بياض في الأصل.

(٥) ديوانه: ٦٤.

أبــوك أبٌ حــرٌ وأمُّــك حُــرَّةٌ   وقــد يـلدُ الحــرَّانِ غـيــرَ نجيـبِ
فــلا يعجبنَّ النـاسُ منــك ومنهمــا   فـمــا خَبَـثٌ من فـضــةٍ بعـجـيـبِ

وأخبرنا أبو علي بن أبي حفص أخبرنا جعفر بن محمد قال أهجى ما قالت العرب قول الشاعر:

فصبــراً على ذلّ ربيـع بن مـالـك   وكـلُّ ذليـل خيـر عـادتــه الصبرُ
تــحــالفـكم فـقــرٌ قــديمٌ وذلــة   وبئسَ الحليفـان المـذلـةُ والفقرُ

* * *

ومن غير هذا الفن، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل، قال: قال أبو سرح: سمعني أبو دلف أنشد:

لا يـمـنـعـنــك خـفـضُ الـعـيشِ فـي دَعــةٍ   نــزوعُ نــفـسٍ إلــى أهــلٍ وأوطــانِ
تـلقـى بـكــلِّ بــلادٍ إنْ حـللتَ بــهــا   أهــلاً بــأهــلٍ وجـيــرانــاً بجيــرانِ

فقال: هذا الأم بيت قالته العرب. والنزوع هنـا رديء والجيد النـزّاع، وإنما جعل هذا البيت أبو دلف ألأم بيت قالته العرب، لأنه يدل على قلة رعاية وشدة قساوة، وحنين الرجل الى وطنه من المناقب التي يعتد بها، ويمدح لأجلها، لما فيه من الدلائل على كرم الطينة ووفور العقل.

وقد قالت الحكماء:

حنين الرجل إلى وطنه من علامات الرشدة.

وقال بزرجمْهر[1]:

من علامات العاقل بره بإخوانه، وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأمل زمانه.

وقال أعرابي:

لا تشك بلداً فيه قبائلك، ولا تجف أرضاً فيها قوابلك.

وقالت العرب:

وأكرمُ الخيلِ أشدُّها جزعاً من السوط، وأكيس الصبيان أشدُّهم بغضاً للمكتب، وأكرم الصفايا[2] أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهارة أشدها ملازمة لأمهاتها، وأكرم الناس آلفهم للناس.

وقلت:

إذا أنــا لا أشتــاقُ أرضَ عشيــرتي   فليسَ مكــاني في الـنهـى بمـكيـنِ
من العقــل أن أشتــاق أوّلَ مــنــزل   غـنـيـتُ بـخـفضٍ فـي ذراه ولــيـن
وروض رعــاهُ بــالأصــائـلِ نــاظـري   وغـصن ثـنــاه بــالـغــداةِ يـمـيـنـي
وانــيَ لا أنسـى الـعـهــودَ إذا أتــتْ   بنــات الـنـوى دونَ الخليطِ ودونـي

---

(١) بزرجمهر: من حكماء فارس.

(٢) الصفايا: جمع الصفية: الناقة كثيرة اللبن.

إذا أنا لم أرْعَ العهود على النوى فلست بمأمون ولا بأمينِ

وسنذكر من هذا الباب طرفاً فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومما لا تكاد تجد أجود منه في معناه، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي قال: دخل بعض الشعراء على بعض الأمراء ببرقعيد[1] فجعل ينشده وجعل الأمير يعاتب جارية بين يديه، ولا يسمع منه فخرج وهو يقول[2]:

أدبٌ لعَمرُك فاسدٌ مما تُؤدِّبُ بَرْقعيدُ
مَنْ ليس يعرف ما يريـ ـدُ فكيفَ يَعرفُ ما نريدُ
منْ ليسَ يَضبطهُ الحديـ ـدُ فكيفَ يضبطهُ القصيد
مالي رأيتك مرسلاً أينَ السلاسلُ والقيود
أغلا الحديدُ بأرضكم أم ليسَ يصطك الحديدُ

وقلت في المعنى الذي تقدم:

قلَّ خيرُ ابن قاسم فغناهُ كعدمهِ
كادَ منْ خشية القرى يختبي في جِرامهِ
جازَ في اللؤم حَدَّهُ كأبيه وعمه
كاد يعديك لؤمُهُ لو تسميتَ باسمه

قلت:

قرانا بُقولاً إذ أنخنا ببابهِ فأصبحَ فينا ظالماً للبهائمِ
وقفنا عليهِ الرَّكبَ نسألهُ القرى ونحن على أعناق أغبر قائمِ
فصامَ وصوم الليلِ ليس بجائزٍ وإن جازَ في فقهِ اللئامِ الأشائمِ[3]
أجازَ صيامَ الليلِ حين استفزَّهُ تعاورُ ضيفٍ في دُجى اللَيل عائمِ
فبتنا أديمَ الليلِ نطوي على الطوى كأنا على غبراءَ من ظهر واشمِ[4]
وأطعمنا لما مرقنا من الدُّجى دحاريجَ لا تنساقُ في حلقِ طاعمِ[5]
مُدَوَّرَةً سودَ المتون كأنها خصى الزِّنج لاحت تحت فِيَش قوائمِ[6]
فأبشارها تحكي بطونَ عقاربٍ وأرؤسها تحكي أنوفَ محاجمِ[7]

ومن أعجب الهجاء، هجو الرجل نفسه وهو ما رويناه للحطيئة ثم قال ديك الجن:

---

(١) برقعيد: قرية بالموصل.

(٢) ورد في معجم البلدان ثلاثة من هذه الأبيات.

(٣) فقه: في الأصل «نقد».

(٤) الطوى: الجوع. الغبراء: الأرض.

(٥) مرقنا: في الأصل «فرقنا». دحاريج: دوائر.

(٦) فيش: جمع فَيشه: رأس الذَّكر أو الذكر.

(٧) الحِجام: ما يوضع في انف البعير كي لا يعض.

أيها السائلُ عني لستَ بي أخبرَ منّي
أنا إنسانٌ براني الله في صورةِ جني
بل أنا الأسمجُ في العيـ ـن فدَع عنكَ التظني
أنا لا أسلم من نفسـ ـي فمن يسلم مِنّي

وهجا أبو نواس نفسه من حيث لا يعلم فقال[1] في رجل وعده أبو نواس وعداً ثم مطله:

وأحوس ولاجٌ عليٍّ ورائحٌ رجاءَ نوال لو أعين بجودِ[2]
زَوَيتُ له وجهاً قطوباً عن الندى وأيأستهُ من وعدهِ بوعيد[3]
فان كنتَ لاعن سوء فعلك مقلعاً فدونك فاستظهر بنعلِ حديدِ
فعندي مطلٌ لا يطير غرابُه مطير ولا يدعى له بوليد

ومن خبيث الهجاء قول[4] ابن الرومي:

مني الهجاء ومنك الصبر فاصطبرِ لشرٍّ منتظر ياشرٌّ منتظرِ
أنتَ اللئيم فان تصبر فمن قحة على الهوانِ وإن تجزع فمن خورِ
رأيت عيبك شعري حين تالمه شبيه عضِ أخيكَ الكلب للحجرِ
فانظر إلى الكلب مرمياً لتعلم أن لم تترك شبهاً منه ولم تذر

وقال ابن الزمكدم:

وليلٍ كوجهِ البرقعيديّ ظلمة وبرد أغانيه وطول قرونِهْ[5]
سريتُ ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ كعقل ابن هارون ورقة دينه[6]
على أولق فيه اختبالٌ كأنه أبو جابر في خبطه وجنونِهْ[7]

ومن أبلغ ما قيل في الجبن من الشعر القديم قول الشاعر:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبتها مسوَّمةً تدعو عبيداً وأزلما

أي لو رأيت لحسبتها من جبنك خيلاً مسومة، ومثله قول عروة بن الورد[8]:

وأشجع قد أدر كتهمْ فوجدتهمْ يحافونَ خطف الطير من كلِّ جانبِ

ومثله قول الآخر:

---

(۱) ديوان ابي نواس: ٢٣١.
(٢) في الديوان: «وأخوس» . . . «لو يعان بجود».
(٣) في الديوان: «قطبت له» . . . «من نائل بوعيد».
(٤) ديوانه: ١٩٥/٣.
(٥) برقعيدي: نسبة إلى برقعيد: قرية بالموصل.
(٦) في معجم البلدان: «كعقل سليمان بن فهد ودينه».
(٧) في معجم البلدان: «فيه الهباب».
(٨) البيت ليس في ديوانه.

ما زلت تحسب كلّ شيء بعدهم خيلاً تكرُّ عليهم ورجالا

وقال أبو تمام[1]:

موكل بفضاءِ الأرضِ يشرفه من خفة الخوف لا من خفة الطربِ

وأبلغ ما قاله محدث في ذلك قول ابن الرومي[2]:

وفارس أجبن من صفره يحول أو يعور من صفرِهْ
لو صاح في الليل به صائحٌ لكانت الأرض له طفره
يرحمه الرحمٰن من جبنهِ فيرزق الجندبه النصرهْ

وقال[3] في سليمان بن عبد الله بن طاهر:

قِرنُ سليمان قد أضرًّ به شوقٌ إلى وجههِ سيدنفهْ
لا يعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه

وقال فيه:

هو الأسدُ الوردُ في قصرِهِ ولكنه ثعلبُ المعركة

ومن ظريف ما جاء في ذلك: قول أبي الغمر هارون بن محمد من أهل آمل[4]، خرج عليه اللصوص فسلم إليهم متاعه وهرب: أنشدناه أبو أحمد عن الأنباري:

طلّت تشجعني ضلاً بتضليل وللشجاعة خطبٌ غير مجهولِ
هاتي شجاعاً بغير القتل مصرعه أوجدك ألف جبان غير مقتولِ
والله لو أن جبريلاً تكفل لي بالنصر ما خاطرت نفسي لجبريل
إسمع أحدثك عن بأسي بذي شكر خلاف بأس المساعير البهاليل
لما بدتْ منهم نحوي جميعة تسرع الذُّعر في عرضي وفي طولي
حتى أتقيهتهمُ طوعاً بذات بدي وانصعت أطوى الفلا ميلا إلى ميل
الله خلصني منهم و؟ حتى تخلصت مخضوب السراويلِ[5]

وهذا خلاف ما قاله المتنبي[6]:

وإذا لم يكنْ من الموت بدٌّ فمن العجزِ أن تموتَ جبانا

وقال سعيد بن العاصي حين هرب مروان[7] بن محمد:

(١) ديوانه: ١٧.
(٢) ديوانه: ٣/٧٧.
(٣) ديوانه: ٤/٢٠٥.
(٤) آمل: مدينة في بلاد فارس.
(٥) منهم و«...»: الفراغ في الأصل.
(٦) ديوانه: ٤/٢٤١.
(٧) مروان بن محمد: آخر ملوك بني أمية. قُتل في مصر بعد هروبه من الشام سنة ١٣٢ هـ.

لجَّ الفرارُ بمروانٍ فقلتُ لهُ عادَ الظلومُ ظليماً همُّهُ الهربُ
أنى الفرار وترك الحربِ إذ كشفت عنك الهوينا فلادينٌ ولا حسبُ
فراسه الحلم فرعون العذاب وان تطلبْ نداه فكلبٌ دونهُ كلبُ

فسشبهه بالنعامة في الجبن وهو من أنفر الحيوان.

وقال بعض العرب:

نفرِجَةٌ ينفرُ من ظلِّ الشجرْ فؤادُهُ أنثى وضرسُه ذكرُ

والنِّفرِجة الجبان.

ومن جيد ما قيل في التطيُّر قول بعضهم:

الكوكب الذنبيُّ يخـ ـبر بالعجائب بعد سبعه
خلعوا عليه وبجلو ه وصار في عزٍّ ومَنَعة
وكذاك يُفعلُ بالجذو ر لنحرها في يوم جمعه

وقريب منه:

وزارة العباس منكوسةٌ تقتلع الدَّولة من أسِّها
كأنه حين غدا راكباً في خلعة يعجزُ عنْ لبسها
جاريةُ السوء إذا جربت ثيابَ مولاها على نفسِها

وأكسل ما سمعناه ما أنشدناه أبو أحمد عن ابن عماد عن سليمان عن يحيى بن سعيد الأموي لبعضهم:

سألت الله أن يأتي بسلمى وكان الله يفعل ما يشاءُ
فيأخذها ويطرَحُها بجنبي ويرقدها وقد كشف الغطاء
ويأخذني ويطرَحُني عليها ويرقدها وقد قضيَ القضاءُ
ويرسل ديمةً سحا علينا فيغسلنا ولا يلقى عَناءُ[1]

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي عمر، عن ثعلب، قال: قلت لابن الأعرابي من أحمق الأعراب؟ قال أعرابي سبق الناس إلى الموسم، وجعل يدعو الله لحاله وشأنه ويقول: اللهم اقض حاجاتي قبل أن يدهمكَ الوفد. قال ثعلب أفلا أدلك على أحمق منه الذي يقول:

خلقَ السماءَ وأرضَه في ستة وأبوك يمدد حوضه في عام

وسألني بعض الأدباء من أهل البصرة فقال: أي الشعراء أشد حمقاً؟ قلت الذي يقول:

أتيهُ على إنسِ البلادِ وجنّها ولو لم أجدْ خلقاً لتهتُ على نفسي
أتيه فلا أدري من التيهِ من أنا سوى ما يقول الناسُ فيَّ وفي جنسي
فإن صدقوا أني من الإنس، مثلهم فما فيَّ عيبٌ غيرَ أني من الإنسِ

(١) الديمة: الغيمة الماطرة. السح: الصب.

فقال ما عدوت ما في نفسي.

وقال بعضهم لابنه: إياك والكبر، وكيف الكبر مع النطفة التي منها خلقت، والرحم التي فيها حملت، والغذاء الذي به غذيت.

ومن بليغ ما جاء في ذم الكبر قول بعضهم: التواضع مع السخافة والبخل، أحمد من السخاء والأدب مع الكبر والعجب.

وقلت في مثل هذا:

وعندَهُمْ مُذنِبٌ مُنيبٌ أحمدُ من محسنٍ مدلّ(١)

وأبلغ ما قيل في صلابة الوجه قول الأعرابي: لو دق بوجهه الحجارة لرضّها ولو خلا بالكعبة لسرقها.

ومن المنظوم قول بعضهم:

لو كنت في شيء خلافك لم تكن ... لتكون إلا مشجباً في مشجبِ
يا ليتَ لي من جلد وجهك رقعة ... فأقدّ منها حافراً للأشهبِ

والبيت الأول مأخوذ من قول بعضهم: فلان يشجب من حيث رأيته وجدت (لا).

وقد أحسن ابن أبي العتاهية في قوله(٢):

قتلتْ (لا) فإنها ... خلعتْ خلعةَ العدم(٣)
فهي تستهلك الجميـ ... ـل وتأتي على الكرمِ

وقول(٤) أبي تمام:

وسابحٍ هطلِ التعداءِ هتّانِ ... على الجزاء أمين غير خوانِ
أظمى الفصوصَ ولم تظمأ قوائمه ... فخل عينيك في ظمآن ريانِ
فلو تراه مسيحاً في الحصى ريم ... تحت السنابكِ من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت أن حافرهُ ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

وقال في معناه يمدح رجلاً ويهجو عثمان هذا:

عثمان لا تلهج بذكر محمد ... يرضيك طولُ المجد عنك وعَرضُهُ
بَذْ لك كله امساكه ... ويفوتُ بسطكَ في المكارم قبضه(٥)
وكأن عرضَك في السهولةِ وجهه ... وكأنَّ وجهَك في الحزونةِ عرضهُ

وقال أبو الشمقمق(٦):

---

(١) منيب: عائد. مدل: ذو دلال.
(٢) البيتان ليسا في ديوانه.
(٣) العدم: في الاصل الحلم.
(٤) الأبيات ليست في الديوان.
(٥) في أول البيت سقط كلمة.
(٦) ابو الشمقمق: اسمه مروان بن محمد، شاعر بصري هجّاء. مات سنة ٢٠٠ هـ.

صلابةُ الوجهِ سلاحُ الفتى | ورِقّةُ الوجهِ من الحرفهْ
من كانَ صلباً وجههُ محكماً | فأنت منه الدّهر في طرفه

ومن أبخل ما قاله محدث قول ابن طباطبا(١) الأصبهاني يخاطب غلامه:

إجعل الزّوج من سراجك فردا | واقتصد يا غلامُ والقصد أجدى
إن يكنْ فقدك الضياء رديئاً | فاقتصادي للزر أردى وأردى

وقد غير هذا البيت في وجوه الأبيات المقولة في البخل:

ومن أملح ما قيل في مخالفة ظاهر الرجل باطنه قول بعضهم:

إذا ما جئتَ أحمدَ مستميحا | فلا يغررك منظرهُ الأنيقُ
لهُ خلقٌ وليس عليهِ خلقٌ | كبارقةٍ تروق ولا تريق(٢)

وممن ملح في الدعوة رزين العروضي(٣):

لقد جئت يا بنَ أبي تبّع | بأمٍّ الدّواهي لدى المجمعِ
حلفت بأنك من حميرٍ | وليس اليمين على المدّعي

وملح أيضاً في قوله:

إنْ فخرَ الناسُ بآبائهم | أتيتهمْ بالعجب العاجبِ
قلتَ وأدغمت أباً خاملاً | أنا ابن أخت الحسن الحاجبِ

ومن أملح ما قيل في إفشاء السر، قول بعضهم:

أوْدَعْتُهُ السرَّ فألفيتهُ | انمَّ منْ كأسٍ على راحِ

وقال السريُّ(٤):

ثنتني عنك فاستشعرتَ هجرا | خلالٌ فيك لست لها براضِ
وإنك كلما استودِعْتَ سرّا | أنمّ من النسيم على الرِّياضِ

وقد أحسن كعب(٥) بن زهير غاية الإحسان في قوله:

ولا تمسك بالعهدِ الذي عَهدَتْ | إلا كما يمسك الماءَ الغرابيلُ

---

(١) ابن طباطبا: عبد الله بن أحمد بن علي بن حسن العلوي الحسني المدني ثم البصري كان محتشماً. مات سنة ٣٤٨ هـ. (سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٩٦).

(٢) البارقة: السحابة.

(٣) رزين بن زندورد العروضي، ابو زهير، شاعر، كان يأتي بأوزان غريبة مات سنة ٢٤٧ هـ. (الأعلام: ٣/٢٠).

(٤) السري الرفّاء: السري بن احمد بن السري الكندي، شاعر من اهل الموصل. كان عذب الألفاظ مفتنا في التشبيهات. مات سنة٣٦٦ هـ. (الأعلام: ٣/٨١).

(٥) كعب بن زهير بن ابي سُلمى المزني، أبو المضرّب. شاعر فحل، قوي الرصف. والبيت من قصيدة أنشدها بين يدي النبي ﷺ يمدحه فيها عندما أسلم، مات سنة ٢٦ هـ. (الأعلام: ٥/٢٢٦).

وأخذه الحطيئة فقال[1]:

أغربالاً إذا استُودِعت سِراً … وكانوناً على المتحدِّثينا

والكانون: الرجل الثقيل. قال الشاعر:

ليتَ الكوانينَ في زبل معلقة … تحتَ الثريا بحبل ثم ينقطع

وقد مر فيما تقدم بيت الحطيئة:

ومدح ابن الرومي ابن المدبر[2] فرد مديحه فقال فيه:

رَدَدْتَ عليَّ مدحي بعدَ مطلٍ … وقد دَنَّسْت ملبسه الجديدا
وقلت: امدح بِه من شئتَ غيري … ومن ذا يقبل المدحَ الرَّدِ يدا
ولا سيما وقد أعلقت فيهِ … مخازيك اللواتي لن تبيدا[3]

ثم أخنى عليه بالهجاء، حتى قال فيه، وقد ضربه الريح بالأهواز، ضربة في وجهه، مدحه بها البحتري مدحاً كثيراً فمن ذلك قوله[4]:

ووجهُ ضمان البشر فيه موقفٌ … على النجح والحاجاتُ تترى عجالُها[5]
به من صفيح الهند وشمٌ تبنيهُ … صفيحةُ وضّاح يروق جمالُها[6]
متى ربدتها عزةٌ أو حفيظةٌ … أعيد إليها بالسؤالِ صقالها
متى ترَها يوماً عليها دليلها … تعجبك من شمسٍ عليها هلالُها

وذكرها ابن الرومي فأفحش في قوله:

بوجهِ أبي إسحاق صدعٌ كعرضةٍ … له قصةٌ غير الذي هو يظهرُ
يخبر عنه أنه أثرُ ضَربة … ببعض سيوفِ الزَّنجِ حينَ يخبر
وما ضربتهُ الزَّنجُ في الوجهِ بل رأى … أيورهمُ فانشقَّ في وجههِ حرُ

في أبيات سخيفة، فطلبه ابن المدبر أشد الطلب فلما ظفر به وأراد قتله أنشأ يقول:

حَقُّك الصفحُ عن ذُنوبي وحقي … أنَّ قتلي مُحَلَّلٌ لكَ طَلقُ
فاعفُ عن عبدكَ المسيءِ ولا تبـ … ـطلْ بما يستحقُّ ما تستحقُّ

فعفا عنه وأجازه.

وقال يهجو بخيلاً:

نعماك عندي التي أقرُّ بها … أنك أصبحتَ لي من الغيرِ
وحبك الذمَّ لائقٌ بك ما … أشبهَ خطم الخنزير بالقذر

---

(١) الأغاني: ٢/١٦٣. وفي الديوان: ١٢٣. والكانون: كناية عن النمام.

(٢) هو ابراهيم بن المدبر، ابو اسحاق، وزير كاتب شاعر، بغدادي وزر للمعتمد العباسي، توفي سنة ٢٧٩ هـ.

(٣) الأبيات في ديوان ابن الرومي: ٢/١٢٧. و «أعلقت»: في الأصل «اعبقت».

(٤) ديوان البحتري: ١/١٤٧ ص.

(٥) في الديوان: «منه موقف».

(٦) في الديوان: «وسم تبينه».

أبـديتَ في أوليـاتِ لؤمـك مـا قـذرتَ فـي أخـريـاتـهِ الآخـرِ
كـالـقـطرانِ الـذي يـرى أبـداً في رأسـهِ مـا اقتنى من العكسـرِ

وهو من قول الناس: أول الدَّن دُردي.

وقالت العلماء: البلاغة أن تجعل المعنى الدنيء رفيعاً والمعنى الرفيع وضيعاً.

ومثل قول ابن الرومي قول الديلمي:

فـي أوانِ الشبـابِ عـاجلنـي الشـيبُ وهـذا مـن أوّل الـدَّنّ دُردي

وليس هذا بالمختار لابتذال لفظه.

وقلت في بخيل:

قفـعَ البـردُ ضيف عمـروٍ فـأضحى مـثـلَ مـن فـيـه مـذ زمـانِـهْ
بـات لـلبـردِ فـي ظـهـارةِ سـوءٍ ومـن الـجـوع والـطوى في بـطانـه
وهـو قـدمـاً لـلضيـف جُـوعٌ وقـرٌ ولـمـولاهُ ذِلّـةٌ ومـهـانـه
جـمـع الـرأس بيـن رأسـه ورجـلي فـكـأني فـي بيـتـه أرسـانـه [1]

وقلت:

ضفت عـمـراً فجـاءني بـرغيـف زادني أكلهُ عـلى الجـوع جـوعـا
ثـمَّ ولّـى يـقـولُ وهـو كئيـبٌ لهف نفسي على رغيف أضيعـا
كـانَ خـداعـةَ الـضيـوفِ ولكنْ رُبمـا أصبـحَ الخـدوعُ خـديعـا
كـنـتُ أنـزلتـه مـحـلاً رفـيـعـاً فـغـدا ذلـك الـرفـيـعُ وضيعـا
عـجبـاً مـنـه إذ أتيـحَ هـجـاهُ كـيفَ لـم يمتنـع وكـان منيعـا

اتفاق الأسماء والألقاب وتباعد ما بينها في الأخلاق

قال الأوَّل في ذلك:

يـزيـد الخيـر إنَّ يـزيـد قـومي سميْـك لا يـزيـدُ وكمـا تـزيـدُ
يـقـودُ عـصـابـةً وتـقـودُ أخـرى فـيـرزق مـن يـقـودُ ومـن تـقـودُ
شـبيهـك في الـولادَة والـتسـمي ولـكـن لا يـجـودُ كـمـا تـجـودُ

ومثله:

عـليٌّ وعَبـدُ الله بـينـهـمـا أبٌ وشتـانَ مـا بين الـطبـائـعِ والفعـلِ
ألم تـرَ عبـد الله يلحى على النـدى عليّـاً ويلحـاهُ عليٌّ على البخـلِ

ومثله:

فـإنْ يـك مَجْـرانـا إلى جمـع نسبـةٍ ففي الـرأي والأخـلاقِ مختلفـانِ

---

(١) الأرسان: جمع الرسن: الحبل.

وما أنت مثلي في مقام أقومُهُ ... لدى البأسِ إلّا أننا أخَوانِ

آخر:

لئن وصلتْ أبُوَّتنا انتساباً ... لقد قطعتْ مرارتنا العقولُ

أبوك أبي وأنت أخي ولكنْ ... تباينت الطبائعُ والشكولُ

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال: قال لنا المكتفي(١) بالله يوماً: ما أهتك بيت من الشعر، وأفجر قائل أتعرفونه؟ فقال يحيى بن علي المنجم قول(٢) أبي نواس:

ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ ... ولا تسقني سِرّاً إذا أمكن الجهرُ

فقلت له: إن المأمون أمر أن يخطب بهذا البيت على منابر خراسان وقال: من عيوب محمد أنه استجلس رجلاً يقول ألا اسقني خمراً، ولكن الحسين(٣) بن الضحاك الخليع قد قال ما هو أهتك من هذا قال وما هو؟ فأنشدته:

أتبعتُ سُكراً بسكر ... وابتعتُ خمراً بقمرِ

فقال هذا لعمري أهتك من ذاك.

قال أبو هلال رحمه الله تعالى:

وأبلغ الهجاء، ما يكون بسلب الصفات المستحسنة، التي تخص النفس، من الحلم والعلم والعقل وما يجري مجرى ذلك، وليس الهجاء بقبح الوجه وضؤولة الجسم وقصر القامة وما في معنى ذلك بليغاً مرضياً، وينبغي أيضاً أن يتضمن الهجاء والمديح من نعوت المهجو والممدوح وأسمائهما وصفاتهما ما هما مشهوران به فإذا ذكر لم يخفيا.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن الأشنانداني عن التوّزي عن أبي عبيدة قال: مدح مصعب بن عمير الليثي عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان فحرمه فقال(٤):

سيروا فقد جُن الظلامُ عليكمُ ... فبئس امرؤ يرجو القِرَى عندَ عاصمِ

دفعنا إليه وهو كالذِّيخ خاطباً ... فشدَّ على أكبادنا بالعمائم(٥)

ومالِيَ من ذنبٍ إليه علمتهُ ... سوى أنني قد جئتهُ غير صائم

فلولا يدُ الفارُوق عندي رميتهُ ... بقافيةٍ يُحدى بها في المواسمِ

فليتك من جرْم بن زبانَ أو بني ... نعيم أو النوكى أبان بن دارمِ(٦)

---

(١) المكتفي بالله: الخليفة العباسي علي بن المعتضد. مات سنة ٢٩٥ هـ.

(٢) ديوانه: ٢٤٢.

(٣) الحسين بن الضحّاك بن ياسر الباهلي، شاعر من ندماء الخلفاء، ويُعرَف بالخليع، مات سنة ٢٥٠ هـ. في بغداد.

(٤) ذكر صاحب الأغاني ثلاثة ابيات ونسبها إلى الحزين.

(٥) في الأغاني: «وهو كالقيس طاعماً». والذيخ: الذئب الجريء.

(٦) النوكى: الحمقى.

أنـاسٌ إذا مـا الضيفُ حـلَّ بـدارهم غـدا جـائعـاً غـرثـان ليس بنـاعمِ

فلما بلغ ذلك عاصماً قال: ما أكثر من يسمى عاصماً حتى يقول: عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان فبلغه ذلك فقال:

جنبتهـا عـاصـمـاً مـنْ أنْ تـلمَّ بـه أعني ابنَ عمرو بن عثمان بن عفانا
إذا أنـاخـتْ بـه الضيفـانُ طـارقـة جـاءت بنوهُ إلى الضيفـان ضيفـانـا

فبلغه ذلك فقال: الآن طوقني بها طوق الحمامة لعنه الله تعالى. وقال بعضهم:

أرى ضيفك في الدار وكرُب الموت يغشاهُ على خبـزك مكتـوبُ سيكـفيكهـمُ الله

وقال[1] بشار:

وضيفُ عمرو وعمروٌ يسهـران معاً عمـرو لبطنتـه والضيفُ للجـوعِ

آخر:

نـوالـك دونـهُ خـرطُ الـقـتـاد وخبـزك كـالـثريـا في البعـادِ
ولـو أبصـرتَ ضيفـاً في المنـام لحـرَّمـتَ المنـامَ إلى التنـاد
أرى عمـرَ الـرغيفِ يـطولُ جـدّاً لـديـك كـأنـهُ مـن قـوم عـاد
ومـا أهجـوك أنـك كفء شعـري ولـكـنـي هـجـوتـك لـلكَسـادِ

وقال آخر:

رأى الـصيفَ مكـتـوبـاً فـظنَّ لـبخلهِ وتـصحيفـهِ ضيفـاً فـقـامَ يـواثبـه

ورأيت في ألفاظ هذا البيت زيادة فقلت:

قد كانَ للمـال ربا فصار في البخل عبـدَهْ وصحفَ الصيفَ ضيفـاً فقـامَ بلطمُ خـده

وقال[2] أبو نواس:

عـلى خبـز إسـمـاعيـل واقيـةُ البخـل

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أحمد بن عماد، أخبرنا ابن مهرويه، حدثني محمد بن عمران بن مطر الشامي، حدثني خالي الحسن ابن محمد قال: نصب إسماعيل بن نوبخت طارمة في صحن داره، فاصطحبنا أربعين يوماً ومعنا أبو نواس، فبلغت نفقته أربعين ألف درهم فقال[3] أبو نـواس بعد ذلك فيه:

خـبـزُ إسـمـاعيـلَ كـالـوشـ ـي إذا مـاشـقَّ يُـرفـا
عـجـبـاً مـن أثـر الـصـنْـ ـعـةِ فـيـه كـيـفَ يـخـفـى؟!
إنَّ رفـاءك هـذا ألـطفُ الأمـة كـفـا[4]

---

(١) ديوان بشّار: ٥٥٣. وفي عيون الأخبار: ٣/٢٦١.

(٢) ديوان ابي نواس: ٥٢٦. والعجز: «فقد حلّ في دار الأمان من الأكل».

(٣) ديوانه: ٤٢٨.

(٤) في الديوان: «أحدق الأمة».

فـإذا ألـصـق بـالـنـصـ ـف مـن الـحـروف نـصـفـا[١]
ألـطف الـصـنـعـة حـتـى مـا تـرى مـطـعـن أشـفـى[٢]
مـثـل مـا جـاء مـن الـتـنـ ـور مـا غـادر حـرفـا
ولـهُ فـي الـمـاء أيـضـاً عـمـلُ أبـدع ظَـرْفـا
مـزجـهُ الـعـذاب بـمـاء الـ ـبئـر كـي يـزداد ضـعـفـا
فـهـو لا يـسـقـيـك مـنـهُ مـثـل مـا يـشـرب صـرفـا[٣]

فلم يسبق أبو نواس إلى هذه المعاني وهي كما تراها غاية.

قال: وقال[٤] فيه أيضاً:

على خبز إسماعيل واقيةُ البخل فقد حلَّ في دار الأمان من الأكلِ

وما خُبزُهُ إلا كعنقاء مَغْرِبٍ تصوَّرُ في بسطِ الملوك، وفي المثُلِ
يحدّث عنها الناسُ من غير رؤيةٍ سوى صورةٍ ما إن تمرّ ولا تحلي
وما خبزُهُ إلا كآوى يرى ابنهُ ولم ير آوى في الحزونِ وفي السهل[٥]
وما خبزه إلا كليبُ بن وائلٍ، ليالَيَ يحمى عزه منبت البقل[٦]
وإذ هو لا يستبُّ خصمان عندهُ ولا الصوت مرفوعٌ بجدٍّ ولا هزلِ
فإنْ خبزُ اسماعيل حَلَّ به الذي أصابَ كليباً لم يكنْ ذاك عن ذلّ
ولكن قضاءٌ ليسَ يسطاعُ رَدُّهُ بحيلة ذي مكرٍ، ولا دهي ذي عقل[٧]

وكان الجاحظ يفضل قوله:

وإذا هو لا يستبُّ خصمان عندهُ

على قول مهلهل:

واستبَّ بعدك يا كليبُ المنزل

ومما قيل في قبح الخلقة وغير ذلك قال[٨] ابن الرومي:

وقينةٍ أبرَد من ثلجة تظلُّ منها النفسُ في ضجّةْ[٩]

---

(١) في الديوان: «وإذا قابل بالنصف من الجردق نِصفاً». الجردق: الرغيف.
(٢) في الديوان: «مغرز إشفى».
(٣) «يشرب» في بعض النسخ «يسقيك» وعكس ذلك.
(٤) ديوانه: ٥٢٦.
(٥) في الديوان: «في حزون ولا سهل». والحَزَن: الأرض الغليظة.
(٦) في الديوان: «ومن كان يحمي».
(٧) في الديوان: «ولا فكر ذي».
(٨) ديوانه: ٢/٣٢.
(٩) القينة: المغنية.

دانها من نتنها ثومةٌ | لكنها في اللونِ أترجَّه
تفاوتتْ خلقتُها فاغتدتْ | لكلِّ مَنِ عطَّلَ محتجه[1]
كأنها والوشمُ في جلدِها | زرنيخةٌ شيبتْ بليلنجه
خَرَّاجةٌ للفسق دَخَّالَةٌ | تعجبها الدخلةُ والخرجه
كأنما فقحتها فحمةُ | فتّ عليها عابثٌ ثلجَهْ

وهي أبيات سخيفة تركت أكثرها لسخفه.

ونقل قوله:

فهي لمن عطل محتجه

إلى موضع آخر فقال[2] في إسماعيل بن بلبل:

لا سُقيتْ نعمى تسربلتها | كم حجَّةٍ فيها لزنديقِ[3]

وقد أبدع أبو نواس في قوله[4] يهجو جعفر بن يحيى:

قالوا امتدحتَ فماذا اعتضت قلتُ لهم | خرقَ النعالِ وإخلاق السراويلِ[5]
ذاك الأميرُ الذي طالتْ علاوتهُ | كأنهُ ناظرٌ في السيفِ بالطولِ

وكان جعفر طويل الوجه والقفا. وقال[6] فيه أيضاً:

قفا ملك يقضي الهموم على بثق

وقلت:

سوداء يَذْرِفُ دمعها | مثلَ الأتونِ إذا وكفْ
وكأنها مِنْ قبحها | سلحُ العليلِ على الخزفْ

وقال[7] أبو تمام:

فأشهدُ ماجسرتَ عليّ إلا | وزيدُ الخيلِ دونك في الشجاعهْ
ووجهك إذ رضيت به نديما | فأنتَ نسيجُ وحدك في القناعه
ولو بدلتهُ وجهاً إذا لم | أصلْ به نهاراً في جماعه

ومن أعجب ما قيل في كثير الأنف قول كشاجم:

لقد مَرَّ عبدُ اللّهِ في السوق راكباً | لهُ حاجبٌ من أنفه وهو مطرقُ

---

(١) في الأصل: «فهي لمن عقل محتجة».
(٢) ديوان ابن الرومي: ٤/٢٧٢.
(٣) الزنديق: المشكك في الدين.
(٤) ديوان ابي نواس: ٥٣٠.
(٥) في ديوانه: «إبلاء السراويل».
(٦) ديوان ابي نواس: ٤٥٦. وصدر البيت:
«قفا خلف وجه قد أطيل كأنه» . . .
(٧) الأبيات ليست في ديوانه.

رعيت لـه من جـانب الـسـوق مخـطة ... تـوَّهـمت أنَّ الـسـوق منهـا سيغـرقُ
فـأقـذر بــه أنــفــاً وأقــذر بــربِّــه ... عــلى وجـهــهِ مــنــه كـنـيـفٌ مــعــلقُ

وقال غيره:

أنـت فـي الـبـيـت وعـرنـيـ ... ـنـك فـي الـدار يـطوفُ

ومن أقبح ما جاء في قبح الأسنان قول[1] جرير:

إذا ضحكت شبهت أنيابهـا العلى ... خنـافس سـودا فـي صـراة قـليـبِ[2]

وإنما خص الأنياب العلى دون السفلَى، لأنها تبدو في التبسم والتكلم، وعند التثاؤب، وهو كقول الآخر:

إذا كـان يـهـدي بـردُ أنيابهـا العلى ... لأفـقـرَ مـنـي إنـنـي لـفـقـيـرُ

فشبه أسنانها بالخنافس وسعة فمها بالقليب، والصراة: الماء الفاسد فشبه به فساد نكهتها.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن الرياشي، عن ابن سلام، قال: دخلت ديباجة المدنّية على امرأة، فقيل لها: كيف رأيتها؟ قالت: لعنها الله كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دبة، وكأن استها رقعة، وكأن وجهها وجه ديك قد نفش عرفه يقاتل ديكاً.

ومن بديع الهجاء بالتبزق والتمخط والبخر قول[3] ابن الرومي:

تحسبُ مـزكـومـاً وإن لم تـزكـم ... مـنْ سـدَّة في أنـفـك الـمـوَرَّمِ[4]
مُـحشـرجَ الـصـدر بِـرَطليْ بـلغم ... إنْ لـم تـنـخـع مَـرَّةً تـنـخَّـم[5]
نخـامـةً كـالضـفـدعِ المـوَشَّـمِ ... دكـنـاءَ رقـطاءَ بـقـيـحٍ أودمِ
ممتخـطاً بـالكـوع أو بـالمعـصم ... تضـرِطُ من أنـفٍ وتفسـو مِن فـم
ذا نـكهـةٍ مـن لم تـمتـهُ يـصـدَم ... حتى دعـاك المـرأ: ارحم تُـرحم

وقال جحظة في البخر:

تـنـفسَ فـي وجـهـي فـكـدتُ أمـوتُ ... وأعْـرَضَ عـنـي جـانـبـاً فـحـيـيـتُ
ونـتـنـتـنـي حتـى حـسـبتُ بـأنـنـي ... وربـكـمـا يـا صـاحـبـيَّ خـريـتُ

وقال بعضهم في سرعة الكلام:

كـأنَّ بـنـي رالانَ إذ جـاءَ جـمـعـهـمْ ... فـراريـجُ يـلقى بـيـنـهـنَّ سَـوِيـقُ

وقال دعبل في قصر الشعر:

فـوهـاءُ شـوهـاءُ لـهـا شعـرةٌ ... كـأنـهـا خمـلٌ عـلى مـسـحِ

---

(١) ليس في ديوانه.

(٢) القليب: البئر.

(٣) ديوانه: ٦/١٠٩.

(٤) في الديوان: «نحستَ مزكوماً».

(٥) في الديوان: «إن لا».

وقال[1] ابن المعتز في أمر دنتف:

وَخــدُّهُ مُشــوكٌ مــزوَّرُ التـلـويـز   كـأنـهُ فـرنيـةٌ كثيـرةُ الشـونيـزِ[2]
وأنفــهُ كسـتـرةٍ مشتـرق الأفـريـز   تحسبـهُ إذا بدا سمـاجـة النـوروزِ[3]

وقلت:

لعبَ الـزّمـانُ بحسن وجـهِ محمـدٍ   لعبَ الصبـا بـالـرَّبـع حتى أقفـرا
قـد كانَ معـروفَ الجمالِ فلمَ يَـزَلْ   يـنتـابُـهُ الـحـدَثـان حتى أنكـرا
عـهـدي بـهِ متكفـرٌ متعـصفـرٌ   ثم اغتـدى متصنـدلاً متـزعـفـرا
وكـأنمـا صُـدغـاهُ في وجنـاتـهِ   جُعـلانِ ينتـابـان سلْحـاً أصفـرا

وقال ابن الرومي في غير هذا المعنى يحكي عن امرأة:

أنـا كعبـةُ النيـك التـي نـصبتْ لـه   فـتـلقّ مـنـي حيـث شئـتَ وكـبـرِ[4]
فـتـبـيـتُ بـيـنَ مـقـابـلٍ ومـدَابـرٍ   مـثـلَ الـطـريـقِ لـمـقـبـلٍ أو مـدبـرِ
كـأجـيـري الـمنـشـارِ يـجـتـذبـانـهِ   مـتـنـازعـيـنِ فـي فـلـيـجِ صـنـوبـرِ

ولا أعرفه سبق إلى هذا المعنى وهو من أظرف معنى وأعجبه.

وقال أيضاً وهو من ظريف المعاني:

رأيـتُ فـي دارِ حُـسيـن مَشـرَعـه   وامـرأةً قـاعـدة مـربـعـة
لـهـا بـظورٌ في استِـهـا مجـمعـه   كـأنـهـا أُتـرُجّـةٌ مـفـقـعـه[5]

وقال[6] في خصي أراد ابن أن يتزوج بامرأة:

قـل لنجح: أخطأت بـابَ النجاحِ   إذ تـعـاطيـتَـهُ بـلا مـفـتـاحِ
لستَ بـالسـابـح المجيـدِ، فـدع عنـ   ـك ركـوبَ الـبـحـارِ لـلسبـاحِ
فـظعَ الـحبُّ بـالـخصيِّ كـمـا يـفـ   ـظع فـقـدُ الـمُـرديِّ بـالـمـلّاحِ[7]
ليتَ شعـري بمـا تـظنـك تصبي   قـلب ودان يـا كـسيـرَ الـجـنـاح
أبـوجـهٍ كـأنـه وجـهُ قـردٍ   حـائـلُ اللون؟ خـامـدُ المصبـاح؟
نـمـشـةٌ فـوقَ صُـفـرةٍ فـتـراه   كـونيـمِ الـذُّبـابِ فـي اللقـاحِ[8]

---

(١) ديوانه: ٢٣٠.

(٢) الشونيز: الحبة السوداء. (معرّب). الفرنية: ما يخبز من المعجنات بالسكر.

(٣) الافريز: طنف الجدار. النوروز: من أعياد الفُرس. وفي الديوان: «تُحشى من الافريز».

(٤) في الديوان: فتدق منها.

(٥) بظور: جمع بظر: وهو ما بين أَسكَتَي المرأة. الأترجة: ثمرة كالليمونة.

(٦) ديوانه: ٢/٦٣. وفيه: «بل تعاطيته».

(٧) المردي: خشبة تدفع بها السفينة.

(٨) الونيم: سلح الذباب.

إنـمـا أنـتـمُ فِـقـاحٌ فـمـهـلاً ... مـا غنـاءُ الفِقـاحِ في الأحـراحِ (١)
إنَّ مـن يـعـشـق الـنـسـاء بـلا أيـ ... ـرِ كـمثـلِ الـغـازي بغيـر سـلاحِ
لنْ يكـونَ الـطعـانَ إلا بـرمـح ... فـدعـوا الـطعن للطوال الـرِّمـاحِ (٢)

ثم قال:

معشـراً شبهـوا الـقـرودَ ولكـن ... خـالـفـوهـا فـي خِـفَّـةِ الأرواحِ

وهي طويلة.

ومن أعجب ما قيل في البخر قول الخالدي في رجل حلق سباله بعد أن أطاله:

حلقتَ سبـالـك جـهـلاً بـمـا ... يـواري مـن الـنـكـرات الـقـبـاحِ
فعـذبت صحبـك حتى المسـاء ... وعـذبتَ عرسـك حتى الصبـاحِ
فـلا أبـعـد الـلَّهُ ذاك الـسـبـال ... فقـد كـانَ ستـراً على مسـتـراحِ

وقال ابن السكن(٣):

رجـلٌ يـعـقُّ الـكـأس كـلَّ عـشيـة ... ويـعـاقب الـمـسـواك كـلَّ صبـاحِ

وقلت:

قـال لـي صـاحبي وقـد صـفـقـتـه ... نفحـات الكـروّس من في وصيـفِ(٤)
لـعـنَ الـلَّهُ لـيـلـة بـتُّ فـيـهـا ... مـع رفيقـي كـأنـنـا فـي الكـنيـفِ(٥)

وقد أبدع ابن الرومي في قوله (٦):

فـسـا عـلى الـقـوم فـقـالـوا لـه ... إنْ لـم تـقـم من بيـنـنـا قـمـنـا
فـقـال لا عـدتُ فـقـالـوا لـه ... مـن يـنـفِ فيـهِ ذا كـمـا كـنـا

وقال(٧) أيضاً يذكر قينة:

مـسـمـومـة الـرِّيـق إذا قـبـلـتْ ... صحـفـت الـتـقـبـيـل تـقـتـيـلا
قُـبُـلُـهـا جـلـمـودُ عُـرارة ... يـحـسنُ لـلـبـخـراءِ تـقـبـيـلا(٨)
فـاحـشـةُ الـنـقـصـانِ لـكـنـهـا ... قـد كُـمِّلَتْ بـالـبـظرِ تكـميـلا(٩)

---

(١) احراح: جمع حر: فرج المرأة.
(٢) في ديوانه: «فاتركوا الطعن».
(٣) ابن السكن: سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادي، أبو علي، من حفاظ الحديث، نزل مصر ومات بها سنة ٣٥٣ هـ. (الأعلام: ٩٨/٣).
(٤) الكروّس: الضخم من كل شيء، وكبير الرأس، والجمل العظيم.
(٥) الكنيف: المرحاض.
(٦) البيتان ليسا في ديوانه.
(٧) ديوانه: ١٦٦/٥. وقالها في مغنية اسمها شنطف.
(٨) بخراء: ذات رائحة كريهة. والجلمود الصخر.
(٩) البظر: ما بين أسكتي المرأة.

أزرى بـهـا اللَّهُ فـلم يـعـطِهـا　　إلا بـطـولِ الـبـظرِ تـفـضـيـلا
إذا بـدا الـفـيـلُ وخـرطـومُـهُ　　قلنـا أعـارَتْ بِـظرَهـا الـفـيـلا
غـول يبيت الشـرب من قبحهـا　　يـرونَ في الـنـومِ الـتـهـاويـلا
مـاأحـسَنَ الأرقمَ طـوقـاً لـهـا　　وأحـسَـنَ الأسـودَ إكـلـيـلا
قـد عَـذَّبَ الـلَّهُ أمـراً نـالـهـا　　طـورَيْـنِ تـعـجـيـلاً وتـأجـيـلا
لـهـا ضُـراطٌ ريـجُـهُ عـاصـفٌ　　يـطـفىء في الـلـيـلِ الـقـنـاديـلا
حَـلّت سـراويـلي عـلى واسـعٍ　　مـا خـلـتـه إلا سـراويـلا
أحـللتُ تنـكـيـلي بـبـابِ استِهـا　　فـكـان لـلـتـنـكـيـلِ تـنـكـيـلا
لـو رامـت الـتـوبـةَ لـم تـسـتـطعْ　　لـسـنّـةِ الـشـيـطانِ تـبـديـلا
يـابـسـةُ الـعـودِ وقـد ذُلـلَتْ　　قـطوفُـهـا لـلـنـيـلِ تـذلـيـلا

وهي طويلة عجيبة ليس لأحد في ملاحتها وعلو جودتها وكثرة معانيها شيء.

ومما قيل في طول اللحية قول[1] ابن الرومي:

ولـحـيـةٍ لـو شـاءَ ذو الـمـعـارج　　أغنى بـهـا كـواسـد الـنـواسـج[2]
بـنـسـج مـسـحـيـن لـخـان الـدّارج　　وفَـرّق الـبـاقي عـلى الكـواسـجِ[3]

ومن ذلك قول بعضهم وهو مشهور:

ألـم تـرَ أنَّ الله أعـطاك لـحـيـةً　　كـأنـك منهـا قـاعـدٌ في جـوالقِ[4]

وقال الآخر:

ألـم تـرَ أنَّ الـلَّهَ أعـطاك لـحـيـةً　　كـأنـك مـنـهـا بـين تـيـسـين قـاعـا

وكان العوني، إذا كتب كتاباً، أخذ لحيته تحت إبطه، وإذا كلمه انسان من الجانب الآخر، التفت إليه فخلصت لحيته من تحت ابطه، فمرت على الكتاب فطمست جميع ما كتبه، فيقول اللهم غفرا، فقال فيه بعضهم أو في غيره:

لحيـةُ قـاضي الـقضـاةِ لـو جـهـدتْ　　مـجـهـودَهـا لـم تكـنْ كعـنـفـقـتـه
إذا أرادَ الـكـرَى تـوسَّـدَهـا　　فـقـد كـفـتـهُ مـكـانَ مـرفـقـتـه

وقال رقبة بن مصقلة لأبي شيبة القاضي: لو كانت لحيتك هذه من الذنوب لكانت من الكبائر. وقد قيل من تدلت لحيته فقد تقلص عقله.

وقلتُ:

قـلْ لـلمـدلِّ بـلـحـيـة مـوْفـورَةٍ　　وسمـاد لحيـةُ كـلِّ ألحى جهـلهُ

---

(١) ديوانه: ٢/ ٣٠.

(٢) «كواسد النواسج» ساقطة من النسخ.

(٣) في الديوان: «الديزج ... وفرّق». كواسج: جمع كوسج: خفيف اللحية.

(٤) الجوالق: الوعاء.

لا يعجبنك طولُ نبذك إنَّه   من طال لحيتهُ تكوسج عقلهُ

وقد أجاد ابن الرومي وأبلغ، وجمع في أبيات من المعاني ما لم يجمعه أحد في هذا الباب وهو قوله[1]:

إن تطلْ لحيةٌ عليك وتعرضْ   فالمخالي معروفةٌ للحميرِ[2]
علقَ اللَّهُ في عِذاريك مخلا   ةً ولكنها بغيرِ شعيرِ
لو غدا حكمها عليَّ لطارتْ   في مهبِّ الرِّياح كلَّ مطير
ارع منها الموسى فإنك منها   شهدَ اللَّهُ في أثام كبير
أيما كوسج رآها فيلقى   رَبَّهُ بعدها صحيحَ الضمير
هو أحرَى بأن يشكَّ ويغرى   باتهام الحكيم في التقدير
ما تلقاك كوسجٌ قطُّ إلا   جوَّرَ اللَّهَ أيما تجوير[3]
لحيةٌ أهملتْ فطالتْ وفاضتْ   فإليها تشيرُ كفُّ المشير
ما رأتها عينُ امرىء ما رأتها   قطُّ إلا أهلَّ بالتكبير
روعةٌ تستخفهُ لم يرعها   من رأى وجهَ منكر ونكير
فاتَّق الله ذا الجلال وغير   منكراً منك ممكن التغيير
أو فقصر منها فحسبك منها   قيد شبرٍ علامة التذكير
لو رآها النبيُّ يوماً لأجرى   في لحى الناس سُنَّةَ التقصيرِ
واستحبَّ الإحفاء فيهنَّ والحلـ   ـقَ مكانَ الإعفاءِ والتوفيرِ

أراد قول النبي ﷺ: «أحْفُوا الشَّوارِبَ واعْفُوا عن اللحى[4]».

وقلت:

إن أبا عمرو له لحيةٌ   بعيدَةُ البعضِ منَ البعضِ
مضى إلى السوق وعُثنونُه   أقامَ في البيتِ فلم يمضِ
وهو إذا ما مَرَّ في سكَّةٍ   يملأها بالطولِ والعرضِ
يَدُوسها الناسُ بأقدامهم   كأنهم أرضٌ على الأرضِ

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، قال: قال الجماز: كان لبعض أصابنا في الظاهرة تل تراب، فأتاه غلامه برجل يضرب له اللبِن، وقد حمل في عنقه قالباً وإذا لحيته ملء القالب، فقلت له: ليس في قالبك فضل يدخل فيه الطين مع لحيتك؟ فقال إني سأخرجها من القالب قبل ضرب اللبن، وإنما أردت أن أدفئها فيه قليلا، قال فلما رأيت حمقه، قلت: يحتاج أن يضرب في كل يوم

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٣٢/٣. وفي هذه الأبيات كفر شنيع فليحذر!

(٢) المخالي: جمع المخلاة: ما يوضع فيها الطعام للحمار وغيره.

(٣) الكوسج: خفيف اللحية.

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة: ٥٤. وأخرجه البخاري في اللباس: ٦٤. وابو داوود والنسائي.

ألف لبنة. قال خريم أنا أقدر على ذلك.

وقال الناجم[1]:

لابن شاهين لحيةٌ طولُهُ شطرُ طولها
فهو الدَّهْرَ كلهُ عاثرٌ في فضولها

ولولا القصد لجمع أعيان المعاني، والشرط المتقدم لتركت التشنيع، الملفوظ من المنظوم والمنثور، على أن العلماء لو تركوا رواية سخيف الشعر، لسقطت عنهم فوائد كثيرة، ومحاسن جمة موفورة، في مثل شعر الفرزدق، وجرير، والبعيث، والأخطل، وغيرهم، ولو لم يصلح ذكر الفروج بتصريح أسمائها، لكان تسمية أهل اللغة إياها بذلك خطأ، وهذا محال.

ومما قيل في الذمامة وقصر القامة ما ينسب لأبي نواس وهو لغيره[2].

إذا استنَّ في قوهية متَبختراً فقل جرذٌ يستنُّ في لبنٍ محضِ
فأقسمُ لوخرَّتْ من استك بَيْضَةٌ لما انكسرتْ من قربِ بعضك من بعضِ

وقال غيره:

ألا يا بَيْدَقَ الشِّطرنـ ج في القيمةِ والقامهْ

وقال آخر:

يعثر الناس في الطريـ قِ به من دمامتِهْ

وقال آخر:

فقامَ إلى الغلام أسى وغيظاً بقدٍ لم يزد فيهِ القيامُ

وقال[3] ابن الرومي:

أأنت تشتمُ عرضي وأنتَ في طول أيري

وقال الناجم:

ينقص الأحرار من شأنه وهو أخو القلةِ والنقصِ
كأنهُ البرغوثُ لم يخطه في صِغَر الجثمانِ والقرصِ

وقال:

وعازبُ الرأي ضعيفٌ مغرورٌ مكاثرٌ في العلم وهو مكثـ
في جسم عصفور وحلم عصفور

---

(1) الناجم هو سعد بن الحسين بن شداد السمعي، ابو عثمان، شاعر له صحبة مع ابن الرومي. مات سنة ٣١٤ هـ. (الأعلام: ٣/٨٤).

(2) ليسا في الديوان. في الأمالي ١/٢٧٨ وقد نسبهما إلى رجل من أهل الكوفة، وفيه:

إذا راح في قُبطيّةٍ متأزِّراً فقُل جُعَلٌ يستَنُّ في لَبَنٍ مَحْض

(3) ديوانه: ٣/١٧٢.

وقال آخر:

كأنهمُ كلي غنم الأضاحي ... إذا قاموا حسبتَهمُ قعودا

وفي غير هذا المعنى قول الآخر:

إذا لبسَ البياضَ فعدل قطن ... وان لبسَ السوادَ فعدل فحمِ

وقال[1] ابن الرومي في القبح والسواد:

وجهكَ يا جعفر من قبحه ... أولى من العروَةِ بالسترِ

كأنما تأوي إليه الدُّجى ... إذا هي انقضت عن الفجرِ

وقال ابن طباطبا في مجدور:

ذو جُدَرِيٍ وجْهُهُ ... يحكيه جلدُ السمكَةْ

أو جلدُ أفعى سلخت ... أو قطعةٌ من شبكه

أو حلقُ الدّرع إذا ... أبصرتها مشتبكه

أو سفر محبب ... أو كرشٌ منفركة

أو منخلٌ أو عرضٌ ... رقعته منهتكه

أو حجرُ الحمام كم ... من وسخ قد دلكه

أو كورُ زنبور إذا ... فرَّخَ فيه تركه

أو كدر الماءِ إذا ... أظهر فيه حبكه

أو سلحةٌ جامدةٌ ... تنقرُ فيها الدِّيكَةْ

يبغضه من قبحه ... كلُّ طريق سلكَهْ

وقد أبدع ابن الرومي[2]:

جُدَرِيٌ ما شأنها وهي شَينٌ ... كلُّ أثر في ذلك السوجهِ نقشُ

بدلت من ضفائر وقرونٍ ... حملَ أنفٍ فيه لفرخين عشٌ[3]

وقلت في غير هذا المعنى:

قد حسن ظاهرُهُ وباطنهُ ... وأمرَّ مخبرهُ ومنظرهُ

شعرٌ تجدَّدَ في عَوارضهِ ... مثل المكا الرطب تسفرُهُ

وقال ابن طباطبا في أسودين: أخبرنا أبو بكر أحمد، أخبرني عبد الله بن أبي عامر، قال: كان أبو الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا، قصد يوماً أبا علي بن رستم فصادف على بابه عثمانيين أسودين، كالفحم متعممين بعمامتين حمراوين، فامتحنهما فوجدهما من الأدب خاليين، فدخل مجلس ابن رستم وكتب في درج:

---

(١) ديوانه: ٣/ ١٥٠.

(٢) ديوانه: ٣/ ٣٣٠.

(٣) في الديوان: «عوّضت من ذوائب وقرون».

رأيتُ بباب الدَّار أسْوَدَيْنِ ذَوَيْ عمامتينِ حَمْرَاوَيْنِ
كجمرتَينِ فوْقَ فحمتينِ قد غادَرَا الرفضِ قرير العين
جَدُّ كما عثمانُ ذُو النُّوريْنِ فماله أنسلَ ظُلمتين
يا قبحَ شينٍ صادرٍ عن زَيْنِ حدائد تطبعُ من لجين
ما أنتما إلّا غُرابا بَيْنِ طيرا فقد وقعتما للحين
زورا ذوي السنة في المصرين المظهرين الحب للشيخين
وخليا الشيعةَ للسبطين لا تبرما إبرامَ رَبِّ الدينِ[1]
ستعطيانِ في مدى عامين صكاً بخفينِ إلى حنينِ

وقال أبو تمام يهجو عياشاً بعد ما مات:

كرت على اللؤم بما ساده وساءه كرَّتك الخاسرةْ[2]
أسهرتَ عينَ اللؤم منذ انطوتْ عليك أثوابُك بالساهرَهْ
قد كانت الدُّنيا شفتْ لوعتي منك ولكن لُذْتَ بالآخرهْ
يا أسدَ الموت تخلصتهُ من بين لحي أسدِ القاهرهْ
أجارك المكروهُ من مثله فاقرة نجتك من فاقره

وقال فيه:

وتصوَّر القبرُ الذي ضمنته حتى ظننا أنهُ المقبورُ[3]

فأتيح لأبي تمام مخلد الموصلي فهجاه بعد موته فقال:

سقى حمارك يا طائيُّ غاديةُ من المنى وقطعان من الكمرِ
حر الحُلاقِ وبرْدُ الشعرِ اتلفه فجاءَهُ الموتُ من حرِّ ومن حصر

ومما قيل في البرد أيضاً قول بعضهم في المبرد:

ويوم كنار الشَّوق في القلب والحشا على أنَّهُ منها أحرُّ وأومدُ[4]
ظللتُ به عند المبرِّد قائلا فما زلتُ في ألفاظِه أتبردُ

وفلج أحد الشعراء فسئل عنه رجل فقيل له: ما كان سبب فالجه؟ قال أكل بيتين من شعره.

ومن جيد ما قيل في برد الغناء قول بعضهم:

كاد من بردِهِ يجمد روحي ضَرَبَ اللّهُ شقّه بغنائه

وقال غيره:

غنى لنا نصرٌ فقلنا له مصعبُ جرَّاك على السبعِ
وحرَّك العودَ بأطرافهِ فكان يحتاجُ إلى الصفع

---

(١) السبط: ولد الولد.
(٢) الابيات ليست في الديوان.
(٣) في الديوان: «الذي اسكنته».
(٤) الوَمَد: الحر الشديد.

فقمت من مجلسه هارباً أدعو على كفيه بالقطعِ

وقال كشاجم:

ومغنٍّ بارد النغمة مختلّ اليدينِ
ما رآه أحدٌ في دارِ قومٍ مرَّتين
صوته أقطع للذات من صيحة بينِ

وقلت:

قد أسمعتنا غناءً لا خلاقَ به كما تعرّك آذانَ السنانيرِ
حتى إذا ارتفعت في الصوت لا ارتفعت أهدت لسمعيَ تهديرَ الخنازيرِ
وكلما انخفضتْ فيه مزمزمة خلت الزَّنابيرَ تشدو في القواريرِ
لا تَخْدعنَّهُ بأثوابٍ مُصَبَّغةٍ نصبتهنَّ شراكاً للمدابيرِ

وقال[1] ابن الرومي:

وإذا غنت ترى في حلقها كلّ عرقٍ مثلَ بيت الأرَضه

وقال الناجم:

وقينة شتمها قنوتُ أحسن أصواتها السكوتُ
مفقودة الكلِّ غير بطن مثقل فهي عنكبوتُ

وقال غيره:

كأن أبا الحسين إذا تغنى يحاكي عاطساً في عين شمسِ
يلوك لسانه طوراً وطوراً كأنَّ بضرسه ضرَبانَ ضِرسِ

وقال المصيصي[2]:

وتحسب الندمان في حلقه دجاجةً يخنقها ثعلبُ
ما عجبي منه ولكنني من الذي يعجبه أعجبُ

وقلت في عواد:

يقول لنا غير ما يضرب ويضربُ غير الذي نحسبُ
ككيسان يكتبُ غير الذي يقول المحدِّثُ والمكتب
فيكتبُ غيرَ الذي قاله ويقرأ غير الذي يكتب
فصمتاً إذا شئتَ اطرابنا فنحن إذا قلتَ لا نطربُ

---

(١) ديوانه: ٤/٥٢.

(٢) المصيصي: عبد الله بن الحسين بن جابر البغدادي، إمام محدّث، صاحب رحلة وفضل. مات بعد سنة ٢٨٠ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٣/٣٠٧).

ولا تـأتـيـنـي إذا جئـتـنـي فـإنـي إذا جئـتـنـي أذهـب

وقلت:

تـغـنـى لـنـا فـجـعـلـنا عليـه عـمـائم تـنـزع جلدَ الـقـفـا
جـعـلـنـا الـلطامَ لـهـا لـحـمـةً ونـتـفَ الـشـوارب فـيـهـا سـدى

ومن جيد ما قيل في تغير وجوه الأحداث عند خروج اللحى قول البسامي[1]:

قـالـوا تـغـيـرَ عـن مـلاحـتـه قـلتُ الـزَّمـان يـريـكـمُ الـعـبـرا
يـا زهـرةً ومـحـاسـنـاً مُـسـخـت مـاذا لـحـاه الـشـعـر لـو شـعـرا
قـد كـانـت الأبـصـارُ تـجـرحـه والـيـوم يـجـرحـهـا إذا حـضـرا

وقال سعيد بن حميد[2]:

فـالآن حيـنَ بـدَتْ بـخـدِّك لـحـيـةٌ ذهبت بـملحـك مـلء كفِّ الـقـابضِ

وقال ابن طباطبا:

يـا مـن يـزيـل خـلـقـة الـر حـمـن عـمـا خـلـقـتْ
تـب وخـفِ الـلَّهَ عـلـى كـفـك مـمـا اجـتـرحـتْ
هـل لـك عـذرٌ عـنـدهُ إذا الـوحـوشُ حـشـرت
بـلحـيـةٍ إن سُئلت بـأيٍّ ذنـب نـتـفـتْ

وقلت:

حـصـلت في بيـتي ذا غـلظة كـأنـني مشطُ ابـنِ مـنـصـورِ
يـالـحـيـةً هـتـك أسـتـارهـا بـأصـبـع مـنـه وأظـفـور
فـخـدُّه مـن سـح تـارةً وتـارة مـن قـشـر بـلور
فـتـارة كـالمـسـك في لـونـه وتـارة فـي لـون كـافـورِ
يـعجـبـه المـردُ فـيحـكـيـهـمُ حـكـايـة زور مـن الـزورِ
يقـول مـا أحسـنَ ربّ الـورى إذ غـرَسَ الـظلمـةَ في الـنـورِ

وقلت:

من شقـوةِ الـمـردِ أن تبـدو شـواربـهم مـسـودّةً قـبـلَ أن تـبـدو عـوارضـهـم
يـا ويحهم من لحى جـدَّت مـنـاقشـهم فـيـهـنَّ أو لـعـبـتْ فـيـهـا مـقـارضـهـم

قد أتيت في هذا الفصل على ما فيه مقنع وبالله التوفيق.

---

(١) البسّامي: علي بن محمد بن نصر بن منصور، ابو الحسن بن بسّام. شاعر هجّاء، عالم بالأدب والأخبار. مات سنة ٣٠٢ هـ. (الأعلام: ٤/٣٢٤).

(٢) سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان، كاتب مترسل من الشعراء، تقلد ديوان الرسائل للمستعين العباسي. مات سنة ٢٥٠ هـ. (الأعلام: ٣/٩٣).

الفصل الثالث

في الاعتذار

الإعتذار أيدك الله ذلة، ولا بد منه، لأن الإصرار على الذنب، فيما بينك وبين خالقك هلكة، وفيما بينك وبين صديقك فرقة، وعند سائر الناس مثلبة وهجنة، فعليك به إذا واقعت الذنب، وقارفت الجرم، ولا تستنكف من خصوعك وتذللك فيه، فربما استثير العز من تحت الذلة، واجتنى الشرف من شجرة الندلة، ورب محبوب في مكروه.

والمجد شهد يجتنى من حنظل

ومما خص به الإعتذار أن الحق لا يثبت لباطله، والحقيقة لا تقوم مع تخييله. وتمويهه، وإن رده لا يسمع من الكذب اللائح في صفحاته، وقالوا: المعاذير مكاذب، ويقولون مع ذلك لا عذر في رد الاعتذار والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له. وهذه خصلة لا يشركه فيها غيره، ولم يرو عن أحد قبل النابغة الذبياني في الاعتذار شعر فيه أجود منه، ومما نرويه له فيه قوله حين سعى به المنخل(١) اليشكري إلى النعمان، وزعم أنه غشي المتجردة حظية النعمان وذلك حين وصفها النابغة فقال (٢):

وإذا لمستَ لمستَ أخثم جاثما ... متحيزاً بمكانه ملءَ اليدِ
وإذا طعنتَ طعنتَ في مستهدفٍ ... رابي المجسَّةِ بالعبيرِ مقرمدِ
وإذا نزعتَ نزعت عن مستحصفٍ ... نَزْعَ الحزَوَّر بالرشاء المحصدِ

فقال المنخل للنعمان: هذا وصف من ذاقها. فوقر في نفس النعمان، ثم وفد عليه رهط من بني سعد بن زيد مناة بني قريع، فأبلغوه أن النابغة ما زال يذكرها ويصف منها، فأجمع النعمان على الإيقاع بالنابغة، فعرفه ذلك عصام حاجب النعمان وهو الذي قيل فيه:

---

(١) المنخّل اليشكري بن مسعود بن عامر، شاعر جاهلي، كان ينادم النعمان بن المنذر، وهو الذي سعى بالنابغة الذبياني إلى النعمان في أمر المتجردة. مات سنة ٢٠ ق . هـ . (الأعلام: ٢٩١/٧).

(٢) ديوان النابغة: ١٥٠. وفي الأصل: «لمست اجثم». «متحيراً بمكانه». والأخثم: الرُّكب الضخم.

نـفس عــصــام سَــودَتْ عــصــامــا

فصار يتمثل به فيقال عصامي وليس بعظامي، وإذا كان يكسب المآثر لنفسه ولا يتكل على مآثر الأموات من أسلافه، ويقولون كن عصامياً لا عظامياً. فانطلق النابغة إلى آل غسان، وكانوا قتلوا المنذر ولد النعمان، فزادهم لحاق النابغة بهم حشمة ثم اتصلت به كثرة مدائح النابغة لهم، فحسدهم عليه فأمنه وراسله في المصير إليه، فصار إليه وجعل يعتذر مما قرف به ومن مدحه لآل غسان في قوله(١):

حـلفتُ فـلمْ أتـركْ لـنفسـكَ ريبـةً ... ولـيسَ وراءَ اللّهِ لـلمـرءِ مَـذْهـبُ
لئِنْ كنتَ قـد بُلغتَ عني خيـانَـةً ... لـمبْـلـغُـك الـواشي أغشُّ وأكـذب
ولـستَ بـمستبـق أخـاً لا تـلمُّـهُ ... على شَعـثٍ أيُّ الـرجـالِ المهـذَّبُ

وقد ذكرنا هذا في أول الكتاب، وقوله(٢):

وعـيـدُ أبي قـابـوسَ في غيـرِ كُـنهـه ... أتـانـي ودوني راكسٌ فـالـضـواجـعِ(٣)
فـبـتُّ كـأنـي سـاورتـنـي ضـئـيـلةٌ ... من الـرُّقش في أنيابهـا السمُّ نـاقـعُ(٤)
أتـانـي أبيتَ اللعـنَ أنـك لـمتـنـي ... وتـلك التي تستـك منهـا المسـامـعُ

إلى أن قال(٥):

فـإن كـنت لا ذو الـضغـن عني مكـذَّبٌ ... ولا حَـلِفـي عـلى الـبـراءة نـافـعُ
ولا أنـا مـأمُـونٌ بـشـيء أقـولـهُ ... وأنـت بـأمـر لا مـحـالـةَ واقـعُ
فـإنـك كـالليـل الـذي هـو مـدركي ... وإن خِـلْتُ أنَّ المنتـأى عـنـك واسـعُ

وقال(٦):

أنـبئت أنَّ أبـا قـابـوس أوْعـدَنـي ... ولا قـرار عـلى زأرٍ مـن الأسـدِ(٧)
مـهـلاً فِـداءٌ لـكَ الأقـوام كـلهـم ... ومـا أثـمِّـرُ مـن مـال ومـن ولـد
لا تـقـذفَـنّـي بـركـن لِاكـفـاءَ لـه ... وإن تـأثّـفـكَ الأعـداء بـالـرِّفَـدِ(٨)
مـا قـلت من سيء مـمـا أتيت بـه ... إذاً فـلا رفعـتْ سـوطي إليَّ يـدي
هـا إنَّ ذي عـذرة إلا تـكـن نـفعـتْ ... فـإنَّ صـاحبهـا قـد تـاه في البلد(٩)

---

(١) ديوان النابغة: ٤٥.

(٢) ديوان النابغة: ٨٠.

(٣) ابو قابوس: كنية النعمان. راكس والضواجع: موضعان.

(٤) الضئيلة: الحية.

(٥) ديوان النابغة: ٨٤.

(٦) ديوانه: ٢٩.

(٧) في ديوانه: «ولا مقام على».

(٨) لا كِفاء له: لا نظير له. تأثّفك الأعداء: صاروا حولك كالأثافي.

(٩) في ديوانه: «فإن صاحبها مشارك النكد».

فخلع عليه النعمان خلع الرضا، وكن حبرات خضرا مطرفة بالجواهر، وقد ذكرنا الحديث بطوله فيما تقدم. وما سلك أحد طريقته هذه فأحسن فيها كاحسان البحتري: أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا الصولي: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى، فليس للعرب مثلها، وقصيدته في صفة البركة:

ميلوا إلى دار من ليلى نحييها

واعتذاراته في قصائده إلى الفتح التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة مثلها، وقصيدته في دينار التي وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله وهي التي أولها:

ألم تر تغليس الربيع المبكر

وصفة حرب المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه، فكيف وقد انضاف إلى هذا صفاء مدحه، ورقة تشبيهه في قصائده!؟ فمن اعتذاراته قوله في قصيدته التي أولها:

لوت بالسلام بناناً خضيبا

فقال[1] فيها:

فَدَيْنَاكَ من أيِّ خطب عرا ... ونائبة أوشكتْ أن تنوبا
وإن كان رأيك قد حالَ فيَّ ... فلقيتني بعد بشرٍ قطوبا[2]
يريبني الشيء تأتي به ... وأكبر قدرك أنْ أستريبا
وأكبرُهُ أن أتمادى على ... سبيل اغترار فألقى شعوبا
أكذِّب نفسي بأن قد جنيت ... وما كنت أعهد ظني كذوبا[3]
ولو لمْ تكنْ ساخطاً لم أكنْ ... أذُمُّ الزَّمانَ وأشكو الخطوبا
أيصبح وردِيَ في ساحتيك ... طرقاً ومرعايَ محلاً جديبا
وما كان سخطُك إلا الفراق ... أفاضِ الدُّموعَ وأشجى القلوبا
ولو كنتُ أعرف ذنباً لما ... تخالجني الشكُّ في أن أتوبا
سأصبرُ حتى ألاقي رضاك ... إما بعيداً وإما قريبا
أراقبُ رأيكَ حتى يصحَّ ... وأنظرُ عطفك حتى يثوبا

وقوله[4]:

عذيري من الأيام رنقنٍ مشربي ... ولقينني نحساً من الطيرِ أشأما
وأكسبنني سخط امرىء بت موهناً ... أرى سخطه ليلاً مع الليل مُظلما
تبلجَ عن بعض الرِّضا وانطوى على ... بقية عتب شارفتْ أن تصرَّما

---

(١) ديوان البحتري: ١/٦١ ص.
(٢) في الأصل: «فأوليتني بعد». وقطوب: عبوس.
(٣) في الديوان: «أكذب ظني بأن قد سخطت».
(٤) ديوان البحتري: ١/٦٢ ص.

إذا قلت يوماً قد تجاوزَ حدّها تلبثَ في أعقابها وتلوَّما
وأصيد إن نازَعْتَهُ الطرفَ ردَّهُ كليلاً وإن راجعتهُ القولَ جمجما[1]
ثناه العدى عني فأصبح معرضاً وأوهمه الواشون حتى توهما
وقد كان سهلاً واضحاً فتوَّعرت رُباه وطلقاً ضاحكاً فتجهما
أمتخذٌ عندي الاساءة محسنٌ ومنتقمٌ مني امرءٌ كان منعما
ومكتسبٌ فيَّ الملامةَ ماجدٌ يرى الحمدَ غنماً والملاحةَ مغرما
يخوفني من سوءِ رأيك معشرٌ ولا خوف إلا أن تجورَ وتظلما
أعيذك أن أخشاك من غير حادث تَبيَّن أو جرمٍ إليك تقدَّما
ألست الموالي فيك نظم قصائد هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجما[2]
أعِدْ نظراً فيما تسخطتْ هلْ ترى مقالاً دنيئاً أو فعالاً مُذَمَّما
رأيت العراق ناكرتني وأقسمتْ عليَّ صروف الدَّهر أنْ أتشأما
وكان رجائي أن أؤوبَ مملكا فصار رجائي أن أؤوب مسلما[3]
حياء فلم يذهب بي الغيُّ مذهبا بعيداً ولم أركبْ من الأمر معظما
ولم اعرف الذَّنب الذي سؤتني له فأقتل نفسي حسرةً وتندما
ولو كان ما خبرتهُ أو ظننته لما كان غرواً أن ألومَ وتكرما
أذكرك العهد الذي ليس سؤدداً تناسيه والودُّ الصحيحَ المسلما
وما حمل الركبان شرقاً ومغرباً وأنجدَ في أعلى البلادِ وأتهما[4]
أقرُّ بما لم أجنهِ متنصلاً إليك على أني أخالكَ ألوما
ليَ الذَّنبُ معروفاً وإن كنتَ جاهلا به فلك العتبى عليَّ وأنعما
ومثلك من أبدي الفعالَ اعادةً وإن صنعَ المعروف زاد وتمما

ونحن نقول: إن لكل شيء ثمناً وثمن خضوع المعتذر قبوله.

وكتبت:

وسيلتي إليك الثقة بكرم أخلاقك، وشرف أعراقك، وقد طلبت المسامحة منك بك، وجعلت كرمك أقوى أسبابي إليك، وقد خفضت لك جناح الذل في التنصل مما فرط، فتفضل عليّ بالقبول، لئلا يلحقني هجنتان: هجنة تذللي لك، وأخرى ردك لي. وقد قيل: ارض لطالب الخضوع وللقارف[5] ذنباً مذلة الإعتذار.

---

(١)) في الديوان: «نازعته اللحظ. الأصيد: السيد. الكليل: الضعيف.

(٢)) في الديوان: «غر قصائد».

(٣)) آبَ: عاد.

٤)) أنجد وأتهم: ذهب إلى نجد وتهامة.

٥)) القارف الذنب: مرتكبه.

وفي هذا المعنى ما كتب بعضهم:

لما تعذر عليّ العذر، جعلت معولي على فضلك أبلغ عذر أقدمه وأقوى سبب أؤكده.

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي روق، عن السكري، عن إبراهيم الندى قال: قلت لرجل: ما حملك على بذلك وجهك في حرائج الناس؟ قال: إني لم أسمع شيئاً أحسن من بناء حسن، على رجل أحسن، ومن شكر حر، وشفاعة شفيع لطالب شاكر، ولأني لا أبلغ المجهود، ولا أسأل من لا يجود، وليس صدق العذر عندي بدون إنجاز الوعد، ولا إكداء السائل بأغلظ من الأجحاف بالمسؤول، ولا أرى الراغب إلي بالمسألة بحسن ظنه بي أوجب حقاً علي من المرغوب إليه الذي يتحمله من لدي، والعرب تقول: إن مع الهيبة الخيبة، والفرصة خلسه، فثب عند صدور الأمور، ولا تتبع اعجازها. وقال ابن المعتز؟ العذر مع التعذر واجب.

ومن أعجب الأعتذار في التقاضي قول بعضهم:

هـزَزْتـك لا أنـي ظنـنـتـك نـاسـيـاً　　لـوعـدٍ ولا أنـي أرَدْتُ الـتـقـاضـيـا
ولـكـن رأيـتُ الـسـيـفَ في حـالِ سـلـه　　إلى الهـزِّ محتـاجـاً وإن كـان مـاضـيـا

ومن مليح ما يجري في هذا الباب: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن العتبي، عن أبيه، عن شيخ من قريش، قال: قال رجل لسليمان بن عبد الملك:

إن القدرة تمنع الحفيظة، وأنت تجل عن العقوبة، وإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفا عنه، فأخذه بعض المحدثين فقال:

فـإن عـاقبتـني فـبسـوءِ فـعلي　　ومـا ظلمتْ عقـوبـةُ مستفيـدِ
وإن تغفـر فـإحسـانٌ جـديـدٌ　　دعـوتَ بـه إلى شكـر جـديـدِ

تم الباب والحمد لله وحده.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اللهم عونك. جمع الله شملك، ووصل حبلك، ومعتك بأحبتك، وأعطاك مأمولك. في نفسك وأعزتك، وأعاذك من قطيعة أحبابك، وجنبك تجنب أودائك، ولا جعل للهجر عليك سبيلا، ولا للفراق عليك دليلاً، لينعم باللذة جسمك، ويعمر بالسرور قلبك، فتعيش في ضمان الفرح، ويبؤ حاسدك باعباء الترح، إنه حميد مجيد فعال لما يريد.

العشق، أدام الله توفيقك، من شرائف أخلاق الفتيان، وكرائم سجايا الشبان، يطلق لسان العييّ، ويفتق حيلة الُبليد، ويبعث على السخاء بما تسمح به نفس الكريم، وينحر دون بذله اللئيم، ويدعو إلى استعمال الفتوة، واظهار المروءة في تنظيف اللباس، وتحسين الرياش، ويجدد حب المساعدة والائتلاف، وكراهة التباين والاختلاف، إلى غير ذلك من محمود الحال، وممدوح الخصال، وإذا رزقت منه نصيباً جزلاً فوفه حقه، واسلك به طرقه، وتأمل ما أهديت إليك فيه فإنه يعينك عليه، ويحسن أسبابه لك، ويكبت لائمك فيه، ويكون جلاءً لناظرك، وشحذاً لخاطرك، إن شاء الله سبحانه وتعالى.

هذا كتاب المبالغة

في التشبب وأوصاف الحسان وما يجري مع ذلك وهو

الباب الرابع من كتاب ديوان المعاني

قالوا: أرق بيت قالته القرب قول[1] امرىء القيس:

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لتضربي ... بسهميكِ في أعشار قلبٍ مقتلِ[2]

يقول: ما بكيتَ إلا لتجرحي قلباً معشراً أي مكسراً، يقال برمة اعشار إذا كانت مشعوبة،

(١) ديوانه: ٣٨.

(٢) السهمان: كناية عن العينيين.

يريد أن قلبه عليل، وأنت تزيدينه علة بسهميك، يعني عينيها، والمقتل المذلل.

ومثله قول الشاعر:

رمتْك ابنةُ البكريّ عن فرعِ ضالةٍ ... وهنَّ بنا خوصٌ يخلن نعائما[1]

ولم نسمع للأعشار بواحد.

وأخبرنا أبو أحمد قال حكى لي عن ابن سلام أنه قال أنسب بيت قالته العرب:

ولما التقى الحيّانِ ألقيت العصا ... وماتَ الهوى لما أصيبت مقاتله

وقالوا: أنسب بيت قالته العرب قول الآخر:

إذا قلتُ إني مُشتَفٍ بلقائها ... فحم التلاقي بيننا زادنا سقما

وأبلغ من هذا قول[2] أبي نواس:

ما يرجعُ الطرفُ عنها حينَ أبصرها ... حتى يعودَ إليها القلبُ مُشتاقا

وقد أحسن[3] ابن الرومي ولا أعرف في معناه أبلغ منه:

أعانقها والنفسُ بعد مَشوقَةٌ ... إليها وهلْ بعد العناقِ تداني

وألثم فاهاكي تموتَ حزازتي ... فيشتدُّ ما ألقى من الهيجانِ[4]

وما كان مقدار الذي بي من الجوى ... ليشفيه ما ترشفُ الشفتان

فإنَّ فؤادي ليس يشفى رسيسهُ ... سوى أن ترى الروحان تمتزجانِ[5]

ومن البليغ في الاشتياق، وما أنشدنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الحسين بن إسماعيل:

هبَّتْ شمالاً فقالَ من بلد ... أنت به طابَ ذلك البلدُ

وقبَّلَ الريحَ من صبابتهِ ... ما قبَّلَ الريحَ قبلُ أحدُ

وأبلغ ما قيل في شدة الحب: قول بعضهم، وقد قيل له ما بلغ من حبك فلانة؟ قال إني أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها.

وقال نصر بن الحجاج لامرأة: أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك، أو كان تحتك لأقلك، أخذه بشار فقال[6]:

إني لأكتُم في الحشى حباً لها ... لو كانَ أصبحَ فوقَها لأظلّها

ويبيت بينَ جوانحي وَجدٌ بها ... لو باتَ تحتَ فراشها لأقلها

وقلت:

---

(1) الخُوص: ورق النخل.

(2) ديوانه: ٤٤٤.

(3) ديوان ابن الرومي: ٦/٢٢٢.

(4) في الديوان: «ما ألقي من الهيمان». والحزازة: الغرام والشوق.

(5) في الديوان: «كأن فؤادي ليس يشفى رسيسه . . . أن يرى الروحين . . .».

(6) ديوانه: ٥٨٦.

أحبـك يـا شبيـهَ الشـمسِ حبـاً تـفـرَّدَ بـالـتـمـام فـلا تـمـامُ
فـلـو ألـقـيـتـهُ مـا بـيـنَ مـاءٍ ونـارٍ كـان بـيـنـهـمـا الـتئـامُ

وقال[1] ابن الرومي في اجتماع الأهواء على محبوبه:

سلالـةُ نـورٍ ليس يـدركهـا اللمس إذا ما بدا أغضى لـه البدرُ والشمسُ
بـه أمست الأهـواءُ يجمعهـا هـوى كـأنَّ نفوس النـاس في حُبه نفس[2]

وقال بشار:

ولـستُ بنـاسٍ مـن يـكـونُ كـلامُـه بـأذني وإنْ غُيِّبْتُ قُـرطـاً معـلّقـا[3]

ومن ظريف التشبب أيضاً[4] قول ابن المعتز:

كـذبتَ يـا من لحـاني مـن مَـودَّتِـهِ مـا صُـورَةَ البـدرِ إلا دُونَ صُـورَتِـهِ
يـا ربَّ أن لَمْ يكـنْ في وصـله طَمَـعٌ ولم يكـنْ فَـرَجٌ من طـول جَـفْـوَتِـهِ
فـاشف السقـامَ الـذي في لحظ مُقلتِـه واسـتـر مـلاحـةَ خَـدَّيْـهِ بلحيتِـه

ومن الظريف قول كشاجم:

كـأنَّ الـشـفـاه الـلعسَ منـهـا خـواتـمٌ مِـنَ التبـرِ مختـومٌ بهـنَّ عـلى الـدُّرِّ[5]

ولا أعرف في وصف الفم أحسن من هذا.

وأحسن ما قيل في حث الشوق، من قديم الشعر، قول عمرو بن شأس الأسدي[6]:

إذا نـحـن أدلـجنـا وأنـت امـامـنـا كفى لمـطايانـا بـذكـرنـا حـاديـا[7]
ألـيس يـزيـنُ الـعيسَ خـفـةُ أذْرع وإن كنّ حسـرى ان تكـون امـاميـا[8]

وأتم من ذلك شرحاً قول الآخر:

إذا عـقـلت خـبـتْ وإنْ هـي خُـلِّيـتْ لـتـرْتَـعَ لم تـرْتَـعْ بـأدنـى المـراتـعِ
كـأنَّ لـديـهـا سـائـقـاً يـسـتـحـثـهـا كفى سـائقـاً بـالشـوِق بينَ الأضـالـعِ

ومن جيد ما قيل في ازدياد الشوق على القرب قول الآخر:

---

(١) ديوانه: ٢٩٢/٣. وفيه: «ليس يُدركه».
(٢) في الأصل سقطت «به».
(٣) البيت في ديوان بشّار: ٥٦٧.
(٤) ديوانه: ٩٠.
(٥) الشفاه اللعس: الضاربة إلى السواد. التبر: الذهب.
(٦) عمرو بن شأس بن عبيد بن ثعلبة، شاعر جاهلي مخضرم، ادرك الإسلام وأسلم. مات سنة ٢٠ هـ. (الأعلام: ٧٩/٥).
(٧) البيتان في الأغاني: ٢٠١/١١. وفيه: «وكفى لمطايانا بوجهك هادياً. وأدلج: خرج ليلاً.
(٨) في الأصل: «أليس يزن». وفي الأغاني: «اليس يزيد». العيس من الامِل: البيض مع شُقرة.

صَبٌّ يحثُّ مطاياهُ بذكركُم وليس ينساكم إن حلَّ أو سارا[1]
يَرجُو النجاةَ من البلوى بقربكم والقلبُ يلهبُ في أحشائه نارا

ومن ظرف الأعرابي قوله أنشده المبرد:

وعود قليل الذنبِ عاودتُ ضربهُ إذا عادَ قلبي في معاهِدها ذكرُ
وقلتُ لهُ ولقاءُ ويحك سبَّبتْ لك الضربَ فاصبر إنَّ عادَتك الصبرُ

ونحوه قول الآخر:

قد قطعَ الاحراجُ أعناقَ الابل فهي تسيرُ سيرَ مشتاقٍ عَجِلْ

وقول الآخر وقد ألغز:

إنَّ لها لسائقاً خَدلجا لم يُدْلج الليلةَ فيمن أدلجا

وفي خلاف ذلك يقول العباس بن الأحنف:

أيامَ يقتلُ شوقَها زيارتي كالماء يقتلُ بردهُ عطشَ الصّدى[2]

فأما أجود ما قيل في التذكر على البعد فقول بعضهم:

أذكر أخانا تولى اللّهُ صحبتهُ إني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاه
اللّهُ يعلم أني لستُ أذكره وكيف يذكره من ليسَ ينساه

وقلت:

ذَكرتُهمْ والنوىَ بيني وبينهمُ ذكرَى الشبابِ الذي قد كانَ عاصاني
بل كيفَ أذكر عهداً لستُ ناسيهُ هل يعرضُ الذِّكر إلا بعد نسيان

ونحوه يقول السري:

غضبان ينساني وأذكرُه وينامُ عن ليلى وأسهرهُ
وبجوره ماضار مورقه حظى وحظَّ سواي مثمرهُ
وكفى الهوى لو كانَ مكتفياً ما رُحت أضمره وأظهرهُ
لم يقتسم في العاشقينَ أسى إلا وحظِّي منهُ أوفرهُ
فأصبح في نفس أصعدهُ وأعوم في دمع أحدِّره

ومن مليح ذلك قول[3] بشّار:

ولستُ بناسٍ من يكون كلامه بأذني وإن غيِّبتُ قُرطاً معلّقاً

أجود ما قيلَ في إخفاء الحركة، عند زيارة المعشوق، من الشعر القديم قول[4] امرىء القيس:

---

(1) صبٌّ: مشتاق.
(2) الصدى: العطش.
(3) ديوان بشّار: ٥٦٧.
(4) ديوانه: ١٤١.

سمـوت إليـهـا بَعـدَ مـا نـامَ أهـلهـا ... سمـوٌّ حبـابِ المـاء حـالاً على حـالِ

وأحسن من هذا وأظرف قول وضاح اليمن[1]:

واسقطْ علينـا كسقـوطِ النَّـدَى ... لـيـلةَ لانـاهٍ ولازاجـرُ

وهذا أبلغ أيضاً، لأن سقوط الندى أخفى من سمو حباب الماء، لأن لسمو حباب الماء صوتاً خفيا، ليس ذلك لسقوط الندى وهو من أبيات ظريفة أولها:

قـالـتْ ألا لاتـلجـنْ دارنـا ... إنَّ أبـانـا رجـلٌ غـائـرُ
أمـا رأيـتَ الـبـابَ مـن دونـنـا ... قـلتُ: فـإنـي واثـبٌ ظـافـرُ
قـالتْ: فـإنَّ القـصـرَ من دونـنـا ... قـلتُ: فـإنـي فـوْقَـهُ ظـاهـرُ
قـالـت: فـإنَّ الـلـيـثَ عـادٍ بـه ... قـلت: فسيـفي مُـرهـفٌ بـاتـرُ
قـالت: فهـذا البحـرُ مـا بيننـا ... قـلت: فـإنـي سـابـحٌ مـاهـر
قـالـتْ: أليسَ اللّهُ من فـوقنـا ... قـلت بـلى وهـو لـنـا غـافـر
قـالـت: فـأمـا كنت أعـيـيتنـا ... فـأت إذا مـا هـجـعَ الـسـامـرُ
واسقط علينـا كسقـوط الـنـدى ... لـيـلةَ لانـاهٍ ولا زاجـرُ

ومن مليح ما جاء في هذا المعنى قول المؤمل[2]:

وطـارقـاتٍ طـرقـنـنـي رَسـلاً ... والـليـلُ كـالـطيلسـان مُـعـتـكـرُ[3]
فـقـلنَ جئنـا إلـيـكَ عـن ثـقـةٍ ... مـن عـنـد خـود كـأنـهـا قـمـرُ
هـل لـكَ فـي غـادةٍ مُـنـعـمـةٍ ... يـحـارُ فيـهـا من حسنِهـا الـنـظرُ
في الجيـدِ منهـا طُـولٌ إذا التـفتت ... وفـي خـطاهـا إذا مـشـت قـصـر
فقمتُ أسعى إلى مُحَجَّبةٍ تضيء منها البيوتُ والحجرُ
فـقـلتُ لـمـا بـدا تـخـفّـرُهـا ... جُـودي ولا يـمنـعـنْـك الـخـفـر
قـالـت: تـوَّقـرْ ودَع مـقـالـك ذا ... أنـت امـرؤٌ بـالـقبـيـح مشتَـهـر
والله لا نـلتَ مـا تـطالـبُ أو ... ينبـتَ في بـطنِ راحـتَي شَـعَـر
لا أنـت لـي قـيـمٌ فـتـخـبـرنـي ... ولا أمـيـرٌ عـلـيَّ مـؤتـمـر
قـلت: ولـكـنْ ضـيـفٌ أتـاك بـه ... تـحتَ الـظلام الـقـضـاءُ والـقـدرُ
فـاحـتـسـبي الأجرَ فـي إنـالـتـه ... وبـاشـرى قـد تـطاوَلَ الـعـسر
قـالـت: فقـد جئتَ تبتغي عـمـلاً ... تـكـادُ مـنـهُ الـسـمـاءُ تـنـفـطرُ

---

(١) وضّاح اليمن: عبد الرحمن بن اسماعيل الخولاني الحميري، شاعر رقيق الغزل، ولقبه وّضاح لبهائه. قتله الوليد بن عبد الملك لأنه تغزّل بزوجته سنة ٩٠ هـ. (الأعلام: ٣/٢٩٩).

(٢) المؤمّل بن أميل بن أسيد المحاربي، شاعر من اهل الكوفة، أدرك العصر الأموي واشتهر في العصر العباسي. مات سنة ١٩٠ هـ. (الأعلام: ٧/٣٣٤).

(٣) الطيلسان: ثوب أسود مع غطاء للرأس.

فقلتُ لما رأيتُها حرجت ... وغشيتها الهمومُ والفكرُ
لا عاقبَ اللَّهُ في الصِّبا أبداً ... أنثى ولكن يعاقَبُ الذَّكر
قالت: لقد جئتنا بمبتدَع ... وقد أتتنا بغيرِهِ النُّذُر
قد بينَ اللَّهُ في الكتابِ فلاً ... وازرةٌ غيرَ وزرِها تزِر
قلت: دَعي سُورةً لهجْت بها ... لا تحرِمَن لذاتِنا السورُ
وجهُك وجهُ تمَّتْ محاسِنُه ... لا وأبي لا يَمَسُّه سقرُ[1]

ومثل هذا أصعب ما يرام من الشعر، ولا يكاد يوجد في هذا المعنى أحسن من هاتين المقطوعتين.

ومن أحسن ما عذر به المعشوق في سوء فعله قول كشاجم:

تستدفع الأعين عن حسنها ... بعوذة من سوء أفعالها

وهي من أبيات قليلة النظير:

هلْ حاكمٌ يعدي على ظبيةٍ ... ظالمة في كلِّ أفعالها
دائمة الإعراضِ عني فما ... يخطرُ لي ذكرٌ على بالها
صغيرةٌ عظمها حُبُّها ... عندي وأغراني بإجلالها
تستدفع الأعينَ عن حسنها ... بعوذةٍ من سوء أفعالها
لم أطع العذَّالَ فيها وقد ... أصغتْ إلى أقوالِ عذالها
تمضي بليلٍ فإذا أقبلتْ ... أقبلت الشمسُ بإقبالها
قلت: وقد أبصرتها حاسراً ... عن ساقها فاضل سربالها
لو لم يكن من بردِ ساقها ... لا حترقتْ من نارِ خلخالها[2]

وأحسن في هذا المعنى ولا أظنه سبق إليه.

وقد أحسن ابن الرومي في ذكر الخلخال والساق أيضاً وهو قوله[3]:

وإذا لبسنَ خلاخلاً ... كذّبْن أسماءَ الخلاخلِ

يقول: لا تخلخل الخلاخل في سوقهن، أي لا تتحرك فقد كذبته أسماؤها، وذلك أن اشتقاقها من التخلخل وهو التحرك.

وفي نحو ما تقدم قول كشاجم:

وكأنَّ الشمسَ نيط بها ... قمرٌ يمناهُ والقدحُ
صدَّ إذ مازحتهُ غضباً ... ما على الأحباب إذ مزحوا
وهو لا يدري لنخوتهِ ... أننا في النوم نصطلح

---

(١) سقَر: نار جهنم.

(٢) الخلخال: سوار تضعه المرأة في ساقها.

(٣) ديوان ابن الرومي: ٥/٢١٤.

ثمَّ لا أنسى مقالته «أطفيليٌّ ويقترح»

ومن أفراد المعاني قول الشاعر:

وإني لأغضي الطرفَ عنها تستراً ولي نظرٌ لولا الحياءُ شديدُ
ونبئتُها قالتْ لقد نلتُ ودَّهُ وما ضرَّني بخلٌ فكيفَ أجُودُ

وقالوا أنسب بيت قالته العرب قول الآخر:

ستبقى لها في مُضمرِ القلبِ والحشا سَرِيرَةُ وُدٍّ يومَ تبلى السرائرُ

ومن أجود ما قيل في حسن الحبيب، في عين المحبوب، قول[1] عمر بن أبي ربيعة:

خرَجْتُ غداةَ النحرِ أعترضِ الدُّمَى فلم أرَ أحلى منك في العينِ والقلبِ
فواللَّه ما أدري أحسناً رزقته أم الحبُّ يعمي مثل ما قيل في الحبِّ

وهو من قول النبي ﷺ: «حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويصمّ»[2] وأنشدني أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن سعيد الشامي، عن الزبير بن بكار، لعمر بن أبي ربيعة[3]:

زعموها سألتْ جاراتِها وتعرَّتْ يوم حَرٍّ تبترد
أكما ينعتني تبصرنني عمركنّ الله أمٍ لا يقتصد
فتضاحكنَ وقد قلنَ لها حسنٌ في كلِّ عين من تودّ
حسداً حملنهُ من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد

وأنشدنا عنه قال أنشدنا إسحاق لرجل:

حلفتُ بصحراءِ الحجونِ وناقتي لها بين قاع الأخشبين حنينُ
غموساً لقد فضلت في الحسن بسطة على الناس أو بي من هواك جنون

وأنكر بعض المحدثين، أن يكون استحسانه لحبيبه لافراط حبه، أو لجنونه له فيه فقال وأحسن:

حسنٌ والله في عيني وفي كلِّ العيونِ
قينةٌ بيضاء كالفضة سوداء القرونِ
لم يصبْها سقمٌ قطُّ سوى سقمِ العيونِ
لم أصفْها بجمالٍ لهوى أم لجنونِ
بل لحسنٍ وجمال قول حقٍّ ويقينِ

وقد أبدع الآخر في قوله في المعنى الأول:

يا مَنْ يلومُ عليه أنظر بعيني إليه
فلست تبرحُ حتى تصيرَ ملك يديهِ

---

(١) ديوان عمر: ١/ ٢٥.

(٢) أخرجه ابو داوود: ادب ١١٦. وأخرجه مسلم: مساقاة ١٣٨.

(٣) ديوان عمر: ١/ ٨٩.

وقد جمع القائل جمعاً حسناً في قوله:

وفـي أربـع مـنـي حـكـت مـنـك أربـع

أجود ما قيل في صفة النساء، من الشعر القديم، ما أخبرنا به أبو أحمد قال: قال ابن سلام أحسن ما قيل في صفة النساء:

كـأنَّ بـيضَ نـعـام فـي مـلاحـفِـهـا ... إذا اجـتـلاهـنَّ قـيظُ لـيـلهِ ومـدّ

وتشبيه النساء ببيض النعام، تشبيه قديم وهو كثير مشتهر.

قالوا أحسن ما قيل في الوجه، من الشعر القديم قول(١) قيس بن الخطيم:

تَبـدَّتْ لنا كـالشمسِ تحتَ غمـامـةٍ ... بـدا حـاجبٌ منهـا وضنت بحـاجب

مأخوذ من قول(٢) النمر بن تولب:

فصـدَّتْ كـأنَّ الشمس تحت قنـاعهـا ... بـدا حـاجبٌ منهـا وضنّت بحـاجبِ

وهو أحسن ما قيل في إعراض المرأة، ونقله قيس إلى موضع آخر وزاد فيه فقال:

كـانَ الـمنى بلقـائهـا فلقيتهـا ... ولهـوتُ من لهـو امـرىء مكـذوبِ

فـرأيتُ مثـلَ الشمسِ عنـد طلوعهـا ... في الحسنِ أو كـدنـوِّهـا لغـروبِ

أراد في وقتين يمكن الناظر النظر إلى الشمس فيها. ونحو ذلك قول(٣) زهير:

لـو كـنـت مـن شـيء سـوى بـشـر ... كـنـت الـمـنـورَ لـيـلة الـقـدرِ

وفضلها كثير على الشمس فقال(٤) وأحسن:

بـأبـي وأمـي أنـت مـن مَـعـشـوقـة ... طبن الـعـدوُّ لـهـا فـغـيَّـرَ حـالـهـا(٥)

وسـعـى إلـيَّ بـعـيـب عـزَّةَ نِـسـوةٌ ... جـعـل الآلـه خُـدودَهـنَّ نـعـالـهـا(٦)

ولـو أن عـزة خـاصمَتْ شمسَ الضحى ... في الحسن عنـد مـوقف لقضى لهـا(٧)

قوله عند موقف غاية ما يكون من الإحسان.

ومن أحسن ما قيل في حسن الوجه قول(٨) عمر بن أبي ربيعة:

فلمـا تـواقفنـا وسلمتُ أقبلتْ ... وُجُـوهٌ زهـاهـا الحسنُ أن تتقنعـا

تبـالهنَ بـالعـرفـانِ لـمـا رأينني ... وقلنَ امـرؤٌ بـاغٍ أكـلَّ وأوضعـا

---

(١) ديوانه: ٧٩.

(٢) عيون الأخبار: ٣/١١٠.

(٣) البيت ليس في ديوانه.

(٤) الشعر والشعراء: ١/٤٢٢. والأمالي: ٣/٦٧.

(٥) في الأمالي: «من مظلومة». طَبَن: فطن.

(٦) في الأمالي: «بصرم عزة». ... «جعل المليك».

(٧) في الأمالي: «عند موفق».

(٨) ديوانه: ١/١٩٨. وفيه: «وسلمت أشرقت».

وقَـرَّبـنَ أسبـابَ الـهـوىَ لمتيـمٍ   يقيسُ ذراعـا كلمـا قسـنَ أصبعـا

فذكر أنهن لم يتقنعن لحسن وجوههن، أخذه من قول الشماخ:

لـهـا شـرقٌ مـن زغـفـرانٍ وعَـنـبـرٍ   أطـارتْ من الحسن الـرِّداء المحبـرا

ثم تصرّف المحدثون في تشبيهه، أي الوجه، بالشمس فقال[1] ابن الرومي:

كـالـشمس غـابـت فـي حـمـرة الـشـفـق

وزاد أبو نواس فقال[2] في الأمين قبل الخلافة:

تتيـهُ الشمسُ والقمـرُ الـمنيـر   إذا قـلنـا كـأنـهـمـا الأميـرُ
فـإن يـكُ أشبهـا مـنـهُ قليـلا   فقـد أخـطاهمـا شَبـهُ كثيـرُ
لأنَّ الشمس تغـرب حين تمسي   وأنَّ الـبـدرَ ينقصُـه الـمسيـر
ونـورُ مـحـمـدٍ أبـداً تـمـامٌ   على وضح الـطريقـةِ لا يحـورُ

وقد أحسن الآخر وقد جعل في البدر مشابهة من وجه المرأة فقال:

يـا بـدر إنـك قـد كسيتَ مشابهـاً   من وجـهِ أمِّ محـمـد ابنـة صـالـحِ
وأراك تـمصـح فـي المحـاق وحسنهـا   بـاقِ عـلـى الأيـام لـيس بـمـاصـحِ

وقال العباس بن الأحنف:

قـالـتْ ظلوم ومـا جـارتْ ومـا ظـلمتْ   إنَّ الـذي قـاسني بـالبـدر قـد ظلمـا[3]
الـبـدرُ لـيسَ لـه عـيـنٌ مُـكـحـلـةٌ   ولا مـحـاسنُ لـفظٍ يَبـعث الـسـقـمـا

وقال النظام:

يـا مشـرقـاً مـلأ الـعيـو   نَ وطـرفهـا مـا يستـقـل
أوفـى على شمس الضحـى   حـتـى كـأنَّ الـليـلَ طـل

وزاد آخر على هؤلاء كلهم فقال:

إذا عبتـهـا شبهتـهـا الـبـدرَ طـالـعـا   وحـسبـك مـن عيب لهـا شبـهُ البـدرِ

ومن أبلغ ما قيل في حسن الوجه من طريقة أخرى قول[4] أبي نواس:

يـزيـدُك وَجـهُـه حُـسـنـا   إذا مـا زِدْتـهُ نـظرا

فذكر أن حسنه يزداد على تكرار النظر، والمعهود في كلِّ شيء نقصانه على كثرة التأمل، ولا يكاد الشيء الرائع يروعك إذا اعتدته.

وقريب منه قول كشاجم:

بيضـاء يحضـر طيب العيش مـا حضـرت   وإن نـأت عنـك غـاب اللهـوُ والفـرحُ

(١) ليس في ديوانه.
(٢) ديوانه: ٣٠٥.
(٣) ظَلوم: اسم امرأة.
(٤) ديوانه: ٣٤٠.

كلُّ اللباس عليها معرضٌ حسنٌ وكلّ ما تتغنى فهوَ مقترح

والمعارضة تتخير للجواري على حسب ألوانهن؛ فالبيضاء تبرز في المعرض الأحمر والأسود والأزرق والسوداء في الأصفر، فذكر أن هذه تحسن في كل معرض فهو غاية وقريب من المعنى الأول قول كشاجم أيضاً:

منعمة يُقرِّبُهما هواها وإنْ نزحَتْ بمنزلها البلادُ
يعادُ حديثها فيزيد حُسناً وقد يُستقبحُ الشيءُ المعادُ

وقال الحماني[1]:

إذا كنت لم أفقد الغائبين وإن غبت كنت فريداً وحيدا
تباعد نفس إذا ما بعدت فليس تعاود حتى تعودا

وهو من قول[2] أبي نواس:

أشبِّهك الشيءَ حُسناً فما أتممُ ذلك حتى تزيدا

وقال بعضهم:

وكلما عدت فيه يكون في العودِ أحمدُ

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أبي العيناء، عن الأصمعي، قال: أحسن ما قيل في اللون قول[3] ابن أبي ربيعة:

وهي مكنونةٌ تحير منها في أديمِ الخدَّين ماءُ الشبابِ

قال وما أعرف أحداً أخذه فأحسن فيه مثل أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل فإنه قال:

باتَ يعمي يعالج السهرا وراح نشوان يقسمُ النظرا[4]
أغيد ماءُ الشباب يرغد في خديه لولا أديمه قطرا

وقال ابن الأحنف:

وقد ملئتْ ماءَ الشبابِ كأنها قضيبٌ من الرّيحانِ ريّان أخضرُ

وقال السري:

ومخطفٍ يهتزُّعن ماءِ الصبا كأنما يهتزُّ عن ماءِ العنبِ

وقلت:

ووجهٌ تشرَّبَ ماءَ النعيمِ فلو عُصِرَ الحسنُ منه انعصر
يمرُّ فأمنحهُ ناظري فينشر ورداً عليه الخفر

---

(١) الحُماني: يحي بن عبد الحميد بن عبد الرحمن الكوفي، من حفاظ الحديث مات سنة ٢٢٨. (الأعلام: ٨/ ١٥٢).

(٢) ليس في ديوانه.

(٣) ديوانه: ٣٦/١.

(٤) نشوان: طرِب.

تمتّعتِ العينُ في حسنه فما حفلتْ بطلوع القمرِ

وقال[1] ابن المعتز:

يحرِّك الدَّل في أثوابهِ غصنا ويطلعُ الحسنُ من أزرارِهِ قمرا

وقال[2] ابن الرومي:

متعاتُ وجهك في بديهتها جددٌ، وفي أعقابها أخرُ

وقوله[3]:

مخفَّفة، مثقَّلة، تراها كأن لم يغذُ نصفيها الغذاءُ
إذا الإغبابُ جدَّدَ حسنَ شيءٍ من الأشياءِ جدَّدَها اللقاءُ

ومثله[4] قوله:

لا شيءَ إلا وفيه أحسنُه فالعينُ منهُ إليهِ تنتقِلُ
فوائدُ العينِ منه طارقةٌ كأنما أخرياتُها الأُوَلُ

وقد أطرف أبو نواس في[5] قوله:

إنّ اسمَ حسن لوجهها صفةٌ ولا أرى ذا لغيرها اجتمعا
فهي إذا سميتْ فقد وصفت قد يجمع اللفظُ معنيين معا[6]

وقد بالغ ذو الرمة في قوله[7]:

فيا لك من خدّ أسيلٍ ومنطقٍ رخيم ومن خَلقٍ تعللَ جادبُهُ[8]

إلا أنه ذكر خلقها أجمع، والجادب: العائب، هو يقول: إن الذي يعيبها لا يجد عيباً فهو يتعلل. وهو في خبر حسن:

أخبرنا به أبو أحمد عن العبشمي عن المبرد حدثنا عمر بن شبة[9]، حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي، حدثني أبو صالح الفزاري، قال: ذكر ذو الرمة في مجلس فيه عدة من الأعراب فقال عصمة بن مالك شيخ منهم كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ـ: إياى فاسألوا عنه كان من أظرف بني آدم، خفيف العارضين، حسن الضحك، حلو المنطق، وكان إذا أنشد بربر وحبس

---

(١) ليس في ديوانه.
(٢) ديوانه: ٩٢/٣. وفيه «الأخر».
(٣) ديوانه: ٨٢/١. في الأصل «لم يعد» والتصليح من الديوان.
(٤) ديوانه: ١٤٨/٥. في الديوان: «منه طارفةٌ».
(٥) ديوانه: ٤١٣.
(٦) في الديوان: «ويجمع اللفظ».
(٧) ديوانه: ١٣.
(٨) أسيل: فيه لين. جادبه: عاتبه.
(٩) في الأصل: «شعبة» والتصليح من الأمالي.

صوته، فإذا راجعك لم تسأم حديثه وكلامه، وكان له أخوة يقولون الشعر: منهم مسعود وحرفاس وهو أوفي، وهشام وكانوا يقولون القصيدة فيزيد فيها الأبيات فيغلب عليها، فجمعني وإياهم مربع فأتاني يوماً وقال لي: يا عصمة إن مَياً منقرية وبنو منقر أخبث حي وأقوفه لأثر، وأبصره في نظر، فهل عندك من ناقة نزدار عليها مياً فقلت: أي واللَّه إن عندي للجؤذر قال: عليّ بها، فركبناها جميعاً وخرجنا حتى نشرف على بيوت الحي، فاذاهم خلوف، وإذا بيت مية خلو، فعرف النساء ذا الرمة، فقمن إلى بيت مي، وجئن حتى أنخنا وسلمنا وقعدنا نتحدث، وإذا ميّ جارية أملود، واردة الشعر، صفراء فيها عسر، وإذا عليها سب أصفر، وطاق أخضر، فتحدثن ملياً ثم قلن له: أنشدنا يا ذا الرمة فقال: أنشدهن يا عصمة فأنشدهن قوله:

نـظرتُ إلى أظعـان مَـيٍّ كـأنـهـا ... ذُرى النخـل أو أثـل تميـل ذوائبـه[1]
فـأوشكت العينـان والصـدر كـاتـم ... بمُغـرَورقٍ نمتْ عليـه سـواكبـه[2]
بكى وامق جاء الفـراق ولـم تجـل ... جـوائِـلهـا أسـرارهُ ومـعـاتـبـه[3]

فقالت ظريفة منهن: لكن الآن فليجل، فنظرت إليها ميّ، ثم مضيت في القصيدة إلى قوله:

إذا سَـرَحَـتْ مـن حُـبِّ مَـيّ سَـوَارِحٌ ... عـن القـلبِ أتتـه جـميـعـاً عـوازبـه

فقالت الظريفة: قتلته قتلك الله، فقالت مي ما أصحه وهنيئاً له فتنفس ذو الرمة تنفسة، كاد حرها يطير شعر وجهه، ومضيت حتى انتهيت إلى قوله:

وقـد حـلفتْ بـالـلَّهِ ميّـةُ مـا الـذي ... أقـولُ بـهـا إلا الـذي أنـا كـاذبُـه
إذاً فـرمـانـي اللَّهُ من حيـثُ لا أرى ... ولا زال فـي أرضي عـدوٌّ أحـاربُـه

فقالت الظريفة: قتلته قتلك الله، فقالت مي: خف عواقب الله يا غيلان، ثم مضيت حتى انتهيت إلى قوله:

إذا راجـعتـك الـقـولَ مَيـةُ أو بـدا ... لك الوجهُ منها أو نضـا الدّرعِ سـالبه[4]
فـيـا لـكَ من خـدٍّ أسيـل ومنـطقٍ ... رخـيـم ومـن خلقٍ تـعـللَ جـادبُـه

فقالت الظريفة للنساء: إن لهذين لشأناً، فقمن بنا، فقمن وقمت معهن، فجلست في بيت أراها منه فسمعتها قالت له: كذبت والله، وما أدري ما قال لها وما أكذبته، فلبث قليلاً ثم جاءني ومعه قارورة، فيها دهن وقلائد، فقال: طيب أتحفتنا به مي وهذه قلائد للجؤذر، ولا والله لا أقلدهن بعيراً، وشدهن بذؤابة سيفه، ثم انصرفنا فكان يختلف إليها، حتى تقضى الربيع، ودعا

---

(١) البيت وما يليه في الديوان: ١٣. وفيه: «موليه ميس تميل ذوائبه». والأثل: ضرب من الشجر. الذوائب: ما علا من الأشجار.
(٢) في الديوان: «فأبديت من عيني».
(٣) في الديوان: «هوى الف جاء الفراق ولم تجل». لم تجل جوائلها: لم توجه وجوهها.
(٤) في الديوان: «إذا نازعتك».

الناس الصيف، فأتاني فقال: يا عصمة قد رحلت ميّ ولم يبق إلا الآثار والنظر إلى الديار، فاذهب بنا ننظر في ديارها، ونقفو آثارها، فخرجنا حتى أتينا منزلها فوقف ينظر ثم قال:

إلا يــا أسلمي يــا دارَ ميٍّ على البـلى ... ولا زالَ مُنهـلاً بجـرعـائـك القـطرُ(١)

قال عصمة: فما ملك عينيه فقلت: مه فانتبه وقال: إني لجلد وإن كان مني ما ترى.

قال: فما رأيت أحداً كان أشد منه صبابة ولا أحسن عزاءً وصبراً ثم انصرفنا وتفرقنا وكان آخر العهد به.

ومن بديع ما قيل في حسن الوجه قول الصنوبري(٢):

الــم قـلبـي نــارهُ ومــا شـعــر ... دَبتْ إليـه عَقـرَبٌ وقتَ السحـر

دَبَّت إلى ظبي بعينيـهِ حَـوَرْ ... دبيبَ لـوطـيِّ تـوارى وانتـشـر

فـظفـرَتْ لا ظفـرَتْ أيَّ ظفـر ... وهـكـذا الـعـقـربُ لـلقـمـر

أحسن ما قيل في العيون:

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو لأصحابه: ما أحسن ما قيل في العيون؟ قال بعضهم قول(٣) جرير:

إنَّ العيـونَ الـتي في طـرفهـا حَـورٌ ... قـتـلنـنـا ثـمَّ لـم يـحُـيـيـنَ قـتـلانـا

يصـرعن ذا اللبِّ حتى لا حـراك بـهِ ... وهُـنَّ أضـعـفُ خـلق الله أركـانـا

وقال آخر قول ذي الرمة: (٤)

وعـيـنـانِ قـال الله كـونـا فـكـانـتـا ... فعـولان بـالألبـابِ مـا تفعـلُ الـخمـرُ

وقال آخر بل قوله:

يـذكـرني ميـاً مـن الـظبي عيـنـه ... مـراراً وفـاهـا الأقـحـوان الـمـنـوّرُ

و(مراراً) حشو لا يحتاج إليه، فقال أبو عمرو: أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع(٥):

وكـأنـهـا بيـنَ النسـاء أعـارهـا ... عينيـه أحورُ من جـآذرِ جـاسمِ(٦)

وسْنـان أقصـدهُ النعـاسُ فـرّنقتْ ... في عينـه سنـةٌ ولـيس بنـائـمِ(٧)

أخذ بعض المحدثين قول جرير:

---

(١) في الديوان: ٣٦. المنهل: الذي يجري صباً. الجرعاء: من الرمل المنبسط.

(٢) الصنوبري: احمد بن محمد بن الحسن بن مرّار الضبي الحلبي الأنطاكي ابو بكر، كان وصّافاً للطبيعة والرياض. مات سنة ٣٣٤ هـ. (الأعلام: ١/٢٠٧).

(٣) ديوانه: ٤٩٠.

(٤) ديوانه: ٣٧.

(٥) عدي بن الرقاع العاملي الشاعر، مدح الوليد بن عبد الملك، وهاجى جريراً وقيل: كان أبرص.

(٦) البيتان في ديوانه: ٩٩. وفي الشعر والشعراء: ٢/٥١٦. وفيه: «وكأنها وسط» . . . «عينين». جآذر: جمع جؤذر: البقرة الوحشية. جاسم: موضع.

(٧) وسْنان: ناعس. أقصدَه: صرعه. رنّق: خالط.

وهـــن أضــعــف خـــلق الله أركـــانـــا

فقال:

كـأنمـا ازدادَت قـوى أجفـانـهـا ضعفـاً تقـوينَ على ضعفِ القـوي

ومثله أيضاً قول الناشيء[١]:

لا شيءَ أعجب في جفنيه أنهما لا يضعفان القـوي إلا إذا ضعفـا

وقد أحسن ذو الرمة في قوله:

إذا عـرضتْ بـالـرَّملِ أو مـاء عـوهـجُ لنـا قلت هـذا عينُ ميّ وجيـدُها[٢]

ومن التمثيل القليل النظير قول[٣] ابن المعتز:

ويجـرحُ أحشـائي بعيـنٍ مـريضـة كمـا لان متنُ السيف والحـدُّ قـاطـعُ

ومن أحسن ما قيل في النظر قول[٤] ابن الرومي:

نـظرتْ فـأفصـدتِ الفؤادَ بسهمها ثـمَّ انثنتْ عنـه فكـادَ يـهيـمُ
ويـلاهُ إنْ نـظرتْ وإن هي أعـرضتْ وقـعُ السـهـامِ ونـزعهـنَّ ألـيم

ومن البديع النادر الغريب في ذلك قوله بعضهم:

جعـل الفتـور بعينـه كحـلا فحفـوته وحسن بهـا المسـرة؟[٥]

وقول الآخر:

يـنظرنَ من خلل السجـوفِ كـأنمـا يـمـطرنَ أحشـاءَ الـكـريـم نـبـالا

ومن أظراف ما سمعناه في هذا المعنى قول محمد بن أبي الموج:

لله مـا صـنـعـتْ بـنـا تلك المحـاجرُ في المعـاجـرِ
أمـضـى وأنـفـذُ في الـقـلو بِ من الخنـاجرُ في الحنـاجـرِ

وقلت:

فـأرعى تحتَ حـاشيـةِ الدَّيـاجي شقـائقَ وجنـةٍ سقيتْ مُـدامـا
إذا اكـرتْ لـواحظُ مـقـلتـيـه حسبتَ قلوبنـا مـطرتْ سهـامـا
وإن مـالـتْ بـعطفـيـه شمـولُ سقـانـا من شمـائلهِ سقـامـا[٦]

وقال[٧] ابن الرومي:

---

(١) الناشيء: عبد الله بن محمد الناشيء الأنباري، ابو العبّاس، شاعر مجيد أقام ببغدا وخرج إلى مصر فسكنها ومات بها سنة ٢٩٣ هـ. (الأعلام: ٤/١١٨).

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة: ٢١. أدماء: بيضاء. العوهج: الظبية.

(٣) ديوانه: ٢٧١ وهو في الأمالي: ١/٢٢٧.

(٤) ليسا في ديوانه.

(٥) في البيت اضطراب.

(٦) الشمول: الخمرة. الشمائل: الخصال الطيبة.

(٧) ديوانه: ٣/١٣٩.

تقسمها نصفان: نصفٌ مؤنثٌ ... ونصفٌ كخوطِ الخيزران مذكرُ[1]
تعبد من شاءَتْ بعينٍ كأنها ... ـ وإن سُقيتْ ريا من النوم ـ تسهرُ

وقلت:

راحتْ تميسُ وحولها خردٌ ... كالبدر بين كواكبٍ شهبِ
فملأتُ طرفي من محاسنها ... ونسيتُ ما يجنى على الصبِّ
عين تفل السيف لحظتها ... أصبحت آمنها على قلبي

وقال[2] ابن المعتز:

كم ليلة عانقتُ فيها بدرها ... حتى الصباح موسداً كفيهْ
فسكرتُ لا أدري أمن سكر الهوى ... أم كأسه أم فيه أم عينيه
وغدا فنمَّ عليه عند رقيبه ... أثرٌ من التقبيلِ في شفتيه
وسقام عين لم تذق طعمَ الكرى ... يدعو العوائد في الصباح إليه[3]

وقلت:

إذا ما جاءني للأخذِ عني ... تشاغلَ طرفهُ بالأخذ مني

وقال[4] البحتري:

أجد النارَ تُستعارُ منَ النا ... رِ وَينْشا من سُقْمِ عينيكِ سُقْمي

وقلت:

يسعى إليَّ مقرطقٌ في كفه ... كأسٌ وبينَ جفونه كاسانِ

وقد أطرف البحتري في قوله[5]:

والذي صير الملاحة في عيـ ... ـنيه وقفاً والسحرَ في أجفانِهْ
لا أطعتُ العذولَ فيه وإن أسـ ... ـرف في ظلمه وفي عدوانه
فدعا اللوم في التصابي فإني ... لا أرى في السلوِّ ما تريانه

وقلت:

ومقلة كحميا الكأسِ مسكرةً ... وحاجبٍ كهلالِ الشهرِ مقرونُ

وقلت أيضاً:

ونسقيك في ليلٍ شبيهٍ بفرعها ... شبيهاً بعينيها وشكلاً بخدِّها
فتسكرُ من عينٍ وكأسٍ وَوجنةٍ ... تحييك أعتاب الكؤوس بوردِها

---

(١) الخوط: الغصن.

(٢) ليست في الديوان.

(٣) الكرى: النوم.

(٤) ديوانه: ١/ ٢٩٩ عـ.

(٥) ديوانه: ١/ ٢٥ ص.

وقالوا أجود ما قيل في الثغر من شعر المتقدمين قول(١) جرير:

تجرى السواك على أغرَّ كأنهُ ... بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتونِ غمامِ

وقالوا(٢) بيت النابغة:

تجلو بقادمتى حمامةِ أيكةٍ ... برداً أسفَّ لثاتهُ بالإثمدِ(٣)
كالأقحوان غداة غبِّ سمائهِ ... جفتْ أعاليه وأسفلهُ ندي

شبه الشفتين لرقتهما بقادمتي حمامة.

وقالوا بيت بشر بن أبي خازم:

يُفلِّجنَ الشفاه عن اقحوان ... جلاهُ غب سارية قطارِ(٤)

ومن أحسن ما جاء في ذلك قول(٥) البحتري:

ولما التقينا والتقى مَوعِدٌ لنا ... تبينَ رامي الدُّرِّ منا ولاقطه
فمن بَرَدٍ تجلوهُ عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عندَ الحديثِ تساقطهُ(٦)

وهذا أحسن من قول الأول ومنه أخذ البحتري:

إذا هنَّ ساقطنَ الأحاديث بالضحى ... سقاط حصى المرجانِ من كفِّ ناظمِ

ومن أحسن ما قيل في بياض الثغر قول(٧) البحتري أيضاً:

ويرجعُ الليلُ مبيضاً إذا ضحكتْ ... عن أبيضٍ خضلِ السمطين وضاحِ

فجعله يجلو الظلام لبياضه، وذكر كثيرة الريق، فقال: خضل لأن قلة الريق تورث تغيرالفم، وذكر حسن تنضيد الثغر فجعله سمطين. فلا يرى في هذا المعنى أجمع من هذا البيت.

وقد أحسن ابن طباطبا:

ثغرُهُ عندَ سرده ... كالعناب المزردِ
مثل دُرٍّ منظمٍ ... بين درٍ منضد(٨)

وقد أحسن البحتري وأبلغ في قوله:

---

(١) ديوانه: ٤٥٢.
(٢) ليسا في ديوانه.
(٣) القادمة: ريشة في مقدّم جناح الطائر. الإثمد: الكحل.
(٤) يُفلّجن: يفتحن. وفي الأصل: «عن الخوان». والتصليح من «منتهى الطلب». و«غب سائرة».
(٥) ديوانه: ١/١١٩ ص.
(٦)شبه اسنانها بالبرد وكلامها باللؤلؤ.
(٧) ديوانه: ١/٣٩ ص. وفيه: «إذا ابتسمت . . . خضر السمطين لحّاح».
(٨) «منضد»، ليست في الأصل.

وأرتنا خَداً يراح لهُ الورد ويشتمهُ جنى التفاحِ[1]
وشتيتاً يغضُّ لؤلؤ النظم ويُزري على شتيت الأقاحي
فأضاءت تحت الدُّجنة للشرب وكادتْ تضيءُ للمصباح
وأشارتْ إلى الغناء بألحاظٍ مراضٍ من التصابي صحاح
فطربنا لهنَّ قبل المثاني وسكرنا منهنَّ قبلَ الرّاحِ
وتدير الجفون من عدم الألباب ما لا يَدُورُ في الأقداحِ

وقلت:

مخضبة الأطراف تحسب أنها أساريع في أفواههنَّ عقيقُ
دهاني منها نرجسٌ يرشق الحشا وهل نرجسٌ يا للرجالِ رشوق
ومبتسمٌ عذبُ المذاقة مونق تجمعَ فيهِ لؤلؤٌ ورحيقُ

وقلت لبعض البغداديين: ما أحسن ما قيل في طيب النكهة والريق وحسن الثغر؟ فقال قول[2] ابن الرومي:

وقبّلتُ أفواهاً عذاباً كأنها ينابيعُ خمرٍ خضّبتْ لؤلؤ البحرِ

فقلت: إلا أن قوله (لؤلؤ البحر) فضل لا يحتاج إليه، لأن اللؤلؤ لا يكون إلا في البحر، ولو كان في غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة.

وقد أحسن ابن الرومي في وصف طيب النكهة فقال[3]:

وما تعتريها آفةٌ بشرية من النوم إلا أنها تتختر
كذلك أنفاسُ الرِّياض بسحرة تطيبُ وأنفاسُ الأنام تغيرُ

هذا التمثيل مليح جداً.

وأجود ما قيل في الريق أيضاً قوله[4]:

يا رُبَّ ريقٍ بات بَدرُ الدُّجى يمجُّهُ بينَ ثناياكا
يروي ولا ينهاكَ عن شربهِ والماءُ يرويك وينهاكا

ولا أعرف لهذا البيت نظيراً في معناه. وقد سبق ابن الرومي إلى قوله[5]:

سقتهُ ابنةُ العمريِّ من خمرِ عينها ووجنتِها كأساً يميتُ ويدنفُ
فقالَ امزجيها بالرُّضابِ لعلهُ يسكنُ من خمر الهوى ويخففُ
فصدَّتْ ملياً ثم جادَتْ بريقةٍ يزيد بها سكرُ المحبِّ ويضعفُ

---

(١) البيت وما يليه في ديوان البحتري: ١/٢٤٩ ص. وفيه: «قد تدبر الجفون».
(٢) ديوانه: ٣/١٩.
(٣) ليسا في ديوانه.
(٤) في الأمالي: ١/٢٢٨ وليسا في ديوانه.
(٥) ديوانه: ٤/٢٢٢. وفيه: «تميت وتدنف».

فراح بضعفي سكره من مزاجها ... وقد يسأل العدل الولاة فيسعفُ
فهل من مزاج زاد في سكر شاربٍ ... سوى ريقِ ذاتِ الخال أم أنت تعرفُ

وقال[1]:

مَزَجت خمرة عينيها بريقتها ... كيما تكفكفُ عني من حمياها
فاشتد إسكارها إياي إذ مُزِجَتْ ... ومَزْجُك الكأس ينهى عنك طغياها

وأخبرنا أبو أحمد عن يحيى، عن الرياشي، قال: قال الأصمعي: أحسن ما قيل في الثغر قول[2] ذي الرمة:

وتجلو بفرعٍ من أراك كأنهُ ... من العنبر الهنديِّ والمسك ينفحُ
ذُرى أقحوانٍ واجَه الليل وارتقى ... إليهِ الندى غاديه والمتروَح[3]

وقد أحسن ديك الجن في قوله:

وقهوة كوكبها يُزْهِرُ ... ينفحُ من خدِّهِ المِسكُ والعنبرُ
وردية يحتثها أحور ... كأنها من خدِّهِ تُعصرُ
مهفهف لم يبتسم ضاحكا ... مذْ كانَ إلا كنبيذ الجوهر

وقد جمع كشاجم فأحسن في قوله:

البدرُ لا يغنيك عنها إذا ... غابتْ وتغنيك عن البدر
في فمها مسكٌ ومشمولةٌ ... صرفٌ ومنظومٌ من الدُّرِّ
فالمسكُ للنكهةِ والخمرُ للـ ... ـرِّيقةِ واللؤلؤ للثغرِ

جمع ثم قسم تقسيماً صحيحاً، ولم يترك مزيداً. ومن البارع المشهور في هذا المعنى قول الصنوبري:

تلك الثنايا من عقدها نظمتْ ... أم نظمَ العقدُ من ثناياها

وقال غيره وأحسن التقسيم:

وثنايا وريقة كغديرِ ... وعقارٍ وروضةٍ من أقاح

قال[4] ابن المعتز:

مشربٌ عذبٌ مشارعه ... جامدٌ وفي خَمره بَردُ

وقال[5]:

(١) ليسا في ديوانه.
(٢) ديوانه: ٢١. وفيه: «والمسك يُصْبَحُ».
(٣) يشبه اسنانها بالاقحوان. وفي الديوان: «راحه الليل . . . إليه الندى من رامة المتروّح» وراحه الليل: ظهر برد هوائه. المتروّح: الذي يروح.
(٤) في ديوانه/١١٨ وفيه: «مشربٌ طابت». و «في خمرةٍ بَرْدُه».
(٥) ديوانه: ٣٠٨. وفيه: «ذقت، والله، منه».

قلتُ للكأسِ وهو يَكرَعُ منها: ذَقتَ منه واللّهِ، أطيبَ منكِ

وقال(١):

يا سرُّ، إن أنكرتني، فلكم ليلٍ رأتك مَعي كواكِبُهْ
بأبي حَبيبٌ كنتُ أعهدُه لي واصلاً، فازورَّ جانبه
عَبِقُ الكلامِ بمسكة نفحَتْ من فيه، ترضى من يُعاتبه(٢):

وقد أحسن أبو تمام في قوله(٣):

تعطيك منطقَها فتعلم أنه يجنى عذوبتِه يمرُّ بثغرِها

وهو من قول(٤) بشار:

يا أطيبَ الناس ريقاً غيرَ مُختبَرٍ إلا شهادةُ أطرافِ المساويكِ

وقول بشار من قول قيس(٥):

كأنَّ علي أنيابها الخمر شجّما بماء الندى من آخرِ الليل غابق
وما ذقتُه إلا بعيني تفرُّساً كما شيمَ من أعلى السحابة بارقُ

ومثله قول الآخر:

وتبسم عن ألمى اللثات مفلج خليق الثنايا بالعذوبة والبردِ

وقال(٦) ابن الرومي:

بدا لي وميضٌ مؤذنٌ أنّ صوبَه عريضٌ وما عندي سوى ذاك مخبرُ(٧)
وما ذقتُهُ إلا لشيم ابتسامها فكم مَخبرٍ يبديه للعينِ منظرُ

وقال عمارة بن عقيل:

كأنَّ على أنيابها مبيتُ الكرى وقيعه يردى تهلل في تعب (٨)
تأمل عين لا تقيل إذا ارتأت وقلب وما أنباك أشعر من قلبِ

وقال آخر وأحسن:

بأبي فمٌ شهدَ المحب له قبلَ المذاقِ بأنه عَذب

---

(١) ديوانه: ٥٠. وفيه: «ياشرُّ قد أنكرتني».

(٢) في الديوان: «نرضي».

(٣) ليس في ديوانه.

(٤) ديوانه: ٥٧٠، وفي الأمالي: ٢٢٨/١. المساويك: جمع المسواك.

(٥) قيس: هو مجنون بني عامر، قيس بن الملوّح بن مُزاحم، وكان يهوى امرأة من قومه اسمها ليلى، وكان به لوثة بسببها. مات سنة ٦٨ هـ. اخباره في الأغاني: في الأغاني: ٢/١ وما بعد. والبيت في الأغاني: ٣٢/٢. وليس في ديوانه.

(٦) ديوانه: ١٥/٣.

(٧) مؤذن: مخبر. الصوب: المطر.

(٨) في عجز البيت اضطراب.

كشهادةِ لله خالصة قبلَ العيانِ بأنه ربُّ

وقلت في معنى الأول:

أقول لما لاح من خدرهِ والليلُ يرخي الفضل من سترهِ
أبدرهُ أحسنُ من وجههِ أم وجههُ أحسنُ من بدرهِ
قد مالت الرّقةُ في شطرهِ ومالت الغلظةُ في شطره
فأزرهُ غصتْ بأردافه ووشحه جالت على خصره
أصبحتُ لا أدري وإن لمْ يكنْ في الأرض شيءٌ أنا لم أدرِهِ
أشعرُه أحسنُ من وجههِ أمْ وجههُ أحسنُ من شعره
ودرُّه يؤخذُ من لفظهِ أم لفظهُ يؤخذُ من درِّهِ
وثغرُهُ ينظمُ من عقدهِ أم عقدُه ينظمُ من ثغرهِ
فمن عذير الصبِّ من صدِّهِ ومن يجيرُ القلب من هجرهِ
يا ليته يَعرِفُ حُبي لهُ عساه يجزيني على قَدْرهِ

أحسن ما قيل في حديث النساء قول[1] القطامي:

فهنَّ ينبذن من قولٍ يصبنَ به مواقعَ الماءِ من ذي الغلةِ الصادي[2]

وقد أحسن القائل:

هي الدُّرُّ منثوراً إذا ما تكلمتْ وكالدُّرِّ منظوماً إذا لم تكلمِ
تعبّدُ أحرارِ القلوب بدلها وتملأ عينَ الناظرِ المتوسمِ

وقد أحسن ابن المعتز غاية الإحسان في قوله[3]:

لعمرك ما أجدى هواك سوى المنى عليّ وما ألقاك إلا كما أخلو

ثم قال:

وشر أحاديث عذاب لو أنها جنى النحلِ لم يمججْ حلاوتَها النحلُ

الناس كلهم شبهوا حلاوة الحديث بحلاوة العسل، وزاد ابن المعتز هذه الزيادة فأحسن.

وعندي أن أحسن ما قيل في وصف حديثهن، قول بعض المحدثين وهو ابن الرومي[4]:

وحديثها السحرُ الحلال لو أنه لم يجن قتلِ المسلم المتحرزِ[5]
إنْ طالَ لم يُملل، وإنْ هي أوجزَت وَدَّ المحدَّثُ أنها لم توجِزِ
شرك القلوب وفتنة ما مثلها للمطمئنِّ، وعقلة المستوفزِ[6]

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/٦٠٩.

(٢) الصادي: العطشان.

(٣) ليسا في ديوانه.

(٤) ديوانه: ٣/٢٤٧.

(٥) في الديوان: «لو أنها ... لم تجنِ ...».

(٦) في الديوان: «شرك النفوس». المستوفز: القاعد غير مطمئن.

ومن جيد ما قيل في الحديث ومشهوره قول[1] ابن الرومي:

ولقد سئمت مآربي — فكأنَّ أطيبَها خبيثْ[2]
إلا الحديثَ فإنهُ — مثل اسمهِ أبداً حديثْ

وقلت:

وحديثُ الرِّجال روْضةُ أنسٍ — باتَ يرعاهُ أهلُ نُبلٍ وسرو

ومن جيد ما قيل في الحياء: ما أخبرني به عم أبي، قال: قال أبو العباس، الفضل ابن محمد اليزيدي، قال: قال الهيثم: قال لنا صالح بن حسان يوماً هل تعرفون بيتاً شريفاً في امرأة خفرة؟ قلنا نعم بيت حاتم إذ يقول[3]:

يضيءُ بها البيتُ القليل خصاصه — إذا هي، ليلاً، حاولتْ أن تبسما

قال لم يصف شيئاً، قلنا[4] فبيت الأعشى:

كأنَّ مشيتها من بيتِ جارتها — مرُّ السحابةِ لا ريثٌ ولا عجل

قال قد جعلها خرجت وهذا ضد الخفر، قلنا فهات ما عندك قال: قول أبي قيس بن الأسلت[5]:

ويكرِمُها جاراتها فيزُرنها — وتعتلُّ عن إتيانهنَّ فتعتذرُ

أجود ما قيل في العناق قول بكر بن خارجة[6]:

إني رأيتك في نومٍ تعانقني — كما تعانقُ لامُ الكاتبِ الألفا

وهذا من المقلوب، لأن الألف تعانق اللام، ويجوز أن يحتج له بأن يقال الألف لا تعانق اللام إلا واللام معانقة لها.

ومن أطرف ما قيل في ذلك قول[7] ابن المعتز:

كأنني عانقتُ رَيحانةً — تنفّستْ في ليلِها الباردِ
فلو ترانا في قميصِ الدُّجى — حسبتَنا من جسدٍ واحدِ

---

(١) ديوانه: ١/٢٤٣.

(٢) في الديوان: «فكأن طيبَها». والمآرب: المطالب.

(٣) ديوان حاتم: ١١٠. وفيه:

يضيء لنا البيتُ الظليل، خصاصةً — إذا هي، ليلاً، حاولت أن تبسّما

وحاتم هو ابن عبدالله بن سعد الحشرج الطائي، فارس شاعر جواد يُضرب به المثل مات سنة ٤٦ ق. هـ. (الأعلام: ٢/١٥١).

(٤) ديوانه: ٥٥.

(٥) قيس بن الأسلت: شاعر جاهلي من الأوس.

(٦) شاعر كوفي مولى لبني أسد، كان ورّاقاً معاقراً للخمرة. طيب الشعر له ترجمة وأخبار في الأغاني: ٢٣/١٨٩. والبيت في الأمالي: ١/٢٢٦.

(٧) الأمالي: ١/٢٢٦. وديوانه: ١٤٦.

وقلت في نحو ذلك:

ونحن نظمٌ في الهوَى واحدٌ ... كأننا عِقدانِ في نحرِ

وقال التنوخي:

لله أيامٌ مَضينَ قطعتها ... وطوالها بالقاصراتِ قصارُ
أخلو النهارَ على النهار وأنثني ... والشمسُ لي دونَ الشعار شعارُ
خَدَّاهُ وَرْدٌ والنواظرُ نرجسٌ ... والثغر سوسنٌ والرضابُ عُقارُ[1]
حتى إذا ما الليلُ أقبلَ ضمنا ... دُونَ الإزارِ من العناقِ إزار
فعلى النحورِ من النحور قلادَةٌ ... وعلى الخدود من الخدود خمارُ[2]

وقد أحسن وطرف إلا أنه أخذ قوله «من العناق إزار» من قول[3] ابن الرومي:

طالما التفَّتْ إلى الصبـ ... ـح لنا ساقٌ بساقِ
في قِناعٍ منْ لثامٍ ... وإزارٍ منْ عِناقِ

وأنشد أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن سعيد لابن عيد، كأنه الكاتب:

وكلانا مُرتَدٍ صاحبَهُ ... كارتداءِ السيفِ في يوم الوغى
بخدودٍ شافياتٍ من جوى ... وشفاهٍ مُروِياتٍ من ظما
نتساقى الريقَ فيما بيننا ... زق أمات القطا زغبَ القطا

أحسن ما قيل في الشعور من الشعر القديم قول[4] الأعشى:

فأفضيت منها إلى جنةٍ ... تدَلتْ عليَّ عناقيدُها

ليس لأشعار المتقدمين نظير، وكان بشار يتعجب من حسنه ويقدمه على جميع ما قيل في الشعر.

وقد أحسن القائل[5]:

بيضاء تسحبُ من قيام فرعها ... وتغيبُ فيه وهو جثلٌ أسحمُ
وكأنها فيهِ نهارٌ ساطعٌ ... وكأنه ليلٌ عليها مظلم

أخذه بعضهم فقال وأحسن:

نشرَت عليَّ ذوائباً من شعرها ... حذَرَ الكواشح والعدوِّ المحنقِ
فكأنني وكأنها وكأنهُ ... صبحانِ باتا تحتَ ليلٍ مطبق

وقد أحسن السري القول في سواد الشعر مع أوصاف أخر وهو قوله:

---

(١) شبه الخد بالورد، والعين بالنرجس، والفم بالسوسن، والريق بالدواء.

(٢) النحور: الصدور. الخمار: غطاء الوجه.

(٣) ديوانه: ٤/٣١٤.

(٤) ليس في ديوانه.

(٥) في الأمالي: ١/٢٢٧ «وحْفٌ اسحم». ونسبتها إلى بكر بن النطّاح.

مصقولـةٌ بسنى الصباحِ وجوهَهـا   مصبوغةٌ بدُجى الظلام طرارُها[1]
أغصـانُ بانٍ أبـدعتْ في حملهـا   فغـرائبُ الـوردِ الجنيِّ ثمـارُها[2]
طالتْ ليالي الحبِّ بعـد فراقهـا   وأحبهـنَّ إلى المحبِّ قصـارُهـا
ولـرُبَّ ليـلاتٍ بهـنَّ تفـرَّجـتْ   أسـدانُـهـا وتـأرَّجتْ أسحـارُهـا
مـا كـانَ ذاك العيشُ إلا سكـرةً   رَحلتْ لـذاذتُها وحـلَّ خمـارُهـا

وقال[3] ديك الجن:

أنـظر إلى شمسِ القصـورِ وبـدرِهـا   وإلـى خـزامـاهـا وبهـجـةِ زهـرِهـا
لم يبـلُ عيـنُـك أبيضـاً في أسـودٍ   جمـعَ الجمالَ كـوجهِها في شعـرِها

وقال[4] أبو تمام:

بيضـاء تسحبُ شعـرَهـا من وجهِهـا   في حسنـهِ أو وجهَهـا من شعـرِهـا

وقال[5] أبو نواس:

وسـالـتْ مـن عـقـيـصتـهـا   سـلاسـلُ كُـسِّـرتْ حَـلَقـا

وقال آخر:

سيـقـربُ مـنـك الـردى عنـوةً   إذا مـانـأتْ عـنـك أحـمـالُـهْ
فـهـل أنـتَ بـاك عـلى أثـره   وهـل تـشـجـيـنـك أطـلالـه
سيكـثـرُ من بـعـدِ تـرحـالـهِ   تـوَجُّـعُ صـبٍّ وإعـوالـه
بـنـفـسي الـذي قـلقتْ وشحـه   وضـاقَ بـمـا فـيـه خـلخـالُـهْ
يـريـك الـحـنـادسَ إدبـارهُ   ويـبـدي لـك الصبـحَ إقبـالـه[6]
مليـحُ الـدَّلالِ قـليـلُ الـنـوالِ   جـمـيـلٌ وإنْ قـلَّ إجـمـالُـهْ

وقلت:

رخـيـمٌ فـاتـرُ الـلحظِ   رشيـقٌ مُـخـطفُ الـخصـرِ
وقـد عُـمـمَ بـالـلـيـل   وقـد قـنـعَ بـالـفـجـرِ
ومـا يـنـفـعـنـي حـسـنـك يـا أحـسـن مـن بـدرِ
إذا كـان نـصـيـبـي مـنـك طـول الـبـينِ والـهـجـرِ

وقال كشاجم:

---

(١) في ديوانه: «بسنى الصباح جباهها».
(٢) في ديوانه: بأن أغربت».
(٣) الأغاني: ١٤/٥٥.
(٤) ديوانه: ٤٤٥. العقيصة: ضفيرة الشعر.
(٥) ليس في ديوانه..
(٦) الحندِس: الليل الشديد الظلمة.

بـالله يـا مـتفـرداً فـي حسنـه ... ومقلتا هـروت بين محـاجـرهْ[1]
ومحكـمـاً أردافـهُ في خـصـره ... ومصـافحاً خلخـالَـهُ بضفـائره
ويـكـاتـمُ الاسـرار حتـى إنـه ... ليصـونها من أنْ تَمرَّ بخـاطـره
لا تغضبن على فتى يرضى بما ... أولـيـتـهُ انـتـعـلتَ بنـاظـرِهْ

أخذ قوله:

ومـصـافـحـاً خـلخـالـه بـضـفـائـره

من قول[2] أبي نواس:

بـاتـوا وفـيـهـم شـمـوسُ دجـنٍ ... يـنـعـلُ أقـدامـهـا الـقـرونُ
تـعـومُ أعـجـازُهـنَّ عـومـاً ... وتـنـثـنـي فـوقـهـا الـمـتـونُ
غـريـبُ شـكـل بـديـعٍ حـسـن ... أفـردهُ الـمـثـلُ والـقـريـنُ[3]
بـانـوا بـروحـي فـصـرتُ وقـفـاً ... لا بـي حَـراكٌ ولا سـكـونُ[4]

وقال نصر بن أحمد[5]:

سلسـلَ الشعرُ فـوقَ وجـهٍ فحـاكى ... ظلمـةَ الليـلِ فَـوْقَ ضَـوءِ الصبـاح

وقال السري:

قـصـرتْ ليلةُ الخـورنـقِ حسنـاً ... والليـالي الـطوالُ فيـه قصـارُ[6]
إذ وجـوهُ الأنـام فـيـه ريـاضٌ ... ومـيـاهُ الـسـرورِ فـي غـمـارُ
وجـنـاتٌ تـحـيـرَ الـوَردُ فـيـهـا ... وثـغـورٌ جـرتْ عـلـيـهـا الـعـقـار
فـضـحـاهُ مـن الـذّوائـبِ لـيـلٌ ... ودُجـاه مـن الـخـدودِ نـهـار

وقال:

ومـالت غصـونٌ طـوقتْهـا منـاطقٌ ... ولاحتْ شموسٌ توّجتْها حنادُس[7]

وقلت:

وذي غنـج يـأوي إلى فـرعـه الـدُّجى ... ولـكـنـهـا عـن وجـهـه تـتـفـرَّجُ
فـفيـه ظـلام بـالصبـاح معـمـم ... وفـه صـبـاحٌ بـالـظلامِ مـتـوَّجُ
يـروق سُليمى منـك جَعـد مسلسـلٌ ... ويسليـك منـهـا أقحـوانٌ مفـلَّجُ

---

(١) في ديوانه: «يا متفرّداً بجماله».

(٢) ديوانه: ٦٢٢.

(٣) في الديوان: «أعوزه المثل والقرين».

(٤) في الديوان: «فصرت شخصاً».

(٥) نصر بن احمد بن نصر بن مأمون البصري. شاعر غزل. مات سنة ٣٢٧ هـ. ويُعرف بالخبر أرزي. (الأعلام: ٨/٢١).

(٦) الخوَرنق: قصر بظهر الحيرة.

(٧) حنادس: جمع حندس: ظلمة الليل.

وفرعُك من صبغ الشباب ممسكٌ　　وخدُّك من ماء الجمال مضرّجُ
ووجهُك مثلُ الروض يغسلُه الحيا　　تمشطهُ أيدي الرياح فيبهجُ

أبلغ ما قل في صفة الأصداغ والعذار: فمن بديع ما قيل في الصدغ قول ابن المعتز:

له طرة كجناحِ الغُدافِ　　تلوحُ على غمرة مقمرة
وفي عطفةِ الصدغِ خالٌ له　　كما استلبَ الصولجانُ الكرة[1]

وقوله:

وكأنَّ عقربَ صدغه وقفتْ　　لما دنتْ من نارِ وجنتهْ[2]

وقوله:

غُلالة خَدِّه وردٌ جنيّ　　ونونُ الصّدغ منقوطٌ بخالِ[3]

وقلت:

وكأنَّ دارةَ صدغهِ وعذارهِ　　ألفٌ تقوم تحتَ نون تغطف

وقال ديك الجن:

فقام مختلفاً، كالبدرِ مطلِفاً　　والخشف ملتفتاً والغصن منقطفا
رقّتْ غلالةُ خدّيه فلو رُميا　　باللحْظِ أو بالمنى بأن يكفا
كأنَّ لاماً أُديرتْ فوقَ وجنتِه　　واختطَّ كاتبُها من تحتها ألفا

وقلت:

إذا التوى الصدغ فوق وجنته　　رأيتَ تفاحةً بها عضّه

وقلت:

الغيمُ بينَ ممسّك ومكفّر　　والرَّوضُ بين مجدّدٍ ومدبّجِ
فإذا شربتَ فمنْ رحيقِ سلسلٍ　　وإذا رشفتَ فمن شتيتٍ أفلجِ
من ريقِ أهيفَ كالقضيبِ مخضراً　　أو كفِّ أبلج كالصباحِ الأبلجِ[4]
فإذا جلا لك غرَّة في طرَّة　　ألوى بقلبك أبلج في أدعجِ[5]
فانظر عناقَ ممسك لمكفر　　يجلوه حسنُ مفلّج ومضرّج
وإذا تعانَق خدُّهُ وعِذارُهُ　　فانظر عِناقَ عقائق وبنفسجِ

وقال آخر:

عجبي لخضرة زَعفران عذارِه　　ومن العجائب زعفرانٌ أخضرُ

---

(١) الصولجان: العصا. الغُداف: النسر.
(٢) ديوانه: ٨٩.
(٣) ديوانه: ٣٣٦. الغُلالة: البشَرة. وفي الديوان: «غُلالة خده صُبغت بوردٍ».
(٤) أهيف: رشيق. أبلج: مشرق.
(٥) أدعج: اسود العين واسعها.

وقال[1] ابن المعتز:

من كفِّ ريم تثنى مناطقُه ... على هضيم الكشحينِ ممشوق[2]
يعطيك ما شاء من معانقة ... مقفلة من وراء معشوقِ
مسطرُ الخدِّ بالعذارِ ولا ... يحسنُ غصنٌ إلا بتوْرِيقِ

وقلت:

له وجنتا وَرْدٍ وعينا غزالةٍ ... وغُرَّة إصباح وطُرة غيهبِ
وصدغٌ يناجي الأذنَ وهو مُعقرَبٌ ... وطوراً يناغي الخدَّ غير مُعقربِ
له من ظلام الليل أحسنُ ملبسٍ ... وفوقَ ضياء الصبح أحسنُ ملعبِ

وقال الصنوبري:

تلك طرارٌ عليك أمْ حلقٌ ... زانك صدغانِ أم هما زردُ

وقلت:

يفتنُ القلبَ بخدٍّ ... لم يدَعْ للوَرْد قدرا
مثلما تكتبُ بالمسـ ... ـك على الكافورِ سطرا
وعذار يسحرُ الصبَّ ... وما يعرفُ سحرا
وبصدغ دارَ في الخدِّ ... كما تعقدُ عشرا
كلما أظلم [ليلي] ... كان [لي] وجهك فجرا[3]

وقال[4] ابن المعتز:

لعمرُك ما أزْرَتْ بيوسفَ لحيةٌ ... ولكنّه قد زاد حُسناً، وأُضعِفا[5]
فلا تعتذر من حبهِ في التحائهِ ... فما يحسنُ الدينارُ إلا مسيفا[6]

وقال في خضرة الشارب:

تَبسَّمَ إذ مازَحتُهُ فكأنما ... تكشفَ عن دُرٍّ حجابَ زبرجدِ[7] [8]

وقال بعض المتأخرين وأحسن:

ومُعذَّرين كأنَّ نبتَ خدُودهم ... أقلامُ مسك تستمدُّ خلوقا

---

(١) الأبيات ليست في الديوان.

(٢) هضيم الكشمين: ضامر الخاصرتين.

(٣) ما بين المعقوفتين ليس في الأصل.

(٤) ديوان ابن المعتز: ٢٨٢.

(٥) أزرَتْ: التفّت وأحاطت.

(٦) في الديوان: «من حبّه» و «إلا مُشَنّفا». مشنف: معلق في الأذن.

(٧) في الديوان: ١٤٧. «فكأنه ... يكشّف ... زمرد».

(٨) الزبرجد: حجر كريم. والعقيق: حجر كريم.

قرنوا البنفسجَ بالشقيقِ ونظموا   تحت الزَّبرْجَدِ لؤلؤاً وعقيقا

وقلت:

وعانقت حلق من صدغه حلقا   كالعين في العين أو كالجيم في الجيم

وقلت وليس من هذا الباب:

كأنما النور مضحكٌ يقق   وعطفةُ الغصن شاربٌ خضرُ

وقلت:

وترى النوْرَ مثلَ مضحك خُوْد   وترى الغصنَ مثلَ شارِبِ أمرد[1]

ولعبد الرحمٰن السيلي رجل من أهل خراسان:

وشادن سائقات الشعر قد سلكتْ   في عارضيهِ على جهدٍ بها طرقا[2]

هذا البيت متكلف جداً:

لما رأتْ أنها قد أخطأت وجَنتْ   ولَّتْ تَعودُ فدارَت كلها حلقا

وهو مأخوذ من قول كشاجم:

علم الشعر الذي عاجلهُ   أنَّه جار عليهِ فوقف

فقال هذا (وقف) وقال عبد الرحمٰن (دارت حلقا) الفرق بينهما هذا.

وقلت:

لا والذي دار من صدغيك وانعطفا   وصار نوناً إذا صيرتهُ ألفا
ما كنتُ إذ خنتني إلا أخا ثقةٍ   لم تستعضْ منهُ إذ ضيعتهُ خلفا

لم أسبق لمعنى البيت الأول:

وقلت:

قد التوى صدغُه واختطَّ عارضهُ   كأنَّهُ ألفٌ من فوْقه نونُ

وقلت أيضاً ولم أسبق إلى معناه:

ومغنج قالَ الكمالُ لوجهه   كنْ مجمعاً للطيباتِ فكانَهُ
زعمَ البنفسجُ أنه كعذارِهِ   حسناً فسلوا من قفاهُ لسانَهُ

أعني الهنة النابتة تحت ورقة البنفسج:

وقلت:

بنفسجُ عارضه ينثني   إلى حمرةٍ من وجنتيه
فيجعلُ قلبيَ في كفه   يسيءُ إليهِ ويعدو عليه

وقال ابن المعتز:

---

(١) الخُود: جمع الخَود: الحسناء.

(٢) الشادن: ولدا الغزال.

والصدغُ فَوقَ العِذار منكسرٌ كصولجانٍ يرد ضربتَهْ[1]

وقال:

وصدغه كالصولجان المنكسر

أجود ما قيل في حسن القد، ورقة الخصر، وكبر العجيزة:

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبي، عن عسل بن ذكوان، وأخبرنا به أبو علي بن أبي حفص، عن جعفر بن محمد العسكري، عن بعض رجاله قال: قال أبو عمرو بن العلاء لأصحابه أنشدوني أحسن ما قيل في حسن القد، وعظم العجيزة، فأنشده بعضهم قول علقمة:

صِفر الوشاحين ملءُ الدّرع بهنكةٌ كأنّها رشأٌ في البيتِ ملزومُ[2]

قال: لم تأت بشيء، فأنشد[3] بيت ذي الرمة:

ترى خلفها نصفاً قناة قويمة ونصفاً: نقا يرتَج أو يتمرمرُ

وأنشد[4] بيت الأعشى:

صِفر الوشاحينِ ملءُ الدِّرع بهنكةٌ إذا تمشتْ يكادُ الخصرُ ينْخَزِلُ

وأنشد بيت[5] ذي الرمة:

عجزاءُ ممكورةٌ خمصانةٌ قلقٌ عنها الوشاح وتمَّ الجسمُ والقصبُ[6]

فقال أحسن من هذا كله قول الحارث:

غرثان سمط وشاحها قلقٌ شبعان من أردافِها المرطُ[7]

قال أبو هلال أخذه عبد الله بن عبد الله بن طاهر فقال:

سلمى وما سلمى تفوق المنى والوصف أنواعاً وألوانا

وشاحها يحسدُ خلخالها كجائع يحسدُ شبعانا[8]

نقله إلى وصف الساق، وأخذه ابن المعتز بلفظه ومعناه فقال[9]:

وظباءٌ غرائرُ مشبعات المآزِر

ومن البديع قول[10] أبي نواس:

---

(١) ديوان ابن المعتز: ٨٩. وفيه: «والصدغُ قد صدّ عن محاسنه».

(٢) بهنكة: امرأة سمينة. وفي ديوانه: «خرعبة». والرشأ: الغزال.

(٣) ديوانه: ٣٨.

(٤) ديوان الأعشى: ٥٥. وفيه: «يكاد الخصر ينخزل».

(٥) ديوانه: ١٠.

(٦) عجزاء: ذات عجيزة ضخمة. ممكورة: حسنة الخَلق. قلق عنها الوشاح: كناية عن ضمور بطنها. خمصانة: نحيفة. القصب: العظام.

(٧) غرثان: عطشان. المرط: الثوب.

(٨) الخلخال: سوار يوضع في الساق.

(٩) ديوان ابن المعتز: ١٨٦. أي شابات ممتلئة.

(١٠) ديوانه: ٤١٢.

وريّان من ماءِ الشبابِ كأنّهُ يظمأ من ضُمرِ الحشا ويجاع
أخذه الآخر فقال:
ظبيٌ كأنَّ بخصرِه من ضمرِه ظمأ وجوعا
وقلت:
وقد نقطن أذقانا كشماماتِ كافورِ
وقد شَدَّتْ زنانيراً على مثل الزنانيرِ
وقد أحسن ابن المعتز حيث يقول:
وتحت زنانير شددنَ عقودها زنانير عكان معاقدها السُّرُرُ[1]
وقال مؤمل وأفرط:
من رأى مثلَ حِبتي تشبهُ البدرَ إذ بدا
تدخلُ اليومَ ثم تد خلُ أردافها غدا
وأنشد أبو أحمد قال أنشدني أبو بكر بن دريد[2]:
قد قلتُ لما مرَّ يخطو ماشياً والرِّدفُ يجذبُ خصرهُ من خلفه[2]
يا منْ يُسلمُ خَصرهُ من ردفه سلمْ فؤادَ محبهِ من طرفه
وقد أحسن القائل في وصف لين القوام والترنح:
ممن له حسن الرحيق وطيبه ومزاج شاربه ومشى نريبه
وقلت:
لا والظباء الآنسات إذا رَنتْ فافتنّ حسنُ عُيونهنَّ فتونا
إنْ لُحنَ لُحنَ كواكباً أو نُحنَ نحـ ـنَ لطائماً أو مِلنَ ملنَ غصونا
ويدرن من مُقلٍ إليك فواترٍ يكسينَ قلبكَ بالفتورِ فتونا
ما خنتُ عهدَ هوىً عليك وقفتُهُ وأخو المروءَةِ لا يكونُ خَؤونا
وقبل هذا:
مترجرجُ الأردافِ مضطمرُ الحشا لدنُ القوامِ يكادُ يعقد لينا[3]
دأبَ النعيمُ له فأثمرَ صدرُهُ ثمراً إذا جلتْ الثمار حلينا

يقال حلا الشيء في الفم وحلى في القلب. وكتبت في فصل لي: والله يعلم أني أخدمه بالضمير خدمة، لو تصورت له لرآها الرائي ممطوراً، ووشياً منثوراً، ولؤلؤاً منظوماً ومنثوراً، بل لأبصر أعطاف الفتيان تتثنى تثني الأغصان في قراطق الحبير، ومن زبرات الديباج والحرير، وقد اطلعت أزرارهم بواهر الأقمار، مطرفة بعقارب الاصداغ، وحلق الأطرار، فأقبلوا يسفرون عن

---

(١) الزنانير: جمع الزنار: الحزام. العكان: الطي في البطن بسبب السِّمن.
(٢) البيتان في الأمالي: ٣/٩٥ ونسبتهما إلى خالد الكاتب. وفيه: «لما أن بدا متبخراً».
(٣) مترجرج الأرداف: كناية عن امتلاء المؤخرة. مضطر الحشا: ضامر البطن.

غرة الصباح، ويبسمون عن حباب الراح، ويمزجون الدلال بخجل، أسأرء فيهم الوصال فإذا حضروا وكلوا الأبصار، وإذا غابوا استوهبوا القلوب والأفكار، فهم الداء والدواء ومنهم السقم والشفاء.

ومن الإفراط في ذكر الغيد وهو لين القامة قول ماني[1]:

أتمنى الذي إذا أنا أومأ ... تُ إليه بطرفِ عيني عيني تجّنى
أهيفُ كالقضيبِ لو أنَّ ريحاً ... حَرَّكتْ هدبَ ثوبه لتثنّى

وأجود ما قيل في النهود وعظم العجيزة قول الأعرابي: بيضاء جعدة لا يمسّ الثوب منها، إلا مشاشة كتفيها، وحلمتي ثدييها. أخذه الشاعر فقال: أو أخذه الأعرابي من الشاعر:

أبت الرَّوادفُ والثديُّ لقمصِها ... مَسَّ البطونِ وأن تمسَّ ظهورا
وإذا الرِّياحُ مع العشيِّ تناوَحَتْ ... نَبهنَ حاسِدَةً وهجنَ غيورا

وقلت:

تمشي بأردافٍ أبيْنَ قعودَها ... بينَ النساءِ كما أبينَ قيامها

وقال[2] ابن المعتز في النهود:

يا غُصُناً إنْ هزَّه مشيُهُ، ... خَشِيتُ أنْ يَسقُطَ رُمَّانُهُ
إرحَم مَليكاً صارَ مستعبداً، ... قد ذَلَّ في حُبِّكَ سُلطانُهُ

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن العكلي عن ابن خالد، عن الهيثم بن عدي، قال: قعد أعرابي إلى جانب دار إسماعيل بن علي بالكوفة، فخرجت جارية فطفق الأعرابي ينظر إليها، فقال له رجل: ما نظرك إلى شيء غيرك؟ أقبل على شأنك واصبر، والجارية تسمع - فقال الأعرابي ربلات تصطك، وغصن يهتز وثدي يخرق إهابه وتقول اصطبر، فضحكت الجارية، وقالت: والله ما مدحني أحد مثل ما مدحتني به. فقال: بأبي أنت وأمي، إن الهوى يظهر جيد القول، ويبدي المستتر الكامن، وإنك لمما يكنى عنه. الربِلات: مجامع الفخذين؟

وقلت:

أيا وَرداً على غصن ... بكرٍّ اللحظ يلقطه
ورماناً على فنن ... يكادُ المشيُ يسقطهُ
أتى والبدرُ يحسدُهُ ... وشمسُ الدُّجن تغبطهُ
وخوفُ الناس يقبضهُ ... وحبُّ الوصل يبسطهُ

وأحسن ما قيل في الثدي:

قبيحٌ بمثلكِ أنْ تَهجري ... وأقبح من ذاك أن تُهجري

---

(١) ماني الموسوس: رجل من اهل مصر، اسمه محمد بن القاسم، ابو الحسن، شاعر ليّن الشعر رقيقه، لم يقل شيئاً إلا في الغزل. اخباره في الأغاني: ٢٣/١٨١.

(٢) الديوان: ٣٧٥.

أقــاتــلتي بــفــتــورِ الــجــفــونِ ... ورُمَّــانــتــيــنِ عــلــى مــنــبــرِ
كــحــقــيــن مــن لــبِّ كــافــورَةٍ ... بــرأســيــهــمــا نــقــطــتــا عــنــبــر

والناس يستسنون قول[1] مسلم بن الوليد:

فـأقسمت أنسى الـدَّاعيـاتِ إلى الصبـا ... وقـد فـاجـأتْهـا العينُ والستـر واقـعُ
فـغـطتْ بكفيهـا ثمـارَ نـحـورهـا ... كـأيدي الأسـاري أثقلتهـا الجـوامـع[2]

وهو حسن جداً ومثله قول النَّمري[3]:

أعــمــيــرُ كــيــفَ بــحــاجــةٍ ... طُلبتْ إلى صُمِّ الـصُّـخـورِ
لله دَرُّ عِــداتــكــم ... كـيفَ انـتسبنَ إلـى الـغُـرورِ[4]
ولــقــد تــبــيــتُ أنــامــلي ... تـجـنـيـنَ رُمَّـانَ الـصـدورِ[5]

وقال[6] علي بن الجهم:

شـاخصٌ في الصدر، غضبـان على ... قـبَبِ الـبـطنِ وطـيِّ الـعُـكَـنِ[7]
يـمـلأ الـكـفَّ، ولا يـفـضـلهُ ... وإذا أثـنـيـتـه لا يـنـثـنـي

وقد طرف ابن الرومي في قوله[8]:

صـدورٌ فـوقـهـنَّ حِـقـاق عـاجٍ ... وحَـلـيٌ زانُـه حـسـنُ اتـسـاقِ[9]
يـقـول الـقـائـلونَ إذا رأوهـا ... أهـذا الحلي من هـذي الحقـاقِ

أجود ما قيل في الخضاب بأنامل المرأة، من قديم الشعر، قول الأسود[10] بن يعفر:

يـسعـى بهـا ذو تُـؤمتين مُـقـرطـقٌ ... قَـنـأتْ أنـامِلهُ من الـفـرْصَـادِ[11]

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/٧١٨.

(٢) في ديوانه: «فغطت بأيديها». «أقفلتها الجوامع». وثمار النحور كناية عن الثديين. وفي الشعر والشعراء: «فغطت بأيديها».

(٣) النَّمَري: هو منصور بن سلمة بن الزبرقان، كان مقدّماً مع الرشيد. الشعر والشعراء: ٢/٧٣٦ والأبيات مع ترجمته.

(٤) عِدات: جمع عِدة: ما تعد به الآخرين.

(٥) في الشعر والشعراء: «يجنين رمان النحور».

(٦) ديوانه: ١٨٨.

(٧) قبب البطن: ضموره. العُكن: طي البطن.

(٨) ديوانه: ٤/٢٨٨.

(٩) حِقاق: جمع حُق.

(١٠) الأسود بن يعفر: جاهلي من بني حارثة بن سلمى بن جندل بن نهشل بن دارم وكنيته أبو الجرّاح. والشعر والشعراء: ١/١٧٦.

(١١) مقرطق: من القُرطق: لُبس. (معرّب كُرتَه). الفرصاد: التوت الأحمر. و«مقرطق» في الأصل «كأنما» وفي منتهى الطلب «مقرطق».

فأخذ المحدثون ذلك، وتصرفوا فيه فمن أحسن ذلك قول(١) أبي نواس:

يا قمراً أبصرتُ في مأتم ... يندبُ شجواً بين أترابِ
يبكي فيلقي الدُّرّ من نرجسٍ ... ويلطمُ الوَرْدَ بعنابِ(٢)

وقال ديك الجن:

ودعتُها لفراقٍ فاشتكتْ كبدي ... وشبكتْ يدَها من لوعةٍ بيدي
وحاذرتْ أعينَ الواشينَ وانصرفَتْ ... تعضُ من غيظِها العنَّابَ بالبردِ(٣)
فكانَ أوَّلَ عهدِ العينِ يومَ نأتْ ... بالدَّمعِ آخرُ عهدِ القلبِ بالجلد

ومن البديع في هذا المعنى قول الآخر:

قالوا الرَّحيل فأسرَعَتْ أطرافها ... في خَدِّها وقد اكتسينَ خضابا(٤)
فاخضرَّ موضعُ كفِّها فكأنما ... غَرَستْ بأرض بنفسج عُنابا

وقال الناشىء وهو أحسن الواصفين لهذا المعنى:

من كفِّ جاريةٍ كأنَّ بنانَها ... من فضةٍ قد طرِّفتْ عُنَّابا
وكأنَّ يمناها إذا نطقتْ به ... يلقى على يدها الشمالِ حسابـ

وقال أيضاً:

لنا قينةٌ ترنو بناظرتينِ ... بما في قلوبِ الناسِ عالمتين(٥)
تخالُ تطاريف الخضابِ بكفها ... فصوصَ عقيقٍ فوق قضب لجينِ

وقال:

متعاشقان مكاتمان هواهما ... قد نامَ بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحظَ من جفنيهما ... فكأنما يتدارسان كتابا
وإذا هَدَت عينُ الرَّقيب تخالست ... كفاهما خلس السلام سلابا
بأنامل منه يلوحُ مدادها ... وأنامل منها كسينَ خضابا
فكأنما يجني لها من كفه ... عنباً وتجنيهِ لهُ عنابا

يذكر أثر المداد بأنامله أثر الخضاب بأناملها.

وقلت:

انظر إلى النقشِ من أطرافها البضه ... مثل البنفسج منثوراً على فضهْ
أوخلتها أخذَتْ أطراف خرمة ... فنضدته على جمارة غضهْ

ومن غريب ما قيل في نظم حليهن قول النمر بن تولب:

---

(١) ديوانه: ٥٣

(٢) شبه الدموع بالدر، والعين بالنرجس، والورد بالعناب.

(٣) البرَد: كناية عن أسنانها البيضاء.

(٤) الخضاب: ما يصطبغ به.

(٥) القينة: المغنية.

كَعـــابٌ عليهـــا لـؤلـؤٌ وزبـــرجـــدٌ ونـظمٌ كـأجـوانِ الجـرادِ مفصّـــلُ[1]

قوله «كأجوان الجراد» غريب بديع، لم يسبق إليه ولا أعرف أحداً أخذه منه. ومن البديع قول الدمشقي:

بــدر بــدا والــشـمسُ فـي كـفّــه وأنــجـمُ الــليـلِ عــليــهِ رعــاثُ
وهــو مــن الــليــلِ ومــن طــرفـهِ وشــعــرهِ فــي ظــلـمــاتٍ ثــلاثْ

أحسن ما قيل في صفة الدمع إذا امتزج بالدم قول أبي الشيص[2]:

لهـوتُ عن الأحـزان إذ أسفـر الضحى وفـي كـبـدي مـن حَـرِّهِـنَّ حـريــق
مــزجتُ دماً بــالـدَّمـعِ حتى كـأنمـا يُـذابُ بـعـيـنـي لـؤلـؤٌ وعــقـيــق

وقول[3] أبي تمام:

نثـرت فــريــدَ مــدامــع لم تُـنـظَمِ والـدمعُ يحمـلُ بعضَ ثقـلِ المُغـرَمِ
وصلتْ نجيعــاً بــالـدُّموعِ فخــدُّهــا في مثــلِ حــاشيــةِ الـرِّداء المعلمِ[4]

وقال:

أبيـتُ أراعـي أنـجـم الـلـيـل بــعــدكـم فيـا ليتَ شعري هـل تـراعـونهـا بعـدي[5]
ودمــعٍ نــثــرتُ دُرَّه وعــقــيــقَــه كــأني حللتُ العقـدَ من طـرفِ العقـدِ

ومن أجود ما قيل في بياض الدمع، على حمرة الخد، ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

لــو كـنتَ يــومَ الـوداعِ حــاضـرَنــا وهــنَّ يــطفئـن لــوعــةَ الــوجــدِ
لــم تــرَ إلا الــدُّمــوعَ جــاريــةً تــسـقطُ مــن مــقــلةٍ عــلى خــدِّ
كــأنَّ تــلك الــدمــوع قــطرُ نــدىً يــقــطرُ مــن نــرْجسٍ عــلى وردْ

ونحوه قول ابن الرومي:

لــمــا دَنــا الــبَــيْــنُ وراحَ الــدّلُّ وَدَّعْــتــهــا ودَمــعُــهــا مُــنــهــلُّ[6]
وخَــدُّهــا مــن قــطره مُــخــضَــلُّ كــأنَّــهُ وَرْدٌ عــلــيــهِ طــلُّ

ومن أجمع بيت قيل قول[7] المحدثين:

فــأسبلت لـؤلؤاً مــن نــرجسٍ وسقـتْ وَرْداً وعضَّتْ عـلى العُـنَّـاب بــالـبَـرَدِ

---

(١) كعاب: حسناء شابة. أجوان: جمع جونة، والجون: الأبيض وكذلك الأسود.

(٢) ابو الشيص: هو محمد بن علي بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي: شاعر مطبوع رقيق الالفاظ من اهل الكوفة، قُتل سنة ١٩٦ هـ. (الأعلام: ٦/٢٧١). والبيتان من الشعر والشعراء ٢/٧٢١ والأغاني ١٦/٤٠٠.

(٣) ديوانه: ٢٧٦. وفيه: «بعض شجو المغرم».

(٤) في الديوان: «وصلت دموعاً بالنجيع». النجيع: الدم.

(٥) البيتان ليسا في ديوانه.

(٦) البَيْن: الفراق. والبيتان ليسا في ديوان ابن الرومي.

(٧) الإعجاز والإيجاز: ٢١٩. ونسبته إلى أبي الفرج الدمشقي.

ليس لهذا البيت نظير.
وقلت:

يبكي فيسقي الدَّمعُ وجنتَه ... كما سقى الطلُّ وردةً غضّه

ومن المشهور قول بعضهم وهو حسن:

كأنَّ الدُّموعَ على خدِّها ... بقيةُ طلٍّ على جلنارِ(١)

ونحوه ما أنشدناه أبو أحمد في العرق:

يحدر من أرجاءِ صورةِ وجهه ... من الفم سُح في الجبين وفي الخدِّ
فُرادى ومثنى يستبينُ كأنَّهُ ... سقيطُ ندى وفي على وَرَق الوردِ

ومثله ما قلت:

أخْرَجهُ الحمَّام كالفضه ... يحسدُ منهُ بعضهُ بعضهْ
كأنما الماءُ على جسمه ... طلٌّ على سَوْسنةٍ غضه

وفي صفة الدمع:

توريدُ دمعي من خدَّيك مختلسٌ ... وسقم جسمي من عينيك مُسترقُ
لم يبق لي رمَقٌ أشكو هوَاك به ... وإنما يتشكى من به رَمقُ

وأبلغ ما قيل في امتلاء العين من الدمع قول بعض الأعراب أظنه:

فظلتُ كأني من وراءِ زُجاجةٍ ... إلى الدار من فرطِ الصّبابة أنظرُ(٢)

وقول البحتري في معناه:

ويحسنُ دَلُّها والموتُ فيهِ ... وقد يستحسن السيفُ الصقيلُ(٣)
وقفنا والعيونُ مُشغّلاتٌ ... يعالج دمعها طرفٌ قليلُ(٦)
نَهتهُ رقبةُ الواشينَ حتى ... تعلق لا يغيضُ ولا يسيلُ

قوله «يحسن دلها والموت فيه» أحسن ما قيل في الدلال.

ومن أعجب ما قيل في الدمع، قول بعضهم، ونسب إلى السري، ولا أظنه له:

بنفسي من رَدَّ التحيةَ ضاحكاً ... فجدَّدَ بعدَ اليأس في الوصل مطمعي
إذا ما بدا أبدى الغرامُ سرائري ... وأظهرَ للعذَّال ما بينَ أضلعي
وحالتْ دُمُوعُ العينِ بيني وبينهُ ... كأنَّ دُموعَ العينِ تعشقهُ معي

وهذا معنى ظريف حسن جداً.

ومن حسن الاستعارة في صفة الدمع ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

---

(١) الطَّلّ: الندى.
(٢) الصبابة: الشوق.
(٣) البيت في ديوانه ١/٢٨٣ عـ. الدل: الدلال.
(٤) في ديوانه: «يغالبُ دمعها نظرٌ كليلُ».

قـد كـانَ في طـول البكـا لي راحـةٌ ... وعـنـانُ سـرِّي فـي يـدِ الـكـتـمـانِ
حـتـى إذا الإعــلانُ نـبـهَ واشـيـاً ... رقـأتْ دمـوعـي خشـيـةَ الإعـلانِ

ومن البديع في ذلك قول[1] بشار وهو مشهور:

مـاءُ الـصـبـابـةِ نـارُ الـشـوقِ تـحـذره ... فـهـلْ سمـعتـم بـمـاءٍ فـاض مـن نـارِ

وقلت:

أشكـو الهـوى بـدُمـوع قـادهـا قلق ... حتى عـلقنَ بـجفـنٍ رَدَّهـا الغـرقُ
ففي فؤادي سبـلٌ لـلأسـى جـددٌ ... وفي الجفـونِ مقيـلٌ للكـرى قلق[2]
لهيبُ قلبي أفاضَ الدَّمعَ من بصري ... والعـودُ يقـطرُ مـاءً حينَ يـحتـرقُ

ولا أظنني سبقت إلى هذا التمثيل.

وقال ابن المعتز:

ولـطـمـةُ خـدٍّ تجعـلُ الـوَرْدَ خُـرَّمـا ... وتـنـثـرُ دمـعـاً لا يـبـاعُ بـأثـمـانِ[3]

ونظير المصراع الأول قول صاحب مصر:

والله لـولا أنْ يُـقـالَ تـغـيـرا ... وصـبـا وإنْ كـانَ الـتـصـابي أجـدرا
لأعـادَ تـفـاحَ الـخـدود بـنـفـسـجـاً ... لـثـمـي وكـافـورَ الـتـرائـبِ عـنـبـرا

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: أنشد الحسن بن رجاء عن المبرد، يوماً بيت ذي الرمة:

لـعـلَّ انحـدارَ الـدَّمـع يُـعـقبُ راحـةً ... من الـوجـدِ أو يشـفي نـجيَّ الـبـلابـل

وقال له من قال في مثله؟ فقال قد ملح الحسن بن وهب[4] في قوله:

إبـك فـمـا اكـثـر نـفـع الـبـكـا ... والـحـبُّ إشـفـاقٌ وتـعـلـيـلُ
إفـزع إلـيـه فـي ازدحـام الـجـوى ... فـفـيـهِ مـسـلاةٌ وتـسـهـيـلُ
وهـو إذا أنـتَ تـأمَّـلـتـهُ ... حـزْنٌ عـلى الـخـدَّيـن مـحـلولُ

وقد ملح العباس بن الأحنف:

إنـي لأجـحـدُ حـبـكـم وأسـرُّهُ ... والـدَّمـعُ معتـرَفٌ بـه لم يجحـد
والـدَّمـعُ يشهـدُ أنني لـك عـاشقٌ ... والنـاسُ قـد علمـوا وإن لم يشهـد

وقال:

طـالَ عـهـدي بهـا فـلمـا رأتني ... نـظمـتْ لـؤلـؤاً عـلى تـفـاحِ

---

(١) ديوان بشّار: ٥٣٠.
(٢) الكرى: النوم.
(٣) الخرّم: نبات. والبيت ليس في ديوانه.
(٤) الحسن بن وهب، شاعر كان معاصراً لأبي تمّام، وكان وجيهاً استكتبه الخلفاء، مات سنة ٢٥٠ هـ. (الأعلام: ٢/٢٢٦).

وقد أحسن الآخر في قوله:

إذ لا جـوابَ لـمفحـمٍ مـتـحـيـر ... إلا الـدُّمـوع تصـانُ بـالأطـرافِ

قوله «تصان بالأطراف» عبارة صحيحة جيدة.

وقال آخر:

تـقـول غـداةَ الـبـيـن عـنـدَ وداعـهـا ... لـكَ الكبـد الحـرَّى فسر ولـك الصبرُ
وقـد سـبـقـتـهـا عـبـرَةٌ فـدمـوعُـهـا ... على خـدِّهـا بيضٌ وفي نحـرِهـا حمـرُ

معناه إذا انحدرت إلى نحرها، إنصبغت بلون الطيب والزعفران بها. ومن غريب المعنى قول الآخر:

غَـدَتْ بـأحبتي كـوم المـطايـا ... فـبـانَ الـنـومُ وامـتـنـعَ الـقـرارُ
وكـان الـدَّمـعُ لـي ذخـراً معـدّاً ... فـأنفقـتُ الـذّخيـرةَ يـومَ سـاروا

أجود ما قيل في طيب عرف المرأة: جميع ما مر بي من الشعر في هذا الفن متقارب في المعنى، لا يفضل بعضه بعضاً إلا في القليل، ومنه ما هو جيد المعنى حلو المعرض، فتركته لأن الشرط قد تقدم بايراد الجيد لفظاً، ومعنى، ورصفاً، وذلك قليل ليس يقع إلا بعد التصفح الطويل والتعب الكثير:

فمن أجود ما قيل في ذلك من قديم الشعر قول[1] الأعشى:

مـا روضـةٌ من ريـاضِ الحَـزنِ معشبـةٌ ... خضـراءَ جـاد عليـهـا مسبـلٌ هـطِلُ
يضـاحـك الشمسَ منهـا كـوكبٌ شـرقٌ ... مـؤزَّرٌ بـعـمـيـم الـنـبـتِ مـكـتـهـلِ
يـومـاً بـأطيبَ منـهـا نـشـر رائـحـةٍ ... ولا بـأحـسـنَ مـنـهـا إذ دنـا الأصـلِ

وقول القطامي وهو جيد النظم متضمن لماء الطلاوة:

ومـا ريـحُ قـاعٍ ذي خُـزامَـى وحَـنـوة ... لـه أرجٌ مـن طيـبِ الـنـبـتِ عـازبُ
بـأطـيـبَ مـن ميٍّ إذا مـا تـقـلـبـتْ ... من الليـلِ وسنى جـانبـاً بعـد جـانب[2]

إلا أنه جاء بالمعنى في بيتين.

ومما هو مضطرب الرصف جيد المعنى قول ابن الطثرية[3]:

خَـودٌ يكـون بهـا القليـلُ يمسّـه ... من طيبهـا عبقـا يـطيبُ ويكثـرُ[4]

---

(١) ديوانه: ٥٧.

(٢) في ديوان القطامي:

ومـا ريـح روضٍ ذي أقـاح وحـنـوة ... وذي نـفـل مـن قـلة الـحـزن عـازب
بـأطـيـب مـن لـيـلى إذا مـا تـمـايـلت ... مـن الليـل وسنى جـانبـاً بعـد جـانب

(٣) ابن الطثرية: يزيد بن سلمة بن سمرة، من بني قُشير بن كعب شاعر مطبوع من شعراء العصر الأموي. مات سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ٨/١٨٣).

(٤) البيت في عيون الأخبار ونسبته إلى ابن الأعرابي.

هذا البيت على غاية اضطراب الرصف:

شكر الكرامة جلدها فصفا لها ... إنَّ القبيحةَ جلدها لا يشكرُ

قوله (شكر الكرامة جلدها) في غاية من الحسن، أخذه ابن الرومي فقال:

ألوفُ عطرٍ تذكي وهي ذاكيةٌ ... إذا أساءتْ جوارَ العطرِ أبدانُ
يغيمُ كلَّ نهار، من مجامرها ... ويشمسُ الليل منها، فهو ضحيانُ
كأنها وعثانُ النّدِّ يشملها ... شمسٌ عليها ضباباتٌ وأدخان[1]

وأخذ ابن المعتز قول القطامي ببعض لفظه، إلا أنه زاد زيادة حسنة، وجاء بألفاظ بديعة وهو قوله[2]:

وما ريحُ قاعٍ زاهرٍ مستِ الندى ... وروضٌ من الرَّيحانِ سحّتْ سحائبُهْ
فجاء سُحيراً بين يومٍ وليلةٍ ... كما جرَّ من ذيلِ الغلالةِ ساحبه
بأطيبَ من أثوابِ شمرٍ موهبا ... إذا الليلُ أدجى دابرَ كتائبِهِ
إذا رغبتْ عن جانبٍ من فراشِها ... تضوَّعَ مسكاً أينَ مالت جوانبُهْ

وقد طرف ابن الأحنف في قوله:

ذكرتُك بالرَّيحان لما شممتُه ... وبالرَّاح لما قابلت أوجه الشربِ[3]
تذكرت بالرَّيحان منك روائحاً ... وبالرَّاح طعماً من مقّبلك العذبِ[4]

وأنشدني أبو أحمد عن الصولي قال أنشدني عبيد الله بن عبد الله لنفسه:

تطيرتَ أيامَ اجتنابِك أن ترى ... مكانَك عيني لا خلا منك خاليا
فأسكنتُهُ نوراً كريّاك طيبُه ... يذكرني منك الذي لستُ ناسيا

وقد أحسن وحسنه قليل.

وقيل لأعرابي أية رائحة أطيب؟ قال رائحة بدن تحبه إو ولد تربه[5] فقال ابن الرومي:

ريحه ريح طيب الاولاد

وقلت:

يمرُّ بي وفدُ الصبا ... والليل يقضي نحبهُ
مرَّ بروضٍ زاهرٍ ... ذرَّ عليهِ عشبهُ
فخلتهُ من طيبهِ ... نشوةَ من أحبه

---

(١) النّد: البخور. العُثان: العُبوق. والأبيات في ديوان ابن الرومي: ٦/١٧٦ وفيه: «ضُبابات وأدجان».
(٢) الأبيات ليست في ديوانه.
(٣) الراح الخمرة.
(٤) في ديوانه. «تذكّرت بالتفاح منك سوالفا».
(٥) ديوانه: ٣/١٩٥.

ومن البليغ قول سحيم[1]:

فمـا زالَ بُـردي طيبـاً من ثيـابهـا ... إلى الحـولِ حتى أنهـجَ البـردُ بـاليـا

وأبلغ من ذلك وصفهم طيب المواضع التي وطنها الحبيب، وأول من قال ذلك النميري[2]:

تضـوع مسكـاً بـطنُ نعمـانَ إذ مشتْ ... بـه زينـبُ فـي نـسـوةٍ خـفـرات[3]

ومن أحسنه وأرشقه قول جميل[4]:

ألا أيهـا الـربـع الـذي غيـرّ الـبـلا ... عفـا وخلا، من بعـد ما كـانَ لا يخلو
تـداءبَ ريـحُ المسـك فيـهِ، وإنمـا ... بـه المسكُ إذ جـرَّتْ به ذيلهـا جملُ

وقوله[5]:

وأنت الـذي حبّبت شغبـاً إلى بـدا ... إلـيّ، وأوطـانـي بـلادٌ سـواهـمـا
حـلـلت بـهـذي مـرَّةً ثـم مـرة ... بـهـذي فـطابَ الـواديـان كلاهمـا[6]

وقال الآخر:

أرى كـلَّ أرض يـممـتهـا وإن مضت ... لهـا حجـجٌ يـزداد طيبـاً ترابُهـا[7]

وقد طرف ابن الأحنف في قوله:

وجـدَ النـاسُ سـاطعَ المسـكِ من دجـلة ... قـد أوسـعَ الـمشـاربَ طـيـبـا
فـهـمُ يـنـكـرونَ ذاك ومـا يـد ... رُونَ أنْ قـد حـللتَ مـنـهـا قـريـبـا

وقال البحتري:

فـكـان العبيـرُ بهـا واشيـاً ... وجـرسُ الـحلي عـليهـا رقـيـبـا[8]

وقلت:

تـأمـلتُ منـهـا غـزالاً ربيـبـا ... وبـدراً منيـراً وغـصنـاً رطيبـا
جـلتُ لـك عن خـضـل واضـحٍ ... يـبيـتُ سنـاه عـليهـا رقـيـبـا

---

(١) سحيم: هو عبد بني الحسحاس، وكان حبشياً معلفاً قبيحاً، قُتل بسبب بذاءة لسانه. له ترجمة وأخبار، والبيت المذكور في الشعر والشعراء: ١/٣٢٠. والأغاني: ٢٢/ ٣٢٦.

(٢) النّميري: هو محمد بن عبدالله بن نمير بن خرشة الثقفي: شاعر غزل من شعراء العصر الأموي، ولد ونشأ وتوفي في الطائف سنة ٩٠ هـ. (الأعلام: ٦/٢٢٠). والبيت في الأمالي دون عزو.

(٣) نساء خفِرات: فيهن حياء.

(٤) ديوانه: ٨٥. وفيه: «تذأب . . . به المسك إنْ مرّت . . .».

(٥) ديوانه: ٩٢. وفيه: «لعمري لقد حسّنتِ شغْباً إلى بدا».

(٦) في الديوان: «حللتِ بهذا حلّةً، ثم حلّة . . . بهذا . . .».

(٧) في الأصل: «ارض دمنتها». يمّم: وجّه.

(٨) ليس في الديوان.

وهــزّت لـنـا بـسـراة الـكـثـيـبِ ... قـضيـبـاً تفــرّعَ مـنــه كـثيـبـا[1]
عــشـيــةَ راحــتْ وأتــرابـهــا ... يـقلبن للهـجـرِ طَـرفـاً مُـريـبـا
كــواكــبُ لــيــلٍ إذا مــا رأت ... كــواكـب شيـبٍ تهـاوت غـروبـا
وأقـمـارُ روضٍ قمـرن الـعـقـولَ ... وغـزلانُ رمـلٍ قـلـبن الـقـلوبـا
إذا زدتُـهـا نَـظراً زدتـنـي ... جمـالاً بـديعـاً وشكـلاً غـريبـا
رحلنَ العشيـةَ من ذي الـغـضـا ... وخلفنَ فـيـه جمـالاً وطـيبـا

وقد أحسن القائل في قوله:

جـاريـةٌ أطيـب مـن طيـبهـا ... والـطيبُ فيها المسـك والعنبرُ
ووجـههـا أحسنُ مـن حـليـهـا ... والـحلي فيهـا الـدُّرُّ والـجـوهـرُ

ولو قيل: إن هذا أحسن ما قاله محدث في ذلك لم يكن بعيداً.

ومما هو غاية قول[2] امرىء القيس:

ألـم تـر أنـي كـلـمـا جئـتُ طـارقـا ... وجـدت بـهـا طيـبـاً وإنْ لـم تـطـيـب

وقد طرف القائل:

أتـاهـا بـعـطرٍ أهـلهـا فـتضـاحـكتْ ... وقـالتْ وهـل يحتـاج عـطرٌ إلى عـطرِ

وقد أجاد البحتري:

لـنـا مـن ريـقـه راحٌ ... ومـن رّيـاه ريـحـانُ[3]

وأنشدنا أبو أحمد في طيب الريح، إلا أنه وصفُ رجل:

سـقـيـاً لأيـام مـضـتْ ... وكـأنَّ مـعـهـدَهـا حـلوم
أيـامَ يـفـنـي لـي ويـفـنـي رهطَه الرجلُ العريمُ[4]
إذ لا دلـيـل عـليّ فـي ... بـرد الـضحى إلا الـنسيـمُ

أجود ما قيل في حبّ الصغار من شعر المتقدمين قول نصيب.

ولـولا أنْ يـقـالَ صبـا نـصـيـبٌ ... لـقلت بـنفسيَ الـنشء الـصـغـارُ
بـروحي كـلُّ مهضـومٍ حشـاهـا ... إذا ظـلمتْ فـليسَ لـهـا انـتصـارُ
إذا مـا الـذلُّ ضـاعفن الـحشـايـا ... كـفـاهـا أن يُـلاثَ لـهـا الإزارُ

ومن مليح ذلك قول عوف بن محلّم[5]:

وصـغـيـرةٍ عـلقـتُـهـا ... كـانـتْ من الـفتَـنِ الـكبـارِ
كـالـبـدرِ إلا أنـهـا ... تبقى على ضـوءِ الـنهـارِ

---

(١) الكثيب: ما ارتفع من الرمل.
(٢) ديوانه: ٦٤.
(٣) ديوانه: ١/٨٤. وفيه: «لنا من كفّه».
(٤) الرجل العريم: العظيم.
(٥) عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان، سيد من سادات الجاهلية، مات سنة ٤٥ ق. هـ. (الأعلام: ٥/٩٦).

وأنشدني أبو أحمد عن الصولي قال أنشدني عبد الله بن الحسن وقد ملح وطرف:

جـاريـةٌ أذهـلَهـا الـلعـبُ عمـا يقـاسي الهـائمُ الصبُّ
شكـوتُ مـا ألقـاه من حبِّهـا فـأقبـلتْ تسـألُ مـا الحـبُّ

ومن مليح ذلك ما روي أن عبد الملك بن مروان عُرضتْ عليه جارية فقال لها أبكر أنت أم ثيب؟ فقالت بل ثيب، فأنشد عبد الملك:

قـالوا: عشقتَ صغيرةً فـأجبتهم خيرُ المطي لـديَّ ما لْم يـركبْ
كـم بيـنَ حبـةِ لـؤلؤٍ مثقـوبـةٍ لبستْ وحبـةِ لـؤلؤٍ لـم تثقـب

فقالت الجارية:

إن الـمـطايـا لا يـلذُّ ركـوبُـهـا مـا لـم تـذَلَّـلْ بـالـزِّمـام وتـركَـبْ
والـدّرُّ لـيسَ بـنـافـعٍ أربـابَـه مـا لـمْ يـؤلَّـفْ في الـنـظامِ ويـثـقَـبْ

قد أحسنا جميعاً، إلا أن وجه الكلام أن يقال يثقب ويؤلف في النظام أصدق ما قيل في صفة الحب قول العباس بن الأحنف:

من كـانَ يـزعم أن يـداري في الهـوى حـتـى يـشـكـك فـيـه فـهـو كـذوبُ
الـحـبُّ أمـلك لـلفـؤادِ بـقـهـرهِ مـن أن يُـرى لـلسـرِّ فـيـه نـصـيـبُ

وقلت:

آفـةُ الـسـرِّ مـن جـفـو نِ دوامٍ دوامـعِ
كـيـف يـخـفـى مـع الـدمـو عِ الـهـوامي الـهـوامـعِ(١)
مـا رأيـنـا أخـا هـوى سِـرُّه غـيـر ذائـعِ
إنَّ نـيـرانَ حُـبـه بـاديـاتُ الـطوالـعِ

من أظرف ما قيل في ذكر الشركة في الهوى ما أنشدنيه أبو أحمد:

مـا لـي جفـيتُ وكـنـتُ لا أجـفـى وعـلامـةُ الـهـجـرانِ لا تـخـفـى
وأراك تـمـزجـنـي وتـشـربـنـي ولـقـد عهـدتُـك شـاربي صِـرفـا

وقد أحسن العباس بن الأحنف في هذا المعنى وهو قوله:

يـا فـور لـم أهجـرْكـمُ لمـلالـةٍ منّي ولا لـمقـالِ واشٍ حـاسـدِ
لـكنني جـربْتُـكم فـوجـدتُـكم لا تـصبـرونَ عـلى طعـامٍ واحـدِ

وقد جاء أبو نواس بهذا المعنى إلا أن قول العباس أطبع، قال(٢) أبو نواس:

أتـيـتُ فـؤادهـا أشـكـو إلـيـه فـلْم أخلص إلـيـه مـن الـزِّحـامِ
فيـا مَنْ لـيس يـكـفـيـهـا مُـحبٌّ ولا ألـفـا مـحـبٍّ كـلَّ عـامِ

---

(١) الدموع الهوامي: التي تسيل.

(٢) ديوانه: ٥٨٥.

أظنك من بقيةَ قوم موسى فهمْ لا يصبرون على طعامِ

ومما سبق به العباس الشعراء كلهم قوله[1]:

أحرم منكم بما أقولُ وقد نال به العاشقونَ من عشقوا
صرتُ كأني ذُبالةٌ نصبتْ تضيءُ للناسِ وهي تحترقُ[2]

وأول من ذكر هذا المعنى صاحب كليلة ودمنة وإلى معنى قول البيت الأول يومىء قول البحتري:

قصائد ما تنفكُّ فيها غرائب تألق في أضعافها وبدائعُ
مكرَّمةُ الأنساب فيها وسائلُ إلى غير من يحبى بها وذرائعُ

ومما سبقت إليه من المعاني ما قلته:

رُفِعَ السترُ فانثنى غصنُ بانِ يتجلى الهلالُ في معناه
ليس لي أنْ أنالَ ما أتمنى من جنى وصلهِ اللذيذِ جناه
فلو أني كمنت في بعضِ شعري فإذا ما شداه قبلت فاه

ومن أبلغ ما قيل في بخل المعشوق من قديم الشعر ما أنشدناه أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد عن عبد الرحمٰن عن عمه:

وما نطفةٌ كانت سلالةَ بارقٍ نمت عن طريق الناسِ ثم استظلتْ
بأطيبَ من أثيابِ تلثم بعدما حدا الليلُ أعقابَ النجومِ فولّت
وقد بخلت حتى لو أني سألتها قذى العين من ضاحي الترابِ لضنّتْ

ومن أحسن ما قيل في وقوف النظر على المعشوق قول بعضهم «قيد الحسن عليه»، وهو من قول امرىء القيس «قيد الأوابد» وقد أحسن الآخر في قوله:

ظبيٌ له من قلوبِ الناسِ نابتةٌ من المودَّةِ تجني أطيبَ الثمرِ
إذا بدا رمتِ الأبصارُ وجنتَه معاً فلم تختلف عينان في نظرِ.

ونحوه قول[3] المتنبي:

وخصر تثبتُ الأبصارُ فيهِ كأنَّ عليهِ من حدقٍ نطاقا

ومن أجود ما قيل في كمال الحسن ما أنشدناه أبو أحمد:

كلُّ شيء من محاسنِها كامنٌ في حسنه مثلا
ليسَ فيها ما يقالُ له كملتْ لو أنَّ ذا كملا

وقال أبو نواس:

لو مني الحسن ما تعداها

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/٧٠٨.

(٢) ذُبالة: فتيلة.

(٣) ديوانه: ٢/٢٩٦.

أخذه أبو تمام فقال[1]:

مــعــتــدل لــم يــعــتــدلْ عــدلــهُ ... فــي عــاشــقٍ طــالَ بــه خــبــلهُ[2]
أظــرفــه أحــســنُ أم طــرفُــه ... وحــسـنُـه أكــمــلُ أم عــقــلهُ[3]
انــظر فــمــا عــاينتَ في غــيــره ... مــن حَــسَــنٍ فــهــو لــه كــلّهُ[4]
لــو قــيــلَ للحسن تــمــنَّ الــمــنى ... إذاً تــمــنّــى أنــه مــثــلهُ
أيُّ خــصــالٍ حــازَهــا ســيــدي ... لــو لــم يــكــدِّر صــفــوَهــا مــطلهُ

وقال[5] أبو نواس:

تمَّتْ وتم الحسنُ في وجهها ... فكــلُّ شيء مــا خــلاهــا مــحــالْ
لــلنــاسِ في الشهــرِ هــلالٌ ولي ... مــن وجهــهــا كــلَّ صبــاح هــلالْ

وقال[6]:

متتــائــهٌ بجمــالــهِ صَــلِفٌ، ... لا يُــســتــطاعُ كــلامُــهُ تِــيْــهــا
لــو كــانت الأشيــاءُ تعــرفــه ... أجلّلْنــهُ إجــلال بــاريهــا[7]
لــو تستطيع الأرض لأجتمعت ... حتى يكــون جميعــه فــيهــا

وقال:

ألاحظُ حــســنَ وجــنــتــهِ ... فــتــجــرحــنــي وأجــرَحُــهــا

وقال غيره:

شــكــوتُ إلى شبيــهــك إذ تجلى ... هــواك فلم يُزِلْ شكــوى الحــزينِ
وكــانَ كــأنــتَ إشــراقــاً وحسنــاً ... وقــلةَ رحــمــةٍ لــلمــســتــكــيــنِ

أحسنُ ما قيل في إعراض الحبيب قول[8] النمر بن تولب:

فَصــدَّت كــأنَّ الشمسَ تحت قنــاعــهــا ... بــدا حــاجبٌ منهــا وضنَّتْ بحــاجبِ

وقد مر قبل.

---

(١) ديوانه: ٤٠٩.
(٢) في الديوان: «يعتدل عذلُه». الخبل: الجنون.
(٣) في الديوان: «أو عقله».
(٤) في الديوان: «عاينت من».
(٥) ديوانه: ٥٠٦.
(٦) ديوانه: ٦٧٧.
(٧) في الديوان:

لــو كــانــت الأشيــاء تــعــقــله، ... أجــللنــه إجــلالَ بــاريــهــا

وهو ليس في الأصل.
(٨) الشعر والشعراء: ١/٢٢٨. وعيون الأخبار: ٣/٨٩.

ومن ظريف ما جاء في ذلك قول[1] ابن الرومي:

ما ساءَني إعراضُه ... عنّي ولكنْ سرَّني
سالفتاهُ عِوَضٌ ... عن كلِّ شيءٍ حَسنِ

وقال الآخر وأحسن:

صدَّ عنِّي محمدُ بنُ سعيدِ ... أحسن العالمينَ ثاني جيدِ
صدّ عنّي من غير جرمٍ إليه ... ليسَ إلا لحسنهِ في الصدودِ

والفرد الذي لا شبيه له، في كثرة اعتلال المعشوق على العاشق، وكثرة تجنيه عليه قول بعضهم:

شكوت فقالت كلّ هذا تبرما ... بحبي أراحَ الله قلبكَ من حبي
فلما كتمتُ الحبَّ قالت لشد ما ... صبرت وما هذا بفعل الشجي الصب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالباً ... رضاها فتعتدُّ التباعدَ من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوؤها ... وتجزع من بعدي وتنفرُ من قربي

وقريب منه قول[2] مسلم:

ويخطىء عذْري وجه جُرميَ عندها ... فأجني إليها الذنبَ من حيثُ لا أدري
إذا أذنبتْ أعددْتُ عذراً لذنبها ... فإن سخطتْ كانَ اعتذاري من العذر
بذكرك ماتَ اليأسُ في حضرةِ المنى ... وإن كنتُ لم أذكرك إلا على ذكرِ

وقد أصاب صفة العاشق.

وقلت:

صبابة نفس لا ترى الهجرَ حاليا ... وصبوة قلبٍ ما ترى الوصل شافيا
نزلتُ على حكم الصّبابة والهوى ... فصرتُ أرى للخلِّ ما لا يرى ليا[3]
ولولا الهوى ما كنتُ آملُ باخلا ... وأرحم ظلّاما وأذكرُ ناسيا
ومن شأنه أني إذا ما ذكرتهُ ... جفاني وسماني إذا غبتُ جافيا
على أنني أنأى فأدنو تذكراً ... ولستُ كمنْ يدنو فينأى تناسيا
ويعجبني حُبي له وصبابتي ... إليهِ وإمساكي عليهِ ودادِيا
فلو ظنني أسلوهُ لم يك هاجراً ... ولو خالني أنساهُ لم يكُ نائيا
ولكنَّ عشقي في ضمان جفونه ... فيأمن سلواني ويرجو غراميا

ومن أصاب وصف العاشق الصادق العشق على حقيقته الذي يقول:

إذا قَربتْ دارٌ كلفتُ وإن نأتْ ... أسفتُ فلا للقرب أسلو ولا البعدِ

---

(١) ديوانه: ٦/٢٥٦.

(٢) الشعر والشعراء: ٢/٧١٩.

(٣) الصبابة: الشوق، الخل: الصاحب.

وإن وَعَدَتْ زادَ الهوى لانتظارها ... وإن بخلتْ بالوَعدِ متُّ على الوعدِ
ففي كلِّ حالٍ لا محالةَ فرحةٌ ... وحبك ما فيهِ سوى محكم الجهدِ

ومثله قول الآخر:

وما في الأرضِ أشقى من محبٍّ ... وإن وَجدَ الهوى حلوَ المذاقِ
تراه باكياً في كلِّ حين ... مخافَةَ فرقةٍ أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دَنوا خوفَ الفراقِ
فتسخنِ عينهُ عندَ التنائي ... وتبرد عينهُ عندَ التلاقي[1]

ووصفه الهوى بالحلاوة مع هذه الصفات وصف بديع غريب.

ومثله قول ابن الأحنف:

إذا رضيتُ لم يهنني ذلك الرِّضا ... لصحةِ علمي أن سيتبعه عتبُ[2]
وأبكي إذا ما أذنبتْ خوفَ عتبها ... فأسألها مرضاتها ولها الذَّنبُ[3]
وصالُكُم صرمٌ وحبكُم قلى ... وعطفكُم صَدٌّ وسلمكُم حَربُ[4]

ومثل البيت الأول قول سعيد بن حميد ويروى لفضل الشاعرة[5]:

ما كنتُ أيام كنت راضيةً ... عني بذاك الرِّضا بمغتبطِ
علماً بأنَّ الرِّضا سيتبعه ... منك التجنِّي وكثرةُ السخطِ
فكلُّ ما ساءَني فعن خُلق ... منك وما سَرَّني فعن غلطِ

ومن البديع في طلب نيل المعشوق قول الآخر:

عِدينا مَوْعداً ثم اجحدينا ... فكم من مبطل حقاً بجحدِ
وإلا فابذلي من غيرِ وعد ... فقد تكف السماءُ بغير رعدِ

وقلت في نحو ذلك:

تسيء على بعدِ الدِّيار تنائيا ... وخلفك عند القرب من عصب البعدِ
كثير سروري في قليل وفائه ... وعند ابتسام البرقِ قهقهة الرعدِ

ومن أبلغ ما قيل في الرضا عن المعشوق بالقليل قول[6] جميل:

أقلبُ طَرْفي في السماءِ لعلّه ... يوافقُ طرفي طرفَها حينَ تنظرُ

ومثله قول ابن المعلوط:

---

(١) التنائي: البعد. «وتبرد» في الأصل «تسخى».

(٢) في ديوانه: «لعلمي به أن سوف يتبعه العتب».

(٣) في ديوانه: «خوف صدها».

(٤) الصرم: القطع.

(٥) فضل الشاعرة: جارية المتوكل العبّاسي، كانت مؤدبة شاعرة فصيحة اعتقها المتوكل، عاصرت ابن الجهم وأبا دُلف، وكانت تماجي الشعراء. ماتت ببغداد سنة ٢٥٧ هـ. (الأعلام: ١٤٦/٥).

(٦) ديوان جميل بثينة: ٤٣.

أليسَ الليلُ يلبس أمَّ عمرٍو وإيّانا فذاك لنا تدان
بلى وأرى السماءَ كما تراها ويعلوها النهارُ كما علاني

وأنشدني أبو أحمد عن ابن الانباري لجميل:

وإني لأرضى من بثينةَ بالذي لو استيقنَ الواشي لقرَّتْ بلابلُهْ
بلا وبالا استطيع وبالمنى وبالأمل المكذوب قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحولِ تنقضي أواخرُهُ لا نلتقي وأوائله

وكان جميل يصدق في حبه وكثير يكذب.

ومن رديء هذا الباب قول بعضهم:

وما نلتُ منها محرماً غير أنني إذا هي بالتْ بُلتُ حيث تبولُ

وعفّة هذا كعفة المتنبي في قوله[1]:

إني على شغفي بما في خمرها لأعفُّ عما في سراويلاتِها

سمعت بعض الشيوخ يقول من الفجور ما هو أحسن من هذه العفة إذ عبر عنها بهذا اللفظ.

وأخبرنا أبو أحمد، أخبرنا الجوهري، عن عمر بن شبة، قال: حدثني أبو يحيى الزهري عن رجل ذكره قال: قيل لكثير ما أنسب بيت قالته العرب؟ قال: الناس يقولون[2]:

أريدُ لأنسى ذكْرَها فكأنما تمثّلُ لي ليلى بكلِّ سبيلِ

وأنسب عندي منه:

وقل أمُّ عمرٍو داؤه ودواؤه لديها ورياها الطبيب الموافقُ

وهذا البيت جيد المعنى رديء الرصف.

وأبلغ ما قيل في شدة الحب ما أنشدناه قدامة[3]:

يوَدُّ بأنْ يمسي سقيماً لعلها إذا سمعتْ منه بشكوى تراسله
ويهتزُّ للمعروف في طلب العلى لتحمدَ يوماً عندَ سلمى شمائله

وقلت في معناه:

وقلتُ عساها إن مرْضتُ تعودني فأحببتُ لو أني غدَوْتُ مريضا
وزدتُ اتساعاً في المكارم والعلا ليصبحَ جاهي عندهنَّ عريضا

ومن الشعر المختار في النسيب قول أبي المطاع:

أفدى الذي زرته والسيفُ يخفرني ولحظُ عينيه أمضى من مضاربهِ
فما خلعت نجاداً في العناقِ لهُ حتى لبستُ نجاداً من ذوائبهِ

(١) ديوان المتنبي: ١/٢٢٦. سراويلات: واحدته: سراويل.

(٢) طبقات ابن سلام: ٢/٥٤٦.

(٣) نقد الشعر: ١٣٧. وفيه: «عند ليلى شمائله». وقدامة هو قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي، أبو الفرج: كاتب، من الفصحاء البلغاء، له علم في المنطق والفلسفة، اسلم على يد المكتفي العبّاسي، مات ببغداد سنة ٣٣٧ هـ. له كتب منها: «نقد الشعر». و«نقد النثر» (الأعلام: ٥/١٩١).

فباتَ أنعمنا بالاً بصاحبهِ ... من كان في الحبِّ أشقانا لصاحبهِ

وقلت في معنى البيت الآخر:

بقدرِ الصبابةِ عندَ المغيب ... تكونُ المسرَّةُ عندَ الحضورِ
وأطيب ماكان بردُ الثغور ... إذا هو صادفَ حرَّ الصدور

ومن المختار في صفة العذار:

وقلت الشعرُ يسليني هواهُ ... ولمْ أعلم بأنَّ الشعرَ حيني
فظلتُ لشقوتي أفدى وأمي ... سوادَ عذاره بسوادِ عيني

ومن أعجبِ ما قيل في التهالك في الحبّ ونهاية التقرب إلى المعشوق قول ديك الجن:

بانوا فصارَ الجسمُ من بعدهم ... ما تصنعُ الشمسُ لهُ فيَّا
بأيِّ وجهٍ أتلقاهُم ... إذا رأوني بعدَهمْ حيًّا

ومن أبدع ما قيل في عدم السلوّ قول[1] ابن الرومي:

أأسماءُ أيُّ الواعدينَ ترينهُ ... أشدَّكما مطلاً فإنيَ لا أدري
أأنتِ بنيلٍ منك يبردُ غُلّتي ... أن النفس بالسلوانِ عنك وبالصبر[2]

لم يقل في بعد الحبيب أحسن من قول ابن الأحنف: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن هارون بن عبد الله المهلبي، قال كنا عند دعبل فذكر العباس بن الأحنف، فقال جيده قليل، ولا أعرف أحسن من شعره في الشمس:

هي الشمسُ مسكنها في السماء ... فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلن تستطيعَ إليها الصعودَ ... ولنْ تستطيعَ إليك النزولا

ومن البديع القليل النظير قوله أيضاً يذكر كلام الناس فيه وفي معشوقه:

قد سحَب الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا ... وفرَّقَ الناسُ فينا قولهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيركُم ... وصادقٌ ليس يدري أنهُ صدقا[3]

وهذا معنى غريب بديع ما أظنه سبق إليه.

ومما هو في معنى قوله:

هي الشمس مسكنُها في السماء

الخ قول الآخر:

شكوتُ إلى بدرٍ هوايَ فقال لي ... ألستَ ترى بدْرَ السماءِ الذي يسري
فقلتُ بلى قالَ التمسهُ فإنَّهُ ... نظيري ومثلي في علوٍّ وفي قدر
فإنْ نلتهُ فاعلمْ بأنك نائلي ... وإن لم تنلهُ فابغ أمراً سوى أمري

---

(١) الديوان: ١٥٨/٣.

(٢) الغلة: العطش.

(٣) في ديوان العباس بن الأحنف: «فجاهل قد رمى».

فكانَ كلا البدرين صعباً مرامه   فويليَ من بدرِ السماء ومن بدري[1]

ومن الغريب البديع في مدح الفراق لمكان القبلة والاعتناق قول محمد بن عبد الله بن طاهر[2]:

ليسَ عندي شحطُ النوى بعظيم   فيه غمٌّ وفيه كشفُ غمومِ
من يكن يكرَهُ الفراقَ فإني   أشتهيهِ لموضع التسليم
إنَّ فيه اعتناقه لوداع   وانتظار اعتناقه لقدوم
فلكم قبلةٍ وغيبةِ شهرٍ   هي خيرٌ من امتناع مقيمِ

وأخبرنا أبو أحمد عن ابن المسيب لابن الرومي[3]:

فإذا كانَ في الفراق عناقٌ   جعل اللَّهُ كلَّ يوم فراقا

أجود ما قيل في خفقان القلب قول قيس بن ذريح[4]:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدى   بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتت   تجاذبهُ وقد علِقَ الجناحُ[5]

فلولا التضمين الذي فيه لكان غاية.

ومن الغريب في ذلك قول ديك الجن:

ومملوء من الحزن   يعالج سورَةَ الأرقِ
تكادُ غروبُ مقلتهِ   تعمُّ الأرضَ بالغرقِ
كأنّ فؤاده قلقا   لسانُ الحيةِ الفرق

وقد أحسن في قوله أيضاً:

علمت قلبي وجيباً لست أعرفه   ما أنكر القلب إلا كلما خفقا
يا شوق إلفين حال البينُ بينهما   فغافصاه على التوديع فاعتنقا
لو كنت أملك عيني ما بكيت بها   تطيراً من بكائي بعدهم شفقا

وقد أحسن القائل وجاء بما في نفس العاشق:

ولو داواكَ كلُّ طبيب ركب   بغير كلام ليلى ما شفاكا
ولو أصبحتَ تملك كلَّ شيء   سوى ليلى عتبت على غناكا

---

(١) في الأصل: «صعباً فراقه».

(٢) هو محمد بن عبدالله بن طاهر الخزاعي، تولى نيابة بغداد ايام المتوكل، وكان اديباً جواداً فاضلاً. مات سنة ٢٥٣ هـ. (الأعلام: ٦/٢٢٢).

(٣) ليس في ديوانه.

(٤) قيس بن ذريح الكناني، شاعر من العشاق، اشتهر بحبه للمبنى له شعر عالي الطبقة في الغزل. توفي سنة ٦٨ هـ. (الأعلام: ٥/٢٠٥). وقد نسب صاحب الأغاني في: ٢/٤٨، البيتين إلى المجنون وفي ٢/٩٢ إلى ابن ذريح.

(٥) في الأصل «غزها».

ومن أعجب ما قيل في الشفقة على المعشوق قول[1] أبي دلف العجلي:

أحبك جنان وأنت مني ... مكان الرُّوح من جسد الجبانِ
ولو أني أحبك حُبَّ نفسي ... لخفتُ عليك بادرَةَ الطعانِ
لإقدامي إذا ما الخيلُ جالتْ ... وهابَ شجاعها وقعَ الطعانِ

خص الجبان لأنه أشد شفقة على نفسه من الشجاع، وهذا من جيد الاستطراد.

ومن بليغ ما قيل في الحب، مع الشجاعة، ومن أجود ما قيل في اليأس عن الوصل، قول مجنون ليلى أو غيره:

خرجتُ فلم أظفرْ وعدتُ فلم أفزْ ... بنيلٍ، كلا اليومين يومُ بلاءِ
فيا حسرتي ما أشبهَ اليأسَ بالغنى ... وإن لم يكونا عندنا بسواء

وقال:

وقد أيقنتْ نفسي بأنْ حيلَ بينها ... وبينَك لو يأتي بيأس يقينها
أرى النفسَ، عن ليلى تعاني بِلاعنا ... وقد جُن من وجدي بليلى جنونها

ومثل ذلك:

فإن يك عن ليلى غنى وتجلدُ ... فرُبَّ غنى نفسٍ قريبٌ من الفقرِ

ومن أطرف ما قيل في النحول ما أنشدنيه أبو أحمد:

أسر إذا بليت وُذاب جسمي ... لعلَّ الريحَ تحملني إليهِ

وقال[2] ابن المعتز:

ماذا ترى في مدنَفٍ ... يشكوك طولَ سقمه
أضنيتهُ فيما يطيـ ... ـق ضعفه حمل اسمهِ[3]
فلا يراك عائداً ... إلا بعينِ وهمِه

وقال كشاجم:

وما زال يبري أعظُمَ الجسمِ حبُّها ... وينقصُها حتى لطفنَ عن النقصِ
وقد ذُبتُ حتى صرتُ إن أنا زرتُها ... أمنتُ عليها أن يرى أهلُها شخصي

وقال ديك الجن وبالغ:

أنحلَ الوجدُ جسمهُ والحنين ... وبَراهُ الهوى فما يستبين
لم يغش أنه جليدٌ ولكنْ ... دَقَّ جداً فما تراهُ المنون

وقال نصر بن أحمد:

قد كانَ لي فيما مضى خاتمٌ ... فاليوم لو شئتُ تمنطقتُ به[4]

---

(١) الأغاني: ٢٤٨/٨.

(٢) ديوانه: ٣٥٧.

(٣) في ديوانه: «فلم يطق من ضعفه».

(٤) تمنطقت به: اتخذته نطاقاً.

وذُبتُ حتى صرتُ لوزجٍّ بي ... في مُقلةِ النائم لم ينتبه

الحسن بن وهب:

أبليتُ جسمي من بعد جدَّته ... فما تكادُ العيونُ تبصرهُ
كأنه رسمُ منزلٍ خلقٍ ... تعرفهُ العينُ ثمَّ تنكرهُ

ومما لا أظن أن له شبيهاً قول بعض الحول وليس في هذا المعنى:

حمدت إلهي إذ بُليت بحبها ... على حَوَلٍ يغني عن النظرِ الشزرِ
نظرتُ إليها والرقيبُ يظنني ... نظرتُ إليهِ فاسترحتُ من العذر

ومن فصيح ما قيل في اقتياد الهوى صاحبه قول بعض نساء الأعراب:

ألا قاتلَ اللّهُ الهوى ما أشدَّهُ ... وأصرعهُ للمرءِ وهو جليدُ
دعاني الهوى من نحوها فأجبتهُ ... فأصبح بي يستن حيثُ يريدُ

وقال كشاجم وأحسن في قوله وليس من هذا المعنى:

أقبلتْ ثمَّ عرَّجتْ ... ليتها لم تُعرِّج
في حدادٍ كأنها ... وَردَةٌ في بنفسج

ومن أحسن ما قيل في مجيء الفراق بعد التلاق قوله أيضاً:

لم أستتمَّ عناقهُ لقدومهِ ... حتى بدأتُ عناقَه لوداعِه
فمضى وأبقى في فؤادي حسرةً ... تركته موقوفاً على أوجاعه

وأنشدني أبو أحمد قال أنشدني الصولي أنشدني الحسين بن يحيى أنشدني الحسين بن الضحاك لنفسه:

بأبي زورٌ تلفت له ... فتنفستُ عليهِ الصعدا
بينما أضحك مسروراً به ... إذ تقطعتُ عليه كمدا

وأنشدنا عنه لأبي العميثل:

لقيتُ ابنةَ السهمي زينبَ عن عُفرٍ ... ونحن حرَامٌ مُسيَ عاشرة العشرِ(١)
فكلمتُها ثنتينِ كالثلجِ منهما ... وأخرى على لوحٍ أحدٍّ من الجمرِ

الأولى تسليم اللقاء فيه باردة طيبة والأخرى تسليم الوداع.

ومن جيد ما قيل في تجدد الشوق على قرب الدِّيار قول بعض العرب:

ويزدادُ في قربِ الديارِ صبابةً ... ويبعدُ من فرط اشتياق طريقها
وما ينفع الحرَّان ذا اللوعِ أن يرى ... حياضَ القرَى مملوءةً لا يذوقها

ومن جيد ما قيل في ردِّ العذول:

إذا أمرتني العاذلاتُ بهجرها ... هفتْ كبدٌ مما يقلنَ صديعُ

---

(١) عن عُفر: عن بُعد. نحن حرام: محرِمون. مسى عاشرة العشر: لقيها بعرفات.

وكيفَ أطيعُ العاذلاتِ ووجهُها يؤرِّقني والعاذلاتُ هجوعُ[1]

ومن جيد ما قيل في رياضة النفس على الهجر ما أنشده أبو إسحاق الموصلي:

وإني لأستحيي كثيراً وأتقي عيوباً وأستبقي المودَّةَ بالهجرِ
وأنذرُ بالهجرانِ نفسي أروضُها لأعلَم عندَ الهجرِ هل ليَ من صبرِ

وقال غلام من فزارة:

وأعرض حتى يحسب الناسُ أنما هي الهجرُ لا والله ما بي لك الهجرُ
ولكن أروضُ النفسَ أنظر هل لها إذا فارقتْ يوماً أحبتها صبرُ

وزاد العباس بن الأحنف فقال:

أورضُ على الهجرانِ نفسي لعلها تمسك لي أسبابها حينَ تهجرُ

والزيادة في قوله:

وأعلمُ أنَّ النفسَ تكذبُ وعدَها إذا صدقَ الهجران يوماً وتغدرُ
وما عَرَضَتْ لي نظرةٌ مذ عرفتُها فأنظر إلا مثلتْ حين أنظر

وهذا من قول[2] جميل:

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنها تمَثّلُ لي ليلى بكلِّ سبيلِ

وذكر بعضهم أنه يهجرها مخافة العين تصيب وصلها: أنشدناه أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن يحيى، وأحمد بن سعيد الدمشقي عن الزبير:

خشيتُ عليها العينَ من طولِ وصلِها فهاجرتُها يومين خوفاً من الهجرِ
وما كانَ هجراني لها من مَلالةٍ ولكنني جرَّبتُ نفسي على الصبرِ

ومن فصيح الشعر الداخل في هذا الباب قول إبراهيم بن العباس أنشدناه أبو أحمد عن الصولي عن ثعلب وأبي ذكوان قالا أنشدنا إبراهيم بن العباس لنفسه:

يمرُّ الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا فيصدَعُ قلبي أن يهبَّ هبوبُها
قريبةُ عهدٍ بالحبيب وإنما هوى كلِّ نفس أين حلَّ حبيبها
تطلعُ من نفسي إليكَ طوالعٌ عوارفُ أن اليأس منك نصيبها

وإنما أغار إبراهيم بن العباس على ذي الرمة حيث يقول[3]:

إذا هبت الأرواحُ من نحو جانب به أهل ميٍّ زاد شوقي هبوبها[4]
هوى تذرفُ العينان منه وإنما هوى كلِّ نفس أينَ حلَّ حبيبها[5]

---

(1) هجوع: راقدات.

(2) ليس في ديوانه. وفي طبقات ابن سلام: ٢/٥٤٦ نسبته إلى كثير عزة.

(3)) ديوان ذي الرمه: ١٧.

(٤)) في الديوان: «من كل جانب». و «هاج شوقي».

(٥)) في الديوان: «حيث حل».

وقال العباس بن الأحنف في غير هذا المعنى:

متى تبصريني يا ظلوم تبيني شمائلَ بادي البثِّ منصدعِ القلبِ
بريئاً تمنى الذنبَ لما هجرته لكيما يقال الهجرُ من سبب الذَّنبِ[1]
وقد كنتُ أشكو عتبها وعتابها فقد فجعتني بالعتابِ وبالعتبِ

أشفق عليها من أن تهجره بغير ذنب، فيقال إنها ملول ليلحقها هجنة.

ومن أجود ما قيل في الوقوف على الديار، قول امرىء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع فليس له شبيه في جميع أشعارهم.

وأحسن ما قيل في وصف الديار وبلاها ما أنشدناه أبو أحمد عن المبرمان عن أبي جعفر عن أبيه:

ولم يترك الأرواح والقطرُ والندى من الدارِ إلا ما يشفُّ ويشفقُ

وقلت:

قد عريت أنا بها حين اكتستْ أرديةَ الرِّيح عشياً وضحى
لم يبقَ فيها غيرُ ما يذكي الجوى ويصرفُ النومَ ويبعثُ البكى

وأنشدنا أبو القاسم:

ألا حيِّ من أجل الحبيبِ المغانيا لبسنَ البلى مما لبسنَ اللياليا[2]

ولأعرابي:

طللان طالَ عليهما الأبدُ دثرا فلا علمٌ ولا نضدُ
لبسا البلى فكأنما وجدا بعدَ الأحبةِ مثلَ ما أجدُ

وهذا مثل قول جرير

أحب لحب فاطمة الديارا

والذي أورد من أنواع هذه المعاني إنما هو إشارة إلى جمهورها وتنبيه على معظمها، ولو اتبعت كل ما فيه أمثاله وعلقت عليه أشكاله، لكثرت واتصلت، وتوفرت حتى أملت وأضجرت، وتجاوز الحد في القول من هذه فيه وهجنة على قائلة؟

ومن أجود ما قيل في حب السودان:

أحبُّ النساء السودَ من حبِّ تكتم ومن أجلها أحببتُ من كانَ أسودا
فجئني بمثلِ المسكِ أطيب نفحة وجئني بمثل الليل أطيب مرقدا

---

(١) في ديوان ابن الأحنف: «لما صرمته». و «يُقال الصرم».
(٢) المغاني: المنازل.

البيت الثاني على غاية الجودة وحسن التمثيل.

وقلت:

صرفتُ ودّي إلى السودان من هجر ... وما أميل إلى رومٍ ولا خزرِ[1]
أصبحتُ أعشقُ من وجهٍ ومن بدنٍ ... ما يعشقُ الناسُ من عينٍ ومن شعرِ
فإنْ حسبت سوادَ الجلدِ منقصةً ... فانظر إلى سفعة في وجنة القمر[2]

وروي للجاحظ:

يكونُ الخالُ في وجهٍ مليحٍ ... فيكسوهُ الملاحةَ والجمالا
ولستَ تملُّ من نظرٍ إليهِ ... فكيفَ إذا رأيتَ الوجهَ خالا

وقد ملح بعضهم في خلاف ذلك:

إنّ الذي يعشق من لا يرى ... كميتٍ من شدة الغلمة[3]
وإنَّ من يعشقُ زنجيةً ... لكالذي دلك في الظلمة

أجود ما قيل في الخيال من قديم الشعر قول[4] قيس بن الخطيم:

أنى سريتِ وكنتِ غير سروبِ ... وتقرُّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ[5]
ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه ... في النوم غير مكدَّرٍ محسوبِ[6]
كان المنى بلقائها فلقيتها ... ولهوتُ من لهو امرىء مكذوبِ

وقول عمرو بن قميئة[7]:

نأتكَ أمامة إلا سؤالا ... وإلا خيالاً يوافي خيالا[8]
خيالي يخيل لي نيلها ... ولو قدرتْ لم تخيل نوالا

وهذا من معاني القدماء غريب، وهو أبلغ ما قيل في بخل المعشوق، ومن هاتين القطعتين أخذ المحدثون أكثر معانيهم في الخيال، ومن البارع الفصيح في هذا المعنى قول البعيث[9]:

أزارتك ليلى والرِّكاب خواضع ... وقد بهر الليل النجومُ الطوالعُ

---

(١) روم وخزر: من اجناس البشر.

(٢) سفعة: بقعة.

(٣) الغُلمة: شدة الشهوة.

(٤) ديوانه: ٥٥.

(٥) سرى: سار ليلاً. سرب: سار نهاراً.

(٦) في الديوان: غير مصرّد.

(٧) عمرو بن قميئة: هو ابن ذريح بن سعد بن مالك. شاعر جاهلي مقدّم. نشأ يتيماً، وكان واسع الخيال في شعره. مات سنة ٨٥ ق. هـ. (الأعلام: ٥/٨٣).

(٨)) الأغاني: ١٨/١٣٨.

(٩)) البعيث: هو خِداش بن بِشِر، شاعر من بني مجاشع كنيته أبو مالك كان يهاجي جريراً، مات سنة ١٣٤ هـ. (الشعر والشعراء: ١/٤٠٥).

فأعطتك آيات المنى غيرِ أنها كواذب إن حصلتها وخوادع
على حين ضمَّ الليلُ من كلِّ جانب جناحيهِ وانقضت نجومٌ ضواجع
وأعجلها عن زورةٍ لم أفز بها من الصبح حادٍ يزعج الليل ساطع

وأحسن النميري حيث يقول:

عجباً لطيفك أنه يشفي الجوى وهو الجوى

أخذه مسلم فقال[1]:

طيف الخيال عهدِنا منك إلماما داويتَ سُقماً وقد هيّجتَ أسقاما

ومن اللفظ الغريب قوله:

زف فحياني الكرى طيفها وهنا لخيالي

لا أعرف أنه سبق إلى هذا اللفظ.

وقال[2] أبو تمام:

استزَارَتْهُ فكرتي في المنام فأتاها في خفية واكتتامِ[3]
يا لها ليلةً تزاورت الأر واحُ فيها سراً من الأجسامِ[4]
مجلسٌ لم يكنْ لنا فيه عيبٌ غير أنا في دعوةِ الأحلامِ

وهذه معان جياد إلا أنه ليس لألفاظها طلاوة.

ومن غريب المعاني في هذا قول[5] دعبل:

سرى طيفُ ليلى حين حانَ هُبوبُ وقضيتُ شوقي حين كاد يؤوبُ[6]
ولم أر مطروقاً يُحلُّ بطارقٍ ولا طارقاً يَقري المنى ويثيبُ

يقول إن العادة إن يقري الطارق المطروق، والخيال طارق يقري المطروق.

ومن الغريب الدقيق قول[7] ابن الرومي:

طرقَتْنا فأنالتْ نائلا شكره لو كان في النية الجحودُ[8]
ثم قالتْ وأحستْ عَجَبي من سراها حيث لا تسري الأسود
لا تعجبْ من سُرانا فالسُّرى عادةُ الأقمارِ والناسُ هجودُ[9]

---

(١) الأغاني: ١٩/٤١.
(٢) ديوانه: ٤٠٩.
(٣) في الديوان: «في خيفةٍ».
(٤) في الديوان: «ليلة تنزّهت».
(٥) الأغاني: ٢٠/١٥٥.
(٦) في الأغاني: «كاد يذوب».
(٧) ديوان ابن الرومي: ٢/٢٥٧.
(٨) في الديوان: «في النُّبه الحجود».
(٩) السرى: السير ليلاً.

فرأيت في هذه الأبيات زيادة وتضميناً فقلت:

رقبتْ غفلة الرقيبِ فزارتْ ... تحت ليل مطرَّز بنهارِ
فتعجبتُ من سُراها فقالتْ ... غير مستطرفٌ سرى الأقمارِ
ثم مالتْ بكأسها فسقتني ... جلنارية على جلنّارِ[1]

آخر:

فيا ليت طيفاً خيلتهُ لي المنى ... وإنْ زادني شوقاً إليك يعودُ
أكلفُ نفسي عنك صبراً وسلوة ... وتكليف ما لا يستطاع شديدُ

الجيد أن يقول «تكلف ما لا يستطاع» وأما تكليفه في الحقيقة، فغير شديد على المكلف وإنما جعل هذا التكليف مكان التكلف وهو رديء.

وقال الحمدوني:

لم أنلهُ فنلتهُ بالأماني ... في منامي سراً من الهجرانِ
واصل الحلمُ بيننا بعد هجر ... فاجتمعنا ونحنُ مفترقان
وكأنَّ الأرواح خافتْ رقيباً ... فطوتْ سرَّها عن الأبدانِ
منظرٌ كانَ نزْهَةَ العين إلا ... أنَّه ناظرٌ بغيرِ عِيان

وقال[2] ابن المعتز:

لافرَّجَ اللَّهُ عن عيني برؤيته ... إن كنتُ أبصرْتُ شيئاً بعدَهُ حسنا
إلا خيالاً عسى إن نمتُ يطرقني ... وكيفَ يحلُم من لا يعرفُ الوسنا

وقال:

كلامهُ أخدعُ من لحظهِ ... ووعدهُ أكذبُ من طيفِه

وليس لأحد في الخيال ما للبحتري كثرة فمنه قوله[3]:

بعينيك إعوالي وطُولُ شهيقي ... وإخفاقُ عيني من كرىً وخُفُوقِ
على أنَّ تهويماً إذا عارض اطّبى ... سُرى طارقاً في غيرِ وقتِ طَرُوقِ[4]
فباتَ يعاطيني على رِقبة العِدى ... ويمزجُ ريقاً من جَناه بريقي
وبتُّ أهابُ المِسكَ منه وأتّقي ... رُداع عبيرٍ صائكٍ وخُلوق[5]
أرى كذب الأحلام صدقاً وكم صَغَتْ ... إلى خبرٍ أذْناي غيرِ صَدُوقِ
وما كانَ من حقٍّ وبُطلٍ فقد شفى ... حرَارَةَ متبولٍ وخبلَ مشُوقِ[6]

---

(١) الجلّنار: زهر الرمان الأحمر.
(٢) البيتان ليسا في ديوانه.
(٣) ديوانه: ٢/١١٩ عـ.
(٤) في الأصل: «عارض اطأى». التهويم: اول النوم. اطبى: دعا.
(٥) الرداع: اثر الطيب في الجسد. عبير صائك: لاصق. الخلوق: الطيب.
(٦) المتبول: من أضعفه الحب.

وقلت في خلاف ذلك:

طرقَ الخيال فزار منه خيالا ... فسرى يغازل في الرّقاد غزالا
يا كشفَه للكربِ إلا أنه ... ولى على دبرِ الظلامِ فزالا
فغدا المتيمُ وهو أكبرُ صبوةً ... وأشدُّ بلبالاً وأكسفُ بالا

وما قيل في الامتزاج والاختلاط مثل قول الخريمي(١):

ليالي أرعى في جنابك روضةً ... وآوي إلى حصن منيع مراتبه
وإذْ أنتَ لي كالخمر والشهدِ ضعفا ... بماءٍ لصاف ضعفته جنائبه

وقال(٢) بشار:

لقد كانَ ما بيني زماناً وبينها ... كما بينَ ريح المِسكِ والعنبر الوردِ

أجود ما قيل في صفة الركب:

أخبرنا أبو أحمد أخبرنا الصولي، حدثنا محمد بن سعيد، عن عمر بن شبة قال كان الناس يقدمون قول أبي النجم(٣) ويتعجبون من حسنه:

كأن تحتَ درعِها المنعَطِّ ... ضخمِ القَذَال حسنِ المخطِّ
وقد بدا منها الذي تغطي ... كأنما قُطَّ على مِقطِّ
شطاً رميتُ فوقَه بشطِّ ... كهامةِ الشيخِ اليماني الشمط
لم يعلُ في البطنِ ولم ينحط

حتى قال بشار:

عجزاء من سِرب بني مالك ... لها حرٌّ من بطنها أرفعُ(٤)
زيّنَ أعلاهُ بإشرافه ... وانضمٌّ من أسفله المشرع

قال أبو هلال رحمه الله تعالى أول من أتى بهذا المعنى النابغة حيث يقول(٥):

وإذا طعنتَ طعنتَ في مستهدفٍ ... رابي المجسةِ بالعبيرُ مُقَرْمدِ(٦)
وإذا نزَعْتَ تَزْعتَ عن مستحصفٍ ... نزع الحزُّور بالرِّشاء المحصدِ(٧)

يصف ضيقه ويقول إن النازع منه يتعب من نزعه كما يتعب الحزور - وهو الغلام - إذا

---

(١) الخريمي: هو اسحاق بن حسّان، أبو يعقوب، كان مولى ابن خُريم اسلم وهو شيخ، مات سنة ١٥ هـ. (الأعلام: ٢/٣٢٥).

(٢) ديوانه: ٣٣٦.

(٣) ابو النجم: هو الفضل بن قدامة العجلي، شاعر، راجز، كان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان. مات سنة ١٣٠ هـ. (الأعلام: ٥/١٥١).

(٤) عجزاء: امرأة ذات عجيزة ضخمة. الحر: فرج المرأة.

(٥) ديوان النابغة: ١٥.

(٦) مستهدف: مرتفع. رابي المجسّة: مرتفع مكان الجسّ. بالعبير مقرمد: مطلي بالزعفران.

(٧) مستحصف: قليل البلل. الحزوّر: الفتى. الرِّشاء: الحبْل.

فقال الرشيد: من قال هذا وهماً فإني أقوله علماً، والله درك يا أصمعي، فإني أجد عندك ما يضل عنه العلماء، فأخذه محدث فقال:

يؤازِرُهُ قلبي عليّ وليس لي ... يدانِ بمنْ قلبي عليّ يؤازِرُهْ

وأخذه سهل بن هارون فقال:

أعان طرفي على جسمي وأعضائي ... بنظرةٍ وقفتْ جسمي على دائي

وكنتُ غراً بما تجني عليّ يدي ... لا علم لي أنّ بعضي بعضُ أعدائي

وهذا شعر في تكلف، أخذه البحتري(١):

ولستُ أعجبُ من عصيان قلبك لي ... عمداً إذا كانَ قلبي فيك يعصيني

وقال ابن الأحنف(٢):

قلبي إلى ما ضَرَّني داعي ... يكثرُ أسقامي، وأوجاعي

كيف احترازي من عدوّي إذا ... كان عدوّي بين أضلاعي

ومن جيد ما قيل في قرب الدار مع تباعد القلوب قول النظار الفقعسي(٣):

يقولونَ هذي أمُّ عمرو قريبة ... دَنَتْ بك أرضٌ نحوها وسماءُ

ألا إنما بُعدُ الحبيبِ وقربُهُ ... إذا هو لم يوصلْ إليه سواء

وفي خلافه:

وإني زوَّارٌ لمنْ لا يزورني ... إذا لم يكنْ في وُدِّه بمريبِ

يقرِّبُ لي دار الحبيب وإن نأتْ ... وما دارُ من أبغضتهُ بقريبِ

ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم بن العباس:

فدعني راغماً أشقى بوجدي ... وخُذ قلبي إليكَ بغيرِ حمدِ

سقام لا يرقُّ عليَّ منه ... ووجد لا يكافئهُ بودّ

وقد أصفيتهُ ودّي بجهدي ... فعارضَ في الجفاءِ بمثل جهدي

ومن جيد ما مدح به الفراق قول بعض الكتاب: في الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة(٤) والسلامة من الملال، وعمارة القلب بالشوق والدلالة على فضل المواصلة واللقاء.

وقال الشاعر:

جزى اللّهُ يومَ البينِ خيراً فإنه ... أرانا على علاتهِ أمَّ ثابتِ

وكتب بعضهم في معنى قول الشاعر:

وما في الأرض أشقى من محب

---

(١)، ديوانه: ٢/١٨ عـ.

(٢)، الأغاني: ٨/٣٦٣.

(٣)، الفقعسي: هو النظّار بن هشام (او هاشم) بن الحارث الحذلمي، من بني اسد شاعر اسلامي.

(٤)، الأوبة: العودة.

وقد تقدم: تفكيري في مرارة البين، يمنعني من التمتع بحلاوة الصبر، وتكره عيني أن تقربك مخافة أن تسخن ببعدك، فلي عند الاجتماع كبد ترجف، وعند التنائي مقلة تكف. ومثله: لا والذي بيده السلامة من نزوح دارك، وبعد مزارك، ما زادني اللقاء إلا صبابة وأسفاً والاجتماع إلا نزاحا وكلفا، لأني منقسم القلب بين رجاء يعدني بقربك، وحذر يوعدني ببعدك، وإذا قربت دارك كلفت، وإن نأت أسفت، فلا في القرب أسلو ولا البعد.

وسمعت لماني الموسوس معنى أظنه ابتكره وهو:

بكتْ عيني غـداةَ البَينِ دمعـاً ... وأخرى بـالبكى بخلتْ علينـا[1]
فعـاقبتُ التي بخلتْ علينـا ... بـأن غمضتهـا يـومَ التقينـا

وسبكه البيت الأول، ورصفه رديء جداً، لا خير فيه، وإنما استغربت المعنى فأوردته.

وقد أخذه ابن الرومي فشرحه وزاد فيه وهو من قوله:

ولـقـد يـؤلـفـنـا الـلقـاءُ بـليـلةٍ ... جعلتْ لنـا حتى الصبـاح نـظامـا
نجـزي العيـون جـزاءهنَّ عن البكى ... وعن السهـادِ فـلا نصيبُ اثـامـا
فـنبـيحـهـنَّ مُـرادَهـنَّ يـردنـه ... فيمـا ادَّعينَ مـلاحـةَ ووسـامـا
ونـكـافـىء الأذانَ وهي حـقيـقـةٌ ... إذ لا تـزال تـكـابـدُ الـلوامـا
فـنبثهـنّ من الـحـديث مشـوبـةً ... تشفي الغليـلَ وتكشفُ الأسقـامـا
ونكـافىء الأفـواهَ عـن كتمـانهـا ... إذ لا يـزالُ لهـا الصمـاتُ لجامـا
فنبيحـهـنَّ مـلاثمـاً ومـراشفـاً ... مـا ضرَّهـا أن لا تكـونَ مـدامـا[2]
نجـزي الثلاثـة أنصبـاء ثـلاثـة ... مـقسـومـة آنـاؤهـا أقسـامـا

ولخالد الكاتب[3] معنى يلحق بما تقدم وهو قوله:

بكيـتُ دمـاً حتـى بكيـتُ بـلا دم ... بـكـاءَ فتـى فـرد عـلى شـجـن فـردِ
أأبكي الـذي فـارقتُ بـالـدَّمـعِ وحـدَهُ ... لقـد جلَّ قـدرُ الـدَّمـع فيـه إذاً عنـدي

وكتبت في فصل لي:

قد جل شوقي إليك ووجدي بك عن أن يبرد نارهما، ويسكن أوارهما، دمع ينصب على مثله، فتحسبه دراً يتكسر على در، ويمتزج بالدم فتخاله شذور عقيق، في نظام فريد.

ومما يلحق بما تقدم أيضاً قول سعيد بن حميد:

ومـا كـانَ حُـبـيـهـا لأوَّلِ نـظرةٍ ... ولا غـمـرة من بـعـدهـا فـتـجـلتِ
ولـكنهـا الـدُّنيـا تـولتْ فـمـا الـذي ... يـسلي عـن الـدُّنيـا إذا مـا تـولـتِ

وقال أعرابي:

---

(١)) البَيْن: الفراق.

(٢)) ملاثم ومراشف: افواه. المدام: الخمرة.

(٣)) هو خالد بن يزيد البغدادي، شاعر غزل، من الكتّاب. توفي سنة ٢٦٢ هـ.

استقى من البئر.

وأحسن ابن الرومي في وصف الضيق والحرارة حيث يقول[1]:

لهـا هـنٌ تستعيـرُ وقدتـه ... من قلب صبٍّ وصـدر ذي حنقْ
كـأنمـا حـرُّه لـخـابـره ... ما أوقدتْ في حشاه من حُرق[2]
يـزداد ضيقاً على المراسِ كما ... تـزداد ضيقاً أنشوطة الـوهَق[3]

وقال[4] في سعته:

يسعُ السبعةَ الأقاليمَ طرّاً ... وهـو في أصبعينِ من إقليم
كضميـر الفؤاد يلتهمُ الدُّنـ ... ـيا وتحويه دفتا حيزوم[5]

ومن النادر قول الناجم:

نَ ردفَ الفتاةِ عجنـةُ خبـا ... زٍ وقـدَّامهـا من الأدم جبنه

وقال المعذل بن غيلان[6]:

ومركب كبيضةِ الأدحيّ ... كأن نبتَ الشعرِ المطليّ
عليه شونيزٌ على فرنيّ[7]

ومما يجري مع ذلك قول بعضهم:

أقولُ والقومُ تعادى بهم ... إلى الوغى مضمرةٌ قرح
استحمل الله على مركبٍ ... يحثُّ بالسيرِ ولا يبرح

وهو مثل قول مسلم:

ما مركب من ركوبِ الخيلِ يعجبني ... كمركبٍ بينَ دملوج وخلخالِ[8]

ومثل الأول:

فباتَ يسري ليلهُ ولم ينم ... ولم يجاوز سيرَه قيسُ قدم

وقال الفرزدق:

ثم اتقتني بجهم لا سلاحَ له ... كمنخرِ الثورِ محبوساً على البقر[9]

---

(١) ديوانه: ٤/٢٩٣.
(٢) الهن: فرج المرأة. وفي الديوان: «ما ألهبتْ».
(٣) الوهق: حبل مفتول.
(٤) ديوانه: ٦/١١٦.
(٥) الحيزوم: الصدر.
(٦) المعذَّل: هو المعذَّل بن غَيلان بن الحكم بن أعيُن العبدي، ابو عمرو اديب شاعر، من أهل الكوفة، سكن البصرة. مات سنة ٢١٠ هـ. (الأعلام: ٧/٢٦٧).
(٧) الشونيز: (معرّب». وهي الحبة السوداء. الفرني: خبز بسكّر.
(٨) الدُّملج: المعضد. الخلخال: سوار يوضع في الساق.
(٩) الجهم: كنّى به عن فرجها. والبيتان ليسا في ديوانه.

كـأنَّ رمـانـةَ في جـوفـه انفجـرت ... تـكـادُ تـوقـدُ نـاراً لـيـلةَ الـقـدرِ

وأبلغ ما قيل في كبره قول[1] الفرزدق:

إذا بـطحتْ فـوقَ الأثـافي رفعتـهـا ... بثـديينِ في نحـرٍ عـريض وكعثبِ[2]

يقول إنها إذا بطحت على وجهها، لم يمس الأرض منها شيء، لأنّ نهود ثدييها وكبر ركبها مثل أثافي القدر لبدنها، وهذا أبلغ من قول بشار الذي اختاره الأصمعي. وقال الراجز في وصف الضيق:

كـأنّ حجامـاً شـديـداً أبهـره ... يـدارك الـمصّ ولا يـفـتـره

ومما قيل في حب الكبار قول المجنون[3]:

وعهـدي بليلى وهي ذاتُ موصـد ... تـرد علينـا بـالعشي المـراميـا

فشبَّ بنـو ليلى وشبَّ بنـوا بنيهـا ... وأعـلاقُ ليلى في الفؤادِ كمـاهيـا

ابن المعتز:

مـن معيـنـي عـلى الـسـهـر ... وعـلى الـهـمِّ والـفـكـر

وابـلائـي مـن شـادنٍ ... كـبـر الـحـبّ إذ كـبـر[4]

ومن البديع قول ابن الأحنف:

لعمري لقد كذبَ الزَّاعمـون ... بـأنَّ القلوبَ تحـاذي القلوبـا

ولـو كـان حقـاً كما يـزعمونَ ... لمـا كـانَ يشكـو محبٌّ حبيبـا

ومما يلحق بالفصل الأول، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي عن البلعي، عن أبي حاتم قال: سمعت الأصمعي يقول: سمعت الرشيد يقول: قلب العاشق عليه مع معشوقه فقلت له: هذا يا أمير المؤمنين أحسن من قول عروة بن حزام العذري[5] في آخر أبياته التي أنشدها:

أرانـي تـعـرونـي لـذكـراك رعـدةٌ ... لـهـا بـينَ جلدي والـعـظام دبيـبُ.[6]

ومـا هـو إلا أنْ أراهـا فـجـاءةً ... فـأبـهـت حـتـى مـا أكـاد أجيـبُ

وأصـرف عـن رأيي الـذي كـنـتُ أرتئي ... ويـعـزب عـنـي ذكـرهُ ويـغـيـبُ.[7]

ويـضـمـرُ قلبي عـذرهـا ويـعـيـنـهـا ... علـيّ فـمـا لـي في الـفـؤادِ نـصـيـبُ

---

(١) البيت ليس في ديوانه.

(٢) الأثافي: حجارة القدر. والكعثب: فرج المرأة.

(٣) ديوان المجنون: ١٢٢.

(٤) الشادن: ولد الغزال. وفي الديوان: ١٨٦ ما لفظه:

يـا لـيـلةً بـتُّ فـيـهـا دائـم الـسـهـر ... أرعى النجـوم، حليف الهم والفكـرِ

يـاويـح قـلـبـي مـن ريـم بُـليـتُ بـه، ... بـالصبح منتقبٍ، بـالـليـل معتجـرِ

(٥) شاعر اسلامي من العشاق.

(٦) في الأغاني: «وإني لتغشاني لذكراك هزة».

(٧) في الأغاني: «وأصدف». وأنسى الذي ازمعت حين تغيب».

أعللُ أصحابي بجدِّي وباطلي وأسماء جدّ القلب مني وباطله

ومن بديع المعاني قول ابن أبي فنن:

أدميتُ بالألحاظِ وجنتهُ فاقتصَّ ناظرُهُ من القلبِ

أخذه علي بن عاصم فقال:

ضربتْ إلفي بيدي خانَ يميني جلدي
فاقتصَّ لما اغرَوْرَقَتْ مقلتهُ منْ كبدي
فر أقلتْ بعدها سوطي من الأرضِ يدي

ومن أجود ما قيل في تكافؤ الحسن قول الراجز وكان ينبغي أن يقدم:

جاءتْ تهضُ الأرضَ أي هضّ يدفعُ منها بعضها من بعضِ

يقول: يتحير الناظر فيها، ولا تقف عينه على واحدة فيصيبها بعين، لأن بعضها يشغل عن بعض.

ومن بديع المعاني قول بعض الشعراء:

قصاراك مني الودّ ما دمت حيةً وودّك ماء المزن غير مشوبِ
وآخر شيء أنت في كل مضجع وأوّل شيء أنتِ عندَ هبوبِ

ومن جيد القول في الفراق قول أبي محلّم(١):

وما خفتُ وشك البينِ حتى رأيتهم تنفض أنماط لهم وقطوع
لعمرك ما شيءٌ مريتُ بذكرهِ كآخر يأتي بغتةً فيروع

ومما لا أعرف في معناه أجود منه قول بعضهم:

ما بينَ بابِ الوزير والمسجدِ الجا مع ظبيٌ كالظباء في جيدِه
أطمارهُ رَثَّةٌ فقد ضاعَ لا ضاعَ وضاعَ التمييزُ في بلده(٢)
ليسَ لهُ ناقدٌ فيعرفهُ وآفةُ التبرِ ضعفُ منتقده

وفي خلاف ذلك قول صاحب البصرة:

ولستُ بواصفٍ أبداً حبيباً أعَرِّضهُ لأهواءِ الرِّجالِ
تراني آمن الشركاء فيهِ وآمن فيهِ أحداث الليالي

معنى آخر:

وقائلة متى يفنى هواهُ فقلتُ لها إذا فنيَ الملاح

معنى آخر:

---

(١) أبو محلّم الشيباني: محمد بن هشام بن عوف التميمي: أحفظ أهل زمانه للشعر ووقائع العرب. له مصنفات: «خلق الانسان» و«الخيل»... مات سنة ٢٤٥ هـ. الأعلام: (١٣١/٧).

(٢) الأطمار: الثياب الرثة.

وإذا أتـيتـك زائـراً مـتـشـوقـاً   قَصرَ الطريقُ وطالَ عند رجوعي

معنى آخر:

إذا طلعتْ شمسُ النهار فإنها   أمارةُ تسليمي عليك فسلمي

آخر التشبب والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي قال فأبلغ، وأنعم فأسبغ، أحل الملاذ ومنح[ ][1] لينعم عباده في العاجل، ويدل على ما أعد لمحسنهم في الآجل فقال: ﴿يا أيُّها النَّاسُ كُلوا مما في الأرْضِ حَلالاً طيِّباً﴾[2] وقال: ﴿يا أيُّها الرُّسلُ كُلو من الطَّيِّباتِ واعْملوا صالحاً﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللَّهِ التي أخْرَجَ لَعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[4] وله الحمد على كمال بره، وتمام لطفه، والصلاة على خير خلقه، محمد النبي وآله.

هذا كتاب المبالغة

في صفات النار والطبخ وألوان الطعام، وفي ذكر الشراب
وما يجري مع ذلك ـ ثلاثة فصول وهو:

الباب الخامس من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول في ذكر النار

فأول ما نذكر فيها قول الله تعالى: ﴿أفرَأيْتُمُ النَّارَ الَّتي تُورُون﴾[5] إلى قوله ﴿نحنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً للمُقْوِينَ﴾[6] فذكر منفعتها، وحسن عائدتها، في الدنيا والدين، فأما منفعتها في الدين فإنها تذكر ما أعد الله تعالى لعصاته منها في دار العذاب، فيكون ذلك مزجرة لمن تذكر، ومنهاة لمن تبصر، وأما منافعها في الدنيا وكثرة مرافقها فغير مجهولة، وقد خص الإنسان بخيرها،

(١) كذا فراغ في الأصل.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٥١.

(٤) سورة الأعراف: آية ٣٢.

(٥) سورة الواقعة: آية ٧١.

(٦) سورة الواقعة: آية ٧٣.

دون سائر الحيوان، فليس يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى في حال من الأحوال، ولهذا عظمها المجوس وقالوا: إنها قد أفردتنا بنفعها، فينبغي أن نفردها بتعظيمنا، على أنهم يعظمون جميع ما فيه نعمة على العباد، فلا يدفنون موتاهم في الأرض، ولا يستنجون في الأنهار، رؤي على عهد كسرى، رجل يغتسل في دجلة فضربت رقبته، وكانت العرب إذا تحالفت، تحالفت على النار، ويدعون على من يغدر وينقض العهد بحرمان منافعها. وقد أحكمنا ذلك في كتاب الأوائل.

ومن عجيب التشبيه في النار قول الأول:

كأنَّ الريحَ تقطع من سناها ... بنايق حبةٍ من أرجوانِ[1]

وقول[2] ابن المعتز:

وموقدات بتن يضرمنَ اللهبْ ... يشبعنهُ منْ فحمٍ ومن حطبْ
يرفعنَ نيراناً كأشجارِ الذَّهبْ

وقال آخر:

كأنَّ نيراننا في جنبِ قلعتهم ... مصبغاتٌ على أرسانِ قصارِ

وقول[3] أبي تمام في إحراق الأفشين:

نارٌ يساورُ جسمُهُ من حرِّها ... لهبٌ كما عصفرتَ شقَّ إزارِ[4]
صلّى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً ويدخلُها مع الفجارِ

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، حدثنا أحمد بن اسماعيل، حدثني جعفر بن علي بن الرشيد، فقال: أنشدنا المعتصم قول بعض الهاشميين في فتحه هرقلة:

ريعتْ هرقلة لما أن رأتْ عجبا ... جو السما ترتمي بالنفطِ والقارِ[5]
كأنَّ نيراننا في جنبِ قلعتهم ... مصبغاتُ على أرسان قصارِ[6]

فقال لابن داود، وقد أنشدنا شاعر طائي أوصلته إلى في حرق القادر أفشين شيئاً من هذا الجنس، استحسنته فقال أحمد: ما أحفظه، وإنما أحضر الشاعر فقال بعض أولاد الحجاب: أنا أحفظ القصيدة والموضع، فقال هات فأنشد:

ما زال سرُّ الكفرِ بينَ ضلوعهِ ... حتى اصطلى سرَّ الزِّناد الواري
ناراً يساورُ جسمهُ من حرِّها ... لهبٌ كما عصفرتَ شقَّ إزارِ

---

(١) سناها: بريقُها. الارجوان: صباغ أحمر.
(٢) ليست في ديوانه.
(٣) ديوانه: ١٣٥.
(٤) يُساور: يشب. والأفشين: من قواد بني العباس اتهم بالزندقة.
(٥) هرقلة: من بلاد الروم. وفي الأصل: «جواثماً ترتمي».
(٦) في الأصل: «مصقلات على».

طارتْ لها شرر يهدّمُ لفحها أركانهُ هدماً منارِ[1]
ففصلنَ منه كلَّ مجمع مفصل وفعلنَ فاقرةً بكلِّ فقارِ
رمقوا أعالي جذعهِ فكأنما رمقوا هلالَ عشيَّةِ الإفطار
كرّوا وراحوا في مُتونِ ضوامرٍ قيدتْ لهمْ من مربطِ النجار
لا ينزلون ومنْ رآهمْ خالهم أبداً على سَفرٍ من الأسفارِ[2]

فقال المعتصم: أحسن ما شاء، قد أمرت له بعشرة آلاف درهم، ولهذا الذي حفظها بنصفها، قال فتعجبنا من فطنة المعتصم، ومن رزق هؤلاء على غير طلب ولا أمل، قال: فلم يبق في العسكر أحد إلا حفظ قصيدة أبي تمام.

وقلت:

أوقدتُ بعدَ الهدوِّ نارا لها على الطارقينَ عَينُ
شرارها إنْ علا نُضارٌ لكنهُ إن هوى لجين[3]
دعتهمُ فانثنى إليها محبهم قرة رأين[4]
إلى كريم الفعالِ سمح عطاؤهُ للكريم زين
يقضي ديونَ العلا ببذلٍ إذ ليسَ يقضى لهنَّ دينُ

وقال ابن المعتز:

وقد تعلى شررُ الكانون كأنه نثارُ ياسمين[5]

وقلت:

نار تلعب بالشقوق كأنها حُللٌ مشققةٌ على حبسانِ
رَدَّتْ عليها الريحُ فضلَ دخانها فأتَتْ بهِ سيحاً على عصان
فالجوُّ يضحك في ابيضاض شِرائر منها ويعبسُ في اسوداد دخان

وقال أبو فضلة:

اشربْ على النار في الكوانين إذ ذهبتْ دولةُ الرَّياحينِ
بَدَت لنا والرَّمادُ يحجبها كجلنارٍ من تحتِ نسرينِ[6]

وقلت في معناه:

قصرتُ يدَ الشتاء بحرِّ جمر وأخت الجمر صافية الرَّحيقِ

---

(١) في الديوان: «لها سُعل». و «بغير غبار».
(٢) في الديوان: «لا يرجون ومن».
(٣) اللجين: الفضة.
(٤) في العجز اضطراب واضح.
(٥) الكانون: الموقد.
(٦) الجلّنار: زهرالرمان الأحمر.

ترى نبذ الرَّمادِ بوجنتيه كَكافور يذرُّ على خلوقِ

وقلت:

تحركت الشمالُ فقرَّ ليلى فهاتِ الرَّاحَ من أيدي الملاح
جراد الجمر يستره رمادُ كمثلِ الوردِ يستره الأقاحي
وأنفاس الرِّياضِ معطراتٌ تطيرُ بهنَّ أنفاس الرِّياح
وأرديةُ الظلام ممسكاتٌ مطرَّزةُ الحواشي كالصباحِ

وقال ابن المعتز في سقوط الشرر على الثياب والبسط:

فترك البساط بعد الخمدِ ذا نقطٍ سودٍ كجلدِ الفهدِ

وقال أيضاً:

وصيرت جبابهم مناخلا

وقلت:

كأنما النارُ بينهُ ذهب والجمرُ من تحتهِ يواقيتُ[1]

ومن بديع ما قيل في القدور على النار قول بعض العرب:

كأنَّ صوتَ غليهِ المستعجلِ قصد الشبوح للشيوخ الجهلِ

وقال ابن المعتز:

والسيف راعي إبلي في المحلِ يسلمها إلى قدورٍ تغلي[2]
تُرقِلُ فيها بالوقودِ الجُزْلِ إرقالُها في السير تحت الرحلِ[3]

وقالوا: أحسن ما قيل في الأثافي والرماد قول ابن هرمة:

نبكي على زمنٍ ونؤي هامدِ وجواثم سفع الخدود رواكد
عرين من عقد القدور وأهلها فعكفنَ بعدهم بهاب لابدِ[4]
فوقينه عبثَ الصبا فكأنه دنف يرن الدمع بين عوائدِ[5]

وقال[6] أبو تمام:

أثافٍ كالخدودِ لطمنَ حُزناً ونؤيٌ مثلَ ما انفصمَ السوارُ

ومما يجري مع ذلك القول في الشمعة. ومن أجود ما قيل فيها قول السري:

شفاؤها إن مرضت ضرب العنق

---

(١) يواقيت: جمع ياقوت وهو حجر كريم.

(٢) ديوان ابن المعتز: ٣١٩. وفيه: «يسوقها إلى . . .».

(٣) في الديوان: «فيها بالقدور» «إرقالها والسير تحت الرحل».

(٤) الهابُ: الحيّة.

(٥) في البيت اضطراب.

(٦) ديوان ابي تمّام: ١٢٤.

وقول الآخر:

موقوفة بين حريق وغرق

وقلت:

كم قد جنيتُ اللهوَ من غصنهِ ... ما بينَ أنوارٍ ونوّارِ[1]
من روضةٍ بللَ أعطافَها ... سقيطُ أنداءٍ وأمطارِ
وأوجهٍ تحسَبُها أشمساً ... في ليلِ أصداغٍ وأطرار
وشققَتْ عنها ستورَ الدُّجى ... نارٌ على نارٍ على نارِ

وقلت في السراج:

وحيةٌ في رأسها دُرَّة ... تعملُ في وجهِ الدُّجى غرَّه
وجنتها أكبرُ من رأسها ... فهي إذا أبصرتها عبره
كم من مريبٍ أهتكت ستره ... وصيرتهُ في الورى شهره
يردفها أصفرُ في أصفر ... يقدمها أسودُ في حمره

وقال السري في الكانون[2]:

وكأنما الكانون ألهبَ جمره ... أحداق أسدٍ يدَّرينَ أسودا
يكسو خدود الشربِ من نفحاتها ... قبل الكؤوس وحسنها توريدا

وقلت في الكانون:

وبركةٌ مترعة الأرجاء ... فارغةٌ من سبلِ الأنواءِ
يغسل فيها حلة الظلماء ... أقامت النارَ مقامَ الماءِ
نارٌ كوجهِ غادةٍ حسناءِ ... ترقصُ في مبدعة صفراء
والجمرُ في حلتهِ الحمراءِ ... مثل بنانٍ غُلّ بالحناء
وأسهمٌ تصبغُ بالدماء ... فهاكها ريحانةُ الشتاءِ
واشربْ عليها حلبَ الصهباءِ ... فشربُ صهباءَ على شقراءِ[3]

يطرف عينَ البؤسِ والضراء

ومن أجود ما قيل في الفحم قول بعضهم:

فحمٌ كيوم الفراقِ تشعله ... نارٌ كنارِ الفراقِ في الكبدِ
أسود قد صارَ تحت حمرتِها ... مثلَ العيونِ اكتحلنَ بالسرِّمدِ

---

(١) النّوار: الزهر.
(٢) الكانون: الموقد.
(٣) صهباء وشقراء: من اسماء الخمرة.

الفصل الثاني من الباب الخامس

في ذكر ألوان الطعام

العرب تشبه البر[1] بقراضة الذهب وبمناقير النغران، والنغران جمع نغرة وهي عصفورة.

أخبرنا أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي قال: قال شيخ من أهل البادية: ضفت فلاناً فأتاني بخبزة من حنطة، كأنها مناقير النغران، قد انتفخت في الملة، حتى رأيت الجمر يتحدر منها، تحدر الحشو من البطان، وتراها حين غمرت بالسمن، يجول فيها المثراد، كما يجول الضبعان في الضفرة، ثم أتانا بتمر كأنه أعناق الورلان[2] يدخل فيها الفرس. الحشو صغار الابل، والضفرة الرمل المتعقد.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي عن عبد الله، بن محمد القرشي، عن المثنى بن معاذ العنبري، عن بشر بن المفضل، عن عقبة الراسبي قال: دخلت على الحسن، وهو يأكل خبزاً ولحماً، فقال لي: هلم إلى طعام الأحرار، والعرب تدعو الخبز أم جابر.

وأخبرنا أبو أحمد حدثنا الجلودي، حدثني محمد بن زكريا، حدثني مهدي بن سابق، حدثنا شبيب قال: استأذن خالد بن صفوان على يزيد بن المهلب، فأذن له، فوجده يتغدى، فقال: يا بن صفوان أدن فكل، فقال: أصلح الله الأمير، لقد أكلت أكلة لست ناسيها، قال: وما أكلت؟ فوصف ما أكل، ثم قال: أتيت بخبز أرز كأنه قطع العقيق، وكأنما تجري عليه سبائك الذهب، ثم أتيت ببناني بيض البطون، زرق العيون، سود المتون، حدب الظهور، مقفعات الأذناب، صغار الرؤوس، غلاظ القصر، عراض السرر، مع بصل نظيف كأنه قطع الزند، وخل ثقيف مري حريف، قال أبو هلال ما سمعت في وصف السمك أحسن من هذا ولا أتم.

وقريب منه، ما أخبرنا به، أبو خليفة عن ابن سلام، عن محمد بن القاسم، قال: قال الأعمش لجليس له: أما تشتهي بناني زرق العيون، بيض البطون، سود الظهور، وأرغفة باردة لينة، وخلاً حاذقا؟ قال: بلى قال: فانهض بنا، قال الرجل: فنهضت معه، فدخل منزله وقال خذ

---

(١) البُر: القمح.

(٢)الورلان: جمع الوَرَل: دابة كالضب.

تلك السلة، فكشفها فإذا فيها رغيفان يابسان، وسكرجة كامخ[1]، وشبت، قال: فجعل يأكل، وقال لي: تعال كل، قلت: فأين السمك؟ فقال: ما عندي سمك، وإنما قلت أتشتهيه وأنا والله أشتهيه.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي عن المغيرة بن محمد، عن أبي عثمان المازني، عن الأصمعي، قال: قال أبو صوارة، وكان بمكة مثل الأشعب بالمدينة، في شهوة الأكل: يا أبا سعيد، الأرز الأبيض، باللبن الحليب، بالسكر السليماني، بالسمن السلى، ليس من طعام أهل الدنيا.

ومن أحسن ما قيل في الرقاق، قول[2] ابن الرومي:

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ بهِ ... يدحو الرّقاقةَ وشك اللمح بالبصرِ
ما بينَ رؤيتها في كفهِ كرَةً ... وبينَ رؤيتها قوراء كالقمرِ

وقلت:

وخبز بأيدي الخابزين كأنه ... تراس تعاطيها الجنود جنود
وأطعمة حلتْ بساحتها المنى ... إذا جاءَ من أرداحهنَّ يريد[3]
وضمتْ إلى الحلواء فيه فواكهٌ ... عليهنَّ أهواءُ النفوسِ وفودُ

وقال الصنوبري في رقاق ورؤوس:

غير ما راج من رقاقٍ رقيق ... فوقَ هام على عِدادِ الهام[4]
ذاك كالماءِ ذي الحُبابِ وهاتيـ ... ـك عليهِ كطيرِ ماءٍ نيام[5]
يا لأقيالِهنَّ وما يبـ ... ـدينَ من مضرمٍ شديدِ الضرامِ[6]
كأناس يُوشَّحون مناديـ ... ـلَ إذا خرجوا من الحمامِ

ورصف هذه الأبيات غير مختار عندي، ولكني أوردتها لجودة معانيها، وإصابة التشبيهات فيها، وقوله غير ماراج فإن الرواج لفظ عامي، لا يستعمله الفصحاء.

وقال ابن الرومي:

هامٌ وأرغفةٌ وضاءٌ فخمةٌ ... قد أخرجتْ من جاحم فوَّارِ
كوجوهِ أهلِ الجنة ابتسمت لنا ... مقرونةً بوجوهِ أهلِ النارِ

---

(١) الكامخ: إدام.

(٢) ديوانه: ١٩٧/٣.

(٣) أرداح: جمع رَدَاح: الجفنة العظيمة يوضع فيها الطعام.

(٤) الهام: جمع الهامة: الرأس أو القامة.

(٥) الحباب: الفقاقيع فوق سطح الماء.

(٦) الأقيال: ما يشرب نِصفَ النهار.

وقال غيره في جوذابة(١):

وقـادمٍ مـن جـاحـمٍ فـوّارِ مـخـللِ الـشـقـشـقِ والأنـوارِ
مـلبـسـاً حُـلةَ جـلّنـارِ يقشـر جلداً منـه كـالنضـارِ(٢)
عـن بـدنٍ أبـيض كـالـخـمـار

ومن النادر البديع في هذا المعنى.

ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الجلودي، عن محمد بن زكريا، عن عبد الله بن الضحاك، عن هشام بن محمد، قال: كان عوانة يكثر أكل الرؤوس، فقيل له: إنها متخمة فقال: إنها فاكهة اللحم.

وأخبرنا عن محمد بن زكريا، عن الأصمعي، قال: قيل لأعرابي: كيف تأكل الرؤوس؟ قال: أفك لحييه، وأبخص عينيه، وأفعص أذنيه[](٣) وخديه، وأرمي بالدماغ إلى من هو أحوج مني إليه. فقيل له: إنك لأحمق من ربع قال: وما حمق ربع؟ إنه ليجتنب العدوى، ويتبع المرعى، ويراوح بين الأطباء، فما حمقه يا هؤلاء؟

وقيل لأحدهم: ما أحب الفاكهة إليك؟ قال: أما الرطب فاللحم وأما اليابس فالقديد.

وقلت في صفة لحم:

تـركتُ سمينَ اللحم يـبيضُّ بـعضـه ويحمـرُّ بعض خلطك الـدرَّ بـالـتبـرِ
وأعـرضـتُ عن حلواء شق فـنـونهـا فبيضٌ إلى حمـرٍ وحمـرٌ إلى صـفـر
إلـى ثـردةٍ رقـطاءَ قـطع فـوقـهـا مـقفعـةٌ خضـراءُ فـي ورق خـضـرِ

وحاجة الإنسان إلى الطعام، إنما هي من أجل ما يأخذ الهواء من جسده، فيحدث فيه خلل، فإذا أكل اللحم فقد رم الجسد، بما هو من جنسه، فكأنه رقع الديباج بالديباج، فإذا أكل غير اللحم، فكأنه رقع الديباجِ بالكرباس(٤) وفي الحديث(٥) «مَنْ تركَ اللحْمَ أربَعينَ يَوْماً سَاءَ خُلُقُهُ»

وأحسن ما سمعت في جَمَلٍ مشوي قول السّرِيّ:

أنـعتـهُ معـصـفـر الـبـردَيـن أبيض صـافي حُمـرةِ الجنبـينِ
خـلف شهـريـنِ على خـلفيـنِ ثـم رَعى بـعـدَهُمـا شهـريـنِ
فجسمـهُ شِبـرانِ فـي شبـرَيْـنِ يـا حُسنهُ وهـو صـريـعُ الحينِ
بـعـرفـةٍ مُـرهـفـةِ الـحـدَّيـنِ بـكـفِّ شـاوٍ عَـطِرِ الـكـفَّـيْـن

---

(١) الجُوذابة: طعام يُتخذ من سكر ورز ولحم.

(٢) الجلنار: زهر الرمان الأحمر.

(٣) الفراغ كذا في الأصل. وبخص عينه: اقتلعها.

(٤) الديباج: الحرير. الكرباس: ثوب من القطن الأبيض.

(٥) ليس في الكتب التسعة. وأحسبه موضوعاً.

كـسـارقُ حـدًّ مِـنَ الـيـدَيْنِ ذو طـرفٍ يـسـتـوقِـفُ العينين
يُـريـكَ مـرآةً مِـنَ الـلـجـيـنِ مُـذْهَبَـةَ المقبضِ والـوجْهين[1]
شـقٌّ حـشـاه عـنْ شـقـيـقـتـيـن أخـتـيـن فـي الـقـدِّ شبيـهـتـيـن
كـمـا قُـرْنت بـيـن كـمـأتـيـن أو كُـرتي مسـكٍ لـطـيـفـتـينِ[2]
إن شـيـن ذورقـيـن نـاجـمـيـن فـإنـهُ زَيْـنٌ بـغـيـرِ شَـيْـنِ

ومن المشهور قول ابن الرومي في دجاجة مشوية[3]:

وسـمـيـطةٍ صـفـراءَ ديـنـاريّـةٌ ثمنـاً ولونـاً زفّها لـك حزوَرُ[4]
طفقتْ تجـولُ بـذربهـا جـوذابـةٌ فـأتى لبابَ اللوزِ فيهـا السكـر[5]
ظلنـا نقشّـرُ جلدَهـا عن لحمِهـا فكـأنَّ تبـراً عـن لجيـن يُـقشَـرُ
يـا حسنهـا فـوقَ الخِـوانِ وبنتُهـا قـدّامهـا بصهيـرهـا تتغـرغـر[6]
وتـقـدَّمـتْـهـا قبـلَ ذاكَ ثـرائـدُ مثـلِ الرِّيـاضِ بمثلهنَّ يُصـدَّر[7]
ومـدقـقـاتٍ كـلهـنَّ مُـزخـرفٌ بـالبيض منهـا ملبسٌ ومـدنّـر[8]
وأتـت قـطائفُ بـعـد ذاك لـطـائفٌ ترضى اللهاةُ بهـا، ويرضى الحنجرُ
ضُحُكُ الوجـوه من الطبرْزَدِ فوقها دمع العيـون من الدِّهـانُ تعصَّرُ[9]

وقلت في سكباجة[10]:

سـكـبـاجـةٌ طـيـبـةٌ نـشـرهـا كـأنـهـا عُـودٌ عـلى مـجـمـرِ
يـا حسنهـا في الـقـدرِ إذ أقبلتْ وهـي تـحـاكـي سـفطَ الـجـوهـرِ
ويـسـتـنيـرُ الشحـمُ في لـحـمـهـا كـغـرَّةٍ فـي فـرس أشـقـر
يـا حسنَ بـاذنـجـانـهـا إذ بـدا أسـمـر وسطَ الـمـرقِ الأحـمـر
كـأنّـه مـاءُ خـلـوقٌ جـرى وجـال فـيـه قـطعُ الـعـنـبـر[11]

---

(١) اللُّجين: الفضة.

(٢) العجز: ساقط من الأصل. واستدرك من ديوان السري. الكمأة: نبت.

(٣) ديوانه: ٣/٥٦.

(٤) السميطة: الدجاجة المنتوفة. الحزوّر: الفتى القوي.

(٥) في الديوان:

طـفـقـت تـجـود بـذوبـهـا جُـوذابـة قـانـى لـبـابَ الـلوز فـيـهـا الـسـكّـرُ

(٦) في الديوان: «يُتَغَرغر». والخِوان: ما يوضع عليه الطعام.

(٧) الثرائد: طعام يتخذ من فتات الخبز مع مرق.

(٨) في الديوان: «ملسّنٌ ومدنَّر». والمدنّر: المشرق المتلألىء.

(٩) الطبرزَد: (فارسي) ومعناها: ضرب من السكر.

(١٠) السِّكباج: ضرب من الطعام (لحم بخلّ). وهي من الفارسي المعرَّب.

(١١) ماء خلوق: ماء سحابة مخيلة الماء.

وقال ابن الرومي في دجاجة:

عـظيمـةُ الـزَّوْر بصـدرٍ نهـد ... أجريتُ منها في مجال العِقدِ[1]
مـرهـفـة ذات شـبـاً وحـدٍّ ... لغيـرِ مـا دخـل وغيـر حقـد
بـل رغبة فيهـا شبيـه الـزُّهـد

وقلت في قدور على النار:

كـتبتُ أستعجـل النـدامى ... والنـارُ تستعجـل القـدورا
وقـد أتـاني الغـلامُ يسعى ... بـأرغـفٍ تشبـهُ البـدورا
وعـنـدنـا قـهـوةٌ شَـمـولٌ ... لـو قطعتْ صُيّـرتْ شـذورا[2]
تـكـونُ قبلَ المـزاج نـاراً ... فـانـقلبـتْ بـالمـزاج نـورا
فـانـهض إلى سـرعـة إليـنـا ... نـنثـر عـلى نفسِـك السـرورا

وقال الشعبي: ما رأيت فارساً أحسن من زبد على تمر، وأنشد لبعض الأعراب:

ألا ليت لي خبـزاً تسـربـلَ رائبـاً ... وخيـلاً من البـرني فـرسـانهـا زبـدُ

ومن عجيب ما روي عن الأعراب، في شهوة الطعام، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، عن جعفر بن سليمان، قال: لقيت أعرابياً فقلت: هل لك في ثردة؟ فتنفس الصعداء ثم قال:

واهـاً عـلى مـجـمـومـة ... وصـحـفـةٍ مـكـتـومـة
بـالـدَّسـم مـوْسُـومـة ... والـلحـم مـغـمـومـة
قـد كـمـلتْ عـراقـا ... وألـحـفـتِ رقـاقـا
مـنـقـوشـة الـحـواشـي ... بـطيـبِ الـتـمـاشـي
بـفـلـفـلٍ وحـمّص ... فـكـلْ هـنـيئـاً وارقص

فأخذت بيده وذهبت إلى المنزل، فأمرتهم فصنعوا ثردة كما وصف، فلما قدمتها ارتعش طرباً، ثم قال: أي بأبي والله هذه المرقصة، ثم وثب على رجليه فرقص ساعة، وجلس فأكل أربعة أرغفة في السقي وستة ثم قبل رأسي وقال: بأبي أنت وأمي لك حاجة في بدونا؟ قلت: تمضي، ثم قال أي والثردة، والله ما دخلت الحضر إلا في طلبها، ثم أنشأ يقول:

عمـرتُ بـطنـاً لم يـزلْ مصفـرا ... لـم يعـرف الـرُّغـفَ ولا المـزدرا
حـتى لـقـد أوجـعـت والـلَّهِ تـرى ... مـا صنعتْ كفاي في جنب القـرى

وقال ابن خلاّد[3] في خبز الأرز والملح:

---

(١) ليست في الديوان. والزور: الصدر. والشبا: الطرف.

(٢) القهوة الشَّمُول: الخمرة.

(٣) ابن خلاّد: هو الحسن بن عبد الرحمن بن خلاّد. محدّث العجم في زمانه من أدباء القضاة مات سنة ٣٦٠ هـ. (الأعلام: ٢/١٩٤).

إذا الطابقُ المنصوبُ ألقى ثيابَهُ وقدت جيوبُ الخبز شبرين في شبرِ
رغيف بملح طيّبِ النشر خلطة حوارجه تغنيك عن أرج العطر
عليهِ من الشونيزِ آثارُ كاتب وجلباتُ وَرَّاق ينقطُ بالحبر[1]
ومن سمسم قد زعفرُوهُ كأنهُ قراضةُ تبرٍ في لجينية غر

وقال في الباقلاء:

فلا تنسَ فضلَ الباقلاءِ فإنه من المن قد وافى به الفضل في الزبر
إذا جعلوا فيه سذاباً ونعنعاً وجزءاً من الزَّيت المقدّس في الذِّكرِ[2]
فما صدف العاج المغشي ظواهراً بطاشي أفرندٍ معقدةِ الخصر
بأحسن من مخضرة الغصن إذ بدَتْ بواكرُ منها في المجاسد والأزر

ثم قال:

ويا لك باذنجانة سابرية جلاها نسيمُ الليل ناثرة الفجر
فجاءَتْ بأثوابِ الحداد مدلها بأذنابها العم المعقفة الخضر
وأكرم بهانياً إذا بزّ ثوبُها فأبدت لنا عن واضحِ الكَشح والصدرِ
فنجعلها شطرين نلقمُ شطرَها ونتبعهُ قبلَ الإساغةِ بالشطرِ

وقال[3] ابن الرومي في الهريسة:

أيا هنتاهُ هل لك في هَريس بلُحمانِ الفراخِ أو البطوطِ[4]
أملّ الليلَ صانعها بضربٍ فجاء بها تمددُ كالخيوطِ[5]
وبينَ يديك من مريٍ عتيقٍ توارثهُ النبيطُ عن النبيط[6]
أرانا حولَ صُحفتها بُروكاً كما بركَ البعيرُ على الخبيط[7]
فيالله من لقمٍ هُناكم تجاذب بالشجيج وبالغطيطِ[8]

وقال مسكين الدارمي في قدور على النار:

كأنَّ قدورَ قومي كلّ يوم قدورُ البرك ملبسة الجلالِ
كأنَّ الموقدينَ لها جمالٌ طلاها الزِّفتُ والقطران طالي

---

(١) الشونيز: الحبّة السوداء.
(٢) السُنب: ثبت.
(٣) ديوانه ٤/ ٩١.
(٤) في الديوان: «بلحمان النواهض والبطوط».
(٥) في الديوان: «يعقدها بضربٍ».
(٦) في الديوان: النبيطُ عن». والمري: حلب الناقة، ولعلة قصد الخمرة.
(٧) في الديوان: فتبرك فوق صفحتها بُروكاً. والخبيط: ورق الشجر.
(٨) في الديوان: «تجاوب بالشحيج».
الشحيج والغطيط: ترجيح صوت النائم.

بـأيـديـهـمْ مـغـارفُ من حـديـدٍ   تُـشـبـهـهـا مـغـيـرة الـدوالـي

وقلت في هريسة:

هـريسـةٌ بيـضـاءُ كـافـوريـهْ   في قصعـةٍ صفـراءَ ديـنـاريـه
للمـرءِ فيـهـا حمـة مسكـيـه   ولـلـسـلاءِ لـمـعـةٌ تِـبـريـه
تـدورُ فـي مـبـيـضـةٍ فـضّـيـه   مثـل السوارِ في يـدِ الـرُّوميـه

ومن عجيب ما قيل في قلة الطعام على المائدة، ما أنشدناه أبو أحمد، قال: أنشدني نصر بن أحمد لنفسه:

من حـديـثـي أنَّ ابنَ بـكـر دعـانـي   لـشـقـائـي فـلـيـتـهُ مـا دعـانـي
غـرَّنـي مـنـهُ مـنـظرٌ ولـبـاسٌ   وأثـاثٌ ومـجـلـسٌ وأوانِ
مـجلسٌ كـالـجنـانِ حـسـنـاً ولـكـنْ   قـبّـحَ الـجـوعُ حسـنَ تلك الـجـنـان
فـلـعـمـري كـان الـخـوانُ ولـكـنْ   لـم يـكـنْ مـا يـكـونُ فـوقَ الـخـوان
وجـفـانٍ مـثـل الـجـوابـي ولـكـن   لـيس فيـهـنَّ مـا يـرى بـالـعـيـانِ
وغـضـار الألـوان جـاءَتْ ولـكـنْ   لـيسَ فـيـهـا روائـحُ الألـوانِ
فـإذا مـا أدَرْتُ فـيـهـا بـنـانـي   لـم أجِـدْ مـا أمـسـهُ بـبـنـانـي
إنـي مـاضـغٌ عـلـي غـيـرِ شـيء   غـيـر صـكِّ الأسـنـانِ بـالأسـنـانِ
تـرجـعُ الـكـفُّ وهـي أفـرغُ مـنـهـا   عـنـدَ مـدِّي لـهـا فـد أبـي وشـانـي
لـو تـرانـي والـجـوعُ يـضـحـك مـنـي   عـنـد غـسـلي يـديَّ بـالأشـنـانِ[1]
زادَ في السـفـرِ مـسـرفـا مـثـلـمـا أسـرفَ عـنـد الـطـعـام بـالـنـقـصـانِ
والـغـضـاراتُ فـارغـاتٌ أتـتـنـا   وسـقـانـا بـالـمـتـرع الـمـلآن
سـكـرة فـوقَ جُـوعـةٍ تـركـتـنـي   راحـمـاً عـلَّ جـائـع سـكـرانِ

وقلت في قريب منه:

أتـدعـوني وتـطـعمني يـسيـراً   وتسقيني الكـثيـرَ عـلى اليسيرِ
فـأصبح منـك في يـوم عسيـر   فـلا ينفـكُّ فـي يـوم عسيـر
همـا حَـرَّانِ من جُـوع وسكـر   فيـا لـك من سعيـر فـي سعيـرِ
أقـولُ وفـي غـضـائـرهِ عـظامٌ   أتـغـرف مـن قـدور أم قـبـورِ

ومن جيد ما قيل أيضاً في ذم الدعوة، قول أبي الحسن بن طباطبا، وقد دعاه الكراريسي، فقرب إليه مائدة عليها خيار، وفي وسطها جامات عليها قطر، ولم يصحبها بوارد، فسماها مسيحية، لأنها أشبهت موائد النصارى، وقدم سكباجة[2] بعظام عارية، فسماها شطرنجية، ثم

(١) الأشنان: من الشن والشنة: الخَلقَ من كل آنية جلدية. ويُقال: قربة أشنان.
(٢) السكباجة: اللحم بِخلّ.

قدم مضيرة[1] في غضارة بيضاء فسماها معقدة لأن البياض لبس المعتدة وهي لا تمس الدهن والطيب، ثم قدم زيرباجة بأطراف جدي صفراء، لقلة زعفرانها فسماها عابدة، لأن ألوان العباد صفر، ثم قدم لوناً بقضبان محلولة، فسماها قنبية، ثم قدم لوناً بزبيب أسود فسماها موكبية، ثم قلية بعظام الأضلاع، فسماها حسكية، لتشنج لحمها ثم قرب زغفرانية فسماها سلحية صفراء، ثم قرب فالوذجة قليلة الزعفران والحلاوة، فسماها صابونية، ثم اعتل على الجماعة، بأن ابنه عليل، فحولهم من منزله إلى بستان، قد طبق بالكراث، وأحضرهم جرة منثلمة، يمزجون منها شرابهم، وإذا ضرب أحدهم الغائط نقلها معه، وربط الأكار[2] بحذائهم عِجلة تخور عليهم خواراً شبيهاً بغناء فاطمة وكان اسمها فاطمة فقال:

يا دعوةً مغبرةً قاتمة ... كأنها من سفر قادمَهْ
قد قدَّموا فيها مسيحيةً ... أضحتْ على أسلافها نادمه[3]
ثمّ بشطرنجية لم تزَلْ ... أيدٍ وأيدٍ حولها حائمه
فلم نزَلْ في لعبها ساعةً ... ثم نفضناها على قائمه[4]
وبعدها معتدة، أختها ... عابدة قائمة صائمه[5]
في حجرها أطرافُ مؤوودة ... قد قتلتها أمُّها ظالمه
والقنبياتُ فلا تنسها ... فحيرتي في وصفِها دائمه[6]
أقنبُ ما امتدَّ في أصبعي ... أم حيةٌ في وسطها نائمه
والحسكياتُ فلا تنسَ، في ... خندقها أوتادُها قائمه
والموكبياتُ بسلطانها، ... قد تركتْ آنافنا راغمه
والسلحةُ الصفراءُ فاعجب بها ... إذ سلحتها أنفسٌ هائمه
وجام صابونية بعدها ... فافخر بها إذ كانت الخاتمه
ظلَّ الكراريسيُّ مستعبراً ... من عصبةٍ في دارهِ طاعمه
وقالَ إنَّ ابني عليلٌ ولي ... قيامةٌ من أجلهِ قائمه
وَوَلْوَلتْ داياتهُ حولهُ ... فليسَ إلا عبرةٌ ساجمه
وليسَ هذا لسوى كسرةٍ ... تكسرُ ما زالت له سالمه
وقد أكلناها، فكم هيجتْ ... من لاطمٍ خداً ومن لاطمه
ثمَّ هَرَبنا نحوَ بستانهِ ... خوفاً من المنية العازمه

(١) المضيرة: طعام يتخذ من اللبن الماضر أي الحامض.
(٢) الأكّار: الحرّاث.
(٣) في نسخة: «على اسلامها».
(٤) في الأصل: «ثم تقضينا».
(٥) في الأصل: وبعدها مقيدة».
(٦) القنّب: نبات كالكتان.

ظلنـا لـدى الكـراثِ نلهـوبِـه فيـا لـهُ من زهـرةٍ قـائمـه
وغـايـة الـلطفِ ففـي جـرَّةٍ محطومةٍ صارتْ لنا حـاطمَهْ
نبـولُ فيهـا ثم نـسقي بـهـا يـا لـك من عـارضـةٍ لائمـه
وعـجلة تـشـدو بـألـحـانهـا وكـانـت الكيِّـسـة الـحـازمـة
فكـانَ فيما أنشـدتْ إذ شَدَتْ من ليَ من بعـدك يـا فـاطمـة
نـشتم من أسـمعنـا صـوتهـا وهي لنـا مـن بعـدِهِ شـاتمـه
ظلّت تبكي شجـو مـا أبصـرت من أمـرنـا وهي بـه عـالمـه[١]
فـلو تـرانـا وتـرى زادَنـا حيـاً صادفت منـا نعماً سائمه[٢]

فلما سمعها الكراريسي، حلف لا يدخل أبا الحسن، ولا أحداً من أصحابه داره، واتخذ دعوة، ودعا قوماً من الشطرنجيين، فقال أبو الحسن: إنما دعاهم لينظروا في الشطرنجية، التي كنا نفضناها على قائمة هل يمكن فيها من حيلة، وكتب إليه من وقته أبياتاً منها:

طـمعتَ يـا أحمق في قـمـرِهـا لـو أمكنَ الـقمْـرُ قـمـرنـاهـا[٣]
فـإن أقـامـوهـا فـمـا ذنـبـنـا كـنـا عـلى ذاك نـفـضـنـاهـا

ثم كتب إليه أبو الحسن:

يـا منَ دعـاني أطـال اللَّهُ عمـرك لي ولا عـدمـتـك مـن داعٍ ومـحـتـفـلِ
مـا أنسَ لا أنسَ حتى الحشر مـائـدةً ظلنـا لـديك بهـا في أشغـل الشغلِ
إذا أقبـل الجـديُ مكشـوفـاً تـرائبـهُ كـأنـهُ مـتـمطٍّ دائـمُ الـكـسـلِ
قـد مـدَّ كلتـا يـديْـهِ لي فـذكـرني بيتـاً تـمثلتـهُ مـن أحـسنِ الـمثـلِ
كـأنـه عـاشـقٌ قـد مـدَّ بـسـطـتـهُ يـوْمَ الفـراق إلى تـوديـع مـرتحـلِ
وقـد تـردى بـأطـمـار الـرِّقـاق لنـا مثـل الفقيـرِ إذا مـالاح في سمـلِ
فـليتَ شعـري مـاذا كـانَ أنـحـله فـصـار إيمـانـهُ قـولاً بـلا عـمـلِ
مـدذت كـفي فـلم تـرجـعْ بفـائـدة كـأنـمـا وقـعـتْ منـهُ عـلى طـللِ

وأخذ أبو الحسن قوله شطرنجية من قول جحظة أظنه:

قـدَّم لـي أعـظمَ حـوْلـيـةٍ قـد طبختْ بالمـاء في بُـرمتـه[٤]
فـلم أزَلْ زَّلـتْ بـه نـعـلـهُ ألعبُ بـالشـطرنـج في قصعتـهِ[٥]

ومن جيد الوصف، قول أبي الفضل بن العميد في وسط: أنشدنا أبو أحمد أنشدنا أبو

---

(١) الشجو: الحزن.
(٢) النِّعم السائمة: المعلَّمة.
(٣) قَمَر اللجارية: تزوجها، او ابتنى بها.
(٤) البُرمة: جفنة الطعام.
(٥) القصعة: بمعنى وعاء الطعام.

الفضل بن[1] العميد لنفسه:

ودونك وسطاً أجاد الصناعُ تلفيفَ شطريهِ بالهندمة
فمن صدر فائقةٍ قد نوت ومن عجز ناهضةٍ ملقمه
ودنّر بالجوزِ أجوازه ودَرْهَمَ باللوز ما دَرهمه
وقابل زيتونها والجبن صفائح من بيضةٍ مدغمه
فمن أسطرٍ فيهِ مشكولة بملح ومن أسطرٍ معجمه
وطرّز بالبقل أعطافهُ فوافى كحاشيةٍ معلمه
موَشّى تخال به مطرفا بديع التغاويف والنمنمه

وأنشد في الشواريز[2]:

ما متعةُ العينِ من خدٍّ تورُّدُه يزهى عليك بخالٍ فيه مركوزِ
مستغرقُ الحسنِ في توسيع وجنتهِ بدائعُ بين تسهيمٍ وتطريز
يوفي على القمرِ الموفي إذا اتّصلتْ يُسراه بالكأسِ أو يمناه بالكوز
انهى إليكَ من الشَيرازِ إنْ وضحتْ في صحنٍ وجنتهِ خيلان شونيز[3]
وقد جرى الزَّيتُ في مثنى أسرته فضارعتْ فضة تُعلى بإبريزِ[4]

وقال ابن خلاد:

وسوْفَ يزوركَ شيرازها فتقسم بالله أن تكرمه
يميسُ بشونيزةٍ كالعروسِ تخطرُ في الحلةِ المسهمه
وتغشى موائدَ قد عوليتْ أطايبَ كالبردةِ المعلمه
تباهى بجاماتها والغضار كواكب في الليلةِ المظلمه[5]

وأول من ذكر الفالوذ[6] أبو الصلت[7] جاهلي يذكر عبد الله بن جدعان[8]:

لـهُ داعٍ بمكةَ مشمعلٌّ وآخرُ فوْقَ دارته ينادي[9]

---

(١) ابن العميد: محمد بن الحسين بن محمد، الوزير، الكاتب، وزر لركن الدولة الحسن بن بويه. كان متفلسفاً، ممدحاً. مات سنة ٣٠٦ هـ. (سير أعلام النبلاء: ١٦/١٣٧).
(٢) الشواريز: جمع الشيراز: اللبن الرائب. (وهو من المعرّب).
(٣) الشونيز: الحبة السوداء.
(٤) ذهب إبريز: خالص.
(٥) الجام: إناء من فضة. الغَضار: السعة من العيش.
(٦) الفالوذ: اللحم.
(٧) ابو الصلت: شاعر جاهلي من ثقيف.
(٨) عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، من أجواد الجاهلية، أدرك النبي ﷺ وسلم قبل النبوة. (الأعلام: ٤/٧٦).
(٩) في الأصل: «فوق وارثه». اشمعلّ: اشرف.

إلى رُدح من الشّيزى عليها ... لبابُ البرِّ يلبكُ بالشهادِ[1]

لباب البر يعني النشا.

وكان لعبد الله جفنة يأكل منهاالقائم، والقاعد، والراكب، وقال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ أستظلُّ بجفنةِ عبدِ اللَّهِ بنِ جَدْعان في الهوَاجر».

ومن النوادر في هذا: ما أخبرنا به، أبو أحمد، عن رحاله، قال: سأل أعرابي عن رأيه في الفالوذ فقال: والله لو أن موسى أتى فرعون بفالوذ لآمن به ولكنه أتاه بعصاه.

ومن مصيب التشبيه فيه قول بعضهم:

ولاطفه بالشّهدِ المخلّق وجهُه ... وإن كانَ بالالطاف غيرَ خليقِ
كأنَّ اصفرارَ اللوزِ في جَنَباتِه ... كواكبُ تبرٍ في سماءِ عقيقِ

وقلت:

حمراء في بيضاءَ فضية ... وظرف كافور وحشو الخلوقِ
يطوفُ الدُّهن بأرجائه ... اطافةَ الدَّمع بجفنِ المشوقِ
كأنما اللوزُ بحافاتهِ ... أنصاف دُرٍّ ركبت في عقيقِ

ومن المشهور قول[2] ابن الرومي في اللوزينج:

كأنما قُرَّتْ جلابيبهُ ... من أعينِ القطرِ إذا قبّبا
• ستَنف الحشوِ على أنه ... أرقُّ جسماً من نسيمِ الصَّبا
يَدورُ بالنفحةِ في جامِه ... دوراً ترى الدُّهن لهُ لولبا
لو أنه ثغرٌ لروميَّةٍ ... لكان منه الواضح الأشنبا[3]

وقلت في قطائف:

كثيفةُ الحشو ولكنها ... رقيقةُ الجلدِ هوانيه
رُشتْ بماء الوردِ أعطافُها ... منشورة الطيِّ ومطويه[4]
كأنها من طيبِ أنفاسها ... قد سرقَتْ من نشرِ ماريه
جاءَتْ من السكر فضية ... وهي من الأدهان تبريه
قد وَهَبَ الليلُ لها بُرْدَهُ ... وَوَهَبَ الخصبُ لها زيه

وقلت في ذم الباذنجان.

قرانا بقولاً إذ أنخنا ببابهِ ... فأصبحَ فينا ظالماً للبهائمِ

---

(١) في الأصل: «لدى روح». الرُّدح: سترة في مؤخرة البيت. الشّيزى: خشب اسود يتخذ منه القصاع. ونُسب البيت في لسان العرب إلى ابن الزّبعرى.

(٢) ديوانه: ١/٢٥٤.

(٣) الأشنب: ذو أسنان عذبة.

(٤) الأعطاف: الجوانب.

وقفْنـا عليه الـرَّكبَ نسألـه القِـرى ... ونـحـنُ عـلى أعـنـاقِ أغـبـر قـاتـمِ
فصـامَ وصـومُ الليـلِ ليس بجـائـزٍ ... وإن جـازَ في فقـهِ الـلئـام الأشـائمِ
أجـاز صيـامَ الليـلِ حينَ استفـزَّهُ ... تعـاورُ ضيفٍ في دُجَى الليـل عـائـم
فبتنا أديمَ الليـلِ نـطوي على الـطوَى ... كـأنـا على غبـراء مـن ظهـرِ واشـم
وأطعمنـا لمـا مـرقنـا من الـدُّجـى ... دَحَـاريـجَ لا تنسـاقُ في حلقِ طاعمِ
مُـدَوَّرَةً سُـودَ الـمـعـونِ كـأنـهـا ... خصي الزنج لاحتْ تحت فيش قوائمِ [١]
فـأبشـارهـا تحكي بـطون عـقـاربِ ... وأرؤسـهـا تحكي أنـوفَ مـحـاجـمِ

وأخبرنا أبو أحمد، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا نصر قال: قال الأصمعي: قيل للفاخري أي التمر أجود؟ قال الجرد الفطس الذي كأن نواه ألسن الطير، تضع الواحدة في فيك، فتجد حلاوتها في كعبك، يعنى الصيحاني تمر العلية.

وأخبرنا أبو أحمد، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أبي، حدثني عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، قال: اجتمع أربعة رهط: سروي، ونجدي، وحجازي، وشامي، فقالوا: تعالوا نتناعت الطعام أيه أطيب:

قال الشامي:

إن أطيب الطعام ثريدة موسعة زيتاً، تأخذ أدناها فيضرط عليك أقصاها تسمع لها وقيباً في الحنجرة، كتقحم بنات المخاض في الخرف.

قال السروي[٢]:

إن أطيب الطعام خبز بُر، في يوم قر، على حمر عشر، موسع سمناً وعسلاً.

فقال الحجازي:

أطيب الطعام خنس فطس بإهالة حمس[٣] يغيب فيها الضرس.

فقال النجدي:

أطيب الطعام بكر سنمة مغتبطة[٤] نفسها غير ضمنه، في غداة شبمة[٥]، بشفار خدمه، في قدور جذمه.

ثم قال الشامي:

دعوني أنعت لكم الطعام، إذا أكلت فابرك على ركبتيك، وافتح فاك، وأجحظ عينيك، وامرح أصابعك، وعظّم لقمتَك، وأحتسب نفسك. قال عبد الله بن دينار: ما سمعت ابن عمر

---

(١) الفَيْش: جمع الفيشة: رأس الذَّكَر.
(٢) السَروي: نسبة إلى السراة.
(٣) الخُنس: الظباء والفُطس: ذوات الأنوف المسطحة. حُمس: مشوَية.
(٤) سَنِمة: ذات سنام، اي مرتفعة. مغتبطة: لحمها طري.
(٥) الشبَم: الامتلاء.

حدث هذا الحديث قط فبلغ قول الشامي «واحتسب نفسك» إلا ضحك.

وقلت في عصيدة:

وعـدتُ عصيـدةً شـقـراءَ تحكي ... طـرارَ الصبح في ثـوْبِ الظلامِ(١)
تـراهـا حيـنَ تَـبْـرُزُ في ظـلامِ ... كعـرفِ الطرفِ في زمنٍ قتـامِ(٢)
كـذي دَلٍّ عـليـهِ معـصـفـراتٌ ... يـدلُّ على المشـوقِ المستهـامِ
فـلمـا أن صبـا قـلبي إليـهـا ... ومـدّت نحـوهـا عيـن اهتمـامي
تـقـاصـرَ دونهـا كـفـايَ حتـى ... كـأنَّ الـدبسَ عـلقَ بـالغـمـامِ
فـدونَ السمـنِ أطـرافُ العـوالي ... ودونَ الـنـار بـادرةُ الـحـسـامِ
أتـلك عصيـدةٌ أم طيـفُ سلمى ... فـليس يـزورُ إلا فـي المـنـامِ

وقلت في سمكة طرية:

يقيضُ للمكتـوب مـاجـرٌّ حتفه ... فجازَ بنا في الغيضِ شرَّ مجازِ
بعثنـا إليه منسـرِ البـاز فـانثنى ... إلينـا بظهـرٍ مثـلِ جؤجؤِ بـازِ
فـأطفأ نيـرانَ الطُّهـاةِ كـأنهـا ... سحابٌ يسحُّ الودقَ فوق عـزازِ(٣)

العزاز: الأرض الصلبة.

وقال كشاجم في السمك:

ومحجوبـةٍ في البحرِ عن كلِّ نـاظرٍ ... ولـكنهـا في حجبِهـا تتخـطفُ
أخـذنـا عليهـنَّ السبيـلَ بـأعيـنٍ ... رواصـد إلا أنـهـا لـيسَ تـطرُفُ
فـجـاءَ بهـا بيضَ المتـونِ كـأنهـا ... خنـاجـرُ في إيمـانِنـا تتعـطّفُ

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن القاسم، عن الأصمعي، قال: دخلت على الرشيد، وهو يأكل الفالوذ فقال: يا أصمعي هل قالت العرب في هذا شيئاً؟ فقال يا أمير المؤمنين، وأنى لها هذا ولكن قالت فيما دونه، قال وما قالت؟ قال: قال مُزَرِّد ابن ضرار(٤) أخو الشماخ:

ولـمـا غـدتْ أمي تـزورُ بنـاتـهـا ... أغرتُ على العِكم الذي كان يُمنَعُ(٥)
خلطتُ بصـاعي حنطةٍ صـاعَ عجوةٍ ... إلى صـاعِ سمنٍ فـوقهـا يتـرّبـعُ(٦)
ودبـلتُ أمثـالَ الأثـافـي كـأنـهـا ... رؤوسُ نُقـادٍ قُـطّعتْ يـومَ تجمّـعِ(٧)

---

(١) العصيدة: طعام.

(٢) القتام: الغبار والظلام.

(٣) الودق: الدهن. يسح: يسيل.

(٤) مزرّد بن ضرار، فارسي شاعر جاهلي. اسلم كبيراً. مات سنة ١٠ هـ. الأبيات في العقد الفريد: ٦/٣٠٢.

(٥) العِكم: العدل. وما رُبط به المتاع.

(٦) الصاع: مكيال.

(٧) في العقد الفريد: «رؤوس رخال قطّعت لا تجمّع». دبّل: كبّر.

وقلتُ لبطني أبشري اليومَ إنهُ حمى آمناً مما تفيدُ وتجمعُ[1]
فإنْ تكُ مصفوراً فهذا دواؤهُ وإن تكُ جوعاناً فذا يوم تشبعُ[2]

فضحك الرشيد، وقال: يا أصمعي ما لدنيا ليس فيها مثلك حسن، فدعوت له وفضلته على الملوك بالعلم، فقال يا أصمعي نحن كل يوم نشبع.

ومما يجري مع هذا القول في الرحا: فمن أجود ما قيل فيها ما أنشدناه أبو أحمد:

عجبتُ من سائرةٍ لا تَبرَحُ ينهاكَ عن ركوبها من ينصحُ
دائبة تمسي بحيثُ تصبحُ

والحمد لله وحده.

(١) في العقد الفريد: «حمى أمّنا» والرخال: جمع رخل: الأنثى من ولد الضأن.
(٢) في العقد الفريد: «فإن كنت» . . . «وإن كنت غرثانا».

الفصل الثالث

في ذكر الشراب وما يجري معه من رقيق المعاني

للقدماء في صفة الخمر قول الأعشى:

تـريـك الـقـذى من دونـهـا وهـي دونـه

يريد أنها من صفائها، تريك القذى عالية عليها وهي في أسفلها.

ومن أطرف ما قيل في صفاء الخمر قول[1] أبي نواس:

تـرى حيثمـا كـانت مِن البيتِ مشـرقـا ... ومـا لم تكـن فيـه مـن البيتِ مـغـربـا
إذا عـبَّ فـيـهـا شـاربُ الـقـوم خـلـتـهُ ... يـقـبـلُ في داج مـن الـلـيـل كـوكـبـا

أخذه ابن الرومي فقال[2] وأحسن:

ومـهـفـهـفٍ تـمـتْ مـحـاسـنُـهُ ... حـتـى تـجـاوزَ مـنـيـةَ الـنـفسِ
وكـأنـهُ والـكـأسُ فـي فـمـهِ ... قمـرٌ يقبـلُ عـارض الشمسِ[3]

فجعل الشارب قمراً، وليس هذا في بيت أبي نواس.

وقال[4] أبو نواس، يذكر صفاء الخمر ورقتها وحبابها:

فـإذا مـا اجـتـليـتَـهـا، فـهـبـاءٌ ... يمنعُ الكفَّ ما يبيحُ العيـونـا[5]
ثم شجتْ فاستضحكت عن جمان ... لـو تجمعنَ في يـدٍ لاقتنينـا[6]
فـي كـؤوس كـأنـهـنَّ نـجـومٌ ... دائـرات بـروجـهـا أيـديـنـا[7]

(١) ديوانه: ٣٧.
(٢) ديوانه: ٣/٢٥٨.
(٣) في ديوانه: «فكأنها وكأن شاربها».
(٤) ديوان ابي نواس: ٥٩٣.
(٥) اجتليتها: نظرت إليها.
(٦) في الديوان: «. . . عن جمان». وفي الأصل: «لضنينا».
(٧) في الديوان: «جاريات، بروجها»، وفي الأصل: «طالعات».

طالعاتٌ مع السقاةِ علينا، فإذا ما غربنَ يغربنَ فينا
لو ترى الشَّربَ حولها من بعيدٍ، قلتَ قومٌ، من قِرّةٍ، يصطلونا[1]

وقلت في لطافة الخمر والزجاجة:

قلتُ والرَّاحُ في أكفِّ الندامى كنجومٍ تلوحُ في أبراجِ
أمداماً فرطتمُ لمدامٍ أم زجاجاً سكبتمُ في زجاجِ[2]
وكأنَّ النجومَ والليلُ داجٍ نقشُ عاجٍ يلوحُ في سقف ساجِ[3]

ومن أعجب ما قيل في صفاتها قول الناشىء:

فليس شيء عندها إلا القذى

وقلت:

ومشمولةٍ دارت عليَّ كؤوسها فرحتُ كأني في مدارِ الكواكبِ[4]
أنازِعُها بدارٍ مع الليلِ طالعاً وليسَ بمردودٍ مع الصبحِ غاربِ
وقد شابَ لينا بالشماسِ وإنما تطيبُ لك الصهباءُ من كفِّ قاطب[5]

وأنشدني أبو أحمد:

فنبهتني وساقي القوم يمزجها فصارَ في البيتِ للمصباح مصباحُ
قلنا على علمنا والشكُّ يغلبنا أراحنا دارنا أم دارنا الرَّاحِ[6]

ومثله قول[7] البحتري:

فأضاءت تحتَ الدُّجَنة للشَّرْ بِ وكادتْ تضيءُ للمصباحِ[8]

وأحسن ما وصفت به كأس على فم قول[9] ابن المعتز:

ظبيٌ خليٌّ من الأحزانِ أودعني ما يعلمُ اللَّهُ من حزنٍ ومن قلقِ
كأنَّهُ وكأنَّ الكأسَ في فمه هلالُ أوَّلِ شهر غابَ في الشفقِ

وقول الآخر:

كأنما الكأسُ على ثغرها موصولةً بالأنملِ الخمسِ
ياقوتةٌ صفراءُ قد صيرتْ واسطةً للبدرِ والشمسِ

---

(١) القِرّة: البرْد.
(٢) المدام: الخمرة.
(٣) ليل داج: مظلم.
(٤) المشمولة: الخمرة.
(٥) الصهباء: الخمرة.
(٦) الراح الخمرة.
(٧) ديوان البحتري: ١/٣٦١ عـ.
(٨) الدجنة: الظلام.
(٩) ديوانه: ٣٠٣.

قــد ذهبتْ نفسي على نـفسـهــا ... وآفــةُ الــنـفس مــن الــنـفسِ

وقلت:

فيسـقيـني ويـشـربُ من عـقيـق ... خـليـق أن يـشَـبّـهَ بـالــخـلوقِ

كــأنَّ الـكــأسَ من يــده وفـيــه ... عـقيـقٌ في عـقيـقٍ في عـقيـقِ[1]

الكأس الحمراء مثل العقيق، واليد المخضوبة كالعقيق، والشفة مثل العقيق، في لونها.

وقلت:

ودَارَ الــكــأس فــي يــدِ ذي دلال ... رشيـق الـقـدِّ يـعـرفُ بـالـرّشـيـقِ

يـحـلـي بـالـتـبـسـم درَّ ثـغـر ... تـخـلله شـوابـيـرُ الـعـقـيـقِ

رأيــتُ الــكــأسَ فـي يـده وفـيــه ... وجـنـحُ الليـل مـنـصـرف الـفـريقِ

فـفـي فـمـه هـلالٌ فـي غـروب ... وفـي يـدهِ الـثـريـا فـي شـروقِ

وأحسن ما قيل في الشروق وأتمه، قول ابن الرومي، وأتى بشيء لم يسبق إليه، وهو تشبيه الحباب بفلق اللؤلؤ، وهو على الحقيقة تشبيهه والناس قبله، إنما شبهوه باللؤلؤ الصحيح، وهو قوله[2]:

لـهـا صـريـحٌ كـأنـهُ ذهـبُ ... ورغـوةٌ كـالـلآلـىء الـفِـلَقِ

فشرحت ذلك وقلت:

وكــأس تـمـتـطي أطـرافَ كـفٍّ ... كـأنَّ بـنـانـهـا مـن أرجـوانِ[3]

أنـازعـهـا عـلـى الـعَـلّاتِ شـربـاً ... لـهـنَّ مـضـاحـكُ مـن أقـحـوانِ[4]

يـلوحُ عـلى مـفـارقـهـا حـبـابٌ ... كـأنـصـافِ الـفـرائـدِ والـجـمـانِ[5]

وفي هذا زيادة، لأن في الحباب، ما هو كبير يشبه بأنصاف الفرائد، وهي كبار اللؤلؤ، ومنه ما هو صغير يشبه بأنصاف الجمان وهي صغار اللؤلؤ:

وطـالعني الغـلامُ بـهـا سحيـراً ... فـزادَ عـلى الكـواكـبِ كـوكـبـانِ

ووافـقـهـا بـخـدٍّ أرجـوان ... وخـالـفـهـا بـفـرع أرجـوانـي

وأغرب ما قيل في الحباب قول أبي نواس[6]:

فـإذا عـلاهـا المـاءُ ألبـسـهـا ... حبباً كمثـلِ جلاجـلِ الحجـلِ[7]

حتى إذا سـكـنـتْ جـوامـحُـهـا ... كـتـبـتْ بمثـلِ أكـارعِ الـنّـمـلِ

---

(١) العقيق: من الأحجار الكريمة.

(٢) ديوانه: ٢٩٢/٤.

(٣) البنان: الأصابع. الأرجوان: الصباغ الأحمر.

(٤) يشبه الفم بالأقحوان.

(٥) الحباب: الفقاقيع تعلو الماء.

(٦) ديوانه: ٤٨٤.

(٧) في الديوان: «حبباً شبيه». وفي الأصل: «نمشاً كمثل».

ومن غريب ذلك وبديعة الأول ويقال إنه ليزيد[1] بن معاوية:

وكأس سباها التجر من أرض بابلٍ ... كرقّةِ ماءِ المزنِ في الأعينِ النُّجلِ
إذا شجّها الساقي حسبتَ حبابها ... عيونَ الدبا من تحت أجنحةِ النملِ

وأبدع ما قيل في الحباب قول[2] أبي نواس:

قامت تريني وأمرُ الليلِ مجتمعٌ ... صُبحاً تولّدَ بينَ الماءِ واللهبِ[3]
كأنَّ صغرى وكبرى من فواقعِها ... حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وخطأه النحويون في قوله «كبرى وصغرى من فواقعها»، أخذه ابن المعتز فقال:

يا خليلي سقياني فقد لا ... حَ صباحٌ وأذَّنَ الناقوسُ[4]
من كميتٍ كأنها أرضُ تبرٍ ... في نواحيه لؤلؤٌ مغروسُ

وقلت:

راحٌ إذا ما الليل مَدَّ رواقَهُ ... لاحَتْ تطرِّزُ حُلةَ الظلماءِ
حتى إذ مُزِجَتْ أراك حبابها ... زهراتِ أرضٍ أو نجوم سماءِ

وقلت في المعنى الأول:

تَبيتُ لي اللذاتُ معقودةَ العرى ... إذا ما أدارَ الكأسَ أحْوَرُ عاقدُ
يدبُّ الدُّجى عن وجهِ نارٍ تحلهُ ... كؤوس لأعناقِ الليالي قلائدُ

وقال[5] ابن المعتز:

قد حثني بالكأسِ أوّلَ فجره ... ساقٍ علامةُ دينهِ في خصره[6]
فكأنَّ حمرةَ لونها من خدّه ... وكأنَّ طيبَ نسيمها من نشره[7]
حتى إذا صَبَّ المِزاجَ تبسّمت ... عن ثغرِها فحسبتهُ من ثغره[8]

وقال:

للماء فيها كتابةٌ عجبٌ، ... كمثل نقشٍ في فصِّ ياقوتِ[9]

---

(١) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، الخليفة، كان فصيحاً شجاعاً، له شعر، وكان يفعل المنكر مات سنة ٦٤ هـ. (سير أعلام النبلاء: ٤/٣٥).

(٢) ديوانه: ٤٠.

(٣) في الأصل: «بين الماء والعنب».

(٤) ديوان ابن المعتز: ٣٤١. وفيه: «يا نديميّ».

(٥) ديوانه: ٢٠٢.

(٦) في الديوان: «أو في فجره». وعلامة دينه في خصره: كناية عن أنه ليس مسلماً.

(٧) في الديوان:

وكأن حمرة خده في لونها، ... وكأن طيب رياحها من نشره

(٨) في الديوان: «فحسبته من ثغره».

(٩) ديوانه: ٩٩.

وقلت:

دارَ في الكأس عقيقٌ فجرى ... واطفُ الدُّرِّ عليه فطفح
تَصب الساقي على أقداحها ... شبكَ الفضةِ تصطادُ الفرح

وقال[1] ابن الرومي في لطافتها:

لطفتْ فقد كادَتْ تكونُ مشاعةً ... في الجوِّ مثل شعاعها ونسيمها

ومن الاستعارة البديعة قول ابن المعتز:

فأضحك عن ثغر الحباب فم الكأس

وقلت:

وشراب طوى الزَّمانَ فحاكى ... نفسَ الوردِ رقَّةً ونسيما
إن يكنْ بالعقول غيرُ رحيم ... فهو بالرُّوح لا يزالُ رحيما

ومن أحسن ما قيل، في خيال الكأس، على اليد قول بعض المحدثين:

كأنَّ المديرَ لها باليمين ... إذا قام للسقي أو باليسارِ
تَدَرَّعَ ثوباً من الياسمين ... لهُ فردُ كم من الجلنارِ[2]

وقال السري في معناه:

وبكر شربناها على الورد بُكرةً ... فكانت لنا ورداً على خيرِ موردِ
إذا قامَ مبيضُ الجبين يُديرها ... توَهمته يسعى بكمٍّ مُوَرَّدِ

وقال البحتري:

ألا ربما كأس سقاني سلافها ... رهيفُ التثني واضح الثغر أشنبُ[3]
إذا أخذتْ أطرافه من قنوها ... رأيت اللجينَ بالمدامة يذهبُ[4]

وقلت:

شغلت كلتا يديه بقهوة ... فقلت أرى نجمين أم قدحينِ
كأنَّ خيالَ الكأسِ فوْقَ ذراعه ... غشاءٌ من العقيان فوْقَ لجينِ

وقلت أيضاً:

يسعى إليّ مُقرطَقٌ في كفهِ ... كأسٌ وبَينَ جُفونهِ كأسانِ[5]
وتناسبتْ فيها بغيرِ قرابةٍ ... كفُّ المديرِ ووجنةُ الندمانِ

ومن أحسن ما قيل في الزجاجة ورقتها وصفائها قول بعضهم:

---

(١) ديوانه: ٦/٥.

(٢) تدرع: اتخذ قميصاً أو درعاً. الجلنار: زهر الرمان الأحمر.

(٣) السلاف: الخمرة. الأشنب: عذب الفم.

(٤) في ديوان البحتري: «إذا ذكرت اطرافه من فتورها».

(٥) القُرطَق: لُبس.

رَقَّ الـزُّجـاجُ وراقـت الـخـمـرُ وتـشـابـهـا فـتـقـاربَ الأمـرُ
فـكـأنـهـا خـمـرٌ ولا قـدَحٌ وكـأنّـهُ قـدَحٌ ولا خـمـرُ

وقال ابن المعتز في رقة الخمر وصفائها وذكر الكأس ولطافتها:

وكـأس تـحجبُ الأبصـارُ عـنهـا فـليسَ لـنـاظـرٍ فـيـهـا طـريـقُ
كـأنَّ غـمـامـةً بـيضـاءَ بـيـني وبين الـرَّاح تحـرقهـا البـروقُ[1]

وقلت:

ونـدمـان سقيت الـرَّاح صـرفـاً وجنحُ الليلِ مـرتفعُ السجـوفِ
صفتْ وصفتْ زجـاجتهـا عليهـا لـمعـنـى دَقَّ فـي ذهـنٍ لـطيـف

وليس هذا التشبيه بالمختار، ولو أن بعض الناس يستملحه لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر.

وقال بعضهم:

خـفيـتْ علـى شـرابـهـا فكـأنـهم يـجـدون رَيّـا مـن إنـاءٍ فـارغِ

وقال غيره:

وزَنـا الـكـأسَ فـارغـةً ومـلأى فـكـان الـوزْنُ بـيـنـهـمـا سـواء

وقال ابن الرومي[2]:

لـطفتْ فقـد كـادتْ تكـونُ مشـاعـةً في الجـوِّ مثـل شعـاعِهـا ونسيمِهـا

وقلت:

حملتْ بخنصـرهـا إنـاءَ مـدامـةٍ صفـراء تلمـعُ في زجـاجٍ أقمـرِ
فكـأنهـا واللحظُ ليس يـحـورهـا شمسُ النهـار تختمتْ بـالمشتـري

ومن أجود ما قيل في الأباريق، وفضول الكأس، وأنشده إسحاق:

كـأنَّ أبـاريـقَ الـمـدام لـديـهـم ظبـاءٌ بـأعلى الـرَّقمتينِ قيـامُ[3]
وقـد شـربـوا حتى كـأنَّ رقـابهم من الليـنِ لم يـخلقْ لهـنَّ عـظامُ

وقد أحسن مسلم في قوله[4]:

إبـريقنـا سلبَ الغـزالـةَ جيـدهـا وحكى المـديـرُ بمقلتيـه غـزالا

وأحسن الآخر وينسب إلى بشار[5]:

كـأنَّ إبـريـقـنـا والـقـطرُ فـي فـمـه طـيـرٌ تـنـاول يـاقـوتـاً بـمـنـقـارِ

---

(١) الراح: الخمرة. والبيت في الديوان: ٣٠٣.
(٢) ديوانه: ٦/٥.
(٣) الرقمة: جانب الوادي، والروضة.
(٤) الشعر والشعراء: ٢/٧١٧.
(٥) الديوان: ٥٣٠. والابريق: ابريق الخمرة والقطر: اراد الخمرة وشبهها بالياقوت.

إلا أن قوله «طير» رديء والجيد طائر، وأجازه أبو عبيدة ولم يجزه غيره.

وقلت:

تضحك في الكأس أباريقنا ... وحسب ما يضحكن يبكينا
كأنَّ أعلاها إذا أسفرَتْ ... تعقد في الكأس تلابينا

وأول من شبه الابريق بالأوزلبيد في قوله[1] ولم يذكر الخمر:

تُضَمِّنُ بِيْضاً كالإوَزِّ ظروفها ... إذا تأقوا أعناقها والحواصلا

فأخذه بعضهم فقال:

ويومٍ كظلِّ الرُّمح قصرَ طولهُ ... دمُ الزِّقِّ عنا واصطكاكُ المزاهرِ
كأنَّ أباريقَ المدام عشيةً ... إوزٌّ بأعلى الطفِّ عوجُ الحناجرِ

وقال أبو الهندي[2]:

سيغنى أبا الهنديِّ عن وطب سالم ... أباريق يعلقْ بها وضرُ الزبدِ
مقدمة قزاً كأنَّ رقابها ... رقابُ بناتِ الماء تفزع للرَّعدِ

وقوله (تفزغ للرعد) زيادة على ما تقدم.

وأما فضول الكؤوس فأحسن ما قيل فيها قول[3] أبي نواس:

قرارتُها كسرى وفي جنباتها ... مهاً تدريها بالقسيِّ الفوارسُ
فللخمر ما زرَّتْ عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانسُ[4]

وقال السري الموصلي:

كأنَّ الكؤوسَ وقد كللتْ ... بفضلاتهنَّ أكاليلُ نورِ
جيوبٌ من الوشيِ مَزرُورَةٌ ... يلوحُ عليها بياضُ النحورِ[5]

فجئت به في بيت وقلت:

وبيضٌ تهاوى في مُزَعفرةٍ صفرٌ ... وهبتُ لها قلبي وأخدمتُها فكري
فدارتْ بأقداح كأنَّ فضولها ... سوالفُ تبدو من معصفرةٍ حمرِ

وقال السري أيضاً:

وصفراءُ من ماءِ الكرومِ شربتُها ... على وجهِ صفراءِ الغلائلِ غضّةِ
تبدَّتْ وفضلُ الكاس يلمع ساطعا ... كأترجّة زينتْ بإكليل فضةِ

وقال الناشيء:

---

(١) ديوانه: ١١٨. وفيه: «إذا أتأقوا».

(٢) ابو الهندي: غالب بن عبد القدوس، اليربوعي: شاعر مطبوع، عاش بين الدولتين الأموية والعباسية، وكان جزل الشعر اتهم بدينه. مات سنة ١٨٠ هـ. (الأعلام: ٢/١٩٦).

(٣) ديوانه: ٣٦١.

(٤) القلانس: جمع القَلَنسُوة: توضع على الرأس.

(٥) النحور: الصدور.

ملوك ساسانَ على كأسها كأنها في عزّ سلطانها[1]
فخمرُها من فوْقِ أذقانها وماؤها من فوْقِ تيجانها

يصف كأساً نقش فيه صور ملوك ساسان.

ومن أجود ما قيل في صفة صفاء الإناء، وحسنه، مع صفاء الخمر، قول[2] ابن المعتز:

غدا بها صفراءِ كرخيةً[3] كأنّها في كأسِها تتّقِدْ
فتحسبُ الماءَ زجاجاً جرى وتحسبُ الأقداحُ ماءً جمدْ

ومن أجود ما قيل في صوت الأباريق ما أنشدناه أبو أحمد:

وقد حجب الغيم السماء كأنها يمدُّ عليها منهُ ثوبٌ ممسكُ
ومجلسنا في الجوِّ يهوي ويرتقي وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحكُ

ومن أحسن ما قيل في ابتداء السكرِ قول بعضهم:

ولها دبيبٌ بالعظام كأنّه فيضُ النعاسِ وأخْذُه بالمفصلِ
عبقت أكفهمُ بها فكأنما يتنازعونَ بها سخاب قرنفلِ

وقول أبي نواس:

فأرسلتْ من فم الابريق صافيةً كأنما أخذُها بالعينِ إغفاءُ[4]

وقوله:

ثم لما مزَجوها وَثَبَتْ وثْبَ الجرادِ
ثم لما شربُوها أخذَتْ أخْذَ الرّقادِ

ومن شعر المتقدمين قول[5] الأخطل:

أناخوا فجرُّوا شاصياتٍ كأنها رجالٌ من السودانِ لم يتسربلوا[6]

«لم يتسربلوا» تتميم حسن، والبيت من أحسن ما قيل في الزقاق:

فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم وما وضعوا الأثقالَ إلّا ليفعلوا
تدبُّ دبيباً في العظام كأنهُ دبيبُ نمالٍ في نقاً يتهيلُ[7]

أحسن ما قيل في خروج الخمر من المبزال قول[8] أبي نواس:

---

(١) بنو ساسان: اسرة حكمت بلاد فارس، قبل الفتح الاسلامي.
(٢) ديوانه: ١٥٧.
(٣) كرخية: نسبة إلى الكرخ.
(٤) ديوان ابي نواس: ٠٧ الصافية: الخمرة.
(٥) ديوانه: ٢٢٣.
(٦) شاصيات: جمع شاصية: ناقة مرتفعة القوائم.
(٧) النقا: الرمل المتراكم. يتهيل: ينهار.
(٨) ديوانه: ٤٩٣.

وخنـدريسٌ بـاكـرت حـانتهـا ... فـودّجـوا خصـرهـا بمبـزالِ[1]
فسـالَ عـرقٌ على تـرائبهـا ... كـأنَّ مـجـراهُ فتـلُ خلخـالِ

وقال[2] ابن المعتز:

تـخـرج مـن دنِّـهـا وقـد حـدبـت ... مـثـل هـلالٍ بـدا بـتـقـويسِ

قوله «بدا بتقويس» فضل لا يحتاج إليه، لأن الهلال لا يبدو إلا بتقويس. وقال:

جـاءتـك من بيتِ خمـارٍ بـطينتهـا ... صفـراء مثـل شعـاع الشمسِ تتقدُ
فـأرسلتْ من فم الإبـريق فـانبعثت ... مثـل اللسانِ بـدا واستمسـك الجسدُ

إلا أن هذا في وصفها جارية من فم الإبريق، وقال في المعنى الأول:

سعى إلـى الـدَّنِّ بـالمبـزال يبقـره ... سـاق تـوشـح بـالمنـديـل حينَ وثب
لمـا وجـاهـا بـدَتْ صفـراء صـافيـة ... كـأنَّـه قـدٌّ سيـراً مـن أديـم ذهـب

وقلت:

قـد بـزل الـدَّنّ فقـومي انـظري ... زنـجيـةً تـفـتـلُ خـلخـالا[3]
واسـقنيهـا واشـربـي واطـربي ... وجـرّري فـي الـهـواء أذيـالا
تنعمي مـا اسـطعتِ واستمتـعي ... إنَّ وراءَ الـمـرءِ أهـوالا

أبلغ ما قيل في الكبر الذي يعتري المنتشي[4] قول الأخطل يخاطب عبد الملك:

إذا مـا نـديـمـي عـلنـي ثـمَّ عـلَّنـي ... ثـلاث زجـاجـاتٍ لـهـنَّ هـديـرُ
خَـرَجتُ أجـرُّ الـذيـلَ حتى كـأنني ... عـلـيـك أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ أمـيـرُ[5]

وإنما صار ذلك، أحسن من غيره، لأنه خاطب به ملك الدنيا وقال: أنا أمير عليك في ملك الحال. والأصل فيه.

قول[6] حسان:

ونشـر بهـا فتتـركنـا ملوكـا ... وأسـداً مـا ينهنهنـا اللقـاءُ

ومنه قول المخبل اليشكري[7]:

---

(١) الخندريس: من اسماء الخمرة.
(٢) ديوانه: ٢٤٠.
(٣) بزل الدن: ثقب وعاء الخمرة.
(٤) المنتشي: الذي سكر.
(٥) في ديوان الأخطل: «جعلت أجر الذيل مني كأنني».
(٦) ديوانه: ٦٠.
(٧) لعله المنخّل اليشكري. وهو المنخّل بن عُبيد بن عامر، من بني يشكر، وهو جاهلي قديم. والبيتان في الشعر والشعراء مع ترجمته: ١/٣١٧. اما المخبّل فهو ربيع بن مالك بن ربيعة السعدي، شاعر فحل مخضرم بين الجاهلية والاسلام. (الأعلام: ٣/١٥).

وإذا سكرتُ فإنني ... رَبُّ الخورنقِ والسريرِ[1]
وإذا صحوتُ فإنني ... ربُّ الشويهةِ والبعيرِ[2]

وأجاد ابن الرومي القول في تفسيح أمل السكران حتى يأمل ما لا يجوز وجودُه وهو قوله:

ومدامةٍ كحشاشةِ النفسِ ... لطفتْ عن الإدراك والحسِّ[3]
لنسيمها في قلبِ شاربِها ... روحُ الرَّجاءِ وراحةُ النفسِ
وتمدُّ في أملِ ابن نشوتِها ... حتى يؤمل مرجع الأمسِ

وأجود ما قيل في صفة السكران قول عبد الله بن عبد الله بن عتبة:

وشربك من ماءِ الكرومِ كأنهُ ... إذا مجَّ صرفا في الإناء خضابُ
صريعُ مدامٍ والندامى يلونهُ ... وفي الشِّدقِ قيءٌ سائلٌ ولعابُ

وقريب منه قول الآخر في حماد الراوية[4]:

نِعم الفتى لو كانَ يعرفُ ربَّهُ ... ويقيمُ وقْتَ صلاتهِ حمادُ
هدلتْ مشافرُه المدامَ وأنفهُ ... مثل القُدوم يسنها الحدادُ
وابيضَّ من شربِ المدامةِ وجهُهُ ... فبياضُهُ يومَ الحسابِ سوادُ

وأبدعِ ما قيل في صفة أنف السكران إذا تورم من السكر قول الآخر:

وشربتَ بعد أبي ظهير وابنه ... سكر الدِّنان كأنَّ أنفك دمَّلُ

ومن جيد ما قيل في مبادرة اللذات قول أحمد بن أبي فنن[5]:

جَدِّدَ اللذاتِ فاليوم جديد ... وامض فيما تشتهي كيفَ تريدُ
اله إن أمكن يوم صالح ... إنَّ يومَ الشربِ لا كان عتيدُ

وقال[6] ديك الجن:

تمتع من الدُّنيا فإنك فاني ... وإنك في أيدي الحوادثِ عاني
ولا تنظرِن اليوم في لهو غد ... ومن لغدٍ من حادث بأمانِ
فإني رأيتُ الدَّهرَ يسرعُ بالفتى ... وينقله حالينِ يختلفان[7]

---

(١) في الشعر والشعراء: السدير.

(٢) الشويهة: تصغير الشاة.

(٣) المدامة: الخمرة. الحُشاشة: الروح.

(٤) حمّاد الراوية: هو حمّاد بن سابور بن المبارك، اول من لقب بالراوية عالم بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم وبالأنساب واللغات. توفي سنة ١٥٥ هـ. (الأعلام: ٢/٢٧١).

(٥) في الأصل (فنس). وذلك تصحيف.

(٦) الأمالي: ٣/١٧٠. والبيت الثاني كما يلي:

ولا يأتين يوم عليك وليله ... فتخلو من شرب وعزف قيان

(٧) في الأمالي: «يلعب بالفتى».

فأما الذي يمضي فأحلامُ نائم وأما الذي يبقى له فأماني[1]

ونحوه قول عمران بن حطان[2]:

يأسفُ المرء على ما فاتهُ من لباناتٍ إذا لم يقضها
وتراهُ فرحاً مستبشراً بالتي أمضى كأنْ لم يمضها
عجباً من فرح النفسِ بها بعدَ ما قد خرجتْ من قبضها
إنها عندي وأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

وقال ابن المعتز:

وبادر بأيام السرورِ فإنها سراعٌ وأيامُ الهموم بطاءُ
وخَلِّ عتابَ الحادثاتِ لوجهها فإنَّ عتابَ الحادثاتِ عناءُ
تعالَوا فسقوا أنفساً قبل موتها ليأتي ما يأتي وهنَّ وراءُ

ونحر عجير السلولي[3] جمله لأصحابه وجعل يشرب معهم ويقول:

عللاني إنما الدُّنيا عللْ واتركاني من عتابٍ وعذلْ
وانشلا ما اغبرَّ من قدريكما واسقياني أبعد اللّهُ الجمل

وقال أحمد المادرائي[4]:

عاقر الرَّاحَ ودع نعتَ الطللْ واعص من لامك فيها وعذْل[5]
غادها واسعَ لها واغرَبها وإذا قيلَ نصاباً قل أجلْ
إنما دنياك فاعلمْ ساعةٌ أنتَ فيها وسوى ذاك أملْ

ولابن بسام[6]:

واصلْ خليلك إنما الدُّ نيا مواصلةُ الخليلِ
وانعمْ ولا تتعجل الـ مكروهَ من قبلِ النزولِ
بادرْ بما تهوى فما تدري متى وقتُ الرَّحيلِ
وارفضْ مَقالةَ لائم إنَّ الملامَ من الفضولِ

وقد أجاد ديك الجن في قوله يصف السكر، واسمه عبد السلام بن رغبان الحمصي:

---

(١) في الأمالي: «فأما التي تمضي . . . وأما التي تبقى لها . . .» وقد نسب الأبيات جميعاً إلى سعيد بن حميد.

(٢) عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني، شاعر مفلق مكثر، من الصفرية، مات سنة ٨٤ هـ. الأبيات مع ترجمته في (الأغاني: ١٨/١٠٩).

(٣) عُجير بن عبدالله بن عبيدة بن كعب، واسمه الحقيقي عمير. كان جواداً كريماً. مات سنة ٩٠ هـ. وكان شاعراً مقلّاً.

(٤) المادرائي: شاعر، كاتب اسمه احمد بن علي بن الحسن، أبو علي. الفهرست ٢٣٧.

(٥) الراح: الخمرة. الطلل: بقايا المنزل.

(٦) ابن بسام: هو ابو الحسن علي بن محمد بن نصر بن منصور، ويعرف بالبسّامي شاعر هجّاء، من الكتاب، عالم بالأدب والأخبار. له مصنفات. مات سنة ٣٠٢ هـ. (الأعلام: ٤/٣٢٤).

أستغفرُ الله لذنبي كله قتلتُ إنساناً بغيرِ حلّه
وانصرَمَ الليلُ ولم أصله والسكرُ مفتاحٌ لهذا كلّه

قد أوطأ إلا أنه أصاب المعنى. وقال أيضاً:

مشعشعة من كفّ ظبيٍ كأنما تناولها من خَدِّهِ فأدارها[1]
فظلتْ بأيدينا نتعتعُ روحها وتأخُذُ من أقدامنا الرَّاحُ ثارها[2]

وهذا معنى بديع حسن أخذه أبو تمام منه وكان كثير الأخذ منه فقال:

إذا اليدُ نالتها بوترٍ توقَّدَتْ على ضعفها ثم استقادَتْ من الرجلِ[3]

وبيت عبد السلام أجود منه.

أحسن ما قيل في وصف الساقي إذا أخذ الكأس قول الآخر:

كأنَّهُ والكأسُ في كفهِ بدْرٌ إلى جانبهِ كوكبُ

وقلت:

وطالعني الغلامُ بها سحيراً فزادَ على الكواكبِ كوكبانِ

ومما يدخل في مختار هذا المعنى قول ابن الرومي:

ومهفهف تمت محاسنه

وقد مر. ولم أسمع في هذا المعنى أجود من قول الآخر:

فكأنهُ وكأنها وكأنهم قمرٌ يدورُ على النجومِ بأشمسِ

ومثله في الجمع قول الآخر:

فالكفُّ عاجٌ والحبابُ لآلىءٌ والرَّاحُ تبرٌ والزُّجاجُ زبرجدُ[4]

وأجود ما قيل في قيام السقاة بين الندامى قول[5] ابن المعتز:

بينَ أقداحِهمْ حديثٌ قصير، هو سحرٌ، وما سواهُ الكلام
وكأنَّ السقاةَ بينَ الندامى ألِفاتٌ بينَ السطورِ قيامُ

فشبه اصطفاف الشرب جلوساً بالسطر والسقاة بينهم بالألفات فأحسن.

ومن البارع الداخل في هذا الباب قول عنترة[6]:

وإذا سكرتُ فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلَمِ

---

(١) في وفيات الأعيان: «موردة من كف».
(٢) نُتعتع روحها: ننتزعها.
(٣) البيت في ديوان: ابي تمام: ٣٧٤. وفيه: «توقَّرت ... على ضغنها ثم استفادت ...». الوتر: العداوة.
توقرت: ثبتت. استقادتِ: طلبت القَود.
(٤) يشبه اليد بالعاج لبياضها. والفقاقيع باللآلىء. والخمرة ذهب والزجاج يشبه الدر.
(٥) ديوانه: ٣٦١. وفيه: «وما سواه كلام».
(٦) ديوانه: ١٥.

وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى ... وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

أخذه البحتري فزاد عليه في قوله[1]:

وما زلتَ خلًّا للندامى إذا انتشوا ... وراحوا بدوراً يستحثونَ أنجما

تكرَّمتَ من قبلِ الكؤوس عليهم ... فما اسطعنَ أن يحدثن فيك تكرُّما

والزيادة أن عنترة ذكر أنه يستهلك ماله إذا سكر، والبحتري ذكر أنه تكرم قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكرماً.

ومن أطرف ما قيل في حسن الندامى قول بعضهم:

لقد علَم الرَّيحانُ والرَّاحُ أنني ... على الكأس والندمانِ غير جهولِ

فإن ساءني منهمْ مقامٌ غفرتهُ ... ولستُ إلى ما ساءَهم بعجولِ

قوله:

لقد علم الريحان والراح أنني

في غاية الظرف. وشبيه البيت الثاني قول الآخر:

ليسَ من شأنهِ إذا دارتِ الكأ ... سُ فأزرى إدمانهُ بالحلومِ[2]

قولُ ما أسخط النديمَ وإن أسـ ... ـخطهُ عند ذاك قولُ النديم

إلا أن في هذين البيتين عيبين: أحدهما التضمين والآخر قوله عند ذاك وهي زيادة لا يحتاج إليها. وقال يحيى بن زياد[3]:

ولستُ له في فضلة الكأسِ قائلاً ... لأصرفهُ عنها تحس وقد أبى

ولكن أحيِّيه وأكرِمُ وجهه ... وأشربُ ما أبقى وأسقيهِ ما اشتهى

وليسَ إذا ما نام عندي بموقظٍ ... ولا سامع يقظان شيئاً من الأذى

وهذا جامع جداً. ومن جيد ما قيل في مدح النديم قول اعرابي وقد قيل له: كم تشرب من النبيذ؟ قال على قدر النديم.

ومن المنظوم قول بعضهم:

ورضيع راضعت في كبرِ السن ... فأضحى أخاً لديَّ مطاعا

لم يكنْ بيننا رَضاعٌ ولكنْ ... صيرتْ بيننا المدامُ رضاعا

وهو من قول الناشيء: المدام الرضاع الثاني.

ويقولون: ذِكرُ الرجل عمره الثاني.

وروى ابن عون، عن ابن سيرين، أنه قال: لا تكرم أخاك بما يشق عليه، قالوا: معناه لا

---

(١) ديوانه: ١/١٢٥ ص.

(٢) الحلوم: العقول.

(٣) هو ابو الفضل الحارثي، يحي بن زياد بن عبيد الله: شاعر ماجن، مدح السفاح والمهدي العباسيين. مات سنة ١٦٠ هـ.

تسقه من النبيذ ما لا يقوم به.

وجعل آخر النديم قطب السرور في قوله:

أرَى لـلرَّاحِ حـقـاً لا أراهُ   لـغـيـر الـرَّاحِ إلا لـلـنـديـمِ
هــو الـقـطبُ الـذي دارَتْ عـليـهِ   رَحـا الـلذَّاتِ في الـزَّمَـن الـقـديـمِ

وقلت:

لـمـا تـبـدَّى وَجْـهُـهُ   كـالـبـدرِ من خلل الـغـمـامِ
وكـأنَّـهُ ضَـوءُ الـصـبـا   ح يـميسُ في خلع الـظلامِ[1]
آثــرتُ طـاعَـةَ حـبـه   واختـرتُ معـصيـةَ الـمـدام
لا أسـتـفـيـدُ مـن الـمـدا   م سـوى مـنـادمـةِ الـكـرامِ
فـإذا حـنـنـتُ إلـى الـنـدا   م فـقـد حننت إلى الـمـدامِ
خـلق الـنـديـم إذا صـفـا   أغـنـاك عـن صـفـو الـمـدامِ

وفاخر كاتب نديماً فقال:

أنا معونة وأنت مؤونة، وأنا للجد وأنت للهزل، وأنا للشدة وأنت للرخاء، وأنا للحرب وأنت للسلم.

فقال النديم:

أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا للحظوة وأنت للمهنة، تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأب لمرضاتي[2]، وتسعى لما فيه سعادتي، فأنا شريك وأنت معين، كما أنك تابع وأنا قرين فغلبه.

وقلت:

مـا أعـافُ الـنـبـيـذَ خـيـفـةَ إثـمٍ   إنـمـا عـفـتـهُ لـفـقـدِ الـنـديـمِ
لـيس في الـلهـو والـمـدامـةِ حظٌّ   لـكـريـم دونَ الـنـديـمِ الـكـريـمِ
فـتخيـرْ قبـلَ الـنـبـيـذِ نـديـمـاً   ذا خـلالٍ مـعـطـراتِ الـنـسـيـم
وجـمـالٍ إذا نـظـرتَ بـديـع   وضـمـيـرٍ إذا اخـتـبـرتَ سـلـيـم

وأحسن ما قيل في احمرار لون الشارب من الشعر القديم قول الأعشى:

وسـبيـئـةٍ مـمـا تـعـتـقُ بـابـلُ   كـدمِ الـذَّبيحِ سلبتها جـريـالهـا

الجريال: اللون.

وقال بعض المحدثين:

نفضت على الأجسام حُمرةَ لـونـهـا   وسـرتْ بـلـذَّتـهـا إلـى الأرواحِ

وأخذ الناجم قول الأعشى (سلبتها جريالها) فقال:

---

(١) يميس: يميل.

(٢) في الأصل: «تدأب الرضى».

•فخذها مشعشعةَ قهوة تصبُّ على الليلِ ثَوْبَ النهارِ
ويسلبُها الخدُّ جريالَها فتهديه للعينِ يومَ الخمارِ

إلا أن هذا فيه زيادة وهو قوله:

فتهديه للعين يوم الخمار

وهو في صفة حمرة العين من الخمار جيد إلا أن قوله (مشعشعة قهوة) رديء، ووجه نظم اللفظ أن يقال قهوة مشعشعة، ألا ترى أنك تقول خمر ممزوجة ولا تقول ممزوجة خمر، وإن كان جائزاً، فليس كل جائز حسن فاعلم ذلك.

وقلت:

شقائقٌ كناظرِ المخمور وأقحوانٌ كثغور الحورِ[1]
ونرجسٌ كأنجم الدَّيجورِ[2]

فشبهت ما يعتري بياض العين والحماليق، من الحمرة عند الخمار، مع سواد الحدقة بحمرة الشقائق حول سوادها. وقد أحسن أبو نواس في ذكر مزاج الكأس حيث يقول[3]:

ألا دارها بالماءِ، حتى تُلينها فلنْ تُكرِمَ الصّهباءَ حتى تهينَها
أغالي بها، حتى إذا ما مَلَكتُها أدلت لإكرامِ الصديق مصونها[4]
وصفراء قبلَ المزج، بيضاءَ بعدَهُ كأنَّ شعاعَ الشمسِ يلقاكَ دونها
ترى العينَ تستعفيك من لمعانِها، وتحسرُ حتى ما تُقل جفونَها

أخذه ابن دريد فقال:

وحمراء قبلَ المزج صفراء بعده بَدَتْ بينَ ثوبي نرجس وشقائقِ
حكتْ وجنةَ المعشوقِ صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتستْ لونَ عاشق

ومن أجود ما قيل في صفة القيان[5]:

بَدَتْ في نشوةٍ مثلَ الـ ـمها أدمجنَ إدماجا
يجاذبنَ من الأردا فِ كثباناً وأمواجا[6]
وقضباناً من الفضـ ـةِ قد أثمرتِ العاجا
ويسترنَ من الأبشا رِ في الدِّيباج ديباجا[7]

---

(١) الحور: الجميلات.

(٢) الديجور: الليل المظلم.

(٣) ديوانه: ٥٩٢.

(٤) في الديوان: «أهنت لإكرام الخليل».

(٥) القيان: جمع القينة: المغنية.

(٦) يشبه الأرداف بالكثبان الرملية والموج.

(٧) الديباج: الحرير.

وقد لاثتْ من الكورِ على مفرقها تاجا
فلما طفنَ بالمجلسِ أفراداً وأزواجا
تجاذبنَ فغنّينك أرمالاً واهزاجا
وحركنَ من الأوتار أمساداً وأدراجا(١)
فلا لومَ على قلبك إن هيجَ فاهتاجا

ومن جيد ما قيل في بحة حلق المغني قوله أيضاً:

أشتهي في الغناء بحة حلقٍ ناعم الصوت متعب مكدودِ
كأنين المحبِّ أضعفهُ الشوقُ فضاهى به أنينَ العودِ
لا أحبُّ الأوتارَ تعلو كما لا أشتهي الضربَ لازماً للعودِ
وأحبُّ المجنبات كحبي للمبادي موصولة بالنشيدِ
كهبوبِ الصبا توسط حالاً بينَ حالينِ شدَّة وركودِ

وقد أحسن ابن المعتز في صفة أنامل القينة(٢):

وتلفظُ يمناها إذا ضربتْ بها وتنثرُ يسراها على العودِ عُنّابا

وقلت:

وهيّجتْ ليَ من شوقٍ ومن فرحٍ أيدٍ نشرنَ على الأوتار عُنّابا
لا عيبَ في العيش إلا خوفُ غيبتِكم إنَّ السرورَ إذ ما غبتمُ غابا

ومن أحسن ما قيل في وصف المغني قول ابن المعتز:

ومغنٍ ملحقُ كلَّ نفسٍ بهواها وهو للسكر عذرُ
لا يمدُّ الصوت فيه نفورٌ لا ولا يقطعنه منه بهرُ

وأجمع من ذلك قول(٣) ابن الرومي:

تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصالِ وهي تجيدُ
مدَّ في شأوِ صوتها نفسٌ كا فٍ كأنفاسِ عاشقيها مديدُ
ولها الدَّهر لائمٌ مستزيد ولها الدَّهر سامعٌ مستعيدُ

وللناجم من أبيات:

مندرة في كلِّ أصواتها لا كالتي تندرُ في الندره

وقول الآخر:

إذا وقّع بالعودِ زمرنا بالكؤوس له

---

(١) أمساد: جمع مسد: وهو حبل من ليف.
(٢) ديوان ابن المعتز: ٣٤.
(٣) ديوانه: ٢/٢٦٦.

فأما أعجب ما قيل، في ذم المغني، والتنائي من سماعه، فقول(1) ابن الرومي:

فظلتُ أشربُ بالأرطال لاطرَباً ... عليه بل طَلَباً للسّكرِ والنومِ

ومن أحسن ما قيل في مجالس الشرب قول(2) أبي نواس:

في مجلسٍ ضحكَ السرورُ بهِ ... عن ناجذَيه وحلتِ الخمرُ

وقد أحسن ديك الجن في قوله:

كأنما البيتُ بريحانه ... ثوبٌ من الندس مشقوقُ

ومثله قول الصنوبري:

وقد نظم السروض سمطيه من ... سنان نؤيق إلى زجه

كفرجك خفتان وشي بد ... بياضُ الغِلالة من فرجِهْ(3)

ورأيت قوماً يستحسنون هذين البيتين وهما بالاستهجان أولى لا لرداءة معناهما ولكن لتكلف ألفاظهما، وليس التكلف أن تكون الألفاظ غريبة وحشية، بل وقد يكون الكلام متكلفا وإن كان ظاهر اللفظ إذا لم يوضع في موضعه وخولف به وجه الاستعمال.

وقال السري، ولا أعرف في معناه أحسن منه، يدعو صديقاً له:

ألستَ ترى ركبَ الغمامُ يُساقُ ... وأدمعه بين الرِّياضِ تُراقُ

وقد رقَّ جلبابُ النسيمِ على الثرى ... ولكنْ جلابيبُ الغيومِ صفاقُ(4)

وعندي من الرَّيحانِ نوع تحية ... وكأسٌ كرقراق الخلوقِ دهاق

وذو أدب جلتْ صنائع كفه ... ولكن معاني الشعرِ فيه دقاق

لنا أبداً من نثره ونظامهِ ... بدائعُ حلي ما لهنَّ حقاق(5)

وأغيد مهتزٌّ على صحنِ خدِّه ... غلائلُ من صِبغِ الحياءِ رقاقُ

أحاطتْ عيونُ العاشقينَ بخصرهِ ... فهنَّ له دونَ النطاقِ نطاقُ

هذا البيت من قول(6) المتنبي:

وخصرٍ تثبتُ الأبصار فيه ... كأنَّ عليه من حدق نطاقا

وقد مر، وبيت السري أجود منه سبكاً ونظماً ورصفاً:

وقد نظم المنثور فهو قلادة ... علينا وعقدٌ مذهبٌ وخناقُ

وعرفتنا بينَ السحائب تلتقي ... لهن علينا كلة ورواقُ

---

(1) ديوانه: ٥/٣٠١.

(2) ديوانه: ٣٢٥.

(3) الغلالة: ثياب رقيقة. والبَدُّ: التعب.

(4) في ديوانه: «على الندى».

(5) حقاق: جمع حق: وعاء.

(6) ديوانه: ٢/٢٩٦.

تقسم زوارٌ من الهند سقفها ... خفاف على قلب النديم رشاقُ[1]

وليس في هذه الأبيات عيب إلا هذا الإيطاء، وهو من أسهل العيوب التي تعتري القوافي عندهم:

أعاجم تلتذُّ الخصام كأنها ... كواعبُ زنجٍ راعهنَّ طلاقُ[2]
أنسن بنا أنسَ إلا ماء تحببت ... وشيمتها غدرٌ بنا وإباقُ[3]
مواصلة والوردُ في شجراته ... مفارق إلف حانَ منه فراق[4]
فزرْفتيةً بردُ الشرابِ لديهمُ ... حميمٌ إذا فارقْتَهم وغساقُ[5]

وقلت:

وليلٍ ابتعتُ به لذَّةً ... وبعتُ فيه العقلَ والدِّينا
أصابَ فيه الوصلُ قلبَ الجوى ... وباتَ فيه الهمُّ مسكينا
وقد خلطنا بنسيم الصبا ... نسيمَ راح ورياحينا
وأكؤسُ الرَّاحِ نجومٌ إذا ... لاحتْ بأيدينا هوتْ فينا
تضحك في الكأس أباريقنا ... وحسبما يضحكنَ يبكينا
كأن أعلاها إذا كفرتْ ... يعقد الكأس ثلاثينا

وقلت:

هذا حبيبٌ وصول ... وذا رقيبٌ صرومُ
وذاك شرخُ شباب ... أغرّ وهو بهيم
وقهوةٌ وغناءٌ ... وسامرٌ ونديمُ
فخذ نصيبك منه ... فليس شيءٌ يدومُ

وهذا من أجمع ما قيل في هذا الباب.

وقال الصنوبري:

يومٌ ذيولُ مزنه ... على الثرى منسحبه
بروقهُ سافرةٌ ... وشمسه منتقبه
فما سى؟ سماءه ... ضاحكة منتحبه[6]
طلبتُ أقصى أملي ... منه فنلتُ الطُّلبه
بسيدينِ ارتقيا ... منقبةً فمنقبه

(١) في الأصل: «قلب الكريم رقاق».
(٢) الكواعب: جمع الكاعب. الفتات الشابة.
(٣) الإباق: التمرّد.
(٤) في ديوانه: «مفارقة ان حان منه فراق».
(٥) الحميم والغساق: طعام اهل النار.
(٦) نقص في صدر البيت.

واتـفـقـا في كـنـيـةٍ والـتـقـيـا في مـرتـبـه
نـشـربـهـا عـذراءَ قـد قـامـتْ بـحـقّ الـشـربـه
أكـرمُ ذخـرٍ ذخـرتـه كـرمـة فـي عـنـبـه
فـي مـجـلـس أطـنـابـه عـلـى الـعـلا مـطـنـبـه[1]
أكـرمْ بـه يـومـاً مـضـتْ سـاعـاتـهُ الـمـسـتـعـذبـه
كـلـحـظـةٍ مـخـلـوسـةٍ وقـبـلـة مـسـتـلـبـه

وقلت:

عـنـدنـا طـيـبٌ وريـحـا نٌ ونـقـلٌ وغـنـاءُ
ومـن الـمـشـروبِ لـونـا نِ شـمـولٌ وطِـلاءُ[2]
ومـن الـلـحـم خـلـيـطا نِ طـبـيـخٌ وشـواءُ
ومـن الـحـلـواء ألـوا نٌ أحـاد وثـنـاء
ولـنـا غـلـمـانُ صـدقٍ أدبـاءٌ أربـاء
أرسـلوا في الـصـحـن مـاءً فـكـأنَّ الـصـحـنَ مـاء
وانـثـنـوا لـلـحـسـنِ عـدواً فـحـواشـيـه رداءُ
فـأْت نـنـفِ الـهـمّ عـنـا إنـمـا الـهـمُّ بـلاءُ
واغـتـنـمْ لـذَّةَ يـومٍ قـد تـخـطـاهُ الـعـنـاءُ
فـهـو يـطـويـك ويـمـضـي لـيسَ لـلـدُّنـيـا بـقـاءُ

ومن المشهور في صفة السكارى قول بعضهم:

مشـوا إلى الـرَّاح مشيَ الـرّخّ وانصرفـوا والـرَّاحُ تمشي بهم مشيَ الفـرازيـن[3]
غـدوا إليهـا كـأمثـالِ السهـامِ مَضتْ عن القسيّ وراحـوا كـالعـراجيـن[4]
وكـانَ شـربُـهمُ فـي صـدرِ مـجلسـهـم شـربَ الـملوكِ ونـامـوا كـالـمسـاكين

ومثل البيت الأول:

راحـوا عـن الـرّاح وقـد بـدِّلـوا مـشىَ الـفـرازينِ بـمـشيِ الـرّخـاخِ[5]

ومما يجري مع هذا قول الآخر:

تـزيدُ حسـا الكأس السفيـهَ سفاهـةً وتتـركُ أخـلاقَ الكـريـمِ كمـا هيـا
وإنَّ أقـلَّ النـاسِ عقـلاً إذا انتشى أقـلهمُ عـقـلاً إذا كـانَ صـاحيـا

---

(١) الأطناب: جمع طنب: العمود.
(٢) شَمول وطِلاء: من اسماء الخمرة.
(٣) الفرازين: جمع الفرزان: الشِّطرنج.
(٤) العراجين: جمع العرجون: اصل العذق الذي يعوّج.
(٥) الرخاخ: جمع الرخ: وهو طير ضخم.

ومن أحسن ما أنشد في الخيش: ما أنشدناه أبو أحمد، ولم يسمِ قائله، ورأيته بعد في ديوان السري:

وقد نشأتْ بينَ الكؤوس غمامةٌ   من النّدِّ إلا أنها ليسَ تهطلُ[1]
وعلٍّ بماء الوردِ خيش كأنهُ   على جلدهِ ثوبُ العروس المصندلُ

وقلت:

ظبيٌ يروقُ الناظرينَ بأبيضٍ   وبأسودٍ وبأخضرٍ وبأشكلِ
ومقوَّمٍ مميل القضيبِ مهفهفٍ   ومعوّجٍ كالصولجانِ محبلِ[2]
ومفرّج من خدِّه ومكفر   ومخلّقٍ من شعره ومسلسل
وبياض وجه بالصباح مقنع   وسواد فرع بالظلام مكلل
علقتْ أباريقُ المدام بكفه   كالبدرِ يعلق بالسماك الأعزل
وعلا دخانُ الندِّ أبيض ساطعاً   مثل الغمامةِ غير أن لم يهمل
فكأنما الكاساتُ في حافاته   شقرُ الخيولِ تجولُ تحت القسطلِ

ومن أبدع ما قيل في لذة الغناء قول الناجم[3]:

شذْوٌ ألذُّ من ابتدا   ءِ العينِ في إغفائها
أحلى وأشهى من مُنى   نفسٍ وصدقِ رجائِها

وأجود ما قيل في الاصغاء إلى الغناء والسكوت له قول الآخر:

وأصغوا نحوها الآذانَ حتى   كأنهمُ وما ناموا نيامُ

ومن عجيب المعاني في الغناء قول[4] أبي تمام:

حمدتُكَ ليلة شرُفتْ وطابتْ   أقام سهادُها ومضى كراها[5]
سمعتُ بها غناءً كان أولى   بأن يقتادَ نفسي من عناها[6]
ومسمعةً تفوتُ السمع حسناً   ولم تصممهُ لا يصممْ صداها[7]
مرتْ أوتارها فشفتْ وشاقت   ولو يسطيعُ حاسِدها فداها[8]
ولم أفهم معانيها ولكنْ   ورتْ كبدي فلم أجهل شجاها

---

(١) النّد: البخور.

(٢) الصولجان: العضا.

(٣) الاعجاز والايجاز: ٢٥٣.

(٤) ديوان ابي تمام: ٤١٦.

(٥) في الديوان:

شكرتك ليلةً حسُنت وطابت   أقام سرورها ومضى كراها

(٦) في الديوان: «من غناها».

(٧) في الديوان: «يحار السمع فيها».

(٨) البيت ليس في النسخ. واستدرك من ديوان ابي تمام. ومرتْ: مسحت.

فكنتُ كأنني أعمى معنى ... بحبِّ الغانياتِ ولا يراها

وكان ينبغي أن يقول «فاداها حاسدها» وليس لقوله فلا يسطيع حاسدها معنى مختار.

وأول من أتى بهذا المعنى حميد بن ثور[1] في قوله:

عجبتُ لها أنى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما[2]
ولم أرَ محقوراً لها مثلَ صوتها ... أحس وأشجى للحزينِ وأكلما
ولم أرَ مثلي شاقَه صوتُ مثلها ... ولا عربياً شاقَه صوتُ أعجما[3]

ومن أحسن أوصافِ العودِ إذا احتضن تشبيههم إياه بالولد في حجر أمه وتشبيه إصلاحه بعرك أذنه فمن أحسن ما قيل في ذلك وأجمعه قول بعضهم:

فكأنه في حجرها ولدٌ لها ... ضمتهُ بينَ ترائبٍ ولبان[4]
طوراً تدغدغ بطنه فإذا هفا ... عركتْ له أذناً من الآذان

ومثله قول الناجم:

إذا احتضنتْ عابثٌ عودَها ... وناغتهُ أحسنَ أن يعربا
تدغدغُ في مهلٍ بطنهُ ... فتسمعنا مضحكاً معجبا

وذكر الضحك مع الدغدغة جيد.

ونظم كشاجم قول الحكماء إن العود مركب على الطبائع الأربع فقال:

شَدَتْ فجلتْ أسماعنا بمخفّف ... يحدِّثها عن سرِّها وتحدثه
مشاكلة أوتارهُ في طباعها ... عناصر منها أحدثَ الخلقَ محدثه
فللنار منه الزيرُ والأرض بمُّه ... وللريح متناهُ وللماءِ مثلثه
وكلُّ امرىء يرتاحُ منهُ لنغمةٍ ... على حسبِ الطبعِ الذي منهُ يبعثه
شكا ضربَ يمناها، فظلتْ يسارها ... تطوقهُ طوراً وطوراً ترعِّثه[5]
فما برحَتْ حتى أرتنا مخارقا ... يجاذبهُ في أحسنِ النقرِ عثعثه[6]
وحتى حسبت البابليين القنا ... على لفظها السحر الذي فيه تنفثه[7]

وأجود ما قيل في اتفاق الضرب والزمر قول هارون بن على المنجم:

---

(١) هو حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، شاعر مخضرم بين الاسلام والجاهلية. أسلم وله صحبة. مات سنة ٣٠ هـ (الأعلام: ٢/٢٨٣).

(٢) تفغر فما: تفتح.

(٣) البيت في العقد الفريد: ٥/٤١٥.

(٤) الترائب: عظام الصدر. اللبان: الصدر.

(٥) ترعّثه: تقرّطه.

(٦) مخارق: مغن عازف شهير. العِثاث: الترنّم في الغناء.

(٧) في صدر البيت اضطراب.

غصن على دعص نقا منهالِ ... سعى بكأسٍ مثل لمع الآلِ[1]
وفاتنات الطرفِ والدّلالِ ... هيفِ الخصورِ رجح الأكفالِ[2]
يأخذنَ من طرائفِ الأرمالِ ... ومحكمِ الخفافِ والنعالِ
يجري مع الناسِ بلا انفصالِ ... مثل اختلاط الخمرِ بالزّلالِ
يدعو إلى الصّبوةِ كلّ سالِ ... يصرعُ كلَّ فاتكٍ بطّالِ
ومن حرام اللهو والحلالِ ... أكرم من مصارعِ الأبطالِ

وقال كشاجم في وصف العود والقينة وأحسن:

تميسُ من الوشي في حُلةٍ ... تجرِّرُ من فضل أذيالِها
وتحملُ عوداً فصيحَ الجواب ... يضاهي اللحونَ بأشكالها
لهُ عنقٌ مثل ساقِ الفتاة ... ودستانةٌ مثل خلخالها[3]
فظلتْ تطارحُ أوتارَهُ ... بأهزاجها وبأرمالها[4]
وتعملُ جساً كجسِّ العروق ... وتلوى الملاوي بأمثالها

وقيل لرجل أي المغنين أحذق؟ قال: ابن سريج كأنه خلق من كل قلب فهو يغني لكل إنسان بما يشتهيه. وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر عن المدائني قال: قال المغيرة للوليد بن يزيد بن عبد الملك: إني خارج إلى العراق فاستهد ما أحببت فقال: إهدلي بربطا من عمل زلزل فأهدي إليه عوداً وكتب إليه: قد بعثت به أرسح البطن، أحدب الظهر، صافي الوتر رقيق الجلد، وثيق الملاوي كهيئة طاليه، وملاحة محتضنه، وحسن الضارب به، وطرب المستمع له.

ومن أحسن ما قيل في جس الضارب ما تقدم ذكره وهو قول الناشيء:

وكأن يمناها إذا ضربت بها

وقال ابن الحاجب[5]:

إذا هي جستهُ حكتْ متطبباً ... يجيلُ يديه في مجسِّ عروقِ

وقد استحسنَ الناس هذا البيت، وأجازوه، وليس في طريقة الاختيار، لأن الطبيب يجس بيد واحدة، وكذلك الضارب فليس لذكر اليدين وجه.

ومن جيد ما قيل في صحة عبارة العود عن الغناء قول ابن أبي عون:

تناجيك بالصوت أوتارهُ ... فتوفيك ألسنهُ أحرفه

(١) الدعص: كثيب الرمل.
(٢) الأكفال: جمع الكَفَل: العجز او ردفه.
(٣) دُست: من الثياب والورق.
(٤) الأهزاج والأرمال: ضربان من الإنشاد.
(٥) ابن الحاجب: هو علي بن عبد العزيز بن ابراهيم، شاعر، كاتب، بغدادي، كتب للطائع العباسي ثم للقادر. يُعرف بابن حاجب النعمان. مات سنة ٤٢٣ هـ (الأعلام: ٤/ ٣٠).

وأبين منه قول الناجم:

إذا نَوت الضربَ قبلَ الغناء ... أنشدنا شعرَها عودُها

وقلت:

رُبَّ ليل كساكَ ثوبَ نعيم ... بينَ ساقٍ وسامرٍ ونديمِ
وكؤوس جرَتْ وراءَ كؤوس ... وأعانتْ على طريقِ الهموم
ولنا مزهرٌ كمثلِ فطيم ... في يدي مطرب كأمٍّ الفطيم
وسَموا صدرَهُ بعاجٍ وذيل ... فزهتهُ محاسنُ التوسيم
مثل أرضٍ تحبرتْ بأقاح ... أو سماء تكللتْ بنجوم
ذو ملاوٍ سودِ الفروعِ وحُمر ... مثل أطرافِ فرحةٍ ونعيم
ووسانين لا تجولُ عليهِ ... كخلاخيل ماردٍ وظلوم(١)
أحمر الزير أسود البم أحوى ... هلْ رأيتم جداولَ التقويم(٢)

ومن جيد ما قيل في سرعة الضرب والجس قول كشاجم:

وترى لها عوداً تحركهُ ... وكلامه وكلامها وفقا
لو لم تحركهُ أناملها ... كانَ الهواءُ يفيدُهُ نطقا
جستهُ عالمةً بحالتهِ ... جسَّ الطبيبِ لمدنفٍ عرقا(٣)
فحسبت يمناها تحرِّكهُ ... رعداً وخلت يمينها برقا

وقال بعضهم في رقاص:

عجبتُ من رجليهِ تتبعاته ... يعلوهما طوراً ويعلوانه
كأنَّ أفعيين تلسعانه

ومما لم يقل مثله في إزالة الخِمار، بمعاودة الشرب قول الأعشى:

وكأس شربتُ على لذَّة ... وأخرى تداويتُ منها بها(٤)

كل من أخذ هذا المعنى منه قصر في العبارة عنه، ولا يجوز أن يؤتى بمثله.

قال أبو انواس:

وداوني بالتي كانت هي الداء

فحشا الكلام بما لا وجه له وهو قوله كانت هي الداء.

وقال المجنون:

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر(٥)

---

(١) خلاخيل: جمع خلخال: سوار تضعه المرأة في ساقها. مارد وظلوم: امرأتان.
(٢) الزير والبم: من اوتار العود. احوى: في شفته سواد. والأسود عموماً.
(٣) المدنف: المريض.
(٤) ديوان الأعشى: ١٧٣.
(٥) ديوان المجنون: ٧٠. وصدره: «تداويت من ليلى بليلى عن الهوى».

ولا يقع هذا مع قول الأعشى موقعاً.

ومثله قول البحتري:

تـدوايـتُ من لـيلى بـليلى فـمـا اشتـفى ... من الـداء من قـد بـاتَ بـالـداءِ يشتفي

ومن جيد ما قيل في الدنان والزقاق قول الأخصل:

أنـاخـوا فـجـروا شـاصـيـات

وقد مر.

وقد أحسن ابن المعتز في صفة الدنان:

ودنـانٍ كـمـثـلِ صـفِّ رجـالٍ ... قـد أقيموا لـيـرقصوا دستبنـدا[1]

وقال العلوي الأصفهاني في الزق[2]:

عـجـبـتُ مـن حـبـشـيّ لا حَـراكَ بـه ... لا يـدركُ الـثـأرَ إلا وهـو مَـذْبُـوحُ

طـوراً يـرى وهـو ين الشرب مضـطجعٌ ... رغـو الـزقـاقِ وطـوراً وهـو مـشبـوحُ

وفي ألفاظ العلوي زيادة على معناه في أكثر شعره، وأخذ البيت الأول من قول[3] بشار يصفَ رَكَبَ المرأة:

وصـاحب مـطرق في طـولِ صـحبتـهِ ... لا ينـفـعُ الـدَّهـرَ إلا وهـو محـمـومُ

وإن كان المعنيان مختلفين، إلا أن حذو الكلامين حذو واحد.

وقال ابن المعتز:

إن غـدا مـلآن أمـسـى فـارغـاً ... كـأسـيـر الـزِّقِّ أدى فـعـتـق

وقال القطامي:

اسـتـودعتـهـا رواقيـداً مـقيـرةً ... دكن الظواهر قد برنسن بالطينِ[4]

مكـافحـات لحرِّ الشمس قـائمـة ... كـأنـهـنَّ نـبيطٌ فـي تـبـابـيـن

وقال آخر:

تـحـسـبُ الـزقَّ إذا أسـنـدتـه ... حـبـشـيـاً قـطعـتْ مـنـهُ الـشـوى

وقال العلوي الأصفهاني يصف شراباً في ظرف خزف:

مـخـدَّرَةٌ مـكـنـونـةٌ قـد تـكـشـفـتْ ... كـراهـبـةٍ بـيـنَ الـحـسـانِ الأوانسِ[5]

وأتـرابُـهـا يـلبـسـنَ بـيضَ غـلائـل ... هـيَ العُـريُ مـقـرورٌ بـهـا كـلُّ لابسِ

---

(١) الدّستبند: ضرب من الرقص. (معرّب). والدنان: أوعية الخمرة.

(٢) الزق: وعاء الخمرة.

(٣) ديوانه: ٦٠٣. وفيه: «وصا حب نافع لي».

(٤) مقيرة: شديدة الحموضة.

(٥) مخدّرة مكنونة: مصونة.

مشعشعةٌ مرهاءُ ما خِلتُ أنني أرى مثلها عذراءَ في زيٍّ عانسِ[1]

المعنى جيد وفي الألفاظ زيادة وليس لها حلاوة.

وقال آخر في الراووق[2]:

كأنما الرَّاووقُ وانتصابه خرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُه

وفيه:

سماء لاذ قطرَهْا رحيقُ رَحْبُ الذُّرى ينحط فيه الضيقُ
ماء حقيق لو جرى العقيقُ حتى إذا ألهبها التصفيقُ
صحنا إلى جيراننا الحريقُ

وأنشد أبو عثمان:

فبتُّ أرى الكواكبَ دانياتٍ ينلنَ أناملَ الرَّجلِ القصيرِ[3]
أدافعهن بالكفين عني وأمسحُ عارضَ القمرِ المنيرِ

أبو حكيم فمن حكمت كأسك فيه فاحكم له بإقالة عند العِثار[4].

في ضعف السكر:

فديتك لو علمتَ بضعفِ سكري لما سقيتني إلا بمسعط
بحسبك أنَّ خماراً بجنبي أمُرُّ ببابهِ فأكادُ أسقط

ولابن الرومي في نبيذ حامضٍ:

قد لعمري اقتصصت من كلِّ ضرس كان يجني عليك في رغفانك
قد ردَدناهُ فاتخذهُ لسكبا جك والنائبات من أدقانك
واتخذهُ على خوانِك خلا فهو أولى بالخل من إخوانك[5]
أضرستنا حموضةٌ فيه تحكي رعدة تعتريك من ضيفانك[6]

معنى آخر:

إسقني بالكبير إني كبير إنما يشربُ الصغيرَ الصغيرُ
لا يغرنك يا عبيد خشوعي تحتَ هذا الخشوع فسقٌ كثيرُ

وكان ابن عائشة ينشد:

لما رأيتُ الحظَّ، حظَّ الجاهلِ ولم أرَ المغبونَ غيرَ العاقلِ

---

(١) مَرهاء: بيضاء.

(٢) الرواق: ما يُروّق به الشراب.

(٣) الأنامل: الأصابع.

(٤) العثار: السقوط.

(٥) في الديوان: «خوانك أدما». والخوان: المائدة.

(٦) في الديوان: «ضجرة تعتريك».

رحلت عنا من كروم بابل　　فبتُّ من عقلي على مراحلِ[1]

وقال غيره في نبيذ الدبس:

علني أحمد من الدوشاب　　شربة نفضت سوادَ الشبابِ[2]
لو تراني وفي يدي قدحُ الدو　　شابِ أبصرتَ بازياً في غرابِ

وقال بعضهم في كيزان الفقاع:

لستُ بناف خمار مخمور　　إلا بصافي الشرابِ مقرورِ
يطيرُ عن رأسِه القناع إذا　　نفست عنه خناق مزرور
يميلُ أعلاهُ وهو منتصبٌ　　كأنهُ صولجانُ بللورِ

وقلت:

وأبيض في أحشاء خضر كأنها　　قصارُ رجال في المسول قعودُ

وبعضهم في الطنبور[3]:

مخطفُ الخصرِ أجوفُ　　جيدُهُ نصفُ سائره
أنطقتهُ يدا فتى　　فاتنِ اللحظِ ساحره
فحكى عن ضميرهِ　　ما جرى في خواطره

وقال آخر في المعزفة:

معلنةُ الأوتارِ صخّابةٌ　　لها حنينٌ كحنينِ الغريبِ
مكسوَّةٌ أحشاؤها حُلّةً　　بيضاءَ من جلدِ غزالٍ ربيب
كأنما تسعةُ أوتارهِ　　نُصبنَ أشراكاً لصيد القلوبِ

آخر الباب والحمد لله وحده

(١) بابل: مدينة عراقية مشهورة بالعنب.
(٢) الدوشاب: نبيذ الدبس.
(٣) الطنبور: من آلات الموسيقى.

آخر الباب والحمد لله وحده

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً، شيد بنيانها، ووثق أركانها، فأمنها من التهافت، وبراها من التفاوت ﴿فارجع البصر هل ترى من فُطور، ثم ارجع ِ البصرَ كرّتين، ينقلبْ إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير﴾[1] وصيّر لونَها أوفقَ الألوان لأبصار الناظرين، وأحلاها في أنفس ِ المتوسمين، وحبّرها بالنجوم، وطرّزها بالرّجوم، وبيّض أعلامَ صبحِها، وسوّد ذوائبَ ليلِها، وجلا غُرّة شمسِها، ومسح صفحَة قمرها، وقدّره في منازله، وخالف بين مناظره، لتعلموا عددَ السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق.

وصلى الله على سيدنا محمد، سيد الأنبياء، وأكرم الأصفياء، وعلى عترته وأصحابه المختارين وسلم تسليماً كثيراً.

هذا كتاب المبالغة

في وصف السماء والنجوم والليل والصبح والشمس والقمر
وما يجري مع ذلك وهو:

الباب السادس من كتاب ديوان المعاني ـ ثلاثة فصول

الفصل الأول
في ذكر النجوم

أحسن ما قيل في النجوم من الشعر القديم قول[2] امرىء القيس:

نظرتُ إليها والنجومُ كأنها مصابيحُ رهبان تشبُّ لقُفَّال

(١) سورة الملك: آية ٣، ٤.

(٢) ديوانه: ١٤١. تشب: تُوقد. القُفّال: العائدون.

وقول الآخر:

سرينا بليلٍ والنجومُ كأنها ... قلادَةُ دَرٍ سُلَّ عنها نظامُها[1]

وقد أصاب القائل التشبيه في قوله:

ورأيتُ السماءَ كالبحرِ إلا ... أنَّ مرسوبه من الدُّرِّ طافي

فيه ما يملأ العيونَ كبير ... وصغيرٌ ما بينَ ذلك خافي

المعنى جيد وليس للألفاظ رونق.

وقال ابن طباطبا في معناه:

أحسن بها لججاً إذا التبسَ الدُّجى ... كانتْ نجومُ الليلِ حصباءَها

وأحسن من هذا كله لفظاً وسبكاً مع إصابة المعنى قول ابن المعتز:

كأنَّ سماءَها لما تجلتْ ... خلال نجومها عندَ الصباحِ

رياضُ بنفسج خضل نداه ... تفتحَ بينها نورُ الأقاحي

إلا أنه مضمن.

وقلت:

لبسنا إلى الخمارِ والنجمُ غائرٌ ... غِلالةَ ليلٍ بالصباح مطررِ[2]

كأن بياضَ النجم في خضرة الدُّجى ... تفتحَ وردٍ بينَ رَندٍ وعبقرِ[3]

وقلت:

كم سرور زَرَعتُ بينَ الندامى ... وهموم طرَدْتُ بينَ الكؤوس

وتلوح النجومُ في ظلمةِ الليلِ ... كعاج يلوحُ في أبنوسِ[4]

وقلت:

بليل كما ترنو الغزالةُ أسود ... على أنه من نورٍ وجهك أبيضُ

كواكبه زهرٌ وصفرٌ كأنها ... قبائع منها مذهبٌ ومفضضُ

وفي النجوم ما هو أبيض، ومنها ما هو أصفر وأحمر، فشبه الأبيض بقبيعة مفضضة، والأصفر والأحمر بالمذهبة، والذهب يوصف بالحمرة والصفرة، ومثل هذا التمييز قليل في الشعر.

وقال ابن المعتز.

---

(١) سرى: سار ليلاً.

(٢) الغِلالة: الثوب الرقيق.

(٣) الرّند: شجر طيب الرائحة.

(٤) الأبنوس: ضرب من الشجر.

وخلتُ نجومَ الليلِ في ظُلَمِ الدُّجى ... خِصاصاً أرى منه النهار وَأنقابا[1]

وقد أحسن الناشيء القول في اشتباك النجوم والتفافها حيث يقول:

وردتُ عليها والنجومُ كأنها ... كتائبُ جيشٍ شوّمتْ لكتائبِ

وقلت:

وأنجم كربربٍ في شُهب ... كالشهبِ تجري في خلالِ خطبِ[2]
والحور ترنو من خلال الحجب

ومن أحسن ما قيل في الثريا قول[3] امرىء القيس:

إذا ما الثريا في السماء تعرضتْ ... تعرضَ أثناء الوشاحِ المفصلِ[4]

وقد استحسن الناس هذا البيت، في صفة الثريا على قديم الدهر وقدموه، ثم قال بعضهم، وهو معيب، لأن التعرض إنما هو أن يبدي لك عرضه، أي جانبه قال: والثريا تشق وسط السماء شقاً.

وقالوا: أحسنه قول[5] ذي الرمة:

وردتُ اعتسافاً والثريا كأنها ... على قمّةِ الرأسِ ابنُ ماء محلِّق[6]

وقالوا أحسنه قول ابن الطثرية:

إذا ما الثريا في السماء كأنها ... جمانٌ وهي من سِلكهِ فتبدّدا

أنشد عبد الملك بن مروان هذا البيت، فقال: ما هي بمتبددة ولكنها مرصوفة. قال أبو هلال.

وإنما أرادها عند غروبها وهي متبددة عند الغروب وامرؤ القيس أيضاً أرادها حين تغيب، لأنها حينئذ تنحرف من وسط السماء إلى جانب، وأحسن الوصف ما يتضمن أكثر صفات الموصوف، والوشاح وابن الماء إنما شبها بها من جهة البياض فقط. وأخذ معنى ابن الأسلت بعض المحدثين فقال:

قد انقضتْ دولةُ الصيام وقد ... بشرَ سقمُ الهلالِ بالعيدِ
تبدو الثريا كفاغرٍ شرهٍ ... يفتحُ فاهُ لأكلِ عنقودِ

والأول أجود لذكر [[7]] وهذا ذكر العنقود ولم يصفه وقد يكون العنقود أسود أو أحمر.

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: أجود ما قيل فيها قول الآخر:

---

(١) البيت في ديوان ابن المعتز: ٣٤.

(٢) ربرب: قطيع.

(٣) ديوانه: ٣٩.

(٤) اثناء: واحدها ثني: وسط.

(٥) ديوان ذي الرّمة: ٦٥.

(٦) ابن ماء: من الطيور.

(٧) فراغ في الأصل.

ولاحتْ لساريها الثريا كأنها على الأفق الغربيّ قرطٌ مسلسلُ

أخذه ابن الرومي فقال[1]:

طيّبٌ طعمهُ إذا ذُقْتَ فاهُ والثريا في جانبِ الغربِ قُرطُ[2]

وقد قصر عن الأول أيضاً، ومثله قول أبي فضلة:

وتأملتُ الثريا في طلوع ومغيبِ
فتخيرتُ لها التشبيهَ بالمعنى المصيبِ
فهي كأسٌ في شروقٍ وهي قُرطٌ في غروب

وقلت:

شربنا والنجومُ مغفراتٌ تمرُّ كما تصدّعتِ الزّحُوفُ
وقد أصغت إلى الغرب الثريا دنو الدلو يسلمها الضعيفُ

وأجود ما قال فيها محدث عندي قول بعضهم:

كأنَّ الثريا هودجٌ فوقَ ناقةٍ يسيرُ بها حادٍ من الليل مزعج
وقد لمعتْ بينَ النجومِ كأنها قواريرُ فيها زئبقٌ يترجرج

وتروى لابن المعتز، وفي ألفاظ البيتين زيادة على معناهما.

وقال مخلد الموصُلي:

وترى النجومَ المشرقا تِ كأنها دُررُ العِصابه[3]
وترى الثريا وسطَها وكأنها زَرَدُ الذؤابه[4]

وزرد الذؤابة يشبه نجومها وتأليفه يشبه تأليفها فهو تشبيه مصيب.

وقال[5] ابن المعتز:

فناولنيها، والثريّا كأنّها جنى نرجسٍ حيّا الندامى بِهِ السّاقي

قالوا: لو قال باقة نرجس كأن أتم.

فقلت:

أراعي نجومَ الليل وهي كأنها نواظر ترنو من براقعِ سندسِ
كأنَّ الثريا فيهِ باقة نرجس وما حولها منهنَّ طاقات نرجسِ

وأنشدني بعض العمال:

رُبَّ ليلٍ قطعتهُ بفنون من غناءٍ وقهوة ومُجونِ[6]

---

(١) ديوانه: ٤/ ٧٥.
(٢) في ديوانه: «طيب ريقه».
(٣) العصابة: ما يُشد به على الرأس.
(٤) الذؤابة: الضفيرة.
(٥) ديوانه: ٣٠٢.
(٦) القهوة: الخمرة.

والثريا كنسوةٍ خفِراتٍ قد تجمعنَ للحديثِ المصونِ[1]

وقد أحسن وأطراف. وقد أصابَ القائل بعضَ وصفِها في قوله:

كأن الثريا حلة النور منخل

وقال ابن المعتز:

ألا فاسقنيها والظلامُ مقوّض وخيلُ الدُّجى نحرَ المغارب تركضُ
كأنَّ الثريا في أواخرِ ليلها تفتحُ نَوْرٍ أو لجامٌ مفضضُ[2]

وشبهت بالقدم.

قال[3] ابن المعتز:

قمْ، يا نديمي نصطبحْ بسوادِ قد كاد يبدو الصبحُ، أو هو بادِ
وأرى الثريا في السماءِ كأنها قَدَمٌ تبدَّتْ في ثيابِ حدادِ

وقلت:

كأنَّ نهوضَ النجمِ والأفقُ أخضرُ تبلجُ ثَغرٍ تحتَ خُضرةِ شاربِ

وقلت:

تلوحُ الثريا والظلامُ مقطبٌ فيضحكُ منها عن أغرَّ مفلجِ
تسيرُ وراءَ والهلالُ أمامها كما أومأتْ كفٌّ إلى نصفِ دملجِ[4]

وقلت:

شمسٌ هَوَتْ وهلالُ الأفق يتبعها كأنها سافرٌ قدّام منتقبِ
تبدو الثريا، وأمرُ الليلِ مجتمعٌ كأنها عَقرَبٌ مقطوعةُ الذنبِ

وأحسن ما قيل فيها عند طلوع الفجر قول الآخر:

وكأنَّ الصبحَ لما لاحَ من تحتِ الثريا
ملكٌ أقبلَ في التاجِ يُفدّى ويُحيّا

وقلت:

وبالثريا أثرُ الخمودِ كالنارِ لا تسعفُ بالوقودِ
في أنجمٍ كربربٍ في بِيْدِ يلوحُ في التصويبِ والتصعيدِ[5]
كشرَفاتِ فَدَنٍ مشيَّدِ[6]

وقلتَ:

---

(١) نسوة خَفِرات: فيهن حياء.

(٢) مفضض: صنع من فضة.

(٣) ديوانه: ١٥٦.

(٤) الدُّملج: المعضد.

(٥) الربرب: القطيع من بقر الوحش. بيد: جمع بيداء: صحراء.

(٦) فَدَن: قصر.

قـمْ بـنـا نـطرُدُ الـهـمـومَ بـكـأسٍ   والـثريـا لـمـفـرقِ الـليـلِ تـاجُ
وقـد انـجـرَّتِ الـمـجـرَّةُ فـيـهِ   كـسـبـيـبٍ يـمـدُّهُ نـسـاجُ[1]

وقال العلوي الأصفهاني في حسن الاستعارة:

رُبَّ لـيـلٍ وهـتْ لآلـى دُمـوعـي   فـيـهِ حـتـى وَهـتْ لآلـي الـثـريـا
ورِداءُ الـدُّجـى لـبـيسٌ دريسٌ   بـيـدِ الصبـحِ وهـو يـطويـهِ طـيـا[2]

وشبه أبو فراس الثريا بالفخذ من النمر، وهو من المقلوب، لأن أنجم الثريا بيض والنقط على فخذ النمر سود.

وقال السري:

تـرى الـثـريّـا والبـدر في قـرَنٍ   كـمـا يـحـيـا بـنـرجسٍ مـلـكُ

أجود ما قيل في الجوزاء من الشعر القديم قول كعب الغنوي[3]:

وقـد مـالـت الـجـوزاءُ حتى كـأنـهـا   فـسـاطـيطُ ركـبٍ بـالـفـلاةِ نـزولُ[4]

ولو شبهها بفسطاط واحد كان أشبه.

ومن شعر المحدثين قول ابن المعتز فيها وفي الثريا:

وقـد هـوى الـنجمُ والجـوزاءُ تـتـبـعـهُ   كـذاتِ قُـرطٍ أرادتْـهُ وقـد سـقـطا

مع أن المصراع الأخير غير مختار الرصف، والنجم اسم مخصوصة به الثريا.

وقال فيها وفي الشعرى العبور:

ولاحـتِ الـشـعـرى وجـوزاؤهـا   كـمـثـلِ رُمـحٍ جَـرَّهُ رامـحُ

وقلت:

سقـاني والجـوزاءُ يحكي شـروقهـا   طفـوُ غـريقٍ فـوقَ مـاءٍ مـطحلبُ

وهذا وصفها عند طلوعها.

وقلت فيها حين توسط السماء:

شـربـتـهـا والـلـيـلُ مُـسـتـوْفـزٌ   يـجـرُّ فـي جـلـبـابـهِ كـوكـبـه
كـأنـمـا الـجـوزاءُ رَقـاصـةٌ   تـرقصُ فـي مـنـطقـةٍ مـذهـبـه
كـأنـهـا الـجـوزاءُ طـبـالـةٌ   تحتضنُ الـطبـلَ على مـرقبـه

وقلت فيها عندَ غروبها:

إسـقـنيهـا والـلـيـلُ فـرعُ عـروس   زَيَّـنُـوهُ بـدُرَّةٍ وجُـمـانـه[5]

---

(١) السبيب: الخصلة من الشعر.
(٢) ثوب لَبيس دَريس: خَلَق.
(٣) الغَنَوي: هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي. شاعر جاهلي مات سنة ١٠ ق. هـ.
(٤) الجوزاء: من أبراج السماء. فساطيط: جمع فسطاط: مدينة.
(٥) الدرّة والجمانة: اللآلىء الكبار والصغار.

وكأنَّ الجوزاءَ حينَ تهاوتْ فارسٌ مالَ عن سراةِ حصانه[1]

وقال آخر:

وكأنَّ الجوزاءَ واترُ قوم أخذوا وترهم بقطع يَديْه

وقد استحسن قول العلوي الأصفهاني فيها:

وتلوحُ لي الجوزاءُ سكرَى كلما ناءتْ بها الجرباءُ كادتْ تنثني
ونطاقُها متراصفٌ في نظمهِ فكأنما انتطقتْ بقطعةِ جوشنِ[2]

الجرباء إسم للسماء، وفي ألفاظها تكلف كما ترى والمعنى جيد.

وقلت:

وليلٍ أسود الجلبابِ داجٍ كفرعِ الخودِ أو عينِ الغزالِ[3]
كأنَّ كواكبَ الجوزاءِ فيه زميلةُ مفجرَّة البُزالِ[4]
تميسُ بالحلي، قُرط الثريا إذا انخفضتْ وتوّج بالهلال
ركبتُ صدورَهُ وتركتُ خيلي توالي تحتَ أنجمهِ التوالي
ويخبطنَ الصباحَ إذا تبدّى كما يكرعنَ في الماءِ الزُّلالِ

ومن ظريف ما قيل في الشِّعرى[5]، قول عبد العزيز بن عبد الله بن طاهر:

أقولُ لما هاجَ شوقُ الذِّكرى واعترضتْ وسطَ السماءِ الشِّعرى
كأنها ياقوتةٌ في مِدرى ما أطولَ الليلَ بسرَّمرَّى[6]

وقد أكثروا من وصفها بالعبر وأخذوا ذلك من اسمها وهو العبور.

أحسن ما قيل في سهيل، وبعده من الكواكب قول بعضهم:

ولاحَ سُهيلٌ من بعيدٍ كأنه شهابٌ ينحيه عن الرُّمح قابسُ

وقال ابن المعتز[7]:

وقد لاحَ للساري سهيلٌ كأنهُ على كلِّ نجم في السماء رقيبُ

وأجود ما قيل في خفقانه واضطرابه قول جِران العَوْد[8]:

---

(١) سراة الشيء: أعلاه.

(٢) الجوشن: الدرع.

(٣) الفرع: الشعر. الخَوْد: الشابّة.

(٤) في بعض النسخ: «زميرة مفجرة». ومفجّرة البُزال: مثقوبة.

(٥) الشِّعرى العَبُور والشِّعرى الغُميقاء: أختا سهيل.

(٦) المِدرى: المشط سرّمرّى: هي سر من رأى. مدينة في العراق كانت عاصمة للمعتصم العباسي.

(٧) ديوانه: ٧٠.

(٨) جران العود، شاعر وصّاف. اسمه عامر بن الحارث النميري. أدرك الإسلام. (الأعلام: ٣/ ٢٥٠).

أراقبُ لمحاً من سهيلٍ كأنَّهُ ... إذا ما بدا من آخرِ الليلِ مطرفُ(١)

وقلت:

وبسهيل رعدَةُ المزؤودِ ... وهو من الأنجمِ في محيدِ

حلَّ محلَّ الرَّجلِ الطريدِ(٢)

وقال ابن طباطبا في المعنى الأول:

كأنَّ سهيلاً والنجومُ أمامهُ ... يعارضُها راعٍ أمام قطيعِ

أجود ما قيل في النسر الواقع قول الحماني:

وركب ثلاث كالأثافي تعاوروا ... دُجى الليل حتى أومضتْ سنة البدرِ

إذا اجتمعوا سميتهمْ باسم واحد ... وإن فرقوا لم يعرفوا آخرَ الدهرَ

وهو من اللغز المليح.

ومن جيد ما قيل في الفرقدين قول(٣) ابن المعتز:

ورنا إليَّ الفرقدان كما رَنَتْ ... زرقاءُ تنظرُ من نقابٍ أسودِ(٤)

وفي المجرة قول بعضهم:

كأنَّ المجرَّةَ جدولُ ماءٍ ... نورُ الأقاحِ في جانبيه

وقال ابن طباطبا:

مجرَّةٌ كالماءِ إذا ترقرقا ... شقتْ بها الظلماءُ بُرداً أزرقا

لباسُ ثكلى وشيها المشقَّقا(٥)

ونقله إلى موضعٍ آخر فقال:

كأنَّ التي حولَ المجرَّة أوردتْ ... لتكرَعَ في ماءٍ هناك صبيبِ(٦)

فوجدته متكلفاً جداً.

فقلت في معناه:

ليلٌ كما نفضَ الغرابُ جناحَه ... متبقع الأعلى بهيم الأسفلِ

تبدو الكواكبُ من فتوقِ ظلامهِ ... لمع الأسنةُ من فتونِ القسطلِ

وترى الكواكبَ في المجرَّة شُرَّعاً ... مثلَ الظِّباء كوارعاً في جدول

وقلت:

---

(١) (الأعلام: «أراقب لوحاً. «. . . الليل يطرف».

(٢) المزؤود: المذعور.

(٣) ديوانه: ١٤٠.

(٤) الفرقدان: نجمان. النّقاب: الغطاء.

(٥) الثكلى: التي فقدت ولدها.

(٦) صبيب: ينصب.

تبدو المجرّة، منجرٌّ ذوائبُها ... كالماءِ ينساح أو كالايّم ينسابُ
وزهرةٍ بإزاء البدرِ واقفة ... كأنه غرض ينحوه نشّابُ

أغرب ما قيل في صفة الهلال من الشعر القديم قول الأعرابي:

كأنَّ ابنَ مزنتهِ جانحاً ... قسيطٌ لدى الأفقِ من خنصرِ

أي كأن ابن مزنته، وهو الهلال لدى الأفق، قسيط من خنصر، والقسيط القلامة. وهذا لبيت على غاية سوء الرصف.

وقد أخذه ابن المعتز فحسنه في قوله[1]:

ولاحَ ضوءُ هلالٍ، كادَ يفضحه ... مثل القُلامةِ قد قُدَّت من الظُّفُرِ

وقال ابن طباطبا:

وقد غمض الغرب الهلال كأنما ... يلاحظُ منه ناظر ذات أشفارِ
كأنَّ الذي أبقى لنا منهُ أفقه ... قصيصُ سوارٍ أو قراضةُ دينارِ

ولا خير في رصف قوله:

كأن الذي أبقى لنا منه أفقه

ومن غريب ما قيل فيه وعجيبه قول ابن المعتز:

إذا الهلالُ فارقتهُ ليلته ... بدا لمن يبصرُه وينعته
كهامةِ الأسود شابتْ هامته

قد سَبق إلى هذا المعنى ولم يأخذه من أحد أعرفه، ونقله إلى موضع آخر فقال[2]:

وقد بدا فوقَ الهلال كرتهْ ... كهامةِ الأسود شابتْ لحيتهُ

ومن أطرف ما قيل فيه قوله أيضاً:

أهلاً بفطرٍ قد أنارَ هلاله ... فالآن فاغدُ إلى المدام وبكر
وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ ... قد أثقلتهُ حمولةُ من عنبرِ

وقال:

في ليلةٍ أكلَ المحاقُ هلالَها ... حتى تبدَّى مثلَ وقفِ العاجِ

وقلت:

لست من عاشقٍ أضلَّ السبيلا ... فسقى دمعُه الهطولُ طلولا
بردَ الليلُ حينَ هبت شمالا ... فجعلت الصلاءَ فيها الشمولا[3]
في هلال كأنَّهُ حيَّةُ الرَّمـ ... ـل أصابتْ على البقاع مقيلا

---

(١) ديوانه: ٢١٩. وفيه: «كاد يفضحنا».

(٢) ديوانه: ٤٢١. وفيه: «وقد بدت».

(٣) الصلاء: النار. الشمول: الخمرة.

بـاتَ في مِعصم الـظلامِ سـواراً وعلى مفـرقِ الـدُّجـى إكـليـلا

وقلت:

وكـؤوسٍ إذا دجى الـليـلُ أسـرت تحتَ سقفٍ مـرصَّـعٍ بـاللجينِ[1]
وكـأنَّ الـهـلالَ مـرآة تـبـرٍ تـنجـلي كـلَّ ليـلةٍ أصـبـعيـنِ

هذا البيت يتضمن صفته من لدن هو هلال إلى أن يتم.

وقلت في هلال شهر رمضان:

جلبَ المجـاعـةَ ضـامـرٌ بخـل قـد خلتُ فيـه لضعفـه سـلاّ
طـفـلٌ ولـكـنْ أمـرُه عـجـبٌ قـد عـاد بعـد كهـولـةٍ طـفـلا
قـد كـانَ حمـل ليلتيـن فلم تـرَ مـثـله طـفـلاً ولا حـمـلا
ومن العجـائـبِ أن يعـودَ فتى في سبـعَ عشـرةَ ليـلةً كـهـلا

وقال السري:

قمْ يـا غـلامُ فهـاتها في كـأسِها كـالجلّنـارةِ في جنى نِسـريـن[2]
أو مـا رأيت هـلال شهـرك قد بـدا في الأفقِ مـثـل شعيـرة السكّينِ

جعل الزجاج كأساً ولا يقال كأس، إلاّ إذا كانت مملوءة، ولا أعرفه سبق إلى هذا التشبيه.

وقال بعضهم:

والجـوُّ صـافٍ والهـلالُ مشنّفٌ بـالزُّهـرة الزَّهـراءِ نحو المغـربِ
كـصحيفـةٍ زرقـاءَ فيـهـا نـقـطةٌ من فضـةٍ من تحت نـون مـذهبِ

جعل النقطة تحت النون والعادة أن تكون فوقها.

وقلت:

والـعيـد زيَّـن لـلعيـونِ هـلالـهُ فـرَمقْنَ منـهُ حـاجبـاً مقـرونـا
يبـدو، ويبـدو النجمُ فـوقَ جبينـهِ وكـأنَّ جُنـحَ الليـلِ ينقطُ نـونـا

وقد استحسنت للعلوي الأصفهاني قوله:

لاحَ الـهـلالُ فُـويْـقَ مـغـربـهِ والـزُّهـرةُ الـزَّهـراءُ لـم تـغـب
تـهـوي دوين مـغـيـبـهـا فـهـوتْ تـبكي بـدمـعٍ غَيـرِ منـسكـب
فـكـأنـهـا أسـمـاءُ بـاكـيـةٌ عنـدَ انفصامِ سِـوارِهـا الـذّهبِ

ومن البديع قول الآخر:

لـم أنس دجلةَ والـهـوى مُتـضـرِّم والبـدرُ في أفـقِ السمـاءِ مُغـرِّبُ
فـكـأنـهـا فـيـه رداءٌ أزرقٌ وكـأنـه فـيهـا طـرازٌ مُـذهـبُ

---

(1) اللجين: الفضة.
(2) الجلّنار: زهر الرمان الأحمر. والنسرين: من الزهور العطرية

حق الدجى أن تؤنث لأنها جمع دجية.

وقلت:

كـأنَّ الـهـلالَ الـشـهـرَ قـطعـةُ دملجٍ ... تـلوحُ على أعـضـاء معـتـكـر عـاسِ[1]

تـرى الـزهـرةَ الـزهـراء تهـوي وراءه ... كمـا مرَّ سهمٌ قـاصدٌ نحـوَ قـرطـاسِ

ومن أجود ما سمعته في الليلة المقمرة ما أنشدنيه أبو أحمد:

هـل لـك في ليلة بيضـاءَ مقـمـرةٍ ... كـأنـهـا فـضـةٌ ذابـتْ عـلى الـبـلدِ

وقلت:

كـم تـنـاولـتُ الـلذاذةَ مـن كـثـبٍ ... والـدَّهـرُ مسكـونُ الحـوادثِ والنّـوَبِ

في لـيـلةٍ قـمـراءَ تـحـسـبُ أنـهـا ... تـلقـى عـلى الآفـاقِ أرديـةَ قـصـبِ

ومن البديع قول[2] ابن المعتز:

مـا ذُقتُ طعمَ النوى لـو تـدري ... كـأنـمـا جنَـبـيّ عـلى جَـمـرِ

فـي قَـمـرٍ مـشـرقٍ نـصـفُـه ... كـأنـه مـجـرفـةُ الـعِـطرِ

فـريـسـةٌ لـلبـقِّ مـنـهـوشـةٌ ... قـد ضـعُـفتْ كفّي عنِ النّـصـرِ

وقال في ذم القمر[3]:

وبـات كـمـا سـرَّ أعـداؤهُ ... إذا رامَ قـوتـاً مـن الـنَّـوم شَـذّ

تـعـزّه شـرراتُ الـبـعـوضِ ... في قمـرٍ مـثـلِ ظهـرِ الـجُـرَذْ

(1) الدملج: المِعضد. العَوْس: الطّوَفان بالليل.

(2) ديوانه: ٢٢٥.

(3) ديوانه: ١٦٩.

الفصل الثاني من الباب السادس

في ذكر ظلمة الليل وطوله وقصره وما يجري مع ذلك من سائر أوصافه

فمن أحسن ذلك قول ذي الرمة:

وليــلٍ كجلبــابِ العــروسِ ادرعتــه بـأربعـةٍ والشخصُ في العين واحــدُ[1]
أحــمَّ عــلافــيٍّ وأبـيض صـارمٌ وأعــيسُ مـهــريٌّ وأروع مــاجــدُ[2]

فأخذه ابن المعتز ونقله إلى ما هو أظرف لفظاً منه وهو قوله[3]:

وليــلٍ كجلبابِ الشبــابِ قـطعتــهُ بفتيــان صـدقٍ يملكــونَ الأمــانيــا

جلبابُ الشباب أظرف من جلباب العروس.

قالوا: من أبلغ ما قيل في ظلمة الليل قول مضرّس بن ربعي[4]:

وليــلٍ يقــولُ النــاسُ من ظـلمــاتــهِ سـواء صحيحـاتُ العيـونِ وعـورُهــا[5]
كــأنَّ لَنــا منــهُ بيــوتــاً حـصينــةً مســوحٌ أعـاليهــا وسـاج كســورهـا[6]

وقريب من هذا قول الأعرابي:

خرجنا في ليلة حندس، قد ألقت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلّا بالأذان.

وقلت في هذا المعنى:

ولـيـلةٍ كـرجـائي في بـنـي زمـنـي مُســوَدَّة الـوجـهِ منسـوبـاً إلى الفحمِ

---

(١) في الأصل: «ودعته . . . بأربعة».

(٢) أحمّ: أسود. علافي: نسبة إلى علاف: حي من العرب. الأعيس: الأبيض. المهرى: نسبة إلى مهرة: حي باليمن.

(٣) ديوان ذي الرمة: ٤١٧.

(٤) هو مضرّس بن ربعي بن لقيط الأسدي. شاعر جاهلي حسن التشبيه.

(٥) في زهر الآداب: البيتان لابن محكان السعدي.

(٦) في زهر الآداب: «مسوحاً أعاليها وساجا».

سَــدَّتْ على نـظرِ الـرائيـنَ منهجـهُ ... حتى تـعـارَفَت الأشـخـاصُ بـالكـلم
لا أسـامُ الجهـدَ فيهـا أن أكـابـدهُ ... ولا تـرى صـاحبَ الحـاجـاتِ ذا سـأم
أحـاولُ الـنـجـحَ فـي أمـرٍ أزاولـهُ ... والنجحُ في دلجاتِ الأينقِ الرُّسمِ (١)

ومن جيد التشبيه قول أبي تمام:

إليـكَ هتكنـا جنـحَ ليـل كـأنـه ... قـد اكتحلتْ منه البلادُ بـاثمـدِ(٢)

أخذه من قول(٣) أبي نواس:

أينْ لي كـيفَ صِـرتَ إلى حـريمي ... وجـنـحُ الـليـلِ مكـتـحِـلٌ بـقـارِ؟

وقول أبي تمام أجود، لأن الاكتحال بالإثمد لا بالقارة.

وأظرف ما قيل في ذلك قول(٤) مسلم بن الوليد:

أجـدكِ مـا تـدريـنَ أنْ ربَّ لـيلةٍ ... كـأنَّ دُجاهـا من قرونِـك تُنشـرُ
صبـرتُ لهـا حتى تـجلتْ بـغُـرَّةٍ ... كغـرَّةِ يحيى يـومَ يـذكـرُ جعفـرُ

وقد طرف القائل في قوله:

لا تَـدْعـنـي لَـصـبُـوحٍ ... إنَّ الـغـبـوقَ حـبـيـبـي(٥)
فـالـلـيـلُ لـوّن شـبـابـي ... والـصـبـحُ لـوّن مشـيـبـي

ومن الاستعارة قول ذي الرمة:

ودَوِّيَّـةٍ مثـلِ السـمـاءِ عسـفتـهـا ... وقـد صبغَ الليـلُ الحصى بسـوادِ(٦)

أخذه البحتري فقال وقصر:

على بـاب قنسرين والليـلُ لاطخٌ ... جـوانبـهُ من ظلمـةٍ بمـداد(٧)

ليس البيت على السكة المختارة وقوله «لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد» من بعيد الاستعارة.

وأخذ ابن أبي طاهر قول مسلم:

كـأن دجـاهـا مـن قـرونـك تـنـشـر

فقال:

سقتني في ليلٍ شبيهٍ بشعرِها ... شبيهـةَ خَـدَّيهـا بغيـرِ رقيـبِ

فوقع بعيداً عنه واختلّ في النظم وأقلق القافية.

---

(١) الأيْنق: جمع الناقة.
(٢) في ديوانه: ٩٣.
(٣) ديوان ابي نواس: ٢٤٧. وفيه: «ونجم الليل».
(٤) العقد الفريد: ٥/٣١٧.
(٥) الصَّبُوح والغَبُوق: شراب الصبح والمساء.
(٦) ديوان ذي الرّمة: ٢٦١.
(٧) قنسرين: بلد.

وقلت في معناه:

تسقيك في ليلٍ شبيهٍ بفرعِها ... شبيهاً بعينيها وشكلاً بخدِّها
فتسكر من عينٍ وكأسٍ ووجنةٍ ... تحييك أعقابُ الكؤوسِ بوردِها

ومن البديع في هذا المعنى قول[1] ابن المعتز:

أرقت له، والرّكبُ ميلُ رؤوسهم ... يخوضونَ ضحضاحَ الكرى وبهم قرُّ[2]
علاهمْ جليدُ الليلِ حتى كأنهم ... بُزاةٌ تجلى في مراقبها قمرُ
إلى أن تعرَّى النجم من حُلةِ الدُّجى ... وقالَ دليلُ القومِ: قد نقبَ الفجرُ
وقدوا أديمَ الفجرِ حتى ترفعتْ ... لهم ليلةٌ أخرى كما حوّمَ النسرُ[3]

وقال ديك الجن:

سيرضيك أني مسخطٌ فيك كاشحاً ... ومرتقبٌ هولان موت مرقبُ
وجانب ليلٍ تعلق قطعة ... بقطعة صبحٍ لانثنتْ وهي غيهبُ

وقلت:

ومَدَّ علينا الليلُ ثوباً منمّقا ... وأشعلَ فيهِ الفجر فهو محرقُ
وصبّحنا صُبحاً كأنَّ ضياءَهُ ... تعلّم مِنّا كيف يبهى ويشرقُ

وقال ابن المعتز:

فخلتُ الدُّجى والليلُ قد مَدَّ خيطه ... رداءً موشى بالكواكب معلما

وهو من قول الله تعالى: ﴿الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾[4]. ومن أتم أوصاف الظلمة، الذي ليس في كلام البشر، مثله قول[5] الله عز وجل: ﴿أوْ كَظُلُماتٍ في بحرٍ لُجّيٍ يَغشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلماتٌ بعضُهَا فَوْقَ بَعضٍ﴾. وقال الأصفهاني العلوي:

وَرُبَّ ليلٍ باتتْ عساكرُهُ ... تحملُ في الجوِّ سودَ راياتِ
لامعة فوقها أسنتها ... مثل الأزاهير وسطَ رَوضاتِ

ولست أورد أكثر شعره، إلّا لإصابة معناه، دون لفظه، لأن أكثر لفظه متكلف، وجل صنعته فاسد، وهذا من العجب، لأنه من أكثر الناس نقداً لشعر غيره، وقد صنف كتاب عيار الشعر فأجاده، وهو إذا أراد استعمال ما ذكرناه، لم يكمل له، فهو كالمسن يشحذ ولا يقطع.

ومن أحسن الاستعارة في ذكر الليل قول ابن أبي فنن:

---

(١) ديوانه: ١٨٠.

(٢) الضحضاح: الماء اليسير. الضحضح: جري السراب.

(٣) في الديوان: «حلّق».

(٤) سورة البقرة: آية ١٨٧.

(٥) سورة النور: آية ٤٠.

أقــولُ وجنــحُ الــدُّجى ملبــدُ ... ولــليــل فــي كــلِّ فــجٍّ يــدُ
ونحنُ ضجيعــان في مسجــدٍ ... فللّه مــا ضمــنَ المــسـجــدُ
أيــا ليلة الــوصــل لا تنفــدي ... كمــا ليلةُ الهجــر لا تنفــذُ
يــا غــدُ إن كنت لــي راحــمــاً ... فــلا تــدنُ من ليلتي يــا غــدُ

وقال السري:

وشرَّد الصبحُ عنا الليلَ فاتضحت ... سطورُه البيضُ في راياتِــه السودِ

وقلت:

ليلٌ كفرعِ الخـودِ تخلفه ضحى ... زهـراءُ مثل عـوارض الزهــراءِ[1]
عبقت بــأنفاس الــرِّيــاض كــأنما ... نفض الــرَّقيب غــلالــة الــدلتــاءِ

وقلت:

والــليــلُ يمشي مشيــةَ الــوئيــد ... في الخضــرِ من لبــاســهِ والســودِ
والــصبــحُ فــي أخــراه ثــانــي الــجيــدِ

فأما أجود ما قيل في طول الليل، من الشعر القديم فقول[2] امرىء القيس:

وليــلٍ كموجِ البحــرِ أرخى سـدولَـه ... علــيَّ بــأنــواعِ الهمــومِ ليبتــلي
فــقــلْــتُ لــه تــمــطى بــصــلبــه ... وأردف أعجــازاً ونــاءَ بكلكــلِ[3]
ألا أيهــا الليــلُ الــطويــلُ ألا انجــل ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بــأمثلِ

وهذا من أفصح الكلام وأبرعه، إلّا أن فيه تضميناً يلحق به بعض العيب، وهو من أدل شيء على شدة الحب، والهم، لأنه جعل الليل والنهار سواء عليه، فيما يكابده من الوجد والحزن، وجعل النهار لا ينقصه شيء من ذلك، وهذا خلاف العادة، إلّا أنه دخل في باب الغلو.

والذي أخبرنا بما في العادة الطرماح في قوله[4]:

ألا أيهــا الليــلُ الــطويــلُ ألا أصبــح ... بصبــح ومــا الإصبــاحُ منــك بــأروحِ

فهذا معنى قول امرىء القيس، ثم استدرك فقال:

على أنَّ للعينينِ في الصبــح راحــةً ... بــطرحيهمــا طرفيهمــا كــلَّ مــطرحِ

فجاء بما لا يشك أحد في صحته، إلّا أن لفظه لا يقع مع لفظ امرىء القيس موقعاً، والتكلف في قوله:

بــطــرحيــهــمــا طــرفــيــهــمــا كــل مــطــرح

بين والكراهة فيه ظاهرة.

---

(١) الفرع: الشعر. الخود: الشابّة.

(٢) ديوان امرىء القيس: ٤٨.

(٣) الكلكل: الصدر، وما بين الترقوتين.

(٤) الأغاني: ١٢/ ٣٥.

وقال[1] ابن الدمينة في معنى قول الطرماح:

أظلُّ نهاري فيكم متعللاً ... ويجمعني والهمّ بالليلِ جامع

وقال المجنون:

يضمُّ إليَّ الليلُ أطفالَ حبها ... كما ضمَّ أزرارَ القميصِ البنائقُ[2]

جعل ما ينشأ من الهم بالليل أطفالا، وفي هذا المعنى يقول[3] النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصب ... وليل أقاسيهِ بطيء الكواكبِ

تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليل الذي يرعى النجومَ بآيبِ[4]

وصدرٍ أراحَ الليل عازبَ همه ... تضاعف فيه الحزن من كلِّ جانبِ

فجعل الهمّ يأوي إلى قلبه بالليل كالنعم العازبة، تريحها الرعاة مع الليل إلى أماكنها، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل.

وقلت:

وذكرنيهِ البدرُ والليل دونهُ ... فبات بحدِّ الشوق والصبر يلعبُ

كذكرى الحمى والحي في منعج اللوى ... وذكر الصبا والرأس أخلس أشيب[5]

فأزدادُ في جنح الظلامِ صَبابةً ... فلا صعبَ إلاّ وهو بالليلِ أصعبُ

وقلت:

ورأيتُ الهمومَ بالليلِ أدهى ... وكذاك السرورُ بالليلِ أعذبُ

ومما استجدت من شعر أبي بكر الصولي[6] في معنى امرىء القيسِ قوله:

أسرَ القلب في هواهُ وسارا وتجني ... عليّ ظلماً وجارا

فنهاري أراهُ للبعدِ ليلاً ... وأرى للسهادِ ليلي نهارا

أنتَ فرَّقتَ بالتفرُّقِ صبري ... فأعرني لما عراني اصطبارا

ويستجاد هذا، بالإضافة إلى جملة شعره، فأما لنفاسته لنفسه فلا.

وقال إسحاق الموصلي في معنى النابغة:

إنَّ في الصبح راحةً لمحبٍّ ... ومع الليلِ ناشئاتُ الهمومِ

---

(٣) ابن الدمينة، عبدالله بن عبيد العامري، شاعر بدوي متغزل. قتل سنة ١٣٠ هـ. والبيت في الأغاني: ١٠/١٧.

(٢) البيت من شواهد اللسان: «بنق» وقال: يروى: «أثناء حبها». و«ابناء حبها». والبنائق هي العرُى التي تدخل فيها الأزرار. وأراد بالأطفال: الأحزان الناتجة عن الحب.

(٣) ديوان النابغة: ٤٨.

(٤) في الديوان: «يهدي النجوم.» آيب: عائد.

(٥) أخلَس: أشمط.

(٦) الصولي: أبو بكر، محمد بن يحيى بن عبد الله، يُعرف بالشطرنجي، عالم أديب من الندماء، له تصانيف.. مات سنة ٣٣٥ هـ (الأعلام: ٧/١٣٦).

وهذه اللفظة مأخوذة من قول[1] الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وأَقْوَمُ قِيلا﴾

وقال طاهر بن علي بن سليمان:

إذا لاحَ لي صبحٌ فهمي مقسم ... وفي الليلِ همي بالتفرُّدِ أطولُ

وتمنى بعض المثقلين بالدين، المبتلين بالفقر، دوام الليل لما يلقى بالنهار مع الغرماء ولما يحتاج إليه من النفقة في كل يوم فقال:

ألا ليتَ النهارَ يعودُ ليلاً ... فإنَّ الصبحَ يأتي بالهمومِ

حوائجُ لا تطيقُ لها قضاءً ... ولا رداً وروعات الغريم

قوله «ولا رداً» من التتميم الحسن.

وقال التنوخي في طول الليل:

وليلةٍ كأنها طولُ الأملْ ... ظلامُها كالدَّهرِ ما فيه خللْ

كأنما الإصباحُ فيها باطلٌ ... أزهقه اللَّهُ لحقّ فبطلْ

ساعاتها أطولُ من يوم النّوى ... وليلةِ الهجرِ وساعاتِ العذَلْ

موصدة على الورى أبوابها ... كالنار لا يخرجُ منها من دخل

وهذا يستملح وإن لم يكن مختاراً من التشبيه لأن إخراج المحسوس إلى ما ليس بمحسوس في التشبيه رديء.

ومن التشبيه الغريب في ذلك قول بعض العرب:

ويوم كظلِّ الرُّمح قصرَ طولَهُ ... دم الزّقِّ عنا واصطكاك المزاهرِ

وقال[2] البحتري:

وقاسينَ ليلاً دونَ قاسان لم تكد ... أواخرُه من بعدِ قطريه تلحقُ

وقال[3] ابن المعتز في نحوه:

وحلتْ عليه ليلةٌ أرحبيةٌ ... إذا ما صفا فيها الغديرُ تكدَّرا

بعيدة ما بين البياضين لم يكد ... يصدق فيها صبحها حينَ بشرا[4]

وقال:

بمخشية الأقطار حيلية الصدى ... معطلة الآيات محذورة القصدِ

كأنَّ نجومَ الليلِ في حجراته ... دراهمُ زيف لم يجزن على النقدِ

يريد أن نجومه واقفة، ليست تسير، فكأنها دراهم زيفت ليست تنقد.

وقد أبر بعضِ المحدثين، على من تقدم حيث يقول في طول الليل على دناءة لفظه:

---

(١) سورة المزمل: آية ٦.

(٢) ديوانه: ٢/ ٧٩ ص.

(٣) ديوانه: ١٧٦.

(٤) في الديوان: «طويلة ما»... «فيها فجرها».

عهـدي بنا ورداءُ الليـل مُنسـدلٌ والليـلُ أطـولـهُ كـاللمـحِ بـالبصـرِ
والآن ليلى مـذ بـانـوا فـديتهـم ليـلُ الضـريـرِ فصبحي غيـر منتـظر

وهذا أبلغ معنى من قول امرىء القيس الذي تقدم، إلّا أنه لا يدخل في مختار الكلام، لابتذال لفظه، وزيادته على معناه، وسوء صنعته، والمعنى أن ليله ممدود بلا انقضاء، كالليل للضرير كله عند الضرير ليل.

وقال علي بن الخليل:

لا أظـلـمُ الـليـلَ ولا أدَّعـي أنَّ نـجـومَ الليـلِ ليستْ تعـول
لـيـلي كـمـا شـاءَتْ قـصـيـرٌ إذا جـادَتْ وإن ضنّت فليلي طـويـلْ

فأغار عليه ابن بسام فقال:

لا أظـلـمُ الـليـلَ ولا أدَّعـي أنَّ نـجـومَ الليـلِ ليست تـغـورُ
ليلي كـمـا شـاءَتْ فـإنْ لم تَـزُر طـالَ وإنْ زارَتْ فـليـلي قـصـيـر

إلّا أن بيته الثاني أحسن تقسيماً من بيت الخليل.

وسمعت كافي الكفاة يقول لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد وقد أنشده:

جُـلُّ هـمـي وهـمـتـي جُـرجـانُ

فقال هذا المصراع خطبه، قال أبو هلال العسكري: وأنا أقول إن قوله: «ليلي كما شاءت خطبه».

وقال سعيد بن حميد:

يـا لـيـلُ بـلْ يـا أبـدُ أنـائـمٌ عـنـك غَـدُ

وقال ابن الرومي وأحسن التشبيه:

لـيـسـت تـزول ولـكـن تـزيـد

وقلت:

غـابـوا فـلم أدرِ مـا ألاقـيِ مسٌّ مـن الـوَجْـدِ أو جـنـونُ
لـيـليَ لا يـبـتـغـي بـراحـاً كـأنـهُ أدهـمٌ حَـرونُ
أجـيـلُ في صفحتيـهِ عيـنـاً مـا تـتـلاقـى لـهـا جُـفـون

وملح ابن الأحنف في قوله:

حَـدِّثـوني عن النهـار حـديثـاً وصِـفـوهُ فقـد نَـسيتُ الـنـهـارا

وقد أنبأ بشار عن العلة التي يستطال لها الليل وهو السهر فقال[1]:

لـم يـطلْ لـيـلي ولـكـنْ لـم أنـمْ ونـفى عـني الـكـرى طيـفٌ ألـمّ

ولا أرى في قلة النوم أجود من قول المجنون:

---

(١) ديوانه: ٥٩١.

ونـوم كحشرِ الـطيـرِ بتنـا ننـوشـه　　على شعبِ الأكـوارِ والليـل غـاسقُ

على أن زهيراً قد قال:

وكـصـفـقـة بـالـكـف كـان رقـادي

والأول أفصح. وأنبأ العجاج أيضاً، عن العلة التي لها يطول الليل:

تـطاول الـليـل عـلى مـن لـم يـنـم

وقال[1] بشار:

لخـدَّيـك من كفيـك في كـلِّ ليلةٍ　　إلى أنْ تـرى ضـوء الصبـاح وسـادُ

وهذا مأخوذ من قول أبي ذؤيب:

نـام الـخـلي وبـت الـليـل مـشـتـجـرا

والاشتجار وضع اليد على الخد والاعتماد عليها وهو جلسة المتفكر:

نبيتُ نـراعي الـليـلَ نـرجـو نفـادهُ　　ولـيس لليـلِ الـعـاشـقـينَ نـفـادُ[2]

وقال:

خليليَّ مـات بـالُ الـدُّجى لا تـزحـزحُ　　ومـا بـال ضـوءِ الصبـح لا يتـوضـحُ[3]

كـأن الـدجى زادت ومـا زادت الـدُّجى　　ولـكـنْ أطـالَ الـليـلَ هـمٌّ مـبـرِّحُ

وقال ديك الجن:

من نـامَ لم يـدرِ طـالَ الليـلُ أم قصـرا　　مـا يَـعـرِف الليـلَ إلاّ عـاشـقٌ سـهـرا

وقد أجاد ابن طباطبا العلوي القول في طول الليل وهو:

كـأنَّ نجـومَ الليـل سـارَتْ نهـارهـا　　ووافـتْ عشـاءً وهـي أنضـاءُ أسـفـارِ

فـخيّـمنَ حتى تـستـريـحَ ركـابـهـا　　فـلا فـلكٌ جـار ولا فـلكٌ سـاري

وذكر خالد الكاتب أنه ليس يدري أطال ليله أم قصر لتحيره وتبلده فقال:

لـسـتُ أدري أطـال لـيـلي أم لا　　كـيـف يـدري بـذاك مـنٍ يـتـقـلى

لـو تـفـرَّغـتُ لاسـتـطالـةِ لـيـلي　　ولـرعـي الـنـجـوم كـنـتُ مـخـلى

وتبعه أبو بكر الصولي فقال:

وطـولتُ ليـلي لـو دَريتُ بـطولـهِ　　ولكنـه يمضـي لمـا بـي ولا أدري

وقال[4] بشار:

طـالَ هـذا الليـلُ بـلْ طـالَ السهرْ　　ولـقـد أعـرفُ لـيـلي بـالـقِـصَـرْ

لم يـطلْ حتى دهـاني بـالـهـوى　　نـاعـمُ الأطـرافِ فَتَّـانُ الـنـظر[5]

---

(١) ديوانه: ٤٣٣. وفيه: «وجه الصباح».

(٢) ديوان بشّار: ٤٣٣. وفيه: «تبيت تراعي الليل ترجو».

(٣) ديوان بشار: ٢٤٨.

(٤) ديوانه: ٥٢٤.

(٥) في الديوان: «جفاني شادن».

فكأنَّ الهجرَ شخصٌ ماثلٌ		كلما أبصرَهُ النومُ نفر[1]

وقلت:

صيّرني البينُ عرضة الحين		لا أربحَ اللَّهُ صفقةَ البينِ
قد طالَ يومي وليلتي بهمُ		لما يزالا بهمْ قَصيرَينِ
كان قليلًا لديَّ مكثهما		فكنتُ أدعوهما الجديدَيْنِ
فطال بعدَ الحبيبِ لبثهما		فصرتُ أدعوهما عتيقينِ

وقال آخر:

يا ليلة طالتْ على عاشقٍ		منتظرٍ في الصبح ميعادا
كادتْ تكونُ الحولَ في طولها		إذا مضى أوّلها عادا

أجود ما قيل في قصر الليل وأشده اختصاراً قول[2] إبراهيم بن العباس:

وليلة من الليالي الزُّهر		قابلتُ فيها بدرها ببدري
لم تكُ غيرَ شفقٍ وفجر		حتى تولّتْ وهي بِكرُ الدَّهرِ

وقال غيره:

وليلةٍ فيها قِصَر		عشاؤها مثلُ السَّحَرِ

وهذا على غاية الاختصار.

وقال العلوي الأصفهاني في قصر الليل واليوم:

ويوم دَجنٍ ذو ضمير متهم		مثلِ سرور شابَهُ عارضُ غمّ
صحوٌ وغيمٌ وضياءٌ وظُلَمْ		كأنهُ مستعرٌ قد ابتسمْ
ما زلتُ فيه عاكفاً على صنمْ		مُهفهفِ الكشحِ لذيذِ الملتَزم[3]
تفاحه وقفٌ على لثمٍ وشمّ		وبانة وقفٌ على هصرٍ وضَم[4]
يا طيبَه يوم تولى وانصرمْ		وجُوده من قصرٍ مثلَ العدمْ

وقلت:

قصر العيشُ بأكناف الغضا		وكذا العيشُ إذا طابَ قصر
في ليالٍ كأباهيم القطا		لستَ تدري كيف تأتي وتمرّ

وقلت:

إذا البرق من شرقيِّ دجلة ينبري		على صفحات البارق المتألق
أشبهه دهراً أغرَّ محجلًا		نعمنا به في ظلِّ فينان مورق
فمرَّ كرجعِ الطّرفِ ليس يرده		حنينٌ إلى مخبورة المتعشقِ

---

(١) الأغاني: ١٠/٦١.
(٢) مهفهف الكشح: ضامر الخصر.
(٣) الهصر: الجذب.
(٤) في الديوان: «وكأن الهمّ».

وقد يعرض المحذور من حيث يرتجي ويمكنك المرجوّ من حيث تتقي

أخبرنا أبو أحمد أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن سعيد، عن أبي عكرمة قال: أنشدت اعرابياً قول جرير[1]:

أبُدِّلَ الليلُ لأنسرى كواكبُهُ أم طال حتى حسبت النجمَ حيرانا

فقال: هذا حسن وأعوذ بالله منه ولكن أنشدك في ضده من قولي وأنشدني:

وليلٍ لم يقصرهُ رقاد وقصّره لنا وصلُ الحبيبِ[2]

نعيم الحبِّ أوْرقَ فيه حتى تناولنا جناهُ من قريبِ

بمجلس لذّةٍ لم نقوَ فيه على الشكوى ولا عدِّ الذُّنوبِ

بخلنا أن نقطعهُ بلفظٍ فترجمت العيونُ عن القلوبِ

فقلت له: زدني فما رأيت أظرف منك شعراً، فقال أما من هذا فحسبك ولكن غيره. وأنشدني:

وكنت إذا علقتُ حبالَ قومٍ صحبتهمُ وشيمتيَ الوفاءُ

فأحسنُ حينَ يحسنُ محسنوهم وأجتنب الاساءَةَ إنْ أساؤوا

أشاءُ سوى مشيئتهم فآتي مشيئتهم وأترك ما أشاءُ

وأنشدنا عن محمد بن يزيد:

لله ليلتنا بجوِّ سويقةٍ والعيشُ غضٌّ والزمانُ غريرُ

طابتْ فقصرَ طيبها أيامها فكأنما فيها السنونُ شهور

وأنشدنا عن عون بن محمد بن إسحاق الموصلي:

ظللنا في جوارِ أبي الجناب بيوم مثل سالفة الذبابِ

يقصره لنا شغفُ التلاقي ويوم فراقنا يوم الحسابِ

وأخبرنا عنه، عن محمد بن الحسن أبي الحسن العتابي، عن عيسى بن إسماعيل، قال: سمعت الأصمعي يقول: قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت إلى قوله[3]:

ويومٍ كإبهامِ القطاةِ محبب إليَّ هواهُ غالبٌ لي باطله[3]

رزقنا به الصيد العزيز، ولم نكن كمنْ نبله محرومةٌ وحبائِلُه[4]

فيا لك يوم خيره قبلَ شرِّه، تغيّبَ واشيه وأقصرَ عاذله[5]

فقال: ويله وما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ فقلت: كذا قرأته على أبي عمرو، قال: صدقت

---

(١) ديوانه: ٤٩٢.

(٢) في زهر الآداب: «وقصّر طوله وصلُ».

(٣) ديوان جرير: ٣٨٤. وفيه: «القطاة مزيّن... إلى صباه».

(٤) في الديوان: «رز قنابه الصيد الغزير، ولم أكن..».

(٥) في الديوان: «وذلك يومٌ خيره دون شرّه».

وقال: كذا قال جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلّا كما سمع، قلت: كيف كان يجب أن يقول؟ قال: الأجود له لو قال:

فيا لك يوماً خيره دون شره

فاروه هكذا، وكانت الرواة قديماً تصلح من شعر القدماء، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلّا هكذا.

ومثل ذلك أن أبا الفضل بن العميد أنشد قول[1] أبي تمام:

وكشفت لي عن صفحةِ الماءِ الذي ... قد كنتُ أعهدُه كثيرَ الطحلبِ

فقال: إنما قال «عن جلدة الماء» فقال: إذا أمكن أن يصلح قصيدته بتغيير لفظة، فمن حقها وحق قائلها أن تغير. قال أبو هلال وبين الصفحة والجلدة بون بعيد.

وقال ابن طباطبا:

بأبي من نعمتُ فيهِ بيوم ... لم يزلْ للسرورِ فيه نموُّ

يوم لهوٍ قد التقى طرفاهُ ... فكأنَّ العشيَّ فيه غدوُّ

ومن قول إبراهيم بن العباس والناس يروونه لغيره:

ليلةٌ كاد يلتقي طرفاها ... قصراً وهي ليلةُ الميلادِ

وقلت:

وطال عمرُك في دهرٍ به قصرٌ ... تعدُّ فيه شهور العيش أياما

وقال القصافي[2]:

ذكرتكم ليلاً فنوَّر ذكركم ... دجى الليل حتى انجاب عنا دياجرُهْ

فوالله ما أدري أضوءُ مسجر ... لذكركم أم يسجرُ الليلُ ساجره

وبتُ أسقي الشوق حتى كأنني ... صريعُ مدام لم ينهنه دائره

وظلتْ أكفّ الشوق لما ذكرتكم ... تمثّل لي منكم خيالاً أسايره

فلو كنتمُ أقصى البلاد لزرتكم ... إلى حيث يعيي وردُه ومصادرُه

أرى قصراً بالليلِ حتى كأنما ... أوائله مما تداني أواخره

وقد أحسن ابن المعتز في صفة ليلة طيبة فقال:

يا ليلة نسي الزَّمانُ بها ... احداثَهُ كَوني بلا فجر

راحَ الصباحُ ببدرِها ووشتْ ... فيها الصَّبا بمواقعِ القطرِ[3]

ثم انقضتْ والقلبُ يتبعها ... في حيث ما سقطتْ من الدَّهرِ[4]

وقلت:

وصلت نعم ولكن صلةً ... تشبهُ اللحظة في انتقالها

---

(١) ديوان أبي تمّام: ٣٦.

(٢) لعله القطامي.

(٣) الأبيات في ديوان ابن المعتز: ٢٢٦. الصبا: ريح.

(٤) لعلها من حيث.

لستُ أدري أتمتعتُ بها		أم بزورِ الزور من خيالها
ومضى الليلُ سريعاً مثلما		أنشطتْ دهماء من عقالها

الفصل الثالث من الباب السادس

في ذكر الصباح والشمس والنهار وما يجري مع ذلك

أجود ما قيل في الصباح من شعر الأعراب

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر ابن دريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال:

نزلت بقوم من غُنى وقد جاوروا قبائل من بني عامر بن صعصعة، فحضرت ناديهم وهناك شيخ طويل الصمت عالم بالشعر، قد جعل الناس يأتونه من كل ناحية، فيجلسون إليه وينشدون أشعارهم، فإذا سمع الشعر الجيد قرع الأرض بمحجنه، فينفذ حكمه على من حضر منهم بشاة، إذا كان ذا غنم، وابن مخاض إن كان ذا إبل، فذبح أو نحر لأهل الوادي فقال حضرتهم يوماً والشيخِ جالس فأنشده بعضهم يصف القطا:

غـدَتْ في رعيـل ذي أداوَى منـوطـةٍ ... بلبـاتهـا مـربـوعـة لـم تُمَـرَّخ[1]

إذا سَـرْبَـخٌ عـطت مجال سـرائـه ... تمطعتْ فحطتْ بينَ أرجـاءِ سربخ[2]

فقرع الشيخ الأرض بمحجنه وهو صامت.

ثم أنشده آخر يصف ليلة[3]:

كـأنَّ شميطَ الصبح في أخـريـاتهـا ... مُـلاةٌ ينقي من طيـالسـةٍ خُضـرِ[4]

تخـال بقـايـاهـا التي أسـأر الـدُّجى ... تمـدُّ وشيعـاً فـوق أرديـة الفجـرِ[5]

فقام الشيخ كالمجنون، مصلتاً سيفه، حتى خالط البرك[6] فجعل يضرب يميناً وشمالاً.

وهو يقول:

---

(١) تمرّخ: تليّن. وفي الأصل: «بلباتها مدبوغة».

(٢) السّربخ: الأرض الواسعة. عطت: شقت.

(٣) في الأصل: «يصف إبلا».

(٤) الطيالسة: جمع الطيلسان: ثوب أسود له غطاء ل

(٥) أسأر: ترك بقيّة. الوشيعة: النسيج.

(٦) البرك: الإبل.

لا تُفرغنْ في أذنيَّ بعدها ما يستفزُّ فأريك فقدها
إني إذا السيفُ تولى ندَّها لا أستطيعُ بعد ذاك ردَّها

قال أبو هلال رحمه الله تعالى:

وهذا دليل على أن علم الشعر، والتمييز بين جيده ورديئه، كان غريزاً عند أهل البوادي، وهم أصوله ومنبعه ومعدته، وكان فعل هذا الشيخ، واستفزاز جيد الشعر له قريباً، مما روي عن محمد الأمين، أنه قال: إني لأطرب على حسن الشعر كما أطرب على حسن الغناء.

ومن غريب ما قيل في الصبح، من الشعر القديم قو ذي الرمة، وقد أجمع الناس على أنه أحسن العرب تشبيهاً:

وقد لاحَ للساري الذي كمل السُّرى على أخرياتِ الليلِ فتقٌ مُشَهَّرُ
كلونِ الحصانِ الأنبطِ البطن قائماً تمايلَ عنهُ الجلُّ واللونُ أشقرُ

وهذا أحسن تشبيه أكمله، الأنبط: الأبيض البطن، شبه بياض الصبح تحت حمرته ببياض بطن فرس أشقر.

أخذه ابن المعتز فقال:

وما راعنا إلاّ الصباحُ كأنهُ جلالُ قباطيٍّ على فرسٍ ورد

وقال أو قال غيره[1]:

بدا والصبحُ تحتَ الليلِ بادٍ كمهرٍ أشقرٍ مُرخى الجلالِ

ومن أغرب ما قاله محدَث فيه قول ابن المعتز:

وقد رفعَ الفجرُ الظلامَ كأنَّهُ ظليمٌ على بيضٍ تكشفَ جانبه[2]

وقد أبدع أيضاً في قوله[3]:

قد اغتدى والليلُ في جلبابه كالحبشيِّ فَرَّ من أصحابِهْ
والصبحُ قد كشفَ عن أنيابه كأنما يضحكُ من ذهابه

وقال[4] أبو نواس:

فقمتُ والليلُ يجلوهُ الصباحُ كما جلا التبسمُ عن غُرِّ الثنياتِ

وفي ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه.

وقال:

---

(١) ديوانه: ٣٣٦.
(٢) الظليم: ذكر النعام.
(٣) ديوان ابن المعتز: ٧٦.
(٤) ديوان أبي نواس: ١١٧.

لما تبدى الصبحُ من حجابه كطلعةِ الأشمطِ من جلبابه

وهذا من قول الآخر:

كطلعة الأشمط من برد سمل

وقال[1] ابن المعتز:

وقد قفوتُ الغيثَ ينطفُ دجنُه والصبحُ ملتبِسٌ كعينِ الأشهلِ

وقلت:

باكرتُها والخيلُ في البكورِ والصبحُ بالليلِ مكوث النورِ

كما خلطت المسكَ بالكافور

وقال[2] ابن المعتز:

أما ترى الصبحَ تحتَ ليلته كموقدٍ باتَ ينفخُ الفحما

وقال[3]:

والليل قد رقَّ وأصفى نجمهُ، واستوفز الصبحُ، ولما ينتقب

معترِضاً بفجرهِ في ليلةٍ كفَرسٍ بيضاءَ دهماءَ اللّبب[4]

وقال العلوي وأجاد المعنى:

والصبحُ في صفحِ الهواءِ موَرَّدٌ مثلُ المدامةِ في الزُّجاجِ تشعشعُ

وقلت:

إلى أن طوينا اليومَ إلاّ بقيةً يضلُّ ضياءُ الشمسِ عنها فيزلقُ

وجلّلِ وجهَ الشمسِ بُردٌ ممسكٌ وقابلهُ للغربِ بُردٌ ممشّقُ

فلاح لنا من مَشرقِ الشمسِ مغربٌ وبان لنا من مغرب الشمسِ مَشرِقُ

ومدَّ علينا الليلُ ثوباً منمّقاً وأشعلَ فيه الفجر فهو يحرق

وصبحنا صبحٌ كأنَّ ضياءَهُ تعلمُ منّا كيف يبهى ويُشرقُ

وقلت:

ركبت أعجاز ليالٍ مظلمة مطرزاتٍ بالصباح معلمه

أخطرُ في بردتها المسهمه والرَّوضُ في حلته المنمنه

قد نشر الليلُ عليه أنجمه والنبتُ قد دَنَّرَهُ ودرهمه

وقد وشى رداءهُ ورقمه

---

(١) ديوان ابن المعتز: ٣٢٥.

(٢) ديوان المعتز: ٣٥٣ ورواية البيت:

أغراكَ مني الهوى، فكيف ترى والجمرُ يُعدي بلونهِ الفَحَما

(٣) ديوانه: ٤٠. وفيه: «وأصفى نجمة». استوفز: استعد.

(٤) اللبب: الصدر.

وقال بعض الأعراب:

والـليـلُ يـطردُهُ الـنـهـارُ ولا أرى كـالليـلِ يـطردُه النهـارُ طـريـدا
وتـراهُ مـثـل البـيـتِ مـالَ رواقـهُ هتـك المقـوض سـتـره الممـدودا

وهذا شعر مطبوع.

وقال أبو نواس:

قد اغتدي والليـلُ في حـريمـه معسكـر في العـزِّ من نـجـومِـهْ
والـصبـحُ قـد نـسم فـي أديمـه يـدعـه بـطرفـي حـيـزومـه[1]
دع الـوصي فـي قـفـا يـتـيـمـه

ومن الاستعارة المصيبة في صفة الصبح قول سالم بن وابصة[2]:

على حين أثنى القومُ خيراً على السرَى وطـارَ بـأخـرى الليـل أجنحـة الفجـرِ

والنصف الأول من قول الآخر:

عـنـد الصبـاح يحـمـد القـوم الـسـرى

وقال العلوي الأصفهاني:

وليـل نصرتُ الغيَّ فيـه على الرُّشـد وأعـديتُ فيـه الهـزلَ مني على الجـدِّ
وضيعتُ فيـه من عنـاقِ معـانقي فـظنَّ وشـاتي أنني نـائمٌ وحـدي
إلى أن تجلى الصبحُ من خلل الدُّجى كما انخرطَ السيفُ اليماني من الغمدِ

وقلت:

حتى أزالَ الـصبـحُ فـاضـلَ ذيله كـالنيـل يخـطرُ في نـوادي يعـربِ

وقد أحسن ابن المعتز في صفة النجم يبدو في حمرة الفجر حيث يقول:

قـد اغتـدي على الجيـادِ الضمـر والصبحُ قـد أسفـرَ أو لم يسفـرْ[3]
كـأنـه غـرَّةُ مـهـرٍ أشـقـر حتى بـدا في ثـوبـهِ المعصفـرِ
ونـجـمـهُ مـثـل الـسِّـراج الأزهـرِ

وقال الشمردل بن شريك[4]:

ولاحَ ضـوءُ الصبـحِ فـاستبينـا كمـا أرتْنـا المفـرق الـدهينـا

وقال التنوخي:

والـثـريـا كَـلواءٍ خـافـق مـن فـوقِ مـرقـبِ

---

(١) الحيزوم: الصدر.

(٢) ابن وابصة: هو سالم بن وابصة بن معبد الأسدي، أمير، شاعر، من التابعين، دمشقي، تولى الرِّقة لمحمد بن مروان لثلاثين سنة. مات سنة ١٢٥ هـ. (الأعلام: ٣/٧٣).

(٣) الضمّر: جمع الضامر: غير السمين: أسفر: بان وظهر.

(٤) الشمردل بن شريك بن عبد الملك من بني ثعلبة، شاعر هجّاء. مات سنة ٨٠ هـ.

وبـدا الـفـجـرُ كـسـيـفٍ في يـدِ الـجـوزاءِ مـذهـب

وقلت:

أديـرا عليّ الكـأسَ والليـلُ راحـلُ وفي إثـره لـلصـبـح بـلقٌ شـوائـلُ
تـرفـع عنـه منكبُ الليـل فـانجلى كمـا ابتسمتْ لميـاءُ والستـرُ مـائـلُ

وقال التنوخي:

وبـدا الصبح كـالحسـام عـلاه عـلق فـوقَ شـفـرتـيـهِ متـاع

وقال:

أسـامـره والـليـل أسـود أورق إلى أن جلا الإصباح عن أشقـر وردِ
تـبـسـم مـحـمـرّاً خـلال سـواده تبسمَ وردِ الخدِّ في الصدغ الجعـد

ومن حسن الاستعارة في الشفق قول(١) ابن المعتز:

ساروا وقـد خضعتْ شمس الأصيـل لهم حتى تـوقَّـدَ في جنـح الـدُّجى الشـفقُ
لـحـاجـةٍ لم أضـاجـع دونـهـا وَسَنـاً وربـمـا جـرَّ أسبـابَ الـكـرى الأرقُ

وأبرع بيت قيل في الصبح من شعر المحدثين قول(٢) ابن المعتز:

والصبـحُ يتلو المشتـري فكـأنَّـه عُـريـانُ يمشي في الـدُّجى بسـراجِ

والناسُ يظنون أنهُ ابتدأه وابتكره، وإنما أخذه من قول ابن هرمة في وصف السحاب والبرق:

تـؤام الـوذْق كـالـزّاحـ ـف يـزجى خلفَ اطـلاحِ(٣)
صـدوق الـبـرقِ كـالـسـكـرا ن يـمـشـي خلفـه الـصـاحـي
كـأنَّ الـعـازفَ الـحـنـى أوْ أصـواتَ نـواح
عـلى أرجـائـهِ والـبـر ق يـهـديـه بـمـصـبـاح

وهذا البيت مضطرب الرصف مضمن لا خير فيه والمعنى بارد.

ومن أطرف ما قيل في الليالي الطيبة قول(٤) ابن المعتز:

تـلتـقطُ الأنـفـاسُ بـردَ الـنـدى فـيـهِ فتهـديـهِ لحـرِّ الـهـمـومِ

وقلت:

وقـد غَـدوْتُ وصبـغُ الليـلِ منتقصٌ وغـرَّة الصبحِ مصقـولٌ حـواشيهـا
وغـربت أنجمُ الـظلمـاء وانحَـدرَتْ فشـالَ أرجلهـا وأنـحطُّ أيـديهـا

---

(١) ديوانه: ٢٩٣.

(٢) ديوانه: ١١٧.

(٣) الوَذْق: المطر. أطلاح: جمع طلح وهو شجر عظام.

(٤) ديوانه: ٣٦٢. وفيه:

يـلـتـقط الأنـفـاسَ بـردُ الـنـدى فـيـه فـيـهـديـه لـحـر الـسـمـومْ

فأما أجود ما قيل في الشمس مما أنشدناه أبو القاسم، عن عبد الوهاب، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن ابن الأعرابي، قديماً في صفة الشمس فقال وهو أحسن وأتم ما قالته العرب فيها:

مخبأةٌ أما إذا الليلُ جنّها ... فتخفى وأما بالنهارِ فتظهرُ[1]
إذا انشقَّ عنها ساطعُ الفجر فانجلى ... دُجى الليل وانجابَ الحجابُ المستر
وألبس عرضَ الأرضِ لوناً كأنه ... على الأفقِ الشرقيِّ ثوبٌ معصفرُ
ولونٍ كدرعِ الزَّعفرانِ مشبه ... شعاع يلوحُ فهو أزهرُ أصفرُ
إلى أن علتْ وابيضَّ عنها اصفرارُها ... وجالتْ كما جالَ المليحُ المشهر
ترى الظلَّ يطوى حينَ تعلو وتارةً ... تراهُ إذا مالتْ إلى الأرض ينشر
وتدنف حتى ما يكاد شعاعها ... يبينُ إذا ولتْ لمن يتبصرُ[2]
وأفنت قروناً وهي في ذاك لم تزل ... تموتُ وتحيا كلَّ يومٍ وتنشرُ

وأنشدناه أيضاً أبو أحمد، عن الصولي، عن علي بن الصباح، عن ابن أبي محلم، على غير ما تقدم هنا أخذ ابن الرومي قوله:

وقد جعلت في مجنح الليل تمرض

ومن بديع ما قيل في انقلابها عند الغروب قول الراجز:

صبَّ عليه قانصٌ لما غفل ... والشمسُ كالمرآة في كفِّ الأشل[3]

ونحوه قول أبي النجم:

وصارت الشمس كعين الأحول

ولأعرابية تذكر السحاب:

تطالعني الشمسُ من دونها ... طلاع فتاة تخافُ اشتهارا
تخافُ الرَّقيبَ على سرِّها ... وتحذرُ من زوجها أن يغارا
فتستر غُرَّتها بالخمارِ ... طوراً وطوراً تزيل الخمارا[4]

وقال ابن المعتز وأغرب:

تظلُّ الشمس ترمقنا بلحظ ... خفي مدنف من خلفِ سترِ
فتحاولُ فتىً غيم وهو يأبى ... كعيني يريدُ نكاحَ بكرِ[2]

وقال ابن طباطبا:

وأقذيت عين شمس فحكت ... من خللِ الغيم طرفَ عمشاءِ

وقلت:

---

(١) جنّها: سترها.
(٢) تدنف: تمرض وتضعف.
(٣) الأشل: مقدار من الذرع.
(٤) الخِمار: الغطاء.
(٥) العِنِّين: الرجل لا يستطيع إتيان النساء.

فيا بهجة الدنيا إذا الشمس أشرقت ... كما أشرقت فوق البرية زينب
يفضضُ منها الجوُّ عندَ طلوعها ... ولكنَّ وجهَ الأرض فيها مُذَهَّبُ
وتحسبُ عين الشمسِ إذ هي رنقت ... على الأفقِ الغربيِّ تبراً يذوبُ

وقلت في يوم صحو:

ملأ العيونَ غضارةً ونضارةً ... صحوٌ يطالعنا بوجهٍ مونقِ
والشمسُ واضحةُ الجبين كأنها ... وجهُ المليحة في الخمارِ الأزرقِ
وكأنها عندَ انبساطِ شعاعِها ... تبرٌ يذوبُ على فروعِ المشرقِ[1]
جَرَّت إذا بكرت ذُيولَ مزَعفرٍ ... وتجرُّ إنْ راحتْ ذُيولَ ممشقِ
فشربتها عذراءَ من يدِ مثلها ... تحكي الصباحَ مع الصباحِ المشرقِ

وقال ابن طباطبا:

وشمس تجلت في رداءٍ معصفر ... كأسماء إذ مدت عليها إزارها

وقال ابن المعتز فيها عند غروبها:

حتى علا الطودَ ذيلٌ من أصائله ... كما يصفرُ فودي رأسه الحرفُ

وقال أبو نواس:

قد اغتدي والشمسُ في حجابها ... مثل الكَعابِ الخَودِ في نقابها[2]

وقال ابن الرومي وهو من المشهور:

كأنَّ خبوّ الشمس ثم غُروبها ... وقد جعلتْ في مجنح الليل تمرضُ[3]
تخاوصُ عينٍ بين أجفانِها الكرى ... يرنقُ فيها النومُ ثم تغمضُ[4]

ومن جيد ما قيل في احمرارها عند المغيب قول ابن الحاجب[5]:

وكأنها عندَ الغرو ... بِ جُفونُ عينِ الأرمدِ

وقال[6] ابن الرومي وهو من المشهور:

إذا رَنَّقتْ شمسُ الأصيلِ ونفضت ... على الأفقِ الغربيِّ ورساً مذعذعا[7]
وَودَّعتِ الدُّنيا لتقضيَ نحبها ... وشوّلَ باقي عمرها وتشعشعا[8]

---

(١) التبر: الذهب.
(٢) الكعاب الخود: المرأة الشابة.
(٣) ديوان ابن الرومي: ٦٢/٤.
(٤) في الأصل: «يرفق فيها».
(٥) هو عبد العزيز بن إبراهيم. اديب بغدادي متوفى سنة ٣٥١ هـ.
(٦) ديوانه: ١١٦/٤.
(٧) في الأصل: إذا أرفقت شمس..» الورس: نبات كالسمسم مذعذع: متفرق.
(٨) تشعشع: تفرّق.

ولاحظت النوار وهي مريضةٌ ... وقد وضعتْ خدّاً على الأرضِ أضرعا
كما لاحظت عوادَهُ عينُ مدنَفٍ ... توجَّعَ من أوصابِهِ ما تَوَجَّعا[1]
وظلت عيون الرَّوض تخضلّ بالندى ... كما اغرَوْرَقَتْ عينُ الشجيِّ لتدمعا[2]
وبَيَّن إغضاءُ الفراقِ عليهما ... كأنهما خِلّا صفاءٍ تودَّعا

وقال الآخر:

والشمسُ تُؤذنُ بالشروقِ كأنها ... خَوْدٌ تلاحظُ من وراءِ حجابِ[3]

وقال السري:

ومن قصور عليه مُشرفة ... تضيءُ والليلُ أسودُ الحجبِ[4]
بيضٌ إذا الشمسُ حانَ مغربُها ... حسبت أطرافهنَّ من ذهبِ

ومن بديع ما قيل فيها من شعر المتقدمين قول أبي ذؤيب:

سبقت إذا ما الشمسُ عادت كأنها ... صلاءَة طِيبٍ ليطها واصفرارُها[5]

ومن جيد ما قيل في النهار قول أعرابي:

فإذا أشرَقَ النهارُ تراها ... راملات في مثل ماء زلالِ

وقلت:

ويخبطنَ الصباحَ إذا تبدّى ... كما يكرعنَ في الماء الزُّلالِ

وقلت:

وعلى الصباحِ غلالةٌ فضيةٌ ... فيها طرازٌ من خيالك مُذْهَبُ[6]

أخر الباب السادس، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى الجزء الأول

(١) في الأصل: «لاحظت عوادها». المدنَف: المريض.

(٢) في الديوان: «عيون النُّور» الشجي: الحزين.

(٣) الخَود: الشابة.

(٤) في الأصل: «على مشرفة».

(٥) في ديوانه أبي ذؤيب: «آضت كأنها». الصلاءة: الجبهة. الليطه: مفرد. الليط: قشر القصبة.

(٦) الغلالة: الثوب الرقيق.



للإمام اللغوي الأديب

أبي هلال العسكري

شرحه وضبط نصه
أحمد حسن بسج

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله على نعمهِ التامة، وأياديه الخاصة والعامة، في إنشاءِ السحابِ الثقال، وإجراء العذبِ الزلال، وتفجير البارِدِ السلسال، ليغذو به النجمَ والشجر، ويرب الحَبَّ والثمر، رحمة للأنام، ونظراً للأنعام فله الحمد أولاً وآخراً. والصلاةُ على نبيه محمد الذي أرسله بالحق، شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله المختارين وعترته المنتخبين.

وقد رأينا الحكماء في كل زمان يجتهدون، في تقريب الحكمة وتسهيل سبلِها، وشرحِ مشكلها، وإيضاح أبوابِها، وإدناءِ أسبابها، ليخف محملُها، ويقرب متناولها، ويرغب فيها كلّ أحد، ويأخذ منها بنصيب، ويغترف منها بذنوب.

وكنت جعلت كتابي، الموسوم بديوانِ المعاني، مشتملاً على اثني عشر باباً، يتضمنُها خمسمائة ورقة، فرأيت بعضَ الناس يستكبرُ حجمه، ويستقل نسخه، فجعلت كل باب منها كتاباً، ينفرد بنفسه، ويتميز من جنسه، ليقرب أمره ويسهل نسخه، ولتسرع الرغبة إليه، فيكثر الانتفاع به إن شاء الله تعالى وبه التوفيق.

هذا كتاب المبالغة

في صفة السحاب والمطر والبرق والرعد وذكر المياه والرياض والنبات والأشجار والرياحين والثمار والنسيم وما يجري مع ذلك وهو:

الباب السابع من كتاب ديوان المعاني وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في صفة السحاب والمطر والبرق والرعد والثلج والضريب[1].

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو لذي الرمة: أي قول الشعراء في المطر أشعر؟ قال: قول[2] امرىء القيس:

ديمةٌ هطلاءُ فيها وطَفٌ طَبَقَ الأرض تحرَّى وتَدُرّ[3]

قوله طبق الأرض، غاية في صفة عموم السحاب، أراد أنها على الأرض بمنزلة الطبق على الإناء.

ولا أعرف أحداً أخذه فأجاده، كاجادة ابن الرومي حيث يقول[4]:

سحائبُ قيستْ بالبلادِ فألقيتْ غِطاءً على أغوارِها ونجودِها
هدتها النُّعامَى مُثقلاتٍ فأقبلتْ تهادَى رُويداً سيرُها كركودِها

قوله سيرها كركودها غاية في وصف ثقلها وثقلها من كثرة مائها.

والبيت البليغ المشار إليه من أبيات امرىء القيس قوله[5]:

---

(١) الضريب: المطر الخفيف.

(٢) ديوانه: ١٠٥.

(٣) الديمة الهطلاء: السحابة الماطرة. الوطف: السحاب الممتلىء ماء.

(٤) ديوانه: ٢/١٢٨.

(٥) ديوانه: ١٠٥.

وتَــرى الــشــجــراءَ في رَيِّــقــه كــرؤوس قُطِّعت فيهــا الخُمُــر[١]

الشجراء الأرض ذات الشجر، وإذا غرقت الشجر من ريقه حتى لا يبين منها إلا فروعها فكيف يكون في شدته، وريـق المطر أوله وأخفه، وشبه رؤوس الشجر خارجة من الماء برؤوس قطعت عليها عمائم، والخمار ههنا العمامة.

وقالوا: أجود ما قيل في المطر قوله:

كــأنَّ أبــانــاً في أفــانــين وبلهِ كبيرُ رجالٍ في بجاد مُزمَّـلِ[٢]

يقول كأن أبانا ـ هو جبل ـ من التفاف قطره، وتكاثفه في الهواء شيخ في كساء، وخفض مزمل على الجواب وهو نعت كبير كما تقول جحر ضبٍ خربٍ.

وقالوا أجود ما قيل فيه قول أبي ذؤيب:

لكلِّ مسيلٍ من تهامة بعـد ما تـقـطع أقـرانُ السحـابِ عجيـج

وهذا مع جودة معناه فصيح جداً.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، قال: قال الأصمعي: قلت لأبي عمرو ما أحسن ما قيل في المطر فقال:

قول القائل[٣]:

دانٍ مسفٌّ فُـوَيْقَ الأرضِ هيـدَبُـه يكـادُ يدفعُـه من قـامَ بـالـراحِ[٤]

فـمن بـنجـوتـه كـمن بـعُقـوتـه والمستكن كـمن يمشي بـقَـرواحِ[٥]

يقول: قد عم هذا السحاب، فاستوى في شيم برقه، وأصاب مطره المنجد والغائر، والمستكن والمصحر، قرب من الأرض لثقله بالماء، حتى يكاد يدفعه القائم براحته وهذا غاية الوصف.

ومن أبلغ ما جاء في ذلك من نثر الأعراب، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم وعبد الرحمٰن عن الأصمعي قال: سألت أعرابياً من عامر بن صعصعة، عن مطرٍ أصاب بلادهم، فقال:

نشأ عارضاً فطلع ناهضاً، ثم ابتسم وامضاً، فاعترض الأمطار فأعشاها، وامتد في الآفاق فغطاها، ثم ارتجز فهمهم، ثم دوى فأظلم، فأرك ودثّ وبغش، ثم قطقط فأفرط، ثم ديم

---

(١) الشجراء: جماعة الشجر. ريقه: أوله. الخُمر: جمع خمار: غطاء المرأة.

(٢) في ديوان امرىء القيس: «أفانين ودقه» و«كبير أناس». والوبل: المطر الغزير. البجاد: الكساء المخطط. مزمّل: ملتف.

(٣) البيت في ديوان اوس بن حجر: ١٥. وكذلك في ديوان عبيد بن الأبرص: ٥٣.

(٤) مسِف: شديد الدنو. هيدبه: ما تدلّى منه.

(٥) القَرواح: الأرض المستوية.

فأغمط، ثم ركد فأجثم، ثم وبل فسح وجاد، فأنعم فقمس الربى، وأفرط الزبى سبعاً تباعا، لا يريد انقشاعا، حتى ارتوت الحزون، وتضحضحت المتون، ساقه ربك إلى حيث شاء، كما جلبه من حيث شاء.

الدث والبغش المطر الخفيف، والقطقط المطر الصغار، وقوله أنعم أي بالغ من قولهم دقه دقاً ناعماً، وقمس أي غوص، وأفرط ملأ. والزبى جمع زبية وهي حفرة تحفر للأسد، ويجعل فيها طعم فيجيء حتى يقع فيها، ولا تحفر إلا في مكان عال، فإذا بلغها السيل فهو الغاية، وفي المثل «بلغ السيل الزبى»[1]. والمتن صلابة من الأرض فيها ارتفاع، وتضحضح أي صار عليه ضحضاح[2]، وهو الماء يجري على وجه الأرض رقيقاً.

وأنشدنا أبو أحمد، عن أبيه، عن ابن أبي طاهر، عن ابن الأعرابي لأعرابية:

فبينـا نـرمِّقُ أحشـاءَنـا ... أضاءَ لنا عارضٌ فاستنارا[3]
فأقبل يزحفُ زَحْفَ الكسير ... سياقَ الرعاءِ البطاءِ العشارا
تغني وتضحـك حافـاتُـه ... امامَ الجنوبِ وتبكي مرارا
كـأنـا تضيء لنـا حُـرة ... تـشـدُّ إزاراً وتلقي إزارا
فلما حسبنا بأن لا نجـاءَ ... وأن لا يكون فرارٌ فـرارا
أشـارَ لـه آمـرٌ فَـوْقَـهُ ... هَلُم فأمَّ إلى ما أشـارا

وأنشدنا لغيرها:

تبسمتِ الريحُ ريحُ الجنوبِ ... فهاجتْ هوىً غالياً وادّكـارا
وساقَتْ سحاباً كمثلِ الجبالِ ... إذا البـرقُ أومضَ فيـه أنـارا
إذا الرعدُ جلجلَ في جانبيهِ ... فروَّى النبات وأروى الصحارى
تـطالـعنـا الشّمسُ من دُونـهِ ... طـلاعَ فتـاةٍ تخـافُ اشتهـارا
تخـاف الـرقيبَ عـلى سِـرِّهَـا ... وتحـذرُ من زوجِهـا أنْ يغـارا
فتستـرُ غُـرتَـهـا بـالـخمـارِ ... طـوراً وطـوراً تـزيـلُ الخمـارا[4]

وقد مرت هذه الأبيات الثلاثة قبل:

فلما مـراهـا هبـوبُ الجنـوبِ ... وانهمـرَ المـاءُ مـنـهُ انهمارا
تبسـمتِ الأرضُ لمـا بـكـتَ ... عليهـا السماءُ دُمُـوعاً غـزارا
فكـان نـواجـذُهـا الأقحـوان ... وكـان الضـواحـكُ منهـا البهـارا

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/١٨٠.

(٢) الضحضاح: الماء اليسير.

(٣) رُمقة من العيش: بُلغة، شيء قليل.

(٤) الخمار: الغطاء.

وقال ابن مطير وهو أجود ما قيل[1] في سحاب:

مستضحِـكٌ بـلوامـعٍ مستعـبرٌ ... بمـدامـعٍ لم تمـرِهـا الأقـذاءُ
فـله بـلا حـزنٍ ولا بمسـرةٍ ... ضحـكٌ يؤلـفُ بينـهُ وبكـاءُ
ثقلت كـلاهُ وأنهرتْ أصـلابـهُ ... وتبعجت من مـائـهِ الأحشـاءُ[2]
غَـدَق يُنتج بـالأبـاطـح فـرَّقـا ... تلدُ السيولَ وما لها اسلاءُ[3]
وكـأنَّ رَيـقَـةُ ولمـا يحتـفـل ... وَدْقُ السحابِ عجاجة كـدراءُ
غـرٌّ محجلةٌ دوالـحُ ضـمـنت ... حَفْـلَ اللقاحِ وكلها عـذراءُ
سحمٌ فهنَّ إذا كـظمنَ فـواحمٌ ... وإذا ضحكـنَ فـإنهنَّ وضـاءُ[4]
لو كانَ من لجج السواحلِ ماؤهُ ... لم يبقَ من لجج السواحلِ ماءُ

ومن هذا البيت، أخذ المتكلمون الحجة على الفلاسفة، في قول الفلاسفة: المطر إنما هو البخارات ترتفع من البحر، قالوا لهم: لو كان الأمر كذلك لكان ماء البحر ينقص عند كثرة الأمطار فقالت: لا يلزم ذلك لأن البحر مغيض لمياه الأرض فمصير ما يتحلب من الثلوج إليه ومنه مواد هذه الأشياء فمثله مثل المنجنون يغرف من بحر ثم يصب فيه فليس له نقصان والذي ينقض هذا أن ماء البحر يزيد عند كثرة الأمطار، وينقص عند قلتها، والعادة في ذلك معروفة، ولو كان الأمر على ما يقولون، لكان ماء البحر ينقص على مرور الأوقات لا محالة، لأن الشمس والهواء لا شك تأخذ مما يتفرق عنه في الأرض بزعمهم، والكلام فيه يتسع وإنما أشرت إلى موضع الدلالة على فساد قولهم.

وقال النظار الفقعسي:

يـا صـاحبيَّ أعينـاني بـطرفكـما ... أني تشيمان بَرْقَ العـارضِ الساري[5]
أبصرتـهُ حينَ غـاب النجمُ وانسفـرت ... عنـا غفـائـر من دجن وأمـطارِ[6]
فـبـاتَ ينهضُ بـالـوادي وجَـلهتـهِ ... نهضَ الكسـير بـذِي أوْنَـين جـرَّار
حـيرانَ سكـران يغشى كـلَّ رابيـةٍ ... مـن الـروابي بـأرجـافٍ وأضرار
مـفـرِّقٌ لـدِمـاثِ الأرضِ منهـمـرٌ ... رعـابُ أفئـدةٍ شـعـالُ أبـصـار[7]
كـأن بُلْقـاً غِـرابـاً تحت رَيِّـقـه ... عـوداً تَـذُب بـرمحٍ عـنـدَ إمهارِ[8]

---

(١) الشعر والشعراء: ١/٣٤.
(٢) تبعج السحاب: انفرج في الودْق.
(٣) اسلاء: جمع سلى وهي جلدة يكون فيها الولد عند ولادته
(٤) سحم فواهم: سُود.
(٥) شام البرق: نظر إليه.
(٦) الغفائر: جمع غِفارة وهي ما يوضع على الرأس.
(٧) دماث الأرض: ما انبسط منها.
(٨) بُلق: سُود وبيض.

وشبه البرق برمح الأبلق، وهو من قول[1] أوس بن حجر:

كأنَّ رَيّقَهُ لما عَلا شِطباً أقرابُ أبلقَ ينفي الخيلَ رماحِ[2]

ومن أبلغ ما قيل في ذلك قول الأعرابية التي سألها ذو الرمة عن الغيث فقالت: غثنا ما شئنا. فكان ذو الرمة يقول قاتلها الله ما أفصحها. وترك ذو الرمة هذا المذهب على إعجابه به واختياره له وقال[3]:

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيّ على البلى ولا زال مُنهلًّا بجرعائكِ القطرُ[4]

فقيل له هذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها، لأن القطر إذا دامت فيها فسدت. والجيد قول[5] طَرَفَةَ:

فسقى بلادك، غيرَ مُفسِدِها صوبُ الربيعِ وديمةٌ تهمي[6]

وقال أعرابي:

أصابتنا سحابة، وإنا لبنوطة بعيدة الأرجاء، فاهر مع مطرها حتى رأيتنا وما رأينا غير السماء والماء، وصهوات الطلح، فضرب السيل النجاف، وملأ الأودية فرعبها، فما لبثنا إلا عشراً حتى رأيتها روضة تندى. قوله: «ما رأيت غير السماء والماء وصهوات الطلح» غاية في صفة كثرة المطر. وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة، قال: خرج النعمان بن المنذر في بعض أيامه في عقب مطر، فلقي أعرابياً فأمر بإحضاره، فأتي به فقال: كيف تركت الأرض وراءك؟ قال: «فيح رحاب، منها السهولة ومنها الصعاب، منوطة بجبالها حاملة أثقالها». قال: إنما عن السماء سألتك. قال: مطلة مستقلة على غير سِقاب[7] ولا أطناب، يختلف عصراها، ويتعاقب سراجاها، قال: ليس عن هذا أسألك. قال: فسلِ عما بدا لك قال: هل أصاب الأرض غيث يوصف؟ قال: نعم أغمطت[8] السماء في أرضنا ثلاثاً رهواً فثرت وأرزغت[9]، ورسغت، ثم خرجت من أرض قومي أقروها متواصية لا خطيطة منها حتى هبطت

(١) ديوانه: ١٥.

(٢) شطب: اسم جبل.

(٣) ديوان ذي الرمة: ٣٦.

(٤) المطر المنهلّ: الذي يصب صباً. الجرعاء: منبسط الرمل.

(٥) ديوان طرفة: ١١٩.

(٦) الصوب: المطر المنصب. الديمة: المطر الدائم. تهمي: تهطل.

(٧) سِقاب: جمع سَقب: عامود.

(٨) اغمطت: دامت.

(٩) ثرّت وارزغت: تبللت.

هبطت تعشار، فتداعى السحاب من الأقطار، فجاء السيل الجرار، فعفا الآثار، وملأ الجفار[1]، وقوب[2] الاشجار، وأحجر الحُضار، ومنع السفار ثم أقلع عن نفع وإضرار، فلما اتلأبّت[3] في الغيطان ووضحت السبل في القيعان، تطلعت رقاب العنان، من أقطار الأعنان، فلم أجد وزراً إلا الغيران، فقات وجار الضب، فعادت السهول كالبحار، تتلاطم بالتيار، والحزون متلفعة بالغثاء، والوحوش مقذوفة على الأرجاء، فما زلت أطأ السماء، وأخوض الماء، حتى أطلعت أرضكم ا هـ.

أغمطت السماء دام مطرها، رهواً ساكتاً، ثرت: تركته ثرية[4]، أرزعت: تركت الأرض في رزعة، والرزغة والردغة: الطين إذا غطّى القدم، رسَغت: بلغت الرسغ، متواصية: متصلة، والهطيطة والخطيطة: أرض لم يصبها مطر بين أرضين ممطورتين، وتعشار: موضع، والعنان: السحاب والأعنان: نواحي الشخب فقأت من القي وجار الضب وهو عندهم غاية ما يوصف به المطر، وهو عندهم الذي يجر الضب من وجارها فيخرجها، من كثرة سيله. وقوله: «والحزون متلفعة بالغثاء» يقول: بلغ الماء رؤوس الحزون ثم نضب عنها فبقي الغثاء في موضعه.

ومن الوصف الجيد التام في تكاثف المطر قول بعضهم:

وقع مطر صغار، وقطر كبار، وكأن الصغار لحمة للكبار. جعل الهواء كالثوب المنسوج من كثرة المطر وتكاثفه.

ومن أجود ما قاله محدث، في وصف السحاب والقطر والرعد والبرق، ما أنشدناه أبو أحمد عن نفطويه للعتابي[5]:

أرقتُ للبرقِ يخفو ثُمَّ يأتلقُ ... يخفيهِ طوراً ويَبديهِ لنا الأفُقُ
كأنه غُرةُ شَهباء لائحةٌ ... في وجهِ دَهماءَ ما في جلدِها بلقُ[6]
أو ثغرُ زنجيةٍ تفترُّ ضاحكةً ... تبدو مشافرُها طوراً وتنطبقُ
أو سلةُ البِيض في جأواءَ مظلمة ... وقد تلقت ظُباها البيضُ والدرق[7]
والغيمُ كالثوبِ في الآفاقِ منتشرٌ ... من فوقهِ طبقٌ من تحتهِ طبق
تظنه مصمتاً لا فتقَ فيه فان ... سالت عواليهِ قلتَ الثوب منفتق

(١) الجفار: الآبار.
(٢) القَوب: حَفر الأرض.
(٣) اتلأبّ الأمر: استقام.
(٤) ثرية: التراب المبلل.
(٥) العتّابي: هو كلثوم بن عمرو التغلبي، أبو عمرو. شاعر محسن وكاتب رسائل. مات سنة ٢٢٠ هـ. (الأعلام: ٥/٢٣١).
(٦) الشّهَب: بياض يصدعه سواد. دهماء: سوداء.
(٧) البيض: السيوف، الجأواء: الأرض الغليظة. الظُبا: حدود السيوف.

إن مَعمعَ الرعدُ فيهِ قلتَ ينخرق ... أو لألأ البرق فيهِ قلتَ يحترق
تستكُّ من رعدهِ أذنُ السميع كما ... تغْشَى إذا نظرتْ من برقهِ الحدق
فالرعدُ صهصلقٌ والريحُ منخرق ... والبرق مؤتلقٌ والماءُ منبعقُ[1]
قد حالَ فوقَ الرُّبى نَورٌ له أرجٌ ... كأنهُ الوشيُ والديباجُ والسَّرَق
من صفرةٍ بينها حمراء قانية ... وأصفرٌ فاقعٌ أو أبيضَ يَقق

فاستحسنت هذه الطريقة فقلت:

برقٌ يطرز ثوبَ الليل مؤتلق ... والماء من نارهِ يهمي فينبعقُ
توقدت في أديم الأرضِ حمرتهُ ... كأنها غرةٌ في الطرفِ أو بلق
ما امتدَّ منها على أرجائه ذهبٌ ... إلا تحدر من حافاته ورِق
كأنها في جبين المزنِ إذ لمعت ... سلاسلُ التبرِ لا يبدو لها حلقُ
فالرعد مرتجسٌ والبرق مختلس ... والغيثُ منبجسٌ والسيلُ مندفقُ
والضال فيما طما من مائهِ غرق ... والجزعِ فيما جرى من سيله شرق
والغيم خزٌّ وأنهاء اللوى زَرَدٌ ... والروضُ وشيٌ وأنوارُ الربى سَرَق[2]
والروضُ يزهوهُ عشبٌ أخضرٌ نضرٌ ... والعشبُ يجلوهُ نَورٌ أبيضٌ يقَقُ

ومما ورد في المياه[3].

من سيولٍ يمجها الوادياتِ ... وثلوجٍ يذيبها العصرانِ
ذو استواءٍ إذا جرَى والتواءِ ... هل تأملتَ مزحَف الأفعوان
فهو حيث استدارَ وقفُ لجينٍ ... وهو حيث استطارَ سَيفُ يمان

وقال[4] ابن المعتز:

لا مثلَ منزلةِ الدويرة منزلٌ ... يا دار جادَكِ وابلٌ وسقاكِ
بؤساً لدهرٍ غيرتكِ صروفهُ ... لم يمحُ من قلبي الهوَى ومحاكِ
لم يَحْلُ بالعينين بعدكِ منظَرٌ ... ذمَّ المنازلُ كلُّهنّ سِواك
أيُّ المعاهدِ منكِ أندُبُ طيبةً ... ممساكِ ذا الآصالِ أو مغداك
أم بَردُ ظلك ذي الغصونِ وذي الحيا ... أم أرضُك الميثاءُ أم ريّاكِ[5]
وكأنما سطَعَت مجامرُ عنبرٍ ... أو فُتَّ فأرُ المِسكِ فوقَ ثَراك

---

(١) الصَهصَلقِ من الأصوات: الشديد.
(٢) السَّرَق: شقق الحرير الأبيض أنهاء: جمع نهي منتهى الرمل الذي يسكن إليه الماء.
(٣) بياض في النسخ.
(٤) ديوانه: ٣١٢.
(٥) الأرض الميثاء: السهلة.

وكـأنـمـا حـصـبـاءُ أرضـكِ جَـوْهـرٌ ... وكـأن مـاءَ الـوردِ دمـعُ نـداكِ
وكـأن دِرعـاً مُـفـرَغـاً مـن فِـضّـةٍ ... مـاءُ الـغـديـر جـرَتْ عليـهِ صَـبـاكِ

وهذه الأبيات أحسن أبيات قيلت في صفة دار.

وقلت:

شـقـقـنَ بـنـا تـيـارَ بـحـرٍ كـأنـهُ ... إذا مـا جـرت فـيـهِ السـفينُ يُـعَـربِـدُ
تـرى مـسـتـقـرَّ الـمـاءِ مـنـه كـأنـهُ ... سبيبٌ على الأرض الـفـضـاءِ مُـمـدَّدُ
ويـجـري إذا الأرواحُ فـيـهِ تـقـابـلت ... كما مـالَ من كفِّ النـهـاميِّ مبـرَدُ[1]
فـإن تـسـكـنِ الأرواح خـلـتَ مـتـونـهُ ... مـتـونَ الصفـاحِ البيضِ حينَ تجـرد
فـطـوراً تـراهُ وهـو سـيـفٌ مـهـنـدٌ ... وطـوراً تـراهُ وهـو دِرْعٌ مـسـرَّدُ
نـصـعـدُ فـيـه وهـو زُرق جِـمـامـه ... فـنـحـسِبُ أنـا فـي الـسـمـاء نـصـعَّـد

وقال ابن طباطبا العلوي في مَدِّ الوادي:

يـا حـسـن واديـنـا ومـدِّ الـمـاءِ ... قـد جـاءَ بـيـنَ الـصـيـفِ والـشـتـاءِ
يـخـتـالُ فـي حُـلـتـهِ الـكـدراءِ ... أكـدرُ يـمـتـدُّ عـلـى غـبـراء[2]
فـي صَـخَـبٍ عـالٍ وفـي ضـوضـاءِ ... يـصـافـحُ الـريـاحَ فـي الـهـواء
تـرى بـه تـنـاطُـحَ الـظـبـاء ... جـمـاءَ قـد شُـدت إلـى جَـمـاء
فـانـظـر إلـى أعـجـبِ مـرأى الـرائـي ... مـن كـدرٍ يـنـجـابُ عـن صـفـاءِ
تـقـشـع الـغـيـم عـن الـسـمـاء

وقال السري في المد وانقطاع الجسر ببغداد:

أحـذركـم أمـواجَ دجـلـةَ إذ غـدت ... مـصـنـدلـة بـالـمـدِّ أمـواجُ مـائـهـا
فـظـلت صغـارُ السفنِ يـرقصنَ وسطهـا ... كـرقص بنـاتِ الزنـجِ عنـد انتشـائِهـا
تـغـرقـهـا هـوجُ الـريـاحِ وتـعـتـلي ... ربى الـمـوجِ من قـدامهـا وورائـهـا
فهنَّ كـدهم الخيـلِ جـالت صفـوفهـا ... وقـد بَـدَرتهـا روعـةٌ من ورائـهـا[3]
كـأن صفـوفَ الـطيـرِ عـاذت بـأرضهـا ... وقـد سامهـا ضَيْمـاً أسـودُ سمـائهـا
أو الـشبَـحُ الـمـسـودُّ حُـلَّت عُـقـودُهُ ... على تـربـةٍ محمـرةٍ من فـضـائهـا

وقلت:

مَـرَرْتُ بـنـهـرِ الـمـشْـرُقـان عـشـيـةً ... فـأبـصـرتُ أقـمـاراً تـروحُ وتـغـربُ
كـأنـهـمُ دُرٌّ تـقـطـعَ سـلـكـهُ ... وغـودرَ فَـوقَ الـمـاءِ يـطفـو ويـرسبُ

---

(١) النّهامي: الحدّاد.

(٢) الغبراء: الأرض. والكدراء: السوداء.

(٣) بدر إليه: عجل إليه.

فكم ثَم من خشفٍ على الماء لاعبٍ … فيا مَنْ رأى خشفاً على الماء يلعب[1]
كأن السميريات فيه عقاربٌ … تجيءُ على زُرقِ الزجاجِ وتذهبُ

وقال أبو بكر الصنوبري:

إذا السماء أعنقت … منها إلى شطّ وشطّ
حسبت أن بطّها … الأمواجُ والأمواجُ بطّ

وقال:

وروضةٌ أريضة الأرجاءِ … من ذهب الزهر لجين الماء
يجري على زمردِ الحصباءِ … بين استواءٍ منهُ والتواء
كما نفضت جَوْنَة الحوّاء

وقال[2] أبو فراس بن حمدان:

أنظر إلى الزهرِ البديعِ … والماءِ في برك الربيع
وإذا الرياحُ جرت عليه … في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا … ئحِ حَلَقَ الدُّرُوع

ومن أوائل ما جاء في ذكر الماء المظلل بالأشجار قول[3] لبيد:

فتوسطا عرْضَ السماء فصدعا … مسجورة متجاوزٌ قُلّامها
محفوفةٌ وسَطَ البراع يظلها … منه مُصرَّعُ غابةٍ وقيامها

وقال[4] بشر بن أبي خازم في البحر:

ونحن على جوانبها قعود … نغضُّ الطرفَ كالابلِ القماحِ
إذا قطعت براكبها خليجاً … تذكر ما لديه من الجُناحِ

---

(١) الخشف: ولد الظبي.
(٢) ديوان: ١٨٩.
(٣) ديوانه: ١٧٠.
(٤) الشعر والشعراء: ١/١٩٠.

الفصل الثاني من الباب السابع

في ذكر الرياض والأنوار والبساتين والثمار وما يجري مع ذلك

أخبرنا أبو أحمد، عن رجاله، عن أبي عمرو، وغيره قالوا: أجود ما قيل في وصف روضة قول[1] الأعشى:

ما روضة من رياضِ الحزنِ معشبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مسبلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ ... مؤزرٌ بعميم النبتِ مكتهلِ
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصلُ

قال المصنف:

خص العشي، لأن كون الانسان بالعشي أحسن منه بالغداة، لرقة تعلوه بالعشي وتهيج يعتاده بالغداة، وتعتري الألوان بالعشيات، صفرة قليلة تستحسن، ولذلك شبهها بالروض لما في الروض من الزهر وهو أصفر.

ومن هذا قوله أيضاً:

وصفراء العشية كالعرارة

وقال بعضهم: بل خص العشي لنقصان الحسن فيه، قال: فشبهها في نقصان الحسن، بالروضة في حال تمام حسنها، وليس كذلك لأن الروض بالغداة أحسن منه بالعشي.

والتشبيه المصيب من الشعر القديم قول بشر بن أبي خازم:

وروضٍ أحجمَ الروادُ عنهُ ... له نَفَلٌ وحَوْذان تؤامُ[2]
تعالى نبتهُ واعتمَّ حتى ... كأنَّ منابتَ العُلجان شامُ[3]

الشام: جمع شامة أي ظاهر كظهور الشامة في الوجه، ويقال: ما أنت إلا شامة أي أمرك ظاهر.

---

(١) ديوان الأعشى: ٥٧.

(٢) النَّفَل والحوذان: ضربان من النبات.

(٣) العُلجان: نبت. وهو جماعة العِضاه.

وأنشد الجاحظ قول النمر بن تولب العكلي:

ميثاءُ جادَ عليها مسبلٌ هطلٌ ... فأمرعت لاحتيال فرطَ أعوامِ
إذا يجفُّ ثراها ديمٌ ... من كوكب نازلٍ بالماء سجام
لم يرعها أحدٌ وارتبها زمنا ... فأوٌ من الأرض محفوفٌ بأعلامِ
تسمعُ للطيرِ في حافاتها زَجَلاً ... كأنَّ أصواتها أصواتُ خُدامِ
كأنَّ ريحَ خُزاماها وحَنوتها ... بالليلِ ريحُ يلنجوجٍ وأهضام(١)

ولم يدع شيئاً يكون في الخصب إلا ذكره.

ومن أبلغ ما وصف به كثرة الكلأ، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن عمه، عن ابن الكلبي، عن أبيه، قال:

خطب ابنة الخس ثلاثة نفر من قومها، فارتضت أنسابهم وجمالهم، وأرادت أن تسبر عقولهم فقالت لهم: إني أريد أن ترتادوا إلى مرعى، فلما أتوها قالت لأحدهم: ما رأيت؟ قال: رأيت بقلاً وبقيلاً، وماءً غدقاً سيلا، يحسبه الجاهل ليلاً قالت: أمرعت. وقال الآخر: رأيت ديمة فوق ديمة، على عهاد غير قديمة، فالناب تشبع قبل الفطيمة.

وقال الثالث: رأيت نبتاً ثعداً معداً متراكباً، جعداً، كأفخاذ نساء بني سعد، تشبع منه الناب وهي تعدو. اهـ.

بقلاً وبقيلاً: يقول بقل قد طال وتحته عمير قد نشأ، والغدق: الكثير يحسبه الجاهل ليلاً من كثافته وشدة خضرته، والديمة المطر يدوم أياماً في سكون ولين، والعهاد أول ما يصيب الأرض من المطر الواحد عهد، تشبع منه الناب قبل الفطيمة: يريد أن العشب قد اكتهل وتم فالناب وهي المسنة من الابل تشبع قبل الصغيرة منها لأنها تنال الكلأ وهي قائمة لا تطلبه ولا تبرح موضعها، والفطيمة تتبع ما صغر والصغير فيه قليل. وهذه صفة بليغة.

وأبلغ منها قول الآخر: تشبع منه الناب وهي تعدو أي من طول النبات وكثرته وعمومه، تعدو وتأكل لا تحتاج إلى تتبعه وطأطأة رأسها له. ولا أعرف في جميع ما وصف به كثرة الكلأ أبلغ من هذا. والثعد: الرطب اللين والمعد اتباع. والثرى الجعد: الذي قد كثر نداه فإذا ضممته بيدك اجتمع ودخل بعضه في بعض كالشعر الجعد، وخص نساء بني سعد لأن الأدمة فيهم فاشية.

ومن أبلغ ما قيل في طول الكلأ قول الآخر أنشده ابن السكيت وثعلب:

أرعيتُها أطيبَ أرضٍ عودا ... الصِّلَّ والصِّفْلَّ واليعْضيدا(٢)
والخازبازِ السَّنمَ المجُودَا ... بحيثُ يدعو عامرٌ مسعودا

يقول: قد سد النبات، من طوله وسبوغه، مسعوداً فليس يراه عامر، فهو يصيح به، الصل

(١) الخزامي والحنوة: نبتان طيبا الرائحة. اليلنجوج: السند ومثله الأهضام.

(٢) الصِّفصلّ واليعضيد: نبتان من البقول.

والصفصل وخازباز ضرب من النبات. وليس ألفاظ الأبيات بالمختارة إنما اخترتها لجودة معناها.

ونظر أعرابي إلى يوم دجن، وإلى نبات غض فاستحسن فقال ارتجالاً:

أنتَ والله من الأيـ ـام لَدْنُ الطَّرَفَيْن
كلما قلبتُ عيـ ـنيَّ ففي قرَّةِ عينِ

وقلت:

أتاهُ يُريدُ المزنَ ينشدهُ الصبا فدَوَّمَ من أعلى رُباه ودَّيما
ولاح إليه بالبروقِ مُطرزاً فأصبح منها بالزواهرِ معلما

ومن بديع ما قاله محدث، في صفة الرياض والبساتين، قول عبد الصمد بن المعذّل أنشدناه أبو أحمد وغيره:

مغانٍ من العيش الغريرِ ومَعْمر ومبدى أنيقٌ بالعُذيب ومَحضرُ
نما الروضُ منهُ في غداةٍ مَريعةٍ لها كوكبٌ يستأنقُ العينَ أزهرُ
ترى لامعَ الأنوارِ فيها كأنه إذا اعترضتهُ العينُ وشيٌ مُدنَّر[1]
تَسابقَ فيهِ الأقحوانُ وحَنْوةٌ وساماهما رنَدٌ نضيرٌ وعبهرُ[2]
يمجُّ ثراها فيهِ عفراء جعدة كأن نداها ماءُ وردٍ وعنبر
أعادَ نسيمُ الريحِ أنفاسَ نشرهِ وخايل فيه أحمر اللون أصفرُ[3]
بدا الشيحُ والقيصومُ عند فروعه وشثٌ وطُبَّاقٌ وبانٌ وعَرْعرُ[4]
وناضرُ رمانٍ يرفُّ شكيرهُ يكادُ إذا ما ذرت الشمسُ يقطر
ويَانعُ تفاحٍ كأنَّ جنيَّهُ نجومٌ على أغصانِه الخضرِ تزهر
إذا زرتهُ يوماً تَغَرد طائرٌ ورناك ظبيٌ بينَ غصنين أحورُ
فإذ هاجَ نوحُ الأيكِ في رونَقِ الضحى تذكر محزونٌ أو ارتاحَ مقصر[5]
تجاوبنَ بالترجيع حتى كأنما ترنَم في الأغصانِ صنجٌ ومِزهر
مراناةَ مومومقٍ وترجيعَ شائقٍ فللقلب ملهاةٌ وللعينِ منظر
واني إلى صحنِ العذيبِ لتائقٌ واني إليه بالمودَّةِ أصوَر[6]
مرعت ولا زالت تصوبك ديمةٌ يجودُ بها جونُ الغواربِ أقمرُ
أحم الكلى واهي العرَى مسبل الجدى إذا طعنت فيه الصبا يتفجرُ

---

(١) مدنّر: متلألىء.

(٢) الأقحوان، وحنوة، ورند، وعبهر: من البناتات.

(٣) خايل: فاخر.

(٤) الشيح والقيصوم والبان والعرعر: نباتات.

(٥) الأيك: الشجر الكثيف الملتف.

(٦) اصور: مائل: العذيب: موضع.

كـأنَّ ابتسـامَ البـرقِ في حجـراتِـه   مـهـنـدةٌ بـيضٌ تـشـامُ وتـشـهـرُ

وقول ابنِ المعتز يتضمن صفة الأنوار على التمام ولا يكاد يشذ منه شيء البتة وهو:

والـروضُ مغسـولٌ بليـلٍ ممطـرِ   جَـلا لنـا وجـه الثرى عنم منظرِ[١]
كالعضبِ أو كالـوشي أو كالجـوهرِ،   مـن أبيضٍ وأحـمـرٍ وأصفـرِ[٢]
وطـارقٍ أجـفـانُـه لـم تـنـظر،   تخـالُـه العَين فـمـاً لم يُغْفـر[٣]
وفـاتـقٍ كـادَ ولـم يـنـوِّر،   كـأنـه مـبـتـسـمٌ لـم يَـكْـشِـر
وأدمـعِ الـغُـدْران لـم تـكـدَّرِ،   كـأنـه دراهـمٌ فـي مَـنْـثـر[٤]
أو كعشـورِ المصـحفِ الـمنشـر،   والشمس في أصحاءِ جوِّ أخضر[٥]
كـدمعـةٍ حـائـرةٍ في محجَـرِ،   تُسقي عُقـاراً كـالسّـراج الأزهـر[٦]
مُـدامـةً تَـعْـقِـر إن لـم تُـعـقَـر،   يـديـرهـا كـفُّ غـزالٍ أحـور[٧]
ذي طُـرّةٍ قـاطـرةٍ بـالـعـنـبـرِ،   ومَلثَم يـكـشـفُـه عـن جـوهـرِ[٨]
وكَفَـلٍ يَشْغَـلُ فضـلَ المِئـزَر،   تـخبـرُ عـينـاهُ بـفسـقٍ مضـمَـرِ
يـعـلّم الـفـجـور إن لـم يَـفـجُـر[٩]

وقلت:

جـواهـرُ عـشـبٍ ونـوْرٍ نـظيـم   وأفـرادِ ظـلٍّ وقـطرٍ نـثـيـرِ
فمن بـين صُـفـرٍ وحُمـرٍ وخُـضـر   عـلى القـضبِ غـيـدٍ وزور وصـورِ
ولـعسٍ تـنـاسـبُ لـعسَ الـشـفـاه   وبيضٍ تعـارضُ بيض الثغـورِ[١٠]
نـواظِـرِ من بينِ يقـظى ووسنى   ونُجـلٍ وحُـزْرٍ وحُـولٍ وحُـورِ[١١]

وقد استوفى في هذه الأبيات، جميع أوصاف الأنوار، على اختلاف حالاتها. وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا التنوخي لنفسه:

---

(١) في الديوان: ٢١٦ والعجز «كأنه دراهم في منشر».
(٢) في الديوان: «كالعصب».
(٣) في الديوان: «وطارق أجفانه». «ولم يُفغر».
(٤) في ديوانه: «في منثر».
(٥) في ديوانه: «أو كتفسيرِ مصحف مفسّر»، و «إصحاء».
(٦) في ديوانه: «جارية في».
(٧) في ديوانه: «تديرها».
(٨) في ديوانه: «عاطرة كالعنبر ومبسم».
(٩) في ديوانه: «وكفل يشغل». «عيناه بعشق». «من لم» والكَفَل: الرِّدف.
(١٠) اللعس: السواد في الشفة.
(١١) الوسَن: ذبول العين. العين النجلاء: الواسعة. الخزْر: كسر العين بصرها. الحَوَر: شدة سواد العين مع بياض

أما ترى الروضَ قد وافاك مبتسماً ... ومدَّ نحوَ النَّدامى للسلام يدا
فأخضرٌ ناضرٌ في أبيض يَقق ... وأصفر فاقع في أحمر نُضدا
مثل الرقيبِ بدا للعاشقينَ ضحى ... فاحمرٌ ذا خجلا واصفرٌ ذا كمدا

ومن المشهور قول الحماني :

دِيَمٌ كأنَّ رياضها ... يُكسين أعلامَ المطارفِ
وكأنما غُدرانُها ... فيها عُشورٌ في مصاحفِ
وكأنما أنوارُها ... تهتزُّ بالريحِ القواصفِ[1]
طرر الوصائفِ يلتفتـ ... ـنَ بها إلى طُررِ الوصايف

وقلت :

وروضةٍ حاليةِ الصدور ... كاسيةِ البطونِ والظهورِ
محمودة المخبورِ والمنظور ... مونقةِ المطويِّ والمنشورِ
معجبة الظاهرِ والمستور ... ضاحكة كالوافدِ المحبور
باكية كالعاشقِ المهجورِ ... شذَّرها الغيثُ بلا شذور
شقائق كناظرِ المخمور ... وأقحوان كثغورِ الحورِ
ونرجس كأنجم الدَّيجورِ ... والطلّ منثور على منثورِ[2]
يرصعُ الياقوتَ بالبللورِ

وقال السري وأحسن، وليس فيمن تأخر من الشاميين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منه :

وجناتٍ يُحي الشرْبَ وهْناً ... جَنَى وهْدَاتِها وجنى ربَاها
إذا ركد الهواءُ جرت نسيماً ... وإن طاحَ الغمامُ طَغَتْ مياها
يُفرِّجُ وشيها عن ماءِ وردٍ ... يفيضُ على اللآليء من حصاها
تعانقُ ريحها لممَ الخزامى ... وأعناق القرنْفُل في سُراها
ويأبى زهرُها إلا هجوعاً ... ويأبى عَرْفُها إلا انتباها[3]

وقال[4] البحتري :

قطرات من السحابِ وروض ... نشرت وردها عليهِ الخدودُ
فالرياحُ التي تَهبُّ نسيمُ ... والنجومُ التي تطلُّ سعود

وقال[5] ابن الرومي :

---

(١) في نسخة : «تفترّ بالريح».
(٢) الدّيجور: الليل، الطل: الندى.
(٣) العرف: الرائحة.
(٤) ديوانه: ١/ ٤٣ ص.
(٥) ديوانه: ٣/ ٩١.

أصبحت الدنيا تروقُ من نظرْ بمنظرٍ فيه جِلاءٌ للبصْرِ
واهاً لها مصطنعاً لقد شكرْ أثنتْ على اللهِ بآلاءِ المطرِ
والأرضُ في روضٍ كأفواه الحِبَر تبرّجتْ بعدَ حياءٍ وخَفَرِ
تبرُّجَ الأنثى تصدّى للذّكرِ

وقال[1] وأحسن:

وحِلسٍ من الكتانِ أخضرَ ناضرٍ يُباكرُه دانِ الرَّباب مَطيرُ[2]
إذا دَرَجتِ فيه الرياحُ تتابعتْ ذوائبهُ حتى يقالَ: غديرُ

وقلت:

أنظر إلى الصحراء كيفَ تزخرفت وإلى دموعِ المزنِ كيف تُذَرِّف
وعلى الربى حُللٌ وشّاهُنَّ الحيا فَمسهمٌ ومُقصبٌ ومُفوَّفُ[3]
وملابس الأنواء فيها سُندسٌ ومضاجعُ الأنداءِ فيها زخرفُ
نمَّ الرياحُ على الرياضِ نمائماً ذَكرنَك الكافورَ حين يَدُوق[4]
وعلى التلاعِ من الأقاحي حُلةٌ وعلى اليفاع من الشقائقِ مطرف
والغيمُ تنقشُه الرياحُ عَشيةً كالقطن في زرقِ الثياب ينْدفُ
والقطر يهمي وهو أبيض ناصعٌ ويصيرُ سيلاً وهو أغبرُ أكلف
والبرقُ يلمعُ مثلَ سيفٍ يُنتَضى والسيلُ يجري مثل أفعى تزحف

وقول أعرابي: باكرنا وسميٌّ[5]، ثم خلفه وليٌّ، فالأرض كأنها وشي منشور، عليه لؤلؤ منثور، ثم أتتنا غيوم بمناجل حصاد، فاختربت البلاد، وأهلكت العباد فسبحان من يهلك القويَّ الأكول، بالضعيف المأكول.

وقال[6] أبو تمام:

الروضُ ما بينَ مغبوقٍ ومصطبحِ من ريقِ محتفِلاتٍ بالحيا دُلُحِ[7]
جُونٌ إذا هطلت في روضةٍ طفِقَتْ عيونُ نُوّارِها تبكي من الفرحِ[8]

وقال أبو الغضبان اليمامي:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٨٢/٣.

(٢) حِلس: كساء يوضع على الدابة تحت البرذعة. الرّباب: السحاب الأبيض.

(٣) الحيا: المطر. الثوب المسَهّم: المخطط. والمفوّف: الرقيق أو فيه خطوط بيض.

(٤) داف: خلط. الدَّوْف: الخلط.

(٥) الوسمي: أول المطر. الولي: ما يليه.

(٦) ديوانه: ٣٧١.

(٧) المغبوق: الشارب مساءً. والمصطبح: الشارب صباحاً. دُلُح: سحب ممتلئة.

(٨) جُون: سود.

غدونا على الروضِ الذي طلهُ الندَى سحيراً وأوداجُ الأباريقِ تسفكُ
فلم أرَ شيئاً كانَ أحسنَ منظراً من الروضِ يجري دمعه وهو يضحك

وقال غيره:

وإذا الزمردُ مثمر ذهباً ومن اللجين لعسجد ورق(١)
لا زال يُمْتِعُنا بجِدتِه وجديده بجديدنا خَلَقُ

وقال غيره في تلون الأرض:

فترى الرياضَ كأنهنّ عرائسٌ يُنقلنَ في صفراءَ من حمراء

وقال(٢) أبو تمام:

رقّت حواشي الدهرِ وهي تَمرْمَرُ وغدا الندَى فس حليهِ يتكسرُ(٣)
مطرٌ يروقُ الصحوُ منهُ وبعدهُ صحوٌ يكادُ من النضارةِ يمطرُ
وندىً إذا ادَّهنت به لممُ الثرَى خلتَ السحابَ أتاهُ وهو معذِّر(٤)
ما كانتِ الأيامُ تسلبُ بهجةً لو أنَّ حُسنَ الروضِ كان يُعمَّر
أوَ لا ترى الأشياء إذ هي غيرت سَمُجَت وحسنُ الروضِ حينَ يغيَّرُ(٥)
يا صاحبيَّ تقصّيا نظريكما تَريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوّرُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابهُ زهرُ الرُّبى فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاشٍ للورى حتى إذا جلّي الربيعُ فإنما هي منظرُ(٦)
أضحت تصوغُ ظهورَها لبطونِها نوراً تكادُ له القلوبُ تنور(٧)
من كلِّ زاهرةٍ ترَقْرَقُ بالندى فكأنما عينٌ عليه تحدّرُ
تبدو ويحجبها الجَميمُ كأنّها عذراءُ تبدو تارةً وتخفّرُ

الجميم متكاثف النبت، يقول: يظهر بتحريك الرياح إياه، ويستتر عند سكونها فيغطيه الجميم:

صنعُ الذي لولا بدائعُ لطفهِ ما عاد أصفرَ بعدَ إذ هو أخضرُ

وقلت في مديح:

إني أرى لك في السماحة والندَى طلقاً ذَرَيْتَ به على الأَطلاقِ
طَلَق الغمامِ سرَى بوجهٍ باسرٍ يُروي الوجوهَ ومبسم براق

---

(١) الزمرد: من الأحجار الكريمة. العسجد: الذهب. اللجين: الفضة.
(٢) ديوانه: ١٣٨.
(٣) تمرمر: تهتز. يتكسر: يتثنى. وفيه: «وغدا الثرى في حليه يتكسّر».
(٤) لمم: جمع لمة: لحية. معذر: نبت شعر عذاره.
(٥) في الديوان: «إن هي... حين تغيرّ».
(٦) في الديوان: «إذا حل».
(٧) في الديوان: «بطونها لظهوره.. نوراً».

ثقلت على عنق الصبا أعباؤهُ … مثل الضعيف بنوء بالأوساقِ
فترى النباتَ يروقُ وسط رياضه … مثل الحليِّ تروقُ وسطَ حِقاقِ

وقال[1] البحتري:

إذا أردتَ ملأتَ العين من بلدٍ … مستحسنٍ وزمانٍ يشبهُ البلدا
يمسي السحابُ على أجبالها فرقاً … ويصبح الروضُ في صحرائها بِدَدا
فلستَ تبصرُ إلا واكفاً خضلاً … أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا

وقال[2] أيضاً:

ولا زال مخضرٌّ من الأرض يانع … عليه بمحمرٍّ من النورِ جاسد
يذكرنا ريَّا الأحبةِ كلما … تنفس في جنح من الليل باردِ
شقائقُ يحملنَ الندَى فكأنهُ … دموع التصابي في خدودِ الخرائدِ[3]
ومن لؤلؤ في كالأقحوانِ مُنضد … على نكت مصفرة كالفرائدِ
كأنَّ جنى الحوْذان في رونقِ الضحى … دنانيرُ تبر من توأم وفارد[4]
رباع تروت بالرياض مَجودة … بكلِّ جديد الماءِ عذبِ الموارد
إذا راوحتها مزنةٌ بكرت لها … شآبيب مجتاز عليها وقاصد[5]
كأنَّ يَدَ الفتح بنِ خاقانَ أقبلت … تليها بتلك البارقاتِ الرواعدِ[6]

وقلت:

أما ترى عودَ الزمانِ نضرا … ترى لهُ طلاقةً وبشرا
أتته ألطافُ السحابِ تترى … وساقت الجنوبُ غيماً بكرا
تَبسُط في الصحراءِ بُسطاً خضراً … وتمنحُ الروضةَ زهراً صفرا
ونرجساً مثلَ العيونِ زهرا … وأقحوانٍ كالثغور غرّا
كأنما يصوغ فيها تِبرا … كأنما يَدُوفُ فيها عطرا[7]
كأنما ينشرُ فيها دُرّا … فأعمل الكاساتِ شُمْطاً شُقرا
كالماءِ لوناً والعبير نَشرا … ثم مُرِ الزِّيرَ يناغي الزمرا
والعيشُ أن تُسَرَّ أو تَسُرّا … لا تفسدَنَّ بالغرامِ العمرا

---

(١) ديوانه: ١/١٥ ص.

(٢) ديوانه: ١/٣٦. ص

(٣) الخرائد: جمع الخريدة: الشابة.

(٤) التبر الذهب. توأم: اثنين. الفارد: المفرد.

(٥) المزنة: الغيمة الماطرة. شابيب: جمع شؤبوب: دفعة المطر.

(٦) الفتح بن خاقان: وزير المتوكل العباسي وجعل له إمارة الشام، وكان فصيحاً بليغاً، شاعراً اديباً كاتباً. مات سنة ٢٤٧ (الأعلام: ٥/١٣٣).

(٧) يدوف: يُذيب ويخلط.

أحسن ما قيل في النرجس قول(1) أبي نواس:

لـدى نـرجسٍ غضِّ القـطافِ كـأنـهُ ... إذا مـا منحنـاهُ العيـونَ عيـونُ
مخـالفـة فـي شكـلهنَّ فـصفـرةٌ ... مكـانَ سـوادٍ والبيـاضُ جفـون

والناس يشبهونه بالعيون ولا يفضلون هذا التفضيل.

ومما لم يقل مثله قول(2) ابن الرومي:

خجلتْ خُـدودُ الـوردِ من تفضيـلهِ ... خـجـلاً تـورُّدُهـا عليـهِ شـاهـدُ
لم يخجـلِ الـوردُ المـورودُ لـونـهُ ... إلا ونـاهـله الـفـضيـلة عـائـدُ
للنـرجسِ الفضـل المبينُ وإن أبى ... آبٍ وحـاد عنِ الـطريقـة حـائـدُ
فـصـل القـضيـة أن هـذا قـائـدٌ ... زهـرَ الـربيـع وأن هـذا طـاردُ
شتّـان بيـن اثنيـن هـذا مُـوعـدٌ ... بتسـلُّبِ الـدنيـا وهـذا واعـدُ
وإذا احتفـظتَ بـه فـأمتعُ صـاحـبٍ ... بحيـاتـهِ لـو أنَّ حيـاً خـالـدُ
يحكي مصـابيـحَ السمـاءِ وتـارةً ... يحكي مصـابيحَ الـوجـوهِ تُـراصد
ينهي النـديمَ عن القبيـح بلحـظهِ ... وعلى المـدامةِ والسمـاع يُساعـدُ
إن كنتَ تـطلبُ في المـلاح سميَّـهُ ... يـومـاً فـإنك لا محـالـةَ واجـد
هـذي النجـومُ هي التي ربتهمـا ... بحيـاً السحابِ كما يُـربّى الـوالـد
فـانظر إلى الأخـوين: مَن أدنـاهمـا ... شبهـاً بـوالـدِه، فـذاك المـاجـدُ
أين العيـونُ من الخـدود نفـاسـةً ... وريـاسـةً لـولا القيـاسُ الفـاسـدُ؟

وقلت:

ونـرجس مـثـل أكـفّ خُـرَّدِ ... درن عـلينـا بكـؤوس الـذهـبِ(3)
نـاولـنيـه مـثلهُ فـي حسـنـه ... فحـلَّ من قـلبيَ عـقـدَ الكُـرَبِ
مـبـتـسـمُ عـنـهُ ونـاظـرٌ بـه ... هـذا لعمـري عجبٌ في عجبِ

وقلت في معناه:

ألم تـرنـا نعـطي الغوايـةَ حقهـا ... ونجري مع اللذاتِ جريَ السوابق
بمحمـرةِ الأجسـادِ مبيضـة الـذُّرى ... كمثلِ سقيطِ الطلِّ فوقَ الشقائق(4)
لدى الصفر في أوساطِ بيضٍ كأنها ... كـؤوسُ عُـقـار في أكـفِّ عـواتـق

وقال ابن الرومي:

---

(1) ديوانه: ٥٩٩.

(2) ديوانه: ٢/١٦٠.

(3) الخرّد: جمع الخريدة: الشابة.

(4) الطل: الندى.

للنــرجسِ الفضـلُ بــرغم مَن رغم ... على صُنوفِ الـوردِ والفضـلُ قسمْ
العيـنُ قبـلَ السنِّ وهي المبتسم ... فما لها والخـدّ وهـو الملتَـدَم[1]
مـا أطيب الـريـحِ ومـا أزكى النسم ... مـا هــو إلا نـعـمـةٌ مـن الـنـعـم

ومن التشبيه المصيب قول الآخر:

ونــرجسٌ لاحــظني طــرفهـا ... يـشبـهُ دينـاراً عـلى دِرْهـم

وقال[2] ابن الرومي في الخمر والنرجس:

ريـحـانـهـم ذهبٌ عـلى دُرَرٍ ... وشـرابـهـم دُرَرٌ عـلى ذهـبِ

وقلت:

يـركبُ الأقحـوانُ فيهـا نهـاراً ... فـتـرى درهـمـاً عـلى دينـارِ
فـرشَتْ فـوقَهـا فـرائـدُ طـلٍّ ... علقت بـالـنبـاتِ والأشجـار
وتـدلّت على الغصـونِ فجـاءت ... كشنـوفِ الكـواعبِ الأبكـارِ[3]

وقال الآخر:

ونـرجس قـامَ فـوقَ مـنـبـره ... مـثـلَ عـروس تُجلى وتشتـهـرُ
نـامَ النـدَى في عيـونـهِ سحـراً ... فـاعـتـاده من مـنـامـهِ سـهـر
لـم يـغـتـمض والـظلامُ حَـلَّ بـهِ ... كـأنـمـا في جـفـونـه قـصـرُ
تـحـيـرَ الـطَّلُّ فـي مَـدامـعِـهِ ... فليسَ يـرقـا وليس يـنـحـدر[4]
كـدمـعـةِ الـصـبِّ يـسـكـبـهـا ... فـردَّهـا في جُـفـونِـهِ الـحـذرُ

وقلت:

وغـنـت الـطيـرُ بـألـحـانـهـا ... فـانـتبـهَ الـنـرجسُ من رقـدتـه

وأحسن ما قيل في الورد قبل أن يتفتح قول بعض المحدثين:

قـد ضمـهُ في الـغصـن قَـرْصُ بَـرْد ... ضـمّ فَـمٍ لـقُـبـلةٍ مـن بُـعـدِ

وقلت فيه إذا تفتح:

مـرَّ بـنـا يهتـزُّ في خـطره ... مـا بيـنَ أغـصـان وأقـمـارِ
يـديـرُ فـي أنـمـلهِ وردةً ... جـاءت من المسك بـأخبار
يلوحُ في حُمـرتهـا صُـفـرةٌ ... كـالخدِّ منقـوطـاً بـدينـارِ

وقال ابن المعذل:

---

(١) لدم: ضرب. الملتَدَم: مكان الضرب. والأبيات في ديوان ابن الرومي: ١٦٩/٦.

(٢) ديوانه: ١٣٦/١.

(٣) الشنوف: الأقراط. الكواعب الأبكار: الفتيات الحسناوات.

(٤) الطل: الندى.

عشيــة حيــاني بــوردٍ كــأنــه خُــدودٌ أضيفت بعضهن إلى بـعض

وقلت:

قُـومي وانظري ورداً كخـدك أحمـراً تـرَك الـربـيـعَ وراءهُ وتـقـدمـا

قـد ضمـهُ بـردُ فـفـتـقـهُ نـدى كـالصبِّ قبـلَ فـاك ثم تـبسـمـا

ولم أجد في تشبيه الورد أبدع مما ذكرته، وتشبيهه بالخد تشبيه مصيب، ولكني تركت الإكثار منه لشهرته وكثرته، ويقال للوردة الحمراء الحوجة، وللبيضاء الوتيرة، ويشبه بها قرحة الفرس قال عمرو بن معدي كرب:

تـبـاري قُـرْحَـةً مـثـل الـ ـوتيـرة لم تكـن مـعـذا[1]

وقد أحسن علي بن الجهم في قوله[2] يصف الورد:

كـأنـهـن يـواقيـتٌ يـطيـفُ بـهـا زمـرُّدٌ وسطهـا شَـذْرٌ من الـذهبِ

وهو من قول أزدشير:

الورد ياقوت أحمر وأصفر، ودر أبيض، على كراسي زبرجد، يتوسطه شذور ذهب.

وقال[3] البحتري:

وقـد نبـهَ النيـروزُ في غلسِ الـدجى أوائـلَ وردٍ كُـنَّ بـالأمس نُـوَّمـا

يـفـتـحـهُ بـردُ الـنـدى فـكـأنـه يـبثُّ حـديثـاً كـان قبـلُ مكـتـمـا

وقلت في تفضيل الورد على النرجس:

أفضـلُ الـوردَ على الـنـرجسِ لا أجعـلُ الأنجمَ كـالأشمسِ

ليسِ الـذي يقعـدُ في مجلس مثـلَ الذي يَمْثـلُ في المجلسِ

وقال ابن بسام:

مـداهـنٌ مـن يـواقيـت مُنضـدة على الـزمرّدِ في أوساطهـا الـذهبُ

كـأنـه حينَ يبـدو من مـطالـعـهِ صَبٌّ يُقَبـلُ صبـاً وهـو مـرتـقبُ

ومن الياقوت الأزرق والأصفر والأحمر، وليس في البيت دليل، على أنه أراد الأحمر دون لأزرق، فهو معيب من هذه الجهة.

وقلت في الورد على الشجر:

أصبحَ الـرود في الغصـونِ يحـاكي أوجـهَ الحـورِ في مقـامـع خضـرِ[4]

مـثـل فـرسـانِ غـارةٍ يَعْـتَـلِيهـم لـمـعٌ من دمـاء سَـحْـرٍ ونحـرِ

ويـلـوحُ الـنـهـارُ أسـفـلَ مـنـهُ فهـو كالـرَّجـلِ في عمـائم صفـرِ[5]

(١) القُرحة في وجه الفرس دون الغرّة. مغدى: شَبَه.

(٢) ديوانه: ١١١.

(٣) ديوانه: ١/٨٤.

(٤) المقامع: جمع القمع.

(٥) الرّجل: الرجال.

بين نَبْذ من الشقائق يحكي غِلْمَةَ الدرِّ في مطارف حمر[1]

وقال ابن المعتز:

ولازورديَّـةٍ أوفَـتْ بـزُرقَـتِـهـا   بين الرياضِ على زرْقِ اليـواقيتِ[2]
كـأنها فـوقَ طـاقـاتٍ ضعّفنَ بها   أوائـلَ النـارِ في أطـرافِ كبـريت

والصحيح أنه في الخُرَّم والشاهدِ قوله:

بنفسـجُ جمعتْ أطـرافـهُ فحكَت   دمعـاً ينشفُ كُحـلا يـومَ تشتيـتِ

وقوله:

كـأنـهـا فـوق طـاقـات ضـعـفـن بـهـا

ويدل على أنه أراد الخرم، لأن ساق البنفسجة لا يضعُف عن حمل وردتِها، وهذا الوصف بالخرَّم أشبه منه لكبر نَوره ودقةِ ساقه فاعرف ذلك.

وقلت في البنفسج:

وروضـةٌ كـأنهـا من حسنِهـا   تبـرزُ في أثـوابِ سعـد ومُنى
قـد نشرَ الليـلُ علي أنـوارِهـا   لآلـىءَ الـطلِّ وأفـرادَ النـدى
بكتْ عليهـا مُـزنـةٌ فـابتسمتْ   عـن لؤلـؤٍ بيـنَ فُـرادى وثـنـى
وحـولَـهـا بـنـفـسـجٌ كـأنَّـه   أواخرُ النيرانِ في جزلِ الغضا[3]

وقال آخر:

وكـأنَّ البنفسـجَ الـغضَّ فيـه   أثـرُ اللطمِ في خـدودِ الغِيـدِ

وقلت:

وبحـافـاتهـا البنفسـج يحكي   أثرَ القرصِ في خدودِ العذارى

وقلت في الهنة النادرة تحت ورقة البنفسج ولم أسمع فيها من الشعر العربي شيئاً:

ومغنـج قـال الكمـالُ لخلقـهِ   كن مَجْمَعـاً للطيبـاتِ فكـانـهُ
زعَمَ البنفسـجُ أنـهُ كعـذارهِ   حُسنـاً فسلُّوا من قفـاهُ لسـانَه

وقال ابن الرومي:

أشـرب عـلى وردِ البـنـفـســـج قبل تـأنيب الحسُودِ
فـكـأنـمـا أوراقـهـا آثـارُ قَـرص فـي الـخـدود

أغرب معنى جاء في الشقائق قول الأخيطل:

هـذي الشقائقُ قـد أبصرتُ حمـرَتها   مستشـرفاتٍ على قضبانِهـا الـذلـلِ

---

(١) غلمة: جمع غلام.

(٢) لازوردي: نسبة إلى لازورد ومعرب لاجْوَرد الفارسية) وهو من الاحجار الكريمة لونه أزرق اليواقيت: جمع ياقوت: حجر كريم

(٣) الغضا: شجر.

كـأنهـا دمعـةٌ قـد مَسَّحتْ كُحُـلاً   جـالتْ بـهِ وقفةٌ في وجنتي خجِلِ

وأظن الأخيطل ابتكره، إلّا أنه أورده في أهجن معرض، وفي أشد ما يكون من التكلف وأتى بالمحال لأن الوقفة لا تجول.

فنظمته وقلت:

وشقـائقٌ نـقشَ الـربيـعُ ثيـابَهـا   فـبـرزنَ بيـنَ مُكـحَـلٍ ومُجَسَّـدِ
كـالخـدِّ يصبغـهُ الحيـاءُ بحمـرةٍ   وجـرى عليهِ الـدمعُ خلطُ الإثمدِ[1]

ومن غريب ما قيل فيها قول بعض المتأخرين:

طـربَ الشقائقُ للحمامِ وقـد شجا   شجـوَ القيـانِ فشقَّ فضـلَ ردائـه[2]
وتحيـرت مـا بين إثـمـد مـاقـه   في الخـدِّ دمعتـهُ وبينَ حيـائـه
فكـأنـه الحَبشـيُّ بُضِّـعَ جسمُـهُ   فـثيـابـهُ مُـخضـلّةٌ بـدمـائـه

وجعل الشقائق واحداً، وهي جماعة مؤنثة والواحد شقيقة، فإذا ذُكّر فعلى معنى النَّور وتسمِّيه العرب الشقر.

وقلت:

ولـلشقـائـق خـالٌ فـوقَ وجنتِهـا   ووجنـةِ الـوردِ بـالـدينـارِ منقـوطَـه

وقال التنوخي:

شـقـائـقٌ مـثـلُ خـدودٍ نُـقـشـتْ   شـواربٌ بـالمسـكِ فيهـا ولـحى

وهو بعيد لأن السواد الذي فيها لا يشبه الشوارب.

ومن أحسن ما قيل في الآذريون قول ابن المعتز:

يـا ربـمـا نـازعـنـي   رُوح دِنـانٍ صـافـيـه[3]
فـي روضـةٍ كـأنـهـا   جـلد سـمـاءٍ عـاريـه
كـأنـمـا أنـهـارهـا   بـمـاء وردٍ جـاريـه
كـأن آذَرْيُـونـهـا   غِـبُّ سـمـاءٍ هـامـيـه
مـداهـنٌ مـن ذهـبٍ   فـيـهـا بـقـايـا غـالـيـه

وقال أيضاً:

وصَـيَّـر آذريـونـهُ فـوقَ أذنـهِ   ككـأسِ عقيقٍ في قـرارتهـا مسكُ

وقلت:

ولاحَ آذريُـونُـهـا   مثـلَ الغـوالي في الـسـررِ

---

(١) الإثمد: الكحل.

(٢) القِيان: المغنيات.

(٣) الدنان: أوعية الخمرة، الآذريون: الورد الجوري، أو نوع من الشقائق. (وهو فارسي).

وقال الشمشاطي[1]:

تــراهُ عُيــونــاً بــالنهــارِ نــواظــراً وبَعـدَ غروبِ الشمسِ أزرارَ ديباجِ

وقال ابن المعتز:

كـأنـهـا مـداهنٌ مـن ذهب مُشـرفـاتٌ وسـطهنَّ غـاليـه

أتم التشبيه ههنا بقوله «مشرفات».

ومن جيد ما قيل في البهار قول[2] ابن الرومي:

وروضـةٍ عـذراءَ غيـرُ عـانسـه خضـراء مـا فيهـا خلاة يـابسَـة[3]

فـيهـا شـمـوسٌ لـلبهـارِ دارسـه كـأنهـا جمـاجمُ الشمـامسـه[4]

تَـرُوقـك النَّـوْرةُ منهـا النـاكسـه بعينِ يقـظَى، وبجيـد نـاعسـه[5]

وخُـرَّم فـي صبغـةِ الـطيـالسـه مثـل الطواويسِ غـدت مُطاوِسه[6]

وقال ابن المعتز:

في روضــةٍ كحللِ العـروسِ وخُـرّم كـهـامـةِ الـطاووسِ

وقلت في المذهب الذي سلكه ابن الرومي:

خـرَّمَـةٌ كهـامـةِ الـطاووسه داريَ من بهجتِهـا مـأنـوسـه

والعينُ في فنـائهـا محبـوسـه محفـوظـةٌ تحسبهـا محـروسـه

تعجبنـي منـظورةٌ ملمـوسَـه مـرفـوعـةُ الهـامـةِ أو منكـوسـه

يـاقـوتـة لكنهـا مغـروسـه في زهـر كـالشعـل المقبـوسـه

كـحـل ألـوانـهـا مـلبـوسـة

وقال التنوخي:

ومـن خُـرَّم عض خِـلالَ شقـائـقٍ يـلوحُ كخيـلانٍ على وردتـي خـدٍّ

وإذا كان في الخد خيلان لم يستحسن الخال الواحد.

وقلت:

عـلى ريـاض خُـرَّم كـأنـهـا رؤوسُ هـدابِ حـريـر أكـحـل

وقال ابن طباطبا:

وطَـوِّس فـيهـا خُـرَّمٌ فـكـأنـهـا صمـامـاتُ وشيٍ هُيئَت لمخـازن

---

(١) هو علي بن محمد الشمشاطي، كان على صلة بالحمدانيين وله تصانيف.

(٢) ديوانه: ٣/ ٢٦٠.

(٣) في ديوانه: «بروضة».

(٤) البهار: نبات.

(٥) النّورة: الزهرة.

(٦) الخرّم: نبات طيب الرائحة حسن المنظر.

وقلت في البهار والورد:

وردٌ إلى جنبهِ بَهار كالخدِّ أصغى إليه قُرط

وقد جمعت أصناف المنثور في أبيات، وما جمعها أحد إلا بعض الكتاب في أبيات غير مختارة الرصف.

فقلت:

ألوانُ منثورٍ يريْك حسنها ألوانَ ياقوتٍ زها في عقده

يا حسنها في كفٍّ من يشبهها فانظر إلى الندِّ بكفِّ نِده[1]

من أشهل كعينهِ وأبيضٍ كثغرهِ وأحمر كخده[2]

وأصفرٍ مثلِ صريع حُبه إذا تغشاهُ غواشي صَدِّه

وقال السري في الورد:

أما ترى الوردَ قد باحَ الربيعُ بهِ من بعد ما مرَّ حولٌ وهو إضمارُ

وكان في حللٍ خضرٍ وقد خلعت إلا عُرى أغفلت منها وأزرار

وقلت:

ليس ينفكُّ للغمام أيادٍ تتكافا وأنعم تتجددُ

فترى رعدهُ يشقُّ حريراً وسنى برقهِ يطرز مِطْردُ

وترى للزمانِ غُصناً وريقاً يملكُ الطرفَ إذ يقومُ ويأود[3]

أنبتَ الأرض عسجداً ولجيناً فالروابي مكللٌ ومقلدُ[4]

وجرى الريحُ سجسجاً ورخاءً فالمناهي مسلسلٌ ومُسرَّدُ[5]

وسبى العينَ لؤلؤٌ وعقيقٌ نظما في زمردٍ وزبرجد[3]

فترى ثَمَّ مضحكاً يتجلى وترى ثَمَّ وجنةً تتوردُ

قطرات الندَى أحادٌ ومثنىً مثل دُر منظمٍ ومبدد

وكأن الشقيقَ كأسُ عقيقٍ طرحَ المسكَ في قرارتها ندُّ

فترى النجدَ في رداءٍ موشّى وترى الوهدَ في قميص مُعمد

وعليهِ منَ البهارِ عطاف ومن الوردِ الشقائق مُجْسد

---

(١) الند: البخور والند الثانية: المثل.

(٢) العين الشهلاء: إذا أشربت حدقتها حُمرة.

(٣) يأود: يعوجّ.

(٤) العسجد: الذهب: اللجين: الفضة.

(٥) سجسج: لا بارد ولا حار. المناهي: جمع المنهى. حيث ينتهي الماء.

(٦) العقيق والزمرد والزبرجد: من الأحجار الكريمة.

وتَـرَى النَّـور مثـلَ مَضحـك خَـوْد وتـرى الغصن مثـلَ شاربِ أمـرد

ومن بديع ما قيل في كمون النيلوفر[1] وظهوره قول ابن الرومي:

فكـأنـهُ في الـمـاءِ صـاحبُ مـذهـبٍ أغـراهُ وَسـواسُ بـأنْ لا يـطهـر

وقال السري:

ونـيلوفـرٍ أوراقـهُ الـخـضـرُ تـحـتـهُ بسـاطٌ إليـهِ الأعـينُ الـنجـلُ شُـخَّصُ

هذا البيت غير مختار الرصف ظاهر التكلف:

إذا غـاصَ في الـمـاءِ الـنميـر حسبتـهُ رؤوسَ إوَزّ في الـحيـاضِ تـغـوصُ[2]

وقوله «النمير» لايحتاج إليه.

وقال آخر من أبيات:

كـأنـمـا كـلُّ قـضـيـبٍ بـهـا يـحـمـلُ فـي أعـلاهُ يـاقـوتـه

وقلت:

فشـربتهـا عـذراءَ من يـدِ مثلهـا تحكي الصباحَ مع الصباحِ المشرقِ

في روضـةٍ تلقـاك حينَ لـقيتهـا بـمنمـنم مـن نـبتهـا ومـنـمـقِ

فـانـظر إلى عشبٍ هنـاك مجمـع وانـظر إلى زهـر هـنـاك مفـرق

تـحبى بـوردٍ كـاللجينِ مكـفـرٍ منهـا وورد كـالـعقيقِ مـخـلّقِ[3]

وكـذاك تتحف من مناقـع مائهـا بـمخـلقٍ يـعـلو ذؤابـةَ أخـلقِ[4]

يـبـدو ويكمن في الغديـرِ كـأنـه جـانٍ يـحـاول أن يبيـنَ ويـتـقي

فـإلى السـرور لنـا عنـانٌ مـطلقٌ إن الفـوائـدَ في العنـانِ المـطلق[5]

وقد أحسن القائل في وصفه الرياض:

بكين فـأضحكنَ الرُّبى عنِ زخـارف من الـروضِ عنهنَّ الثرى متهـامـلُ

تـرى قضيبَ اليـاقـوتِ تحتَ زبرجـد تـنـوء بـه أعـنـاقـهـنَّ الـمـوائـلِ

تلقحـهـا الأنـداء ليـلاً بـريـقهـا فيصبحـنَ أبكـاراً وهـنَّ حـوامـلُ

وقلت في الآس ولا أعرف لأحد فيه شيئاً بديعاً:

ومـهـرجـانٌ مـعـجـبٌ مـونـقٌ كـالنَّوْرِ غبُّ السَّبَـل السـاجمِ[6]

طـالـعـتُ فـيـه غُـرَراً وُضَّحـا كـمـثـلِ أيـامِ أبـي الـقـاسـمِ

---

(١) النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في الماء الراكد.

(٢) النمير: الماء العذب.

(٣) اللجين: الفضة. مخلّق: تام الخَلق.

(٤) الخلِقة والخليقة: السحابة فيها أثر المطر.

(٥) العَنان: السحاب.

(٦) الساجم: الذي ينصب.

والآس في كفي أحييهم | مثلَ شوابيرِ بني هاشمِ

وقلت في الريحان:

وخضرٌ يجمع الأعجاز منها | مناطق مثل أطواقِ الحمامِ
لها حسنُ العوارضِ حينَ تَبدو | وفيها لين أعطافِ الغلامِ

وقال كشاجم وأحسن:

أرتك يدُ الغيثِ آثارَها | وأعلنتِ الأرضُ أسرارَها
وكانت أكنَّتْ لكانونها | خبيئاً فأعطتْه آذارها

والنصف الأول من هذا البيت متكلف:

فما تقعُ العينُ إلّا على | رياضٍ تصَنِّفُ أنوارَها
يفتحُ فيها نسيمَ الصَّبا | جناهاً فيهتكُ أستارها
ويسفح فيها دماءَ الشقيقِ | ندى ظلٍّ يفتضُّ أبكارها
وتدني إلى بعضها بعضَها | كضمٍّ الأحبةِ زُوَّارها
كأنَّ تفتحها بالضحى | عذارَى تحلّلُ أزرارها
تفضُّ لنرجسها أعيناً | وطوراً تحدِّقُ أبصارها
إذا مزنةٌ سكبت ماءها | على بقعةٍ أشعلت نارها

وقال فيها:

وأقبلَ ينظمُ أنجادَها | بفيضِ المياهِ وأغوارَها
وأرضعَ جناتها دَرَّةً | فعمَّمَ بالنورِ أشجارَها
ودارَ بأكنافِها دَوْرَةً | تُنسي الأوائلَ برَّ جارها(١)

وقال أيضاً في الباقلي:

جنيُّ يومٍ لم يؤخر لغدِ | ولم ينقل من يدٍ إلى يدِ
كالعقدِ إلّا أنه لم يُعقدِ | أو كالفصوص في أكفِّ الخرَّدِ(٢)
أوككبار اللؤلؤِ المنضّد | في طيٍّ أصدافٍ من الزبرجدِ

مفروشة بالكرسُفِ المُلَبَّد(٣)

وقلت فيه أيضاً:

أبدى الربيعُ لنا من حُسنِ صنعتهِ | شبائهُ اتفقتْ في الشكلِ والصور
خضرٌ ظواهرُها بيضٌ بطائنُها | تحكي القباطيَ تحت السندسِ النضر
بيضٌ شبائهُ في خضرٍ ململمةٍ | مثل الزبرجدِ مثنياً على درر

---

(١) الأكناف: جمع كنيف: ما يستر.
(٢) الخرّد: جمع الخريدة: الشابة.
(٣) الكُرسُف: القطن.

ينشقُّ أخضرُها عن أبيضٍ يقِقٍ كالثغرِ يشرقُ تحتَ الشاربِ الخضرِ[1]

ومن المشهور في ورد الباقلى قول الصنوبري:

وبناتِ باقِلى يُشبه نَوْرُها بلقَ الحمامِ مُشيلةً أذنابَها

وقلت فيه:

ويُزْهى وَرْدُ باقلي كأطواقِ الشعانينِ

وقال السري في غير ذلك:

في زاهر عبق تضوعهُ فكأنَّ عطاراً يعطره
ضاهى ممسكهُ معنبرهُ وحكى مُدَرْهَمه مدنَّرهُ

ومن أجود ما قيل في البساتين، ومواضع الأشجار، قول الخليل بن أحمد، أخبرنا أبو أحمد عن رجل عن الرياشي قال:

كان في يد الخليل بن أحمد أرض من أراضي البصرة ليتيم، فلما بلغ اليتيم مضى به الخليل إلى الأرض، ومعه قارورة من ماء زمزم، فلما جاء المدُّ صب ما فيها في فوهة نهرها، ليخلص إلى جميعها، ثم قال: يا بني هذه أرضك، فقم فصل فيها ركعتين، واشكر اللّٰه على ما أعطاك منها، وادع بالبركة لك ولمن بعدك.

ثم أنشأ يقول في وصفها:

ترفعت عن يدِ الأعماقِ وانخفضت عن المعاطشِ واستغنت بسقياها
فالتفَّ بالزهرِ والريحانِ أسفلها ومالَ بالنخلِ والرمانِ أعلاها
وصارَ يحسده فيها أصادقهُ ولائمٌ لامَ فيها من تمناها
أبا معاويةَ اشكر فضلَ واهبها وكلما جئتها فاعمر مصلاها

وقال ابن المعتز في السرو والنرجس:

لدى نَرجسٍ غضٍ وسروٍ كأنهُ قدودُ جَوارٍ رحْنَ في أُزُرٍ خُضرٍ[2]

وقلت:

لبسَ الماءُ والهواء صفاءً واكتسى الروضُ بهجةً وبهاءً
فكأن النهاءَ صرنَ رياضاً وكأنَّ الرياضَ عدن نِهاءً[3]
وكأنَّ الهواءَ صارَ رحيقاً وكأنَّ الرحيقَ صارَ هواءً
وتخالُ السماءَ بالليلِ أرضاً وترى الأرضَ بالنهارِ سماءً
جللتها الأنواءُ زهراً وصفراً يومَ ظلّت تنادمُ الأنواء[4]

---

(١) يقِق: أبيض.

(٢) في ديوانه ٢٠٩: «وسدرٍ كأنه» و «جوارٍ ملن».

(٣) النهاء: جمع النِّهاءة: اصغر محابس المطر. (٤) النَّوء: المطر.

فتراها ما بين نَوْءٍ ونَوْرٍ تتكافا تبسّماً وبكاءً
وتظلُّ الأشجارُ تتخذُ الحسنَ قميصاً أو الجمالَ رداءً
لبستْ حينَ أثمرتْ خُلداتٍ واكتستْ حينَ أورقت سِيراءً[1]
وترى السروَ كالمنابرِ تَزْهى وترى الطيرَ فوقها خطباء

وقال أبو عيينة:

تذكرني في الفردوسُ طوراً فأرعوي وطوراً تواتيني على القصفِ والفتكِ[2]
بغرس كأبكار الجواري وتربةٍ كأن ثراها ماءُ وردٍ على مسكِ

وقال السري في تفاح ودَستَنبوي[3] ورمان:

إنَّ شيطانكَ في الظَّرْ فِ لشيطانٌ مَريدُ
فلهذا أنتَ فيه مُبدىءٌ ثم مُعيدُ
قد أتتنا طُرَفٌ منـك على الظرفِ تزيدُ
طبقٌ فيه خدودٌ وقدودٌ ونهودُ

وقد أحسن التنوخي في وصف النارنج[4] حيث يقول:

لم لا تجنُّ بها القلوب وقد غدت مثلَ القلوبِ

وقلت:

تطالعنا بين الغصونِ كأنها خدودُ عذارى في ملاحفها الخضرِ
أتت كلَّ مشتاقٍ بريّا حبيبهِ فهاجت لهُ الأحزان من حيثُ لا يدري

وقال:

إذا لاحَ في أغصانهِ فكأنه شموسُ عقيقٍ في قبابِ زبرجدِ

وقلت في المركب:

مركب تعجبُ مِن حُسنهِ قد كنز الفضة في تبره
يشاكلُ العاشق في لونهِ ويُشبهُ المعشوق في نشرهِ

وقال الصنوبري في التفاح وقد ظرف:

أعطت يداهُ محبهُ تفاحةً نعطي المحبّ أمانهُ من صدِّهِ

وهذا البيت متكلف جداً:

فعلمتُ حينَ لثمتها من كفهِ سألثمُ أختها من خَدِّهِ

---

(١) خُلدات: أقراط. سيراء: ضرب من الثياب.

(٢) القصف والفتك: اللهو.

(٣) الدستنبوية: ضرب من البطيخ وهو الشمام. (فارسي معرّب).

(٤) النارنج: ضرب من الثمار (فارسي معرّب).

وقال أيضاً في أُتْرُجَّةٍ[1] وأحسن:

جاءَ فحياني بأترجةٍ | من ذهبٍ قد حُشيتْ فضه
أتى بها ناعمةً غضةً | من كفهِ الناعمةِ الغضه
تُبذَلُ للقبلةِ حُسناً ولا | تصلحُ أن تُبذلَ للعضه
أحببْ بها من مسكةٍ مخضة | ناولنيها مسكةً محضَهْ

وقلت في الأترج والنارنج:

ترى النارنجَ في ورق نضير | فتحسبهُ عقيقاً في زبرجدِ[2]
وأترجُ على الأغصان يزْهى | كما رفعَ الفتى قنديلَ عسجد

وقال بعضهم في دستنبوية[3]:

يا حَبذا تحيةٌ | رحت بها مسرورا
مخزنة من ذهب | قد مُلئت كافورا

وقال غيره في الليمون:

وقهوة تزهرُ في السراج | نشرتها على كراتِ عاج
ملبسات أصفر الديباج

وقلت فيه:

أحدقَ ليمونٌ بأترجة | كأنجم تحدقُ بالبدر
مخروطة الأجسادِ من فضةٍ | ملبساتٌ قُمصَ التِّبر
قد شدَّ من هامتها زِرُّها | يا عجباً من ذلك الزِّرِّ
اشرب عليها وتمتعْ بها | فإنها من تُحفِ الدهرِ

ولبعض الكتاب رسالة في التفاح، ليس لها نظير في معناها، وهي التي أخبرنا بها أبو أحمد قال:

قال أخبرنا الجلودي قال حدثنا أحمد بن أبي طاهر، قال أهدى ظريف من الكتاب تفاحة وكتب:

لما رأت تنافس أحبابك، وثقات أصدقائك، على الهدايا وتواتر ألطافهم عليك، تفكرت في هدية تخف مؤنتها. ويعظم خطرها، ويجل موقعها، تجمع الخصال المحمودة، وتنظم الخلال المرموقة، فلم أجد شيئاً يجتمع فيه ما أحبينا، ويكمل له ما وصفنا غير التفاح، فأهديت إليك منه واحدة، وأحببت أن أنبهك على فضلها، وأقفك على نبلها، وأكشف لك عن سرائرها، وأعرفك لطائف معانيها، وأنعت لك مقالة الأطباء فيها. وما نظمت الشعراء في مدحها، حتى تراها بعين الجلالة، وتنظر إليها نظر الصيانة، فإنه يحكي عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال:

---

(١) الأترج: ثمر كالحامض كثير المنافع.

(٢) الأترج: ثمر كالحامض كثير المنافع والنارنج: ثمر.

(٣) دستنبوية: الشمّام الأصفر.

اجتمع في التفاح الصفرة الدرِّية، والحمرة الخمرية الذهبية، وبياض الفضة ونور القمر يلتذ بها من الحواس ثلاث: العين لحسن لونها والأنف لطيب عرفها، والفم للذة طعمها.

وقال حكيم من الحكماء:

الخمر صديقة الجسم والتفاح صديق الروح. وقال آخر منهم وقد حضرت وفاته، واجتمع إليه تلامذته، وأراد مناظرتهم فضعف عنها فقال:

إئتوني بتفاحة أعتصم برائحتها ريثما أقضي وطري من المناظرة. فلم يستخفها إلا لفضلها على غيرها.

وقال آخر:

جسم التفاح صديق الجسم وريحه صديق الروح.

وقال حكيم من الأطباء:

إن أجودَ الأشياء، لعلاج المزاج الحاد، الكائن في المعدة مع المزاج البارد، الكائن في الرأس، وغثيان النفس، وقلة الاستمراء للطعام: التفاح.

وقال إبراهيم بن هانىء:

ما علل المريض المبتلى، وسكنت حرارة الثكلى، وردعت شهوة الحبلى، ولا كسرت فورة السكران، ولا أرضى الغضبان ولا ردت عرامة الصبييان، بشيء مثل التفاح. والتفاحة إن حملتها لم تثقلك، وإن رميت بها لم تؤلمك، وقد اجتمع فيها لون قوس قزح، من الحمرة والخضرة ولو حل التفاح، لكان قوساً، ولو عقدت القوس لكانت تفاحاً.

وقال بعض الشعراء:

حُمرةُ التفاحِ في خُضرتهِ ... أقربُ الأشياء من قوسِ قزح

والخمرة تفاحة ذائبة والتفاحة خمرة جامدة. وقال الشاعر:

الخمر والتفاح شكلان وقال الآخر:

تفاحةٌ حمراءُ منقوشةٌ ... ركبتَها في غُصنِ الآس[1]
ألبستَها ورداً وكللتها ... إكليلِ نسرين على الراسِ

وقال آخر في التفاحة:

كأنما حُمرتها ... حمرةُ خدِّ خَجل

وقال ابن أبي أمية[2]:

ما زلتُ أرجوكَ وأخشى الردى ... معتصماً باللهِ والصبرِ
حتى أتتني منك تفاحةٌ ... زحزحتِ الأحزانَ عن صدري
حشوتها مسكاً ونقشتها ... ونقشُ كفيك من السحرِ

---

(١) الآس: ضرب من الشجر.

(٢) ابن أبي امية: كاتب مترسل وشاعر. راجع (الفهرست ٢٣١).

واهاً لـهـا تـفـاحـة أُهـديـتْ لـو لـم تكن من خُـدَعِ الـدهـر

فإذا وصلت إليك - أوصلك الله إلى رحمته وعطفه - فتأمل وصفها بعينك، وتناولها بيمينك، وأحضرها ذهنك، وفرغ لها شغلك، واجمع لها عقلك، وغازلها ساعة، وهازلها أخرى، ولا تكن متهاوناً بقدرها، غير عالم بفضلها، فتتناولها بحركة باردة، وطبيعة جامدة، وقلب ساهٍ، وعقل لاه، وذهن غبي، وشراهية نهم، عساه أن يكلمها بأسنانه، ولا يدري ما قدرها عند إخوانه، ويقصر بمن حياه، وينتقص من أهداه، ولا تخدشها بيدك، ولا تثلمها بظفرك، ولا تبتذلها للغبار، ولا تعرّضْها للدخان، فإذا طال لبثها لديك، وخفت أن يرميها الزمان بسهمه، ويقصدها بريبه ويذهب بهجتها، ويحول نضرتها فهنيئاً لك أكلها والسلام. وشبه بعضهم ورق الريحان بقافات وفاآت، في شعر غير جيد، فتركته ولم أذكره. وقلت في الريحان:

ثـم انثنينـا إلى خـضـرٍ مُنـعـمـةٍ كـأنَّ أوراقـهـا آذانُ جُـرذانِ
وقـهـوة كـجـنِـيِّ الـوردِ وشّـحـهُ من لؤلؤِ القطرِ والأنداءِ سمطان[١]

وقال السري في دستنبوية:

وأغـنّ كـالـرشـأ الـغـريـــــرِ نشـا خلالَ الـربـربِ[٢]
فـي خَـدّه وردٌ حـمـا هُ من الـقـطافِ بـعـقـربِ
حـيـا بـدسـتـنـبـويـةٍ مـثـل السنـان الـمـذْهـبِ

وقال أيضاً فيها:

صفـراء ما عَنَّت لعينيْ نـاظـرٍ إلا تـوهمهـا سنـانـاً مُـذْهبـا

وقلت:

وأتْـرج يَـحـفُ بـهـا أقـاحٍ كبـدرِ الليـلِ تكنفـهُ النجـومُ[٣]

وقال السري في نارنجة:

أهـدت على نـأي المحـلِّ وقـد أنـأي التصبـرَ طُـولُ هجـرتـهـا
نـارنـجـةً منـهـا استـعيـرَ لـهـا مـا ألبستْ من حُسنِ بـهجتـهـا
وشُـعـاعُـهـا مـن نـورِ وجـنتـهـا ونـسيـمُهـا مـن عِـطرِ نـكـهتـهـا
وكـأنَّ مـا يـخـفـيـه بـاطـنـهـا مـا أضمرتْ من سـوءِ غُـدرتها
وحكى اخـضـرارٌ شـابَ وجنتهـا قَـرْصَ الأكـفِّ أديـمَ وجـنتِـهـا
فـأتـتـك مُـكـمَـلـةً مـحـاسنُـهـا تـخـتـالُ فـي أثـوابِ زيـنـتـهـا
فـشعـارُهـا صـفـوُ اللجيـنِ ومـن ذهـب مـصـوغٍ ثـوبُ بِـذلـتـهـا
تُـهـدي إلى الأرواح مـن بُـعـدٍ تُحَفَ الـسـرورِ لـطيـبِ نـشـوتهـا

---

(١) السمط: خيط النظم.
(٢) الأغن: في صوته غُنَّة. الرشأ: الغزال الصغير الربرب: القطيع من البقر الوحشي.
(٣) الأقاحي: جمع الأقحوانة.

ويصونها مسرَى روائحها		من أن تباشرَها بشمَّتها
فاشربْ عليها من شقيقتها		في نعتِ رَيَّاها وصبغتها
واعطفْ عِنانَ النفسِ عن فكرٍ		راحت معذَّبة بفكرتها[1]

وقال ابن طباطبا العلوي في الأترج:

ريحانةٌ في اصفرارِ مهديها		شبهتها بعدَ فكرةٍ فيها
أحبةً لم تُصِخْ لعاذلها		تَسُدُّ آذانها بأيديها

فأورد المعنى في بيتين فقصر من غرابة معناه.

وجعلت دستنبوية مقفعة في غصن آس، فسقطت فناولنيها بعض الأحبة فقلت:

وأصفرُ يهوي من ذؤابةِ أخضر		كما انقضَّ نجمٌ في الدُّجنَّةِ ثاقبُ[2]
له شعبٌ تهوي على سَرَواته		كمثلِ بنانِ الكفِّ يلويه حاسب[3]
فناولنيهِ ذو دلالٍ كأنما		لهُ الشمسُ أمٌّ والبدورُ أقارب
فأصبح مشهورَ الجمالِ مُشهراً		له الحسنُ خدنٌ والملاحةُ صاحب[4]

وقال بعضهم في الأترج:

لها ورقٌ ريحها ريحهُ		وما ذاك في غيرهِ لو طلب
كأن تعطف أوراقها		أكفٌ تشيرُ إلى من تحب

وقال ابن خلاد في شجر الزيتون:

إذا ذلت الأشجارُ يوماً لجفوةٍ		فإنَّ لها عِزَّ القناعةِ والصبرِ
تَصرَّفُ في اللذاتِ من كلِّ مطعم		تصرفَ زيد آخذاً بقفا عمرو

وقلت في التفاح:

ليسَ ريحُ التفاحِ عندي بريحٍ		لا ولكنهُ صَديقٌ لروحي
حُمرَةُ الخدِّ واخضرارُ عِذارٍ		فمليحٌ يطوفُ حَوْلَ مليحِ

وقال نصر بن أحمد:

أكلتُ تفاحة فعاتبني		فتىً رآها كخدِّ معشوقه
فقال خَدُّ الحبيبِ تأكلهُ		فقلتُ لا بل أمصُّ من ريقه

وقال السري:

لو جُمِّدتْ راحنا اغتدت ذهباً		أو ذابَ تفاحُنا غدا راحا[5]

---

(١) في نسخة: «بصحبتها» بدل «بفكرتها».

(٢) الدُّجنَّة: الظلام.

(٣) «له شعب تلوي».

(٤) الخِدن: الصاحب.

(٥) الراح: الخمرة.

وقلت في الرُّمان ولا أعرف فيه شيئاً مرضياً:

حكى الرُّمان أوَّلَ ما تبدَّى جِقاقَ زبرجدٍ يُحشين دُرّا
فجاءَ الصيفُ يحشوهُ عقيقاً ويكسوهُ مرورُ القيظِ تبرا
ويحكي في الغصون ثُديَّ حُور شقَقْنَ غلائلاً عنهن خضرا[1]

وقلت في خوخة:

وخوخةٍ ملء يَدِ الجانيةْ تملكُ لحظَ الأعينِ الرانيةْ
مصفرة الوجنةِ محمرَّة كأنها عاشقةٌ ساليه

وأجود ما قيل[2] في العنب قول ابن الرومي:

ورازقيٍّ مخطَفِ الخصورِ كأنه مخازنُ البللورِ
قد ملئتْ مسكاً إلى الشطورِ وفي الأعالي ماءُ وردٍ جُوري
لم يُبقِ منها وَهجُ الحَرورِ إلا ضياءً في ظروف نور[3]
له مذاقُ العسل المشورِ وبردُ مسِّ الخصر المقرورِ[4]
ونفحةُ المسك مع الكافور لو أنهُ يبقى مع الدهور
قرّط آذانَ الحسانِ الحورِ

وقال في معناه:

ورازقيٍّ مخطف خصورهُ قد أينعت أنْصافهُ الأسافلُ
كأنها مخازنٌ مملوةٌ من ماءِ وردٍ فيه مِسكٌ ثافلُ[5]

لا يزيد على هذا الوصف أحد.

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: ما أطيب العنب عندكم؟ قال ما أخضر عوده، وغلظ عموده، وسبط عنقوده، ورق لحاؤه، وكثر ماؤه. فقال له كم عطاءَك؟ فقال ألفين. فسكت ساعة، ثم قال له كم عطاؤك؟ قال ألفان. قال فلم لحنت أولاً؟ قال لم أشته أن أكون فارساً وأمير المؤمنين راجلًا، لحنتَ فلحنتُ، ونحوتَ فنحوتُ. فاستحسن أدبه وأجازه.

وقلت:

باكرّنا الدهرُ بسرَّائِه وكفَّ عنا بأسَ بأسائه
وجاءنا أيلولُ مستبشراً يثني على الدهرِ بآلائه
أما ترى الرقةَ في جَوِّهِ تناسبُ الرقةَ في مائه

---

(١) ثُدي: جمع ثَدي. الحُور: الحِسان. الغلائل: جمع الغِلالة: الثوب الرقيق.
(٢) ديوانه: ٣/٨٦.
(٣) الحرور: الحر.
(٤) العسل المشور: المجتنى. المقرور: من أصابه البرد.
(٥) الثافل: ما استتر تحت الشيء من كُدرة أو غيرها.

أنـظر إلـى أنـواعِ أثـمـارهِ ... قـد ضمهـا في بُـرْدِ أحشـائـه
راحت عليهـا نسمـاتُ الصبـا ... تـقـرصهـا فـي بـرد أفنـائـه
أمـا تـرى حـسـنَ مِـلاحـيـهِ ... يُـهـدَى إلى بهجـةِ شعـرائـه(١)
أنـظر إلـى رُمَّـانـه ضـاحـكـا ... حـمـراؤهُ في وجـهِ بـيـضـائـه

وقال ابن المعتز في العنب:

ظلت عنـاقيـدُهـا يخـرجـنَ مـن ورق ... كمـا اختبى الـزنـجُ في خضرٍ من الأُزرِ

ويروى لابن المعتز في التفاح:

وتفـاحـةٍ صفـراءَ حمـراءَ غضـة ... كـخـدٍّ مُحبٍ فـوقَ خـدٍّ حبيبِ
أحيـا بهـا طـوراً وأشـربُ مثلهـا ... مـن الـراح في كـفي أغن ربيبِ

وقلت في النارنج:

روضٌ زهـاهُ الـمـزنُ في كـرَّاتِـه ... بِـمـكـفـرٍ ومُـزعـفـرٍ ومُـضـرَّجِ
فتبسّم الـنـارنـجُ في شـجـراتـهِ ... مثلَ العقيقِ يلوحُ في الفيروزجِ(٣)
والـكـأس يحـملهـا أغـنٌّ يـزينـهُ ... وجنـاتُ وردٍ في عِـذارٍ بنفسـجِ

ومن أجود ما قيل في النخل، من قديم الشعر، ما أنشدناه أبو أحمد، عن الجلودي عن محمد بن العباس، عن أبيه عن الأصمعي للنمر بن تولب:

ضـربنَ العـرقَ فـي يَنبـوع عيـنٍ ... طـلبنَ مَـعينـه حتـى ارتـوينـا(٤)
بنـات الـدهـرِ لا يخشيـنَ محـلاً ... إذا لـم تَبْـقَ سـائـمـةٌ بـقـيـنـا
كـأنَّ فـروعـهـنَّ بـكـلِ ريـحٍ ... عـذارَى بـالـذوائبِ ينتصينـا(٥)

وقد ملح النبغة في قوله(٦):

صغـارُ النـوى مكـنـوزةٌ لـيس قشـرهـا ... إذا طـارَ قشـرُ التمـرِ عنهـا بـطـائـرِ
من الوارداتِ الماءَ بالقاع تستقي بأعجازها قبلَ استقاءِ الحناجرِ

وهذا أجود من الأول، لأنه ذكر أنهن وردن الماءَ، يعني الماء الذي في بطن الأرض معينا. وقال النمرُ: «طلبن معينه» فجعل الماء، الذي في بطن الأرض معيناً، والمعين إنما هو الماء الجاري على وجه الأرض ظاهراً. ومن أجود ما قيل في الطلع، من الشعر القديم، قول كعب بن الأشرف(٧):

---

(١) ملاحي: عنب ابيض طويل.
(٢) مكفر: مخروج بالكافور. ومزعفر: ممزوج بالزعفران. مضرّج: مشقق.
(٣) الفيروزج: الفيروز: حجر كريم.
(٤) في نسخة «حتى روينا».
(٥) الفروع: الشعر. الذوائب: الضفائر. ينتصي: يأخذ بعضها بنواصِ بعض.
(٦) ديوانه: ١١٢.
(٧) هو كعب بن الأشرف الطائي، شاعر جاهلي، هجا المسلمين، والنبي ﷺ فأهدر دمه ثم قتلوه سنة ٣ هـ.

ونـخـيـل فـي تـلاعٍ جـمـةٍ   تخـرجُ الـطلعَ كـأمثـالِ الأكفِّ[1]

وقال الربيع بن أبي الحقيق:

أذلـك أم غـرسٌ مـن الـنـخـل متـرع   بـوادي القرى فيـه العيـونُ الـرواجـعُ
لـهـا سَعَـفٌ جعـدٌ ولـيـفٌ كـأنـه   حـواشي بُـرودٍ حَـاكهـنّ الصـوانـعُ[2]

وهذا في وصف الليف حسن.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي، عن الحارث بن إسماعيل، عن سهل بن محمد، عن علي بن محمد، عن أسلم الأزدي، عن يونس عن الشعبي، قال كتب قيصر إلى عمر:

إن رسلي أخبروني أن بأرضك شجرة، كالرجل القائم، تفلق عن مثل آذان الحمر، ثم يصير مثل اللؤلؤ، ثم يعود كالزمرد الأخضر، ثم يصير كالياقوت الأحمر والأصفر، ثم يرطب فيكون كأطيب فالوذ اتخذ، ثم يجف فيكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن كان رسلي صدقوني، فهي الشجرة التي نبتت على مريم بنت عمران.

فكتب عمر إليه:

إن رسلك صدقوك وهي شجرة مريم فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلٰهاً من دون الله.

وهذه تشبيهات مصيبة أخذها عبد الصمد بن المعذل فقال يصف النخل:

حـدائـقٌ مـلـتـفـة الـجـنـانِ   رَسَـت بـشـاطـى تَـرعٍ رَيـانِ
تـمـتـارُ بـالأعـجـازِ لـلأذقـانِ   لا تـرهبُ المحـلَ من الأزمـانِ[3]
ولا تَـوقـيٍّ خَـتـلَ الـذؤبـان   ولا تَـرى نـاشـدة الـرعـيـانِ
ولا تـخـافُ عِـرَّةَ الأوطـانِ   سُحمُ الـرؤوسِ كمتُ الأبـدان[4]
لـهـا بـيـوم الـبـارحِ الـحـنـانِ   مثـلُ تنـاصي الخـرَّد الحسـانِ[5]
إذ هـي أبـدت زينـةَ الـرُّهـبـانِ   لاحـت بـكـافـورٍ عـلى إهـان
يـطلعُ مـنـهـا كـيـدُ الانـسـان   إذا بـدتْ مـلـمـومـةَ الـبـنـانِ
عُـلـت بـورسٍ أو بـزعـفـران   حـتـى إذا شـبـه بـالآذانِ
مـن حـمـرُ الـوحشِ لـذي عِـيـانِ

وهذا لفظ زائد على معناه:

شـقـقـهُ عِـلجـانِ مـاهـرانِ   مـن لـؤلـؤٍ صيـغَ عـلى قُـضبـانِ
مـصـوغـةٍ من ذهـبٍ خَلصـان   ثـم تـرى لـلـسـبـعِ والـثـمـانِ

---

(١) القلاع: جمع القلعَة: ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء.

(٢) البُرود: الثياب.

(٣) أعجاز النخل: أصولها.

(٤) سُخم: سُود. كُمْت: جمع كُميت: أشقر.

(٥) الخرّد: جمع الخريدة: الفتاة الشابة.

قد حالَ مثلَ الشذرِ في الجمان　　يضحكُ عن مشتبهِ الأقران
كأنهُ في باطنِ الأفنان　　زمردٌ لاحَ على التيجان
حتى إذا تمَّ لَهُ شهران　　وانسدلت عثاكلُ القنوان[1]
كأنها قضبٌ من العقيان　　فصلْنَ بالياقوتِ والمرجانِ
من قانى أحمرَ أرجوان　　وفاقع أصفرَ كالنيرانِ[2]
مثل الأكاليل على الغواني

ولا أعرف في النخل، من شعر المحدثين، أجود من هذه الأرجوزة.

وقلت:

ونخيلٍ وقفنَ في معطفِ الرمـ　　ـلِ وقُوفَ الحبشانِ في التيجانِ
شَربتْ بالأعجازِ حتى تَروَّت　　وتراءت بزينةِ الرحمان
طلعَ الطلعُ في الجماجم منها　　كأكفٍّ خرجنَ من أردانِ
فتراها كأنها كُمتُ الخيلِ　　توافت مُصرةُ الآذان
أهو الطلعُ أم سلاسلُ عاج　　حُمِّلَت في سفائن العقيان
ثم عادتْ شبائهاً تتباهى　　بأعالي شبائه أقران
خرزاتٌ من الزبرجد خضرٌ　　وهبتها السلوكُ للقضبان[3]
ثم حال النجارُ واختلف الشكـ　　ـلُ فلاحت بجوهرٍ ألوان
بينَ صُفرٍ فواقع تتباهى　　في شماريخها وحُمرٍ قواني

وقال بعض العرب:

طلعاً كآذانِ الكلابِ البيض

وقال ابن المعتز في الرُّطب:

كقطع العقيقِ يانعاتِ　　بخالصِ التبرِ مُنوَّعاتِ[4]

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، قال: أخبرنا السكنُ بن السعيد، قال: أخبرنا محمد بن عباد، قال: تكلم صعصعة، عند معاوية، بكلام أحسن فيه، فحسده عمرو بن العاص فقال: هذا بالتمر أبصر منه بالكلام، قال صعصعة: أجل أجوده مادق نواه، ورق سحاؤه، وعظم لحاؤه، والريح تنفجه، والشمس تنضجه، والبرد يدمجه، ولكنك يا بن العاص، لا تمراً تصف، ولا الخير تعرف بل تحسد فتقرف[5]. فقال معاوية: رغماً. فقال عمرو: أضعاف الرغم

---

(١) العثاكل: جمع العثكولة: العِذق أو الشمراخ.
(٢) أرجوان: صباغ أحمر.
(٣) الزبرجد: من الأحجار الكريمة.
(٤) العقيق: من الأحجار الكريمة. التبر: الذهب.
(٥) تقرف: تقذف.

لك، وما بي إلا بعض ما بك.

ومن الغلو في صفة التمر: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن إسماعيل ابن إسحاق القاضي، عن أبي نصر، قال: قال الأصمعي: قيل للغاضري أي التمر أجود؟ قال: الجرد الفطس الذي كأن نواه ألسن الطير، تضع الواحدة في فمك، فتجد حلاوتها في كعبك يعني الصيحاني.

وقال الخباز البلدي:

ذرَى شجر للطيرِ فيه تشاجرُ ... كأنّ بناتِ الوردِ فيهِ جواهرُ
كأن القمارِي والبلابلَ بينها ... قِيانٌ وأوراقُ الغصونِ ستائر
شربنا على ذاك الترنّمِ قهوةً ... كأن على أحداقِها الدُّرُّ دائرُ

وقال غيره:

أيُّ يوم لنا على التلِّ بالما ... ه وعيش تضيقُ عنهُ النعوتُ[1]
ورَّدَ الدرُّ فيه في شجرِ اللو ... زِ وفي الخوخ ورَّدَ الياقوتُ

وقلت:

ظل يسقي حدائقاً وجناناً ... يا لها من حدائقٍ وجنانِ
خطرت بينها الرياحُ سُحيراً ... فتناصت تناصيَ الأقران[2]
وتناجى الغصونُ فيها سِراراً ... وتنادَى الطيورُ بالإعلان
فتناجي الغصونِ شبهُ عتابٍ ... وتنادِي الطيورِ مثلُ أغاني
من كرومٍ تمايلت بعناقيـ ... ـدٍ كجُعدِ الزنوجِ والحُبشان
ومُلاحيةً تميِّلُ أخرى ... كوجوهِ الخرائد الغُرَّان[3]
كلآلي تشبثت بلآلٍ ... وبنانٍ تشبَّكت ببنانِ
فهيَ كالنجم في فروعِ كرومٍ ... وهي كالشمسِ في بطونِ الدنانِ[4]

وقلت في البطيخ:

وجامعة لأصناف المعاني ... صلحنَ لوقتِ إكثارٍ وقله
وإحداهنَّ تبرُزُ في عباءٍ ... وأخراهن في حِبرٍ وحُله
ومنها ما تشبّهُهُ بُدوراً ... فإنْ قطَّعتها رجعت أهلَّه

وقلت:

بُسْمرانٍ ... وسُودانٍ ... وحُمرانٍ ... وصُفرانِ

---

(١) الماه: اسم موضع.
(٢) التناصي: إن يأخذ كلٌّ بناصية الآخر.
(٣) ملاحية: الملاحي: العنب الأبيض الطويل. وكذلك التين.
(٤) الدنان: أوعية الخمرة.

كوشيٍ في يَديْ وَاشٍ وشُهدٍ في يَديْ جاني
فمن أُدمٍ ومن نُقلٍ وريحانٍ وأشنانِ

وأنشدنا أبو أحمد في الكرم:

لهنّ ظلُّ باردُ الودائق يحملنَ لذاً طعمهُ للذائقِ[1]
كأنها غدائرُ العواتق تُناطُ في حُجرٍ من المعالقِ[2]
كأنها أناملُ الغرانق

وهو من قول الآخر:

يحملنها بأنامل النقران

وقلت في اللُّفَّاح[3]:

انظر إلى اللُّفَّاح تنظرُ معجباً يجلو عليك مُفضَّضاً في مُذْهَب[4]
يعلو مفارقَهُ قلانسُ أخفيت من تحتهنَّ دراهمٌ لم تضربِ

وقلت في قصب السكر ولا أعرف فيه شيئاً لأحد:

وممشوقةِ القاماتِ بيضٍ نحورُها وخُضرٌ نواصيها وصُفر جُسومُها
لها حقبٌ لا تستطيعُ أطّراحَها وليس يطيقُ سلبَها من يرومُها
وهنَّ رِماحٌ لا تريقُ دَمَ العدى ولكن يُراقُ في القدور صميمها
يميل على أعرافِها عذباتَها كحورٍ تناصي هندُها ورميمُها[5]
تناهى بها الأدراكُ حتى كأنها يُعلٌّ بماءِ الزعفرانِ أدِيمُها
ترى الريح يُغريها بنجوَى خفيَّة إذا ما جرى قَصرَ العشيّ نسيمُها

ومن جيد ما قيل في السِّدر والطلح قول بعضهم:

لم ترَ عَيْنا ناظرٍ مَنظراً أحسن من أفنان طلح مَروح[6]
كأنها والريحُ تسمُو بها ألويةٌ منشورةٌ للفُتوحِ
وسِدرة مدّت بأفنانها على سَواقٍ كمتونِ الصفيحِ

إلا أن قوله «للفُتوح» فضلٌ لا يحتاج إليه، لأن الألوية إذا نشرت للفتوح، مثلها إذا نُشرت لغير الفتوح فذكر الفُتوح لغو.

وإنما أورد في هذا الكتاب، مثل هذا الشعر لأن غيري اختارها، فأُريدُ أن أدُلَّ على موضع

---

(١) الودائق جمع الوَدْق: المطر القليل.
(٢) الغُرانق: الشاب أو الشابة: إذا كان ممتلئاً.
(٣) اللفّاح: نبت يشبه الباذنجان.
(٤) مفضض: عليه فضة. مُذهَب: مطلى بالذهب.
(٥) التناصي: أن يأخذ الواحد بناصية الآخر. هند ورحيم: اسمان مؤنثان.
(٦) مروح: أصابته الريح.

العيب فيه ليوقف عليه.

ومن جيد ما قيل في النبق قول بعضهم:

أتـانـي فـحيَّـانـي بـنبـقٍ كـأنـهُ   حُليُّ عَـرُوسٍ زان ليتاً وأخـدعـا
بـأحمر كـالياقـوتِ يَقـطُر مـاؤهُ   وأصفـرَ كـالعقيـان ضَمَّهمـا معـا

وقال آخر:

أقبـلَ تحتَ الليـل كـالـظبي الغَـرق   بـالـراح والـرَّيْحـان والمسـكِ عَبِـق
فـجـادَ بـالـوصـلِ وحيًّـا بـالـنبـق   وقلت: نبـقى هـكـذا ونـتـفق
مـا اخـضـرَّ عـودُ أبـداً لا نـفـتـرق

وقلت في النبق:

جـلى الـربـيـعُ عـلـيـنـا   كـواعـبـاً أبـكـاراً[1]
مُـتـوَّجـاتٍ عـقـيـقـاً   مـسـورات نـهـارا
تـرى لـهـنَّ مـن الـور   دِ شـوذراً وخـمـارا[2]
أهـدى لـنـا جـوهـراتٍ   تـحـيـرُ الأبـصـارا
يـا حـسـنَ حُـمـرٍ وصُـفـرٍ   تـريـك جـمـراً ونـارا
قـد راقَ ذاك احـمـراراً   وراع ذاك اصـفـرارا
وخـلـتُ هـذا عـقـيـقـاً   وخـلـتُ ذاك نُـضـارا
وذاك شـهـداً مـشـاراً   وذاك راحـاً عُـقـاراً[3]
لـو كـان يـبـقـى سليـمـاً   نـظمـتُـه تـقـصـارا[4]

وقلت في المشمش، ولا أعرفُ فيه لأحد شيئاً مرضياً:

جنيتهـا والـصبـحُ ورَديُّ الـعَـذَب   بنـادقـاً مخـروطـةً مـن الـذهبِ
قـد ضُمِّنتْ أمثـالهـا منِ الخشب   والتفُّ منهـا خشبٌ عـلى غَـربِ
وصـار منهُ السمُّ حشـواً للضـرب   فهي لعمـري عجبٌ من العـجبِ

الغرب الفضة، والضربُ العسل.

ولا أعرف في التين أجود من قول القائل:

أهـلاً بـتـيـنٍ جـاءنـا   مُـبـتـسـمـاً عـلى طـبـقِ
يـحكي الـصبـاحَ بـعضُـه   وبـعضُـه يـحـكي الـغـسـق
كـسُـفـرٍ مـضـمـومـةٍ   قـد جُـمِعـت بـلا حـلق

---

(١) كواعب ابكار: شابات حسناوات.

(٢) الشوذر: الملحفة وهو (معرّب).

(٣) الشهد المشار: العسل المجتني والراح: الخمرة.

(٤) التقصار: القلادة.

وقال الحلبي في الفُستق:

من الفستقِ الشاميّ كلُّ مصون ... تصانُ من الأحداثِ في بطنِ تابوتِ
زبرجدة ملفوفة في حريرةٍ ... مضمَّنةٍ دُراً مُغشى بياقوتِ

وقلت في خيارة:

زبرجدةٌ فيها قراضةُ فِضَّةٍ ... فإن رجعتْ تِبراً فقد خَسَّ أمرُها
تلم بناطورينِ في كلِّ حَجَّةٍ ... فيكثر فينا خَيْرُها ثم شرُّها
فعند المصيفِ ليسَ يفقدُ نفعَها ... وعندَ الخريفِ ليسَ يُؤمَنُ ضرُّها

وأما ذَمُّ البساتين، فمن أجود ما قيل فيه قول ابن الرومي:

لله ما ضَيَّعْتُه من الشجرِ ... أطفالُ غرسٍ تُرتجى وتُنتَظر
ومُعجباتٍ من بقول وزهر ... مصفرةٌ قد هرِمت لا من كبر
في بقعةٍ لا سقِيَتْ صوبَ المطر ... حالِقةٌ لنبتِها حلقَ الشعَر[1]
ضميرُها النارُ وإن لم تستعر ... كلُّ امرىء غيري من هذا البشر
بستانُه أنثى وبُستاني ذكر

ومما يجري مع هذا قول الأعرابي:

مُطِرنا فلما أن روينا تهادرت ... شقاشق فيها رائبٌ وحليب
ورامت رجالٌ من رجالٍ ظُلامةً ... وعدَّت ذُحُولٌ بيننا وَذُنوبُ
ونصَّت ركابٌ للصبا فتروَّحتْ ... ألا ربما هاجَ الحبيبَ حبيبُ
بني عمنا لا تُعجِلوا نضبَ الثرى ... قليلاً ويشفي المترفينَ طبيبُ[2]
ولو قد تولى الضبُّ وامترت القرى ... وحنَّت ركابُ الحيّ حين تؤوبُ[3]
وصارَ غَبوق الخَودِ وهي كريمةٌ ... على أهلها ذو جِدتين مَشوب[4]
وصار الذي في أنفهِ خُنزُوانةٌ ... ينادي إلى هادي الرَّحا فيجيبُ[5]
أولئك أيامٌ تُبَيِّنُ للفتى ... أكاب سليب أوا أشمٌّ نجيب

---

(١) الصوب: المطر.
(٢) نضب الثرى: جفافه.
(٣) تؤوب: تعود.
(٤) الغَبوق: شراب المساء.
(٥) خنزوانة: القرد أو الخنزير.

الفصل الثالث من الباب السابع

في ذكر النسيم

من غريب ما قيل فيه قول ابن المعتز:

ونسيم يُبَشِّرُ الأرض بالقطـ ـرِكذيل الغلالةِ المبلول
وَوُجوهُ البلادِ تنتظرُ الغيـ ـثَ انتظار المحبِّ رَدَّ الرسولِ

وقال[1] ابن الرومي:

حيَّتك عنا شَمالٌ طافَ طائفها بجنَّة فجرت رَوْحاً وريحانا
هبَّت سُحيراً فناجى الغُصنُ صاحبَه سِرّاً بها وتنادَى الطيرُ إعْلَانا
وُرْقٌ تُغني على خُضْرٍ مُهدلّةٍ تَسمو بها وتشُمّ الأرض أحيانا
تخالُ طائرها نشوانَ من طربٍ والغصن من هزِه عطفيه نشوانا

وقال ابن المعتز:

يَشُقُّ رياضاً قد تيقَّظ نَورُها وبلَّلها دمعٌ من المُزنِ ذَارِفُ
كأنَّ عُبابَ المسكِ بين بقاعِها يفتحُها أيدي الرياح الضعائفُ

وقلت:

والصبا يجلبُ الغمامَ إلينا فترى القطرَ للرياضِ نَديما
وترى للغصون فيها نجِياً وعلى زَهْرة الرياضِ نميما

وقال[2] ابن الرومي:

كَأَنَّ نَسيمَها أرجُ الخُزامى ولاها بعد وسمِيٍّ ولِيٌّ[3]
هديَّةُ شمألٍ هبَّت بليلٍ لأفنانِ الغُصونِ بها نجِيٌّ
إذا أنفاسُها نسمتْ سُحيراً تنفس كالشجيِّ لها الخَليّ

---

(١) ديوانه: ٦/٢٠٩.

(٢) ديوانه: ٦/٣٨٥.

(٣) أرج الخزامى: عطرها. والخزامى: نبت ذكي الرائحة. الوسمي: أول المطر. الولي: ما يليه.

وقال ابن المعتز:

وما ريحُ قاعٍ عازبٍ طلّه النّدى ... وروضٌ من الريحانَ دَرَّت سحائبُه
فجاءت سُحَيراً بينَ يومٍ وليلةٍ ... كما جرَّ في ذيلِ الغِلالة ساحبُه[1]

وقد أحسن التشبيه أيضاً في قولِه:

ومهمهٍ كرداءِ الوشي مُشتبهٍ ... نَفَذْتُه والدُّجى والصبحُ خيطانِ
والريحُ تجذبُ أطرافَ الرداءِ كما ... أفضى الشفيقُ إلى تنبيهِ وَسْنانِ

وقلت:

وأقبل نَشرُ الروضِ في نفس الصّبا ... فباتَ به ثوبُ الهواءُ مُكفرا[2]

ومما لا يجيء في معناه مثله قول بشار:

أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، قال: حدثنا المكتفي بالله يوماً، أنه كان نائماً، فسمع دق بابٍ، فانتبه له مرتاعاً ثم سكن قليلاً، ثم عاد فنظر، فإذا الريحُ تُحركُ الباب حركةً كأنها دق بيد، قال: فقلتُ له: قد ذكر الشاعر ذلك وما هو فأنشدته[3] لبشار:

طرقتني صَباً فحرّكت البا ... بَ هُدُوّاً فارتعْتُ منهُ ارتيابا
فكأني سمعتُ حسَّ حبيبٍ ... نقرَ البابَ نقرةً ثم هابا

قال ما كنت أظنُّ أنه قيل في هذا شيء وما أقل ما يجري مما لم يذكرهُ الناس.

وقال[4] ابن الرومي وأحسن:

لولا فواكهُ أيلولٍ إذا اجتمعتْ ... من كلِّ نوعٍ ورقَّ الجوُّ والماءُ
إذاً لما حفَلت نفسي متى اشتملتْ ... عليهِ هائلةَ الحالين غبراء
يا حبذا ليلُ أيلولٍ إذا بردتْ ... فيهِ مضاجعُنا، والريحُ سجواءُ[5]
وجمّش القرُّ فيه الجلدَ وأتلفتْ ... من الضجيعين أحشاءٌ وأحشاءُ[6]
وأسفرَ القمرُ الساري فصَفْحتهُ ... ريّالها من صفاء الجو لألأء
يا حبذا نفحةٌ من ريحهِ سحراً ... يأتيك فيها من الريحانِ أنباءُ
قل فيه ما شئتَ من شهرٍ تَعهَّدُهُ ... في كلِّ يومٍ يدُ للهِ بيضاءُ

وقلت:

ولهُ مَجْنحُ الأصيلِ نسيمٌ ... لينُ العطفِ هينُ الخطرانِ

---

(١) الغِلالة: الثوب الرقيق.
(٢) مُكفر: أي فيه كافور.
(٣) ديوانه: ١٩٥.
(٤) ديوانه: ١/ ٢٩.
(٥) الريح سجواء: ساكنة.
(٦) التجميش: الملاعبة. القُر: البرْد.

أرجٌ يقتدي به نفسُ المسـ ـك وتحكيه نكهةُ الزعفرانِ
كم غدا مُدْنفاً وراحَ حسيراً يتهادى في دجلة المسرُقان[1]
فرأينا لهُ لبوسَ شجاعٍ ووجدنا بها ارتعاشَ جبانِ

وإلى هذا انتهى بنا القولُ في هذا الباب، ولو أردنا استقصاءه أضجرنا وأمللنا، ولم نأت على ما في نفوسنا منه، والاقتصار على المشاهير والأعيان منه أولى وبالله التوفيق.

انقضى الباب السابع، من كتاب ديوان المعاني، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) المدنف: المريض.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي قمع الضلالة، ودمغ الجهالة، وقذف بالحق على الباطل فأزهقه، وأزاله منه حتى أوبقه، بما أقام من الدلائل الواضحة، وبين من الشواهد اللائحة، وجعل لخلقه حدوداً حذرهم تعديها، وخوَّفهم تخطيها، بالقول الصادق، والبيان الصادع، إعذاراً وتحذيراً، وحجة وتنبيها، فمن لم يُقنعُه ما سيق من صدق قوله، وحتم أمره ونهيه، حُكم فيه السيفُ، وسلط عليه السوط، ليردَّاه إلى سبيل الحق، بعد أن يجعلاه نكالاً للخلق، والله عليم حكيم.

وصلى الله على نبيه محمد وآله أجمعين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا كتاب المبالغة

في صفات الحرب والسلاح والطعن والضرب وما يجري مع ذلك وهو:

الباب الثامن من كتاب ديوان المعاني

قالوا: أبلغُ ما قيل في صفة الحرب قول الأوَّل:

كـأنَّ الأفـقَ مـحـفـوفٌ بـنـارٍ وتـحـتَ الـنـارِ آسـادٌ تـزيـرُ[1]

وقريب منه قول مُحدث:

ويـوم كـأن الـمـصـطلـيـنَ بـحـرِّهِ وان لم يكن جمـرٌ وقـوفٌ على جمـرِ
صبـرنـا لـه حـتى تـجـلى وإنـمـا تُـفَـرَّجُ أيـامُ الكـريـهـة بـالـصـبـرِ

ومن بليغ ما قيل في شدة الروع قول زيد[2] الخيل:

والـخيـلُ تـعلمُ أني كنتُ فـارسَهـا يـوم الأكس بـه مـن نَـجـدَة روقِ

---

(١) آساد: جمع أسد.

(٢) هو زيد بن مهلهل بن منهب، عُرف بكثرة خيله فلقب بزيد الخيل، شاعر خطيب من ابطال الجاهلية، اسلم في وفد من قومه على النبي ﷺ، مات سنة ٩ هـ. (الأعلام: ٣/٦١).

وقول[1] المفضل النكري:

فــداءٌ خــالــتــي لــبــنــي حــيــي　　　خصــوصــاً يــومَ كُسُّ القــومِ رُوقُ[2]

معناه أن الأكَس، وهو القصيرُ الأسنان، وقد كلح من كراهة الحال، وشدة الروع، حتى تراه كأنه أروق، وهو الطويل الأسنان، أخَذَهُ أبو تمام فأجاده في قوله:

فــخيــل مــن شــدة التــعبيس مــبتــسمــاً

على أنه ليس فيه مَدح لأن الكلوح في الحرب لا يدل على الشجاعة. ومما يدخل في هذا الباب وليس منه قول أبي فراس بن حمدان في خيل طاردت يوم ثلج[3]:

ويــوم كــأن الأرضَ شــابت لهــولــهِ　　　قطعتُ بخيـل حشو فرسانها الصبرُ

تسيـرُ عـلى مثـلِ الـمـلاءِ منشـراً　　　وآثـارهـا طُـرزٌ وأطـرافـهـا حُـمـرُ

أجود ما قيل في اصطفاف الخيل قول الأسعر[4]:

وكـتـيـبـة لـبّـسـتـهـا بـكـتـيـبـةٍ　　　حتى تـقـولَ نسـاؤهم هـذا الفتـى

يخـرجنَ من خَللِ الغبـار عـوابسـاً　　　كـأنـامـل المقـرور أقعى فـأصطلى[5]

يتخـالـسـونَ نفـوسَهم بـرمـاحـهم　　　فبمـثلهـم بَـاهى المـبـاهي وانتـمى

ومن أجود ما قيل في انصباب الخيل في الغارة قول ضمرة بن ضمرة:

والـخيـلُ مـن خَلل الـغبـارِ خـوارجٌ　　　كـالتمر ينثـرُ من جِراب الجـرمِ[6]

وقال آخر:

ورُبَّـتَ غـارةٍ أوضـعـتُ فـيـهـا　　　كـسـحِّ الـخـزرجـيِّ جَـريـم تـمـرِ

وقد أحسن الأعرابي في قوله:

نُـقـاذفُ بـالغـاراتِ عبسـاً وطيئـاً　　　وقـد هـربت منـا تميمٌ ومـذْحـجُ[7]

بغـزو كـولـغ الـذئبِ غـادٍ ورائـح　　　وكسـرٍ كصـدع السيفِ لا يتـعـرجُ

وقال[8] أبو فراس:

وسـمـر أعـاد يلمـعُ البيض بينـهـم　　　وبيض أعـادٍ في أكـفـهـمُ الـسـمـرُ

وخـيـل يلوحُ الـخيـرُ بـينَ عُـيـونهـا　　　ونصـلٍ إذا مـا شِمتـهُ نـزلَ النصـر

---

(١) طبقات ابن سلام: ١/ ٢٧٥. والأصمعيات: ٢٠١.

(٢) الكسس: قصر الأسنان.

(٣) ديوانه: ١٣٢.

(٤) الأسعر: هو الأسعر الجعفي، مرثد بن أبي حمران، شاعر جاهلي.

(٥) المقرور: من اصابه البرْد.

(٦) الجرم: جمع الجارم: من يجني التمر.

(٧) أشار إلى أربع قبائل عربية.

(٨) ديوانه: ١٣٢.

وقـوم مـتى مـا ألـقهـم رَوِيَ الـقـنـا   وأرضٍ متى مـا أغـزهـا سُبـعَ النسـرُ

ومن أبلغ ما قيل في إعمال السيف قول[1] عمرو بن كلثوم:

كـأن سـيـوفـنـا فـيـنـا وفـيـهـم   مـخـاريـقٌ بـأيـدي لاعـبـيـنـا[2]

وقول[3] قيس بن الخطيم:

كـأنَّ يـدَي بـالـسيـفِ مخـراقُ لاعـبِ

ومن أحسن ما قيل في الضرب قول الحماني:

وإنـا لـتـصـبـحُ أسـيـافـنـا   إذا مـا انـتـضـيـن لـيـوم سُـفـوك
مـنـابـرُهـنَّ بـطـونُ الأكـفِّ   وأغـمـادُهـنَّ رؤوسُ الـمـلـوكِ

أخذه من قول سعد بن ناشب[4]:

فـإنَّ أسـيـافـنـا بـيـضٌ مُـهـنـدةٌ   عتقٌ وآثـارهـا في هـامكمُ جُـددُ
وإن هـويتم سللناهـا فما غمـدت   إلا وهـامُ بـنـي بـكـر لـهـا غـمـدُ

وقال مسلم:

ونـغـمـد الـسيـف بيـن الـنـحـر والـجيـد

وقال أيضاً:

لـو أنَّ قـومـاً يـخـلقـونَ منـيـةً   من بـأسهم كـانـوا بني جبـريـلا
قـومٌ إذا احمـرَّ الهجيـرُ من الـوغى   جعلوا الجمـاجمَ للسيـوف مقيـلا

وقال[5] حسان:

ويـثـربُ تـعـلـمُ أنَّـا بـهـا   أُسـودٌ تُـنـفِّضُ الـبـادَهـا[6]
إذا مـا غـضـبـنـا بـأسـيـافـنـا   جعلنـا الـجمـاجِـمَ أغـمـادهـا

وأحسن ما قيل في الضربة الدامية قول ابن المعتز:

شَـقَّ الـصـفـوفَ بـسـيـفـهِ   وشـفـى حـزازاتِ الأحَـنْ
دامـي الـجـراح كـأنـه   وردٌ تـفـتَّـح فـي فَـنَـنْ[7]

---

(١) شرح المعلقات السبع: ١٢٦.

(٢) المخراق: واحد المخاريق. وهو السيف. أو خرقة بلوح بها الصبيان.

(٣) ديوانه: ٨٨. وصدر البيت: «أجالدهم يوم الحديقة حاسراً».

(٤) هو سعد بن ناشب بن معاذ بن جعده التميمي، من أهل البصرة شاعر من الفتّاك. مات سنة ١١٠ هـ. (الأعلام: ٣/٨٨).

(٥) ديوانه: ١٩٦.

(٦) ألباد: جمع لبدة: شعر كتفي الأسد.

(٧) في ديوانه: ٣٨١: «في غصن».

ومن عجيب ما قيل في كثرة الطعن يقع في الجسد قول بعضهم:

فلولاَ اللهُ والمهرُ المفدَّى ... لرحتَ وأنتِ غربالُ الإهابِ

وقال قيس بن الخطيم في سعة الطعنة:

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها

ملكتُ بها كفي فأنهرتُ فتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءها[1]

ومن أبلغ ما قيل في مضاء السيف قول النمر بن تولب:

أبقي الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ ... أسْبَادَ سَيفٍ قديم أثرهُ بادي[2]

تظلُّ تحفِرُ عنهُ إن ضربت به ... بُعد الذراعين والساقينِ والهادي

وهذامن الأفراط والغلوّ، وهو عند بعضهم مذمومٌ، إذا كان في هذا الحدّ، وعند آخرين مَمْدوحٌ، يقول إذا ضربت به قطع المضرُوبَ وتجاوزه، حتى غاص في الأرض فاحتجتَ أن تحفرَ عنه فتستخرجه.

ودون ذلك في الغلو قول النابغة:

يطيرُ فُضاضاً بينهم كلُّ قَونَسٍ ... ويتبعها منهم فراشُ الحواجبِ[3]

تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نسجُهُ ... وتوقد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحبِ[4]

يقول: إنها تقدّ الدرعَ التي ضُوعف نسجها والفارس حتى تبلغ الأرض فتقدح النار بالصُّفَّاح: وهي حجارة.

ومن بليغ ما قيلَ في صفة السيف، قول ابن يامين قال محمد بن داود بن الجراح: عن أبي هفان، عن الإياسي القاضي، عن الهيثم بن عدي، قال: لما صار سيف عمروبن معدي كرب، الذي يُسمى الصماصمة إلى الهادي وكان عمرو وهبه لسعيد بن العاص، فتوارثه ولده إلى أن مات المهدي، فاشتراه موسىٰ الهادي منهم بمال جليل، وكان موسىٰ من أوسع بني العباس خُلقاً وأكثرهم عطاءً، للمال، قال: فجرّده ووضعه بين يديه، وأذن للشعراء، فدخلوا ودعا بمكتل فيه دنانير، فقال: قولوا في هذا السيف فبدرهم ابن يامين فقال:

حازَ صمصامةَ الزُّبَيديِّ من بيـ ... ـنِ جميعِ الأنامِ موسىٰ الأمينُ[5]

سيفُ عمرٍو وكانَ فيما سمعنا ... خيرَ ما أغمدت عليه الجفون

أوقدت فوقَهُ الصواعقُ ناراً ... ثم شابت به الزُّعاف القُيون[6]

---

(١) البيت في ديوان ابن الخطيم: ٤٦. وفيه: «مِن خلفها ما».

(٢) أسباد: ثياب سود.

(٣). البيت في ديوان النابغة: ٥١. فضاض: متناثر. القَونس: أعلى الرأس. والحواجب: العظام الرقيقة نوق الخياشيم.

(٤) السلوقي: درع منسوب إلى سلوق. الحُباحب: شرر النار. والصُّفاح: حجارة عريضة.

(٥) الصمصامة: السيف.

(٦) القيون: جمع القين: الحدّاد.

فـإذا مـا هـزَزتـه بـهـرَ الـشـمـسَ ضـيـاءً فلم تـكـن تـسـتـبـيـن
يستطيرُ الأبصار كالقبسِ المشعـلِ مـا تـسـتـقـرُّ فـيـهِ الـعـيـون
وكـأن الفـرنـدَ والجـوهـرَ الجـاريَ في صفحتيه مـاءٌ معـيـنُ
نِعَم مِخراقُ ذي الحفيظة في الهيـجـا بعضّـاتهـا ونعمَ القـريـنُ
مـا يبـالي إذا انتضـاهُ لـضـربٍ أشـمـالٌ سـطـت بـهِ أم يـمـيـن
وكـأن الـمـنـونَ نـيـطـت إلـيـه فـهـو من كـلِّ جـانـبـيـه مَـنـون

أخِذَ عليه من هذه الأبيات تشبيهه السيف بالشمس، ثم بالقبس، لأنه قد حطهُ درجاتٍ، فقال موسىٰ: أصبتَ ما في نفسي، واستخفه الفرحُ، فأمر له بالمكتل والسيف. فلما خرج الشعراء: إنما حرمتم لأجلي فدونكم المكتل ولي في هذا السيف غنى، قال فقال موسىٰ فاشترى اليف منه بمال جزيل هـ.

وذكر الهيثم بن عدي هبة عمرو بن معديكرب الصمصامة لسعيد بن العاص فقال: قال سعيد بن العاص: وهوبالكوفة لعمرو بن معديكرب هب لي الصمصامة، فإنك قد ضعُفت عن حمله، وكان وزنهُ سِتَّة أرطال فقال عمرو: ما ضَعُفَتْ قناتي ولا جناني ولا لساني، وإن اختلّ جُثماني، وهو لك على أنه أوحِش من لا يؤنسه، وأظلم من لا يقبسه. ثم قال:

خـلـيـلٌ لـم أهـبـهُ مـن قِـلاهُ ولـكنَّ الـمـواهبَ فـي الكـرامِ
خـلـيـلٌ لم أخُنـهُ ولم يـخُـنّـي على الصمصامِ أضعافُ السلام

وقوله: «أوحِش من لم يؤنسه، وأظلم من لا يُقبسه» يقول: إذا كنتُ أستوحش من جانب العدو آنسني، وإذا أظلم ليَ الليل أضاء لي.

وقال البحتري[1]:

مُصْنـعٍ إلى حُكم الردَى فإذا مضى لـم يلتفت وإذا قـضى لـم يـعـدل
مـتـوقّـد يَـبـري بـأوّلِ ضـربـةٍ مـا أدركتْ ولـو أنهـا في يـذبـل
فـإذا أصـابَ فكـلُّ شيء مَـقـتـلٌ وإذا أصيبَ فـمـا لـه من مـقـتـلِ
يغشى الـوغى فـالتـرسُ ليس بجنة من حـدِّه والـدرعُ ليس بمَعـقِـلِ

وذكر عمرو بن معديكرب أنواع السلاح فأجاد:

أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو عبد الله بن عرفة، قال: أخبرنا أحمد بن يحيىٰ، عن ابن الأعرابي، قال: حدثني رجلٌ من ولد أبي سرحة الغفاري، قال:

قـدم عمرو بن معـديكـرب، على عمـر بن الخـطاب رضي الله عنـه، فسـألـه عن سعـد بن أبي وقاص، فقال عمرو: أعرابيّ في نمرته، عاتقٌ في حجلته، أسدٌ في تامورته، نبطيّ في جبايته. فقال كيف علمك بالسلاح؟ فقال بَصيرٌ. قال: فأخبرني عن النبل، قال: منايا تخطىء وتصيب، قال: فأخبرني عن النبل، قال: فأخبرني عن الرمح قال: أخوك وربما خانك. قال:

(١) ديوان البحتري ٢/٢٢٢ ص.

فأخبرني عن الترس. قال: هو المجنُّ[1]، وعليه تدور الدوائر. قال: فأخبرني عن السيف. قال: عنده قارعت أمّك الثكلى. قال: بل أمك، والحمى أضرعتني لك.

النمرة: كساءٌ أسودُ تلبسه الأعراب. والعاتق: الجارية الكعاب، وصفه بالحياء. والتامورةُ ههنا الأجمة. فقال: نبطيٌّ في جبايته، وصفه بالاستقصاء في جباية الخراج. وقوله: «الحمى أضرعتني لك»: أي[2] الاسلام قيّدني لك، وأذلني، ولو كنتُ في الجاهلية ما كلمتني بهذا الكلام، وهو مثلُ العرب تضربُه عند الشيء يضطرها إلى الخضوع.

ومثل ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن دُريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة، قال: قال الأغرُّ النهشلي، ووقع بينه وبين قومه شرٌّ، فأرسل ابنه، وقال يا بُنَيَّ، كن يداً لأصحابك على قتالهم، وإياك والسيف، فإنه ظِلّ الموت، واتّق الرمح، فإنه رشأ[3] المنية، ولا تقرب السهام، فإنها رُسُلٌ تعصي وتُطيع. قال: فيمَ أقاتل؟

قال: بما قال الشاعر:

جـلاميـدُ أمـلاء الأكفّ كـأنـهـا ... رؤوسُ رجـالٍ حُلّقت في المـواسمِ

فعليك بها فألصقها بالأعقاب والسوق.

وقد أحسن التنوخي في صفة الحرب حيث يقول:

فِي مـوقف وقفَ الحمـامُ ولم يَـزغ ... عـن سـاحتيـه وزاغت الأبـصـارُ
فَقَنـاً يسيـلُ من الـدمـاءِ على قنـا ... بـطوالـهـنَّ تُـقَـصَّـرُ الأعـمـارُ
ورؤوس أبـطالٍ تـطايَـرُ بـالـظُّبىٰ ... فكـأنهـا تـحتَ الـغبـار غبـارُ[4]

وقد أجاد ابن المعتز في هذا المعنى حيث يقول:

قـومٌ إذا غضبـوا علـى أعـدائهم ... جَـرُّوا الـحـديـدَ أزجَّـةً ودُروعـا
وكـأن أيـديـهـم تُـنَـفِّـرُ عـنـهـمُ ... طيـراً على الأبدانِ كُنَّ وقُـوعـا[5]

وقال أيضاً:

بـطعنٍ تضيـعُ الكفُّ في لَهـواتـهِ ... وضربٍ كما شُقَّ الـرداءُ المَرعبَلُ[6]

وقال أيضاً:

قَـرَينـا بعـضهـم طعنـاً وجيعـاً ... وضـربـاً مـثـلَ أفـواهِ اللقـاحِ[7]

---

(١) المجن: الترس وما يقي ويحفظ.
(٢) جمهرة الأمثال: ١/٢٨٢.
(٣) الرشأ: الحبل.
(٤) الظُّبى: جمع الظباة: حد السيف.
(٥) في ديوانه: ٢٦٧. وفيه: «وكأن أيدينا».
(٦) الرداء المرعبل: الممزق. والبيت في ديوانه: ٣٢١.
(٧) في ديوانه: ١٢١. وفيه: «محاه كل هطّال ملحٍ، بوبلٍ مثل أفواه اللقاح».

وقال[1] البحتري وأحسن في ذلك:

ألوي إذا طعنَ المدجج صَكّهُ ... ليديهِ أو نثرَ القناة كُعوبا

فأنا النذيرُ لمنْ تغطرسَ أو طغى ... من مارنٍ يدعُ النُحورَ جُيوبا

وقد ظرّف في قوله[2] أيضاً:

ولو لم يحاجز لؤلؤٌ بفرارهِ ... لكانَ لصدرِ الرُمحِ في لؤلؤٍ ثقبَ

ومن المختار قول مالك بن نُويرة[3]:

بسُمرٍ كأشطانِ الجرور نواهلٍ ... يجوز بها ذو المنايا ويهتدي[4]

يقعنَ معاً فيهم بأيدي كماتنا ... كأنّ المنايا للرماح بموعد[5]

ومن أبلغ ما قيل، في صفة الضرب والطعن، من قديم الشعر، قول عبد مناف بن ربعي:

فالطعنُ شعشعةٌ والضربُ هيقعةٌ ... ضربَ المُعَوِّل تحتَ الديمة العضدا

وللقسيّ أزاميلٌ وغمغمةٌ ... حِسّ الجنوب تسوِّي الماءَ والبردا

الهيقعة: وقع الشيء الصُلب على مثله، سمعت هيقعة الحجر والحديد، وشبّه أصوات القسي بصوت السحاب الذي فيه برد. والمعول الذي يتخذ العالة وهو أن يعمد الراعي، أذا خاف المطر إلى الشجر، يتعضده ويجعل عضده على شجرتين متقاربتين، ويستكن تحته. والعضُد: ما يعضد من الشجر، أي يُقطَعُ والعضُد المصدر.

ومن أجود ما قيل، في نفوذ التدبير في الحرب، مع الغيبة عنها قول ابن الرومي في صاعد[6]:

يَظلُّ من الحربِ العوانِ بمعزلٍ ... وآثارهُ فيها وإن غابَ شهَّدُ

كما احتجبَ المقدارُ والحُكمْ حكمهُ ... على الناسِ طراً ليس عنده مُعَرَّدُ[7]

أخذه من قول[8] بشار بن برد:

الدهرُ طلاعٌ بأحداثهِ ... ورُسلهُ فيها المقادير

محجوبة تُنفذ أحكامَها ... ليسَ لنا عن ذاكَ تأخيرُ

وقال:

---

(١) ديوانه: ١/١٦٧ ص.

(٢) ديوانه: ٢/٨١ ص.

(٣) هو مالك بن نويرة اليربوعي، قتله خالد بن الوليد في حرب الروة شاعر.

(٤) اشطان: جمع شطن وهو الحبل.

(٥) الكُماة: جمع الكمي: المقاتل المدجج.

(٦) صاعد: الوزير الكبير. أبو العلاء، الكاتب، كتب للموفق، ووزر للمعتمد، له اعمال بر وصدقات وقيام ليل. مات سنة ٢٧٦ هـ. والبيتان في ديوانه. ٢/١٢٤.

(٧) مُعرّد: مهرب.

(٨) وانه: ٥٢٤.

حصرتَ عميدَ الزَّنج حتى تخاذلت قــواهُ وأودى زاده الـمُـتـزودُ

وكـانت نـواحيـهِ كثافـاً فلم تـزل تـحيَّـفُـهـا حتـى كـأنـك مبـردُ
تُفـرقُ عنـهُ بـالمكـايـدِ جُـنْـدَهُ وتـزدارهم جنداً وجيشُك محصّد[1]
سكنت سكـونـاً كـان رَهنـاً بـوثبةٍ عَمـاسٍ كـذاك الليثُ للوثبِ يلبـدُ
فمـا رمتـهُ حتى استقـلَّ بـرأسـه مكـان قَنـاةِ الـظهرِ أسمرٌ أجـردُ
مـنـاك لـه مِقـدارهُ فـكـأنـمـا تقـوّضَ ثهـلانٌ عليـهِ وصِنْـدَدُ[2]

فقال: صندد، بفتح حرف الردف، وهو خطأ، وليس في العربية، فعلل إلا درهم وهجرع وهو الطويل الأحمق، وهبلع وهو الكثير البلع، وقلعم وهو الكثير القلع للأشياء، وكان بنى قصيدته على فتح الردف، ولم يلزمه ذلك وكابر على فتح صندد ورمدد، وهما مكسوران فزعم محمد بن حبيب أنه رواهما بالفتح، وكابر أيضاً على فتح الراء من «درم» في قصيدته التي أولها:

أفـيـضـا دمـاً ان الـرزايـا لـهـا قِـيـم

وانما هو «دَرم». وأحسن ما قيل في الكيد والحرب قول أبي تمام[3]:

هـزرتَ لـه سيفـاً من الكيـدِ إنمـا تُجـذُّ بـه الأعنـاقُ مـا لم يجـرّدِ
يسـرُّ الـذي يسطو بـهِ وهـو مُغمَدٌ ويُفضحُ من يسطو به غير مُغمَـدِ

يقول: إنْ أخفيت الكيد ظفرت وسررت، وإن أظهرته افتضحت وخبت.

وقد أحسن في وصف الرماح حيث يقول:

أنـهبتَ أرواحــهُ الأرمـاح إذ شُـرِعت فمـا تُـردُّ لـريبِ المـوتِ عنـهُ يـدُ
كـأنـهـا وهـي فـي الأرواحِ والـغـةٌ وفي الكُلى تجـدُ الغيظَ الـذي يجـدُ
مـن كـلِّ أزرقَ نـظارٍ بـلا نـظرٍ إلـى المقـاتـلِ مـا في متـنـهِ أودُ
كـأنـه كـان خِـدنَ الحبِّ مُـذ زمنٍ فـليس يُـعـجـزهُ قـلبٌ ولا كـبـدُ

ويُشَبَّه بياض السيف بالملح فمن أجود ما قيل فيه قول النمري:

ذكـرٌ يـرونقـه الـدمـاءُ كـأنمـا يعلو الـرجـالَ بـأرجـوان فـاقـعِ
وتـرى مضارب شفـر تيـهِ كـأنهـا ملحٌ تنـاثـرَ من وراءِ الـدارعِ

ويُشَبَّه الفرند بمدبِّ الذّر، فمن قديم ما قيل فيه قول امرىء القيس:

مُـتـوَسِّـداً عَضْبـاً مـضـاربُـه في مَتنـهِ كمـدبـةِ الـنمـلِ[4]

وقول[5] أوس بن حجر:

---

(١) محصد: قوي مجتمع.
(٢) ثهلان وصِندد: جبلان.
(٣) ديوانه: ٩٢.
(٤) العضب: السيف.
(٥) ديوانه: ٩٥.

وذو شَطباتٍ قَدَّهُ ابنُ مُجَدَّعٍ ... لـه رَونـقٌ ذرِّيـه يـتـأكّـلُ[1]
وأشبرنيه الهالكيُّ كأنه ... غديرٌ جرى في متنهِ الريحُ سلسلُ[2]
وأخرج منه القينُ أثراً كأنه ... مَدَبُّ دباً سودٍ سرى وهو مسهلُ[3]

وقال[4] ابن المعتز وأبدع:

وجَرَّدَ من أغمادِهِ كلَّ مُرهَفٍ ... إذا ما انتضته الكفُّ كاد يسيلُ
ترى فوقَ متنيهِ الفِرندَ، كأنما ... تنفَّسَ فيهِ القينُ، وهو صقيلُ[5]

وقال: إسحاق بن خلف:

ألقي بجانبِ خصرهِ ... أمضى من الأجلِ المُتاح
وكأنما ذرَّ الهما ... ءَ عليه أنفاسُ الرِّياحِ

وقال[6] قيسُ بنُ الخطيم:

أجالدهُم يومَ الحديقةِ حاسراً ... كأن يدي بالسيف مِخراقُ لاعِبِ
بسيفٍ كأن الماءَ في صفحاتِهِ ... طحاريرُ غيمٍ أو قُرونُ جنادِبِ

أخذه ابنُ المعتز فقال[7]:

ولي صارمٌ فيهِ المنايا كوامنٌ ... فما يُنتضَى إلا لسفكِ دماءِ
ترى فوقَ متنيهِ الفِرنَد كأنه ... بقيَّةُ غيمٍ رقَّ دونَ سماءِ

وقد أجاد ابن الرومي في قوله:

خيرُ ما استعصمت بهِ الكفُّ عضبٌ ... ذكرُ متنُهُ أنيثُ المَهزِّ[8]
ما تأمَّلْتَه بعينِك إلّا ... أبرقت صفحتاهُ من غيرِ هزِّ
مثله أفزعَ الشجاعَ إلى الدِّر ... ع فغالى به على كلِّ بزِّ
وما أبالي أصمَّمتْ شفرتاهُ ... في محزٍّ أو جازتا عن محزّ

وقال آخر:

جرِّدُوها فألبسوها المنايا ... عِوضاً عوضت من الأغمادِ
وكأن الآجالَ ممن أرادوا ... وظَباها كانت على ميعادِ

(١) ابن مجدّع: حدّاد يصنع السلاح. رونق السيف: صفاؤه. يتأكّل: يبرق.
(٢) أشبرنيه: اعطانيه.
(٣) القَين: الحدّاد. دبا: جراد.
(٤) ديوانه: ٣٣٠. وفيه: «وجرّدت من».
(٥) في ديوانه: «وهو ثقيل».
(٦) ديوان ابن الخطيم: ٨٨.
(٧) ديوان ابن المعتز: ١٨.
(٨) سيف أينث ومئنات: كهام. والأبيات في ديوان ابن الرومي: ٢٤٤/٣.

وقلت:

تـميــلُ كـفيَ مـن سيفٍ إلى قـلمٍ والعــزُّ نصفـانِ بينَ السيفِ والقلمِ

وقال ابن المعتزّ:

وسيــوفٍ كـأنهـا حيـنَ سُـلت ورقُ هــزّهُ سُـقــوطُ قِـطارِ[1]

ودروع كـأنَّـهـا شَـمَطُ جَـعْـدُ دهينٌ يـضـلُّ فيـه الـمَـدَاري[2]

وقال ابنُ الأعرابي أحسن ما قيل في صفة الرماح:

وبكــلِّ عَــرَّاص الـمَـهـزَّةِ مـارنٍ فيـه سنانٌ مثـلُ ضوءِ الفـرقَـدِ[3]

أحسن ما قيل في صفة الرماح قول المزرد:

أصم إذا مـا هُـزَّ مـالت سـراتـه كما مال ثعبانُ الـرمـالِ المـوائـلِ

لــه رائــدٌ مـاضي الغـرار كـأنـه هـلالٌ بدا في ظلمةِ الليلِ نـاحـلِ

وقال الأصمعي أحسن ما قيل في صفة الرمح قول أبي زبيد:

وأسمـر مـربـوعٌ يـرى مـا أريتـه بـصيـرٌ إذا صـوّبتـه للمقـاتـلِ

وقال ابنُ الأعرابي أحسنُ ما قيل في ذلك قول مسكين:

بـكـلِّ رُدَيْـنـيّ كـأنّ كـعـوبَـه قـطانسق يستـورد المـاءَ صـائفُ

كـأنَّ هــلالاً لاحَ فـوق سـراتــهِ جلا الغيمَ عنهُ والقتامَ الحراجفُ[4]

وأحسنُ ما قيل في سرعة وقعِ الرماح، وتداركه قول دريد بن الصمة[5]:

نــظرتُ إليــهِ والرمــاحُ تَـنـوشـهُ كـوقع الصيـاصي في النسيج المـددِ

الصيصية: الشوك الذي يسوي به الحائك الثوبَ، والصيصية أيضاً: الحصن ويقال للناشز من ساق الديك الصيصية أيضاً.

وقد أحسن البحتري في قوله[6]:

في معـركٍ ضنـكٍ تخـالُ بـهِ القنـا بين الـضلوع إذا انـحنينَ ضلوعـا

وأجود ما قيل في إدمان حمل الرمح قول الآخر:

وقـد طالَ حملي الـرُّمحَ حتى كـأنـهُ على فـرسي غُصنٌ من البـانِ نـابتُ

يـطولُ لسـاني في العشيـرةِ مُصلحـاً على أنــه يـومَ الكـريهـةِ سـاكتُ

---

(١) في ديوان ابن المعتز: ١٧٥ وفيه: «وسيوفٌ هُزّتْ» «هزّها سقوط القطار»

(٢) في الديوان: «الجعد دهيناً تضيل فيها» والمداري: الأمشاط.

(٣) الفرقدان: نجمان.

(٤) السراة: المرتفع. القتام: الغبار الحراجف: الرياح الشديدة.

(٥) ديوانه: ٤٨.

(٦) ديوان البحتري: ١/٢٤٦ عـ.

والسكوت في الحرب دليل على سكون الجأش، وكثرة الصوت فيها إمارة الفزع.
وقد قيل:

وكثرة الصوت والإيعاد من فشل

وقلتُ في الرمح:

يغدو بصدْق الكعوبِ لَدْن … يهتزُّ ما بينَ كوكبينِ

أعني الزج والسنان.
وقال[1] البحتري:

كأنما الحربةُ في كفّهِ … نجمُ دُجىً شيَّعهُ البدرُ

وقد شبهت العرب الرماح بالأشطان، والأسنة بالشهبان، فتركنا ذكر ذلك لشهرته واستفاضته.

أجود ما قيل في القوس من قديم الشعر قول[2] أوس بن حجر وهو أوصف العرب للسلاح:

فجرّدَها صفراءَ لا الطولُ عابها … ولا قِصرٌ أزرَى بها فتعطلا
كتومٌ طِلاع الكفِّ لا دونَ مَلئِها … ولا عجسُها عن موضع الكفِّ أفضلا
وحشوَ جفيرٍ من فروعِ غرائب … تنطّعَ فيها صانعٌ وتأمّلا[3]
تُخيِّرنَ أنضاءً وركّبن أنصُلاً … كجمرِ الغضا في يوم ريحٍ تزيّلا

وقال الشماخ في صوت القوس[4]:

إذا أنبضَ الرامونَ عنها ترنمت … تَرَنُّمَ ثكلى أوجعتها الجنائزُ

وقال آخر:

وهي إذا أنبضت عنها تسجعُ … ترنم الشكلى أبَتْ لا تَهجعُ[5]

وقال آخر:

تسمعُ عندَ النزع والتوتيرِ … في سيتَيْها رنّة الطّنبورِ

وقال الأصمعي:
أحسن كلام في الإيجاز، قول عكلي في صفة قوس:

في كفه معطيةٌ منوع

ومن أحسن ما قاله محدث في القوس، قول ابن المعتز بالله:

أتيح لها هفانُ يخطم قوسه … بأصفر حنّانِ القرَى غير أعزلا[6]

---

(١) ديوان البحتري: ١/٣٣٣ عـ.
(٢) ديوانه: ٩٠.
(٣) الجفير: الكنانة. وحشو الجفير: السهام.
(٤) الشعر والشعراء: ١/٢٣٣.
(٥) الثكلى: التي فقدت ولدها.
(٦) الأبيات في الديوان: ٣٤٠ وفيه: «له لهفان يخطر بأصغر» يُقال: على هَفانه: على أثره. القَرى: الظهر.

فـأودعَـهُ سهمـاً كمِـدرى مـواشطٍ ... بـعثـنَ بـه في مَـفْـرقٍ، فتـغلغـلا

بطيئاً إذا أسـرعتَ إطلاقَ فُـوقِـه ... ولكن إذا أبطأتَ في النزع عجّلا[1]

أفـواقُهـا حشـوُ الجفيـر كـأنهـا ... أفـواهُ أفـرخـةٍ مـن الـنـغـرَانِ

وأجود ما شُبِّه به أفواقُ السِّهام قول الآخر:

والنغران: جمع نغرة وهي عصفورة. وقاتل الفندُ[2] الزماني:

ونبلي وقفـاهـا كعـراقيب قـطاً طـحـل

أخذه عتَّابُ بن ورقاء[3] فقال:

وحطّ عـن منـكـبـهِ شـريـانـةَ ... ممـا اصـطفى بـاري القسيِّ وانتقى

أمّ بـنـاتٍ عَـدَّهـا صـانِـعُـهـا ... ستِّيـن في كـنـانـةٍ ممـا بـرى

ذات رؤوس كـالمصـابيـح لهـا ... أسـافـلُ مثـل عـراقيبِ القـطا

إن حُـرِّكت حنّـت إلى أولادِهـا ... كحنّـةِ الـوالـهِ من فقـدْ الـطّلا[4]

حتى إذا مـا قُـرنَت بـبـعـضِهـا ... لانـت ومـال طـرفـاهـا وانثـنى

وقال[5] ابن الرومي في قوس بندق[6]:

كـأنّ قَـراهـا والغـرور التي بهـا ... وإن لم تجـدهـا العينُ إلا تتبُّعـا[7]

مـذَرُّ سحيقِ المسك فوقَ صلايـةٍ ... أدبَّ عليهـا دارجُ الـذَّر أكـرُعـا[8]

لـهـا أولٌ طـوع الـيـدينِ وآخـرٌ ... إذا سُمتَـهُ الإغـراقَ فيـهِ تمنعـا

تـطوّعُ لـراميهـا الـرمـايا كـأنمـا ... دعـاهـا لـهُ داعي المنايا فـأسمعـا

يُقلبُ نحـو الجـوّ عينـاً بـصـيـرةً ... كعينِـك بـل أذكى ذكـاءً وأسـرعـا

لهـا عَـولـةٌ أولى بهـا من تصيبـهُ ... وأجـدرُ بالأعـوالِ من كـان مـوجَعـا

وهذا مثل قوله[9] في امرأة:

تُشكي المحبَّ وتلفى الـدهرَ شـاكيةً ... كالقوسِ تصمي الرَّمايا وهي مِرنان[10]

---

(١) في ديوانه: «في الريح».

(٢) الفند الزماني: هو شهل بن شيبان، شاعر جاهلي وسيد بكر في زمانه.

(٣) امير وشاعر، اسمه عتّاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو، تولى امارة اصبهان ايام ابن الزبير. مات سنة ٧٧ هـ . (الأعلام: ٤/ ٢٠٠).

(٤) الطلا: الصغير من أولاد الحيوان.

(٥) ديوان ابن الرومي: ٤/١١٨.

(٦) قوس بندق: كرة يقذفون بها.

(٧) الغرور: الطراوة.

(٨) الذر: النمل.

(٩) ديوان ابن الرومي: ٦/١٧٦.

(١٠) تصمي: تصيب. مرنان: ذات رنين.

وقال[1] المتنبي في سداد الرمي:

يُصيبُ ببعضها أفواقَ بعض ... فلولا الكسرُ لاتصلت قضيبا

وقال الراجز في ضد ذلك:

مستهترٌ بالرمي واهٍ عَضده ... يطيعهُ القلبُ وتعصيهِ يَدُهْ[2]

أحصن شيء يومَ يرمي طَرَده ... كأنَّهُ فؤاده أو كبده

وقال ابن الرومي في سهام:

وكل ابن ريح يسبقُ الطرفَ معجه ... مَروقٌ ومنزوعٌ حَومَةِ الجذبِ

صنيعٌ مريشٌ قَوَّمَ القينُ متنهُ ... فجاءَ كما سُلَّ النخاع من الصلبِ

يغلغلهُ في الدرع نصلٌ كأنهُ ... لسانُ شُجاع محرج همَّ بالسلبِ

وقال ابن المعتز في قوس البندق:

وماءٍ به الطيرُ مربوطةٌ ... تحاكي الحليَّ بأطواقهما

غدونا عليهِ وشمسُ النهار ... لم تكسهُ ثوبَ إشراقها

فظلنا وظلت عُيونُ القسيِّ ... ترمي الطيورَ بأحداقها

وقد أحسن القائل في صفة الرماح على العواتق:

ترى غابةَ الخطيِّ فوقَ رؤوسهم ... كما أشرفت فوقَ الصوارِ قرونها[3]

ومما يجري مع ذلك قول[4] أبي فراس بن حمدان:

وما الذنبُ إلا العر يركبهُ الفتى ... وما ذنبهُ إن جاوزتهُ المطالبُ

ومن كان غير السيفِ كافل رزقهِ ... فللذلِّ منهُ لا محالةَ جانب

وما جاء عن أهل الجاهلية في النشاب، شيءٌ إلا قول سيف بن ذي يزن يذكر القوس:

هَزُّوا بناتِ الرياح نحوهمُ ... أعوجُها طامحٌ وزمزمها

كأنها بالفضاءِ أرشيةٌ ... يخفُّ منقوضها ومُبرَمُها

فأما النبلُ فقد جاء فيها عنهم شيءٌ كثيرٌ.

أجود ما قيل في الدروع: قال أبو عبيدة أحسن ما قيل فيها قول[5] كعب بن زهير:

وبيض من النسيج القديم كأنها ... نهاءُ بقاع ماؤُها مترايعُ[6]

تصفقها هوجُ الرياح إذا صفَت ... وتعقبها الأمطارُ فالماءُ راجعُ

---

(١) ديوانه: ١/١٤٣.

(٢) مستهتر: مُولَع.

(٣) الخطي: الرمح. الصوار: جماعة بقر الوحش.

(٤) ديوانه: ٢٣.

(٥) ديوان كعب: ٤٤.

(٦) نهاء: جمع نهاءة: مجرى ماء. مُترايع: متردد.

وهو مأخوذٌ من قول[1] امرىء القيس:

تفيضُ على المرءِ أردانُها ... كفيضِ الأتيِّ على الجَدْجَدِ[2]

وقال[3] البحتري:

يمشون في زرد كأنَّ مُتونها ... في كل معركةٍ مُتونَ نهاءِ

بيضُ تسيلُ على الكماةِ فضولها ... سيلَ السرابِ بقفرة بيداء

وإذا الأسنةُ خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكبٍ في ماءِ

ومعنى البيت الأخير دقيقٌ غريبٌ حسنٌ مصيبٌ ما أظنه سبق إليه.

ومن مليح ما جاء في صفة الدروع قول بعض بني هاشم:

وعليَّ سابغةُ الذُّيولِ كأنها ... سلخٌ كسانيهِ الشجاعُ الأرقمُ

ومن مليح ما جاء في صفة الحرب، ما أخبرنا به أبو القاسم، عن القعدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: قال رجل من بني تميم لعبادي: لم يكن لآل نصر بن ربيعة صولة في الحرب. قال: لقد قلت بُطلاً، ونطقت خطلاً، كانوا والله إذا أطلقوا عُقل الحرب، رأيت فرساناً تمور كرجل الجراد، وتدافع كتدافع الأمداد، في فيلق حافاته الأسل، يضطرب عليها الأجل، إذا هاجت لم تتناه دون بلوغ إرادتها، ومنتهى غايات طلباتها، لا يدافعها دافع، ولا يقوم لها جمعُ جامع، وقد وثقت بالظفر لعزِّ أنفسها، وأيقنت بالغلبة لضرواة عادتها، فلها العلوُّ والتمكينُ، ولمن ناوأها الذلُّ والتوهينُ، خصَّت بذاك على العرب أجمعين.

ومما يجري مع ذلك، ما أخبرنا به أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر قال: أنشد جريرٌ هشام بن عبد الملك:

لقوميَ أحمي للحقيقةِ منكمُ ... وأضربُ للجبّار والنقعُ ساطعُ[4]

وأوثقُ عندَ المرْدَفاتِ عشيةً ... لحاقاً إذا ما جرَّدَ السيف لامعُ

فقال هِشام لِم تركتَ نساءك حتى أُردفن؟ ألا جعلتهم كنسوة المخَبّل! فما سمعنا بعربيات قط أمنع منهن حيثُ يقول:

وساقطةٍ كُور الخِمار حييَّةٍ ... على ظهر عُرْيٍ زالَ عنها جِلالُها[5]

تَشُدُّ يديها بالسنامِ وقد رأت ... مُسومةً يأوي إليها رِعالها

نزلنا فساقينا الكُماةَ دِماءَها ... سجالَ المنايا حيث تُسقى سجالُها[6]

---

(١) ديوان امرىء القيس: ١٨٦.

(٢) الأتي: السيل والجدول. الجَدجَد: الأرض الصلبة المستوية.

(٣) ديوانه: ٢/٢٣١ ص.

(٤) النقع: القتل والجلَبة.

(٥) الكور: الرَّحْل.

(٦) الكماة: جمع الكمي: المدجّج بالسلاح.

وأجود ما قيل في ثياب الرجال في الحرب قول الحارث[1] بن عُبَّاد:

قَـرِّبـا مـربطَ الـنـعـامـةِ مـنـي ... لَقِحَتْ حـربُ وائـل عن حِيـالِ

قَـرِّبـاهـا فـإنَّ كـفـيَ رهـنٌ ... أنْ تـزولَ الجبالُ قبـل الـرجـالِ

وقد وصف الله ذلك في كتابه فقال:

﴿ان الله يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلونَ في سَبيلهِ صَفّاً كأنَّهم بُنيانٌ مَرْصُوصٌ﴾[2].

ولم يصف أحدٌ من المتقدِّمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري:

أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: سمعتُ عبد اللّه بن المعتز يقولُ: لو لم يكن للبُحتري إلا قصيدته السينية، في وصف إيوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلها، وقصيدته في البركة:

مـيـلوا إلـى الـدارِ مـن لـيـلى نُـحـيـيـهـا

واعتذاراته في قصائده إلى الفتح، التي ليس للعرب، بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان مثلها، وقصيدته في دينار بن عبد اللّه، التي وصف فيها ما لم يصفه أحدٌ قبله، أولها:

ألـم تـر تـغـلـيس الـربـيـع الـمـبـكـر

ووصف حرب المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه. فكيف إذا أضيف إلى هذا، صفاء مدحه، ورقة تشبيهه. وكان كثيراً ما ينشد له ويعجبُ من جودته:

غـدوتُ على المأمـونِ صُحباً وإنما ... غدا المركبُ الميمونُ تحتَ المظفَّرِ[3]

إذا زمجـرَ الـنـوتيُّ، فَـوقَ عَـلاَتـهِ ... رأيتَ خـطـيبـاً من ذُؤابـةِ منبـرِ[4]

يَغضُّـونَ دُونَ الاستنـامِ عيـونَهم ... وقـوفَ السمـاطِ للعـظيم المؤمَّـرِ

إذا مـا علت فيه الجَنوبُ اعتلى لَـهُ ... جناهـا عُقـابٍ في السمـاءِ، مُهجَّـر

إذا مـا انكفـا فى هَبوَةِ المـاءِ خلتَـهُ ... تـلفـعَ فـي أثنـاء بُـردٍ مـحـبَّـرِ

وحـولـك ركَّـابـونَ للهـولِ عـاقـروا ... كؤوسَ الـردى من دراعينَ وحُسـرِ[5]

تميـلُ المنـايـا حيثُ مـالت أكفُّهم ... إذا أصلتـوا حـدَّ الحـديدِ المـذكَّـرِ

إذا رشقـوا بـالنـارِ لم يكُ رشقُهم ... لـيُـقـلـعَ إلا عـن شِـواءٍ مُـقـتَّـرِ

صـدمتَ بهم صُهبَ العثـانين دونَهمُ ... ضِـرابٌ كـإيقـادِ اللّظى المتسعـرِ[6]

كـأن ضجيجَ البحـرِ، بينَ رماحِهم، ... إذا اختلفت تـرجيـعُ عـودٍ مُجـرجـر

---

(١) الحارث بن عُبّاد بن قيس، حكيم جاهلي شجاع، شاعر. مات سنة ٥٠ ق هـ.

(٢) سورة الصف: آية ٤.

(٣) الأبيات كلها في ديوان البحتري: ١/٣٧٦ عـ. ورواية البيت الأول: «غدونَ على الميمون».

(٤) النوتي: الملاّح.

(٥) دارعون: لابسو دروع.

(٦) صهب العثانين: الروم. والعثانين: جمع العثنون: اللحية.

تُقاربُ من زَحفيهم فكأنما تؤلّفُ من أعناقِ وحشٍ منفّرِ
فما رحت حتى،أجلت الحرب عن طُلىً مقطعةٍ فيهمَ وهامٍ مُطيَّرِ[1]
على حينَ لا نقعٌ يطوِّحُه الصَّبا على الأرضِ يلقي للصَّريعِ المقطَّرِ
وكنتَ ابن كسرى قبلَ ذاك وبعدَهُ مليّاً بأن تُوهي صَفَاة ابنِ قيصرِ
جدحتَ له الموتَ الزعافَ فعافَهُ وطار على ألواحِ شَطْبٍ مسمَّرِ[2]
مضى وهو مولي الريحَ يشكرُ فضلها عليه ومن يولي الصنيعةَ يَشكُرِ

ومن أجود ما قيل في السهم من قديم الشعر قول[3] عنترة:

أبينا فما نُعطى السواء عدونا قياماً بأعضادِ السراء المعطّفِ[4]
بكلِّ هتوفٍ عجسها رَضويّة وسهم كسيرِ الحميريِّ الموقفِ[5]

وقال راشد بن شهاب اليشكري:

ونبلٍ قران كالسيور سَلاجِمٍ وفِلقٍ هَتوف لا سقيٍّ ولا نَشَمِ[6]
ومُطّرِدِ الكعبين أحمر عانزٍ وذاتَ قَتِيرٍ في مواصلها دَرَمُ[7]

وصف النبل والقوس، والرمح والدرع، في بيتين فأحسن، والأدرم: الأملس الذي لاحجم له، والسلاجم الطوال، والسقي الذي يشرب الماء، والنشم شجرٌ. ومن أجود ما قيل في البيض من قديم الشعر قول سلامة بن جندل[8]:

إذا ما علونا ظهرَ نشز كأنما على الهام مناقَيْضُ بيض مفلَّقِ[9]

وقول الآخر:

كأنّ نعام الدَّوِّ باض عليهم

ورواه بعضهم:

كأن نعاج الجو باض عليهم

فقيل له: أخطأت من وجهين: أحدهما أن النعاج لا تكون في الجو، والآخر أنها لا تبيض.
ومن أحسن ما قيل فيه قول[4] ابن المعتز:

---

(١) الهام: الرؤوس.
(٢) الشطب المسمّر: السفينة. جَدَح: لتّ ولطخ.
(٣) ديوان عنترة: ١٤٣.
(٤) السراء: شبر تصنع منه السهام.
(٥) رضويه: نسبه إلى رضوى.
(٦) السلاجم: الطويل من الخيل والنصال.
(٧) دَرَمَ قارَب الخطو في عجلة.
(٨) سلامة بن جندل: شاعر جاهلي من الفرسان من أهل الحجاز مات سنة ٢٣ ق هـ.
(٩) النشز: المرتفعِ من الأرض. الهام: جمع الهامة: الرأس. والبيت في ديوانه: ١٦٤.
(١٠) ديوان ابن المعتز: ١٧٣.

وبيض كـأنصـاف الـبـدورِ أبيـةٍ   إذا امـتـحـنـتـهـنَّ الـسـيـوفُ خِيـارُ

فتشبيهها بأنصاف البدور تشبيه غريبٌ مصيبٌ:

أجود ما قيل في أتباع الرجال الرئيس في الحرب قول[1] البحتري:

حمرُ السيـوفِ كـأنمـا ضَربت لهم   أيدي القيونِ صفائحاً من عسجـدِ[2]
فـي فـتـيـةٍ طـلـبـوا غُـبـارك انَّـهُ   رَهـجٌ تـرفَّـعَ عن طـريقِ الـسؤددِ
كـالـرمـح فيـه بضـعُ عشرةَ فقـرة   مُـنقـادة خـلفَ الـسنـانِ الأصيـدِ

وقد أحسن ابن هرمة في قوله وهو في غير هذا المعنى:

إذا شَـدُّوا عـمـائـمـهـم ثـنـوهـا   عـلـى كـرمٍ وإن سـفـروا أنـاروا
يـبيـعُ ويشـتـري لـهـمُ سـواهـم   ولـكن فـي الـطـعـانِ هُمُ التجـارُ

ومن أجود ما قيل في صفة الشجاع الجواد قول الآخرِ:

خُلِقت أنـاملهُ لـقـائم مُـرهَفٍ   ولـبـثِّ عـارِفـةٍ وذِروة مِـنـبَـرِ
يلقى الـرمـاحَ بـوجهـهِ وبصـدرهِ   ويُـقيـمُ هـامتـهُ مـقـامَ المِغـفَـرِ
ويقـولُ للطِّرفِ اصطبر لشبا القنا   فهـدمتُ رُكنَ المجدِ إن لم تعقَـرِ[3]
وإذا تـأمـلَ شخصَ ضيـقٍ مقبـلٍ   مُتسـربـلٍ سـربـال ليـلٍ أغبـرِ
أومـا إلى الكَـوْمـاء هـذا طـارقٌ   نحَـرَتنيَ الأعـداءُ إن لم تنحَـري[4]

ومن أبلغ ما حُذِّرَ به الحرب قول بعض العجم:

دافع بالحرب ما أمكن فإن النفقة في كل شيء من الأموال، إلا الحرب فإن النفقة فيها من الأرواح. وقال[5] النابغة الجعدي:

وتستلبُ المـالَ الـذي كـانَ رَبُّهـا   ضنيناً به والحربُ فيها الحرائبُ

فتبعه أبو تمام فقال:

والـحـربُ مـشـتـقـةٌ مـن الـحـرب

وقول جذل الطعان:

دعـاني أشبُّ الحـرب بيني وبينـهُ   فقلتُ لـه لا بـلْ هَـلمَّ إلى السِّلم
وإيـاكَ والحـرب التي لا أديمهـا   صحيحٌ وما تنفكُّ تأتي على الرغم
فـإن يظفـرِ الحِزْبُ الـذي أنتَ منهمُ   وينقـلبـوا مـلءَ الأكفِّ من الغُنم
فـلا بُـدَّ مـن قتـلي لعـلك فيـهـمُ   وإلا فجـرحٌ لا يكـون على العظمِ
فـلمـا أبى خـلّيتُ فـضـلَ ردائـهِ   عليـه فلم يـرجـع بحـزمٍ ولا عـزم

(١) ديوان البحتري: ٢/٤٢ ص.
(٢) القيون: جمع القين: الحدّاد: صانع السلاح. العسجد: الذهب.
(٣) شبا القنا: طرفُ الرمح وحدُه.
(٤) الكوماء: الناقة.
(٥) ديوانه: ١٨٤. وفيه «وتستلب الدهم».

وكـان صريـع الخيـلِ أوّلَ وَهلةٍ فبعداً لـه مختـارَ جهـل على علمِ

ومن أجود ما قيل في تهوين الحرب والقتل، ما أنشدناه أبو أحمد في خبر أخبرناه عن الصولي، عن عبيد الله السكوني، قال: دخل محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي، على بعض أمراء الكوفة، وقد جرى عليه ظلمٌ، فلم ينصفه فخرج من عنده.

وقال:

يـا أيهـا الـرجُـلُ الـذي بيمينـه غيثُ الزمانِ وصولةُ الحِدْثانِ[1]
أنعم صبـاحـاً بـالسيـوفِ وبـالقنـا إنّ السيـوفَ تـحيـةُ الـفتيـان
قـد أبطرتـكَ سلامـةٌ فنسيتَ مـا أسلفتَ مـن بـرٍ ومن إحسـانِ
والـدهـرُ خِـدنُ مَسـرَّةٍ ومضـرَّةٍ مُتـقـلِّبٌ بـالنـاسِ ذو ألـوانِ[2]

يخاطب نفسهُ، ويأمرها بمجاهرة السلطان بالعصيان، إذ ليس عندَه للظلم نكير، فيكون ذلك سبباً للحربِ، فيحيي بالسيوفِ فلا يفزع فإنها تحيةُ الفتيان.

وقال عليٌّ بن جبلة[3]:

كـأنَّ أرمـاحَـهُ تعـطي إذا عمِلت تحتَ العجاجةِ أسماعاً وأبصـارا[4]

ومن أحسن ما قيل في تقسيم الخيل في الحرب قول النابغة: أخبرنا أبو أحمد قال: أنشدنا محمد بن يحيىٰ، قال: أنشدنا المبرِّدُ قول النابغة، وذكر أنه أحسن ما قيل في تقسيم الخيل في الحرب:

خيـلٌ صيامٌ وخيـلٌ غيرُ صـائمـةٍ تحت العجاجِ وخيلٌ تعلكُ اللُّجُما[5]

قال ثعلبُ: قلتُ لابن الأعرابي: الصائمة التي لا تصهل وغير الصائمةِ التي تصهل فما هذه الأخرى؟ قال التي تعلك اللجم في الكمين.

أخذه محمد بن مسلمة البشري يصف تأديبَه فرسَهُ:

عـوَّدْتـهُ فيمـا يـزور حبـائبي إمهـالـهُ وكـذاك كـلُّ مُخـاطـرِ
فـإذا احتبى قـربـوسَـه بعنـانـهِ علكَ الشكيمَ إلى انصرافِ الزائـرِ[6]

من أجود ما قيل في ارتفاع الغُبار، ولمعان الأسنة فيه، من قديم الشعر قول[7] النابغة:

---

(١) الحِدثان: نوائب الدهر.

(٢) الخِدن: الصاحب.

(٣) علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمٰن الأبناوي، المعروف بالعكوّك. شاعر عراقي مجيد، أعمى، أسود، أبرص، كان حسن الإنشاد قتله المأمون العباسي سنة ١٦٠ هـ. (الأعلام: ٤/٢٦٨).

(٤) العجاجة: الغبار والجلَبة، ومثله العجاج.

(٥) ديوان النابغة: ٢١٧.

(٦) القَرَبوس: حِنو السرج. الشكيم: الذي وضعت في فمه حديدة كي لا يعض.

(٧) ديوانه: ١٨٥. وفيه: «لا النورُ نورٌ، ولا الإظلام إظلام».

تبدو كواكبُهُ والشمسُ طالعةٌ، نوراً بنورٍ وإظلاماً بأظلامِ

قالوا أراد قول الناس: لأرينك الكواكب نهاراً، وقالوا: أراد توضح الأسنة في سواد العجاج.

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول بشار(١):

كأن مثارَ النقعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكِبُه

وقال النمري:

ليل من النقعِ لا شمسٌ ولا قمر إلا جبينك والمذروبَةُ الشرُع

وقول ابن المعتز(٢):

وعمَّ السماءَ النقعُ حتى كأنه دخانٌ وأطرافُ الرماح شرارُ

وأبلغ ما قيل في الإقدام والاقتدار على العدو قول بعضهم:

عشيةَ كنا بالخيارِ عليهم أنَنقصُ من أعمارهم أم نزيدها

ومن بديعِ المعاني في صفة اللقاءِ قول بعض الأعراب:

على كلِّ جرداءِ القَرى أعوجيةٍ إذا طَرَدت لم ينجُ منها طريدها(٣)

وما قادَ من قوم إلينا جيادَهم فنلقاهمُ إلا رجعنا نقودها

وقلت في معناه:

إلى ابن الأولى شادوا المعاليَ بالظُّبى وعَمُّوا البرايا باللُّهى والرغائبِ

إذا طلبوا رَوحَ الحياةِ وطيبها فبين سواقٍ للردَى وحواصب

إذ البيضُ في سُودِ القساطلِ أنجمٌ غواربُ تهوي في الطلى والغوارب

وتحملهم يومَ الكريهةِ ضُمَّرٌ تشولُ إلى الهيجاءِ شَوْلَ العقارب

فكم وقفةٍ في الرّوعِ منهم وحملةٍ أثارت بناتِ الحتفِ من كلِّ جانب

تَردُّ الجيادَ تحت قسطلةِ الوغى جنائب أو تقتادُها في الجنائبِ

بابيض مصقولٍ كأن بحدِّه ضرائبَ من تصميمهِ في الضرائبِ

ومن أجود ما قيل في كثرة الجيش قول الأخنس بن شهاب(٤):

بجأواءَ ينفي وردُها سَرعانها كأن وميض البيض فيها كواكبُ

الجأواء: الكتيبة يضربُ لونُها إلى الكلفة، وذلك من صدإ الحديد، والرعان: الأوائل، يقول: إن المياه لا تسعهم، والأمكنة تضيقُ بهم، فكلما نزل فرقة منهم رحل من تقدمهم.

---

(١) ديوانه: ١٤٦. وفيه: «فوق رؤوسهم».

(٢) ديوانه: ١٧٢. والنقع: الغبار.

(٣) القَرى: الظهر.

(٤) الأخنس بن ثمامة بن أرقم التغلبي: شاعر جاهلي، من الشجعان حضر حرب البسوس وله فيها شِعر. مات سنة ٧٠ ق هـ.

وقال[1] أوس بن حجر:

تـرى الأرضَ منا بـالفضـاء مـريضـةً ... مُعضِّلةً منـا بـجمـعٍ عـرمـرمِ[2]

التعضيل: أن ينشب الولدُ في بطن أمه.

ومثله قول النابغة:

جمعٌ، يـظلُّ بـهِ الفضـاء مُعضِّـلاً ... يـدعُ الأكـامَ كـأنهنَّ صحـاري[3]

وأعجب من هذا قول زيد الخيل:

بجيشٍ تضـلُّ البلقُ في حجـراتـهِ ... تـرى الأكم فيـه سُجـداً للحـوافـرِ

وجمع كمثلِ الليلِ مرتجس الـوغى ... كـثيـرٌ تـواليـهِ سـريـعُ البـوادرِ

أخبرنا أبو أحمد، عن العبشمي، عن المبرد، قال: يروى عن حماد الرواية قال: قالت ليلى بنت عروة بن زيدِ الخيل لأبيها: كم كانت خيل أبيك؟ حيث يقول:

بـجيش تـضـل البـلـق فـي حـجـراتـه

قال: ثلاثة أفراس أحدها فرسه. قالوا: وقتلت خثعم رجلاً من بني سليم بن منصور، فقالت أخته ترثيه:

لعمـري ومـا عمـري عليّ بـهيّـنٍ ... لـنعـمَ الفتـى غـادرتـمُ آل خثعمـا

وكـان إذا مـا أوردَ الخيـلَ بيشـةً ... إلى جنبِ أشـراجٍ أنـاخَ فـألجمـا[4]

فـأرسـلهـا رهـواً كـأنَّ رِعـالهـا ... جـرادٌ زهتـهُ ريـحُ نجـدٍ فـأتهمـا

فقيل لها: كم كانت خيل أخيك؟ قالت: اللّهم لا أعرف إلا فرسه.

قوله: «تضل البلقُ في حجراته»، غاية في صفة الكثرة، لأن البلق مشاهير، فإذا خفي مكانها في جمع، فليس وراءه في الكثرة شيء، والعرب تقول «أشهر من فارس الأبلق»[5]، ورؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا ينم عليهم فيقصدوا بشر.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عُبيدة، أن النبي ﷺ لما انصرف من بدر الموعد، لم يلق كيداً وأصحابه سبعون راكباً، وفيهم فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد[6]، قال[7] حسان بن ثابت:

أقمنـا على الـرسِّ النـزوع ليـاليـا ... بـأرعَن جَـرارٍ عـريض المبـاركِ[8]

---

(١) ديوان أوس بن حجر: ١٢١.

(٢) عضل المكـان: ضاق. عرمرم: كثير.

(٣) ديوان النابغة: ١٢٤. وفيه: «جمعاً يظل».

(٤) بيشة: بلد.

(٥) جمهرة الأمثال: ١/٤٥٩.

(٦) المقداد بن عمرو المعروف بالأسود. صحابي من الأوائل: مات سنة ٣٣ هـ.

(٧) ديوان حسّان: ٣٤٩.

(٨) في الديوان: «النزيع».

ترى العرفجَ الحوليَّ تَذري أصوله ... مناسمُ أخفافِ المطيِّ الرواتكِ[1]
إذا ارتحلوا عن منزل خلتَ أنه ... قريبُ المدى بالموسم المتعاركِ
نسيرُ فلا تنجو اليعافيرُ وسطنا ... وإن داءلت منا بشد مواشك[2]
دعوا فلجاتِ الشام قد حالَ دونها ... ضرابٌ كأفواهِ المطيِّ الأوارِكِ
بأيدي رجالٍ هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقاً وأيدي الملائكِ
إذا أقبل العضروط من أرضٍ عالج ... فقولا لهُ ليس الطريقُ هنالك

ورسول الله ﷺ يسمع ويضحك. ومثل هذا في ترهيب العدو حسن.

وقال أبو دعفل بن شداد الكلابي في المعنى الذي تقدم:

وأقبلَ عامرٌ من لبن سيراً ... إلينا ثم أقسمَ لا يَديم
بجمعٍ تهلكُ البلقاءُ فيهِ ... فتنشدُ والمفضضةُ اللطيمُ

ومن بليغ ما قاله محدث في كثرة الجيش وتكاثفه واجتماعه قول[3] أبي نواس:

أمامَ خميسٍ أدجُوان كأنه ... قميصٌ محوكٌ من قنا وجيادِ[4]

الأدجوان: الأسود واشتقاقه من الدجى، وروي الأرجوان وهو الأحمر.

وقال[5] البحتري:

لما أتاك يقودُ جيشاً أرعناً ... يمشيَ عليهِ كثافةً وجموعا

قال ابن الرومي:

فلو حصبتهم بالفضاء سحابةٌ ... لظل عليهم حَصبها يتدحرجُ[6]

وهو من قول قيس بن الخطيم[7]:

لو أنك تُلقي حنظلاً فوقَ بيضنا ... تدحرَجَ عن ذي سامةِ المُتقاربِ

السامُ: عِرق الذهب والفضة، وهو ههنا الطرائق المذهبة في البيض.

وقلت:

ولقد نقودُ الخيلَ تخطرُ بالقنا ... فَتَصُبُّهنَّ على العدى آجالا
ما إن يلين لها مَدىً فتخالها ... تجري بطاءً إذ جَرَيْنَ عجالا

وقال أبو عمرو بن العلاء: أحسن ما قيل في صفة جيش قول النابغة[8]:

---

(١) في الديوان: «العرفج العامي». والعرنج: شجر سهلي. المِنسم: الخف. الرواتك: الإبل تقارب خطوها.
(٢) اليعافير: جمع اليعفور: الظبي. داءل: ختل ومشى مِشية فيهما تقارب بالخطو
(٣) ديوانه: ٢٢١.
(٤) الخميس: الجيش.
(٥) ديوان: ١٧١/١.
(٦) في ديوان ابن الرومي: ٢٧/٢ حصبتهم: رمتهم بالحصباء وقصد: البرَد.
(٧) ديوانه: ٨٦. والسامة: عِرق من ذهب.
(٨) ديوانه: ١٨٥.

أو يــزجــروا مكفهــراً لا كِفــاءَ لــه كــالليــلِ يخلطُ أصرامــاً بــأصــرامِ
تبــدو كــواكِبُــهُ والشمسُ طــالعــةٌ نــوراً بنــورٍ وإظــلامــاً بإظــلامِ[1]

فذكر ذلك ليونس فقال أحسن منه قول العجّاج[2]:

كــأنــمــا زهــاؤهُ لــمــن جَــهَــر لــيــلٌ ورز وَغْــرِه إذا وغَــر[3]
ســارٍ ســرى من قِبَــلِ الــعــيــنِ فــجــر

والأول أحسن عندي.

ومن أجود ما قيل في صفة السوط قول الشعبي:

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل، قال:

كان الشعبي، إذا تحدّث، كأنَّهُ لم يُسْمَعْ من غيره، لحلاوة منطقه، وعذوبة لفظه، فتحدَّث يوماً، فقال له رجُلٌ كان يجالسُه يقال له حُنيش: اتق الله ولا تكذب، فقال له الشعبي: ما أحوجك إلى محذرع عظيم الثمرة، لين المهزّة، أخذ من مغرز عُنقٍ إلى عجب ذنب، فيوضعُ على مثل ذلك منك، فيكثر لك رقصاتك من غير جذل. قال: وما هو بأبي أنت وأمّي؟ قال: أمرٌ لك فيه أدبٌ، ولنا فيه أربٌ. يعني السوط.

ومن أحسن ما وُصِف به الرأس إذا حُمِل على القناة قول[4] مُسلم:

ويجعــل الهــام تيجــان القنــا الــذُّبُــلِ

مأخوذ من قول جرير:

تــيــجــان كــســرى وقــيــصــرا

ومن أجود ما قيل في المصلوب ما أنشدنيه بعضُ البصريين:

أنــظر إليــه كَــأنَــهُ في جِــذعِــهِ لمــا تــوشّــحِ بــالجبــالِ ودُرِّعــا[5]
رامٍ رمــى عــن قــوســهِ بــمــذلّــقٍ وأراد صــحــة رمــيــه فــتــســمّــعــا

وهذا من أتم ما قيل فيه.

ومن المستحسن فيه قول[6] البحتري:

فَــتــرَاه مُــطَّرداً عــلى أعــوادِهِ مثــلَ اطِّــراد كــواكب الجــوزاءِ[7]

وقول ابن الرومي[8]:

---

(١) في الديوان: «لا النورُ نورٌ، ولا الإظلامُ اظلامُ».

(٢) العجّاج: عبد الله بن رؤبه. أبو الشعثاء، شاعر راجز، مخضرم بين الجاهلية والإسلام. مات سنة ٩٠ هـ.

(٣) الوغر: اشتداد الحر، والحقد.

(٤) الأغاني: ١٩/٤٠.

(٥) في الأصل: «أنظر إلي».

(٦) ديوانه: ٢/٢٣١.

(٧) مطرد: مستقيم.

(٨) ديوانه: ٢/١٣٢.

يلعبُ الـدستبنـد فـرداً وإن كـا   نَ لـهُ شاغِـلٌ عن الـدستبنـد[1]

وقال مُسلم بن الوليد:

كـأنَّـهُ شِـلو كبشٍ والـهـواءُ لـهُ   تنـورُ شاويـةٍ والجـذعُ سفّـودُ[2]

ومما يجري مع ذلكَ، ما أخبرنـا به أبـو القاسم، عن العُقـدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال:

قال أهل خراسان لوكيع: كيف قتلت ابن خازم؟ قال: لما صرع قعدت على صدره، فحوال القيام فلم يقدر. فغلبته بفضل القنا، وقلت: يا لثارات دوبلة، فقال: لعنك الله أتقتل كبش مضر بأخيك علج، لا يساوي كف نوى؟! وتنخّم في وجهي، فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه. فذكر ابن هُبيرة يوماً هذا الحديث فقال: هل البسالة إلا أن يكثر الريق على تلك الحال.

ومن جيد ما قيل في طرائق الدم على المطعون قول أبي خراش الهذلي:

ونهنهتُ أولي القـومِ عـني بـطعنـةٍ   كـأوشحـةِ العـذراءِ ذاتِ القـلائـدِ[3]

أوشحة جمع وشاح وهو سيرٌ كأنَّهُ شراكٌ، عليه ودعٌ، فشبه لون االدم بالسير، والزبد بالودع.

ومما يجري مع ذلكَ ذكر الحذر من الموتور.

ما قلت فيه:

لا تـأمـنـنَّ أخـا الـعـداوةِ إنـهُ   إنْ أمكنتـهُ فـرصـة لم يُـمـهـلِ
للهِ دَرُّكَ كـيـفَ تـأمـن محـنِـقـاً   تغلى عـداوةُ صدرهِ في مِـرجـلِ
ومـا الحزمُ إلا في اجتثـاثِ أصُـولـهِ   والأيـمُ لم يـؤمن إذا لـم يقتـلِ[4]

ومن الجيد مما قيل في سعة الطعنة قول بشر:

إذا نـفـذتـهـم كـرت عليـهـم   بـطعنٍ مثـال أفـواه الخـبـورِ[5]

الخبرُ المزادة والجمع خبور.

وقال ععمرو بن شاس:

بـطعنٍ كـايـزاغ المخـاضِ إذا اتقت   وضـربٍ كأفـواهِ المفرجـة الهدلِ[6]

شبه اللّحم الذي يتدلى من فم الجرح، بمشفر البعير، الذي به قروح في فمه فيهدل لها مشفرة.

---

(١) الدستبند: ضرب من الرقص. (وهي كلمة فارسية).

(٢) الشلو: العضو المسلوخ. السّفّود: حديدة يُشوى بها.

(٣) نهنه: منع.

(٤) الأيم: الثعبان.

(٥) الخبور: القرب.

(٦) الايزاغ: أن تقذف بما في حياها.

وقال[1] عمرو بن شاس أيضاً:

وأسيافنا آثارهنَّ كأنها　　مشافر قرحى في مباركها هُدلُ

وقال غيره:

بضربٍ كآذانِ الفراءِ فضولهُ　　وطعن كايزاغ المخاض تبورها

الفراء: جمع الفرا وهو حمار الوحش.

وقال خلف الأحمر[2]:

وأطعن الشجساجة المشلشله　　على غشاش دَهَش وعجله

يردُّ في نحرِ الطبيبِ فتله

أي يسح الدم، ويشلشله: يفرقه.

وقال خداش بن زهير[3]:

وطعنةِ خلس كفرع الأزاء　　أفرغ في مثعبِ الحائرِ[4]

تهالُ العوائدُ من فرغها　　تَردُّ السبار على السابرِ[5]

السبار: الشيء الذي تسير به الطعنة، أي تقدر والسابر الذي يسبرها، والحاير: المطمئن من الأرض المرتفع الحروف والجمع حوران، والمثعب: مسيل الماء.

هذا آخر صفة الحرب والسلاح، وما يجري معهما، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين وعلى الخلفاء الراشدين.

---

(١) الشعر والشعراء: ١/٣٣٩.

(٢) خلف الأحمر: خلَف بن حيّان، من أهل البصرة، عالم بالشعر واللغة والنحو، كان استاذاً للأصمعي. مات سنة ١٨٠ هـ. (الأعلام: ٢/٣١٠).

(٣) شاعر جاهلي من بني عامر، من الشجعان له شعر في الفخر والحماسة.

(٤) الأزاء: منفذ الماء إلى الحوض.

(٥) أي زواره يخافون مما يرون من اثر الضربة.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي قسم البيان، بين القلم واللسان، لتكون النعمة فيه مشتركة بين الغائب والحاضر، والمقيم والمسافر، إتماماً للنعمة على عباده، وإكمالاً للعارفة في عمارة بلاده، ودل على موضع الصنيعة في البيان، ونبه على موضع العارفة في اللسان، حيث يقول تعالىٰ: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَّم القُرْآنَ خَلَقَ الانْسَانَ عَلمهُ البَيان﴾[1] وأخبر عن عظيم قدر القلم، وما تضمن من سوابغ النعم، حيث يقول تعالىٰ: ﴿إقْرَأ وَرَبُّكَ الأكْرَم الذي عَلم بالْقلمْ عَلمَ الانْسانَ مَا لَمْ يَعْلمْ﴾[2] وأعلى قدره، وفخم أمره، حين أقسم به على أجلّ أمرٍ وأنبله، وأشرفه وأفضله، فقال: ﴿ن والْقَلم وما يَسْطُرُون﴾[3] فسبحان من جعل جلائل النعم، وسوابغ الآلاء والقسم، في شخص ضئيل، وقد قصير، تقل قيمته، وتصغر قمته، مع جلالة شأنه، وعلو مكانه.

هذا كتاب المبالغة

في صفة الخط والقلم والدواة والقرطاس، وذكر البلاغة وما يجري مع ذلك، وهو:

الباب التاسع من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول

الفصل الأول

في ذكر الخط والقلم والدواة والقرطاس وما يسلك مع ذلك.

من أحسن الاستعارة في ذكر الخط: قول عبيد الله بن العباس بن الحسن العلوي: الخط لسان اليد.

وقال جعفر بن يحيىٰ:

(١) سورة الرحمٰن: الآيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة العلق: الآيات ٣ ـ ٥.

(٣) سورة القلم: آية ١.

الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها، وينظم منثورها.

وقلت في معناه:

الكتبُ عُقلُ شواردِ الكلم والخطُّ خيطُ فرائدِ الحكم

بالخطِّ نظِّمَ كلُّ منتشرٍ منها وفُصلَ كل مُنتظمِ

والسيفُ وهو بحيثُ تعرفهُ فرضٌ عليه عبادةُ القلمِ

واختلف الناسُ في الخط واللفظ، فقال بعضهم: الخط أفضل من اللفظ، لأن اللفظ يُفهم الحاضر، والخط يُفهمُ الحاضر والغائب.

وقال بعضهم: الخط كلامٌ ميت، والمخاطب به حي يُمكن صاحبه أن يُبصرَه، حتى يبلغ منه غرضَهُ.

ومن أعاجيب الخط كثرة اختلافه، والأصل واحدٌ، كاختلاف صُور الناس، مع اجتماعهم في الصفة، وخط الانسان كحليته ونعته في اللزوم له، والدلالة عليه، والإضافة إليه كإضافة القافة الآثار إلى أصحابها.

ومن أحسن ما قيل في حُسن الخط والشكل قول أحمد بن إسماعيل[1]:

مستودعٌ قِرطاسَهُ حكما كالروضِ ميَّز بينهُ زَهَرُه

وكأنَّ أحرُفَ خطهِ شجرٌ والشكلُ في أضعافهِ ثمره

ووصف أحمدُ بن صالح جاريةً كاتبةً فقال:

كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديمُ وجهها، وكأن قلمها بعضُ أناملها، وكأن بيانَها سحرُ مُقلتها، وكأن سِكّينها سيفُ لحظها، وكأن مِقطها قلب عاشقها.

وقلت:

وخط من التصحيح فيهِ معالِمٌ من الحسن إذ يبدو عليه سبيبُ[2]

يُعَبرُ عنه الروضُ وهو مُنمنمٌ ويُخبر عنهُ الوشيُ وهو قشيبُ

سوادُ مدادٍ في بياض صحيفةٍ يقول شبابٌ بالمشيبِ مَشوبُ

كأنَّ ظلامَ الليلِ أذرَى دموعَه فظلَّت على خدِّ الصباح تصوب

ومن غريب ما قيل في الشكل، ما أنشدناه أبو أحمد، قال: أنشدنا الصولي قال: أنشدني عبد الله بن المعتز لنفسه:

فدونَكهُ مُوشَّى نمنمتْهُ وحاكتهُ الأناملُ أيَّ حوكِ

بشكلٍ يؤمن الاشكالُ فيهِ كأنَّ سُطورَهُ أغصانُ شوكِ

وقلت:

---

(١) أحمد بن إسماعيل الخصيب الأنباري، كاتب مترسل. قُتل سنة ٢٩٠ هـ.

(٢) السبيب: شعر الذنب والعُرف، والناصية.

بيـاضُ صحيفـةٍ تلتـاحُ حُسنـاً | كـمتـنِ السيفِ في كفِّ المليـحِ
كـغـيـم رقَّ فـي أطـرافِ جـوٍّ | ومـاء سـاحَ فـي قـاعٍ فسيـح
ويـحكـي أرض كـافـور صـريـح | بهـا نَبْـذٌ من المسـكِ الـذبيـح
كمثـلِ الليـلِ في صُبحٍ صديـعٍ | ومثـلِ الصُّـدغ في وجـهِ صبي
وبيـن سُـطورهِ عـجْمٌ مُـصيـبٌ | كمثلِ الخالِ في الخدِّ المليحِ[1]

وأحسن ما قيل في صفة الخط الجيد، ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي قال: سُئل بعضُ الكتاب عن الخط، متى يستحق أن يوصَفَ بالجودة؟ فقال:

إذا اعتـدلت أقسامُـه، وطالت ألفـه ولامه، واستقـامت سُطوره، وضـاهى صعـودُه حُـدوره، وتفتحت عيونه، ولم تشتبه راؤه ونونه، وأشرق قِرطاسه وأظلمت انقاسُه[2]، ولم تختلف أجناسُه، وأسرع في العيون تصورُه، وإلى العقول تثمره، وقُدِّرتْ فصوله، واندمجت وصوله، وتناسب دقيقه وجليله، وخرج عـن نمط الورَّاقين، وبَعُد عن تصنُّع المحررين، وقام لكاتبه مقام النسبة والحلية، كان حينئذ كما قيل في صفة الخط:

إذا مـا تـجـلل قـرطـاسَـه | وسـاوَرَه الـقـلمُ الأرقشُ
تـضـمـنَ مـن خـطهِ حُـلةً | كمثـلِ الـدنـانيـر أو أنقشُ
حـروفـاً تُعيـدُ لعين الكليـل | نشـاطـاً ويقـرؤهـا الأخفشُ

ومن ههنا أخذ المتنبي قوله[3]:

أنـا الـذي نـظرَ الأعمى إلى أدبي | وأسمعـت كلمـاتي من بـهِ صممُ

إلا أنه أحسن الأخذ وأجاد اللفظ.

ومن مليح التشبيه قول الأعرابي، وقد قال له هشام بن عبد الملك: أنظر كم علي هذا الميل من عدد الأميال، ولم يكن الأعرابي يحسنُ القراءة فمضى فنظر ثم عاد فقال: رأيتُ شيئاً كرأس المحجن، مُتصلاً بحلقة صغيرة، يتبعها ثلاث كأطباء الكلبة، يفضي إلى هنةٍ كأنّها قطاةٌ بلا منقار. ففهم هشام بالصفة أنها «خمسة».

أخبـرنا أبـو أحمد، عن الصُّـولي عن أبي العباس الـربعي، عن الطلحي عن أحمـد ابن إبراهيم، قال:

دخلَ أعرابيٌّ إلى الرشيد، فأنشده أرجوزةً وإسماعيل يكتب بين يديه كتاباً، وكان أحسن الناس خطاً، وأسرعهم يداً وخاطراً، فقال الرشيد للأعرابي: صف هذا الكاتب. فقال: ما رأيت أطيش من قلمه، ولا أثبت من كلمه، ثم قال ارتجالاً:

رقيقُ حـواشي الحلمِ حيـنَ تَبـورُهُ | يـريـك الهـوينا والأمـورُ تـطيـرُ

---

(١) العَجم: النَّقط.

(٢) انقاس: جمع النقس: المداد.

(٣) ديوان المتنبي: ٣/٣٦٧.

لـه قلمـا بُؤسَى ونُعمى كـلاهمـا سحـابتـهُ في الحـالتيـنِ دَرُورُ
يناجيك عما في ضميرِكَ لحظُهُ ويفتحُ بابَ الأمرِ وهو عسيرُ

فقال الرشيد:

قد وجب لك يا أعرابي حق عليه، هو يقضيك إياه، وحق علينا فيه نحنُ نقومُ به، ادفعوا إليه دية الحُرّ، فقال إسماعيلُ وله على عبدك دية العبد. قوله: «رقيق حواشي الحلم» رديء لأنّ الحلم يُوصفُ بالرزانة لا بالرقة، واستعمل أبو تمام هذا اللفظ فعيب به. وقوله: «يريك الهوينا والأمور تطير» رويناه لمنصور النمري.

وفاخر صاحبُ قلم صاحبَ سيف، فقال صاحبُ القلم:

أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل على غرر.

قال صاحبُ السيف:

القلمُ خادمُ السيف، إن بلغ مراده وإلا فإلى السيف معاده، أما سمعتَ قول[1] أبي تمام:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

وأبى ذلك ابن الرومي فقال[2]:

كذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرِيَتْ إنَّ السيوفَ لها مُذْ أُرهِفَتْ خَدَمُ

وقال[3] أيضاً:

لعمرك: ما السيفُ سيفُ الكميّ بأخوفَ من قلمِ الكاتبِ
له شاهدٌ إنْ تأمّلْتَهُ ظهرتَ على سرِّه الغائبِ
أداةُ المنيّةِ في جانبيهِ فمِن مثلهِ رَهَبُ الراهبِ
سِنانُ المنيّةِ في جانبٍ وسيفُ المنيّةِ في جانبِ
ألم ترَ في صَدرهِ كالسنانِ وفي الرِّدفِ كالمرهَفِ العاضِبِ

وقد أحسن الخالدي في قوله:

ففي كفٍّ ليث الورَى للندَى وفي كفِّ ليث الشرى في الغياضِ

وقلت:

أبيت بالليلِ غريب الكرى يأخذُ مني الدرسُ والكتبُ
وقيِّمُ الحكمةِ في أنملي يصوغُ ما يسبكهُ اللُّبُّ
أنفُ ضميري حينَ أرعفتُه أفرغ ما استوعبَهُ القلبُ
لسانُ كفِي حينَ أنطقتهُ أرضاك منهُ المنطقُ العذبُ
مُنحَّفُ في خَلقهِ ذابلٌ مُعظَّمٌ في فعلهِ نَدبُ

---

(١) ديوانه: ١٤.

(٢) ديوانه: ٦/٥٩.

(٣) ديوان أبي تمّام: ١/١٦٩.

إن لم يكن كـالعضبِ في حَدِّهِ فـإنـه فـي فـعـله عـضـبُ
يـنـكـسُـهُ الـمـرءُ فـيـعـلو بـه ورُبَّ نِـكس غِـبُّـهُ نـصـبُ
ومُـذْ عـرفـنـا لـذَّةَ العلمِ لا يُـعجبـنـا الـحلوُ ولا الـعـذبُ

وقال[1] البحتري في تفضيل السيف على القلم:

ولمـا التقت أقـلامكم وسيـوفهـم أبدت بُغاثَ الطير زرقُ الجوارحِ[2]
فـلا غـرّني من بعـدكم عِزُّ كـاتبِ إذا هـو لم يـأخـذ بحجزة رامـحِ

ومن أحسن ما وُصِف به القلم قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك الزيات:

لـك القلمُ الأعلى الـذي بشبـاتـه تُـنـالُ من الأمر الكلى والمفـاصـلُ
لعابُ الأفـاعي القـاتـلات لعـابـهُ وأرْيُ جنى شـارتـه أيـد عـواسـلِ
لـه ريـقـةُ طَـلٍّ ولـمـن وقـعـهـا بـآثـارهِ في الشـرقِ والغـربِ وابـلِ
فصيـحٌ إذا استـنـطقتـهُ وهـو راكبٌ وأعجمُ إن خـاطبتـهُ وهـو راجـلِ
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغتْ عليـه شِعـابُ الفكـر وهي حـوافـل
أطـاعتـه أطـراف الـرمـاحِ وقـوِّضتْ لنجـواه تقـويض الخيـام الجحـافـل
إذا استفـزر الـذهن الـذكي وأقبلت أعـاليهِ في القـرطـاس وهي أسـافلِ
وقـد رفـدتـه الخنصـرانِ وسَـدَّدت ثـلاثَ نـواحيـهِ الثـلاثُ الأنـامـلِ
رأيت جليـلا شـأنـه وهـو مُـرهَفٌ ضنى وسميـناً خـطبه وهـو نـاحـل

وقد أحسن القائل في تشبيه أنامل الكاتب، على القلم بالقلم، أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد بن إسحاق:

مـا ضـرّ مَنْ أضنى بهجـرانـهِ قلبَ كئيـب الـقـلبِ حـرّانـهِ
لـو فـرج الـكـربـةَ عن مُـدنَـفٍ تـشُـفُّـهُ لـوعـة أحـزانـه
بِـرقـعـةٍ يـنْـظمـهـا كـفـه نـظمَ لآلـيـه ومَـرجـانـهِ
بـمـرهـفِ الأحـشـاءِ ذي حُـلةٍ مَـوْشِيَّـةٍ تـرفـعُ مـن شـانـهِ
لـعـابُـهُ يـسـرٌ وعـسـرٌ إذا جـاد بـه تـفـليـجُ أسـنـانـهِ
إذا امـتـطاه بـشـبـيـهـاتـهِ كـشَّـف أسـراراً بـإعـلانـهِ[3]
يـركض في ميدانِ قـرطـاسـهِ ركضَ جـوادٍ وسطَ مـيـدانـهِ

وأحسن القصّار في هذا المعنى يصف جاريةً كاتبةً اسمها علم:

أفـدى البنانَ وحسن الخطِّ من علم إذا تقمـعن بـالـحنـاءِ والـكتـمِ[4]
حتى إذا قـابلت قـرطـاسهـا يَـدُهـاً تـرى ثـلاثـةَ أقـلامٍ عـلى قـلمِ

(١) ديوان البحتري: ١/ ٢٥٩ ص.
(٢) البُغاث: طائر أغبر.
(٣) في الأصل: «امتطاه شبيهاً به».
(٤) الكتم: نبت يخلط بالحّناء ويصطبغ بالخليط.

ومن أحسن ما قيل في الدواة والأقلام قول أحمد بن إسماعيل:

في كفـهِ مثـلُ سنـانِ الصعـده ... أرقش بـزَّ الأفـعـوانُ جِـلدَه
يـلتهـمُ الجيشَ اللُّهـام وحـده ... لـو صادمَ الـطودَ المنيفَ هَـدَّه(١)
لـو صافحَ السيفَ الحسامَ قـدَّه ... يـأوي إلى ظئـر لـهُ مُحتـدِّه(٢)
يُـمـزَجُ فيـهـا صَبـرٌ بشُـهـده ... يُـرضعهـا مـنِ مقـلةٍ مُسـوده
يَمُـدُّهـا جـارٍ كَثيف العُـدَّه ... كـأنَّـه الـليـلُ إذا استـمـدَّه
مُـقـلتُـهـا مـكـحـولـة بِـنَـدَّه

وقلت في القلم:

أنـظر إلـى قـلمٍ تـنـكسَ رأسُـهُ ... لِيَضُـمَّ بينَ مـوصـلٍ ومُفَـصَّـلِ
تنـظر إلى مـخـلابِ ليثٍ ضيغمٍ ... وغـرارِ مسنونِ المضاربِ مفصلِ(٣)
يـبـدو لـنـاظـرهِ بـلونٍ أصـفـرٍ ... ومـدامـعٍ سـودٍ وجسمٍ مُنحـلِ
فـالـدُّرجُ أبيضُ مثـل خـدٍ واضـحٍ ... يثنيـهِ أسـودُ مثـل طـرفٍ أكحـلِ
قسم العـطايا والمنايا في الـورى ... فـإذا نـظرتَ إليـه فـاحـذر وأمـل
طعمـان شـوبُ حـلاوةٍ بـمـرارةٍ ... كـالدهـرِ يخلطُ شَهدَهُ بـالحنظلِ(٤)
فـإذا تصـرَّفَ في يـديك عِنـانُـه ... ألـحقت فيـهِ مُؤمّـلاً بـمؤمِّـلِ
ومُـذلَّـلاً بِـمُـعـزَّزٍ ولـربّـمـا ... ألـحقت فيـهِ معـزَّراً بـمـذلّـلِ

وقلت:

لـك القلمُ الجـاري ببؤسٍ وأنعـم ... فـمنهـا بـوادٍ تـرتجي وعـوائـدُ
إذا مـلأ القـرطـاس سـود سُـطوره ... فـتـلك أسـودُ تُـتـقـى وأسـاودُ
فـتلك جنـانٌ تُجتنـى ثمـراتُـهـا ... ويـلقـاك مـن أنفـاسـهـنَّ بـوارِدُ
وهـنّ بـرودٌ مـا لـهـنَّ منـاسِـجٌ ... وهـنَّ عـقـودٌ مـا لـهنَّ معـاقِـدُ
وهـنَّ حـيـاةٌ لـلوليّ رضـيـةٌ ... وهُـنَّ حتـوفٌ لـلعـدوِّ رواصـدُ

وأنشدنا أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الفضل الطائي قال أنشدني أبو الحسين بن أبي البغل:

لهم هِمِمٌ تُنـاطُ إلى الثـريـا ... وتحكم في الطريفِ وفي التلادِ(٥)
وأقـلامٌ تـشـبـهـهـا سُـيـوفـاً ... مُـهـنَّـدةٍ هـوادٍ فـيِ الـهـوادي

---

(١) الجيش اللهام: الكثير. الطَّوْد: الجبل.

(٢) الظئر: الركن الشديد.

(٣) الضيغم: الأسد. الغِرار: حد الرمح والسيف.

(٤) في الأصل: «شُهدة» بالضم. والحنظل: نبت مر.

(٥) الطريف والتليد والتلاد: المال المستحدث والموروث.

يُخطُّ بهـا سـوادٌ فـي بيـاضٍ فتحسبـهُ بيـاضـاً في سـوادِ
إذا فـزِعَ الصريـخُ أمدَّ خيـلاً بخيـلٍ تستثـارُ من المـدادِ

وقد أحسن ابن الرومي في وصف الكتاب حيثُ يقول:

متمنطقٌ من جلدهِ متختمٌ من خصره
أبداً تراهُ وصدره في بطنه أو ظهره

وقال ابن المعتز يذكر أرضةً أكلت كتاباً:

شغلي إذا ما كان للناسِ شغل دفتـرُ فقـهٍ أو حـديث أو غـزَل
أرقطُ ذو لـونٍ كشيبِ المكتهـلِ تخـالهُ مكتحِـلاً ومـا اكتحـل(١)
راكبُ كفٍّ اينَ مـا شـاءَ رحـل وهـو دليـلٌ لمقـال أو عمـل
يقيمُ وزن العقـل حتى يعتـدل ويُـذكرُ النـاسيَ مـا كـان أضـل
كأنـه ينشـرُ عن نقشٍ حـلل يخـاطب اللحظ بنطقٍ لا يكـل
ولا يمـلُّ صاحبـاً حتـى يمـل

ثم قال في وصف الأرضة:

تأكل أثمار القلوب لا أكل

وكتب الصاحب في وصف كتاب:

وصل كتابك، فجعلت يوم وصوله عيداً أؤرخ به أيام بهجتي، وأفتح به مواقيت غبطتي، وعرفت من خبر سلامتك، ما سألت الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعه على أيدي الأيام.

وكتب أيضاً:

وصل كتابه، أيده الله، يضحك عن أخلاقه الأرجة، ويتهلل عن عشرته البهجة، ويخبر عن رعاية الله إياه عما رأيت شمل الحرية به منتظماً، وشعب المروءة له ملتئما، ويتحمل من أنواع بره ما أقصر عن ذكره، ولا أطمع في شكره، ويؤدي من لطيف اعتذاره، في أثناء عتبه، ما تزداد به أسباب السرور تمهداً.

وقلت في كتاب أكلته الأَرَضة(٢):

وجليسٍ حسنُ المحضرِ مأمونُ المغيبِ
ميتٌ يُخبرُ حياً بخفيّاتِ الغيوبِ
أبلهٌ غيرُ لبيبٍ وهو في حالِ اللبيبِ
جاهلٌ غيرُ أديبٍ وهو عونٌ للأديبِ
أخرسٌ غيرُ خطيبٍ ولهُ لفظُ الخطيبِ
مفحمٌ ينظمُ شِعراً مثلَ إقبالِ الحبيبِ
ساكتٌ يروي حديثاً مثلَ إعراضِ الرقيبِ

---

(١) المكتهل: في سن ما فوق الثلاثين.

(٢) الأَرَضة: دويبة.

نـمـقـتـهُ الـكـفُّ حـتـى هـو كـالـوشي الـقـشيـب[1]
مـن سـوادٍ وبـيـاضٍ كـشـبـاب ومَـشـيـب
فـيـهِ إمـتـاعٌ لأبـصـا رٍ وأُنسٌ لـلـقُـلوب
دبَّ فـيـهـنَّ دبـيـبُ كـان مـن شـرِّ الـدبـيـب
مـن صـغـيـرات جـسـوم وكـبـيـرات الـذنـوب
أخـذت مـنـهـا نـصـيـبـاً فـالـتـوى منـهـا نـصـيـبي
أفـرَحـت قـلبَ جـهـولٍ وكـوت قـلبَ لـبـيـبِ
ويـلَ هـاتـيـك الـمـعـانـي مـن بـديـعٍ وغـريـبِ
وأفـانـيـنِ كـلامٍ بـيـن سـهـلٍ وصـليـب
مـن بـديـعٍ وفـصـيـحٍ وصـحـيـحٍ ومُـصـيـبِ
بُـدّلَ الإصـلاحُ مـنـهـ ـنَّ بـإفـسـادٍ عـجـيـبِ
فـنـجـومُ الـعـلمِ والـفـهـمِ تـهـاوت لـلغُـروبِ
كـلُّ شـيءٍ سـوفَ يـفـنـى عـن بـعـيـدٍ وقـريـبِ

ومن بديع ما وُصِف به الورّاق: ما أخبرنا به أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن يزيد المهلبي، عن أبي هفّان قال: سألتُ ورّاقاً عن حاله فقال:

عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، وخطي أخفى من شق القلم، ويدي أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألزم من الصمغ. فقلت: عبرت عن بلاءٍ ببلاء فحسبك.

وقلت في المحبرة والأقلام:

مَـنـهـلةٌ مـن أشـرفِ الـمـنـاهـلِ تضمنُ ريَّ الصـفـرِ الـذوابـلِ[2]
مَـركـبـهـا ذوائـبُ الأنـامـلِ إذا مـشـت عـالـيـةَ الأسـافـل[3]
بكت على الطرسِ بدمع هـامـلِ فـارتـبـطت شـوارد الـمـسـائـل
وكـشـفـت عـن غُـرر الـدلائـل بيضـاء تبدو في لباسِ الثـاكـل[4]
لـكـنـهـا تـلبـسـهُ مـن داخـل

ومما لا أعرف في معناه خيراً منه قول كشاجم الكاتب:

لا أحـبُّ الـدواةَ تحـشـى يـراعـاً هي عـنـدي مـن الـدُّويّ معيـبـه
قـلـمٌ واحـدٌ وجـودَةُ خطٍ فـإذا زدتَ فـاسـتـزدْ أنـبـوبـه
هـذه قـعـدةُ الـشـجـاعِ عـليهـا أبـداً سـيـرهُ وتـلك جَـنـيـبـه

---

(١) نمّقته: زينته.

(٢) المناهل: جمع المنهل: المورد.

(٣) الأنامل: الأصابع.

(٤) الثاكل: الذي فقد عزيزاً.

ومن البديع الظريف قول أحمد بن إسماعيل:

كأنما النقسُ إذا استمده غاليةٌ مذوقةٌ بنده[1]

ونتن الكرسف[2] مما يُعابُ به.

ومن البديع المشهور ما أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن إسماعيل، للحسن بن وهب:

مِدادٌ مثلُ خافيةِ الغراب وأقلامٌ كمرْهفةِ الحرابِ
وقرطاسٌ كرَقراقِ السرابِ وألفاظٌ كأيام الشبابِ

وقلت:

أكثرُ ما تُثبته الأقلامُ لم تسع في زواله الأيامُ
يا لك من خُرسٍ لها كلامُ موتى إليها النقضُ والإبرامُ
قِوامُ مجد ما لهُ قِوامُ نِظامُ ملكٍ خانه النظامُ
أصاغرٌ شؤونها العظامُ

ومن المختار في معناه قول الآخر:

إنما الزعفرانُ عطرُ العذارى وسوادُ الدّوِيّ عطرُ الرجالِ

وقلت في سكين:

انجاز وعدك في السكين مكرمةٌ غراء فضلك فيها غيرُ مجحودِ
أحسنْ بهِ أزرقاً في أبيض يَقق له مناطق من بيضٍ ومن سودِ[3]
خلفُ الوعيدِ حميدٌ لا يذمُّ بهِ ولم يكن خلف موعودٍ بمحمود

وكتب كافي الكفاة في ذم قلم فأبدع:

وليس العجب إلا من قلم منيت به، لا يستقر إذا تأنيت، ولا يستمر إذا جريت، طوله عرض، وابرامه نقض، تستغيث الحروف من التوائه، وتستأنس السطور من استوائه، إن قلت سر وقف، وإن حثثته بالأنامل قطف، فألفاظي في سنيه مأسورة، ومعانيّ في شقيه محصورة، وقد صبرت عليه، ألبسه مع سوء عشرته، واستمنحه مع فضل عسرته، وأقول لعله يصلح بطول المداراة، وعساه ينجح بكثرة المناواة، وهو يزداد نفاراً، ويتضاعف زللاً وعثاراً.

ومما يدخل في هذا الباب، قول كشاجم في غلام، رآه يكتب ويخطىء، فيمحو ما يخطه بريقه وهو:

ورأيتهُ في الطِّرسِ يكتبُ مرةً غلطاً يواصلُ محوَهُ برُضابهِ[4]

---

(١) مذوقَة: مختلطة. والنقس: العيب والسخرية. والند: البخور.

(٢) الكرسف: القطن.

(٣) أبيض يقِق: شديد البياض.

(٤) الطرس: الورق. الرُضاب: الريق.

فوددتُ أني في يديهِ صحيفةٌ ... وودتهُ لا يهتدي لصوابهِ

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن زكريا الغلابي، قال: حدثنا مهدي ابن سابق قال: رأى المأمون في يد جارية له قلماً، وكان ذاشغف بها واسمها منصف فقال[1]:

أراني منحتُ الودَّ من ليسَ يعرف ... فما أنصفتني في المحبةِ مُنصفُ
وزادتْ لديَّ حظوةً يومَ أعرضت ... وفي أصبعيها أسمرُ اللونِ أهيف
أصمَّ سميعٌ ساكنٌ متحركٌ ... ينالُ جسمياتِ المدى وهو أعجفُ
عجبتُ له أني ودهرك معجبٌ ... يُقوِّمُ تحريفَ العباد مُحرَّفُ

وكتب الصاحبُ أبو القاسم في وصف كتاب:

ومن هذا الذي لا يحبُّ أن يواصل علم الفضل، وواسطة الدهر، وقرارة الأدب، والعلم ومجمعِ الدراية والفهم، أم من لا يرغب في مكاثرة من ينتسب الربيعُ إلى خلقه، ويكتسبُ محاسنه من طبعه، ويتوشح بأنوار لفظه، ويتوضح بآثار لسانه ويده، ووصل كتابهُ فارتحتُ لعنوانه قبلِ عِيانه، حتى إذا فضضتُ[2] ختامَه، أقبلت الفكرةُ تتكاثر، والدُّررُ تتناثر، والغُررُ تتراكم، والنُكتُ تتزاحم، فإذا حكمتُ للفظة بالسبقِ أتت أختها تنافس، وأقبلت لدتها تفاخر، حتى استعفيتُ من الحكومة، ونفضتُ يدي من غبار الخصومة، وأخذتُ أقول كلكُنَّ صوادِرٌ عن أصُولٍ، بل أصلٌ واحدٌ فتسالمن، ونواقدُ عن معدنٍ فاردٍ فتصالحن، وقد وليتُ النظر بينها من كمل لنسج بُرودها، ووفي بنظم عُقُودها.

ومثل ما تقدَّم من قوله في ذم القلم قوله أيضاً:

على أني يا مولاي أنشأتُ هذه الأحرف، وحولي أعمالٌ وأشغالٌ، لا يَسلمُ معها فكرٌ، ولا يسمح بينها طبعٌ، وتناولت قلماً كالابن العاق، بل العدو المشاق، فإذا أدرته استطال، وإذا قومته مال، وإذا حثثتهُ وقف، وإذا أوقفته انحدر، أجدل الشق، مضطرب الشقّ، مُتفاوتُ البريِ، معدوم الجري، محرَّفُ القط[3] متبّج الخط، ثم رأيت العدُول عنه ضرباً من الانقياد لأمره، والانخراط في سلكه فجهدته على رغمه، وكددته على صغره، لا جرم أن جناية اللجاج بادية على صفحات الحروف لا تخفى، وعادية المحك لائحةٌ على وجوه تتجلى.

وكتبتُ في وصف كتاب:

الله أعلم أني أخبرت بورود كتابه فاستفزني الفرحُ قبل رؤيته، وهزَّ عطفي المرحُ قبل مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب، أم ظفرتُ برجوع شباب، ثم وصل بعد انتظارٍ له شديد، وتطلع إلى وروده طويلٍ عريضٍ، فتأملته فلم أدر ما تأملت أخطاً مسطوراً، أم روضاً ممطوراً، أم كلاماً منثوراً، أم وشياً منشوراً، ولم أدر ما أبصرتُ في أثنائه، أبيات شعر أم عُقودُ دُرّ،

---

(١) العقد الفريد: ١٩٨/٤.
(٢) فضضت ختامه: فتحته.
(٣) القطّ: القطع.

ولم أدر ما حملته، أغيثٌ حل بواد ظمآن، أم غوثٌ سيقَ إلى لهفان. وكتب الصاحب:

ووصل كتابُ القاضي، فأعظمتُ قدر النعمة في مطلعه، وأجللتُ محل الموهبة بموقعه وفضضته عن السحر الحلال، والماء الزُّلال، وسرحت الطرف منه في رياضٍ رقت حواشيها، وحللٍ تأنق واشيها، فلم أتجاوز فصلاً إلا إلى أخضرَ مه فضلاً، ولم أتخط سطراً إلا إلى أحسنَ منه نظماً ونثرا.

ورفع رجلٌ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر قصةً يعتذر فيها، فرأى خطه رديئاً، فوقع:

قد أردنا قَبُولَ عذرك، فاقتطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك، ولو كنتَ صادقاً في اعتذارك، لساعدتك حركةُ يدك، أوَ علمتَ أن حسن الخطّ يُناضِلُ عن صاحبه بوضوح الحجّة، ويمكن له درك البغية.

وقال عليّ رضي الله عنه:

الخطُّ الحسنُ يزيد الحقَّ وضُوحاً.

وقيل:

حسن الخط إحدى البلاغتين.

ووصف الجاحظُ[1] الكتابَ فقال:

«الكتاب وِعاءٌ مُلِيء علماً وظرفٌ حشِي ظَرفاً، وإناء شحن مُزاحاً وجداً، إن شئتَ كان أبين من سحبان[2] وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت شجتك مواعظه، ومن لك بواعظٍ ملهٍ، وبزاجرٍ مغرٍ، وبناسكٍ فاتكٍ، وبناطقٍ أخرس، وببارِدٍ حار، ومن لك بطبيب أعرابي، وبرومي هنديّ، وفارسي يونانيّ، وبقديم مولد، وبميّت مُمتّع، ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل والمثل وخلافه، والجنس وضده».

ودخل المأمونُ على بعض بنيه، فوجدَهُ ينظر في كتابٍ. فقال:

يا بُني ما في كتابك؟ قال بعضُ ما يشحذ الذهن ويؤنس الوحدة. فقال: الحمد لله الذي رزقني ولداً يرى بعين عقله، أكثر مما يرى بعين جسده، وظلّ مفكراً في قول ولده الطفل.

---

(١) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب، الاديب الكبير، رأس المعتزلة، صاحب التصانيف. مات سنة ٢٥٥ هـ. من مؤلفاته: «الحيوا»، «والبيان والتبيين».

(٢) سحبان بن زُفر بن إياس الوائلي، خطيب يضرب به المثل لفصاحته مخضرم بين الجاهلية والإسلام. مات سنة ٥٤ هـ.

الفصل الثاني من الباب التاسع
في ذكر البلاغة

قال بعض الحكماء:

البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه.

قال الشيخ أبو هلال: يعني قولاً واضح المعنى غير مُشكل المغزى.

وسأل معاوية عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ قال: من اقتصر على الإيجاز وترك الفُضول. وليس يصلحُ الإيجاز في كل مكان، كما لا تصلح الإطالة في كل أوان، بل لكل واحد منهما حينٌ يحسن فيه ومقام يليق به إن أزلته عنه لم توفه حقّه ولم تسلك به طرقه.

وقال محمد الأمينُ: عليكم بالأيجاز فإن للإيجاز إفهاماً وللإطالة استبهاماً. أي عليكم بالإيجاز فيما كان الإيجازُ فيه أحسن وأنجع، فأما إذا كانت الإطالة أرد وأنفع، فليس للإيجاز موقعٌ يحمَد ولا حالٌ تعتمد.

والإيجاز بجميع الشعر أليق، وبجميع الرسائل والخُطبِ، وقد يكون من الرسائل والخُطب، ما يكون الإيجازُ فيه عِيّاً، ولا أعرفه إلا بلاغة في جميع الشعر، لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحي، ومعانيه كالسحر، مع قربها من الفهم.

والذي لا بدّ منه حسنُ المعرض ووضوحُ الغرض.

كقول[1] النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وقال[2] الفرزدق:

والشيبُ ينهض بالشبابِ كأنّهُ ... ليلٌ يصيحُ بجانبيهِ نهارُ

وقال أعرابيٌّ:

أبلغُ الناس أسهلهم لفظا، وأحسنُهم بديهةً.

(١) ديوان النابغة: ٨٤.

(٢) ديوان الفرزدق: ٣٢٣.

وهذا حسنٌ جداً، لأنّ سهولة اللفظ، وحُسنَ البديهة، يدلان على جودة القريحة، والبلاغة الغريزية، ووعورة اللفظ، تدل على تكلف وتعسف، ولا شيء أذهب بماء الكلام، وطلاوته ورونقه منهما، ولا يحسن معهما الكلام أصلاً وإن كان لطيف المعنى نبيل الصنعة.

وقد أجاد ابن الرومي في قوله:

البلاغةُ حسنُ الاقتضاب عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة.

فجعل البلاغة في الغزارة، كما جعلها غيره في الإيجاز.

وقيل لهندي: ما البلاغة؟ فقال:

وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الاشارة.

وقيل لآخر: ما البلاغةُ؟ فقال: تصحيحُ الأقسام، واختيارُ الكلام.

وقال الحسنُ بن سهل[١]: البلاغة ما فهمتهُ العامة، ورضيتهُ الخاصة.

وقال عبيد الله بن عتبه:

البلاغة دنو المتأخر، وقرع الحجة، وقليل من كثير. وروي هذا عن أكثم بن صيفي[٢] أيضاً.

قال ابن المقفع[٣]:

البلاغة اسم لمعانٍ تجري في وجوهٍ فمنها: ما يكون شعراً، ومنها ما يكونُ سجعاً، ومنها ما يكونُ خطباً، ومنها ما يكونُ رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأحوال فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغُ، والإيجازُ البلاغة.

وتأويل هذا ما قدمناه.

وقال غيره:

البلاغة قولٌ يسير، يشتمل على معنى خطير.

وقال الآخر:

البلاغة علمٌ كثير، في قول يسير.

وقال جعفر بن يحيىٰ: البلاغة أن يكون الاسم محيطاً بمعناك، ويجلي على مغزاك ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليماً من التكلف، بعيداً من سوء الصنعة، بريئاً من التعقد غنياً عن التأمل.

---

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، وزير المأمون العباسي، قائد والٍ، من مشاهير عصره في الذكاء والأدب والكرم. مات سنة ١٦٦ هـ. (الأعلام: ٢/١٩٢).

(٢) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث، التميمي: حكيم العرب في الجاهلية أدرك الإسلام، توَجه إلى المدينة المنورة فلم يصلها ومات في الطريق سنة ٩ هـ.

(٣) ابن المقفع: عبد الله، من كبار الكتاب، أول من ترجم كتب المنطق تولى كتابة الديوان للمنصور العباسي، ترجم كتباً كثيرة منها «كلية ودمنة».

وقال أعرابي :

البلاغة التقرب من معنى البغية، والتبعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجازٌ في صواب، وقصد إلى الحجة، وحسن الاستعارة. وقال محمد بن الحنفية :

البلاغةُ قولٌ مفقهٌ في لطف.

وقال عليٌّ رضي الله عنه :

البلاغة إيضاحُ الملتبسات، وكشف عوار الجهالات، بأحسن ما يُمكن من العبارات.

ومثله قول الحسن بن عليّ رضي الله عنهما :

البلاغَةُ الإفصاحُ عن حكمةٍ مستغلقة، وإبانة علم مشكل.

ومثله قول محمد بن عليّ رضي الله عنه :

البلاغةُ تيسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ.

وقال ابن المقفع :

البلاغة كشف ما غمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق.

والذي قاله صحيح، لا يخفى موقع الصواب فيه على أحد، من أهل التمييز، وذلك أن الأمر الظاهر الصحيح، الثابت المكشوف، ينادي على نفسه بالصحة، ولا يحوج إلى التكلف لتصحيحه، حتى يوجدُ العيي فيه خطيباً، وإنما الشأن في تحسين ما لبس بحسنٍ، وتصحيح ما ليس بصحيح، بضرب من الاحتيال والتخييل، ونوع من العلل والمعاريض، ليخفى موضع الإساءة ويغمض موضع التقصير فيه. وقد فسرت في كتاب صنعة الكلام، مواضع الاشكال من هذه الفصول، فتركتُ إعادتها ههنا، فإذا أردتها فاطلبها في مظانها هناك، تظفر ببغيتك منها إن شاء الله تعالى.

وقد أحب قومٌ الإيجاز في بعض المواضع، منهم جعفر بن يحيىٰ قال لكتابه :

إن استطعتم أن يكون كلامكم مثل التوقيع فافعلوا.

وقال بعضهم في المذهب الأول: إذا كان الإيجاز كافياً، كان التطويلُ عياً، وإذا كان التطويلُ واجباً كان التقصيرُ عجزاً.

وقيل لأعرابي ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والاطناب من غير خطل.

فانظر إلى كلام هذا الأعرابي فهو بليغ.

جمل من بلاغات العجم

العجمُ والعربُ في البلاغة سواءٌ، فمن تعلم البلاغة بلغةٍ من اللغات، ثم انتقل إلى لغةٍ أخرى، أمكنه فيها من صنعة الكلام، ما أمكنه في الأولى، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، ويدلك على هذا أيضاً، أن تراجم خُطب الفرس، ورسائلهم هي على نمط خُطب العرب ورسائلها، وللفرس أمثال، مثل أمثال العرب معنى وصنعةً، وربما كان اللفظُ الفارسي، في بعضها، أفصح من اللفظ العربي.

من ذلك قول العرب: «ولدُكِ من دَمَّى عَقبيكِ»[1].

وقول الفرس: «هرك نزاد نرود».

واللفظُ الفارسي في هذا، أفصح من اللفظ العربي وأحسنُ.

وقولهم: «كشند ميدْ» مثل قول العربي: «من يسمع يَخلْ»[2] سواءٌ في المعنى، والفارسي أقل حروفاً.

وقولهم: «أصيد بركة خوْرده». وليس للعرب في معنى هذا المثل شيء.

ومعناه: «المأمول خير من المأكول».

ولا يعبر عنه بكلام عربي أقل حروفاً مما ذكرته ومع ذلك فإن حروف تفسيره بالعربية ضعفا حرُوفِهِ بالفارسية، وقد جاء عن بعضهم في معنى هذا المثل: «انتظار الحاجة خير لك من قضائها».

وقد خالفهم الفرس في مثل واحد وهو قولهم:

«به شاه أشناه ونرود همدوره» والعربُ تقولُ: «جاور بحراً أو ملكاً»[3].

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/٣٧.

(٢) جمهرة الأمثال: ٢/٢١٢.

(٣) جمهرة الأمثال: ١/٢٤٣.

وليس قصدنا لهذا المعنى فنطيلُ فيه، ولكن لإيراد أمثلة في البلاغة تكون مادة لصانع الكلام:

فمن ذلك قول ابرويز:

إذا نزل الخمولُ استكثف النقص.

يحثُ على طالب النباهة، والتماس جلائل الأمور.

وقال بهرام جور: الحاكم ميزان الله في الأرض.

فوافق الله تعالىٰ في قوله:

﴿والسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزَان﴾[1].

يعني العدل في الحكم.

ونحوه قال علي رضي الله عنه: السفرُ ميزان القوم.

وقول الآخر:

العروضُ ميزان الشعر.

وقال الآخر منهم: أغلق أبواب الشهوات تنفتح لك أبواب المحاسن.

وقال آخرُ منهم:

الصوابُ قرينُ التثبت والخطأ شريك العجلة.

وقال بزرجمهر[2]:

عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، وعاملو العامة بالرغبة والرهبة، وسوسوا السفلة بالمخافة والهيبة.

وقريبٌ من ذلك قول بعضهم:

الكريم يلين إذا استعطف، واللئيمُ يقسو إذا ألطف.

وقال بعضهم:

ينبغي للوالي أن يتفقد أمور رعيته، فيسد فاقة أحرارها، ويقمع طغيان سفلتها، فإنما يصولُ الكريمُ إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

وقال بعضُ حكماء الفرس: أحزم الملوك، من غلب جَده هزله، وقهر رأيه هواه، وعبر عن ضميره فعله، ولم يختدعه رضاه عن حظه، ولا غضبهُ عن كيده.

وقال أنوشروان[3]:

القصدُ غاية المنافع. وقال لابنه هرمز:

لا يكن عندك لعمل البرِّ غاية في الكثرة، ولا لعمل الإثم غاية في القلة.

---

(١) سورة الرحمٰن: آية ٧.

(٢) بزرجمهر: من حكماء فارس ومن ملوكها.

(٣) انوشُران: من حكماء فارس وكان ملكاً.

ووافق هذا من العربي قول الأفوَه الأودي[1]:

والخيرُ تزدادُ منهُ ما لقيتَ بهِ   والشرُّ يكفيكَ منهُ قلما زادُ

وقالوا أيضاً:

يوم العدل على الظالم، أشدّ من يوم الظلم على المظلوم.

وقال ابرويز:

لا تغُشُّوا قليلاً فتنغصوا به كثيراً. وقال يوماً لجنده: لا يشحذ امرؤ منكم سيفه، حتى يشحذ عقله.

وأظن المتنبي[2] ألمَّ بهذا فقال:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ   هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثاني

وقال لكاتبه:

إذا فكرت فلا تعجل، وإذا كتبت فلا تستعن بالفُضول، فإنها علاوة على الكفاية، ولا تقصرن عن التحقيق، فإنها هُجنة في المقالة، ولا تلبس كلاماً بكلام، ولا تباعدن معنى من معنى، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. ووافق هذا قول العربي:

ما رأيتُ بليغاً، إلا رأيتُ له في المعاني إطالةً، وفي الألفاظ تقصيراً. يحث على الإيجاز.

وقال له:

إذا أمرت فاحكم، وإذا كتبت فأوضح، وإذا ملكت فأسجع، وإذا سألت فأبلغ.

ووافق هذا النمط قول[3] أبي تمام:

يقولُ فيسمع ويمشي فيسرع   ويضرب في ذات الآله فيوجعُ

وقال أزدشير بن بابك:

من لم يرض بما قسم الله له، طالت معتبتهُ، وفحُش حِرصُه، ومن فحُش حِرصُه ذَلت نفسه، وغلب عليه الحسدُ، ومن غلب عليه الحسدُ، لم يزل مغموماً فيما لا ينفعه، حزيناً على ما لا يناله. وهذا معنى قول الشاعر:

ليس للحاسد إلا ما حسد

وقال:

من شغل نَفْسَهُ بالمُنى لم يخل قلبه من الأسى.

وقال بعضهم:

الحقوقُ أربعةٌ: حقُّ لله تعالىٰ، وقضاؤه ارضا بقضائه، والعمل بطاعته، وإكرام أوليائه، وحق نفسك، وقضاؤه تعهدها، بما يصلحها ويصحها، ويحسم مواد الادواء عنها، وحقُّ الناس،

---

(١) الأفوَه الأودي: هو صلاءة بن عمرو من مِذحج مات سنة ٥٠ ق هـ.

(٢) ديوان المتنبي: ٤/١٧٤.

(٣) ديوان أبي تمّام: ١٦٨.

وقضاؤه عُمومُهم بالمودّة، ثم تخصيص كل واحد منهم بالتوقير والتفضيل والصلة، وحقُّ السلطان، وقضاؤه تعريفه ما خفي عليه من منفعة رعية، وجهاد عَدوٍّ، وعمارة بلدٍ وسدّ ثغرٍ.

وقال بُزرجمهر:

لا ينبغي للعاقل أن يجزع من حطّ السلطان إياه، عن منزلة رفع إليها خاملاً، فإن الأقدار لم تجر على قدر الأخطار.

وقال بزرجمهر:

إلزام الجهول الحجّة يسير، وإقراره بها عسير.

وقال بزرجهمر:

ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبّة، من قلوب الخلق.

ومن كلام الفلاسفة

قال ارسطاطاليس:

ليس الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال. وقيل له: ما أشدّ الأشياء على الأحمق؟ قال السُّكوتُ. وقيل له: ما أحسن الأشياء؟ قال: الانسان المزين بالأدب.

وقال: العقل سبب تنغيص العيش.

وإلى هذا المذهب ذهب ابنِ أبي البغل في قوله:

الصَّعْو يَصْفِرُ دائبا ولأجله ... حُبِس الهزارُ لأنه يترنَّمُ
لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرّني ... جهلي كما قد ساءني ما أعلمُ

وقال[1] المتنبي:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلهِ ... وأخو الجهالةِ في الشقاوة ينعَمُ

وقلت:

أواصِلُ الهمَّ في ضيقٍ وفي سعةٍ ... كأنّ بيني وبينَ الهمِّ أرحاما
إن إمرأً عظمتْ في الناس همته ... رأى السرورَ جوىً والوفر إعداما

وقلت:

وأكثرُ حالاتِ الزمانِ يغمني ... وليس لغمٍّ العارفينَ مفرج

ورؤي الحسنُ البصري حزيناً، فقيل له في ذلك فقال:

غمى مكتسبٌ من عقلي، ولو كنت جاهلاً، لكنت في راحة من عيشي.

وافتخر قومٌ بالمال عند فيثاغورس[2] فقال:

وما حاجتي إلى المال الذي يعطيه الحظ ويحفظه اللؤم، ويهلكه السخاء. وقيل له ما

---

(١) ديوان المتنبي: ٤/١٥٤.

(٢) فيثاغورس: عالم رياضي يوناني وفيلسوف.

أصعب الأشياء على الانسان؟ قال:

أن يعرف قدر نفسه ويكتم سره.

وقال بعضُ أهل الهند:

ليس شيء أعرفُ بنفسه من الإنسان ولا أجهلُ بها منه. وقيل لسقراط أي السباع أجمل؟ قال المرأة.

ومن التشبيه المصيب، قول سقراط[1] لرجل استشاره في التزويج:

إن المتزوجين مثل السمك الذي يصاد بالقفاف، فما حصل فيها يروم الخروج منها وما كان خارجاً يبغي الدخول فيها.

وقيل لرجل منهم ما سبب موت أخيك؟ قال كونه.

ومثل ذلك أخبرني به عم أبي أبو سعيد الحسن بن سعيد أظنه عن أبيه قال: ورد البريد إلى المأمون من خراسان بموت ابن المؤيد، فاستدعاه وجعل يعظه ويعزيه من غير أن يذكر له المصيبة، فقال المؤيد: لا عهد لي من أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام فما السبب فيه؟ قال: مات ابنك، قال قد عرفتُ ذلك، قال: ومتى عرفته وما سبق البريد خَبرٌ؟ قال: عرفتُ ذلك يوم وُلد. فعجب المأمون من فهمه، وقال بمثل هذا قدمتك هذه العصابة وجعلتك قوام دينها ومفزعها فيما ينوبها.

وقال بعضهم:

حب المال وتد البلايا.

وقال سقراط:

اللذةُ خناق من عسل.

وقيل لجاوس: توفي مانيدس[2]. فقال: الويح لي قد ضاع مسنُّ عقلي. وقيل له ما أحلى الأشياء؟ قال: الذي تشتهي.

وقريب منه قول الأعرابي:

وقلة ما قرت به العين صالح

وقال سقراط:

الحظ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي سواء.

ومثل ذلك قول طاهر بن الحسين:

التبذير للمال ذمة، كحب التقتير فاجتنب التقتير، وإياك والتبذير.

وقريب منه قول العربي، وقد قيل له: إن فيك إمساكا، فقال: لا أجمد في حق ولا أزور في باطل.

---

(١) سقراط: فيلسوف يوناني كبير.

(٢) جاوس ومانيدس: من مفكري اليونان.

ورأى بعضهم شاباً جاهلاً جالساً على حجر فقال هذا حجر على حجر.

ونحو هذا قول بعض المحدثين:

ما أن يزالُ ببغدادِ يزاحمنا ... على البراذينِ أمثالُ البراذين[1]

وقلتُ وقد رأيتُ غلاماً طريراً يخدم لئيماً دميماً:

إن كنتَ ترتادُ منظراً عجباً ... فانظر إلى البدر في يدِ القردِ

وانظر إلى الضبِّ كيف يفترسُ الظبـ ... ـيَ على مرقدٍ من الوردِ[2]

وذُمَّ دهراً يفيضُ أنعمه ... على اللئيم المذممِ الوغدِ

وانظر إلى حمرة وأنته ... فوقَ مُتونِ السوابحِ الجردِ

فأسخنَ الله عينهُ زمناً ... ماذا رأى في تجنبِ القصدِ

وقال بعضُ اليونانيين للاسكندر[3]: أخلاقك تجعل العدو صديقاً، وأحكامك تجعل الصديق عدواً، ويشهد عدم مثلك فيما كان، بعدم مثلك فيما يكون.

وقال بعض حكمائهم لمتكبر: وددت أني مثلك في نفسك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. وقريب من هذا المعنى قول علي رضي الله عنه لبعض أعدائه وقد مدحَهُ: أنا دون ما تظهر بلسانك، وفوق ما تضمرُ في جنانك.

وقيل لبطليموس: ما أحسن أن يصبر الانسانُ عما يشتهي؟ قال: أحسن منه أن لا يشتهي إلا ما ينبغي.

وقال أرسطاطاليس[4]:

إنك إن لم تصبر على تعب التعليم، صبرت على شقاء الجهل ما بقيت ـ يخاطب جاهلاً.

محاسن كلام العرب والأعراب والخطباء والكتاب

قال بعض حكمائهم:

الصبرُ يناضل الحدثان.

وقال آخر:

الحلم فدام[5] السفيه.

وقال آخر:

خاطر من استغنى برأيه.

وقال غيره:

---

(١) البراذين: جمع البرذون: الحمار.

(٢) الضب: حيوان صحراوي صغير.

(٣) الاسكندر: قائد يوناني تعلّم فلسفة افلاطون وآرسطو.

(٤) ارسطاطاليس: فيلسوف اليونان.

(٥) الفدام: شيء يُشد على الفم.

الجزع من أعوان الزمان والمودة قرابة مُستفادة.
وفضل بعضهم المودة على القرابة فقال:
القرابة مُحتاجةٌ إلى المودةِ، والمودة مُستغنيةٌ عن القرابة.
وقال غيره وسوى بين المودة والقرابة: الصاحبُ مناسبٌ.
وقالوا:
عجبُ المرءِ بنفسه أحد حساد عقله. ومن موجز الكلام قول بعضهم:
من نال استطال والفاحشةُ كاسمها.
وقولهم:
أصاب مُتأملٌ أو كاد.
وقولهم:
العفوُ زَكاةُ الجاه.
وقولهم:
راجي البخيل مُكد.
وقول بعضهم:
قلما تصدقك الأمنيةُ.
وقيل:
الصيانة مألف المروءة.
وقال بعض الحكماء:
البلاء رديف الرخاء.
وقيل:
خمول الذكر، أسنى من الذكر الذميم.

وهذا خلاف ما سمعناه، سمعت رجلاً يقول: لأن أكون رأساً في الضلالة أحب إليّ من أن أكون ذنباً في الهداية.

وكانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة، ومن المخطوب الإيجاز، فخطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز[1] ابنة أخيه، فتكلم بكلام جاز الحفظ. فقال عمر:

الحمد لله الذي أنطق البلغاء ذي الكبرياء، وصلى الله على محمد خير الأنبياء، أما بعد فإن الرغبة منك دعتك إلينا، والرغبة فيك اجابتك منا، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوجناك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فكان هذا من أوجز خطبة وأحسنها للمراد.

---

(١) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموي الصالح، خامس الخلفاء الراشدين توفي سنة ١٠١ هـ. وكان مولده بمصر سنة ٦٣ هـ.

ومن موجز كلامهم:
ليس مع الخلاف ائتلاف.
وقولهم:
رضا الناس غاية لاتبلغ.
وقولهم:
لا ينفعك من جار سوءٍ توقّ.
وقولهم:
سرك من دمك.
وقيل:
من لم يمت لم يفت.
وقولهم:
عقل الكاتب على قلمه.
ومن الصدق الذي لا ارتياب فيه قولهم من جالس عدوه حفظ عليه عيوبَه.

ومن الموجز المليح ما روي أن بني أمية وفدوا على عبد الملك بن مروان، فقال أهل الشام: ما عسى أن يقول خطيبهم؟ فقام رجُلٌ منهم فقال:

يا أمير المؤمنين نحن من تعرفُ، وحقنا ما لا تنكر، وجئناك من بعد ونمتُّ من قرب، فمهما تفعل بنا من خير فنحنُ أهْله، فتطاول عبد الملك وقال: يا أهل الشام هذا كلام قومي.

ومن جيد الاستعارة قول بعضهم:
كانوا في ظل رقيق الحواشي، فطواه الدهرُ عنهم.
وقيل: القلم أنف الضمير، والخط لسان اليد.
وقال النبي ﷺ: «جَدَعَ الحَلاَلُ أنْفَ الغَيْـرَة»
وقالوا: الفكرةُ مُخُّ العمل.
وقيل:
الشيبُ خطام المنية.
وقالوا: المذاكرةُ حياة العلم.
وقيل:
الخمولُ دفن الحي.
وقلتُ:
السخاء سُلم المجد.
وقلتُ:

المراء ينقض مِرَر المودّة، والتواني يُثمِرُ الندامة، والكسلُ يُنتجُ الفقر.
وقيل:
البياضُ علم الجمال.
وقلتُ:
الحياءُ عنوان الكرم.
وقلتُ:
العتابُ مُقَدِّمَةُ السخط.
وقال ابن المعتز:
المعروفُ: غلٌّ[1] لا يَفُكُّه إلا شكرٌ أو مُكافأة.
وقلت:
العينُ رائدُ القلب.
وقلتُ:
الذّل رسيل الدَّين، والشكر ضامنُ المزيد، والغنى مظنة البطر.
وقال آخرُ:
اللحظ طرف الضمير.
وقلتُ:
الشكر مرتبط النعم.
وقال آخر:
من جرى في عنان أمله عَثُر بأجله.
وقال:
الأعمالُ ثمار النيات.
وقيل: التواضع سُلّم الشرف.
وقلت:
المال عدوّ الوفاء.
وقيل:
التجني رسولُ القطيعة.
وقال الأحنف:
الأدب عُروةُ العزِّ.
ومن أصدق كلمة أعرفها قول ابن المعتز:

---

(١) الغل: القيد.

من قوي عقله، كثر حلمه، وقل غيظه.

وقال:

الفرصةُ سريعةُ الفوت، وبطيئة العود.

وقال:

نرقّع خرق الدنيا ويتسع، ونشبعها وتنصدع، ونجمع منها ما لا يجتمع.

ووقّع جعفر بن يحيىٰ إلى بعض إخوانه:

إذا وضح العذرُ لم يكن لسوء الظن مكان إلا لمن أراد التجني.

وقيل للأحنف إن حارثة بن بدر يقع فيك فقال: «عُثَيثَةٌ تَقْرِمُ جِلداً أملساً»[1].

وقال بعض الحكماء.

حصادُ المنى الأسفَ وعاقبتها الندامةُ، وليس لذي لب بها مستمتعٌ.

ومن فصيح أمثال العرب قولهم: «الفرارُ بقرابٍ أكيسُ»[2].

وعزّى أعرابيٌّ رجلاً فقال:

لا أراك الله بعد هذه المصيبة ما ينسيكها.

وعزى شبيبُ بن شيبة ذمّياً فقال: أعطاك الله عن مصيبتك أفضل ما أعطى أهل ملتك.

وقال عبد العزيز بنُ زرارة:

أول المعرفة الاخْتبار.

وقال رجلٌ للأحنف ممّن أنت؟ قال: ممن ودّني. وقال البلاغةُ البلوغُ عند الكفاية.

وقيل للأحنف ما أحسن المجالس؟ قال: ما سافر فيه البصرُ، واتّدع فيه البدن، وأمن فيه الثقل، وكثرت فيه الفائدة.

وكتب المهلب[3] إلى عبد الملك حين هزم الأزارقة:

أما بعد فإنا لقينا المارقة، ببلاد الأهواز، وكانت في الناس جولة، ثم ثاب أهلُ الدين والمروءة، ونصرنا الله عليهم، فنزل القضاءُ بأمرٍ، جاوزت النعمة فيه الأمل، فضاروا دريئة رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل رئيسهم في جماعة من حماتهم، وذوي الثبات منهم، وأجلى الباقون ليلاً عن مُعسكراتهم، وأرجو أن يكون آخر النعمة كأوّلها إن شاء الله تعالىٰ.

وكتب إلى الحجاج:

الحمد لله الكافي بالاسلام ما وراءه الذي لا تنقطع موادُّ نعمه، حتى تنقطع من خلقه موادّ الشكر عليها، وإنا كنا وعَدُوّنا على حالتين: يسرُّنا منهم أكثر مما يَسُوءُنا، ويَسُوءُهم منا أكثر مما يسرُّهم، فلم يزل الله تعالىٰ يزيدنا وينقصهم، ويمحضنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتابُ أجلهُ،

---

(١) جمهرة الأمثال: ٢/ ٤٨. العُثيثة: تصغير العُثّة: دويبة، تقرِم: تحز

(٢) جمهرة الأمثال: ٢/ ٨٣.

(٣) هو المهلب بن أبي صفرة. وفي الأصل: «ابن عبد الملك». والأزارقة فرقة دينية من الخوارج.

فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وكتب ابن المعتز:

قد علمتني نبوتك سلوتك وأسلمي اليأس منك إلى الصبر عنك.

وقال أعرابيٌّ لمعاوية:

هزرتُ ذوائب الرحال إليك، إذ لم أجدُ معوّلاً إلا عليك، وأمتطي الليل بعد النهار، واسم المجاهل بالآثار، يقودني نحوك الرجاء، وتسوقني إليك البلوى والنفسُ مستبطئة، والاجتهاد عاذر، وإذ بلغتك فقط.

فقال معاوية:

أحطط رحلك يا أعرابي.

وقال سفيان الثوري:

رأيتُ أعْرابياً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا رب عندي لك حُقوقٌ فهبها لي وللناس عندي حقوقٌ فتحملها عني، ولي عندهم حقوقٌ فقيضها لي، وأنا ضيفك اليوم فاجعل قِراي الجنة.

وذكر بعضهم رجُلاً فقال: كان قريب مدى الوثبة، لين العطفة، يُرضيه القليلُ ولا يُسخطه الكثيرُ.

أمثلة في البلاغة الكتابية

أولها التحميدُ، ومن عادة العارفين أن يبتدئوا في الأمور، بالحمد لله رب العالمين يُقدمونهُ أمام طلابها، كما بُدىء بالنعمة فيها قبل استيجابها.

كتب حمدُ بن مهران[1]: الحمد لله الذي كثرت أياديه عن الإحصاء، وجلّت نعمه عن الجزاء.

وكتب أيضاً:

الحمد لله ذي البلاء الجميل، والعطاء الجزيل، الذي جعل للأمير سنى الرتبة، وعز الدعوة، ووصل له حسن الولاية، بشكر النعمة، وقرن لأوليائه قوة الحجة، بفضل الإدالة حمداً يؤدي إلى الحق، ويقتضيه ويستمد المزيد ويمتريه، وإلى الله أرغبُ في زيادة الأمير والزيادة به وعلى يديه، والأيدي الصائلة على عدُوّه بمنّه ولطفه.

فأخذ ابنُ دُريد قوله: «ويستمد المزيد ويمتريه» فقال:

تحرس نعم الله عزّ وجلّ عندنا بالحمد عليها ويمتري المزيد منها بالشكر عليها، وترغب الأيادي إليه في التوفيق لما يُدني من رضاه، ويجير من سخطه، إنه سميع الدعاء لطيف لما يشاء.

---

(١) حمد بن مهران: في الفهرست «حميد». اصله من اصفهان، كتب البرامكة مدة حياتهم، له كتاب رسائل. (الفهرست ١٧٩).

وكتب الصابي[1]:

الحمد لله ذي المنن والطَّوْل، والقوة والحول، والغاية والصول، رافع الحق ومُعليه، وقامع الباطل ومُرديه، ومُعز الدين ومُديله، ومُذل الكفر ومذيله[2] المنزل رحمته على من جاهد في طاعته، والمحل عُقوبَته بمن جاهر بمعصيته، المتكفل بتأييد حزبه حتى يظفَر، وبخذلان حربه حتى يدحر الذي لا يفوته الهارب، ولا ينجو منه الموارب، ولا يعييه المُعضل، ولا يعجزه المشكل، ولا تبهظه الأشغال، ولا تؤوده الأثقال، الغنيُّ المفتقر إليه، القويُّ المعتمد عليه، بالغ أمره بلا مُؤازر، وممضي حكمه بلا مظاهر، ذلكم الله ربكم فاعبدوه مخلصين له الدين.

وروي عن النبي ﷺ إنه قال لما هزم الأحزاب:

«الحمدُ لله الذي صَدَقَ وَعْدَه وَنَصرَ عَبدَه وَهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَه»[3].

وكتبتُ:

الحمد لله الذي وفَّر على الأنام المحاسن، واكتنفها بالميامن، وبسط بالخير أيديها، وأفاض بالاحسان واديها، وعلمها البر بالأبرار، والعطف على الأحرار، واختيار الخيرة للأخيار، فعادت وقد زكت شجرتها، وحلت ثمرتها، وتثنت أغصانها، وتهدَّلت أفنانها، ولانت أعطافها، وتناهت ألطافها، فكأنما هي أيام أبي تمام التي وصفها، فقال[4]:

أيامُنا مصقُولةٌ أطرافها ... بك والليالي كلها أسحَارُ

بما منح من حُسن رأيك، أطال الله في كنف السلامة بقاءك، وحجب عن عيون الغير نعماءك، وخوّلك من العزّ أوفره، ومن الظفر أخضره، وأعطاك من النعم أصفاها من الشوائب، وأبعدها من مُلاحظة النوائب، ومنحك من الخير برُمَّته، كما قاد إليك الفضل بأزمَّته، ولا زال بك الزمان جديد الحُلَّتين، مُطرز الطرتين، مُتوج المفرق بمآثرك، حال الجيد بمفاخرك، ولا سلبك نعمة ألبسك جمالها، ولا نزع عنك عارفةً وفر عليك كمالها:

رأيتُ جمالَ الدهرِ فيكَ مُجدّداً ... فكن باقياً حتى تَرَى الدهرَ فانيا

وكتب بعضهم:

الحمد لله الذي استسلمت نهاية الشكر لدون ما ألزم بصنائعه.

وكتبت:

الحمد لله على ما تطوّل به من البرّ، وما أوزع[5] على ذلك من الشكر، حمداً يتخطى به

---

(١) الصابي: أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال، مترسل بليغ شاعر عالم بالهندسة. مات قبل سنة ٣٨٠ هـ. (الفهرست ١٩٣).

(٢) مذيل الكفر: محقّره.

(٣) البخاري: عمرة ١٢. مسلم: حج ٤٢٨.

(٤) ديوانه: ١٣١.

(٥) أوزَع: ألهَمَ.

إلى غاية رضوانه، ويستدعي المزيد من جزيل إحسانه.

وكتبتُ:

الحمد لله الذي قيض لك السبق إلى البرِّ، والفوز بالمكرُمة البكر والاستيلاء على قصبات الحمد والشكر.

وكتب آخر:

الحمدُ لله الذي جعل من ألبابنا بصائر تقودنا إلى معرفته، ومعارف ترشدنا إلى الاقرار بربوبيته ليخرجنا من الظلمات إلى النور برحمته.

ومن جيد الأدعية

ما كتب الصاحبُ أبو القاسم بن عباد:

أسعد اللهُ سيدنا بالفضل الجديد، والنيروز الحميد، سعادة مُتصلة المادة، حافظةً لجميل العادة، مُوذنة بظاهر العزّ والبسطة، وتزايد السرور والغبطة، مؤمنة من عوادي الأيام، وبوادر الزمان، وأراه سادتي الفتيان، قد اقتفى كلٌّ منهم مجده، وحكى في طلب المعالي أباه وجَدّه، وجعل سيدنا آخذاً من كلٍّ ما دعي به ويُدعى به في الأعياد، بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد.

وكتب الصابي إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف:

أطال الله بقاء مولاي الأستاذ،وأسعده بفيروزه[1] الوارد عليه، وأعاده ألف عام إليه، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالماً، فائزاً غانماً، مسروراً محبوراً، محروساً موفوراً، مختوماً له ببلوغ الآمال، مطروفاً عليه[2] عين الكمال، محظور الافنية عن[3] النوائب، محمى الشرائع عن الشوائب، مُبلغاً غاية ما تسمو همته العالية المشتطة، وأمانيه المنفسحة المنبسطة بقدرته. والفصل الأخير من هذا يُشير إلى قول ابن المعتز: أصحب الله بقاءك عزاً يبسط يدك لوليك، وعلى عدُوك وكلاءة[4] تذب عن ودائع مِننه عندك، وزاد في نعمك وإن عظمت، وبلغك آمالك وإن بَعدت.

وكتب بعضهم: عش ما شئت كما شئت.

وهو قول[5] أبي نواس:

دارت على فتيةٍ ذلَّ الزمانُ لهم ... فما يُصيبهمُ إلا بما شاؤوا

وكتب بعضهم:

---

(١) النيروز: من أعياد الفرس.

(٢) في الأصل: «عنه».

(٣) في الأصل: «على».

(٤) الكلاءة: الحفظ.

(٥) ديوانه: ٧.

عش أطول الأعمار، مُوقى من سوء الأقدار، مرزوقاً نهاية الآمال، مغبوطاً على كل حال.

وكتب آخرُ:

بلغك الله نهاية من العمر لا نهاية لمستزيد وراءها.

وقريبٌ منه قول البحتري:

عَمرتَ أبا إسحاقَ ما صَلَح العُمرُ ... ولا زال معموراً بأيامِك الدهرُ[1]

وقول الآخر:

فلا زالتِ الأرضُ معمورَةً ... بعُمرك يا خيرَ عُمَّارها

ومما يجري مع ذلك وليس منه، قول[2] أبي تمام:

من يسأل الله أن يُبقى سَراتكمُ ... فإنما رامَ أن يستبقَى الكرما

وقول[3] المتنبي:

أعيذكم من صروف دهركمُ ... فإنهُ بالكرام مُتّهمُ

قلت:

فلا زالت الأقدارُ دونَ محلكم ... سواقطَ والمكروهُ عنكم[4] مقصِّرا

وقال بعضهم:

جعلك الله من كل محبوب على شرف، ومن كل محذور في كنف.

وكتب آخر:

لا زالت الأيام لك مساعدة، والليالي على هواك مُساعفة، تتلقاك بأوفر الحبور، وتطلع عليك بعوائد السرور، وتجري مقاديرها لك بالمحبوب، وتتقاعس عنك بالمحذور المرهوب، ويحكم لك بالرشد والسعادة، ويقضي على أعدائك بالذل والقماءة[5].

وكتب ابن المعتز:

أخرتني العلة عن الوزير، أيّدهُ الله، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويعمرَ ما أخلَّته العوائق مني، أسأل الله أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة، بركة عليه ودون الأعياد المستقبلة، فيما يحب ويجب له، ويتقبل ما نتوسل به إلى مرضاته، ويضاعفُ الاحسان إليه على الاحسان منه، ويُمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يريه في مَسرَّةٍ نقيصةً، ولا يقطع عنه فيها عادة جميلة.

وهذا مأخوذٌ من قول سعيد بن حميد:

---

(١) البيت في ديوان البحتري. ١/٢٠٨. أبو إسحاق: هو إبراهيم بن المدبر.

(٢) ديوانه: ١٦٩.

(٣) ديوانه: ٤/٦٩.

(٤) في النسخ: «منكم».

(٥) القماءة: الذل.

تابع الله لك صالح الأيام، ومحمود الأعوام، حتى يكون كل يوم منها موفياً على ما قبله، مُقصراً عما[1] بعده.

وكتب ابن المعتز:

حفظ الله النعمة عليك وفيك، وولي إصلاحك والاصلاح لك، وأجزل من الخير حَظك، والحظ منك ومنّ عليك وعلينا بك.

وكتب إلى عليل:

مسحك الله بيد العافية، ووجه إليك وافد السلامة، وملاك ما أفادك وهنَّاك ما قسم لك، وأمتع بك وليك، وألان لك طاعة عَدُوّك وجمَّل الدولة ببقائك، وزيّنها بدوام نعمائك.

وكتب الصاحب أبو القاسم:

والله يديم لمولانا ولي النعم التمكين والبسطة، والعلوَّ والقدرة، والعز والنصرة، ولا يسلب القلوب ما أودعها من محبة دولته، ولا يعدم الصدور ما ضمنها من خشية صولته، ليزداد أولياؤه بصيرة في مناصحته، ويضطر أعداؤه إلى استعطافه واستقالته، إنه قدير على ما يشاء وإليه أرغب في زيادة مولانا من فضله، وصلة المناجح بسعيه وعزمه، وتعريفه الميامن في ارتحاله وحله، وتوفيقه لما يحفظ رأي ولي نعمته، ويستديم المقسوم له من محمدته.

وكتب أبو الحسن بن أبي البغل إلى علي بن عيسىٰ:

وهنَّأ الله الوزير ما أتاه، وجعله أيمن أمر من أمور الدين والدنيا بدءاً وفاتحةً، وأسلمه مالاً وعاقبةً، وأطوله أمداً ومدةً، وأدومه انتظاماً واستقامةً، وأوفره كفاية لله وجميل ولايته، وصادق معونته، حظاً وسُهمةً[2] ويسر لديه العسير، وقرب على يده البعيد والشطير[3]، إنه على كل شيء قدير.

وقال أعرابي:

لرجل النعم ثلاثٌ: نعمةٌ في حال كونها، ونعمةٌ ترجى مُستقبلة، ونعمةٌ تأتي غير مُحتسبة، فأدام الله لك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترتجيه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

المديح

قد صدرت الكتاب بذكر المديح على مذهب الشعراء، وأنا أورده هنا صدراً على مذهب الكتاب، ليشتمل به على الكمال إن شاء الله تعالىٰ: ذكر رجل لبعض البلغاء فقال:

هو أحلى من رُخص السعر وأمن السبل وإدراك الأماني وبلوغ الآمال.

وكتب بعض الكتاب:

وجرى لك من ذكر ما خصك الله به، وأفردك بفضيلته، من شرف النفس والقدر، وعلو

---

(١) في الأصل: «على ما بعده».

(٢) السُّهمة: النصيب.

(٣) الشطير: الغريب والبعيد.

المنزلة والذكر، وبعد الهمة ومضاء العزيمة، وكمال الأداة والآلة، والتمهد في السياسة والأيالة، وحياطة الدين والأدب، وإيجاب عظيم الحق بضعيف السبب، وما لا يزال يجري مثله عند كل ذكر يتجدد لك، وحديث يؤثر عنك.

وكتبتُ:

من حل محل سيدنا في شرف المنصب، وطهارة العنصر، وزكاء الأصل، ونماءِ الفرع، وسنيّ الحسب، وسري النسب، مع الشيم الطاهرة، والمكارم المتظاهرة، كثرت الرغبة إليه، وخيمت الآمال بين يديه، وهو حقيقٌ بتصديقها فيه، وتحقيقها[1] عند مؤمليه، لكرمه في نفسه وتميزه من جنسه.

وقال بعضهم لرجل:

رحم الله أباك فإنه كان يقري العين[2] جمالاً والأذن بياناً.

ومما يجري مع ذلك أن بعضَ الملوك رأى رجلاً قبيح المنظر، عييَّ اللسان، فأمر بإسقاطه. وقال:

إن روح الحياة، وهي الإنسانية، إذا كان ظاهراً كان جمالاً، وإذا كان باطناً فمن خلا من الجمال والبيان فليس بإنسان.

وكتب الصاحب:

وليس ببدع أن يجود كلامه، وتعتدل أقسامه، ويتهذب بيانه، ويتسع جنانه، وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها، ومارس الآداب حتى ملكته خطامها، فإن عُد الفقه كان البازل الذي ذلّل الفحولَ مُصاولة، وإن ذكر الكلام، كان الجبل الذي فرع الأطواد مطاولة، وإن تصرف في أيام الناس وأخبارهم، وفحص عن سيرهم وآثارهم، حاضر مُحاضرة الأفراد، وكاثر مُكاثرة الآحاد، وإن جُوري في سوائر الأمثالِ، وفقرِ الأشعار، ترك المجاري لا يدري أي طريق يركب، وأي مذهب يذهب، وأما الخطابةُ فهو جُذيلها المحكك[3]، وعذيقها المرجّب، وقد سُلمت إليه اختياراً من مواليه، واضطراراً من مُعاديه.

وقال رجلٌ لخالد القسري:

إنك لتبذل ما جلّ، وتجبر ما اعتل، وتكثر ما قل.

وكتب إبراهيم بن العباس:

وإن أمير المؤمنين، لو استغنى بنظر ناظرٍ من وُلاته، واجتهاد مجتهد من كفاته، الذين لهم الأثرة عنده، والموضع الأخص عن الاستظهار عليه، بنظره وعنايته واهتمامه، كنت أولى من خفف بمكانه عن نفسه، واقتصر على عنايته وتدبيره، دون إرشاده وتسديده، فالله يُعزهُ ويزيدُ في تأييده.

---

(١) في الأصل: «تحقيقا».

(٢) يقري العين: يكرمها.

(٣) جذيلها المحكّك: أي متمكّن ومتفوق.

فأما الذم والتهجين

فمن بديع الاستعارة فيه قول أعرابي يذم رجلاً:

يقطع نهاره بالمُنى ويتوسد ذراع الهم إذا أمسى.

ودخل أعرابي بغداد فقال: إفإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد، إقبال حظهم إدبار، حظ لكرم شجر، فروعه عند أصوله، شغلهم عن المعروف، رغبتهم في المنكر.

وقال بعضهم لرجل استضاف بخيلاً:

نزلتَ بوادٍ غير ممطور، ورجل غير مسرور، فأقم بندمٍ وارحل بعدمٍ.

وقال أعرابيٌّ:

أولئك قومٌ سلخت أقفاؤهم بالهجاء، ودُبغت جلودهم باللؤم، فلباسُهم في الدنيا الملامة، وزادهم في الآخرة الندامة.

وقال أعرابيٌّ:

لا تُدنس شعرك بعرض فلان، فإنه سمينُ المال، مهزول المعروف، من المرزوقين فجأة، قصير عمر الغنى، طويل حياة الفقر، ومن ههنا أخذ أبو نُواس قوله[1]:

بما أهجوكَ؟ لا أدري! ... لساني فيكَ لا يجري
إذا فكّرت في عرضِك ... أشفقتُ على شعري

واستشارت امرأةٌ امرأةً في رجل تزوجه. فقالت: لا تفعلي فإنه وُكلةٌ تكلة يأكل خلله[2].

وُكلة وتُكلة: بمعنى واحدٍ، وهو الذي يتكلُ في الأمور على غيره، ولا يقومُ فيها بنفسه، والتاء في تكلة واو كما قيل تُراثٌ وهو من ورث. والخلل ما يخرجُ من بين الأسنان عند التخلل، وليس في اللؤم شيء من الكلام أبلغ من هذا.

وقريبٌ منه قولهم فلان يُثيرُ الكلاب عن مرابضها، يريدون أنه من طمعهِ وشرهه يُثيرها يطلبُ تحتها شيئاً قد فضل منها.

ومن ذلك قول الشاعر:

أمن بيتِ الكلابِ طلبتَ عظماً ... لقد حدثتَ نفسك بالمحال

في الشكر

وكتب ابنُ المعتز في الشكر:

قد جلت نعمتك عن شكري، فتولى الله مكافأتك عن عجزي، بعد جُهدي، بما هو أرفع له وأقدر عليه بمنه ورأفته، وهذا من قول طريح بن إسماعيل:

---

(١) ديوانه: ٣٤٢.

(٢) الخلل: ما يبقى بين الأسنان من الفضلات وفي القول كناية عن بخل الرجل ولؤمه.

فقصرت مغلوباً وإني لشاكرُ

وكتب آخر:

إذا كان مجهودي في شكر النعمة، واعترافي بحق العارفة، يُبلغني أقصى نهاية الشاكرين، وأبعد غاية المعترفين، وكانت زيادة معروفك على قدر شكري، كزيادة قيمتك في نفسي، فقد أسقط الله تكلف ما جاوز الطاقة عني.

وكتب بعضهم:

قلبي نجي ذكرك، ولساني خادم شكرك.

ومما يجري مع ذلك ما كتب بعضهم:

أما بعد فإن أثقل الناس حملاً، من تحمل آمال المؤملين، وأولاهم بالمكافأة، من أخدمك عِرضَه فتذلل لك، ونفسَه فتواضع دونك، وقلبَهُ فكان في رجائك وتأميلك، ولسانَه فكان في ذكر محاسنك ونشر مناقبك.

وقريب من هذا المعنى قول[1] ابن الرومي:

إنَّ امرأً رفضَ المكاسبَ واغتدى ... يتعلم الآدابَ حتى أحكما

فكسا وحلّى كلَّ أروع ماجدٍ ... من حُرٍّ ما حاكَ الضميرُ ونظّما[2]

مُتشاغلاً عمها يُمارسُ غيرُه ... حتى لقد أثرى اللئامُ وأعدما[3]

ثقةً برعي الأكرمينَ ذِمامَهُ ... لأحقُّ مُلتمسٍ بأن لا يُحرمَا[4]

وكتبتُ:

وتأملتُ التوقيع في معنى المعيشة، فتصور لي الغنى بصورته، وقابلني بصدق مخيلته، وعرفتُ أن الدهر قد غضت جفونُه، ونامت عيونُه، وتنحت عن ساحتي خُطوبُه، وهذه نعمٌ أعيا بذكرها، فكيف أطمعُ في إداء شكرها، بل عسى أن يكون الاعتراف، بقصور الشكر عنها، شُكراً لها، ومقابلة بما خلص إليّ منها، وأنا معترفٌ بذلك اعتراف الروض، بحقوق الأنواء[5]، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء.

وقال ابن المقفع:

الشكرُ نسيمُ النعمة.

وقال عليّ بن عُبيدة[6]:

---

(١) ديوان: ٦/١٦٨.

(٢) في ديوانه: «من حُرّ».

(٣) أعدم: افتقر.

(٤) في الديوان: «الأكرمين حقوقه».

(٥) الأنواء: جمع النوء: النجم إذا مال إلى الغروب.

(٦) علي بن عبيدة الريحاني كاتب بليغ فصيح، كان يختص بالمأمون العباسي، له كتب في الحكمة. اتهم بالذندقة، مات سنة ٢١٩ هـ. (الأعلام: ٤/٣١٠).

النعمة كالروضة والشكرُ كالزهرة.

وكتب ابن المعتز في معنى آخر:

سألت عن خبري وأنا في عافية لا عيب فيها، إلا فقدك ونعمة لا مزيد فيها إلا بك.

وكتب أبو العباس بن ثوابة:

وأنا أسأل الله إذا منّ بنعمةٍ أن يجعلك المقدم فيها، وإذا امتحن بمحنة أن يجعلني وقاءً لك منها.

وكتب في فصل:

وإذا ضاق على أن أفعل، فليس يضيق عليك أن تتفضل، إذا كان كل واحد منا يجري إلى غاية في البرّ والعقوق.

وكتب أبو علي الضرير:

تجاوز بي في ذكر فضلك، ووصف محاسنك، والاخبار بما وهب الله للامام والأمة فيك، إلى القول بحاجتي قبلك، ليس لأني جهلتُ الحقّ عليّ لك، ولا لأني أدخرتُ الثناء الجميل لغيرك، ولكني رأيتني فيما أتعاطى منه، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، الذي لا يخفى على ناظر، وكالمنبه على الأمر الواضح، الذي يستوي فيه العالم والجاهل، فانصرفتُ عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك ووكلت الاخبار عنك، إلى علم الناس بك.

قد انتهى بنا القولُ في هذا الباب إلى هنا، لعلمنا انا إن أردنا استيعابَهُ لم نقدر عليه لكثرته، ونرجو أن يقع الاكتفاءُ به إن شاء الله تعالىٰ وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله وحده.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي دَلَّ على قدرته، وأبان عن حكمته، باختلاف ما خلق من الصور، وتباين ما أنشأ من الفطر، من ملكٍ وإنسان وبهيمةٍ، وجان وطائر، يمسح صفحات التراب، ويأخذ بإهاب السحاب، وحنش ينطوي على أدراجه، ويستوي مرة في اعوجاجه، إلى غير ذلك من خِلَقٍ مُختلفة، وأجرام متباينة، حقيرُها جليلٌ، وصغيرها كبيرٌ، وجعل منافعها متاعاً للإنسان الذي كرمه تكريماً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

هذا كتاب المبالغة

في صفات الخيل والابل والسير والفلوات

وذكر الوحوش والطيور والحشرات وما يجري مع ذلك وهو:

الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني وهو ستة فصول

الفصل الأول

في صفات الخيل

قد وصفها الناس، في قديم الدهر وحديثه، وصفاً كثيراً، واتّسع فيها قولهم اتساعاً شديداً وأنا أجيء بالبديع الغريبِ من ذلك، وأضرب عن غيره لكثرته واستفاضته، ولا حاجة بالناس إلى أن نورد عليهم ما عرفوه، ووقفوا عليه وتداولوه، إلا ما لا بُدّ من إيراده، لفقد شبيهه وعدم نظيره:

فمن بديع ما جاء عن القدماء في صفة الفرس قول أبي دؤاد:

يحمــل مـنــه بعضُــهُ بعـضَــهُ   فــراكــبٌ مــنــهُ ومــركــوبُ

وقول الأعرابي:

وأحمــرُ كــالــديبــاج أمــا سمــاؤهُ   فَـرَيــا وأمــا أرضــهُ فــمــحُــولُ

سماؤه: أعاليه، وأرضه: أسافله، يعني حوافره.

ومن أجود ما قيل في تأنيف أذن الفرس ما أنشده القتبي:

كأن آذانها أطراف أقلام

وأحسن ما قيل في اصطفاف الخيل قول الأسعر[1]:

يخرجن من خللِ الغبارِ عوابساً كأنامل المقرورِ أقعى فاصطلى[2]

أي كلهنّ يُبادِرُ الغارة فليس يفوت بعضها بعضاً.

أخذه علي بن جبلة فقال رحمه الله:

كأنَّ خيلكَ في أثناءِ غمرتها أرسالُ قطرٍ تهامَى فوق أرسالِ[3]
يخرجنَ من غمراتِ النقع سامية نشر الأناملِ من ذي القرةِ الصالي

والأول أجود.

ومثل ذلك قول الراجز.

مستويات كضلوع الجنب

وفي وصف وقع قوائمها قول مالك بن حريم الهمداني[4]:

وتَهدي بي الخيل المغيرة نَهدة إذا صبرت صابت قوائمها معا

ومن أحسن الاستعارة قوله:

وإن عثرت إحدى يديهِ بثبْرة تجاوبَ أثناء الثلاث بدعدَعا[5]

وكان الأحسن أن لا يصفها بالعثار إلا أن قوله:

تجاوب أثناء الثلاث بدَعدَعا

مستعار حسن، يعفى على إساءته في وصفه إياه بالعثار، ودعدع مثل قولهم «لعاً» وهو دعاء للعاثر بالحياة.

وأهدى بعضهم شِهرياً[6] وكتب:

بعثتُ بشهري حسن المجموع، لين الموضوع، وطيء المرفوع، همه أمامه وسوطه لجامُه.

وقد أحسن ابن المعتز في قوله:

وخيل طواها القَودُ حتى كأنّها أنابيبُ سمرٍ من قنا الخط زبَّل[7]

(١) في الأصل: «الأشعر».
(٢) المقرور: من أصابه البرْد. اصطلى: التمس الدفء.
(٣) تهامى المطر: انهمر.
(٤) هو مالك بن حريم بن مالك الهمداني، شاعر فارس جاهلي.
(٥) الثبرة: الكوم من التراب: دع دع: صوت لزجر الخيل.
(٦) الشهري: ضرب من ا لبراذين.
(٧) في ديوانه: ٣٢١. «القور حتى» «ذبل».

صببنـا عليـهم ظـالـمينَ سيـاطَـنـا   فـطارت بهـا أيـدٍ سِـراعٍ وأرجُـلُ[1]

فذكر أنهم ضربوها من غير أن تمنع شيئاً من مطلوب سيرها فكانوا ظالمينً لها.

وقد أجاد في قوله أيضاً:

أضـيـع شـيء سـوطـه إذ تـركـبـه

وقالوا أحسن بيت قالته العرب قول[2] جرير:

وطـوى الـطرادُ مـع القيـادِ بـطونَهـا   طي التجـارِ بحضـرمـوتَ بُـرُودا

وقد أحسن الأعرابي القول في سرعة الفرس حيث يقول:

غـايـةُ مـجـدٍ رُفعت فمـن لـهـا   نحن حويناها وكنا أهلها

لـو تـرسـلُ الـريح لـجئنـا قـبـلهـا

وقول الآخر:

جـاءَ كمثـلِ البـرقِ جاشَ مـاطـرُه   يسبحُ أولاهُ ويطفو آخره

فـمـا يَـمَسُّ الأرض مـنـهُ حـافـرهُ

وهذا غاية في وصف سرعة العدو إلا أن قوله:

يـسـبـح أولاه ويـطفـو آخـره

رديء لأنه جعله مضطرب المقاديم والمآخير.

وقول عبدة بن الطبيب[3] في الثور:

يخفي التـرابَ بـأظـلافٍ ثمـانيـةٍ   في أربـع مَسُّـهنَّ الأرض تـحليـلُ

يقول ان مواصلة هذا الثور، بين خطواته، كمواصلة الحالف يمينه بالتحلة لا تراخي بينهما، والتحلة قول إن شاء الله.

ومن عجيب القول في سرعة الفرس قول[4] ابن المعتز:

كـأنَّ جنـانَ الفـلاةِ تـضـربـه   كـأنَّ مـا يَهـربُ منـهُ يـطلبـه

وقد أجاد القائل في صفة كلاب:

كـأنـمـا يـرفـعـن مـا لا يُـوضـع

ومن عجيب ما قيل في إدامة الجري قول العرب:

يُباري ظله ويُباري عنانَهُ، ويُباري شباة الرُّمح.

ويستحبُّ في الفرس إشراف مقدمه ومؤخره، فمن أجود مل قيل في ذلك قول علي بن جبلة:

---

(١) في الديوان: «صببنا عليها».

(٢) ديوان جرير: ١٣٤.

(٣) عبدة بن الطبيب: شاعر من عبشمس بن كعب.

(٤) ليس في ديوانه.

تحسبهُ أقعدَ في استقبالهِ حتى إذا استدبرتهُ قلتَ أكبّ

وقد أجاد المتنبي هذا المعنى في قوله[1]:

إن أدبرتْ قُلتَ لا تليلَ لها أو أقبلت قلتَ مالها كفلُ

وقلت:

طِرْف إذا استقبلته قلتَ حبا حتى إذا استدبرتَهُ قلتَ كبا

ذو أربع يلقى الصفا بمثلها وللحصى من خلفها وثب دبا[2]

إذا ترامينَ به في سيرهِ تحسبهُ منها على أنف الصبا

ووصف النبي ﷺ إناث الخيل، بأعجب وصف في قوله:

«ظُهورُها حِرْزٌ وبُطونُها كَنْزٌ».

وقال الأسعرُ الجعفي في معنى قول النبي ﷺ ظهورها حرز:

ولقد علمتُ على توقّيَّ الردَى أن الحصونَ الخيل لا مَدَر القرى

ومن أجود ما وصف به حُضْرُ[3] الفرس، قول الأعرابي في فرسه:

«يحضر ما وجد أرضاً».

وقد بالغ امرؤ القيس في قوله[4]:

على هيكل يعطيك قبلَ سُؤالِه أفانينَ جريٍ غير كزٍّ ولا وان[5]

قوله: «قبل سُؤاله» عجيب الموقع، وقوله: «أفانين جري» أعجب وأبلغ.

وأجودُ ما وُصف به ظفره عند الطلب قوله[6]:

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ[7]

فجعل الأوابد وهي الوحش مقيدة له ينالها كيف يُريد.

وقد أجاد أيضاً وأحسن القول في اليقين بالظفر حيث يقول:

إذا ما ولدنا قالَ ولدانُ أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نحطبُ

وأحسن عمارة التقسيم في قوله في هذا المعنى:

وأرى الوحش في يميني إذا ما كانَ يوماً عِنانُه في شمالي

ونقله الشماخ بن ضرار إلى وصف رام فأحسن حيث يقول:

---

(١) ديوان المتنبي: ٢١٤/٣. والقليل: العنق. الكِفل: الرِّدف.

(٢) الصفا: الحجارة.

(٣) حُضر الفرس: ارتفاعه في العدو.

(٤) ديوانه: ١٧٤.

(٥) كزّ: منقبض. وان: ضعيف.

(٦) ديوان امرىء القيس: ٥١.

(٧) وكنات الطير: مواقعها. المنجرد: الماضي في الير. الأوابد: الوحوش.

قليلُ التلاد غير قوسٍ وأسهم كأنَّ الذي يرمي من الوحش تارز[1]
أي جامدٌ باردٌ يُصيبه كيف يُريد.

وجعله أبو نواس في نعت كلاب فقال:

بأكلبٍ تمرحُ في قداتها تَعُدُّ عيرَ الوحشِ في أقواتها

وهو من قول أبي النجم:

تعد غابات اللوى من مالها

وقوله:

يردى على حوافرٍ لا تخذُلُه صم الشوَى يحملها وتحمله
حافٍ وما يحفى وما تنعَّلهْ ثار عجاج مستطيل قسطله[2]
تنفشٍ منه الخيل ما لا تعزله في جنبه الطائر ديث عجله
كأنَّ تُربَ القاع وهو يسحله ضيقُ شياطين زفتهُ شمأله
أو خَلقٌ ينشقُّ عنه سمله ترى الغلامَ ساجياً لا يركله
يعطيهِ ما شاء وليس يسأله فوافت الخيل ونحن نشكله

ويستحب في الخيل سعة المنخرين. فمن أبلغ ما قيل في ذلك.

قول مزاحم بن طفيل العقيلي:

من منخرٍ كوجار الثعلب الخرب فجعله خرباً ليكون أوسع

وقال العباس بن مرداس:

مِلء الحزامين وملء العين ينفشُ عندَ الربو منخرين
كنفش كيرين بكفي قين

ومن أبلغ ما قيل في طول عُنق الفرس:

قول مُزاحم العُقيلي[3] أيضاً:

كأن هاديه جذعُ على شرفِ

فلم يرض أن جعلها جذعا، حتى جعلها على شرف كصنيع الخنساء في قولها[4]:

كأنه علمٌ في رأسه نار

وقلت:

بمعقودِ السراة على اندماج ومزرورِ القميصِ على انشمارِ
يُريكَ جبينهُ لمعانَ بَرْقٍ وسائرُ جسمهِ لمعانَ قار

(١) التارز: الحشيش اليابس. والميت.

(٢) العجاج: الغبار.

(٣) هو مزاحم بن الحارث، أو ابن عمرو بن مرّة من بني عقيل. شاعر غزل بدوي مات سنة ١٢٠ هـ.

(٤) ديوانها: ٤٩.

فيشبـه تحتَ جُنـح الـليـلِ ليـلاً ... ويحكي الخـالَ في خـدِّ النهـارِ[1]
ويـقبـلُ حـينَ يُقبـلُ في سـمـوّ ... ويُـدبِـرُ حينَ يُـدْبـرُ في انحـدار
ويُمسـك وهـو كـالفـدن المعلى ... ويحضـرُ وهـو كـالمسـد المغـار
يـلوحُ الـبـدرُ منـهُ في جـبـيـنٍ ... وتـتـضـحُ الـثـريـا فـي عـذارِ

وقد أبدع القائل في وصف فرس أبلق أغر فقال:

وكـأنمـا لـطمَ الصبـاحُ جبينـهُ ... فـاقتصَّ منهُ فخاضَ في أحشائـهِ

إلا أنه أساء في العبارة، وذلك أن اللطم لا يكونُ إلا على الخد، وضرب الجبين لا يسمى لطماً، والقصاص يكون بمثل الفعل، فالقصاص باللطم اللطم، لا الخوض في الأحشاء.

وقال ابن دريد وأحسن في وصف الغرة والتحجيل:

كـأنـمـا الجـوْزَاءُ فـي أرْسـاغِـهِ ... والـنـجـمُ في جـبـهـتـهِ إذا بـدا

ونحوه قول كشاجم:

قـد راحَ تحت الصبح ليـلٌ مُظلم ... لـو راحَ فـي الـسـرج الأدهـم[2]
ضحـك اللجينُ على سوادِ أديمـه ... وكـذا الـظلام تنيـر فيـه الأنجمُ
فـكـأنـهُ ببـنـاتِ نـعش مُـلبَّبٌ ... وكـأنمـا هـو بـالثـريـا مُلجَمُ[3]

وقلت:

عـارضتُ فيـهِ النجمَ فـوقَ مُطهم ... يـهـوى لـطيئـه هُـويَّ الأعـقـبِ
ذاوي العسيبِ قصيرهُ ضافي السبيـــبِ طويلهُ صافي الأديم محبب[4]
كـالنـورِ بينَ العشبِ يبهـرُ حسنـهُ ... بين الـجيـادِ إذا بـدا في مـوكب
وتـطيـرُ أربـعـهُ بـهِ في أبـطح ... فكـأنـه من طـولهـا في مـرقبِ
صمّ الحـوافـرِ شـرب صمّ الصفا ... منهـا الأهلةُ في الـصفـا والـصلبِ
وكـأنَّ غـرتـهُ تـفضضُ وجـهـه ... والنقـعُ يـذهبـهُ وإن لم يُـذْهب[5]
وكـأنَّ فـي أكـفـالـهِ وتَـليـلهِ ... غسقَ النجومِ فتستطيـلُ وتـرتبي
وكـأنمـا الأرسـاغُ مـاءُ لم يسـل ... والجسمُ كـأسُ مُدامـةِ لم يقـطبِ
لـم يُـطب إلا يـفـوتُ ويُـطلب ... إلا يـفـوزُ فلم يـخب في مـطلبِ
والعـاصفـاتُ حسيـرةٌ والـبـارقـا ... تُ أسيـرةٌ في شـدةِ الـمـتـلهـب

---

(١) الخال: ما كان على الخد كالنقطعة السوداء.
(٢) الأدهم: الأسود.
(٣) بنات نعش: مجموعة نجوم كالثريا اللبب المنحر. ملبّب: متقلد.
(٤) ذاوي: ذابل العسيب: جريد النخل السبيب: الخصلة من الشعر.
(٥) تفضض: تجعل عليه فضّه.

وكـأنـمـا يحـوي مـدارُ حـزامـهِ أحنـاءَ بيـتٍ بـالـعـراءِ مـطنـبِ

وأول من شبه الحافر بالحجارة الأفوه في قوله:

يـرمـي الـجـلامـيـد بـأمـثـالـهـا

ثم قال رُؤبة:

يـرمـي الجلامـيـد بـجـلمـودِ مـدق

وأبلغ ما وصف به شدةُ قوائم الفرس ما أنشدناه أبو أحمد، عن ابن دريد، عن الاشناندانى عن الجرمي:

سِيـانَ تـحـت طـمـوه وطـمـورهِ أكمُ الفـلا ومقـايـلُ الـولـدانِ[1]

يـطأ الخَبَـار فـلا يـطيـرُ غبـارهُ ويـرضُّ حـافـرهُ حصى الحـزّان[2]

يقول: سواء عنده إذا طما في سيره، أي ارتفع، وإذا طمر أي وثب، الأكم: وهي المرتفعات من الأرض، فيها حجارة وطين، والمقايل: وهي ملاعب الصبيان، إذا لعبوا بالتراب، فمدُّوا منه طريقين، بينهما كالجدول، ثم خبأوا خبيئاً فمن أخرجه فقد غلب. والخبار: الأرض السهلة، إذا مشى فيه خففف وطأه، فلم يثر غباراً، وإذا جرى في الحزان وهي الغليظ من الأرض، مكن حافرهُ فرض الحصى.

ونحو قول جرير:

ضـزم الـرقـاق مـنـاقـل الأجـرال

يقول: إذا صار في الرِّقاق من الأرض، اضطرم من جريه، وإذا صار في الأجرال، وهي مواضع الحجارة، ناقل فيها لتطمئن مواقع حوافره.

وقول الآخر:

شادخة تشدخُ من أدلاها

يقول تبعد عن الطريق ولا تبالي سهلاً أخذت أم حزناً.

ومن الفرد الذي لا شبيه له قول[3] ابن المعتز:

ولقـد غـدوتُ على طمـرٍّ قـادحٍ رفعت قـوائمهُ غمـامة قسطلِ[4]

ومُحجَّـلٍ غـر اليمين، كـأنـهُ مُتبختـرٌ يمشي بِكُمٍّ مُسبَـلِ[5]

وقد أحسن القائل في قوله:

مـدى خـطوهِ أقصى مـواقـعِ طرفـهِ وأوَّلُـهُ فـي منعـه الـخـطو آخـرُه

---

(١) طما الماء: علا أكم الفلا: مرتفعات الصحراء.

(٢) الخبار: ما انبسط من الأرض. الحزّان: الأرض ذات الحجارة.

(٣) ديوانه: ٣٤٣.

(٤) غمامة قسطل: غبار الحرب.

(٥) محجّل: فيه سواد وبياض.

وقد قطعت من لونها الشمسُ غُرَّةً لهُ وحجولاً ثم كالظلِّ سائرُه

وقال ابن المعتز[1]:

تمّت لهُ غُرَّةٌ كالشمسِ مُشرِقةٌ يكادُ سائلُها عن وجههِ يكفُ
إذا تقرَّطَ يوماً بالعذارِ وغدا كأنه غادةٌ في أذنها شَنَف

وقلت:

إذا تحلّى بالعذارِ ومشى قلتَ: فتاةٌ تتصدّى لفتى
كأنه تحت الحليِّ رَوضَةٌ دَرَّ عليها الزَّهرُ أخلافَ الحيا

وأبلغ ما قيل في طول الفرسِ في الهواء قول أبي دؤاد:

إذا ما جرى شأوينِ وابتلَّ عطفهُ أناخ بهاد مثل جذع سَحُوقِ[2]
كأني إذا عاليتُ حوزةَ متنهِ تعلق بزي عندَ بيضِ أنوق

وبيض الأنوق في أعلى موضع من الجبل، فلا ترى أشد مبالغة من هذا البيت.

وقلت:

مُضطرمُ الغدوِّ والرَّواحِ تخاله يمشي على أرماحِ

وأخبرنا أبو القاسم، عن العُقدي عن أبي جعفر، عن المدائني قال: أهدى رجل من الدهاقين[3] إلى خالد بن عبد الله القسري برذوناً وقعد بين يديه فقال ما هذا؟ فقال: أصلحك الله إن تركته نعس وإن حركته طار. فقال[4]: صفتهُ خيرٌ منه. وقال ابن المعتز:

أسرع من لحظته، إذا عدا أطوعُ من عِنانهِ، إذا جُذِب[5]

ويشبِّهُ الفرس في عدوه بالنار فأجمعُ ما جاء فيه قول ابن المعتز:

ربما أغدو وتحتي طِرفٌ لاحقٌ بالمهاديات طِمْر[6]
طُويَ الشحمُ على متنتيه مثل ما يطوي القباطي تجر[7]
فهو نارٌ والترابُ دُخانٌ مستطيرٌ وحصى الأرض جمرُ

وقال:

وكم غدوت بفتيانٍ تسيل بهم سوابقٌ أحكمتهنَّ المضاميرُ
مكنفاتٍ بآذانٍ نواصيها كما يشقُّ عن الطلع الكوافير[8]

---

(١) ليس في ديوانه.
(٢) الشأو: السبق. جذع سَحوق: جذع غلة طويلة.
(٣) الدهاقين: جمع الدهقان وهو الإقطاعي في بلاد فارس.
(٤) ديوانه: ٤٢.
(٥) العِنان: الحبل.
(٦) طِرف: حصان كريم. وفي نسخة: «لاحق بالمعاديات». الطِّمر: الجواد.
(٧) القباطي: نسبة إلى القُبط: الثياب.
(٨) الكوافير: جمع الكافور: نبت طيِّب.

تنزو كراتهمُ في كل مُعترك كما يطيرُ من الذعرِ العصافيرُ

وقوله: «تسيل بهم سوابق» من أجود ما وصف به الجري السهل. ويُستحب في الفرس الشدق، وهو سعة الشدقين فمن المذكور في ذلك قول بعض العرب:

وان يُلق كلبٌ بين لحييه يذهب

ومن مليح ما قيل فيه قول[1] ابن المعتز:

ناظر في غرة شمها واسترطا[2]
وإذا سار رمى يدَه والتقطا
وكأن ملجمه يفتحان سفطا[3]

وقال:

وغدونا بأعنة خيلِ تأخذُ الأرض بأيدي عجالِ
زينتها غررٌ ضاحكاتٌ كبدورٍ في وجوهِ الليالي

ومن غريب التشبيه، تشبيههم قوائم الفرس المحجلة عند السير، بجراء كلاب بيض.

قال الراجز:

كأن اجراء كلابٍ بيض دون صافيه إلى التعريضِ

وقال العُماني الراجز[4]:

كأن تحت البطنِ منه أكلُبا بيضاً صغاراً ينتهشْنَ المنقبا[5]

وتبعه الحماني فقال:

وليلٍ مثل خافيةِ الغُرابِ عييُّ مذاهبٍ وخفي بابِ
دَلفتُ لهُ بأسود مستمر كما نظرَ الغِضابُ إلى الغضاب
أجشُّ كأنما قابلتُ منهُ تبعُّقَ لُجّةٍ وحريقَ غابِ
تراهُ كأنّ عينكَ لا تراهُ إذا وَصَلَ الوِثاب إلى الوِثاب
كأن لدَى مغابنهِ التماعاً تهارش عنده بُقعُ الكلابِ[6]

وليس نظم هذا البيت بمختار، وذكر قوائمه ثم قال:

يخالس بينها رفعاً ووضعاً كما خفقت بنانُك بالحسابِ

---

(١) ديوانه: ٢٦٤.

(٢) استرط: ابتلع.

(٣) السّفط: وعاء.

(٤) العُماني: هو محمد بن ذؤيب الفُقيمي. ليس من أهل عمان، إنّما قيل له عُماني لأنه كان مصفرّ الوجه كأهل عُمان. والبيت مع الترجمة في: (الشعر والشعراء: ٢/٦٤١).

(٥) المنقب: قدّام السّرة من البطن.

(٦) المغابن: جمع المغبِن وهو الإبط.

ومن أحسنِ ما قيل في الحصى الذي يترامي بسنك الفرس إذا جرى قول[1] امرىء القيس:

كـأنّ الحصى من خلفِها وأمـامِهـا إذا نجلته رجلهـا حَـذفُ أعسـرا[2]

وجعله أعسر لذهابه على غير استواء، أخذه ابن المعتز فقال وغير لفظه وأتى بمعناه:

يقـذفُ بـالـرجـل حصى الـطريقِ كـأنـهُ رامٍ بـلا تـحـقـيـقِ

وقال[3]:

ينفي خفاف الحصى والنقعُ منتشرٌ كـأنهـا خلفَ رجليـه الـزنـابيـر

وقد أجاد الكميت[4] في قوله:

كـأن حصى المعـزاءِ بينَ فـروجِهـا نوى الرضخِ يلقى المصعد المتصوّب

فجعلها لكثرتها تتلاقى في الهواء، وزاد في ذلك على الممزق ومنه أخذه وهو قوله:

كـأن حصى المعـزاءِ بينَ فـروجهـا نـوادي نـوىً رضـاخـة لم تـدقـقِ

وقد أجاد الراجز في قوله:

يـرضـخ مـا يـرضـخ مـا لا يـرضـخ[5]

يقول، إذا وطأ الحصى، نبت من تحت سنبكه، فأصاب ما لم يطأه فدفعه من موضعه، وكأن رضخه أي رمحه والرضخ الرمح. ويشبّه الحافر بالقعب، فمن قديم الشعر في ذلك قول امرىء القيس:

لـهـا حـافـر مـثـل قـعـب الـولـيـد

أخذه ابن المعتز فقال:

قـد اغـتـدي بـقـادحٍ مُـسـوَّم يَـعـبـوبِ[6]
يـنفـي الـحـصى بـحـافـرٍ كـالـقَـدَح الـمـكـبـوبِ
قـد ضـحكـت غـرتُـه، عن مـوضـع التقـطيبِ[7]

وقد أحسن أبو تمام في قوله[8]:

بـحـوافـرٍ حُـفـرٍ وصُـلبٍ صلِبٍ وأشـاعـرٍ شـعـرٍ وحـلق أحلقِ[9]

---

(1) ديوانه: ٩٤.
(2) النّجْل: الرمي والطعن.
(3) البيتان ليسا في ديوانه.
(4) الكميت بن زيد الأسدي الكوفي، مقدّم شعراء وقته، كان معلماً للصبيان رافضياً مات سنة ١٢٦ هـ. (الأعلام: ٢/٤٨٥).
(5) في الأصل: «يصرخ».
(6) الأبيات في الديوان: ٧٦. واليعبوب: الفرس الطويل السريع.
(7) في الديوان: «وضحكت غرته، في موضع».
(8) ديوانه: ١٨٧.
(9) حُفر: جمع أحفر: مستدير. أشاعر شعر: كثرة الشعر حول الحافر.

فجعل البيت كله تجنيسا ولعله ما سبق إلى ذلك. وقد عاب الآمدي قولـه: «وصلب صلّب»، وقوله «وحوافرِ حفرِ»، وقال: إن الحوافر لا تحفر الأرض، وأكثر ما ذكر في ذلك، أنها تثير الغبار قال: وهو استقصاء المعنى، قلنا: وبعضهم يستحسن ذلك وبعضهم يكرهه.

ومن المذكور في صفة الفرس، قول[1] البحتري، وهو أوصف المحدثين للخيل، وأكثرهم إجادة في نعتها:

أمـا الجـوادُ فقـد بلونـا يـومَـهُ ... وكفى بيـوم مُخبـراً عن عـامِـهِ
جـارى الجيـادَ فـطارَ عن أوهـامِهـا ... سبقـاً وكـاد يـطيـرُ عن أوهـامـهِ
جـذلانُ تـلطمُـهُ جـوانبُ غُـرّةٍ ... جـاءت مجيءَ البدرِ حين تمـامِهِ
واسـودَّ ثم صَفَتْ لعينَيْ نـاظـرٍ ... جنبـاتُه فـأضاء في إظـلامـهِ[2]
مـالت نـواحي عُـرفـه فكـأنهـا ... عـذباتُ اثْـلٍ مالَ تحت حمامه[3]
ومقـدّم الأذنيـن تـحـسِبُ أنّـه ... بهمـا يـرى الشَّخصَ الـذي لأمـامِه
وكـأن فـارسَـه، وراء قَـذَالـهِ ... رِدفٌ فلستَ تـراه مـن قُـدَّامـهِ[4]
لانَتْ معـاطفُـه، فخُيّـلَ أنّـه ... لـلخيـزُرانِ مُنـاسِبٌ بعـظامـهِ
وكـأنّ صهلَتَـهُ إذا استَعْلي، بهـا ... رَعْدٌ يقعقـعُ في ازدحـام غَمـامه[5]
مثـلَ الغـرابِ بـدا يبـاري صحبَـه ... بسـوادِ صِبغتـهِ وحُسنِ قَـوامـهِ[6]
والـطِّرفُ أجلبُ زائـرٍ لـمـؤونَـةٍ ... مـا لم يـزره بسـرجِـهِ ولجـامـهِ

وقوله أيضاً[7]:

وأغـرَّ في الـزمن البهيم مُحجَّـلٍ ... قـد رُحتُ منهُ على أغـرّ مُحجَّـلِ
كـالـهيكـلِ المبنـيِّ إلا أنّـهُ ... في الحُسْنِ جاءَ كصُورةٍ في هِيْكَـلِ
ذَنبٌ كما سحبَ الرداء يَـذُبُّ عن ... عُـرفٍ وعُـرفٌ كـالقنـاع المسبـلِ[8]
جـذلانُ يـنفضُ عُـذرةً في غُـرّةٍ ... يقِقٍ تسيلُ حُجـولُهـا في جَنْـدَلِ[9]
تـتـوهمُ الجـوزاءُ في أرسـاغـهِ ... والبـدرُ غُـرّةُ وجهـهِ المتهلّلِ[10]

---

(١) ديوان البحتري: ٢/٣٢ عـ.

(٢) في الأصل: «ثم صفا». في الأصل: «جلبابه فأضاء».

(٣) في الديوان: «مالت جوانب وكأنّها»، العذبات: جمع العذبة: الذؤابة. والأثْل: ضرب من الشجر.

(٤) القَذال: مؤخر الرأس.

(٥) في الديوان: «رعدٌ تقعقع».

(٦) في الديوان: «بدا يباري صحبَه».

(٧) ديوان البحتري: ٢/٣١٦.

(٨) البيت ليس في ديوانه.

(٩) جذلان: مسرور. الحُجُول: البياض. الجندل: الصخر: يقق: ابيض.

(١٠) روايته في الديوان: =

وتــراهُ يســطعُ في الغُبــارِ لـهيبُـهُ ... لــونــاً وشـدّاً كـالحـريقِ المُشْعَـلِ
هــزجَ الصهيـلَ كـأنَّ في نَغَمـاتِـهِ ... نَبَـراتُ مَعْبَدَ في الثقيـلِ الأوّل(1)
مَلَكَ العُيــون فـإنْ بـدا أعـطيْنَـهُ ... نـظرَ المحبِّ إلى الحبيبِ المُقبـلِ

وقد أحسن ابن طباطبا في قوله:

عجبـاً لشمسٍ أشرقتْ في وجهـه ... لم تمح منهُ دجى الظلامِ المطبقِ
وإذا تـمـطر فـي الـرهـانِ رايتـهُ ... يجـري أمامَ الـريح مثـلَ مطرّق

وقال(2) ابن المعتز:

تــحــمـلـنـي طِـرْفَـةٌ ... صـادِرَةٌ واردهْ
تــرضيـك في يـومـهـا ... وهـي غـداً زائـده
ورجـلـهـا تـقـتـضـي ... ويـدهـا جـاحـده

وبإسناد لنا أن رجلاً أنشد أبا البيداء قول أبي نخيلة(3):

لـمـا رأيتُ الـدَّيْنَ دينـاً يُـؤفَـك ... وأمسـت الـقـبَّـةُ لا تـسـتـمـسـكْ
تُـفتقُ مـن أعـراضِهـا وتـهـتـك ... سرتُ من الباب فسارت دكـدك(7)
منهـا الـدَّجـوجيُّ ومنهـا الأرمـك ... كـالـلـيـلِ إلا أنـهـا تـحـركُ(5)

فقال: لعنك الله، إن كنت أنشدتنيها، وأنت على غير وضوء، قوله:

كـالـلـيـل إلا إنـهـا تـحـرّك

استثناء عجيبٌ.

وقال(6) ابن المعتز:

إذا مـا بـدا أبصـرتَ غُـرّةَ وجهـهِ ... كعنقـودِ كـرمٍ بينَ غُصنيـنِ نـوّرا
وردفـاً كـظهـرِ الترس أسبلَ خلفَـهُ ... عسيبـاً كعِيص الطُّودِ لمـا تحدّرا(7)

ومما يجري مع ذلك قول بعضهم:

= يـتـوهـمُ الـجـوزاءَ فـي أرسـاغِـه ... والـبـدرَ فـوقَ جبـيـنـه الـمـتـهـلِّل

الأرساغ: جمع رُسغ: مفصل بين الساق والقدم.

(1) معبَد: احد المغنين في العصر الأموي.

(2) ليست في ديوانه.

(3) أبو نخيلة بن حزن بن زائدة من بني حِمّان. كنيته أبو الجنيد: شاعر. راجز، مدح العباسيين وهجا الأمويين. قتل سنة ١٤٥ هـ.

(٤) دكدك: ارض فيها غلظة أو ما استوى من الرمل.

(5) دَجوجي: مظلم. الرامك: شيء اسود.

(6) ديوانه: ١٧٨.

(7) في الديوان: «عسيبٌ كفيض الطود» العسيب: عظم الذنب. العِيص: الشجر الكثيف الملتف: الطُّود: الجبل.

قــد أشهــدُ الليــل بفتيــانٍ غُــرر   على جيــاد كتمــاثيــل الصــورْ[1]
كــأنمــا خيــطوا علــيهــا بــالإبــرْ   أو سمّــر الفــارسُ فيهــا فــانسمــر

وبإسنادٍ لنا أن محمد بن عبد الله بن طاهر، أرق ذات ليلة فقال لكاتبه: أنائمٌ أنت؟ قال: لا وأيّد الله الأمير، قال: ما أطيب الطعام؟ قال: طعام شهوة في إبّان جوعة، قال: فما ألذّ الشراب؟ قال شربة ماء بارد تطفىء بها غليلك، أو كأسٌ تعاطي بها نديمك، قال: فما أشهى النساء؟ قال التي تدخلُ إليها والهاً وتخرج عنها هارباً، قال: فما أجود الخيل؟ قال: الأسوَق الأعنق[2]، الذي إذا طلب لحق وإذا طلب سبق وإذا صهل أطربك، وإذا بدا أعجبك. قال: صدقت لله درك، اعطه يا غلام ألف دينار، قال أصلح الله الأمير واين تقع مني ألفا دينار؟ قال أو زدت نفسك ألفاً قال أو ليس كذا؟ قال لا ولكن حقق ظنه يا غلام. فأعطاه ألفي دينار.

وقيل لأعرابي: أتعرف الجواد المبرز، من البطيء المقرف، قال: نعم، أما الجواد المبرز، فهو الذي لهز لهز[3] العير، وأنف تأنيف السير، إذا عدا اسلهبّ، وإذا انتصب اتلأبّ[4]، والبطيء المقرف، هو المدلوك الحجبة، القحم الأرنبة[5] الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا قلت: أمسكه، قال: أرسلني، وإذا قلت: أرسله قال: أمسكني.

وقال المهدي لمطر بن درّاج: أي الخيل أفضلُ؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت: نافر، وإذا استدبرتَه قلتَ: زاجر، وإذا استعرضتهُ قلت: زافر، قال: فأي البراذين خيرٌ؟ قال: ما طرفهُ أمامه، وسوطه عنانه، قال: فأي البراذين شرٌّ؟ قال: الغليظ الرقبة، الكثيرُ الجلبة، إذا أرسلته قال: أمسكني وإذا أمسكته قال: أرسلني.

ووصف رجلٌ من العرب خيلاً فقال:

إنها لخليقة للجودة، وآية ذلك إنها سامية العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، افتاء الأسنان ضخام الركبات، مشرفات الحجبات، رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وقعها تحليل، ورفعها تعليل، وإن طلبت فاتت، وإن طلبت نالت.

واستوصف الحجاج[6] ابن القرية فرساً، فقال: طويل الثلاث، قصير الثلاث، حديد الثلاث، رحيب الثلاث، صليب[7] الثلاث، عريض الثلاث، منيف الثلاث، أسود الثلاث.

---

(١) في نسخة: «قد اسُهد اللهو».

(٢) الأسوَق: طويل الساقين. الأعنق: طويل العنق.

(٣) الملهوز: المضبرّ الخلق.

(٤) التأنيف: طلب الكلأ. اسلهب: استقام. واتلأبّ: استقام.

(٥) المُقرف: الفرس الذي يداني الهُجنة الحجبتان: العظمان المشرَفان على الخاصرة. القحم الأرنبة: عظيم الأنف.

(٦) الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراق لبني امية.

(٧) صليب: صلب.

فاستفسره، فقال: طويل العنق والسبيب والساق، قصير الظهر والعسيب والشعر، حديد القلب والسمع والمنكب، رحيب المنخرين والشدقين والجوف، صليب الدخيس[1] والكاهل والعجب، عريض اللباب والحجبة[2] والخد، مُنيف الجوانح والقذال والقوائم، أسود الذكر والحافر والعين.

وقال محمد بن مُناذر في وصف فرس:

وإذا أعْـرَضَ .قـطريـهِ لـنـا وفـيـا واسـتـوفـيـا قَـدّاً بقَـدّ

فـهـو كـالـقـدْح أقـامـت درأهُ كـفُّ بـاريـهِ فـمـا فـيـه أَوَدْ

ووصف النظام فرساً فقال:

هو صافي القميص، جيد الفصوص، ووثيق القصب، نقي العصب، يبوع بيديه ويندس برجليه، ويشير بأذنيه، ويبعد مدى بصر عينيه، يلحق الأرانب في الصعداء، ويجاوزُ الظباء في الاستواء، إن حركته طار، وإن زجرته حار، وإن طرحتَ عِنانَهُ سار كموج في لجة، أو سيل في فجوة، وإن وجد علفاً أمعن وإن فقده ضغن.

وأنفذ جعفر بن يحيىٰ إلى أبيه برذوناً وكتب له: قد بعثت إليك ببرذون لين المرفوع، وطيء الموضوع، حسن المجموع طويل العذار، أمين العثار.

ومما يجري مع ذلك ما أخبرني به أبو أحمد، عن أبيه قال: حدثني أحمد ابن طاهر أنه كتب إلى الحسن بن علي بن يحيى يستهديه لجاماً لحماره:

جُعلتُ فِـداك قـد أمسى حمـاري لـهُ سَـرْجٌ ولـيس لـهُ لـجـامُ

كمِثـلِ العـاطـل الحسناءِ أمستْ لـهـا حَـليٌ ولـيسَ لـهـا نـظام

ثم قال:

وأنـت لـكـل نـاقـصـة تـمـام

---

(١) الدخيس: اللحم المكتنز.

(٢) اللباب: الصدر. الحجبة: حرف الورك.

الفصل الثاني من الباب العاشر

في ذكر الابل وسيرها وما يجري مع ذلك من وصف أحوالها

أطرف ما قيل في صفة الإبل قول القطامي:

يمشينَ رَهواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ ... ولا الصدورُ على الأعجاز تتكلُ

فهنَّ معترضاتٌ والحصى رَمِضٌ ... والريحُ ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ

قالت العلماء: لو كان البيت الأول في صفة النساء لكان أحسن وذلك لما رأوا من تمام حسنه وظريف لفظه. والبيت الآخر هو من أبلغ ما قيل في صفة هاجرة.

ومن مليحِ ما قيل في ضمر الناقة قول ابن الخطيم:

وقد ضَمرتْ حتى كأنَّ وضينها ... وشاحُ عروس جالَ منها على خصرِ[1]

ويُشبهُ الزمام بالحية فمن أول ما قيل في ذلك قول الشاعر:

يعالج مثنى حضرمي كأنّه ... حباب نقا يتلوه مرتجلٌ يرمي[2]

وقال ذو الرمة:

رجيعة أسفار كأنَّ زمامها ... شجاع على يسرى الذراعين مطرق[3]

وأخذه المتنبي فقال:

كأنَّ على الأعناق منها الأفاعِيا

ومن أجود ما قيل في ضمر الابل قول[4] الفرزدق:

إذا ما أنيختْ قابلتْ عن ظهورها ... حراجيج أمثال الأهلة شُسَّف[5]

شبهها بالأهلة لضمرها واحديدابها.

(١) الوضين: بطان عريض منسوج. كالحزام.

(٢) النقا: الرمل.

(٣) الشجاع: الحية.

(٤) ديوانه: ٢٨٦.

(٥) حراجيج: جمع حرجوج: الناقة السمينة. الشُسْف: قرص يابس من خبز.

وتُشَبهُ بالقسِيّ، فمن أجود ما قيل في ذلك وأجمعه قول أبي عبادة البحتري:

وخـدان الـقـلاص حـولاً إذاقـا ... بلنَ حُـولاً من أنـجم الأسـحـارِ(١)
يتـرقـرقنَ كـالسّراب وقـد خضنَ ... غـمـاراً من الســرابِ الجـاري(٢)
كـالقسيّ المُعطفـاتِ بـل الأسهم ... مَـبـريَّـةً بـل الاوتـاد

وقال ابن دُريد:

ألـيّـةً بـالـيـعْـمَـلاتِ يـرتـمـي ... بهـا النجـاءُ بينَ أجـوازِ الفـلا(٣)
خـوص كـأشبـاحِ الحنـايـا ضُمَّـر ... يَـرْعُفنَ بالأمشـاج من جذب البـري
يرسُبن في بحر الدُّجى وفي الضحى ... يـطفـون فـي الآلِ إذا الآل طفـا

ومن غريب ما قيل في عين الناقة قول ذي الرمه:

كـأنمـا عينهـا منهـا وقـد ضمـرتْ ... وضمها السير في بعضِ الأضى ميمُ

فشبهها بالميم لاستدارتـها وغورها، والأضى: الواحدة أضاة وهي الغَدير، وقد قصر بذي الرمة علمه بالكتابة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن العلاء بن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي قال:

قرأ حماد الراوية على ذي الرمة شعره، فرآه ترك في الخط لاماً، فقال له ذو الرمة: أكتب لاماً فقال حماد: وإنك لتكتب، قال: لا أكتم عليك فإنه كان يأتي باديتنا خطاط فعلمنا الحروف تخطيطاً في الرمل في الليالي المقمرة فاستحسنتها فثبتت في قلبي ولم تخطها يدي. ودخل أبو تمام على المأمون في زيّ أعرابي فأنشده(٥):

دمِـنٌ ألـمَّ بِـهـا فـقـالَ سـلامُ ... كـم حـلَّ عُقـدةَ صبـرهِ الالمـامُ

فجعل المأمونُ يتعجبُ من غريب ما يأتي به من المعاني ويقول ليس هذا من معاني الأعراب. فلما انتهى إلى قوله:

هُنَّ الحَمـامُ فـإن كسـرتَ عِيافـةً ... من حـائـهـنَّ فـإنـهـنَّ حِمـامُ(٦)

فقال المأمونُ: الله أكبرُ كنتَ يا هذا قد خلطت عليّ الأمر مُنذ اليوم، وكنتُ حسبتك بدويا، ثم تأملتُ معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم فقصر به ذلك عنده.

---

(١) القلاص: النوق. وفي الأصل: «وحذاق القلاص».
(٢) «يترقرقن بالسراب» كذا في الأصل.
(٣) اليعملات: النوق النجيبة.
(٤) امشاج: ما اجتمع في السرّة. وفي الأصل: «والضحى، بالآل».
(٥) ديوان أبي تمّام: ٢٤٦.
(٦) العيافة: زجر الطير.

وقال[1] أبو نواس في وصف الناقة:

ولقد نجوبُ في الفلاةَ إذا ... صامَ النهارُ وقالت العُفُر[2]
شدَنيّةٌ رعَتِ الحمى فأتت ... ملءَ الجبالِ كأنّها قصْرُ[3]

أخذه من قول[4] عنترة:

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها ... فدَنٌ لأقضي حاجةَ المُتلوّمِ

إلا أن بيت أبي نواس أحسن رصفاً.

وذكر ذنب الناقة فقال:

أما إذا رفعته شامذةً ... فتقول: رِنّق فوقها نَسْرُ[5]
أما إذا وضعتْهُ عارضةً ... فتقولُ: أُسبلَ خلفَها سِترُ[6]

أخذه من قول أبي دواد:

قوادمِ من نسور مضرحيات

وليس بيت أبي دواد شيئاً مع بيت أبي نواس.

ثم قال: [7]

وتسفُّ أحياناً فتحسبها ... مترسماً يقتادُهُ أثرُ
فإذا قصرتَ لها الزمامَ سما ... فوقَ المقادمِ ملطَمٌ حُرُّ[8]
وكأنها مُصغٍ لتُسمِعهُ ... بعضَ الحديثِ بأذنهِ وقرُ

ومن أجود ما قيل في تقدم الناقة في السير قول القطامي:

ألمعن يقصرن من بخت مخيسة ... ومن عرابٍ بعيداتٍ من الحادي

أي يسبقن الحادي فيبعدن عنه.

ثم قال[9] أبو نواس وأحسن:

تَذَرُ المطيَّ وراءَها، فكأنها ... صَفٌّ تقدَمهنَّ وهي إمامُ

وأحسن ابن المعتز في قوله[10]:

---

(١) ديوان أبي نواس: ٣٢٥.
(٢) العُفر: الظباء.
(٣) شدنيةٌ: نسبة إلى شَدن وهو موضع باليمن تُنسَب إليه الإبل. وفي نهاية الأرب: «مثل الجبال».
(٤) ديوان عنترة: ١٢.
(٥) البيتان في ديوان أبي نواس: ٣٢٦. والشامذة: الناقة التي تشيل ذنبها نشاطاً رَنق: خفق بجناحيه.
(٦) في الديوان: «أرضيَ فوقها ستر». وفي البيت وصف لعرض الذنب.
(٧) ديوانه: ٣٢٦.
(٨) الملطم: الخد. الزمام: الحبل.
(٩) ديوانه: ٥٧٥.
(١٠) ديوانه: ٣٩.

وناقةٍ في مهمهٍ رمى بها همٌّ إذا نام الورى سرى بها
فهي أمام الركبِ في ذهابها كسطرِ بسمِ اللهِ في كتابها

ومن مُصيب التشبيه في موطىء الناقة قوله[1] أيضاً:

تلقى الفلاة بخفٍّ لا يقرُّ لها كأنَّ مسقطَهُ في تُربها طَبقُ

وقوله[2] في ارتفاع الناقة في الهواء وعظمها:

كأنا عندَ نهضتهِ رفعْنا خباءً فوقَ أطرافِ الرماحِ

ومثله قوله[3] أيضاً:

ترنو بناظرةٍ كأنّ حِجَاجها وقْبٌ أناف بشاهقٍ لم يُحللِ[4]
وكأنَّ مسقطَها إذا ما عرَّست آثارُ مسقطِ ساجدٍ مُتبتلِ
وكأن آثارَ النّسوعِ بدفّها مسرى الأساودِ في دهاسٍ أهيلِ[5]
ويشدُّ حاديها بحبلٍ كاملٍ كعسيبِ نخلٍ خوصُهُ لم يُنجلِ

وقال أيضاً[6]:

كأنَّ المطايا، إذ غَدَوْنَ بسحرةٍ، تركنَ أفاحيصَ القطا في المباركِ[7]

ثم قال وهو من أجود ما قيل في سمن الإبل:

لنا إبلٌ ملءَ الفضاء، كأنما حملنَ التلاع الجوَّ فوقَ الحواركِ[8]

وقد أحسن القائل في وصف سُرعتهن حيث يقول:

خُوصٌ نواجٍ إذا حث الحداةُ بها حَسبتَ أرجلها قُدَّامَ أيديها

وذكر دعبل بن علي الخزاعي أن قائل هذا البيت القصافي لم يقل بيتاً جيداً سواه وكان يقول الشعر ستين سنة.

وأخذه ابن المعتز فقال[9]:

تخالُ آخِرهُ في الشدِّ أوَّله وفيهِ عَدْوٌ وراءَ السبقِ مذخورُ

وقد أحسن مسلم في قوله:

إلى الأمام تهادانا بأرحلنا خلقٌ من الريحِ في أشباحِ ظلمانِ

---

(١) ديوانه: ٢٩٢. وفيه: «يلقى... يقرّبها» و«كأنّ تنقيطه».
(٢) ديوان ابن المعتز: ١٢٢.
(٣) ديوان ابن المعتز: ٣٢٣.
(٤) يشبه عظم الحاجب بنقرة في الصخر.
(٥) يشبه آثار سيور الرحال بمسرى الحيّات في الرمال. في الديوان: «هيام أهيل».
(٦) ديوان ابن المعتز: ٣٠٧. وفيه: «إنْ غدون».
(٧) أفا حيص: جمع أفحوص: موضع تفحص فيه القطا لتبيض.
(٨) الحوارك: الكواهل.
(٩) الأبيات ليست في ديوانه.

كأن أفلاتها والفجرُ يأخذها أفلات صادرةٍ عن قوس حسبان

وقال آخر:

كأنّ يَدَيْها حينَ بجري ضفورها طريدانِ والرجلانِ طالبتا وترِ

ومن بليغ ما جاء في ذلك قول ابن المعتز:

زجرت بها سباح قفرٍ كأنّه يخافُ لحاقاً أو يبادرُ أو لا

توارثهُ الإيجافُ حتى كأنّهُ لميس ضنى أعيا الطبيب المعذّلا

ومن بديع ما جاء في ذلك قول رؤبة بن العجاج[1]:

كأن أيديهن بالقاع القرقْ أيدي العذارى يتعاطينَ الورق

وقد أحسن أبو الشيص في قوله:

وليل يَرْكبُ الركبا نُ في أمواجه الخضرِ

توكلتُ على أهوا لها بالله والصبرِ

وأعمال بناتِ الريـ ـح في المهمهةِ القفر

شماليل يصافحنَ مُتونَ الصخرِ بالصخر

بإيجافٍ يقدُّ الليـ ـل عن ناصيةِ الفجر

وقلت:

لنا هجماتٌ تنثني سرواتها بأسنمةٍ مثل الأكام سوامق[2]

خبطنَ الربيعَ وانتسفنَ نباته كما مرت الأجلامُ فوق المفارقِ[3]

بناها بناء البيت جون رواعدٌ تجيء على آثارِ جونٍ بوارق

تدورُ بأحقيها البروقُ وتنثني كأنّ عليها مذهباتٍ مناطقِ

وقال[4] ابن المعتز:

وليلٍ ككحل العينِ خُضتُ ظُلامهُ بأزرقَ لماعٍ وأخضر صارم[5]

وطيّارةٍ بالرّحلِ صرفٍ كأنما تصافح رضراضَ الحصى بجماجمِ[6]

وقلت:

وليلةٍ خبطت من ظلمائها بنازحِ الخطوِ إذا الخطوُ دنا

قد انبرَى يعترف السير بنا في طرق يخبط فيهنَّ الهدى

---

(١) هو رؤبة بن عبد الله العجّاج. أبو الجحّاف، كان عارفاً باللغة. مات سنة ١٤٥ هـ.

(٢) سوامق: مرتفعات. والآكام: القمم.

(٣) الأجلام: غنم طوال الأرجل، لا شعر عليها.

(٤) ديوان ابن المعتز: ٣٦٥.

(٥) في الديوان: «وأخضر صارم».

(٦) في الديوان: «بالرحل حرفٍ كأنها». رضراض: حصى دقيق صغير.

ينهى الوجى أمثاله عن السرى ... وساعدته مَيعةٌ تنهى الوحى[1]

ومن مصيب التشبيه قول الراعي[2]:

في مَهمهٍ قلقتْ بها هاماتُها ... قَلقَ الفؤوسِ إذا أرَدْنَ نصولا[3]

وقول الآخر:

حمراءُ من نسلِ المهاري نسلُها ... إذا ترامتْ يدُها ورجلها

حسبتها غيرَى استفزَّ عقلها ... أتى التي كانت تخافُ بعلها

أي كأنها من عملها بيديها ورجليها وسرعة تحريكها إياهما غيرى تخاصم وتشير بيديها لا تفتر:

وقلت:

ومَهمهٍ قَلقتْ فيها ركائبنا ... والليلُ في قلق تسري ركائبهُ[4]

ركبته فكأنَّ الصبح راكبهُ ... وجُبتهُ فكأن النجم جائبهُ

بكل ذي ميعة جدَّ الوجيفَ به ... فانهدَّ غاربُهُ وانضم حالبه[5]

وبات ينهب جنحَ الليل في عجل ... كأنه لاعبٌ طابتْ ملاعبه

حتى بدا الصبحُ مُبيضاً ترائبهُ ... وأدبَرَ الليلُ مخضراً شواربه

وإنما النجحُ في ليل ترادفهُ ... إذا تأوَّب أو صبحٍ يواكبه

وساهر الليل في الحاجات نائمه ... وذاهب المال عند المجد كاسبه

وقال[3] أبو تمام:

على كلِّ روَّادِ المِلاطِ تهدمتْ ... عريكتهُ العلياءُ وانضمَّ حالبهْ[7]

رَعَته الفيافي بعد ما كان حقبةً ... رعاها وماءُ الروضِ ينهل ساكبهْ[8]

وقلت:

واستنهضتكَ إلى المآثرِ والعلا ... هممٌ تخال زهاؤهنَّ جبالا

أردفهن عزائماً فكأنما ... أردفتَ مُرهفةَ النصالِ نصالا

---

(١) الوجى: الحفا. مَيعة الشباب أو النهار: أوّله.

(٢) الراعي: حصين بن معاوية، من بني نمير، قيل له الراعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، كنيته أبو جندل. والبيت في ديوانه: ٢٢٢. وفي الأعلام: ٤/١٨٨ هو عبيد بن حصين. وفاته سنة ٩٠ هـ.

(٣) مَهمَه: صحراء. هاما: جمع هامة: قامة أو رأس.

(٤) المهمه: المفازة.

(٥) الوجيف: ضرب من سير الإبل.

(٦) ديوانه: ٤٤.

(٧) في الديوان: «كل موّار» أي مضطرب. الملاط: عضد البعير.

(٨) القيافي: الصحاري.

حملتْهـا قلصُ الـركـابِ كـأنهـا قُلصُ النّعـامِ إذا اتبعن رِيـالا[1]
مهـريـةٌ أودى السفـارُ بنحضِـهـا فتخالُها تحت الرحالِ رحالا[2]

وقال مسلم:

إلـيـك أميـن الله رامت بـنـا السـرى بنات الفيافي كـل مـرتٍ وفـدفـدِ[3]
أخذْن السـرى أخذَ العنيفِ وأسرعَتْ خُطاها بهـا والنجمُ حيـران مهتـدي
لبسن الـدجى حتى نـضتْ وتـصـوبت هـوادي نجومِ الليـلِ كـالـدحو بـاليـدِ

وهذه استعارة بديعة حسنة عجيبة الموقع جداً.

وقال أبو نواس:

يـكـتـسـي عُـثـنـونُـهُ زبـداً فـنـصـيـلاهُ إلـى نـحـرهِ[4]
ثـم يعـتـمُّ الـحَجَـاجُ بـه، كـاعتمام النـوفِ في عُشَـره[5]
ثـم تـذروه الـريـاحُ كـمـا طـارَ قـطن النّـدْفِ عن وتـره

ومن فصيح الكلام قوله في هذا المعنى:

نفَحنَ اللّغـام الجعـدَ ثم ضـربنَـه على كلِّ خَيشومٍ كريمِ المخطَّمِ[6]

وقال الشماخ بن ضرار:

كـأن ذراعـيـهـا ذراعـا مُـدلّـةِ بُعيـد السباب حـاولَتْ أن تعـذرا
من البيض أعطافاً فإذا اتصلت دعَت فـراسَ بن غنم أو لقيطَ بن يعمـرا[7]
بهـا شـرقٌ من زعـفـران وعنبـرٍ أطـارت من الحسن الـرِّداء المحبَّرا
تقـول وقد بـلَّ الـدموع خمـارهـا: أبـت عفـتي أو منصبي أن أُعيَّـرا
كـأن بـذِفـراهـا منـاديـلَ فـارقت أكفَّ رجـالٍ يَعصـرونَ الصنـوْبـرا

وقال الراجز:

كـأنـهـا نـائـحـة تُـرجِّـعُ تبكي بشجـوٍ وسـواهـا المـوجَـعُ

وهو نحو قول الراجز:

حـسـبـتـهـا غـيـرى استـفـزَّ عـقـلـهـا

---

(١) قلُص جمع قلوص: الشابة من النوق. ومن النعام والرئال: صغار النعام.
(٢) النحْض: اللحم المكتنز.
(٣) الفدفد: المفازة.
(٤) العثنون: اللحية. نصيلاه حِنكاه. والأبيات في ديوان: ٣٠٩.
(٥) الحَجاج: عظم الحاجب. جَمَلٌ نيّاف: طويل مرتفع وفي الديوان: «الفوف» أي القشر.
(٦) اللغام الزبد: المخطم: أنف البعير. وفي الديوان: ٥٧٩. «نبيل المخطّم». ونفحن: حرّكن. الخطام: الحبل يُقادبه البعير.
(٧) فراس بن غنم ولقيط بن يعمر: شاعران فارسان.

ومثله قول الآخر:

كـأن ذراعــيــهـا ذِراعـا بـذيـة ... مفجَّعـة لاقت حـلائـلَ من عُفـرِ
سمعن لهـا استفـزغت من حـديثهـا ... فـلا شيء يفري بـاليدين كما تفري

فوصفها بأنها بذيةٌ قد أوجعتْ. نيل منها، ولقيت حلائلها عن عفرٍ، أي بعد زمان، وتلك الشكوى في نفسها فجعلت تحدث وتحرك يديها في حديثها، فلا تكاد تسكنهما.

قال أبو تمام:

فمـا صـلائي إذا كـان الصـلاءُ بهـا ... جمر الغضا الجزلِ إلا السيرُ والإبلُ[1]
المـرضيـاتُـك مـا أرغمتَ آنفهـا ... والهـاديـاتُـك هي الشـرَّدُ الضُّللُ[2]

قال[3] البحتري:

والعيس تَنصُلُ من دُجَاهُ كمـا انجلى ... صِبـغُ الشَّبَابِ على القَـذَال الأشيبِ

قال[4] ابن المعتز:

لـم تَـزَلْ نـخـبِطُ الـفـلاةَ بـأخـفـافِ المطايا، والـظِّلُّ مُعتـدِلُ[5]
كـأنَّـمـا طـارَ تـحـتـنـا قَـزَعٌ ... عـلى أكفِّ الـريـاحِ ينـتـقـلْ[6]
يفـري بـطونَ النقـا النقي، كمـا ... يَـطعنُ بيضَ الجـوانـحِ الأسَلُ[7]

وقال[8] في الناقة:

تُصغي إلى أمْـرِ الـزِّمـامِ كـمـا ... عَـطَفتْ يَـدُ الجـاني ذُرى الغُصنِ

وقال[9] في لقاح:

حَـوامِـلُ شَحم جـامـدٍ فـوقَ أظهـر ... وإن تـسـتـغـث ضـراتـهـنّ بـه ذابـا
إذا مـا مـكـاء الـدَّرِّ جـاءت بـمـشـعـب ... كما سُلَّ خيطٌ من سدى الثوب فانسابا[10]

وهذا في دقة الشخب[11] حسنٌ جداً:

(١) البيتان في ديوان أبي تمّام: ٣٧٧. والصلاء: النار. الغضا: شجر عظيم.
(٢) في الديوان: «وهي الرشد والضلل». الآنف: جمع أنف.
(٣) ديوانه: ٢/١٩١ عـ. وفيه: «والعين لنصل». والقذال: مؤخر الرأس.
(٤) ديوانه: ٣١٤.
(٥) اخفاف: حوافر. وفي الديوان: «نخبطُ البلاد».
(٦) القَزَع: قطع السحاب.
(٧: الأسَل: نبات.
(٨) ديوان ابن المعتز: ٣٦٨.
(٩) ديوانه: ٣٢ وفيه: «بكِاةُ الدّر جادت بمبعثٍ».
(١٠) يشبه سيلان اللبن من الناقة التي قل لبنها بانسياب خيط من الثوب. والتّعب: المسيل.
(١١) الشّخَب: ما يخرج من الفرع من لبن.

رأيتُ انهمارَ الدرِّ فوقَ فُروجِها　　كما عصَرت أيدي الغواسلِ أثوابا
خوازنُ نحضٍ في الجلودِ، كأنها　　تُحمَّلُ كُثباناً من الرَّملِ أصلابا [1]

وقد أحسن في الناقة والزمام:

وسلِ البيداءَ عن رَجُلٍ　　يخطمُ الريح بشعبانِ [2]

وقال:

وقَفْتُ بها عِيسِي تطيرُ بزجْرِها　　ويأمُرُها وحيُ الزِّمامِ فتُرقِلُ [3]
طَلوباً برجليها يَدَيها، كما اقتضتْ　　يدُ الخصمِ حقاً عند آخر يُمطَلُ

وقال بعض العرب:

تطيرُ مناسمُها بالحصى　　كما نَقَدَ الدرْهَمَ الصيرفُ

ومن غريب ما قيل في تقدم الناقة صواحبها[4] في السير قول بعض العرب:

جاءَ وقد مَلَّ ثواءَ البحرينْ　　يَنْسلُّ مِنهنَّ إذا تدانينْ
مِثلَ انسلالِ الماءِ من جَفنِ العينْ

وأبلغ ما قيل في غزر الناقة قول أبي حيَّة[5]:

تدِرُّ للعصفورِ لو مراها　　يَملأُ مسكَ الفيلِ لو أتاها

ومن جيد ما وصف به سعة الاخلاف قول ابن لجإ[6]:

كأنّما نصّتْ إلى ضرّاتها　　من نخرِ الطلح مُجَوَّفاتها

وقول مُسلم بنُ الوليد في غير هذا المعنى:

أتتك المطايا تهتدِي بمطيَّةٍ　　عليها فتى كالنصلِ يؤنسهُ النصلُ

وقال أبو نواس:

أيا حبذا عَيشُ الوجادِ وضجعةٌ　　إلى دُفّ مِقلاقِ الوضينِ سَعومِ [7]
ترامى بها الايجافُ حتى كأنها　　تحيَّفُ من أقطارِها بقَدومِ [8]

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، عن أبي عمرو، قال:

---

(1) في ديوانه: «كأنما» تُحمَّل».
(2) البيت في ديوانه: ٣٧١. يَخطِم: يُسكِت.
(3) البيتان في ديوان ابن المعتز: ٣٢١. العيس: الناقة. الإرقال: ضرب من المشي.
(4) في الأصل: «حواجبها».
(5) هو الهيثم بن الربيع، أبو حيَّة النميري. روى عن الفرزدق وكان كذّاباً. اخباره في (الأغاني: ١٦/٢٣٦).
(6) هو عمر بن لجإ، من تيم بن عبد مناة من بطن يُقال لهم «بنو أيسر». كان شاعراً راجزاً. هاجى جريراً، مات بالأهواز. (الشعر والشعراء: ٢/٥٧٠).
(7) ديوان أبي نواس: ٥٧٧. الدُّف: جنب الناقة .المقلاق: الناقة. الوضين: الحزام. والسَّعَم: ضرب من سير الإبل. الوِجاد: جمع وجْد.
(8) في الديوان: «ترامت بها الأهوال» والإيجاف: الاضطراب.

سمعت جندل بن الراعي ينشد بلال بن أبي بُردة[1]:

نعـوسٌ إذا درّت جـرورٌ إذا غـدت ... بُـويـزل عـام أو سـديسٌ كبـازلِ[2]

قال: فكاد صدري ينفرجُ من جودتها حتى كتبتها. ودَرَّةُ الإبل مع النعاس، والغنمُ تدر مع الاحتراس، فمن أجود ما قيل في ذلك:

قول جبيها الأشجعي:

رقـودٌ لـو أنَّ الـدُّفَّ يُضـرَبُ تحتهـا ... لتنحـاشَ من قـاذورة لـم تنـاكـر

أي من قاذورة فيها، يقال: رجل قاذورة، إذا كان يتجنب النساء ويتقي مجامعتهنّ. ومن الوصف الحسن قول القطامي في نوق:

جفـارٌ إذا صـافتْ هضـابٌ إذا شَتتْ ... وفي الصيفِ يَرْدُدْنَ المياه إلى العشرِ[3]

يشبهها بالآبار، من كثرة ألبانها، في أيام الربيع والقيظ، وهي في الشتاء كالهضاب سمناً، وإذا شربت في اليوم العاشر، التقت في مثله وفي كروشها بقيةٌ من الماء.

وعرض شريح ناقة للبيع، فقال له المشتري: كيف لبنها؟ قال احلب في أي إناء شئت، قال فكيف الوطاء؟ قال: افرش ونم، قال فكيف قوّتها؟ قال احمل على الحائط ما شئت، قال فكيف نجارها؟ قال علق سوطك وسر. فاشتراها فلم ير شيئاً مما توهمه بصفة شريح فعاد إليه فقال: لم أر شيئاً مما وصفت. قال: ما كذبتك قال فأقلني قال نعم فأقاله.

وأنشد أبو أحمد رحمه الله:

جـاءت تـهـادى مـائـلا ذراهـا ... تـحـنُّ أولاهـا عـلى أخـراهـا

مشي العـروس قصـرت خُـطاهـا ... فاسمطتِ القيعانُ من رغاها

واتـخـذتـنـا كـلـنـا طـلاهـا

يقول: إنها كبيرة غزيرة، إذا مشت سالت ألبانها، فابيضت القيعان منها. والرغا: جمعُ رغوة، واتخذتنا كلنا طلاها أي لشربنا ألبانها كأننا أولادها.

ومن أجود ما قيل في ارتفاع الإبل وارتفاع اسنمتها قول أبي دُؤاد:

فـإذا أقـبـلتْ تـقـولُ أكـامٌ ... مـشـرفـاتٌ فَـوْقَ الأكـام أكـامُ

وإذا أعْـرَضَـتْ تَـقـولُ قـصـورٌ ... من سمـا هيـج فـوقهـا آطـامُ[4]

وإذا مـا فـجيـتهـا بـطن غـيـبٍ ... قلت نخـلٌ قد حـانَ منهُ صـرامُ

الغيب ما واراك من الشجر، وسما هيج أرضٌ بالبحرين.

---

(١) هو بلال بن أبي بُردة عامر بن أبي موسى الأشعري بن أمير البصرة وقاضيها، كان راوية فصيحاً أديباً مات سنة ١٢٦ هـ. لأعلام: ٢/٧٢.

(٢) بزل البعير: إذا طلع نابه فهو بازل.

(٣) الجفار: جمع الجفر. البئر. والجفر من أولاد الشاء إذا استكرش.

(٤) سماهيج: موضع بين عُمان والبحرين الآطام: جمع الأطم: القصر.

الفصل الثالث

في ذكر الفلوات والظلال والسير والنعاس وما يجري مع ذلك

فمن أبلغ ما قيل في صفة بعد الفلاة قول مسعود أخي ذي الرمة:

ومَهمهٍ فيه السرابُ يلمحُ   يدأبُ فيه القومُ حتى يطلحوا[1]

ثم يظلونَ كأن لم يَبرَحُوا   كأنما أمسوا بحيثُ أصبحوا

وقال رؤبةُ بن العجاج:

يَكِلُّ وفد الريح من حيث انخرق

ذكر أن الريح تكل فيه لبعده، ووفد الريح مأخوذ من قول تأبط شرًّا:

ويسبقُ وفد الريح من حيثُ ينتحي

وقال مُسلم بن الوليد:

تجري الرياحُ بها مرضى مولهةً   حَسرَى تَلوذُ بأطراف الجلاميدِ

قوله: «بأطراف الجلاميد»، زيادةٌ ليست في بيت رؤبة.

ويشبهون استواء الفلاة باستواء ظهرِ الترس، قال الشاعر:

ومهمهٍ كمثلِ ظهرِ الترسِ

وأحسنَ ذو الرمة حيث يقول في هذا المعنى:

ودَوٍّ ككفِّ المشتري غيرَ أنهُ   بساطٌ لأخماسِ المراسيلِ واسعُ[2]

شبهه بكف المشتري، لأن كفه ألصق، وفي رواية أخرى لأن المشتري يبسط كفه للصفق.

وقلت في نحوه:

وبحرٍ ككفِّ الأكرمينَ يَحفهُ   صَعيدٌ كأيدي السائلينَ مديدُ

وقال بعضُ المحدثين:

---

(1) مهمه: صحراء. السراب: ما تراه على الطريق كالماء وهو ليس بشيء.

(2) المراسيل: جمع مِرسال: ناقة سهلة السير.

وَدَوِّيَـةٍ مثـلِ السمـاءِ قـطعتُهـا مـطوقـةٌ آفـاقُهـا بسـمـائِهـا

ومن عجيب التشبيه في وصف الآل قول بعض الأعراب:

كفى حَـزَنـاً أنـي تـطاللتُ كـيْ أرَى ذرَى علمي دَمـخ فـمـا يُـرَيـان[1]
كـأنـهمـا والآلُ يـنجـابُ عـنـهـمـا مـن البعـدِ عينـا بُـرقـعٍ خـلقـانِ

وهذا أغرب ما رُوي من تشبيهات القدماء.

وقال جميل بن معمر في السراب:

ألاتيكمـا أعـلامُ بثنـةَ قـد بَـدَتْ كـأن ذراهـا عـممتـه سبـيـب
طـوامِس لـي مـن دُونـهـنَّ عـدَاوَةٌ ولي من وراءِ الـطامسـاتِ حبيبُ[2]
بعيـدٌ على كسلانَ أو ذي مَـلالـةٍ وأمـا على ذي حَـاجَـةٍ فقـريب

والسبيب الشقة البيضاء.

وقال ابن المعتز:

والآلُ يـنـزو بـالصـوى أمـواجـه نـزوَ القطا الكـدريّ في الأشـراك[3]
والـظلُّ مـقـرونٌ بـكـلِّ مـطيّـةٍ مشى المهـارِ الدُّهم بين رِمـاكِ[4]

ولا أعرف في هذا المعنى تشبيهاً أحسن ولا أصوب من هذا.

ومن عجيب التشبيه في وصف اعتدال الظل عند الظهيرة قول الراجز:

وانـتـعـل الـظل فـصـار جـوربـا

وقال آخر:

إذا شئت أدَّانـيَ صَـرومٌ مُـشيـعٌ معي وعقـامٌ تتقي الـفحـل مُـقلتِ
يـطوف بهـا من جـانبيهـا ويتـقي بهـا الشمس حيٌّ في الأكـارع ميتُ

أداني: أعانني، صرومٌ: أي صارمٌ، مشيعٌ: شجاع كأنّ معه أصحاباً يُشيعونه فهو جريءٌ يعني قلبه. والعُقام: التي لا تلد فذاك أشدّ لها يعني ناقة، والمقلت: التي لا يبقى لها ولدٌ، وحيٌ في الأكارع ميتٌ: يعني ظِلا قد ضارع عند انتصاف النهار.

ومن بديع ما قيل في السراب قول[5] ابن المعتز:

ومـا راعـنـي بـالـبَيْـنِ إلا ظعـائـنٌ دَعـوْنَ بكـائي فـاستجابت سـواكبه

---

(١) دَمخ: اسم جبل.

(٢) طوامس: جمع طامس: بعيد. وفي ديوان جميل: ١٧ البيت الثالث فقط ولفظه: «بعيدٌ على من ليس يطلب حاجة».

(٣) الآل: السنام. الصُّوى: ما غلظ من الأرض.

(٤) رِماك: جمع رمَكة: فرس والمهار جمع المهر.

(٥) ليسا في ديوانه.

بـدَتْ في بياض الآلِ والبعدُ دونـهُ كـأسـطر رِقٍّ أمـرضَ الخط كـاتِبـه

ولهم في وصف الأسفار في البحار شعرٌ قليلٌ، فمن أجود ما وصف به الموج قول الهذلي:

نـعـاجٌ يـرتـمـيـن إلـى نـعـاج

ولا أعرف في السير والنعاس أجود لفظاً واستعارة مما أنشدناه[1] أبو تمام:

يقـولُ وقـد مـالت بنـا نشـوةُ الكرَى نعـاسـاً ومن يعلق سُرى الليـل يكسـل
أنـخ نُعطِ أنضـاء النُعـاسِ دواءَهـا قـليـلاً ورفّـهَ عـن قـلائصَ ذبّـلِ[2]
فقلتُ لـه: كيف الإنـاخـةُ بعـد مـا حـدا الليـل عـريـان الـظريفـة مُنجلي

ومما يجري مع ذلك قول الآخر:

عـودٌ عـلى عـودٍ عَـودٍ خـلق كـأنـه الـليـل يـرمي بـالـغسـق
مَـشـاجِـبٌ وفِـلقٌ سـقـب وطـلق

عود: يريد شيخاً كبيراً. على عود أي على بعير مُسِنّ، على عود خلق أي طريق قديم دارس فكأنّه يُريدُ كأنّ ذلك كما قال رُؤبَةُ:

فـيـهـا خـطوطٌ مـن سـواد وبـلق كـأنّـه في الجلدِ تـوليـعُ البـهـقِ

أي كأنّ ذلك شبّه البعير بالمشاجب، والطريق بالسقب وهو عمودٌ، من عمد الخباء، وشبّه الشيخ بالطلق وهو القيد لانحنائه. وقريبٌ منه قول الآخر:

عـودٌ عـلى عَـودٍ قـوود لـلإبـل يمـوتُ بـالتـرك ويحيـا بـالعمـلِ

عَودٌ: بعير، على عود يعني طريقاً، يموت بالترك: يعني الطريق يدرس إذا لم يسلك، ويحيا بالعمل: إذا سلك استبان.

ومن المختار في صفة النعاس قول الآخر:

فـأصبحنَ بـالـمـومـاةِ يحملنَ فتيـةً نشاوى من الادلاجِ ميلُ العمـائمِ[3]
كـأن الكـرى سقـاهمُ صر خـدّيـةً عُقـاراً تمشي في المـطا والقـوائم[4]

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر عن عبد الرحمن، عن الأصمعي أن أبا عمرو ابن العلاء كان يستحسن قول بشامة بن غدير ويعجب منه غاية العجب:

كـأن يـديـهـا وقـد أرقـلـت وقـد حـرنَ ثم اهتـدينَ السبيـلا
يـدا سـابـح خَـرَّ فـي غـمـرةٍ فـأدركـه الـمـوتُ إلا قـليـلا

ومما يجري مع ذلك قول الأعرابي:

بـدأن بـنـا وابن الـليـالي كـأنّـهُ حُسـامٌ جلا عنـه القيون صقيـلُ
فمـا زلتُ أفني كـلَّ يـوم شبـابَـهُ إلى أن أتتـك العيسُ وهـو ضئيـل

---

(١) الأبيات ليست في ديوانه.
(٢) القلائص: جمع القلوص: الناقة.
(٣) الإدلاج: المشي ليلاً.
(٤) صرخدية: خمرة، المطا: الظهر.

الفصل الرابع

في ذكر الوحوش والسباع والكلاب والصيد وما يجري مع ذلك

فمن أجود ما قيل، في وصف الثور إذا عدا فيخفى تارة، ويظهر أخرى، قول(١) الطرماح، وكان الأصمعي يتعجب من حسنه:

يـبـدو وتـضـمـرُهُ الـبـلادُ كـأنّـهُ　　　سيفٌ على شـرف يُسَلُّ ويـغـمـدُ

وقد أحسن عديّ بن الرقاع(٢) في وصف ثورين وما يثيران في عدوهما من الغبار وهو:

يـتـعـاورانِ مـن الـغـبـارِ مُـلاءةً　　　بيضـاءَ مُـخـمـلةً همـا نـسجـاهـا

تُـطْوَى إذا عَلَوَا مكـانـاً جـاسِيـاً　　　وإذا السنابكُ أسْهَلتْ نَشَـرَاهـا(٣)

لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا. وأما قوله في صفة قرن الظبي فليس له شبيه وهو من المشهور:

يُـرجـى أغـنَّ كـأن إبـرةَ روقِـهِ　　　قلمٌ أصـابَ من الـدَّواةِ مِـدَادَهـا(٤)

وقد أحسن الراعي في وصف الوعل:

بـرودُ بـهـا ذبُّ الـريـادِ كـأنّـه　　　فتىً فـارسيٌّ في سـراويـل رامحِ(٥)

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/٤٩٢.

(٢) عدي بن الرقاع: هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي من أهل دمشق، شاعر عاصر جريراً وهاجاه. ومدح بني امية. مات سنة ٩٥ هـ.

(٣) البيت والذي سبقه في ديوانه عدي: ٥٠. يتعاوران: يتداولان فيما بينهما. الملاءة: الملحفة. المكان الجاسي: اليابس.

(٤) ديوانه: ٣٥. وفيه: «تُزجي أغن». وزجى الشيء: ساقه ودفعه. الأغن: الظبي الذي في صوته غُنّة. المداد: الحِبر. الروق: القرن.

(٥) البيت ليس في ديوان الراعي.

ذبّ الرياد: أي[1] الوعل، ويرود: يجيء ويذهب، شبّه ما على قوائمه من الشعر بالسراويل وشبه قرنه بالرمح.

وقال[2] ابن المعتز:

كأني على طاوٍ من الوحشِ ناشطٍ، تخالُ قرون الأجلِ من خلفهِ غابا[3]

الأجل: القطيع من بقر الوحش، والغاب: الأجمة.

وقال أيضاً[4]:

وجَـرَتْ لنـا سُنحـاً جـآذرُ رَملةٍ، تتلو المهـا، كـاللؤلؤ الـمتبـدِّدِ[5]

قـد أطلعت إبَـرَ القـرونِ كـأنهـا أخـذ المَراود مِن سحيقِ الإثمِـدِ[6]

وقال [7] ابن المعتز:

شـغـلتـه لـنواقـحُ مـلأتـه غيـرةً، فهـو خلفَهـن كمـيٌّ [8]

قـابضٌ جمعَهـا إليـه كما يجمـ ـعُ أيتامَـه إليه الـوصيُّ [9]

كـلمـا شمَّ لاقحـاسيء منهـا رأس فحلٍ برجلِهـا معليٌّ [10]

خـارجٌ من ظلالِ نقـع كمـا مَـ ـزَّقَ جلبـابَـه الخليـعُ الغـويّ

قـد طواهـا التسويق والشدُّ حتي هـي قُبٌّ كـأنهـن الـقسـيُّ [11]

هـربـت في رؤوسهـن عيـونٌ غـائـراتٌ كـأنهن الـركـيُّ [12]

وقال[13] أيضاً:

---

(١) في الأصل: «على الوعل».

(٢) ديوانه: ٣٥.

(٣) الطاوي: الجائع. وفي الديوان: «الوحش ناهض».

(٤) ديوان ابن المعتز: ١٤١.

(٥) الجآذر: البقر الوحشي. المها: الغزلان. والسنح: اليُمن.

(٦) المراود: مفردها مرود: المِيل يُكتحَلُ به. الاثمد: الكحل.

(٧) ديوان ابن المعتز: ٤١٠.

(٨) اللواقح: النياق الإناث التي في بطونها أولادها.

(٩) في الديوان:

• «قـابلن جـمـعـهـا إلـيـه كـمـا جـمّـع اتـبـاعَـه إلـيـه الـوَحـيّ

والوحي: السريع العجل.

(١٠) في الديوان: «سيء منها»

(١١) في الديوانه: «هي قُب كأنهن الركي»، والركي مفردها الركية: البئر.

(١٢) ليس في الديوان.

(١٣) في ديوانه: ٢٩٢:

كـأن آثـار وحـشـي الـظـبـاء بـهـا دِرعٌ تُـخَـلِّفُـه أظـلافـه نَـسَـقُ

كأن آثارَ أظلافِ الظِّباء به وَدَعٌ يخلِّفه أظلافهُ نَسَقُ

ومن فصيح ما قيل في الكلب وبليغه قول(١) أبي نواس:

كأن لحييه على افترارهِ شكّ مساميرٍ على طوارهِ

طواره: نواحيه.

سِمعٌ، إذا استروحَ لم يمارهِ إلا بأنْ يطلَقَ من عِذارهِ(٢)

فانصاع كالكوكبِ في انحداره، لفتَ المشير مُوهِناً بناره

شداً إذا أخصف في جداره خرّق أذنَيه شبا أظفارهِ(٣)

وهذا مثل قوله(٤):

من كل أخدى مَيسانِ المنكبِ يشبُّ في القودِ شُبوبَ المقرَبِ

يلحق أذنيه بحدّ المِخلَب

المقرب: الكريم من الخيل يشد لكرمه بقرب البيوت، مَيسان المنكب أي من سعة جلده يميس منكبه.

ومن بديع الوصف قوله(٥):

كأنما الأظفورُ في قِنابهِ موسى صَناعٍ رُدَّ في نصابهِ(٦)

تراه في الحُضْرِ إذا ما هابه، يكادُ أن يخرجَ من إهابهِ(٧)

أخذه من قول(٨) ذي الرمة:

لا يذخران من الإيغال باقية حتى تكاد تفري عنهما الأهب

والقناب: الغلاف.

وقد أحسن في قوله وأجاد:

فجاء يُزجيها على شياتها شمّ العراقيبِ مُؤنفاتُها(٩)

مفروشة الأيدي شر نبشاتها مشرفة الأكتاف موفداتها

قود الخراطيم مخرطماتها غرّ الوجوهِ ومحجلاتها(١٠)

---

(١) ديوانه: ٣٥٠. وفيه: «لدى افترارِه» والطوار: النواحي.

(٢) السِّمع: ولد الذئب.

(٣) في ديوان أبي نواس: «حتى إذا أخصف في إحضاره».

(٤) ديوانه: ١٠٣. وفيه: «من كل أدفى» والأدفى المنجي.

(٥) ديوان أبي نواس: ١٠١.

(٦) القناب: موضع الظفر. الصناع: الماهر. النصاب: المقبض والقراب.

(٧) الحُضر: الركض السريع، ها ها به: زجَرَه الكلّاب. الإهاب: الجلد.

(٨) البيت ليس في ديوانه. وهو في الصناعتين: ٩٨.

(٩) الأبيات ليست في ديوانه. زجا: ساق. العراقيب: قمم الجبال.

(١٠) الخرطوم: واحد الخراطيم: وهو الأنف.

الموفدات: المشرفات، خرطوم مخرطم مثل ليل أليل:

كأن أقماراً على لبَّاتها ... ذل المآخير عملساتها [1]
لتفثأ الأرنب عن حياتها ... إن حياة الكلب في وفاتها

وقال [2] ابن المعتز في سعة أشداق الكلاب:

كأنها في حلقِ الأطواقِ ... ضواحك من سعة الأشداقِ

وقال في شدة عدو الكلب:

كأنها تعجل شيئاً تحسبه

من قول[3] أبي نواس:

كأنما يُعجلن شيئاً لقْطا

ومن بليغ ما قيل في شدة العدو قول الأحمر[4] في الثور:

وكأنما جهدت أليتهُ ... أن لا تمسَّ الأرضَ أربعةُ[5]

ومن جيد وصف السرعة قول الحماني:

يبادرُ الناظر وهو يبدُرُهْ ... كأنّ من يُبصرُهُ لا يبصرهُ

وقال الأصمعي: وأحسن ما قيل في صفة الذئب قول[6] حميد بن ثور:

ترى طرفيهِ ينسلانِ كلاهما ... كما اهتزَّ عُودُ النبعةِ المتتابعُ
ينامُ بإحدى مُقلتيه ويتقي بأخرى ... المنايا فهو يقظانُ هاجعُ

وقال الأصمعي من أوجز الكلام قول الراجز في الذئب:

أطلس يخفي شخصهُ غبارهُ ... في فمهِ شفرتهُ ونارهُ
هو الخبيث عينه فرارُه[7]

ومما يجري مع ذلك، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن عبد الرحمٰن عن عمه، عن أبي عمرو قال:

رأيتُ باليمن غلاماً من جَرْم، ينشدُ عنزاً فقلت له: صفها يا غلام فقال:

حسراء مقبلة، شعراء مدبرة، بين غثرة الدهسة، وقنو الدبسة، سجحاء الخدين، خطلاء الأذنين، فعساء الصورين، كأن زنمتيها تتوا قلنسوة، يا لهاأم عيال، وثمال مال.

الحسراء: التي قل شعر مقدمها، والشعراء: التي قد كثر شعرها، والغثرة: غثرة كدِرَةٌ،

---

(١) لبّات: جمع لِبّة: صدر. في الأصل: زل المساخير معكساتها».

(٢) البيت ليس في ديوانه.

(٣) ديوان أبي نواس: ٤٠٩.

(٤) الأحمر: شيخ العربية، علي بن المبارك، وقيل هو علي بن الحسن تلميذ. الكسائي. مات سنة ١٩٤ هـ.

(٥) البيت في الصناعتين: ٩٨.

(٦) البيتان في الشعر والشعراء: ٣٠٧/١.

(٧) في الأصل غير منقوطة، والتصليح من اللسان «الخبيث عينه فراره».

والدهسة: لون الأرض، والقنو: شدة الحمرة، والدبسة، حمرةٌ كدِرَةٌ، والسجحاء: السهلة الخدين، والخطلاء: الطويلة الأذنين المضطربتهما، والقعساء: المتباعدة بين طرفي القرنين، والصورُ: القرن والزنمتان: اللحمتان المعلقتان تحت حنك الشاة، والتو ذؤابة القلنسوة.

ولأعرابي في الذئب:

وأطلس مـلء العين يـحمـلُ زورهُ ... وأضلاعهُ من جـانبيه شـوى النهدُ[1]
لـه ذنبٌ مثـل الـشـراعِ يـمـدُّه ... ومتنٌ كمتنِ القـوس أعـوجُ مُـنـأدُ
طـواه الـطوى حتى استمـرَّ مـريـرُهُ ... فمـا فيهِ إلّا الـروحُ والعـظمُ والجلدُ
يُقضقضُ عضـلاً في أسرتهـا الـردى ... كقضقضـةِ المقـرُورِ أرعَـدَه البـرد[2]
عَـوَى ثم أقعى فـارتجـزتُ فهجتهُ ... فـأقبـلَ مثـلَ البرقِ يتبعـه الـرعـدُ
وأتـبعتـه أخـرى وأضللتُ نـصـله ... بحيث تلوى اللبُ والـرعْب والحقـدُ

وقال غيره في الفيل:

أجـردُ كـالعـود طـويـل النـابين ... بعيـد مـا بينَ مـحطِّ الـرجـلين
يـنـفض أذنـيـن كـفـضـلى بـرديـن

وقال ابن الرومي فيه:

ولا أعضـل النـابين حـامـل مخـطم ... بـه حجنٌ طـوراً وطـوراً بـه فَعَم[3]
يقلب جثمـانـاً عـظيمـاً مـوثقـاً ... يهـدُّ بـركنيـه الجبـالَ إذا زَحَم
ويسـطو بخـرطـوم يـطاوع أمـرهُ ... ومشتبهـات مـا أصـابَ بهـا عَثَم
ولست تـرى بـأسـاً يقـوم لبـأسـهِ ... إذا أعمـلَ النـابين في النـاس أو صـدم

---

(١) الأطلس: الذئب.

(٢) يقضقض: تصطك اسنانه. الزور: الصدر. المقرور: من أصابه البرْد.

(٣) المخطم: الأنف الطويل، الحجَن: الاعوجاج. الفعَم: الامتلاء.

الفصل الخامس من الباب العاشر

في ذكر الطيور

مما جاء في منثور الكلام، في وصف الحمام، قول بعضهم:

بهرماني العينين عاجي المنقار، أصهب القرطمتين[1] سبجي الجناحين، كأنما خطا بقلمين، دري الدفتين، فضي الحقيبة والبطن والكشحين، أرجوانيّ الساقين والقدمين، مُعتدل الهامة، جاحظ الحدقتين، رحب الأذنين والمنخرين، واسع الحوصلة والشدقين، محدد المنكبين والركبتين، سبط الذنب والكفين، طويلُ العنق والقوادم والفخذين، قصير الخوافي والساقين، عريضُ الصدر والدفتين والوظيفتين، غليظ القصب أجش الهدرة، منتصب الهامة، ذكي الحركة، بعيد الذرقة.

ووصف ابن المعتز حماماً طلبه من إنسان:

أُريد حرمي الطرق، عاجي المنقار، أغنَّ الهدير[2]، ذا ذنبٍ قصير، يسحبُ حوصلته إذا هدر، وتروح صفقته إذا صفق، قرطاسيّ الدفتين، سبجي الجناحين[3]، كأن رجليه خاضتا دماً، أو شربتا عندماً، وكأن عينيه جمرة، ورأسُه زُبدة.

وقلت في حمام أبلق:

ومُتفقاتِ الشكل مُختلفاته ... لبسنَ ظلاماً بالصباح مرقّعا
أخذْنَ من الكافور أنفاً ومِنسراً ... وخَضّبن بالحناءِ كفّاً وإصبعا
وتدنو بأبصارٍ إذا ما أدرتَها ... جَلونَ عقيقاً للعيونِ مرصعا
تطيرُ بأمثالِ الجُلام كأنّها ... جنادلُ تدحوها ثلاثاً وأربعا

---

(١) القرطمتان: نقطتان على منقَار الحمام.

(٢) أغن: في صوته غُنة.

(٣) سبجي الجناحين: عريضهما.

تبوع بها في الجوّ من غير فترةٍ كأن مجاذيفاً تبوعُ بها معا (١)
إذا هيَ عبّت في الغديرِ حسبتها تزقُّ فراخاً في المغادرِ جُوَّعا

وقال بعضهم في عين العقعق:

يُقَلِّبُ عينين في رأسهِ كأنهما نقطتا زئبق

ومن المختار في الديك ما أنشده الجاحظ:

كأن الديكَ ديكُ بني نميرٍ أميرِ المؤمنين على السريرِ

والناس يستحسنون قول(٢) ابن المعتز في الديك:

صفّق إما ارتياحةً لسنى الصبح وإما على الدُّجى أسفا

وقال ديك الجن:

أوفى بصبغ أبي قابوس مفرقهُ كدُرَّةِ التاج لما عُلِّيت شرفا (٣)

وقوله «صبغ أبي قابوس» يعني شقائق النعمان، وهذا كلامٌ بعيدُ المتناول ظاهر التكلف.

وقلتُ فيه:

مُتوَّجٌ بعقيقٍ مُقرّطٌ بلجينٍ(٤) فقد زيّنَ النحر منه ثنتان كالوردتين
دعا دُعاءَ طروبٍ مُصفّقِ الكفين عليه قُرطَقٌ وشيٍ مُشمّرُ الكفين(٥)
حتى إذا الصبحُ يبدو مُطرَّز الطرّتين يزهى بتاجٍ وطوقٍ كأنه ذو رُعين

وقال السري الرفاء:

كشفَ الصباحُ قناعَهُ فتألفا وسطا على الليل البهيم فأطرقا
وعلا فبشرَ بالصباحِ مُدرّعٌ بالوشي تُوِّج بالعقيق وطُوِّقا
مُرخى فضولِ التاجِ في لَبّاته ومُشمّرٌ ثوباً عليهِ مغمقا

وقال ابن المعتز:

وقامَ فَوقَ الجدارِ مُشترفٌ كمثلِ طِرفٍ أعلاهُ أسوارُ(٦)
رافعُ رأسٍ طوراً وخافضهُ كأنما العُرْف منه مِنشار

---

(١) تبوع: تسرع
(٢) ديوانه: ٢٨٤.
(٣) أبو قابوس: كنية النعمان بن المنذر.
(٤) مقرّط بلجين: اقراطه فضة.
(٥) قُرطَق: لبُس.
(٦) وطِرف: حصان.

ومن أجود ما قيل في وصف النعام قول عديّ بن زيد[١].

ومكانٍ زعلٍ ظلمانهُ   كرجالِ الحُبش تمشي بالعمد

فقال شبَّه أعناقها إذا مدت بالعمد.

ومن أحسن تشبيه أخذه العماني:

كأنها حين مدت عنقها حرقا   سُودُ الرجالِ تعادي بالمزاريق[٢]

وكان ينبغي أن يقول: «مدت أعناقها» الذي قال رديءٌ، وقد جاء مثله.

وقال ابن أبي عيينة:

يا جنةً فاتت الجنانَ فما   تبلغها قيمةٌ ولا ثمن
ألفتُها فاتخذتُها وطناً   إنَّ فؤادي لحبها وطن
أنظر وفكّر فيما تطيفُ به   إنَّ الأريبَ المفكر الفطنُ
من سفنٍ كالنعام مقبلةٍ   ومن نعامٍ كأنها سُفنُ

ومثله قوله:

زروادَي القصرِ نعم القصرُ والوادي   وحبذا أهلهُ من حاضر بادي
ترقى قراقيره والعيسُ واقفةٌ   والضبُّ والنونُ والملاحُ والحادي[٣]

وقول الآخر:

كأنّ بالسُّهب على خربائه   عرشاً يخرّ الريحُ في قصبائه[٤]
يضحك جنُّ الأرضِ من نحائه   كأنّ قوسَ الغيمِ من ورائه

يعني الغبار المنعرج خلفه.

وقلتُ في فاختة:

مررتُ بمطرابِ الغداةِ كأنّها   تُعلُّ مع الاشراقِ راحاً مُفلفَلا

ويروي: «تُعل رحيقاً في الغُصون مُفلفَلا»:

منمرة كدراء تحسبُ أنها   تجللُ من جلدِ السحابةِ مفصلا
بَدَتْ تجتلي للعينِ طوقاً ممسكاً   وطرفاً كما ترنو الخريدةُ أكحلا
لها ذنبٌ وافي الجوانبِ مثل ما   تُقشّرُ طلعاً أو تجرِّدُ مِنصلا
إذا حلّقت في الجوّ خلتَ جناحَها   يردُ صغيراً أو يحرك جُلجلا

وقال أبو نواس في حُباريات:

---

(١) عدي بن زيد بن الحمار العِبادي، شاعر جاهلي فحل. مات في الفترة.

(٢) المزاريق: السِّهام.

(٣) النون: الحوت. الضب حيوان صحراوي. العيس: الناقة. القراقير: الحادي.

(٤) السهب: الفرس.

يَخطرنَ من برانس قُشوب من حبرٍ عُولينَ بالتذهيبِ
فهن أمثالُ النصارى الشيب

وقلتُ في قبجة[1]:

أهديتها كالهديّ آنسةٍ وهي سليلُ النواشِزِ النفرِ[2]
تلبسُ سمُّورةً مُشمّرةً تصونُ أطرافها من العفرِ[3]
وقد جرى المسكُ من محاجرها فضمَّ لبَّاتها مع الشغر
تخطرُ في حلةٍ مُصَدرةٍ كأنّ أكمامها من الحِبر
واحمرّ منقارُها و[؟]خرها تفتّح الوردِ في ندَى السحر
كأنّها حينَ نقط قرطمها تضربُ ياقوتةً على دُرَرِ

وقال أبو نواس في طير الماء:

كأنما يصفرنَ من ملاعق صرصرة الأقلام في المهارق[4]

ونقله إلى موضع آخر فقال أيضاً:

يصفرُ أحياناً إذا لم يهزجْ من مثلِ حرفِ المجدحِ المغنج

المجدح: ما يجدح به السويق، والمغنج: المعطف.

وأحسن ما شُبِّهَ به ذلك قول بعض الأعراب يصف طيراً أنشده الأصمعي:

يضربنَ أحناكاً إلى الماءِ كلّها لبيقٌ كمفروج المناقيشِ أسجحِ[5]

لبيقٌ: أي رفيق بذلك حاذق به، يقول هذه الاحناك[6] لبيقة بالشرب، والمفروج: المفتوح ما بينه.

وقلت في الخطّاف:

وزائرةٍ في كلِّ عامٍ تزورنا فيُخبرُ عن طيبِ الزمانِ مزارها
تخبرُ أنّ الجوَّ رَقَّ قميصهُ وأنَّ الرّياضَ قد توشّى إزارها
وأنَّ وجُوهَ الغُدرِ، راقَ بياضها وأنَّ وجوهَ الأرضِ راع اخضرارها
تحنُّ إلينا وهي من غيرِ شكلنا فتدنو على بُعدٍ من الشكل دارُها

(١) القبجة: الحجلة.
(٢) النواشز: جمع النشز: المرتفع.
(٣) العفر: التراب.
(٤) المهارق: جمع المُهرَق: الصحيفة.
(٥) المجدح: ما يُخلط به الطيب.
(٦) أحناك: جمع حنك. لبيق: يليق به. اسجح: سهل معتدل. المناقيش: جمع منقاش: ما تقتلع به الشوك وغيره.

فيعجبنـا، وسطَ العـراصِ، وقـوعُهـا ... ويُؤنسنـا، بيـنَ الـديـارِ، مـطارُهـا
أغـارَ على ضـوءِ الصبـاحِ قميصُهـا ... وفـازَ بـألـوانِ الـليـالـي خِمـارُهـا
تـصيـحُ كـمـا صـرَّت نـعـالُ عـرائس ... تـمشـت إليـهـا هـنـدهـا ونـوارهـا
تـجـاوزُنـا حتـى تـشـبَّ صـغـارُهـا ... وتقضـي لبـانـاتِ النفـوسِ كبـارهـا

ولم أسمع في ذلك أحسن من قول بعض المحدثين:

وغـريـبـة حـنّـتْ إلـى أوطـانـهـا ... جـاءت تبشـرُ بـالـزمـانِ الـمـقـبـلِ
فـرَشـتْ جـنـاحَ الآبـنـوسِ وسـطرت ... بـالعـاج فيـهِ وقهقـهتْ بـالـصنـدلِ[1]

وقلت في أصواتها:

أيـا عجبـاً مـن آنس لـك نـافـرِ ... يُعـاودُ وُصلاً وهـو في حـالِ هـاجـرِ
يـزور على بُعـدِ المكـان لم يُـرِدِ ... وصـالاً فقـل في زائـر غيـرِ زائـر
لـه في الـذُّرَى شـذرٌ يَمُـرُّ وينثني ... كمـا حَـرَّكَ الكعبين كفُّ مُقـامِـر

وهذا معنى لم أسبق إليه.

وقال أبو نواس في أصوات الخطاف:

فكـأنّ أصـواتهـا في الجـوّ طـائـرة ... صوتُ الجُلامِ إذا ما قصّت الشعرا[2]

وقال ابن[3] المعتز في البازي:

فـارسُ كـفّ مـائـلِ كـالأسـوار ... ذو جُؤجُؤٍ مثـلِ الـرُّخـامِ المـرمـارِ
أو مـصـحـفٍ منـمـنـمٍ بـأسـطـارِ ... ومـثـلةٍ صـفـراءَ مـثـلِ الـدّيـنـارِ
يـرفـعِ جـفـنـاً مـثـلَ حـرفِ الـزُّنـار

وهذا تشبيه في غاية الاصابة.

ومن أحسن ما قيل في منسر البازي قول[4] أبي نواس:

ومنـسـرٍ أكـلفَ فيـه شـنـج ... كـأنـه عـقـدُ ثـمـانـيـنـا

وقال ابن المعتز في عين البازي وأجاد فيه:

ومـقـلةٍ تـصـدقـهُ إذا رَمَـقْ ... كـأنـهـا نـرجـسـةٌ بـلا وَرَقْ

وقال[5] أبو نواس:

---

(١) الأبنوس والصندل: ضربان من الأشجار، حشبهما جيد.
(٢) الجُلام: جمع الجلم: الغنم الطوال الأرجل لا شعر عليها.
(٣) ليست في ديوان ابن المعتز.
(٤) ديوان أبي نواس: ٦٦٧.
(٥) ديوانه: ٣٥٣.

في هــامــةٍ علياءَ تهــدي مِنسـراً كـعـطفـةِ الجيم بِكـفٍّ أعـسـرا

وقال[1] ابن المعتز في بُزاة:

وفـتـيـان غـدوا والـلـيـلُ داجٍ وضـوءُ الـصبـح متـهـمُ الـطلوعِ
كـأن بُـزاتـهـم أمـراءُ جـيشٍ عـلى أكـتـافـهـا صـدأ الـدُّروعِ

وقال في عين البازي:

كـأنـهـا في الـرأس مـسـمـار ذهـب

وقال[2] أيضاً:

ومـنـسـر عـضـب الـشـبـاه دام كـعـقـدك الـخمـسيـنَ بـالإبـهـامِ
وخـافـق لـلصـيـدِ ذي اصـطلام يـنـشـرهُ لـلـنـهضِ والإقـدامِ
كـنـشـرك الـبـردَ عـلى الـمـسـتـامِ

وقال[3] أيضاً:

ذي جـؤجـؤ مـحـبـر مـوشـيّ ومـقـلةٍ تـلحـقُ بـالـقـصـيّ
كـأنـهـا ديـنـارُ صـيـرفـيّ واتـصـلت بـراتـه الـقُـوهِـيّ[4]
صـافٍ كـغـصـنِ الـذهـبِ الـمـحـليّ

وقال أيضاً:

أقـمـر من ضـرب بـزاةٍ قُـمـرِ يصقلُ حملاقاً شديـدَ الطحـرِ[5]
كـأنـه مـكـتـحـلٌ مـتـبـرٌ في هـامـةٍ لمّتْ كلِمَ الفقـرِ[6]
تـريـح إن راح لامـرٍ بـهـر من منخـرٍ رحبٍ كعقـدِ العشـرِ

وقلت في الصقر:

وصَـلَتَـان فـلتـان أنـمَـر كـأنـه إذا هـوى لـلأعـفـرِ
مُعنبـرٌ يهـوي إلى مـزعفـرِ بـأبيض من الـبـزاةِ أقـمـر
منمنم الصـدرِ كصدرِ الـدفتـر بمثـل أهداب جفـون الأحـور

وقلت:

بـصـلتـانٍ سـلطٍ جـسـورِ تخـالـهُ في مفصـلٍ مزرور
ضمَّ جنـاحيـهِ على سمُّـور مـعـوّج الـمـنـسـرِ والأظفور

---

(١) ليسا في ديوانه.
(٢) الأبيات ليست في ديوانه.
(٣) ديوان ابن المعتز: ٤١٩. وفيه: «صبّحته بأجَلٍ وَجِي، ومقلةٍ...».
(٤) في الديوان: «واتصلت برأيه القوي».
(٥) حملاق العين: باطن جفنها. طحرت: العين قذاها: رمت به والأبيات ليس في ديوانه.
(٦) متبر: ذو تبر أي ذهب.

وقلتُ في عصفورة يقال لها السّقا:

ومفتنّةِ الألوانِ بيضٌ وجوهها ... ونمرٌ تراقيها وصفرٌ جنوبُها
كأنّ دراريعاً عليها قصيرةً ... مرقعةً أعطافُها وجيوبُها
تعدلُ ألوانَ الأغاني كأنما ... تعدلُ أوزانَ الأغاني عريبُها
تسامُ استقاءً في العشاءِ إذا عرى ... وعطلَ أيام المصيفِ ذنوبُها

وكان الأصمعي يتعجب من حسن بيت الطرماح في صفة الظليم[1] مجتاب.

وقلتُ في بلابل:

مررتُ بدكنِ القمصِ سودِ العمائمِ ... تغني على أعرافِ غيدٍ نواعمِ[2]
زُهينَ بأصداغ تروقُ كأنها ... نجومٌ على أعضادِ أسود فاحم
ترى ذهباً ألقتهُ تحتَ مآخر ... لها ولجيناً بطنه بالمقادم[3]
فيا حسنَ خلقٍ من نضارٍ وفضةٍ ... وخزٍّ وديباج أحمّ وقاتم

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أبي ذكوان، وأبي خليفة عن التوزي، قال: قال عمرو بن الحارث الجمحي: ما رأى الأصمعي مثل نفسه، قال الرشيد يوماً: أنشدونا أحسن ما قيل في وصف العقاب، فعذر القوم ولم يأتوا بشيء.

فقال الأصمعي أحسن ما قيل فيها:

باتتْ يورِّقها في وكرِها سَغبٌ ... وناهضٌ يخلسُ الأقواتَ من فيها[4]

وقال[5] امرؤ القيس:

كأن قلوبَ الطير رَطباً ويابساً ... لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي[6]

فقال الرشيدُ ما بعِل[7] القومِ بشيء إلا وجدت عندك فيه شيئاً.

وقال آخر في الغُراب:

وجرى ببينهم غداةَ تحملوا ... من ذي الأبارقِ شاحجٌ يتفيدُ
شنج النسا خِرقُ الجناح تخالهُ ... في الدارِ إثر الظاعنينَ مُقيدُ[8]

---

(١) الظليم: ذكر النعام.
(٢) غيد: جمع غيداء: شابة حسناء.
(٣) لجين: فضة.
(٤) السَّغب: العطش.
(٥) ديوان امرىء القيس: ١٤٥.
(٦) يشبّه القلب اليابس بالحشف، وقوله رطب ويابس كناية عن كثرة صيد العُقاب. والحَشَف: الرديء من التمر.
(٧) بعِل: دهِش.
(٨) النسا: عرق في القدم.

وقال آخر في عقعق:

إذا بارك اللَّهُ في طائرٍ فلا بارك اللَّهُ في عقعقِ
طويل الذنابي قصير الجناح متى ما يجد غفلةً يسرق
يُقلِّب عينين في رأسه كأنهما قطرتا زئبق

وقال آخر في الزنابير:

لها حماةٌ كأنها شعر تظهرُ مسوَدَّةً وتستترُ
قد أذهبتْ في الجبينِ غرَّتهُ إذ فضِّضتْ في جيادِنا الغرَر

وقلت في ظبية داجنة وقماري:

فيها مؤانسةٌ لنا وحشيةٌ تومي بناظرها إلى ظمياء[1]
تختالُ في متَصنْدلٍ متكفرٍ تبراً أضرُّ بفضةٍ بيضاء[2]
ودقيقةِ الأطرافِ هي جسيمةٌ ريًا تمرمرُ في متون ظِماء
ومغنياتٍ من وراءِ ستائرٍ مشقوقة الأوساطِ والأحناءِ
غنَّتْ فلم تحوج إلى مشهورةٍ وشَدَتْ فلم تفقر إلى الميلاء
تبدو على أعناقهنَّ أهلةً سودٌ تبدلُ ظلمةً بضياءِ

---

(١) ظمياء: عطشى.

(٢) متصندل: من الصندل: شجر عطري، متكفر: من الكافور: نبت عطري.

الفصل السادس من الباب العاشر

في ذكر بقية الحيوان من النسور والقنفذ والفأرة والحية والعقرب والحرباء والضب والبق والبراغيث وما يجري مع ذلك

كتب الصاحب أبو القاسم في وصف قنفذ:

قد أتحفتك يا سيدي بعلق نفيس، يتعجب المتأمل من أحواله، ويحار الناظر في أوصافه، ويتبلد المعتبر في آياته، فما تعرف بديهة النظر، أمن الحيوان هو، أم من الجماد، أم هو من الشجر، أم من النبات، ومن الناطق هو، أم من الصامت، أم من الحار، أم من البارد، أم من الرطب، أم من اليابس، حتى إذا أعطى متدبره النظر أوفى حقوقه، والفحص أكمل شروطه، علم أنه حي سلاحه في حضنه، ورامٍ سهامه في ضمنه، ومقاتلٌ رماحه على ظهره، ومخاتلٌ سره خلاف جهره، ومحارب حصنه من نفسه، يلقاك بأخشن من حد السيف، ويستتر بألين من مسه، حتى إذا جمع أطرافه فتحسبه رابية قتاد، أو كرة حرشف، ومتى أمن بسط أكنافه، وهي أمضى من الأجل، وأرمى من ثعل، إن رأته الأراقم رأت حينها، أو عاينته الأساود عاينت حتفها، صعلوك ليل يحجم عن دامسه، وحارس ظلام لا يجبن في حنادسه ـ شعر:

كـمـغـشم الـفـتـيـانِ غيـر مـهـبَّـل سهّـد إذا مـا نـام ليـلُ الهـوجـلِ [1]

لجرمه من الضب شبه، ومن الفأر شكل، ومن الورل نسبة، ومن الدلدل سبب، ولم أعمه عليك هو أنقد، ولذلك قيل: من لم يذق غماضا، ولم يرقد حثاثا بات بليلة الأنقد، وذكره الشيهم: وهو الشيظم، وأنثاه: عيمة معرفة لا يدخل الألف واللام عليها كتحوط ودجلة وكحل، ولا أعنيك هو القنفذ، ومن أحواله أن العرب تسلخ جلده، فتخرجه كالشحمة البيضاء، وتجعله من أنفس مآكلها، وأفخر مطاعمها، حتى تراه أرفع من الأفاعي، وأنفع من الجرذان، وتدعي جَهَلَةُ الأعرابِ أنه من مراكب الشيطان، وهو ألطفُ من الفرس حسّاً، وأصدقُ سمعاً، وقد جاء في

(١) المهبّل: من فقدته أمه. الهوجل: المفازة.

المثل: «أسمع من قنفذ». ومن أوابِده أنه يَسوّدُ إذا هرِم، ويصير كأبر ما يكون من الكلاب وأعظَم، ويُشبَّه به رَكَبُ المرأةِ عقب النتف والنَّورة، ولذلك قالَ ابنُ طارق في أرجوزة له:

يصيرُ بعدَ حَلقهِ ونورتهْ كقنفذِ القفِّ اختبى في فروته

ويشبَّهُ الساعي والنمام به لخبثهِ ومكره واضطرابه في ليله قال أيمن به خريم[1]:

كقنفذِ الرملِ لا تخفى مدارِجهُ خِبٌّ إذا نامَ ليلُ الناسِ لم ينم

وقال[2] عبدة بن الطبيب:

قومٌ إذا دَمسَ الظلامُ عليهم حدجوا قنافذَ بالنميمة تمرعُ

وقال جرير:

يَدبّون حَوْلَ ركياتهم دبِيبَ القنافذِ في العرفج[3]

فخذه يا سيدي ممتّعاً، واقبله شاكراً برّي فيه، فاحتط عليه احتياط الشحيح على ماله، والجبانِ على روحه، وارغب إلى الله تعالىٰ في حفظه، واسأله إطالة عمره، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ولم أسمع في صفة الهرّة أظرف من قول ابن طاطبا العلوي الاصفهاني قال فيها:

أرِقتْ مُقلتي لحبٌ عَرُوس طفلةٍ في الملاحِ غيرِ شموسِ
فتنثني بظلمةٍ وضياءٍ إذ بَدَتْ لي كالعاج في الأبنوس
تتلقّى الظلامَ من مُقلتيها بشعاع يحكي شُعاعَ الشموسِ
ذات دَلّ قصيرة كلما قا مت تهادى طويلة في الجلوس
لم تزل تسبغُ الوضوءَ وتنقى كلَّ عضوٍ لها مس التنجيسِ
دأبُها ساعةَ الطهارةِ دفنُ العنبرِ الرَّطبِ في الحنوطِ اليبيس

ومن أجود ما قيل في الحيّة قول[4] النابغة:

صِلٌّ صفا لا ينطوي من القصَرْ طويلةُ الأطرافِ من غيرِ خَفَرْ[5]
مهروتةُ الشدقينِ حوْلاءُ النظَرْ تَفترُ عن عُوجٍ حداد كالابَرْ[6]
داهية قد صغرت من الكبر

وقال الآخر:

خُلِقتْ لهازمُهُ عرين ورأسهُ كالقرص فلطح من دقيقِ شعيرِ

---

(١) أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد شاعر إسلامي.
(٢) البيت في الشعر والشعراء: ٦١٣/٢.
(٣) العرفج: شجر سهلي.
(٤) ديوان النابغة: ٢٠٣.
(٥) صل: حية صفراء. الصفا: الحجر الأملس.
(٦) مهروتة الشدقين: واسعتهما. عوج حِداد: كناية عن الأنياب الحادة.

فكأنَّ شدقيهِ إذا استعرضتَهُ ... شِدْقا عجوزٍ مضمضَتْ لطهورِ

وأجاد خلف في قوله:

ثم أتى بحيَّةَ ما تنجي ... أبتر مثل بيذقِ الشطرنجِ[1]

وليس من شعر المحدثين في الحية أحسن من قول[2] ابن المعتز:

كأنني ساورتني يومَ بينهم ... رقشاءُ مجدولة في لونها بلقُ[3]

كأنها حين تبدو من مكامنها ... غصنٌ تَفتح فيهِ النورُ والورق

ينسل منها لسانٌ تستغيث به ... كما تعوَّذَ بالسَّبابةِ الغَرِقُ

وقوله أيضاً:

أنعتُ رقشاء لا يحيى لديغتها ... لوقدِها السيف لم يعلق بهِ بللُ[4]

تلقى إذا انسلختْ في الأرض جلدتها ... كأنّها كمُ درع قدَّهُ بطلُ

وقلت:

وخفيفةِ الحركاتِ تقترعُ الرُّبى ... كالبرقِ يلمعُ في الغَمام الرائح

منقوطة تحكي بطونَ صحائف ... إبانَ تبدو من بطونِ صفائحِ

ترضى من الدنيا بظلٍّ صُخيرةٍ ... ومن المعايش باشتمامِ روائحِ

وهذا من قولهم: إن الحية إذا هرمت لم تحتج إلى الطعم واكتفت بالنسيم. وقال أعرابي:

وحنشٍ كحلقةِ السِّوارِ ... غايتهُ شَبرٌ من الأشبارِ

كأنهُ قضيبُ ماءٍ جاري ... يفترُّ عن مثل تلظّي النار

وقال آخر:

يرقونه فكأنما ... يعنى برُقْيتهِ سواه

وقال أبو العباس ثعلبُ: يُقال إنه لم يُسمع في صفة الحية أحسن من هذا البيت وأنشد:

كأنما لسانُه على فيهِ ... دخانُ مصباحٍ ذكتْ ذواكيه

وقال عبد الصمد بنُ المعذل في العقرب:

يا رُبَّ ذي إفكٍ كثير خُدعُه ... يبرُزُ كالقرنينِ حينَ يطلعهُ[5]

في مثلِ ظهرِ السبتِ حينَ تلطعه ... أسودُ كالسِّيحةِ فيه مصبعه

لا تصنع الرقشاء ما لا تصنعه

---

(١) البيذق: من حجارة الشطرنج.

(٢) ديوانه: ٢٩٢.

(٣) رقشاء: حيّة.

(٤) لديغة: ملدوغ.

(٥) الإفك: الكذب.

وقلت فيها أيضاً:

وإذا شتوتُ أمنتُ لسعةَ عقربٍ ... كالنارِ طارتْ من زنادِ القادحِ
قد خلتها تمشي بسبحة عابدٍ ... كلا لقد تمشي بصعدةَ رامح

وقال آخر:

يحملُ رُمحاً ذا كعوبٍ مُشتهر ... فيه سِنانٌ كالحريقِ يستعرْ
انفَ تأنيفاً على حسنِ قدرٍ ... تأنيف أنفِ القوسِ شُدَّت بالوتر

ومن أحسن ما قيل في الحرباء، وهي دويبة شبيهة بالعظاءة تأتي شجرة التنضبة، فتمسكُ بيديها غصنين منها وتُقابلُ الشمس بوجهها، فكلما زالت عين الشمس عن ساق، منها خلّت يديها عنه وأمسكت بساق آخر، حتى تغيب الشمس فتسبح في الأرض وترتعُ قال أبو داود:

أني أتيحُ بها حرباءُ تنضبةٍ ... لا يرسِلُ الساقَ إلا ممسكاً ساقا

والعرب تقول: أحزمُ من الحرباء، لأنها لا ترسل غصناً إلا أمسكت بآخر، ويشَبَّهُ به الرجلُ الحصيف[1] الذي لا يترك سبباً إلا أخذ بسبب أمتن منه.

قال[2] ابن الرومي في امرأة ورقيبها:

ما بالها قد حُسِّنت ورقيبُها ... أبداً قبيحٌ، قُبِّح الرقباءُ
ما ذاك إلا أنها شمسُ الضُحى ... أبداً يكونُ رقيبها الحِرباءُ

وقال بعض العلماء:

الحرباء: فارسيَّةٌ معرَبة وأصلها خورباء، أي حافظ الشمس، وخور: اسم للشمس بالفارسية.

وكان ذو الرُّمة أنعت العرب للحرباء قال[3]:

ودَوِّيَّةٍ جرداء جدَّاء خيَّمت ... بها صبواتُ الصيفِ من كل جانبْ
كأنَّ يدي حربائها متمسكاً ... يدا مُذنب يستغفرُ الله تائبْ

وقال[4] أيضاً:

وقد جعل الحرباء يصفرُّ لونهُ ... ويخضرُّ من حَرِّ الهجيرِ غباغبه
ويسبح بالكفينِ سبحاً كأنه ... أخو فجرة أوفى به الجذعُ صالبُهْ

وقال[5] أيضاً:

يصلى بها الحرباء للشمس مائلا ... على الجذل إلا أنه لا يُكبِّر

---

(١) الحصيف: الذكي.

(٢) ديوانه: ٣٨.

(٣) ليسا في ديوانه.

(٤) البيتان ليسا في ديوانه.

(٥) ليسا في ديوانه.

إذا حوّلَ الظلَّ العشيُّ رأيته   حنيفاً وفي قرنِ الضحى يتنصَّرُ

وهذه تشبيهاتٌ مصيبةٌ عجيبةُ الإصابة دالةٌ على شدة الحذق وثقوب الذهن، وقد أجمعت العرب أن ذا الرمة أحسنهم تشبيهات.

وقال[1] ابن المعتز:

ومهمهٍ فيه بيضاتُ القطا كِسرا   كأنها في الأفاحيصِ القواريرُ
كأنَّ حرباءَها والشمسُ تَصهرهُ   صال لنا من لهيبِ النارِ مقرور

وهذا تشبيهٌ مصيبٌ أيضاً أنّ للأول ماءً وطلاوة ليس لذا.

ومن أحسن ما قيل في الضب قول الحماني:

ترى ضبّها متسعاً رأسه   كما مدَّ ساعِده الأقطعُ
له ظاهرٌ مثل بردِ الوشيّ   وبطنٌ كما حسر الأصلع
هو الضبُّ ما مَدَّ سكانه   فإذا ضمّه فهو الضفدَع

ومن أجود ما قيلِ في البعوض، وأجمعه قول بعضهم أنشده أبو عثمان:

إذا البعوضُ زجلتْ أصواتها   وأخَذَ اللحن مُغنياتها
لم تُطرب السامع خافضاتها   وأرَّقَ العينينِ رافعاتها
صغيرةٌ كبيرةٌ أذاتها   يقصر عن بُغْيتها بُغاتها
ولا يصيب أبداً رُماتها   رامحة خرطومها قناتها

وقال آخر:

حنانة   أعظمها   أذاها

وقال[2] ابن المعتز:

بِتُّ بليلِ كلّهِ لم أطرفِ   قِرقسُهُ كالزبير المنتَّفِ
يثقبُ الجلدَ وراء المِطرفِ،   حتى ترى فيه كشكل المِصحفِ[3]

أو مثل روس العصفر المندَّف

وقلت:

غناءٌ يسخِنُ العينَ   وينفي فَرَحَ القلبِ
ولا يأتي على الزمرِ   ولا يجري مع الضَّرب
غِناءُ البقِّ بالليلِ   ينافي طرَبَ الشَّربِ
إذا ما طرَقَ المرء   جرى في طلقِ الكرب

---

(١) البيت والذي يليه ليسا في ديوان ابن المعتز. وأفاحيص: جمع افحوص: المكان الرملي تفحص في القطاة لتصنع بيضها.

(٢) ديوان ابن المعتز: ٢٩٠. والقرقس: البعوض.

(٣) في الديوان: «ويثقب». المِطرف: الرداء.

(٤) لعل الصواب: روس العصفر.

نحيفٌ راح كالشَّنِّ ولكنْ بات كالوَطْب
إذا ما نقبَ الجلدَ ةَ أخفى مَوْضِعَ النَّقب
سوى حُمرٍ خَفيّاتٍ تحاكي نقطَ الكتبِ

وقد ذكروا أن كل معنى للأوائل أخذه المتأخرون وتصرفوا فيه إلا قول عنترة في الذباب فإنه لم يتعرض له ولو رامه لافتضح وهو قوله:

وترى الذبابَ بها يُغني وحدَهُ زجلاً كفعلِ الشاربِ المترنمِ [1]
هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِهِ فعلَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ [2]

وقلت:

وبدا فغناني البعوضُ مُطرباً فهرقتُ كأس النوم إذ غناني
ثم انبرى البرغوثُ ينقطُ أضلعي نقطَ المعلمِ مُشكلَ القرآن
حتى إذا كشفَ الصباحُ قِناعَه قرأتْ ليَ الذِّبانُ بالألحانِ

وكتب أبو القاسم الآمدي:

وصار كاتب الديوان أفرغ من حجام ساباط وحسبك، أيدك الله، أن كاتب الديوان، في هذا الوقت، شيخٌ كان يخلفني ويخلف من كان يلي الديوان قبلي، يُعرَفُ بابن نوح، حسن الشيبة عظيم الهامة، كثير الصمت، لو رأيته لقلتَ: هذا نوح النبي ﷺ سمتاً ووقاراً، وليس له عملٌ خلف سلّته، إلا صيد الذبانِ، فهو أعلم خلق الله بأجناسها، إذا مرّ به ذبانٌ يطيرُ عرفه بطيرانه، قبل أن يسقط، فيقول: هذا ذكرٌ وهذا أنثى، وهذا ربيعيٌ وهذا صيفي، وهذا مُلِحٌ وهذا لجوجٌ، يسقط على العين والأنف ويُطردُ فيعود، وهذا يلسع وهذا ليس بلسَّاع، وهذا يقع على الأقذار وهذا نَزهٌ عيوف، لا يقع إلا على المآكل الحلوة، والأشياء العذبة، وهذا من صيد الليث، وهو جنس من العناكب، وليس هذا من صيده وهذا يقع في شبكة الخدرنق ـ وهو العنكبوت الطويل الأرجل ـ وهذا يسفد[3] وهو يطير، وهذا لا يسفد إلا واقعاً، وهذا مما يُدخلُ رأسه في رؤوس الذبان السبعة، التي تقع في الأكحال، لأنه أقرح، وهذا إن وقع رأسه في كحل عمي من يكتحل به، لأنه أحمر الجبهة، وهذا يقبل بدنه على خرطومه، وهذا لا يقبل، وهذا هَزِجٌ مغنٍ، وهذا صموتٌ، وهذا يُنذِرُ، وهذا يُبشِّرُ بطنينه وزمزمته، فيصدق فيما يَعدُ ويُوعِدُ، ويكون ذلك أخذاً بالكف.

وقد ألف فيها كتابا حَسنا فيه نوادر وعبر.

وظننته قد نظر في باب الذُباب والبعوض، من كتاب الحيوان، واستقى من هُناك ففاتحتهُ

---

(١) في ديوان عنترة: ١٣:
وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غرداً كفعل الشارب المترنم

(٢) في الديوان: «قدحَ المُكبّ»، والأجذم: الأقطع.
(٣) يسفد: ينزو.

فإذا هو لا يعرفُ الجاحظ، ولا سمع بكتاب الحيوان قط، ونظرت فإذا أبو عثمان لم ينته في معرفة الذُباب إلى شيء مما انتهى إليه وعرفه.

ومن أجود ما قيل في البراغيث قول بعضهم وقد ظرف في ذلك:

فـيـا لـعـبـادِ اللهِ مـا لـقـبـيـلةٍ ... إذا ظهـرتْ في الأرضِ شَدَّ مُغيرها
فـلا الـدينُ ينهـاهـا ولا هي تنتهي ... ولا ذو سـلاح من مَعـدٍّ يضِيـرُهـا

وقال آخر:

هنيئـاً لأهـل الـرّيِّ طيبُ بـلادهم ... وأن أميـرَ الـرِّيِّ يحيىٰ بنُ خـالـدِ
بـلادٌ إذا جُنَّ الـظلام تـفـاقـرت ... بـراغيثهـا من بينِ مـثنى وواحـدِ
ديـازِجـةٌ سـودُ الـجُـلودَ كـأنّـهـا ... نِعـالُ بـريـد أرسلتْ في المـزاود(١)

وقلت:

ومن براغيث تنفي النوم عن بصري ... كـأنَّ جَفنيَّ عن عـيني قَصيـرَانِ
يـطلبنَ مني ثـأراً لستُ أعـرفـهُ ... إلا عـداوة سـودانٍ لـبـيـضـان

وقد تكاهن الرّماحُ الأسدي فأحسن في قوله:

تَـطاوَلَ بـالفسـطاط ليلي ولم يكن ... بحنـو الفضـا ليلي عليّ يـطولُ(٢)
يـؤرقـنـي حُـدبٌ صـغـارٌ أذلـةٌ ... وإنّ الـذي يـؤذيـنـهُ لـذلـيـلُ
إذا مـا قـتلنـاهـنَّ أضعـفنَ كـثـرةً ... علينـا ولا ينعى لهـنَّ قتيـلُ
ألا ليتَ شعـري هـل ابيتنَّ ليلةً ... وليس لبـرغـوثٍ إلـيّ سبيـلُ

وقال ابن المعتز:

وبـراغيث إن ظفـرنَ بجسـمي ... خلتُ في كلِّ موضعٍ منهُ خـالا(٣)

وأما القملُ فأعجبُ ما قيل فيه قول بعضهم:

للقمـلِ حـولَ أبي العـلاءِ مصارعُ ... من بينِ مَقتـولٍ وبيـن عَـقِيـرِ
وكـأنـهـنّ إذا عَـلونَ قـمـيـصَـهُ ... فـردٌ وتـوأمَ سمسـمٍ مقـشـورِ

وقد أبدع جرير في قوله(٤):

تـرى الـصيبـانَ عـاكفـةً عليـهِ ... كـعنفقـة الـفـرَزْدَقِ حين شـابـا

وقلت في النمل:

وَحيٍّ أنـاخـوا بـالمنـازل بـاللوى ... فصـاروا بهـا بَعـدَ القـطارِ طينـا
إذا اختلفـوا في الـدَّارِ ظلتْ كأنها ... تبـدّدُ فيهـا الـريحُ بـزرَ قـطونـا

---

(١) الايازج: من الخيل. (معرّب ديزه).

(٢) الفسطاط: المدينة. مجتمع أهل الكورة.

(٣) ليس في ديوانه. الخال: نقطة سوداء على الجلد.

(٤) ليس في ديوانه. جون: سُود.

إذا طرقوا قِدري مع الليلِ أصبحتْ بواطنُها مثلَ الظواهرِ جُونا
لهم نظرةٌ يُمنى ويُسرَى إذا مشوا كما مرَّ مَرغُوبٌ يَخافُ كمينا
ويمشون صفاً في الدِّيارِ كأنّما يجرّونَ خيطاً في الترابِ مُبينا
ففي كلِّ بيتٍ من بيوتيَ قريةٌ تضُمُّ صُنوفاً مِنهُمُ وفنُونا
فيا مَنْ رأى بيتاً يضيقُ بخمسةٍ وفيهِ قريّاتٌ يَسعن مئينا

قالوا ومن الأبيات الجامعة للشرّ قول بعض القدماء:

به البقُّ والحمّى وأُسْدٌ خفيّةٌ وعمرو بنُ هند يعتدِي ويجورُ
وبالمصر برغوثٌ وبقٌّ وحصبةٌ وحُمّى وطاعونٌ وتلك شرور
وبالبدوِ جُوعٌ لا يَزالُ كأنّهُ دُخانٌ على حدِّ الأكامِ يمورُ(١)
ألا إنما الدنيا كما قالَ رَبُّنا لأحمدَ حُزنٌ تارَةً وسرورُ

وقلت في الجراد:

أجنحة كأنها أرديةٌ من قصبِ لكنها مَنقوطَةٌ مثل صدورِ الكُتبِ
وأرجل كأنها مناشرٌ من ذهب

وقلت:

وأعرابية تَرْتادُ زاداً فتمرقُ من بلادٍ في بلادِ
غدتْ تمشي بمنشارٍ كليلٍ تبوعُ به قرارةَ كلِّ وادي
وتنشر في الهواء رداءَ شربٍ على أرجائه نقطُ المِدَادِ
وتلبسُ تحتَ ذاك عطاف لاذٍ على أكنافه ودع الجساد

ومن عجيب ما قيل في الفأر: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن سعيد، عن الرياشي، قال دخل أعرابيّ البصرة، فاشترى خبزاً فأكله الفأر فقال في ذلك:

عجّلْ رَبَّ الناسِ بالعقابِ لعامراتِ البيتِ بالخرابِ
كحل العيونِ وقصّ الرقابِ مجردات أحبل الأذنابِ
مثل مدارِ الطفلةِ الكعابِ كيف لها بأنمرٍ وثّابِ
مُنهرتِ الشدقِ حديدِ النابِ كأنما يكشرُ عن حرابِ(٢)

يفرسها كالأسد الوثّاب

آخر الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني والحمد لله حق حمده
وصلواته على محمد وآله وصحبه والخلفاء الراشدين

---

(١) الأكام: المرتفعات. يمور: يضطرب.

(٢) منهرت: واسع.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله على ما أراد بنا من عاجل الخير وآجله، ومؤتنفه وراهنه، فجعل لنا في أنفسنا مواعظ، وفي أبداننا زواجر يرشدنا ويهدينا ويكفنا عما يُردينا من مرض بعد صحة، وشيبة بعد شيبة، لنعتبر بتغير الأحوال علينا، وتغيير الحدثان إيانا، حمداً تتألف أشتاتُهُ وتتصلُ مواده، وصلى الله على محمد وآله.

هذا كتاب المبالغة

في صفة الشباب والشيب والخضاب والعلل والموت والمراثي
والزهد وما يجري مع ذلك وهو:

الباب الحادي عشر من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول

في الشباب والشيب والخضاب وما يتصل بهما

فأولُ ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصُولي قال: سمعتُ ابن الأعرابي يقولُ: لا أعرفُ في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب أحسن من قول أبي حازم الباهِلي على قُرب عهده:

لا تكـذبنَّ فمـا الـدُّنيا بـأجمعهـا ... من الشبـابِ بيـومٍ واحـدٍ بَـدلُ
شَـرْخ الشبابِ لقـد أبقيتَ لي أسفـاً ... مـا جـدَّ ذكـرك إلا جَـدَّ لي ثكـلُ(١)
كفـاك بـالشيب ذنبـاً عنـد غـانيةٍ ... وبـالشبـابِ شفيعـاً أيهـا الـرَّجُـلُ(٢)

وأحسن منه عندي قول منصور النمري:

مـا تـنـقـضـي حسـرةٌ ولا جـزعُ ... إذا ذكـرتُ شبابـاً ليس يُـرتجَـعُ
بـانَ الشبـابُ ففـاتتني بشـرَّتـهِ ... صـروفُ دهـرٍ وأيـام لنـا خُـدعُ(٣)

---

(١) شرْخ الشباب: أوله. الثكل: فقدان عزيز.

(٢) الغانية: الشابة الحسناء. وفي نسخة: «بالشيب عيباً».

(٣) شِرة الشباب: نشاطه.

مـا كنتُ أوفي شبـابي كُنـهَ غِـرّتِـه حتى انقضى فـإذا الـدنيـا لـهُ تبـع

قوله: «فإذا الدنيا له تبع» من أشرف كلام وأنبله وأجمعه وأوجزه، وسمعه الرشيد فقال: نعم، لا خير في دنيا لا يُخطر فيها ببرد الشباب.

وقال محمود الوراق[1]:

لا يـحسـن النسـك والشبـاب ولا الـبـطالاتُ والـخـضـابُ
كـلُّ نـعـيـمٍ وكـلُّ عـيشٍ قـبـلَ الثـلاثيـنَ يُـسـتـطابُ

وقال غيره:

فقـالتْ وهـل بَعـدَ الثلاثينَ مَلعب فقلتُ وهـل قبـلَ الثـلاثينَ ملعبُ

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي قال: حدثنا الفضل بن الحباب الجْمحي، قال: حدثنا محمد بن سلام قال: من كلام يونس بن حبيب:

الكبر وكل عيب، والعزل وكل ذم، والولاية وكل مدح، والشباب وكل صحة، واليسار وكل فضيلة، والفقر وكل ذلة.

وقال[2] ابن المعتز:

لهفي على دَهـرِ الصبـا القصيـرِ وغُـصنـهِ ذي الـوَرَقِ الـنضـيـرِ
وسُـكـرهِ وذَنْـبـهِ الـمـغـفـورِ وَمَـرَحَ الـقـلوبِ فـي الـصُّـدورِ
وطـولِ حبـلِ الأمـلِ المجـرورِ فـي ظـلِّ عيشٍ غـافـلٍ غـريـرِ
أغـدو وجنـى الـصبـا أمـيـري مـلء العيـونِ الْغـانيـاتِ الحـورِ

وقال الحماني:

وأيـامـهُ الـغُـرُّ مثـلُ الـخـطوطِ في المسـكِ فـوقَ خُـدودِ الحسانِ
لـيـاليَ أنـت جُـذيـلُ الصِّـبـا وأيـامـه وعُـذيـق الـغـوانـي[3]

وقال أيضاً:

أيـام كـنـتُ مـن الـغـوانـي كـالـسـوادِ مـن الـقـلوبِ
فـإذا اسـتـطعـنَ خـبـأنـنـي بـيـن الـمخـانقِ والـجـيـوب

وقال[4] أبو عبد الله بن المعتز:

يـا قلبُ ليسَ إلى الصبا من مـرجعٍ فـاحـزنْ، فلستَ بمثلهِ مفجـوعـا

وقال[5] يصف نفسه في شبيبته:

---

(١) هو محمود بن الحسن الورّاق: بغدادي خيرٌ شاعر له نظم من المواعظ: مات سنة ٢٢٥ هـ.

(٢) ليست في ديوانه.

(٣) جُذيل الصبا: أوائله.

(٤) ديوانه: ٢٦٧. وفيه: «أفنى العزاء همومُ قلب مُوجعٍ».

(٥) ديوانه: ٣٠.

من بعدِ ما قد كنتُ أيَّ فتىً، كقضيبِ بانٍ ناعمٍ رَطْب
فإذا رأتني عينُ غانيةٍ، قالتْ أوابدُ طرفها: حسبي [1]

ونحوه قوله[2]:

إذا ما تمشت فيَّ عينُ خريدةٍ فليستْ تخطّاني إلى من ورائيا

وقال أعرابي:

سقى اللهُ أياماً لنا ولياليا لهنَّ بأكنافِ الشبابِ ملاعبُ
إذ العيشُ غضٌّ والشبابُ بغرةٍ وشاهدُ آفاتِ المحبينَ غائبُ

وإنما آتي بالبيت والبيتين، لأني أعتمد الفقرة فأوردها، وأقصد النادِرة فأكتبها، وأتوخى المعنى الشريف، واللفظ الظريف، فأزفهما إليك، وأجلوهما عليك، ولو تحذلقت في المعاني، وأضفتُ إلى كل شيء منها شكله، وقرَنتُ إليه مثله، أو أكثرت من عدد ما أورده من الأبيات، لصار كل فصل من فصول كتابنا باباً طويلاً، وكل باب منه كتاباً كبيراً، حتى يكون جديراً بالإملال والإضجار وداخلاً في حدّ الإكثار والإهذار، ونعوذ بالله منهما.

وقلتُ في معنى ابن المعتز:

تذكرُ إذ أنتَ قضيبٌ رطيب عليه للحسنِ رِداءٌ قشيبْ
خالطَ ماءَ الحسنِ في وجههِ ماءُ شبابٍ لم يَرقه المشيبْ
إذا مشى يخطر في بردِهِ غايرَ فيه الشكلَ حسنٌ رطيبْ
كنتَ قضيبَ البانِ لم يقتضبْ وأنتَ من بَعدُ قضيبٌ قضيبْ
فاللهو مُغبرٌ مقاديمه مُعفّرُ الوجهِ حريبٌ سليبْ[3]
خذ بنصيبٍ من سرورِ الصبا فما لشيخٍ من سُرورٍ نصيبْ

وأول من بكى الشباب، وذمّ المشيب عبيد بن الأبرص في قوله[4]:

والشيبُ شَينٌ لمن أمسى بساحتهِ لله دَرُّ سوادِ اللّمةِ الخالي

وقال مُزاحم العقيلي:

عزاء على ما فاتَ من وصلِ خلّةٍ وريق شبابٍ سَلّهُ الشيبُ منجلي[5]
ومثل لياليناا بخطمة فاللوى بلينَ وأيامٍ قصار بمأسلِ[6]

وقد أحسن أبو العتاهية في قوله[7]:

(١) في الديوان: «قالت لرائد لحظها: حسبي».
(٢) ديوانه: ٤١٧.
(٣) معفّر: عليه تراب. الحريب: ماله الذي سُلِبَه.
(٤) ديوانه: ١١١. اللمة: اللحية. الخالي: السابق.
(٥) ريق الشباب: أوله. الخلة: الصاحبة.
(٦) خطمة، واللوى، ومأسل: من دارات العرب.
(٧) ديوان أبي العتاهية: ٢٣.

عـريتُ من الشبابِ وكـانَ غضّـاً كمـا يَعـرى من الـوَرَقِ القضيـبُ
ألا لـيتَ الـشبـابَ يـعـودُ يـومـاً فـأخبـرَهُ بمـا فـعـلَ المشيـبُ

وقلت:

قـوامٌ كمـا شـاءَ المشيبُ معـوّجُ ووجـهٌ كمـا لا تشتهيـه مُشنّـجُ[1]
وفـرعٌ جلاه الشيبُ حتى كـأنّمـا تغشّـاه معروفٌ من الصبـحِ أبلجُ
وعهدي بـه بـالأمس جَوْنـاً كـأنمـا تجلّله عُـرفٌ من الليـلِ أدعـجُ[2]
ليـاليَ جـاءتـك الليالي عـرائسـاً تَـروقُ وتصبي أو تضـوعُ وتـأرجُ[3]
حسـانَ الـوجـوهِ كـالـريـاضِ أنيقـةً تخيطُ لهـا كفُّ الغمـامِ وتنسـجُ
رِقـاقُ جـلابيبِ النسيم أريجـةٌ لهـا نكهـةٌ كـالمسكِ إبَّـانَ يُمزَجُ

وقال رُؤبَة وأحسن في ذلك:

كـرَّ الـجـديـدانِ بـنـا وانـطلقـا ولا يـجـدَّانِ إذا مـا أخـلقـا[4]
ولـو يـبيعـانِ الـشبـابَ أنفـقـا والشيب لا سـوقَ لـه إن سُـوِّقـا

وقال المقنع[5] أظنه:

وذادت عـن هـواه الـبـيض بـيضٌ لهـا في مَفـرقِ الـرأسِ انتشـارُ
جـديـدٌ والـلبـيسُ أعـزُّ مـنـه وأحـرَى أنْ ينـافسَـهُ التجـار[6]

وقد أحسن الفرزدق في قوله[7]:

وفي الشيبِ لـذّاتٌ لخادعِ نفسـهِ ومـن قبلهِ عيشٌ تـعلّلَ جـادبُـهْ[8]

ومن الشعر الجذل السهل، المطيع الممتع، القريب البعيد، الممكن المتعذر قول النمري:

ومنـازل لـك بـالحمى وبـهـا الخـليطُ نـزولُ
أيـامـهـنَّ قَـصـيـرةٌ وسُـرورُهـنَّ طـويـلُ
وسـعـودُهـنَّ طـوالـع ونـحـوسُـهُـنَّ أفـولُ

---

(١) مشنّج: متقبّض.

(٢) جون: سُود. أدعج: أسود.

(٣) تصبي: تشوق. تأرج: يتضوع ريحها.

(٤) الجديدان: الليل والنهار.

(٥) المقنّع الكِندي: هو محمد بن عميرة بن أبي عميرة بن أبي شمر: شاعر من أهل حضر موت مولده بها. اشتهر في العصر الأموي، وكان مقنعاً كل حياته مات سنة ٧٠ هـ. (الأعلام: ٦/٣٢٠).

(٦) اللبيس: الثوب الخَلَق.

(٧) ديوانه: ٤٥.

(٨) تعلل: أبدى حجّة. جادبه: عائبه.

والمالكية والشباب وقَيْنَةٌ وشَمولُ[1]

ومن أبلغ ما قيل في كراهة الشيب قول[2] البحتري:

ووددتُ بياضَ السيفِ يومَ لقينني ... مكانَ بياضِ الشيبِ حَلَّ بمفرقي

وقد أحسن أبو تمام الاحتجاج للشيب في قوله[3]:

فأصغري أنّ شيباً لاحَ بي حدثاً ... وأكبري أنني في المهدِ لم أشبِ

لا تنكري منه تجديداً تجلله ... فالسيفُ لا يُزدرَى إن كان ذا شطبِ[4]

ولا يروعنك إيماضُ القتير بهِ ... فإنَّ ذاك ابتسامُ الرأي والأدبِ[5]

ووجدت بيتاً فاسد السبك فأصلحته وقلت:

نجومُ مَشيْبٍ في ظلامِ شَبيبةٍ ... وما حُسنُ ليلٍ ليسَ فيهِ نجومُ

وقال أبو عبد الله الأسباطي:

لا يَرُعْكِ المشيبُ يابنةَ عبد الله ... فالشيبُ زينةٌ ووَقارُ

إنما تحسنُ الرياضُ إذا ما ... ضحكت في خلالها الأنوار

وقال الخوارزمي ـ متأخر:

وقالوا أفِقْ من سكرةِ اللهو والصِّبا ... فقد لاحَ صُبحٌ في دُجاكَ عجيبُ

فقلت لهم: كفُّوا الملامَ وأقصروا ... فإنَّ الكرَى عندَ الصباحِ يطيبُ

وهذا معنى مليح أظنه ما سبق إليه.

وأول من تهاون بالشيب جرير في قوله[6]:

يقولُ العاذلاتُ عَلاكَ شَيبٌ ... أهذا الشيبُ يمنعني مراحي

وتبعه الناس فمن أحسنهم قولاً[7] فيه ابن الرومي حيث يقول:

لاحَ شيبي فرحتُ أمرحُ فيهِ ... مَرَحَ الطرفِ في العذارِ المحلى

وتولى الشبابُ فازددت غياً ... في ميادين باطلي إذ تولّى

إنَّ من ساءَهُ الزَّمانُ بشيءٍ ... لأحقُّ امرىءٍ بأن يتسلى

وهذا من قول أحمد بن زياد الكاتب:

ولما رأيتُ الشيبَ حلّ بياضُه ... بمِفرَقِ رأسي قلتُ للشيب مرحبا

ولو خلتُ أني إن كففتُ تحيتي ... تنكبَ عني رمتُ أن يتنكّبا

---

(١) القينة: المغنية الشَّمول: الخمرة.

(٢) ديوان البحتري: ٢/٢١٣ عـ.

(٣) ديوان أبي تمّام: ٢٠.

(٤) في الديوان: «منه تخديداً تخلّله». التخديد: هزل وتشنج. والشَّطب: خطوط تلمع في السيف.

(٥) في الديوان: «فلا يؤرقك إيماض». القتير: الشيب أو أوله.

(٦) ديوان جرير: ٧٦.

(٧) ديوان ابن الرومي: ٥/٨١.

ولكنْ إذا ما الكرهُ حلَّ تسامحتْ به النفس يوماً كان للكرهِ أذهبا

وفي ألفاظ هذه الأبيات زيادة على معناها، وأبيات ابن الرومي متوازنة اللفظ والمعنى مع إصابة تشبيهه في قوله:

مرح الطرفِ في العذار المحلى

وقد بالغ في ذم الشيب أبو تمام فقال(١):

دقةٌ في الحياةِ تُدْعى جمالاً مثل ما سمِّيَ اللديغُ سليما(٢)

غرَّةٌ مرَّةٌ ألا إنما كنت أغرّاً أيامَ كنت بهيما(٣)

وقال(٦) ابن المعتز:

لقد أبغضتُ نفسي في مشيبي فكيفَ تحبّني الخَوْدُ الكَعابُ(٥)

وقلت:

فلا تعجبا أن يعبنَ المشيبَ فما عِبْنَ مِنْ ذاك إلا معيبا

إذا كانَ شيبي بغيضاً إليَّ فكيفَ يكون إليها حبيبا

وقد كنتُ أرفُلُ بردَ الشبابِ قشيباً وأرفُلُ وشْياً قشيبا

إذا ملتُ ملتُ قضيباً رطيبا وإن صلت صلت قضيباً قضوبا

ومن مليح ما قيل في الشيب وهزء النساء من صاحبه.

قول كشاجم:

ضَحكتْ من شيبةٍ ضحكتْ في سوادِ اللِّمةِ الرجلهْ(٦)

ثم قالتْ وهي هازلةٌ جاءَ هذا الشيبُ بالعجله

قلتُ: من حبيك لا كِبر شابَ رأسي فانثنتْ خجلهْ

وثنتْ جَفناً على كحلٍ هي منه الدهرَ مُكتحله

أكثرتْ منهُ تُعجُبها وهي تجنيهِ وتضحكُ لهْ

ومن مليح ما قيل في ذلك وغريبه قول الآخر:

فظللتُ أطلبُ وصلها بتعطفٍ والشيبُ يغمزُها بان لا تفعلي

وذكر مسلم بنُ الوليد كراهة الشيب، وكراهة مفارقته، إذا جاء فأحسن حيث يقول(٧):

الشيب كُرهٌ وكُرهٌ أن يُفارقني أحْببْ بشيءٍ على البغضاءِ مودُودُ

---

(١) ديوان أبي تمّام: ٢٥٧.

(٢) في الديوان: «تدعى جلالاً».

(٣) في الديوان: «غرة بهمة».

(٤) ديوانه: ٨٢.

(٥) الخَود الكعاب: الفتاة الشّابّة.

(٦) اللمة: الشعر ما يلي شحمة الأذن.

(٧) الشعر والشعراء: ٧١٤/٢.

فتبعه علي بن محمد الكوفي فقال:

بكى للشيبِ ثم بكى عليهِ ... فكانَ أعزّ فقداً من شبابِ
فقلْ للشيبِ لا تبرح حميداً ... إذا نادَى شبابُك بالذهاب

ونقله إلى موضع آخر فقال:

لعمركَ للمشيبُ عليَّ مما ... فقدتُ من الشبابِ أشدّ فَوتا

هذا البيتُ مُضطربُ اللفظ والرصف والصنعة فاعتبِرهُ:

تملّيتُ الشبابَ فكانَ شيباً ... وأبليت المشيبَ فصارَ مَوتا

وكان من تمام الصنعة أن يقول «أشدّ فقداً» لقوله «فقدت من الشباب».

وقلت:

والشيب زورٌ يجتوى وقربُه ... لا يرتضى وفقدُهُ لا يُشتهى
قد يشتهي كلُّ امرىءٍ بُلوغَه ... وقلَّ من يبلغه إلا شكا
كأنما الشبابُ كانَ فرقةً ... له من الأنفسِ حبٌّ وقِلى

وقد أجاد الأعرابي في قوله في صفة الشيب:

أكره ضيف، وأبغض طيف، أحب غائب، وأفجع آيب.

وقلت:

تكلف مدحَ الشيبِ عندي مُعمَّرٌ ... وهل يمدحنَّ الشيبُ إلا تكلفا
فقلت: انظرني أوّلا منه مؤلماً ... لقلبِ فتىً أو آخراً منه مُتلفا
تصرَّم من عمري ثلاثونَ حِجَّةً ... لبستُ بها ثوبَ الشّبابِ مُطرَّفا
شبابٌ أطارَ الوجدَ عنّي غيابُهُ ... وصرفُ زمانٍ لم أجد عنه مصرِفا
أقمتُ به صدرَ السرورِ فلم يَزَلْ ... به الشيبُ حتى ردّه مُتحنّفا
فطِرْ بجناحِ اللهوِ في زَمَنِ الصِّبا ... فأخلِق به إنْ شئتَ أنْ يتحيفا
تناولَ وخْط الشيب أطرافَ عارضي ... فأصبحَ ليلاً بالصباحِ مُشنَّفا

ومن المشهور قول[1] دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلمَ من رجلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى

ومما يحتج به للمشيب على الشباب، أن الشباب قلما يبقى أكثر من أربعين سنة وقد يعيش المرء في الشيب التسعين والمائة، وقال امرؤ القيس في ذلك:

ألا انَّ بعدَ الفقرِ للمرءِ قنوةً ... وبعد المشِيبِ طولَ عُمرٍ ومَلبَسَا[2]

وقال أعرابي:

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/٧٢٨.

(٢) البيت في ديوان امرىء القيس: ١١٨. وفيه: «بعد الفقر». ومعناه: بعد الشدة رجاء. والقِنْوة: ما اقتنيته من المال.

مـا بـالُ شيـخٍ قـد تخـدّد لحمهُ أبـلى ثـلاثَ عـمـائـم ألـوانـا
سـوداءُ داجيـةٌ وسحـقٌ مفـوّفُ وأجـدّ لـونـاً بعـد ذاك هجـانـا
قـصّـر الليـالـي خـطوُهُ فتـدانـي وحَنَـوْنَ قـائمَ ظهـرهِ فتحـانى[1]
والـمـوتُ يـأتي بعـد ذلـك كلّهِ وكـأنـمـا يعـني بـذاك سـوانـا

لا أعرف في وصف الشيب، من أول ما يبتدىء إلى أن ينتهي، أحسن من هذا، وقوله «وكأنما يعني بذاك سوانا» من أبلغ ما يكون من الموعظة.

وقلت:

وشـبـابٍ خـفَّ نـازلـه لـيتـه عـادَ كـمـا كـانـا
ومـشـيـبٍ آبَ نـازلـهُ لـيتـه إذ كـان مـا بـانـا
خـانـني دهـرٌ وثـقـت بـهِ رُبَّ مـوثـوقٍ بـه خـانـا

وأنشدنا أبو أحمد:

وأنكـرتُ شمسَ الشيبِ في لـيـلِ لمتي لعمـري لليلي كـانَ أحسنَ مـن شمسي
كـأنَّ الصبـا، والسمتُ بـطمسُ نُـورَهُ، عـروسُ أنـاسٍ مـاتَ في ليلةِ العُـرسِ

ومن بديعِ الاستعارة في الشيب قول[2] البحتري:

في الشيبِ زَجْـرٌ لـهُ لـو كـانَ ينـزجـرُ وبـالـغٌ مـنـهُ لـولا أنـه حَـجَـرُ
إبيضَّ مـا اسـودَّ من فـوديـهِ وارتجعتْ جليـةَ الصُّبحِ مـا قـد أغفـلَ السَّحرُ[3]
ولـلفتـى مُهـلةٌ فـي الـحـبِّ واسـعـةٌ مـا لم يمتْ في نـواحي رأسـهِ الشَّعَـرُ

ولا أعرف في الشيب أجمع من قول[4] أبي تمام:

غـدا الـشيبُ مختَـطاً بفـوديَّ خُـطةً سبيـلُ الـرَّدَى منهـا إلى النفسِ مهيَعُ[5]
هـو الـزورُ يجفى، والمعـاشـرُ يُجتـوى وذو الالـف يُقـلى والـجـديـدُ يُـرقَّـعُ[6]
لـهُ مـنـظرٌ في الـعـيـنِ أبيضُ نـاصـع ولـكـنـهُ فـي الـقـلـبِ أسـودُ أسـفـعُ
ونحن نـرجّيـهِ على الـكُـرهِ والـرِّضـا وأنفُ الفتى فـي وجهـهِ وهـو أجـدعُ[7]

ومن أعجب ما سمعتُ في الخضاب قول بعضهم:

عـجـبَـتْ لـمّـا رأتـنـي غـادةٌ مـا بـيـن غـيـدِ

---

(١) في الأصل: «فتدانا. . . فتحانا».

(٢) ديوان البحتري: ٢/ ٢٦١ عـ.

(٣) في الأصل: «ارتجست». الفَوْد: شعر الرأس مما يلي الأذن.

(٤) ديوان أبي تمّام: ١٦٨.

(٥) في الديوان: «طريق الردى». طريق مهيع: واسع. وفي الديوان: «غدا الهم».

(٦) يجتوي: يكره. يُقلى: يُكره.

(٧) في الديوان: «من وجهه وهو». أجدع: اقطع.

ضحكَتْ إذ أبصرتْني قد تزينْتُ لعيدِ
ثم نادينَ جميعاً يا عتيقاً في جديدِ
غرَّنا منكَ خُضابٌ قد تراءى من بعيدِ
لا تغالطْنا فما تصلحُ إلا للصُّدُودِ

وقال[1] ابن الرومي:

فدعتْهُ إلى الخضابِ وقالتْ إنّ دفنَ المعيبِ غيرُ مُعيبِ

وقال:

عذارٌ كمثلِ الأتحمي مطرّزٌ وفرعٌ كلونِ العبقرِ محبرُ[2]
وقد كانَ من صبغِ الشبابِ ممسّكاً فأصبحَ في كفِّ المشيبِ مكفرُ[3]
فقلْ للعذولِ أقصرِ الآن إنني على الرَّغمِ من أنفِ الصَّبابةِ مُقصرُ
كَفَاك تكاليفَ الملامِ كواكبٌ من الشيبِ في ليلِ الشبيبةِ تزهرُ
لوائح من تحت الخضابِ كأنما سنى الصبح في وجهِ الدُّجنَّة يكشر[4]

وأول من ذكر أنه شاب من غير كبر ابن مقبل في قوله:

ما شبتُ من كبرٍ ولكني امرؤٌ عالجت قرعَ نوائبِ الدهرِ
فرأيتها عضلا موقحة عزت فما تُسطاع بالكسرِ
فلذاك صرت معَ الشبيبة نازلا في غير منزلتي من العمرِ

ومن أجود ما قيل في تقارب الخطو قول أبي الطمحان:

حنتني حادثاتُ الدَّهرِ حتى كأني خاتلٌ أدنو لصيدِ
قريب الخطو يحسبُ من رآني ولستُ مقيداً أني بقيدِ

وقد أحسن الآخر في قوله أيضاً:

الدَّهرُ أبلاني وما أبليتُهُ والدَّهرُ غيّرني وما يتغيّرُ
والدَّهرُ قيّدني بقيدٍ مُبرَمٍ فمشيْتُ فيه وكلُّ يومٍ يقصرُ

وقوله: «وكل يوم يقصر» من أحسن العبارة، عن ازدياد الضعف، وتقاصر الخطو في كل يوم.

ومن أعجب ما قيل في الصَّلَع قول الأعرابي:

قد ترك الدهر عصاتي صفصفا فصار رأسي جبهةً إلى القفا
كأنما قد كان ربعاً فعفا يمسي ويضحي للمنايا هدفا

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٢/ ١٢٥. والخُضاب: صباغ للشعر وغيره.
(٢) الأتحمي: الأسود.
(٣) ممسّكاً: ممزوج بالمسك. ومكفر: ممزوج بالكافور وهو طيب.
(٤) الدُّجنّة: الظلام.

ومثله قول الآخر:

ثم حسرت عن صفاةٍ تلمع ... فأقبلتْ قائلةً تسترجعُ

ما رأس ذا إلا جبيناً أجمع

ومثله أيضاً:

جلاه عن أهل الهوى قبح انجلا ... جبين وجهٍ وجبينٌ في القفا

وقال ابن الرومي [1] في معناه يهجو رجلاً يجذب طرته من قفاه إلى وجهه:

يجذبُ من نقرته طُرَّةً ... إلى مدى تقصرُ عن نيله

فوجههُ يأخذ من رأسه ... أخذَ نهارِ الصيفِ من ليلهْ

وأنشدنا أبو أحمد، عن الصولي لخلف بن خليفة:

وقام إلى رأسهِ حاذقٌ ... فصيرَ من رأسهِ قرعَهْ

يُريك بريقاً كطست الجلا ... بيض كما نصب الطلعه

فما شوق عيني إلى قرة ... كشوقِ يميني للصَّلْعه

يكاد وإن لم يردها الضميرُ ... تشوقُ الحليم إلى صَفْعه

فملنا عليهِ بأيمانِنا ... نسائلهُ عن خبرِ الوقْعَه

قال مالك[2] بن أسماء:

أواري بذيّال على العقبِ جُنّتي ... إذا الصُّلعُ واروا هامَهم بالقلانسِ [3]

تودُّ النساء المبصراتي أنّهُ ... يعار فيستأجرنه للعرائسِ

وقلت في مدح الحلق:

قُتل الشعرُ من خَفيفٍ ثقيلٍ ... كثيرٍ على الرؤوسِ قليل

ضِيق الشعر حينَ طال قليلاً ... ضامَه اللهُ من قصيرٍ طويل

إنما الحلقُ راحةٌ وجمالٌ ... فاشدُدِ الكفّ بالمريحِ الجميلِ

ما أرى للحسامِ يصدأ حُسناً ... إنما الحسنُ للحسامِ الصقيلِ [4]

ويشبهون الرأس المحلوق بالصخرة، أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بنُ دريد، عن عبد الرحمٰن، عن عَمه قال: كان يزيد بن الطثرية زِير نساء، يتحدث إليهن فتحدث إلى امرأة من بني أسد فهويها وهويته، فخطبها إلى أبيها فردّه، وخطبها ابنُ عم له فزوجه فدخل عليها ابن عمها وهي تقول:

لم يبق إلا شبحاً وعظما ... وأدمعاً تنهلُّ منها سجما

---

(١) البيتان ليس في ديوان ابن الرومي.

(٢) هو مالك بن اسماء بن خارجة الفزاري: من فحول الشعراء في العصر الأموي.

(٣) القلانس: جمع القلَنسوة: غطاء الرأس، ذيّال: ذو ذَيْل طويل. الهام: الرؤوس.

(٤) الحسام الصقيل: السيف.

علمت ما بي فجفوت علماً من سَئِمَ الوصل تجني الجرما

فنهاها زوجها أن تتمثل فأنشأت تقول:

تمثلتُ بيتاً ثم أذريتُ دمعةً فمن لامني فيه فبدَّل ما بيا
فما أشرف الايفاع إلا صبابةً وما أضربُ الأمثال إلا تداويا[1]

فأتى الزوج أباها فأخبره، فأتاها أبوها فقال والله لأن تمثلت لأضربن ظهرك وبطنك، فدخل عليها زوجها وهي تقول:

فإن تضربوا ظهري وبطني كلاهما فليس لقلب بين جنبيَّ ضاربُ

فاشتد ذلك على زوجها، وهم بطلاقها، وخرج مغضبا وإذا يزيد بفنائه وهو يقول:

تراءتْ وأستارٌ من البيتِ دونَها إلينا وحانت غفلةُ المتفقدِ
بعيني مهاةٍ تحدرُ الدمعُ منهما بريمين شتى من دموعٍ واثمدِ

فجمع أهل بيته وإخوته وأتى أخاه واستعداه عليه فضربه أخوه وحلقه.

فقال[2] وهو يحلق:

أقول لثورٍ وهو يحلقُ لمتي بعقفاءَ مردُودٌ عليها نصابها
ترفقْ بها يا ثورُ ليس ثوابُها بهذا ولكن غير هذا ثوابها
فيا رُبَّ يوم قد تغلل وسطها أنامل رخصات حديث خضابها
تولى بها ثورٌ تزفُ كأنها سلاسل درعٍ لينها وانسكابها[3]
وأصبح رأسي كالصخيرةِ أشرَفتْ عليها عقابٌ ثم طارت عقابها

وقد أحسن الفرزدقُ الاستعارة في وصف الشيب وهو قوله[4]:

والشيب ينهض بالشبابِ كأنه ليلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نَهارُ

ولأبي إسحاق الصابي[5] أبيات في الصلع لم يسبق إلى معناها قالها على وجه المجون:

لما رماني الزمانُ بالصَّلعِ وقلَّ مالي وضاقَ مُتَّسعي
حاسبتُ عن لمتي مزينها حسابَ شيخ للحقّ متبعِ
قلتُ له: اقنع من أصلِ واجبها بالثلثِ مما به عملتَ معي
واعملْ على أنها مُزارَعةٌ شكوتُ فيها شكاةَ مُتضعِ
فاحطط خراجَ الذي أصبتَ به واستوفِ مني خراجَ مُزدرَعِ

(١) الايفاع: الشباب.

(٢) الأبيات في الأغاني: ٢/١٧٨.

(٣) في الأغاني: فراح بها ثور». و «درع خبؤها».

(٤) ديوان الفرزدق: ٣٢٣. وفيه: «في السودا كأنه».

(٥) الصابي: أبو إسحاق: إبراهيم بن هلال الصابي الحراني. اديب بليغ كاتب مترسّل، له نظم رائق. مات سنة ٣٨٤ هـ.

ومما جاء في مدح الصلع، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن ثعلب، عن ابن الأعرابي، قال: ألحّ رجلٌ النظر إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقال له: إلى أيّ شيء تنظر؟ قال إلى بطن مندح، وهامةٍ صلعاء، فقال عليه السلام: أما البطن فأسفله طعم، وأعلاه عِلم، وأما الهامةُ فكما قال الشاعر:

بنى لنا المجدَ آباءٌ لهم شرفٌ ... صُلعُ الرؤوسِ وسيما السؤددِ الصلعُ

وقال آخر:

كفى حزناً أني أدبُّ على العصا ... فيأمنُ أعدائي ويبغضني أهلي
ويوصي بي الوَغدُ الضعيفُ مخافةً ... عليَّ وما قام الحواضنُ عن مثلي
أقيم العصا بالرجلِ والرجلَ بالعصا ... فما عدّلت ميلي عصايَ ولا رجلي

وقال محمود الوراقُ في ذمِّ الخضاب:

يشيبُ الناسُ في زمنٍ طويل ... ولي في كلِّ ثالثةٍ مشيبُ
وأخفي الشيبَ جهدي وهو يبدو ... كما غطى على الريبِ المريبُ

وقلت:

جريت لعارضِ غيثِ الليالي ... تحالك لونه فابيضَّ جُلُّه
وصرت تقصّ ما يبيضُّ منه ... أتحلقه إذا ما ابيضَّ كلُّه
تعزَّ عن الشبيبةِ والهَ عنها ... فإن الليلَ ليسَ يدوم ظله
وخلِّ الشيبَ يضحكُ ناجذاه ... فإنَّ الصبحَ لا يخفى مطله(١)
وإن حلّتْ عُرى اللذاتِ فيهِ ... فلستَ بعاقدٍ ما جذَّ حبله(٢)

(١) النواجذ: واحدها ناجذ. وهي أقصى الأضراس.
(٢) جذّ: قطع.

الفصل الثاني من الباب الحادي عشر
في ذكر العلل والأمراض والمراثي والتعازي والزهد

أحسن ما قيل في الرمد: قول الواثق، أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي قال: وجدتُ مع هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات، من شعر الواثق بالله في خادم له قد اشتكت عينه:

لي حبيبٌ قد طال شوقي إليه ... لا أسميهِ من حذاري عليه
لم تكن عينهُ لتجحدَ قتلي ... ودمي شاهدٌ على جفنيه

ومن ههنا أخذ هذا المعنى فتدوول قال[1] ابن الرومي أو الناجم:

قالوا اشتكتْ عينهُ فقلتُ لهم ... من كثرةِ القتلِ مسها الوَصَبُ[2]
حُمرَتها من دماء من قتلت ... والدمُ في النّصلِ شاهدٌ عجب

ومن بديع ذلك وغريبه ما أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي أيضاً:

يكسِر لي طرفاً به حمرةً ... قد خلطَ النّرجِسَ في وردهِ
ما احمرت العينُ ولكنه ... يكحلها من وردتيْ خدِّهِ

أخذه من بعض أهل زمانه:

قالوا بدت في عينه حمرةً ... قد حازها من وردةِ الخدِّ
فقلت لم يرمدْ ولكنه ... يصافحُ النرجسَ بالوردِ

ومن مليح ما قيل في شكاية الحبيب قول العباس بن الأحنف:

زعموا لي أنها صارتْ تحم ... ابتلى الله بهذا من زعمْ
اشتكتْ أكمل ما كانت كما ... يكسف البدر إذا ما قيل تم

ومما قيل في اصفرار اللون من العلة قول[3] أبي تمام:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ١/٤٠٢.

(٢) الوصب: التعب.

(٣) ديوانه: ٣٩٣.

معدنُ الحسنِ والملاحةِ قد أصـ ... ـبح للسّقم مَعدِناً وقراراً
لم تشنْ وجهُهُ الجميلَ ولكنْ ... جَعلتْ وَرْدَ وجنتيهِ بهارا

ونحوه قول أحمد بن إسحاق الطالقاني:

لقد حلّتِ الحمّى بساحةِ خَدِّهِ ... فأبدلتِ التّفاحَ بالسوسنِ الغضّ

والأصل في ذلك، قول عبد بني الحسحاس، أخبرنا أبو أحمد، قال أخبرنا أبو أسحاق الشطبي، قال حدثنا ابن أبي سعيد، قال: حدثنا الخزامي، قال: حدثنا عبد الملك الماجشون، عن يوسف بن عبد العزيز الماجشون، قال: كتب عبد الله بن عامر إلى عثمان بن عفان: إني اشتريت لك عبداً حبشياً شاعراً.

فكتب إليه عثمان: لا حاجة لي فيه، فإن قصارى الشاعر منهم، أن يهجو أعراضهم، ويشبب بكريماتهم. فاشتراه بنو الحسحاس، وكان يكسرُ في كلامه، فقال يوسف: فحدثني من رآه في شجرة واضعاً إحدى رجليه على الأخرى يقرض الشعر وينسب بأخبث نسيب ويقول[1]:

ماذا يُريدُ السقامُ من قمرٍ ... كلُّ جمالٍ لوجههِ تبعُ
ما يبتغي خابَ من محاسنِها ... أمالهُ في القباحِ متّسعُ
لو كانَ يبغي الفِداءَ قلتُ له ... ها أنا دونَ الحبيبِ يا وجعُ

ثم يقول لنفسه: «أحسنك الله» يُريدُ أحسنت. وكان كما حدث عثمان رضي الله عنه. فإنه ما زال يهجو مواليه، ويشبب بفتياتهم، حتى قتلوه فضحكت منه امرأةٌ وقد ذهبوا ليقتلوه فقال فيها:

فإن تضحكي مني فيا ربَّ ليلةٍ ... جعلتكِ فيها كالقباء المفرّجِ

وقال أيضاً[2]:

ولقد تحدَّرَ من جبينِ فتاتكم ... عَرَقٌ على وجهِ الفراشِ وطيبُ

ومن عجيب ما يُروى له قولهُ يمدح نفسه:

إن كنتُ عبداً فنفسي حُرَّةٌ كرماً ... أو أسودَ اللونِ إني أبيضُ الخلقِ[3]

وهذا أحسن ما مدح به أسود.

ومن أحسن ما وصف به نحول العليل، قول أبي نواس الحسن بن هانىء:

يا قمراً للنصفِ من شهرهِ ... أبدى ضياءً لثمان بقين

ومن أحسن ما قيل في تهوين الحمّى على المحموم قول محمد بن زياد الكاتب:

قالوا محمدُ المحمدُ مُوجعُ ... والشمسُ تُكسَفُ ساعةً وتعودُ
فلئن حُمِمْتُ فلا حُممت فإنها ... داءُ الأسُودِ وفي الرجالِ أسودُ

---

(١) الأغاني: ٢٢/٣٠٧.
(٢) الشعر والشعراء: ١/٣٢١.
(٣) الأغاني: ٢٢/٣١٤ .

وهذا عندي أحسن من قول[1] البحتري :

وما الكلبُ محموماً وإن طال عُمرهُ ... ألا إنما الحمى على الأسدِ الوردِ

على أنه معنى مولد وشيء تدعيه العامة ولا تعرف صحته.

وقلت :

وقد سرَّني أني رأيتُكَ واطئاً ... على عقبي داءٍ تراخَى فأدبرا

وقد ظلَّ يبغي رائدَ البرءِ مورداً ... لديكَ ويبغي فارطَ السّقمِ مصدرا

ولا غرْوَ أن يغشاك عَارضُ علّةٍ ... فإني رأيتُ الوردَ يغشى الغضنفرا[2]

ولو كنتَ نجماً ما كسفتَ وإنما ... كسوفُك إن أمسيتَ بدراً مُنوّرا

ومن ذلك قول علي بن العباس النوبختي[3] :

لئنْ تخطّتْ إليك نائبةٌ ... حطّتْ بقلبي ثِقلاً من الألمِ

فالدهرُ لا بُدّ محدِثٌ طبعاً ... في صفحتيْ كلِّ صارمٍ خَذمِ[4]

وفي ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه.

وقال أيضاً في رَجل اعتل :

طالَ فكري تعجّباً لمصوغ ... ذهباً كان يقبلُ الأقذاءَ[5]

والحسامُ الهذاذ يزدادُ حُسناً ... كلما زادَهُ الصِّقَالُ جلاءَ[6]

والرغبة من هذين البيتين في معناهما، وأما سبكهما ووصفهما فلا خير فيه، والبيت الثاني أصلح، والبيت الأول متكلف جداً.

وقال عبد الصمد بن المعذل يذكر الحمَّى :

فطوراً ألقيها سُخنةً ... وطوراً ألقيها فَتره

وقد أعقبتْ خلفي جِدَّةً ... وأورثني إلفها ضجره

فللعبدِ إن غاظني لطمةٌ ... وللحرِّ إن ساءني زجره

ويربو الطحالُ إذا ما شبعت ... فتعلو الترائب والصدره

وأمسي كأني من معدتي ... لبستُ ثيابي على ذُكره

أسائلُ أهلي عن سحنتي ... وأمنحهم نظرةً نظره

وأجزع إن قيل بي صفرةٌ ... وأشفقُ إن قيل بي حُمره

---

(١) ديوانه : ٢/٣٤٠ عـ .

(٢) لا غرو: لا ضرر. الغضنفر: الأسد.

(٣) النوبختي : علي بن العباس : شاعر محسن اخباري مات سنة ٣٢٤ هـ .

(٤) الصارم الخذم : السيف القاطع.

(٥) الأقذاء: جمع القذى: ما يسقط في العين.

(٦) الحسام الهذّاذ: السيف القاطع.

ومن أجود ما قيل في الفصد قول[1] ابن الرومي:

أيها البدرُ لم تَزَلْ في كمال الأمرِ وفي السماء هلالاً
كيفَ كانت عقبى افتصادك كانت صحةً مستفادةً واندمالا
واعتدالاً بينَ المزاج كما أو تيتَ في الخلقِ والخلاقِ اعتدالا
فعلَ الله ذاكَ أنك ما زلـ ـتَ المرضيِّ ما ارتضى فعَّالا

وفي الفصد، شعرٌ كثيرٌ ليس في أكثر ما مرّ بي، مختارٌ إلا ما أنشدتهُ لعلي بن عبد العزيز الجُرْجاني[2]:

يا ليتَ عيني تحملتْ ألمك وليتَ نفسي تقسمتْ سقمكْ
أو ليتَ كفّ الطبيب إذ فصدتْ عرقك أجرى من ناظريَّ دمك
أعرتهُ حسنَ وجنتيك كما تعيره إن لثمتَ من لثمك
طرفك أمضى من حدِّ مبضعهِ فالحظ بهِ العرقَ واغتنم ألمك

ومن مليح ما قيل في الزكام، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن أبي ذكوان الجرمي، قال: دعا عيسى بن عليّ عبد الله المقفع إلى الغداء فقال:

أعزك الله لستُ يومي هذا للكرام باكيل. قال ولم؟ قال لأني مزكومٌ، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار. قال: وكانت عَجوز من بني عجل تقول: حُقر من يحقرُ الزكام.

ولم يمر بي في الصداع شيء مليح أثبته لك غير أني سمعت لبعضهم أبياتاً في صغر العمامة، حتى أشبهت عِصابةً، يعصب بها الصداع وهي هذا الأبيات:

وقدّمتَ إلي وعداً بأنك مُلبسي ثياباً إليهنَّ المحاسنُ تُنسبُ
فلا تكسني منهنَّ إلا عمامةً بأمثالها الأمثالُ في النقص تضرَبُ
يقولُ أناسٌ لي إذا ما لبستها أرأسك هذا من صداع مُعصَّبُ

على أن رصفها ليس بمختار.

ولبشار بيت حسنٌ فيه ذكر الصداع وهو وقوله[3]:

حلَّ من قلبهِ مَحَلَّ شرابٍ يشتهى شرْبهُ ويخشى صُداعهْ

وقد قارب الآخر:

لطيرتي بالصداع نالتْ فوْقَ منالِ الصداع مِني
وجدتُ فيهِ اتفاقَ سوءٍ صدَّعني مثل صدَّعني

وقلت في المعنى الأول:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٥/٩٨.

(٢) الجرجاني: علي بن عبد العزيز، الفقيه الشافعي صاحب الديوان المشهور ولي القضاء وكان صاحب فنون توفي سنة ٣٦٦ وقيل ٣٩٦ هـ. (سير اعلام النبلاء: ١٧/١٩).

(٣) ديوانه: ٥٥٤.

يقومُ بقامةٍ كنواةِ قسب ... وينشر لحية مثلَ الشراعِ
عليهِ عمامةٌ قَصرَتْ ودَقتْ ... فتحسبهُ تعصبَ من صُداعِ

وقال بعضهم في الجدري:

وجههُ للحسنِ معدنْ ... فتأمَّلْ وتبيَّنْ
نقَطٌ من جُدرِيّ ... كبد باقي معَيَّنْ

وأما النقرس[1]، فقد مرَّ بي فيه أبياتٌ جيادٌ، أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن سوار بن أبي شراعة عن عبد الله بن محمد الدمشقي الكاتب، عن محمد بن الفضل بن إسماعيل بن علي عبد الله، أن أبا الفضل ناله نقرس في رجله فدخل إليه أبوه إسماعيل يعوده فقال له كيف أنت يا بني؟ فقال:

أشكو إلى الله ما أُصبتُ بهِ ... من ألمٍ في أناملِ القدمِ
كأنني لم أطأ بها كَبِداً ... من حاسدٍ سرَّ قلبهُ ألمي
والحمد لله لا شريكَ لهُ ... لحمي للأرضِ بعدها ودمي
ما مِنْ صحيحٍ إلا ستنقله ... الأيّامُ من صحة إلى سقمِ

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن المبرد وأبي العيناء، قال: كان أبو علي الحرمازي في ناحية عمرو بن مسعدة، وكان يجري عليه فخرج عمرو إلى الشام مع المأمون وتخلف الحرمازي ببغداد لنقرس ناله فقال:

أقامَ بأرض الشامِ فاختلَّ جانبي ... ومطلبهُ بالشام غيرُ قريبِ
ولا سيما من مفلسٍ حلفَ نقرس ... أما نقرسٌ في مفلسٍ بعجيب

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن زكريا، قال: ذكر أعرابيٌ رجلاً قد أثرى فقال: قد تنقرس، وذلك لقول الناس: إن النقرس يعرض لذوي النعمة والترفه، ومنه قول الأعرابي:

فصرتُ بعدَ الفقرِ والتأيس ... يخشى عليَّ القومُ داءَ النقرسِ

ويقال للرجل العالمِ نقرس، وللداهية نقرس قال المتلمّس:

ويخشى عليك من الحباء النقرس.

ومن مليح النوادر ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن يموت بن المزرع، قال: حضر الجماز عند أبي يوماً، ودخل رَجلٌ فقال له: ما أخرك عنا؟ فقال: أصابتني خلفه أما تري وجهي؟! فقال الجماز: ما أبين الاختلاف على وجهك.

وقال المتنبي في الحمى:

وزائرتي كأنَّ بها حياءً ... فليسَ تزورُ إلا في الظلامِ

---

(١)، النِّقرس: ورم ووجع في المفاصل.

جعلتُ لها المطارفَ والحشايا		فعافتها وباتتْ في عظامي
إذا ما فارقتني غسَّلتني		كأنا عاكفانِ على حرام

وهذا البيت معيب، لأن الغسل غير مقصور على الحرام وحده، بل هو من الحلال والحرام جميعا، فليس لتخصيص الحرام به وجه.

وقلت في حمًّى نالتني:

وأخبر أني رحتُ في حلة الضنى		لياليَ عشراً ضامها الله من عشرِ
تنفضني الحمَّى ضحى وعشية		كما انتفضتْ في الدّجنِ قادمتيْ نسر[1]
تذرُّ عليّ الورس في وضح الضحى		وتبدله بالزعفرانِ لدَى العصرِ
إذا انصرفتْ جاء الصداع مشمراً		فأربى عليها في الأذيةِ والشرّ
وتجعلُ أعضائي عيوناً دوامعا		تواصل بين السكب والسجم والهمرِ[2]
فتحسبه طلاً على أقحوانة		وعهدي به يحكى حباباً على خمرِ[3]
ولما تمادتْ عذتُ منها بحميَّة		كمنْ ترك الرمضاء وانفل في الجمرِ[4]
وما منهما إلا بلاءٌ وفتنةٌ		وضرٌّ على الأحرار يا لك من ضر

من مرض لمرض الجفون:

أنشدني أبو أحمد، عن الصولي قال: أنشدني أبو عبيد الله ابن عبد الله لنفسه:

تمارضتَ لما تكنْ لك علةٌ		وقلتَ: شهيدي ما بطرفي من السقم
فلا تجعلنْ سقماً بطرفك علةً		فقد كانَ ذاك السقم في صحةِ الجسمِ

وقال غيره:

أحببتُ من أجلهِ منْ كان يشبهه		وكلُّ شيء من المعشوقِ معشوقُ
وقد جلبتُ بجسمي سُقْم مقلته		كأنَّ جسمي مِن عينيهِ مسروقُ

وقال الأخيطل:

كيف يضني بعد ما كا		ن الضَّنى عوناً لعينهْ

وقال[5] ابن الرومي وقد مرض فتخلفَ اخوانه عن عيادته:

عليلكم لا يعادُ من عللهْ		وضيفكم لا يسَدّ من خللهْ
لا إنّ جفوتم دنا المماتُ ولا		إن زُرتمُ تُنسؤنَ في أجلهْ[6]
ما ضرَّ مجفوَّكم جفاؤكمُ		بالأمس في جسمه ولا أملهْ

---

(١) الدّجن: الظلام. قادمتا النسر: الريشات الأمامية في جناحه.
(٢) السجم والهمر بمعنى السكب.
(٣) الطل: الندى. الحباب: الفقاقيع.
(٤) الرمضاء: شدّة الحر.
(٥) ديوانه: ١٣٦/٥.
(٦) تنسئون: تؤجلون.

وأنشدني أبو أحمد، عن الصولي، لمحمد بن محمد بن إبراهيم اليزيدي:

ما لي مرضتُ فلم تعدْ ورغبتُ فيك فلم تجُدْ
الحبُّ يُذهِبُه الأذى فاحذرْ عليه ولا تعد

وهذا شعرٌ مطبوعٌ مختار، والبيت الأخيرُ مأخوذٌ من قول الأعرابي:

فإني رأيتُ الحبَّ في القلبِ والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ

وقلت:

وقد عادني الإخوانُ من كلِّ جانب وما قصروا في العرفِ والفضل والبرِّ
فلمْ لم تكنْ فيهم فيكمل حسنهم أيا ظالماً أخلى النجومَ من البدرِ
وإذ كنتَ لم تنهضْ إليَّ ولم تكد فلم لمْ تسلْ عني فتخبر عن أمري
ومالك لم تبعثْ إليَّ بأسطرٍ تمجمجها إحدى يمينك في ظهرِ
تضنُّ بتسليم وزرةِ ساعةٍ فكيف يُرجَّى جودُ كفيك بالوفرِ
فإن كنتَ لا تبقى على الحالِ بيننا فهلا تخاف سوءَ بادرةِ الشعرِ
إذا لمْ تكونوا للحقوقِ فمنْ لها وأنتم كرامُ الناسِ في البدو والحضر
وأنتَ إذا أنحيتَ تفري أديمَها فما ذنبُ ذي جهلٍ فرَى مثلَ ما تفري
وما لعداةِ العلم تذكرُ عيهمْ وأنت على أمثالِ غايرهم تجري

ومن الغريب البديع مدحُ الموت وهو قول[1] ابن الرومي:

قد قلت إذْ مدحوا الحياةَ فأكثروا للموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
فيها أمانُ لقائهِ بلقائهِ وفراقُ كلِّ مُعاشرٍ لا يُنصِفُ

ومن أحسن ما قيل في مكابدة النفس عند الموت قوله[2] أيضاً:

بات الأميرُ وبان بدرُ سمائنا هذا يُودِّعنا وهذا يكسفُ

ولعل ذلك مأخوذٌ من قول الأوَّل:

ألمْ يبلغك والأنباء تنمى وللدنيا بأهليها صروفُ
صريعٌ لم يُوَسِّدهُ قريب ولم يشركه في الشكوى أليفُ
يظلُّ كأنه قمرٌ مُنيرٌ يجولُ على محاسنهِ كسوفُ

ولهذا البيت رونقٌ عجيبٌ وطلاوة حسنة.

ومن عجيب ما جاء في وصف المصيبة قول حذيفة بن اليمان:

إن الله تعالىٰ لم يخلق شيئاً إلا صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها خلقت كبيرة ثم تصغر.

وهذا قول مصيبٌ لا يُتمارى به ومنه أخذ قوله:

وكما تَبلى وجوهٌ في الثّرى فكذا يَبلى عليهنَّ الحزنُ

---

(١) ديوانه: ٤/٢٦٤.

(٢) ديوان ابن الرومي: ٤/٢٢٤.

ولا أعرف في التَّعزي عن المصيبة، كلاماً أحسن تقسيماً، من قوله الأعرابي ومات له ثلاثةُ بنين، في يوم واحد، فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعل يتحدثُ كأن لم يفقد واحداً فليمَ على ذلك فقال:

ليسوا في الموت ببدع (١) ولا أنا في المصيبة بأوحد،ولا جدوى للجزعِ فعلامَ تلومونني.

فهذه الثلاثة الأقسام لا رابع لها.

وعزَّى رجلٌ رجلاً، وقد ولدت امرأته ابناً وماتت في نفاسها، فقال أعظم الله أجرك فيما أباد وأجزل فيما أفاد:

ولا أعرف أحداً أجاد هذا المعنى، كما أجاده عبد الملك بن صالح الكاتب:

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: قيل للرشيد إن عبد الملك بن صالح، يُعِد كلامه، ويفكر فيه، فلذلك بانت بلاغته، فأنكر ذلك الرشيد، وقال: هو طيعٌ فيه، ثم أمسك حتى جاء يوماً، ودخل عبدُ الملك فقال للفضل بن الربيع: إذا قرب من سريري، فقل له وُلد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابنٌ، ومات له ابنٌ فقال له الفضل في ذلك، فدنا عبد الملك فقال:

يا أمير المؤمنين، سرك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدةٍ ثواب الشاكرين، وأجر الصابرين. فلما خرج، قال الرشيد: هذا الذي زعموا أنه يتصنع للكلام ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة قط. وعزّى أعرابي رجلاً فقال: لا أراك الله بعد مصيبتك ما ينسيكها.

وأحسن ما قيل في مدفون، قول(٢) ابن الرومي في بستان جارية أم علي بنت الراس:

لله مـا ضـمنتْ حـفـيرتُـهـا   من حُسنِ مرأىً وطُهرِ مُختبرِ
أضحتْ من الساكني حفائرِهمْ   سُكنى الغوالي مداهنَ السُّررِ
لـو علمَ القبرُ من أتِيـحَ لـه   لانخفضَ القبـرُ غيـر محتَفـرِ

وهذا البيت مأخوذ من قول الأوَّل:

لـو علمَ القبـرُ من يـواري   تـاهَ عـلى كـلِّ مَنْ يـليـه

وقالوا أحسن مرثيه للعرب ابتداءً قول(٣) أوس بن حجر:

أيتهـا النفسُ أجملي جَـزَعـاً   إن الـذي تحـذَرِينَ قـد وقعـا

وأحسن مرثية لمحدث ابتداءً قول(٤) أبي تمام الطائي:

أصمَّ بـك الداعي وإن كـانَ اسمعا   وأصبحَ مغنى الجودِ بعـدك بلقعـا(٥)

---

(١) في الأصل: «ببديع».

(٢) ديوانه: ٣/٢٢٣.

(٣) ديوان اوس: ٥٣.

(٤) في ديوان أبي تمّام: «الناعي». مغنى: منزل. بلقع: خال.   (٥) ديوانه: ٣٣٤.

فقال فيها:

فتىً كـان شـربـاً للعُفـاةِ ومـرتعي فـأصبـح للهنـديـةِ البيضِ مـرتعـا[1]
إذا سـاءَ يومـاً في الكـريهـةِ منـظراً تصـلاهُ علمـاً أن سيحسنُ مسمعـا
فإن ترم عن عُمرٍ تدانى بـه المدى فخـانك حتى لم يجدْ فيك منزعا
فمـا كنتَ إلا السيفَ لاقى ضـريبـةً فـقـطعهـا ثـم انـثـنـى فـتـقـطعـا

وقالوا: أرثى بيت قالته العرب، قول متمم بن نويرة[2]، في أخيه مالك، قتل في الردة، قتله خالد بن الوليد:

أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، قال: كان متمم[1] بن نويرة، قدم العراق فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عنده، فقيل له: يموت أخوك بالملا وتبكي على قبره بالعراق! فقال:

لقـد لامني عنـدَ القبـورِ على البكـا رفيقي لتـذارفِ الـدمـوعِ السـوافـكِ

وهذا البيت غير مختار الرصف عندي وفي ألفاظه زيادة على معناه:

أمنْ أجـلِ قبـرٍ بـالمـلا أنت نـائـحٌ على كـلِّ قبر أو على كـلِّ هالـكِ
فقلت لـه: إنَّ الشجي يبعثُ الشجى فـدعني فهـذا كلهُ قبـرُ مـالـك[3]

يقول: قد ملأ الأرض مصابه عظماً، فكأنه مدفون بكل مكان. وهذا أبلغ ما قيل في تعظيم الميت.

ومنه أخذ القائل قوله أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن ثعلب عن الرياشي لرجل يرثي عمر بن عبد العزيز، وهو عندي من أرثى ما قيل:

لهفي عليـك للهفة من خـائف كنتَ المجيرَ لـهُ وليسَ مجيرُ
عمتْ صنـائعهُ فعمَّ مُصـابـهُ فـالنـاسُ فيـهِ كلهم مـأجـورُ
فـالنـاسُ مـأتمهمْ عليـهِ واحِـدٌ فـي كـلِّ وادٍ رَنَّـةٌ وزفـيـرُ
يثني عليك لسان من لم تولِه خيـراً لأنـك بـالثنـاءِ جـديـر
ردَّتْ صنـائعـه إليـه حيـاتَـه فكـأنـه من نشـرهـا منشـورُ

والصحيح أن يقول «منشرٌ» لأنه يقال انشر الله الموتى فنشروا هم.

وقالوا أرثى بيت قالته العرب قول المحدث:

عـلى قَبْـرِهِ بـينَ الـقبـورِ مَـهـابَـةٌ كما قبلها كانَتْ على صاحبِ القبـرِ

وقالوا بل قول الآخر:

أرادوا لـيخـفـوا قَبـرَهُ عـن عَـدُوِّهِ فـطيبُ تُـرابِ القبـرِ دَلَّ على القبـرِ

---

(١) العفاة: طالبو المساعدة. المرتع: موضع الاستجمام.

(٢) متمم بن نويرة: من ثعلبة بن يربوع له اخبار مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) الشجي: الحزين. ومالك أخو متمم قُتل في حرب الردة.

وقالوا أرثاه قول[1] ابن مُنَاذِر:

أنعى فتَى الجـودِ إلى الجـود ... مـا مثـل من أنعى بمـوجـودِ
أنعى فتىً مصَّ الثـرى بعـده ... بـقـيَّـة الـمـاءِ مـن الـعـودِ

وأخبرنا أبو أحمد، قال: سمعت محمد بن يحيى، قال: سمعت محمد بن يزيد يقول: لو سُئلتُ عن أحسن أبيات تعرف في المراثي لم أختر على أبيات الخريمي:

ألم ترني أبني على الليث بنية ... وأحثي عليـهِ التربَ لا أتخشـعُ
وأعـددتـه ذُخـراً لـكـلِّ مُـلِمَّـةٍ ... وسهمُ المنايا بالذَّخائرِ مُـولَـعُ
وأني وإن أظهـرتُ مـني جـلادةً ... وصـانعتُ أعدائي عليه لمـوجَـعُ
ولـو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُـه ... عليهِ ولكن ساحةُ الصبرِ أوسعُ

وقال أبو عمرو بن العلاء أرثى بيت قول عبدة:

فما كـانَ قيسٌ هُلكـهُ هُلك واحـد ... ولـكـنـه بُـنـيـانُ قـوم تـهـدَّمـا

وقال خلف الأحمر أرثى بيت:

الآن لمـا كنتَ أكمـل مـن مشى ... وافترّ نـابُـك عن شباة القـارحِ[2]
وتكـاملت فيـك الـمـروءةُ كـلهـا ... وأعنتَ ذلـك بـالفعـال الصـالـح

وقال الأصمعي أرثى بيت للعرب:

ومن عجبٍ أن بتَّ مستشعرَ الثَّرى ... وزدت بـمـا زوّدتـنـي مُـتـمـتـعـا
ولـو أنني أنصفتُـك الـودَّ لم أبتْ ... خلافك حتى ننطوي في الثرى معـا

ومن أحسن ما قيل في بقايا آثار الميت قول الحسين[3] بن مطير:

فتى عِيش معـروفـهِ بـعـدَ مَـوْتـهِ ... كما كانَ بعدَ السيلِ مجراه مرتعا

وفي هذه القصيدة:

أيـا قبـرَ معنٍ كنت أولَ حفـرةٍ ... من الأرض خطتْ للسماحة مضجعا
ويـا قبـرَ معن كيفَ واريتَ شخصه ... ولـو كان حياً ضقتَ حتى تصدعـا
فلمـا مضى معنٌ مضى الجـودُ والنـدى ... وأصبـحَ عـرنينُ المكـارم أجـدعـا[4]

وأنا أقول: إن هذه الأبيات أرثى ما قيل في الجاهلية والاسلام.

وقالوا: أرثى بيت قيل قول مهلهل في كليب:

---

(١) ابن مُناذر: محمد بن مُناذر اليربوعي. أبو جعفر، شارع كثير الأخبار مدح البرامكة والرشيد. مات سنة ١٩٨ هـ.

(٢) القارح: من ذوي الحافر الذي ظهرت أنيابه.

(٣) في الأصل: «الحسن».

(٤) الأجدع: الأقطع.

نبئتُ أنَّ النارَ بعدك أوقدتْ   واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وتكلموا في أمر كلِّ عظيمةٍ   لو كنتَ شاهدهم إذاً لم ينبسوا

وكان كليب إذا أوقد ناراً، لم يوقد أحدٌ ناراً، ولم ينزل ضيفٌ إلا عليه، وإذا جلس مجلساً، لم يتكلم فيه أحد إلا هو.

وقالوا: أحسن ما قيل في المراثي قول[1] متمم بن نويرة في أخيه مالك:

وكنا كندمانَي جُذيمةَ حقبةً   من الدهرِ حتى قيلَ لن تتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً   لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

وليس في المحدثين أحسن مراثي من أبي تمام فمن ذلك قوله[2]:

غدا غدوةً والمجدُ نسجُ ردائِه   فلم ينصرفْ إلا وأكفانُهُ الأجرُ[3]
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَهُ   وقال لها: من تحتِ أخمصكِ الحشر
فتى ماتَ بينَ الضربِ والطعن ميتةً   تقومُ مقامَ النّصرِ إنْ فاتَه النصرُ
فتى سلبتْه الخيلُ وهو لها حِمى   وبزَّتْهُ نارُ الحربِ وهو لها جمر
كأنَّ نبي نبهانَ يومَ وفاتِهِ   نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روضةٌ   غداةَ ثوى إلا اشتهتْ أنها قبرُ
وكيف احتمالي للسحابِ صنيعةً   بإسقائه قبراً وفي لحدهِ البحرُ[4]

ولولا كراهة الإطالة، لأوردت القصيدة كلها، إذ ليس فيها إلا مختارٌ.

وقوله[5] في إدريس بن بدر السامي[6]:

أإدريسُ ضاعَ المجدُ بعدك كلُّه   ورأي الذي يرجوهُ بعدك أضيعُ
وضلَّ بك المرتادُ من حيث يهتدي   وضرَّتْ بك الأيامُ من حيث تنفعُ
وتبسطُ كفاً في الخطوبِ كأنما   أناملُها في البأس والجودِ أذرعُ[7]
ولم أنسَ سَعيَ الجودِ حولَ سريرِهِ   باكسفِ بالٍ يستقيمُ ويظلعُ[8]
وقد كانَ يدعى لابس الصبرِ حازماً   فقد صار يُدعى حازماً حين يجزعُ[9]

---

(١) الشعر والشعراء: ١/٢٥٤.

(٢) ديوان أبي تمام: ٣٢٨.

(٣) ديوان أبي تمّام: «والحمد نسجُ». وفي الأصل: وأكفانه أجر».

(٤) في الديوان: «احتمالي للغيوث».

(٥) ديوان أبي تمّام: ٣٣٢.

(٦) هو ادريس بن بدر من ولد سامة بن لؤي.

(٧) في ديوان أبي تمّام: «في الحقوق».

(٨) يظلع: يغمز في مشيته.

(٩) في ديوانه: فأصبح يُدعى».

وقوله في بني حميد[1]:

عهدي بهم تستنيرُ الأرضُ إن نزلوا ... فيها وتجتمعُ الدُّنيا إذا اجتمعوا
ويضحكُ الدَّهرُ منهمْ عنْ غطارفة ... كأنَّ أيامَهم منْ أنسِها جُمَعُ
فيما الشماتة إعلاناً بأسد وغى ... أفناهُم الصبرُ إذْ أبقاهم الجزعُ

وقوله أيضاً:

إذا فُقدَ المفقودُ من آل مالكٍ ... تقطَّعَ قلبي رحمةً للمكارمِ
خليليَّ من بعد الأسى والجوَى قفا ... ولا تقفا فيضَ الدُّموع السّواجمِ
ألمّا فهذا مصرعُ البأسِ والندى ... وحسبكما إن قلتُ مصرعُ هاشمِ[2]
ألم تريا الأيامَ كيفَ فجعننا ... به ثمَّ قد شاركننا في المآتمِ
خطوْنَ إليه من نداهُ وبأسِه ... خلائقُ أوقى من سيورِ التمائمِ

وقد كثرت عليَّ محاسنه في هذا الباب فما أدري ما أُوردُ وما أترك.

وقد أحسن القائل:

وسميته يحيىٰ ليحيا ولم يكنْ ... إلى ردِّ أمرِ اللهِ فيهِ سبيلُ
تيممتُ فيه الفالَ خين رُزقته ... ولم أدرِ أنَّ الفالَ فيه يفيلُ

وأخذ أبو تمام قول الفرزدق في جارية له ماتت وفي بطنها غلام:

وجفن سلاح من معدّ رُزئته

والبيت:

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة ... لو أنَّ الليالي أنسأته لياليا

وكان وجه الكلام أن يقول: «وفي جوفه ذو حفيظة من دارم». فقال أبو تمام وزاده زيادة أسقط بها بيت الفرزدق حتى صار لا قيمة له معها وهو قوله[3] في ابنين لعبد الله بن طاهر قد ماتا صغيرين في يومٍ واحدٍ:

نجمانِ شاءَ اللهُ أن لا يطلعا ... إلا ارتدادَ الطرفِ حتى يأفَلا
إنَّ الفجيعةَ بالرِّياضِ نواضراً ... لأَجَلُّ منها بالرياضِ ذوابلا
لو ينسيان لكان هذا غاربا ... للمكرُماتِ وكان هذا كاهلا[4]
لهفي على تلك الشواهدِ فيهما ... لو أمهلتْ حتى تكونَ شمائلا[5]
لغدا سكونُهما حِجاً وصباهما ... حِلماً وتلك الأريحيّةُ نائلا[6]

---

(١) ديوان أبي تمّام: ٣٣٢.

(٢) في الديوان: ٣٤٣. «وحسب البكا إن قلت». والأبيات كلها في الديوان.

(٣) ديوان أبي تمّام: ٣٣٩.

(٤) لو يُنسان: لو يؤخر الله اجلهما.

(٥) في الأصل: «قد أمهلت».

(٦) الحِجا: العقل. الأريحية: سعة الصدر. النائل: العطاء.

إنَّ الـهـلالَ إذا رأيتَ نـمـوَّهُ أيقنتَ أنْ سيكـونَ بدراً كـاملا

ثم قال يؤسيه[1]:

إن ترزَ في طَرفيْ نهـارٍ واحدٍ رُزءين هـاجـا لـوعـة وبـلابـلا
فـالثقـل ليس مضـاعفـاً لمطيـةٍ إلا إذا مـا كـان وهمـاً بـازلا

ثم قال أيضاً:

شمخت خـلالُـك أن يُؤسيـك امـرؤٌ أو أن تـذكَّـرَ نـاسيـاً أو غـافـلا[2]
إلا مـواعظَ قـادهـا لـك سـمحـة أسجـاح لُبِّـك سـامعـاً أو قـائـلا
هـل تكلفُ الأيـدي بـهـزِّ مُهـنَّـدٍ إلا إذا كـان الـحسـامُ الـفـاصـلا

وقالوا: ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد، التي يرثي فيها أخاه أبا المغوار ويقول فيها[3]:

أتى دونَ حلوِ العيشِ حتى أَمرَّهُ نُكـوبٌ عـلى آثـارِهـنَّ نُكـوبُ
هوتْ أمهُ ما يَبعثُ الصبحُ غـاديا ومـاذا يؤدِّي الليـلُ حينَ يؤوبُ[4]
حليمٌ إذا مـا الـحلمُ ريّـنَ أهلَه مع العلمِ في عينِ العدوِّ مهيبُ
هـوتْ أمـهُ مـاذا تضمـنَ رحلهُ من الجودِ والمعروفِ حينَ ينـوبُ
فتى أريجيٌّ كيف يهتـزُّ لـلنـدى كما اهتزَّ من ماءِ الحديدِ قضيب
حليفُ الندى يدعو الندَى فيجيبـهُ قـريبـاً ويـدعـوه النـدَى فيجيب
فـإن تـكنِ الأيـامُ أحسَنَّ مـرَّة إليّ فقـد عـادتْ لهـنَّ ذنـوبُ
وحـدَّثتماني إنمـا الموتُ بـالقرى فكيف وهـذي هضبـة وكثيبُ[5]

وقال فيها:

وداعٍ دعانا من يجيب إلى الندى فلمـا يجبـه عنـد ذاك مجيـب
فقلتُ ادع أخرى وارفض الصوتَ مسمعا لعـلَّ أبـا المغـوارِ منك قـريبُ

ومن عجيب المراثي قول الرقاشي في البرامكة[6]:

الآن استـرحـنـا واسـتـراحتْ ركـابنـا وقلَّ الذي يجدي ومن كان يجتدي

---

(١) ديوان أبي تمّام: ٣٣٩.

(٢) في الأصل: «سمحت خلالك». و«أو كان يذكر».

(٣) الأصمعيات: ٩٥.

(٤) يؤوب: يعود.

(٥) الكثيب: المرتفع من الرمل.

(٦) الرقاشي: الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشي. شاعر مجيد من أهل البصرة مدح الخلفاء ثم انقطع إلى البرامكة مات سنة ٢٠٠ هـ.

والبرامكة: اسرة فارسية الأصل تولى الوزارة عدد كبير منهم. كجعفر بن يحيى.

فقلْ للمطايا قد أمنتِ من السُّرَى ... وطيِّ الفيافي فدفداً بعد فدفدِ
وقلْ للمنايا قد ظفرتِ بجعفر ... ولن تظفري من بعدهِ بمسوّد
وقلْ للعطايا بعدَ فضلٍ تعطلي ... وقل للرزايا كلَّ يوم تجدَّدي
ودونك سيفاً برمكياً مُهنّداً ... أُصيبَ بسيفِ الهاشميّ المهندِ

ومن جيد المراثي قول الآخر:

سأبكيك للدُّنيا وللدِّين أنني ... رأيتُ يدَ المعروفِ بعدك شُلَّتِ
ربيعٌ إذا ضنَّ الغمامُ بمائهِ ... وليثٌ إذا ما المشرفيةُ سُلَّتِ(1)

وقد أحسن أبو الحسن الأنباري القول في ابن بقية(2) حين صُلب:

عُلوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ ... بحقٍ أنتَ إحدى المعجزاتِ(3)
كأنَّ الناسَ بعدك حينَ قاموا ... وفودُ نداك أيامَ الصِّلاتِ

وهذا البيت مأخوذٌ من وقول ابن المعتز في عبد الله بن سليمان حين توفي:

وصلوا عليه خاشعين كأنهم ... قيامٌ خضوعٌ للسلامِ عليه
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً ... وكلهمُ قِيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يديك نحوهمُ جميعا ... كمدِّكها إليهمْ بالهباتِ
ولما ضاقَ بطنُ الأرضِ عن أن ... يضمَّ عُلاك من بعدِ المماتِ
أصاروا الجوَّ قبرَك، واستنابوا ... عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ(4)
فلم أرَ قبل جذعِك قطُّ جذعاً ... تمكّنَ من عِناقِ المكرُماتِ

ومن جيد ما قيل في عظم شأن الميت قول(5) ابن المعتز:

هذا أبو القاسم في نعشهِ ... قوموا انظرُوا كيف تزُولُ الجبالُ

وقول(6) أبي تمام:

بني مالك قد نَبَّهتْ خاملَ الثرى ... قبورٌ لكمٍ مستشرفات المعالمِ(7)
رواكد قيد الكفِّ من متناولٍ ... وفيها عُلاً لا يُرتقى بالسلالمِ(8)

وقلت:

---

(1) المشرفية: صفة السيوف.
(2) هو محمد بن محمد بن بقية. أبو الطاهر. والبيتان في وفيات الأعيان: ٥/١٢٠.
(3) وفي رواية: «لحقٌ تلك».
(4) السافيات: التراب. انظر الأبيات في وفيات الأعيان: ٥/١٢٠. وفي رواية: «واستعاضوا عن».
(5) ديوان ابن المعتز: ٣٤٤. وفيه: «كيف تسير».
(6) ديوان أبي تمّام: ٣٤٤. وفيه: «نبّهت خامل».
(7) مستشرفات: مرتفعات.
(8) في الأصل: «رواكد قيس».

سائل القبرَ كيفَ أضمرتَ قدساً وأبانا ويَذْبُلا وحِراءَ[٦]
من رأى البدرَ بالتراب توارَى أو على ذروةِ النعوشِ تراءَى

وقال ابن المعتز وأحسن[١]:

تعالوا نَزُرْ قبرَ السماحةِ والرِّفدِ ولا نعتذرْ مع دمعِ عينٍ على خدٍّ
لقد عشتَ لم يَعلَقْ بفعلِك ذِمَّةٌ ومُتَّ على رغمِ المحامدِ والمجدِ

وقال أيضاً:

ألستَ ترى موتَ العلى والمحامد وكيفَ دفَنّا الخلقَ في قبر واحدِ
وللدَّهرِ أيامٌ يُسئنَ عوامداً ويحسنَّ، إن أحسنَّ، غير عوامدِ[٢]

وقال دعبل بن علي الخُزاعي:

حنَّطتهُ يا نصرُ بالكافور ورفعتهُ للمنزلِ المهجورِ
هلّا ببعضِ خلالهِ حنَّطتهُ فيضوعُ أفقُ منازلٍ وقبورِ

وقلت:

على الرغم من أنف المكارم والعلى غدتْ داره قفراً ومغناه بلقعا[٤]
ألم ترَ أن البأسَ أصبحَ بعدَهُ أشلَّ وأنَّ الجودَ أصبحَ أجدعا
فمرا على قبرِ المسوّدِ وانظرا إلى المجدِ والعلياءِ كيف تخشعا
فإن يكُ واراه الترابُ فكبّرا على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تسأما نَوْحاً عليه مُكرَّراً ونَوحاً لفقدِ العارفاتِ مُرجّعا
فما كان قيسٌ هلكهُ هلكُ واحدٍ ولكنّه بنيانُ قومٍ تضعضعا
ولا تحسبا أني أواريهِ وحدَه ولكنني واريتُهُ والنَّدَى معا

ومن بارعِ المراثي قول ديك الجن الحمصي:

ماتَ حبيبٌ فمات ليثٌ وغاضَ بحرٌ وباخَ نجمُ
سَمَتْ عيونُ الرَّدَى إليهِ وهي إلى المكرماتِ تسمو
ما أمك اجتاحتِ المنايا كلُّ فؤاد عليك أمُّ

ومما جاءَ في صفة القبر قول الشاعر:

ورَسمُ دارٍ مُقفرُ الجنابِ يزدادُ عُمراناً على الخرابِ

وقالوا أصدق ما قيل في صفة الدنيا قول[٥] أبي نواس:

---

(١) أبان ويذبل وحراء: اسماء لجبال.
(٢) ديوانه: ١٦٥.
(٣) ديوان ابن المعتز: ١٦٥. ويسئن عوامد: تسيء وتحسن.
(٤) الفقر والبلقع: الخلاء. المغنى: المنزل.
(٥) ديوان أبي نواس: ٤٦٥.

إذا امتحنَ الـدنيـا لبيبٌ تكشَّفتْ ... لـه عن عـدوٍّ في ثيـابِ صـديقِ

وهو مأخوذٌ من قول[1] جرير في وصف النساء:

دعينَ الـهـوى ثم ارتـمينَ قلوبَـنـا ... بـأسهـمِ أعـداءٍ وهُـنَّ صـدِيـقُ

وقال بل أصدق ما قيل في صفة الدنيا قول الأول:

حُتـوفهـا رَصَـدٌ وعـيشُـهـا نكَـدُ ... وصـفـوهـا رنَقٌ ومـلكُـهـا دُوَلُ[2]

وقلت:

ما بـالُ نفسِك لا تهـوَى سلامتَها ... فأنت في عَرَضِ الـدنيا تـرغبها

دارٌ إذا أتـتِ الآمـالُ تـعـمُـرهـا ... جاءت مقدمـةُ الآجالِ تخـرِبها

أصبحتَ تـطلبُ دنيا لستَ تـدركُها ... فكيف تُـدركُ أخرى لستَ تـطلبها؟!

ومن جيد ما قيل[3] في الزهد قول ابن المعتز:

نسيرُ إلى الآجال في كـلِّ لحظةٍ ... وأيـامُنـا تـطوَى وهُنَّ مـراحـلُ

ولم أرَ مثـلَ الموتِ حقـاً كـأنـه ... إذا مـا تخطتـه الأمـانيُّ بـاطـل

وقلت:

ألستَ تَـرى مـوتَ العـلا والفضـائـل ... وكيفَ غـروبُ النجم بين الجنـادلِ[4]

فـمـا لـلمنـايـا أغـفـلتْ كـلَّ نـاقصٍ ... ونـقبـنَ فـي الآفـاقِ عـن كـلِّ فـاضـل

على الـرَّغم من أنفِ العُلا سبقَ الـرَّدَى ... بكـلِّ كريمِ الفعـلِ حرِّ الشمـائـل[5]

عـليٍ أنَّ من أبـقـتْـهُ لـيسَ بـخـالـدٍ ... ولـيسَ امـرؤٌ يـرجـو الـخلودَ بعـاقـل

رأيـتُ الـمـنـايـا بـيـنَ غـادٍ ورائـحٍ ... فـمـا لـلبـرايـا بـينَ سـاهٍ وغـافـل[6]

ولـم أرَ كـالـدنـيـا حـبـيـبـاً مُـضـرَّةً ... ولـم أرَ مثـلَ الـمـوتِ حقـاً كبـاطـلِ

وقال ابنُ المعتز:[7]

كـم بـدارِ المـوتِ مـن ذي إرْبَـة ... عجـزتْ منهُ على المـوتِ الحِيَلْ

ومُـلوك بـليـتْ أيـديـهـم ... ولـقـد كـانـتْ مـطايـا لـلقبـلْ

وقلت:

فتعجبتُ كيفَ لا نحـذرُ الـمـو ... تَ وأنـفـاسُـنـا خُـطانـا إلـيـه

---

(١) ديوان جرير: ٣٠٥.

(٢) الحتوف: المصائر والآجال. والرّنق: ضد العتق.

(٣) الجنادل: الحجارة.

(٤) الردى: الموت.

(٥) الغدو والرواح: الذهاب صباحاً ومساءً.

(٦) ليسا في ديوانه.

(٧) ليسا في ديوانه.

وقرأت للجاحظ كلاماً مفقود النظير، معدوم الشبيه، لا أعرف لأحد مثله، وهو:

أيها المستدل على أمور الدنيا، كفاك بها على نفسها دليلاً، ويومها لك من غدها تشبيهاً وتمثيلاً، تالله لقد أطلعتك بمؤتلفاتها على حدوث تأليفها، وأثبتت لك الصانع بآثار صنعته فيها، ووقفتك على معرفة كمالها، بما توافى فيك من أجزائها، ودلتك بتحليل المركبات فيها، على انحلال تركيبها، ووقفتك بقطع الشمس والقمر قطرها على إدبارها وانقطاعها، فكشف لك انتهاء حدودها عن تناهي أمدها، وأبان لك دُؤوبُ اطراد نهارها وليلها، وتتابع دوران بروجها ونجومها، وتعاقب أزمنة بردها وحرها واعتدالها، وحركات نيرانها ورياحها ومياهها، أنها مسوقة محثوثة إلى أمدها، كما تحت براياها بالأوقات الجارية إلى آجالها. ثم قال:

وتحدث ما تخوفك به طوارق أحداثها، وتوطنك على إيطان جثمانها، حدثاً من أحداثها، لا تمسك منها بعروة إلا شهدت على أشكالها، فأية نصيحة أصدقُ لك من نصيحتها، أو عظة أشفى وأبلغ من عظتها، أو شهادة أصح وأعدل من شهادتها، بالفناء على نفسها، ألم ترَ أجزاءها مؤتلفة بالاجتماع، مختلفة بالطباع، يهلك بعضها بعضاً ويعود إبرامها نقضاً، فيا ناسياً للصخر وتهدمه، وللحديد وتثلمه، واثقاً ببقاء لحمه ودمه، ومساعفاً لشبقه وقرمه[1] اذكر أن جسدك وشيكاً مفارقك، وأنه وإن جددته مخلقك، وأنك تطلقه في شهواته ويوثقك، وتبقى عليه من التعب ويوبقك، ففيم تشتغل به عن مصلحتك، وعلام تتكل في عقبيك، إلى أن قال:

وتقوى على الزهد فيما يتنافسه الجهال بذكر الموت وفجأته، وبغتاته ووضوح آياته، وغموض ميقاته، وانخذال المحالة عن دفعه، ويأس النفوس من منعه، عند غوصه عليها في الأبدان، وتخليله لها من الأعظمُ والأعصاب، والعروق واللحم والإهاب[2]، حتى يسوقُها من الأغماض والأوصال، سياق مضيق للخناق، محقق للفراق مؤيس من التلاق، عند إحساسه بموت جسده عضواً فعضواً، وفقدان قوته جزءًا جزءًا وهي تمرح في الصدر حشرجة، وفي الجوانح رجرجة، وفي اللهوات غرغرة، وفي الحلقوم خرخرة، بالنزع الجاذب، والعلز الكاذب، والفُواق الدائب، الانفاس الذواهب، فهناك تنفس الصعداء وتوقّد البُرحَاء، وفي سمعه وبصره بقية يرمق بها أولاده يتامى، ونساء أيامى[3] وأمواله نهبى، وجموعه شتى، ووجوه الشامتين به مشرقة، والدموع من أحبته مستبقة، والجيوب عليه مشققة، والشعور مقطعة، والخدود باللطم مبقعة، وذلك غير عائد عليه ولا عليهم بمنفعة في كلام طويل.

ومن جيد ما قيل في إفضاء السلامة بصاحبها إلى الهلاك قول[4] النمر بن تولب:

تـداركْ مـا قـبـلَ الـشـبـابِ وبعـدَهُ ... حـوادثَ أيـامٍ تـمـرُّ وأغـفـل

---

(١) الشبق: شهوة الجماع، القرم: شهوة اللحم.

(٢) الإهاب: الجلد.

(٣) أيامى: جمع أيّم: المرأة لا زوج لها.

(٤) البيت الثاني في كتاب المعاني الكبير: ٢١٧/٣.

يـودُّ الـفتـى طـولَ الـسـلامـةِ والـغنـى ... فـكيـفَ تـرى طـولَ الـسـلامـة يـفعـلِ
يُـرَدُّ الـفتـى بـعـد اعـتـدالٍ وصِحّـةٍ ... يـنـوءُ إذا رام الـقـيـامَ ويُـحـمَـلِ

وقيل لرجل من الأوائل: ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه.

فأحسن ما شاء. وقال بعضهم في معناه:

مـا بـالُ مـن آفـتـه بـقـاؤهُ ... نـغصَ عـيـشـي كـلهُ فـنـاؤهُ

وقال آخر في نحوه:

فـإنَّ الـداء أكـثـر مـا تـراهُ ... من الأشيـاء تـحلو في الحلوقِ

ومن جيد ما قيل في موت الولد قول[1] ابن الرُّومي:

بكـاؤكمـا يـشفـي وإنْ كـانَ لا يجـدي ... فجـودا فقـد أوْدَى نـظيـرُ كمـا عنـدي
تـوفـى حمـامُ الـمـوتِ أوسطَ صبيتـي ... فلله كيـفَ اختـارَ واسـطةَ الـعِقـدِ[2]
طـواهُ الـرّدَى عـنـي فـأضـحـى مَـزَارُه ... بعيـداً على قـرب قـريبـاً على البعـدِ
عـجبت لقـلبـي كيـفَ لـم يـنفـطِرْ لـه ... ولـو أنـه أقسى مـن الـحجـر الـصَّلدِ
ومـا سـرَّنـي أن بـعـتـهُ بـثـوابـهِ ... ولـو أنـه الـتخـليـد فـي جنَّـةِ الـخلدِ
ولا بـعـتـهُ طـوعـاً ولكـنْ غُـصِبـتُـه ... وليسَ على ظلمِ الحـوادثِ من مُعـدي

وأما موت الأخ، فقد روينا فيه خبراً مليحاً، أخبرنا به أبو طاهر، محمد بن يوسف، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن بكر، قال: حدثنا أيوب بن سليمان، قال حدثني يوسف قال: حدثنا صهيب بن محمد قال حدثنا إسماعيل بن عمرو قال حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار، قال: قدم لقمان من سفرٍ، فلقى غلاماً له فقال له: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكت أمري. فما فعلت أمي؟ قال: ماتت قال: ذهب همي قال: فما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: سترت عورتي قال: فما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت قال: جدد فراشي قال: فما فعل أخي؟ قال: مات. قال: أوه انقطع ظهري. انتهى.

وذكر قدامة بن جعفر أن أبا جعفر المنصور لما دفن ابنه جعفر الأصغر قال للربيع كيف قال مطيع بن إياس[3] فأنشده:

يـا أهـل بكـوا لقلبيَ الـقـرحِ ... ولـلدُّمـوعِ الـذوارفِ الـسُّفُـحِ
راحـوا بيحيىٰ ولـو تـطاوعني الأ ... قـدارُ لـم تـبتـكـرْ ولـم تـرحِ
يـا خيـرَ من يحسُنُ البكـاءُ له الـ ... ـيـومَ ومـنْ كـانَ أمسِ لـلمِـدَحِ
قـد شمتَ الحزنَ بـالسـرورِ وقـد ... أديـلَ مـكـروهُـه من الـفـرحِ

فبكى المنصور ثم قال: صاحب هذا القبر أحق بهذا الشعر، ثم أذن للناس فدخلوا ونصبت

(١) ديوان ابن الرومي: ٢/١٤٥.
(٢) في الديوان: «توخّى حمامُ».
(٣) هو مطيع بن إياس الكناني، أبو سلمى، شاعر مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية، كان ظريفا، ماجناً اتهم بالزندقة. مات سنة ١٦٦ هـ. والأبيات في الأغاني مع ترجمته: ١٣/٢٨٩.

الموائد فلم يقدر أن يمدّ يده من الجزع الذي كان خامره فقام شبيب بن شيبة فأنشده قول الثقفي في ابنه علي، وكان شرطة عبيد الله بن العباس باليمن فقتله بسر بن أرطأة[1] فقال يرثيه:

لعمري لقد أوْدَى ابنُ أرطأةَ فارساً ... بصنعاءَ والليث الهزبسر أبي الأجر
تأملْ فإن كانَ البكا رَدَّ هالكاً ... على أحدٍ فاجهدْ بُكاك على عمرِو

فسرِّي عنه وأكل مع الناس ورفع الحزن مع رفع الطعام.

ومن عجيب المراثي قول[2] الأشجع:

مضى ابن سعيد حين لم يَبقَ مَشرقٌ ... ولا مغربٌ إلا له فيهِ مادحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه ... على الناس حتى غيبتهُ الصفائحُ
فأصبحَ في لحدٍ من الأرضِ ميتاً ... وكانَ بهِ حياً تضيقُ الأباطحُ
سأبكيك ما فاضتْ دُمُوعي وإن تغض ... فحسبك مني ما تحنُّ الجوانحُ
كأنْ لم يمتْ حيٌّ سِواكَ ولم تقمْ ... على أحدٍ إلا عليك النوائحُ
لئن حسنتْ فيك المراثي وقيلها ... لقد حسنتْ من قبلُ فيك المدائحُ
وما أنا من رزءٍ وإن جَلّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعدَ موتك فارحُ[3]

وأنشدنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم قال: أنشدنا العقدي، قال: أنشدنا أبو جعفر عن المدائني لعرفجة بن شريك يرثي أوساً:

رأيتُ المنايا تصطفي سَرَواتنا ... كأنَّ المنايا تبتغي من تفاخِره
فما كانَ قيسٌ عاجزاً غير أنهُ ... حمى أنفه من أن يضيعَ مجاورُه
وطابَ لوردِ الموتِ نفساً ولم يخمْ ... وقد ضاقَ بالنكس اللئيم مصادِرُه
فصادفَ رق الموت حراً سميدعاً ... إذا سئلَ المعروفَ لانت مكاسره
حمى أنفه أوس ولم يثن وجههُ ... ويفني الحياءُ المرءَ والرمح شاجِره

ومن ههنا أخذ أبو تمام قوله[4]:

وقد كانَ فوت الموتِ سهلاً فردَّهُ ... عليه الحفاظ المرُّ والخلقُ الوعرُ

وعزى ابن السماك الرشيد عن ابن له مات فقال:

أما بعد فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين أخذه، أكثر من شكرك لله حين وهبه فافعل، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ولو بقي لم تسلم من فتنته، عجباً لجزعك على ذهابه، وتلهفك على فراقه، أرضيت الدار لنفسك، فترضاها لولدك، أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت معلقاً بالخطر. والسلام.

---

(١) بسر بن أرطاة العامري القرشي، أبو عبد الرحمٰن، فتّاك من الجبارين تولى على البصرة لمعاوية سنة ٤١ هـ. وغزا بالبحر مات سنة ٨٦ هـ. (الأعلام: ٢/٥١).
(٢) الأبيات في وفيات الأعيان: ٤/٨٩.
(٣) الرزء: المصيبة.
(٤) البيت في ديوان أبي تمّام: ٣٢٨.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله حمداً لا يحصى عدده ولا يبلغ أمده، وصلواته على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين المختارين وسلم.

هذا كتاب المبالغة

في صفة أشياء مختلفة يختم بها كتاب ديوان المعاني وهو:

الباب الثاني عشر منه فأول ذلك

القول في الحنين إلى الأوطان

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان قال: قال أبو سرح: سمعني أبو دُلف أنشد:

لا يمنعنــكِ خفض العيش في دعةٍ   نــزوعِ نـفس إلـى أهــلٍ وأوطــانِ
تلقى بـكــلِّ بــلادٍ أنتَ ســاكـنهــا   أهــلاً بــأهــل وجيــرانــاً بجيــرانِ

فقال: هذا ألأم بيت قالته العرب.

قال أبو هلال رحمه الله: النزوع ههنا رديءٌ والجيد النزاع، وإنما جعل أبو دلف هذا البيت الأم بيت لأنه يدل على قلة رعاية، وشدة قساوة، وحنين الرجل إلى أوطانه منقبة، من علامات الرشد لما فيه من الدلائل على كرم الطينة وتمام العقل.

وقالت الحكماء:

حنين الرجل إلى وطنه من علامات الرشد.

وقال بزرجمهر:

من أمارت العاقل بره بإخوانه وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأهل زمانه.

وقال أعرابي: لا تشك بلداً فيه قبائلك ولا تجف أرضاً فيها قوابلك.

وقالت العرب:

أكرم الخيل أشدها خوفا[1] من السوط، وأكيس الصبيان أشدهم بغضاً للمكتب، وأكرم الصفايا أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهارة أشدها ملازمة لأمهاتها، وأكرم الناس آلفهم للناس.

وقد بين الله تعالىٰ فضل الوطن، وكلف النفوس به في قوله تعالىٰ: ﴿ولَوْ أنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِم أن اقْتُلُوا أنْفُسَكمْ أو اخرُجُوا مِنْ ديارِكمْ ما فعَلُوه إلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[2] فجعل خروجهم من ديارهم كفؤ قتلهم لأنفسهم.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وإذْ أخَذْنَا مِيثَاقَكمْ لاَ تَسفِكونَ دمَاءَكُم وَلاَ تُخرِجُونَ انْفُسَكُم من دِيَارِكُم﴾[3]. وقوله تعالىٰ: ﴿ولَولاَ أنْ كَتَبَ الله عَلَيهِمُ الجَلاَءَ لَعَذَّبَهُم فِي الدُّنيَا﴾[4]. فجعل إخراجه إياهم من ديارهم بدلاً من العذاب المستأصل لهم لشبهه به عندهم.

وقال بعض الحكماء:

الخروج من الوطن أحد السبابين والجلاء أحد القتلين.

وقال يحيىٰ[5] بن طالب:

إذا ارتحلتْ نحو اليمامة رفقةٌ ... دعاني الهوى وارتاح قلبي إلى الذكرِ
يقولونَ إنَّ الهجرَ يشفي من الهوى ... وما ازددتُ إلا ضعف ما بي على الهجرِ

وكان كثيرٌ من العرب ممن يُعتزى إلى فضل كرم لا ينتجعون وكذلك كانت قريش.

وقال الحارث بن ظالم:

رفعتُ الرُّمح إذ قالوا قُريشٌ ... وشبهت الشمائل والقبابا[6]
ولو أني أطاوعُ كنتُ فيهم ... وما سيرتُ أتبع السحابا

وقال الحويدرة[7]:

وتقيمُ في دار الحفاظ بيوتنا ... زمناً ويظعنُ غيرنا للأمرعِ

والأمرع: جمع لا واحد له من لفظه، وكانوا يسمون منزلهم دار الحفاظ لأنهم كانوا يقيمون فيه لقرى الأضياف، وإعطاء الفقير، وصلة المسكين وابن السبيل.

وقال[8] أبو تمام:

---

(١) «خوفا» ليست في الأصل.

(٢) سورة النساء: آية ٦٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٨٤.

(٤) سورة الحشر: آية ٣.

(٥) هو يحيى بن طالب الحنفي، من بني ذهل شاعر غزل مات سنة ١٨٠ هـ. (الأعلام: ٨/١٥١).

(٦) في الأغاني: «رفعت السيف» و «بينت الشمائل والعتابا».

(٧) في الأصل «الخويدرة» وهو غلط. والحويدرة أو الحادرة شعر جاهلي مقل واسمه قُطبة الثعلبي.

(٨) ديوان أبي تمام: ٤٠٧.

كم منزل في الأرضِ يألفهُ الفتى وحنينهُ أبداً لأوّل منزلِ

وقد قالت الهند:

حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك، لأن غذاءك منهما وغذاءهما منك.

وقال آخر:

أرض الرجلِ ظئرهِ[1] ودار مهده.

وقال آخر:

الحنين إلى الوطن ورقة القلب من رقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة، وطهارة الرشدة من كرم المحتد.

وقال الشاعر:

لقربُ الدَّار في الاقتار خيرٌ من العيش المُوسّع في اغترابِ

وقال جالينوس[2]:

يتروح العليلِ بنسيم أهله، كما تتقوت الحبة ببل المطر إذا أصاب الأرض.

وقال أفلاطون[3]:

غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها. وقال: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتنزع إلى غذائها.

وقلنا: ليس الانسان أقنع بشيء منه بوطنه، لأنه يتبرم بكل شيء رديء ويتذمم من كل شيء، كريه، إلا من وطنه وإن كان رديء التربة، كريه الغذاء، ولولا حبُّ الناس للأوطان، لخرب أخابث الأرض والبلدان.

وقال الشاعر:

ألا ليت شعري هل تحننّ ناقتي بصحراء من نجران ذاتِ ثرى جعدِ
وهل تنفضنَّ الريحُ أفنانَ لمتي على لاحقِ الأطلين مطمر ورد
وهل أردن الدهر حسمي مزاحم وقد ضَربْتهُ نفحةٌ من صبا نجد

وذكر ابن الرومي العلة التي يحب الوطن لأجلها وليس له في ذلك امام إلا أحمد بن إسحاق الموصلي فإنه قال:

أحبُّ الأرضَ تسكنها سليمى وإن كانتْ بواديها الجدوب
وما دهري يحب تراب أرض ولكنْ من يحلُّ بها حبيبُ

وقال[4] ابن الرومي:

---

(١) الظئر: الركن الشديد والمأوى.

(٢) جالينوس: من علماء اليونان.

(٣) افلاطون: فيلسوف يوناني كبير.

(٤) ديوان ابن الرومي: ٦/١٩.

ولـي وطـنٌ آلـيـتُ أن لا أبـيـعـهُ … وألا أرى غيـري لـه الـدهـرَ مـالكـا
عـهـدتُ بـه شـرخَ الشبـابِ ونعـمـةً … كنعـمـةِ قـوم أصبحـوا في ظـلالكـا
فـقـد ألـفـتـهُ الـنـفسُ حتـى كـأنـهُ … لهـا جَسَـدٌ لـولاهُ غـودرْتُ هـالكـا
وحـبّـبَ أوطـانَ الـرجـالِ إلـيـهـم … مـآربُ قـضـاهـا الشبـابُ هُنـالكـا
إذا ذكـروا أوطـانـهـمْ ذكـرتـهـمُ … عـهـود الصبـا فيهـا فحنـوا لـذلكـا
وقـد ضـامني فيهـا اللئيم وغـرَّني … وهـا أنـا منـهُ معصـمٌ بـحبـالكـا
فـإن أخـطأتـني مـن يمـينـك نـعـمـة … فـلا تـخـطئنـه نقـمـةٌ مـن شمـالكـا

وقلت في نحو ذلك:

ثَوى في حفرةِ العانات يمنٌ تغلغل فِي المنازلِ والرِّباعِ[(١)]
وإن تـهـوَ الـبـقـاع فـليس غـرواً … هـوى أهل البقـاع هـوى البقـاعِ

وقال[(٢)] ابن الرومي:

فـإذا تصـوَّر في الضميـر وجـدتـهُ … وعـليـه أفنـانُ الـشـبـاب تـميـدُ

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية، إذا اشتدَّ القيظ، وانتعل كل شيء ظلَّه؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدُنا ميلا ويرفضّ عرقاً، ثم ينصبُ عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجْلس يكتال الريح، فكأنَّه في إيوان كسرى. وذكر أعرابيٌّ بلدهُ فقال: رملةٌ كنت جنين ركامِها، ورضيع غمامها. وقالت أعرابيةٌ: إذا كنت في غير أهلك، فلا تنس نصيبك من الذلّ. وقال الشاعر في معناه:

نـصيبـك مـن ذلّ إذا كـنـت خـالـيـا

وقلت:

حسبتُ الخيـرَ يكثر في التنـائـي … فكـانَ الخيـرُ أكثـر في التـدانـي
ذكـرتُ مقـامنـا بـسـراة حُـزوى … فسـرت مع الـوسـاوس في عنـانِ[(٣)]
ألا لله حـزمٌ واصـطـبـارُ … تـقـاسـمـه بـنـيـاتُ الـزَّمـان
عـزيـزٌ أضمـرتـهُ نـوى شـطـون … فـظلَّ من المهانـةِ في ضمـان[(٤)]
يُنـاط إلـى الـعـزيـز إذا تبـوَّى … بـمـنـزل غـربـةٍ طـرف الـهـوانِ

وقال آخر

يحنُّ اللبيبُ إلى وطنه كما يحنّ النجيب إلى عطنه.

وقلت:

---

(١) ثوى: أقام.
(٢) ديوانه: ٢ / ٢٧٠. وفيه: «فإذا تمثّل في الضمير رأيته».
(٣) حُزوى: موضع.
(٤) شطون: بعيد.

إذا أنـا لا أشـتـاقُ أرض عـشـيـرتـي ... فـليسَ مـكـانـي فـي الـنـهـى بـمـكـيـن
مـن الـعـقـل أن أشـتـاقَ أوّلَ مـنـزلٍ ... غـنـيـتُ بـخـفـضٍ فـي ذُراهُ ولـيـنِ
ورَوْض رعـاهُ بـالأصـائِـل نـاظـري ... وغـصـن ثـنـاهُ بـالـغـداةِ يـمـيـنـي(١)

وقال ابن المولى(٢):

سُـرِرتُ بـجـعـفـرٍ والقـرب مـنـه ... كـمـا سُـرَّ الـمـسـافـر بـالإيـابِ
كـمـمـطور بـبـلدتـهِ فـأضـحـى ... غـنـيـاً عـنْ مـطـالـعـة الـسـحـابِ

وهو من قول الآخر:

فـكـنـتُ فـيـهـمْ كـمـمـطور بـبـلدتـهِ ... فـسـرَّ أن جـمـعَ الأوطـانَ والـمـطرا

وفضّل بعضُهم السفر على المقام واحتج بقول الله تعالىٰ:

﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُون مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ﴾(٣).

قال: فقسم الحاجات فجعل أكثرها في البُعد.

وقال تعالىٰ:

﴿فإذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾(٤).

قال: فاخرج الكلام مخرج العموم، ولم يخص أرضاً دون أرضٍ، ولا قرباً دون بعد، ويُنشد في هذا المعنى قول(٥) أبي تمام:

وطـولُ مُقـام المـرءِ فـي الحـيِّ مُخـلِقٌ ... لـديـبـاجـتـيـهِ فـاغـتـربْ تـتـجـدَّدِ
فـإنـي رأيـتُ الـشـمـسَ زِيـدتْ مـحـبـةً ... إلى الـنـاس إذ لـيـسـتْ عليـهـم بـسـرمـدِ

وقال في الحث على الأسفار والطلب والتزهيد في المقام والدعة: الراحة عقلةٌ، والبركاتُ في الحركات، ومن غلى دماغه في الصيف، غلت قِدره في الشتاء. وقال عبد الله بن وهب: حبُّ الهوينا يكسِب الضنى.

وقال أبو المعافى(٦):

وإنَّ التـوانـي أنكـحَ العجـزَ بنتـه ... وسـاقَ إليهـا حينَ أنكحهـا مهـرا
فـراشـاً وطيئـاً ثمَّ قـال لهـا اتكي ... فقُصـراً كمـا لا بُـدّ أن تلد الفقـرا

---

(١) الأصائل: جمع الأصيل. بعد العصر.

(٢) ابن المولى: محمد بن عبد الله بن مسلم، شاعر متقدم مجيد، مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية. الأغاني ٢٨٦/٣٣.

(٣) سورة المزمل: آية ٢٠.

(٤) سورة الجمعة: آية ١٠.

(٥) ديوانه: ٩٠.

(٦) أبو المعافى: هو يعقوب بن إسماعيل بن رافع. شاعر من ابناء العصر العباسي مات سنة ١٨٠ هـ.

وقال نُهيك بن أساف:

أأمّ نُهيك إرفعي الطرفَ صادِقاً ... ولا تيأسِي أن يثرَي الدهر بائس[1]

سيغنيك سعي في البلادِ وغربتي ... وبعل التي لم تحظَ في البيتِ جالس[2]

وأخبرنا أبو أحمد، عن ابن دُريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: قال أكثم بن صيفي: ما يودني أني مكفي، وأني أسمنت وألينت، قيل ولم ذاك قال مخافة عادة العجز. وفي الحديث المرفوع «سافروا تغنموا». (٣)

وقال الشاعر وذمّ طول الضجعة:

فإن تأتياني بالشتاء وتلمسا ... مكان فراشي فهو بالليل باردُ

وقال آخر:

أبيض بسَّام برودُ مضجعه ... واللقمةُ الفردُ مراراً تُشبعه

وقال الحطيئة يهجو القعود والراحة(٤):

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقال أبو عُبادة البُحتري(٥):

وقد سألتُ فما أُعطيتُ مرغبةً ... وكان حقيَ أن أُعطى ولم أسلِ

أرمي بظني ولا أعدو الخطاءَ به ... فاعجبْ لاخطاءِ رامٍ من بني ثُعَلِ(٦)

أسيرُ إذ كنت في طولِ المقام بها ... أكدي لعليَ أجدى عند مُرتحلي

شرق وغربِ فعهد العاهدين بما ... طالبت في ذَمَلان الأينق الذملِ(٧)

ولا تقل أُممٌ شتّى ولا فرق ... فالأرض من تربةٍ والناس من رجلِ(٨)

وقال بشار بن بُرد:

تخاف المنايا إذ ترحَّلَ صاحبي ... كأنَّ المنايا في المقام يناسبه(٩)

أخذه من قول الأعشى:

---

(١) في الأغاني: «الطرف صاعداً».

(٢) في الأغاني:

سيغنيك سيري في البلاد ومطلبي ... وبعل التي لم تحظ في الحي جالس

(٣) رواه الإمام أحمد بلفظ: «سافروا تصحوا: ٢/٣٨٠.

(٤) ديوان الحطيئة: ١٠٥.

(٥) ديوانه: ٢/٣٠٤عـ.

(٦) في الديوان: «فما أعدو».

(٧) الذملان: السير الليّن.

(٨) في الأصل: «ولا شقق».

(٩) ديوان بشّار: ١٤٤. وفيه: «يخاف المنايا إن ترحلتْ... تناسبه».

وكم مِن رَدٍ أهلَه لم يَرِمْ

والأول أجود سبكاً وأفصحُ لفظاً.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، قال: قال أبو الحسن: كان خالد بن عبد الله القسري يُطعم الأعراب في حطمه أصابتهم، في كل يوم يُطعم ثلاثين ألف انسان خبزاً وسويقاً وتمراً فقيل لأعرابي: لو أتيت خالداً فإنه يُطعم الأعراب فقال:

يقولُ ابنُ حجاج تجهـزْ ولا تمت ... هُـزالا بحـرَّان تعـاوى كِـلابـهـا
فقـد خبرَ الـركبان أنَّ جـديـدَه ... تباحٍ ورغفـانـا شبـاعـاً رِغـابُها
ومـاء فراتٍ مـا اشتهيتُ وقـريـة ... تـدبُّ دبيبَ النمـلِ فيك شرابُهـا
فـأقسم لا أبتـاعُ رُغفـانَ خـالـد ... بـأرواحِ نجدٍ مـا أقـامَ تُـرابُهـا
إذا بـاحـت بـالعُـرمتيـنِ وصـارةً ... رِيـاح الخزامى حينَ تندى رِحـابها

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حدثنا أبو بكر بن دُريد، قال: حدثنا الفضل بن محمد العلاف قال: لما قدم بُغاببني نمير، كنت كثيراً ما آتيهم، فلا أعدم أنْ ألقى منهم الفصيح، فجئت يوماً إليهم في عقب مطر فإذا شابٌ جميلٌ، قد نهكه المرض فليس به حَراكٌ وإذا هو ينشد:

ألا يـا سنى بـرقٍ عـلى قللِ الـحـمى ... لـيـهـنـك مـن بـرقٍ عـليّ كـريـمُ
لمعتَ اقتـداء الـطرْفِ والـقـومُ هُجَّـع ... فـهـيجـت أسقـامـاً وأنت سقـيـمُ[(١)]
فـهـل من مُـعيـر طـرفَ عيـنٍ خليـة ... فـإنـسـانُ طـرف العـامـريِّ كـليـمُ
رمـى قلبَـه الـبـرقُ اليـمـانيُّ رمـيـةً ... بـذكـر الـحمى وهنـاً فـبـاتَ يـهيـمُ

قال: إن فيما بك لشغلاً عن الشعر. قال: صدقت ولكن البرق أنطقني.

وقال عبد الله بن محمد الفقعسي:

ألا ليت شعـري هـل أبيتنَّ لـيلة ... بـسـلع ولـم تـغـلقْ عـليَّ دروبُ
وهـل أحـدُ بـاد لـنـا وكـأنـه ... حصـان أمـام المقـربـات جنيب
يحول السـراب الـطلح بيني وبينه ... فـيـبـدو لـعيـني تـارةً ويـغـيـب[(٢)]
فـإني لأرعى النجمَ حتى كـأنني ... على كـلِّ نجمٍ في السمـاء رقيبُ
وأشتـاقُ للبـرقِ اليمـاني إذا بـدا ... وأزدادُ شـوقـاً إن تـهـبّ جَـنـوب

وله أيضاً:

ومـنْ حـاجـتي لـولا الحـيـاءُ وأنـنـي ... أرى النـاسَ قد أغـروا بعيب صبا الكهـلِ
مسيـري مـع الفتيـان في طلقِ الهـوى ... أبـاري مطايـاهم على سلسـلٍ رسـلِ
فـلم يبـقَ مـن تـلك الـلذاذةِ عـنـدهـم ... وعـنـديَ غيـرُ الـذكـر للعهـدِ والأهـلِ

وقال أعرابيٌ:

---

(١) سقيم: مريض.

(٢) يحول في الأصل «يحب».

أمُغتـربـاً أصبحتَ في رَامَهُـرمُـزٍ ... ألا كـل كـعبـيٍّ هـنـاك غـريـبُ
إذا راحَ ركـبٌ مصـعـداً إنَّ قـلبـهُ ... مـع الـرائحيـنَ المصعـديـنَ جنيبُ
وإنَّ الكثيبَ الفـردَ من أيـمن الـحمى ... لـيحلو بـسـمعـي ذكـرُهُ ويـطيـبُ
تـفـوقتُ ذرّات الـصبـا في ظـلالـهِ ... إلى أن أتـانـي بـالـفـطام مشـيـبُ
إذا هـبَّ عُلويُّ الـرِّيـاح استمـالـني ... كـأنـي لـعـلويٍّ الـريـاح نـسـيـبُ

ومما يجري مع ذلك قول الآخر:

إذا عـقـدَ القـضـاءُ عليـك أمـراً ... فـليسَ يـحـلهُ غيـرُ الـقـضـاءِ
فـمـا لـكَ قـد أقمتَ بـدارِ ذُلٍّ ... ودارُ الـعـزِّ واسـعـة الـفـضـاءِ
تـبلغْ بـالـكـفـاف فـكـلُّ شيءٍ ... مـن الـدنيـا يـؤولُ إلى انـقـضـاء

وقال(١) امرؤ القيس:

وقـد طَـوَّفْـتُ في الآفـاقِ حتـى ... رضيتُ، من السـلامةِ، بـالإيـابِ

وقال(٢) البحتري:

وكـانَ رجـائي أن أؤوبَ مُمَلَّكـاً ... فصـارَ رجـائي أنْ أؤوب سليمـا

---

(١) ديوانه: ٧٣.

(٢) ديوان البحتري: ١/ ٢٧٠ عـ. وفيه:

راضٍ مـن الـهـجـر الـمـبـرّح بـالـنـوى ... ومـن الـصّـبـابـة أن يـبـيـت سـليمـا

فصل في مدح الاخوان

من أحسن التشبيه في مدح الأخ ما[1] أنشدني أبو علي بن أبي حفص عن جعفر بن محمد:

أخٌ لي كأيام الحياةِ إخاؤُهُ ... تلوّن ألواناً عليّ خطوبُها
إذا عبتُ منه خلةً فهجرتهُ ... دعتني إليه خَلةٌ لا أعِيبُها

وقال[2] البحتري:

قدمتَ فأقدمْتَ الندى يحمل الرضا ... إلى كلٍّ غضبانٍ على الدَّهرِ عاتبِ
وجئت كما جاء السحابُ محرِّكاً ... يديك بأخلافٍ تفي بالسحائِبِ[3]
فعادتْ بك الأيامُ وهي كواكبٌ ... جلا الدَّهرُ منها عن خُدودِ الكواعبِ[4]
وما أنسَ لا أنسَ اجتذابَك همّتي ... إليك وتزييني بأعلى المراتبِ[5]
فيا خيرَ مصحوبٍ إذا أنا لم أقمْ ... بشكرِك فاعلمْ أنني شرُّ صاحبِ

وكتب بعضهم: لست أذم من أيامنا إلا قصرها وطول الحسرة على أثرها.

وقريبٌ من المعنى الأول وقول الآخر:

خليلٌ إذا ما جئتُ أبغيه حاجةً ... رجعت بما أبغي ووجهي بمائه
بلوت رجالاً بعده في إخائهم ... فما ازددت إلا رغبة في إخائه

وقال دعبل بن علي:

أخٌ لي عاداهُ الزمانُ فأصبحتْ ... مذمّمة فيما لديه المطالبُ
متى ما تذوّقهُ التجاربُ صاحباً ... من الناس ردته إليك التجاربُ

وقال إبراهيم ابن العباس:

ومؤمل للنائبات إذا ... هبَّ الزمان باذره هبًّا

---

(١) «ما» ليست في الأصل.

(٢) ديوانه: ٢/٢٥٦.

(٣) في الديوان: «جاء الربيع».

(٤) في الديوان: «الأيام زهراً كأنما». الكواعب: الفتيات الحِسان.

(٥) في الديوان: «وترتيبي أخص المراتب».

لمـا رآني نـهب حـادثـة		جعـل الذخـائر دونهـا نهبا

وقال[1] أيضاً:

ولـكـنَّ الـجـوادَ أبـا هـشـام		وفيُّ العهـدِ مـأمـونُ المغيـبِ
بطِيءُ العهـد مـا استغنيت عنـهُ		وطَـلاَّعُ عليـك مـع الخـطوبِ

والبيتُ الأخير يشير إلى قول جرير:

وإنـي لـعف الـفقـر مشـتـرك الـغـنـى

ونحوه قول[2] إبراهيم أيضاً:

أسـدٌ ضـارٍ إذا هـيـجـتـهُ		وأبٌ بـرٌّ إذا مـا قـدرا
يـعـرفُ الأبـعـدُ إن أثـرى ولا		يـعـرفُ الأدنـى إذا مـا افـتـقـرا

وقال أيضاً:

ولكنَّ عبـدَ اللهِ لمـا حـوى الغنـى		وصـارَ لـه من بين إخـوانـه مـالُ
رأى خـلةً مـنـهـم تُسـدُّ بـمـالـهِ		فساهمهمْ حتى استوتْ بهمُ الحال

ونحوه قوله أيضاً:

بـدا حـيـنَ أثـرَى بـإخـوانـهِ		فـفـلل عـنـهـمْ شبـاه الـعـدمْ
وذكـره الـحـزمُ غِـبَّ الأمـور		فـبـادَرَ قـبـلَ انـتـقـال الـنـعـمْ

ومما هو في هذا السبيل ما كتب بعضهم: ما شخصتُ حتى شخص عقلي فصار عديلك، واستقل ودي فأضحى زميلك، ولا مطمع لي في مستقرهما حتى تستقر النوى بك وتحقق الأماني فيك ولك.

وقال[3] أبو تمام:

لـيـالي نـحنُ في غـفـلاتِ عـيش		كـأنَّ الـدَّهـرَ منهـا في وثـاقِ[4]
وأيـامـاً لـنـا ولـه لـدانـا		عـرِينا في حـواشيها الـرِّقـاقِ[5]

وفي هذا الموضع أيضاً قوله:

أأيـامـنـا مـا كنتِ إلا مـواهـبـاً		وكنت بـإسعـافِ الحبيبِ حبـائبـا[6]
سنغـربُ تجديـداً لعهـدك في البكـا		فمـا كنتِ في الأيـام إلا غـرائبـا

وقلت في فضل الصديق على القريب:

---

(١) الأغاني: ١٠/٤٤.
(٢) الأغاني: ١٠/٦٥.
(٣) ديوان أبي تمّام: ١٨٩.
(٤) في ديوانه: «سنبكي بعده غفلات عيش».
(٥) في الأصل: «لنا ولهم»، و«عريباً في».
(٦) البيتان في ديوان أبي تمّام: ٢١.

رأيتُ بالودِّ عن القربى غنى ... وليسَ بالقربَى عن الودِّ غنى
وصاحب الودِّ حُسامٌ منتضى ... يزينُ في السلم ويكفي في الوغى»[1]

وقلت أيضاً في قوله:

ليسَ حَدُّ الحسام أكفى وأغنى ... من أخ ذي كفاية وغَناءِ
وأخُ المرءِ عصمةٌ في بلاءٍ ... يعتريهِ وزينةٌ في الرَّخاءِ

وقال شبيب بن البرصاء[2]:

إذا المرءُ أغراه الصديقُ بدا لهُ ... بأرض الأعادي بعض ألوانها الربد

ومن أجود ما قيل في الاغضاء عن الأخ قول[3] النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّهُ ... على شعثٍ إيُّ الرجالِ المهذبُ

وقال[4] بشار بن بردٍ:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً ... صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبُه
فعشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنهُ ... مُقارفُ ذنبٍ مَرَّة ومجانبهْ
إذا أنتَ لم تَشرَبْ مراراً على القذى ... ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُهْ

وقال آخر:

ألبس أخاك على تصنُّعه ... فلربَّ مُفتضح على النص
ما ظلتُ أفحص عن أخي ثقةً ... إلا ذممتُ عواقبَ الفحصِ

وقال آخر:

ومنْ ذا الذي ترضى سجاياهُ كلها ... كفى المرء نبلاً أنْ تُعدَّ معائبه

وكتب الصاحب في فصل:

وتمثلت لي أخلاقك التي لولاها لم يسلس الماء، ولم يرق الهواء، ولم ترع الحقوقُ والذمم ولم يعرف المجد والكرم، أخلاقٌ جددٌ غير أخلاق، لا تأخذ الأيام جدّتها، ولا تنهجُ الليالي بردَتَها.

ومن جيد ما قيل في إظهار الرغبة في الإخوان قول[5] أبي فراس بن حمدان:

قل لإخواننا الجفاةِ: رويداً! ... إذ رجونا إلى احتمال الملال![6]

---

(١) في بعض النسخ: «وصاحب الصدق».

(٢) هو شبيب بن يزيد» ابن البرصاء: شاعر اسلامي بدوي، كان هجّاءً، مات سنة ١٠٠ هـ. (الأعلام: ١٥٧/٣)

(٣) ديوانه: ٤٧.

(٤) ديوانه: ١٤١.

(٥) ديوانه: ٢٣٠.

(٦) في الديوان: «قل لأحبابنا» وفيه: «درّجونا على».

إن ذاك الصدودَ من غير جُرمٍ لم يَدَع فيّ موضعاً للوصالِ[1]
أحسنوا في وصالكم أو فسيئوا! لا عدمناكم على كلِّ حالِ![2]

وقلت في معناه:

كم قد منحتك حسناً وليس منك جزاءُ
ترى يضرُّك أن لوْ يكون منك وفاءُ
لا تبلنا بصدودٍ إنَّ الصدودَ بلاءُ
بل ما لنا منك بُدٌّ فاصنع بنا ما تشاءُ

وأنشد أبو أحمد:

اذكر أخانا تولى اللهُ صحبتهُ إني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ
الله يعلمُ أني لستُ أذكره وكيفَ يذكره من ليس ينساه

وقال الخريمي:

أخٌ لي كَذوبُ الشهدِ طعمُ إخائهِ إذا اختلفتْ بيضُ الليالي وسودُها
كأمنيةِ الملهوفِ حزماً ونائلاً وعوناً على عمياءِ أمرٍ يكيدُها
له نِعمٌ عندي ضعفتُ بشكرها على أنهُ في كلِّ يومٍ يزيدُها
تحملَ عني شكرها فأراحني وللشكرِ مرقاةٌ كؤودٌ صعودها[3]

وأنشدنا أبو أحمد، قال: أنشدني أبو إسحاق الشطبي قال أنشدنا حماد الرِّواية:

تصفحتُ إخواني بعينِ عنايةٍ فأصلحتُ منها كلَّ ما أفسدَ الدهرُ
وأرضاك عفو الشكر دونَ اجتهادهِ وفي دون ما أوليت ما اجتهد الشكرُ

ومن مليح ما قيل في مدح الزمان:

رَقَّ الزَّمانُ لفاقتي ورثى لطولِ تحرُّقي
فأنالني ما أشتهي وأراحَ مما أتقي
فلأغفرنَّ له الكثير من الذنوبِ السُّبَّقِ
حتى جنايتهُ بما فعلَ المشيب بمفرقي

(١) في الديوان: «مطمعاً بالوصال».
(٢) في الديوان: «في فِعالكم أو أسيئوا».
(٣) كؤود: شاق.

في ذم الاخوان والرفقاء وما يجري مع ذلك

من قديم ما يروى في ذلك قول[1] لبيد بن ربيعة:

ذهبَ الـذين يُعـاشُ في أكنـافهمْ وبقيت في خلفٍ كجلدِ الأجـربِ[2]

وضمّنه جحظة البرمكي فقال[3]:

قـومٌ أحـاولُ نـيلهـمْ فكـأنـني حـاولتُ نتفَ الشعـرِ من آنـافهمْ
قمْ فـاسقنيهـا بـالكبيـرِ وغنّني ذَهبَ الـذينَ يُعـاشُ في أكنـافهمْ

وأنشدنا أبو القاسم عن العُقدي عن أبي جعفر لأبي الشيص[4]:

وصـاحـبٍ كـان لي وكـنـتُ لـه أشـفـقَ مـن والـدٍ عـلى ولـدِ
كنـا كسـاق يـمشي بـهـا قـدمٌ أو كـذراعٍ نـيطتْ إلى عَـضُـدِ
حتى إذا دانـت الـحـوادثُ مـنْ خـطوي وحَـلَّ الـزمـانُ من عُقَـدي
أحـولَ عـني وكـان يـنـظرُ مـنْ عيني ويـرمي بسـاعـدي ويـدي
وكـانَ لي مؤنـسـاً وكنـتُ لـه لـيس بـنـا حـاجـةٌ إلى أحـدِ
حتى إذا استـرفـدتْ يـدي يـدَه كـنـت كـمستـرفـدٍ يـدَ الأسـد

ومن جيد ما قيل في ذي الوجهين:

تعـاشـرُني ضحكـاً كـأنـك نـاصـحٌ وعـيـنـك تُبـدي أنَّ قـلبـك لـي دوِي
لسـانـك لـي شـهـدٌ وقـلبـك عـلقـمٌ وشـرُّك مـبـسـوطٌ وخـيـرك مـلتـوي
أراك إذا لـم أهـو شـيئـاً هـويتَـه ولستَ لمـا أهـوى من الشيءِ بـالهـوِي
عـدوُّك يـخشى صـولتي إن لـقيتـه وأنـت عـدوِّي لـيس ذاك بـمسـتـوي
وكم مـوطن لـولايَ طحتَ كـمـا هـوى بـإجـرامـه من قُـلة النـيقِ مُنـهـوي

---

(١) ديوان لبيد: ٣٦.
(٢) الأكناف: جمع الكنيف وهو المأوى.
(٣)الأبيات مع ترجمته في وفيات الأعيان: ١/١٣٣.
(٤) الأبيات في العِقد الفريد، ونسبتها إلى ابن أبي حازم العقد: ٢/٣٤٧.

كـأنـك ان قـيـل ابنُ عـمـك غـانـمٌ ... شـج أو عـمـيـدٌ أو أخـو مـغـلة جـوي
بـدا منـك غشٌ طـالمـا قـد كـتمتـه ... كـمـا كـتـمـتَ داءَ ابـنـهـا أم مُـدَّوِي

وقريبٌ من ذلك، ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: أخبرنا أبو ذكوان عن الرياشي قال: سمعت أبا عبيدة، يقول دخل رجلٌ الكوفة، فنزل بآل عُطارد فلم يضيفوه ورأى لهم أبنية عاليةً فقال ارتجالاً:

تـنـاهـوا بـرفـع الـدُّور حتى كـأنهـا ... جبـال ومـا شـدى بخيـر شعـابهـا
فليسـوا بفتيـان السـمـاحـة والنَّـدَى ... ولـكـن فـتـيـانـا تـسـوَّى ثـيـابـهـا
فـقـد أصبحتْ أضـيـافُ آل عُـطاردٍ ... خماصاً مطاياها خفافاً عبابها(١)

ومن ذلك قول الشاعر:

لـعمـري لـقـد أعـطيتَ بُـرداً وحُـلةً ... وعـراك من ثـوبِ السمـاحـةِ سـالبُـه
فمـا يـكُ من خيـر فمـا تستـطيعـه ... ومـا يـك من شـرٍّ فـإنـك صـاحبُـه

وقال يزيد المهلبي(٢):

فـإذا غـنيت فـكلهم لـي خـاتـلٌ ... وإذا افتقـرت فـكلهـم لي جـافي

وما أكثر أحدٌ في ذم الزمان إكثار إبراهيم بن العباس فمن جيد قوله:

كـم أخٍ كـانَ مـنـي فـلمـا ... أن رأى الـدَّهرَ جفـاني جفاني(٣)
مُـسـتـعـدٌّ لـي بـسهـم فـلمـا ... أن رأى الـدَّهـرَ رمـاني رمـاني

وقال غيره:

إحـذَرْ مـودَّةَ مـاذِقٍ ... شـابَ الـمـرارةَ بـالحـلاوَهْ(٤)
يُـحصـي الـعيـوبَ عـليـك أيَّـ ... ـامَ الـصـداقـةِ لـلعـداوَهْ

وقال إبراهيم:

بلوتُ الـزَّمـانَ وأهـلَ الـزَّمـان ... وكـلٌّ بـلوم وذمٍّ حـقـيـق
فـأوحشني من صـديقي الـزمـان ... وآنـسـنـي بـالـعـدوِّ الـصـدي

وقوله:

أخ كنت آوي منهُ عندَ ادّكـارِه ... إلى ظـلِّ آباءٍ من العـزِّ بـاذخ
سَعتْ نـوَبُ الأيـامِ بيني وبينـه ... فـأقلعنَ منـا عن ظلومٍ وصـارخ
وإني وإعـدادي لدهـري محمـداً ... كملتمس إطفـاءَ نـارٍ بنـافـخ

وقال بعض الجعفريين:

---

(١) المطايا الخماص: الضامرة. كناية عن بخلهم.
(٢) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، أمير قائد، تولى خراسان بعد أبيه. وعزله عبد الملك، توفي سنة ١٠٢ هـ. (الأعلام: ٨/١٨٩).
(٣) الأغاني: ١٠/٦٧.
(٤) شاب: مزج.

إنِّ الجـديدينِ في طـولِ اختلافهمـا لا يفسـدانِ ولكن أفسـد النـاس ِ(١)
فـلا يـغـرنـك أضـغـانٌ مُـزَمـلةٌ قد يُركبُ الدبر الدامي بأحلاس ِ(٢)

قالوا هو من قول زفر بن الحارث(٣):

وقد ينبتُ المرعى على دِمَن من الثرى وتبقى حـزازاتُ النفوس كمـا هيا(٤)

قالوا: يعني الرجل يظهر لك الود، ويضمر خلافه كالنبات الحسن، ينبت على القذر فيصير رائق الظاهر خبيث الباطن، وقال آخرون: الدمنة حيثُ تنزلُ الأبلُ فتدمن بالأبوال والأبعار، فلا تنبت شيئاً فإذا طال عليه العهد، وسفته الرياح، وأصابته السماء، نبت بعد حين، فيقول قد ينبت ذاك وهو مما لا ينبت، ويتغير بالنبات وتبقى حزازات القلوب لا تتغير، وهذا التفسير هو الصحيح، لأن ألفاظ البيت تقتضيه والأول فاسدٌ لأنه ليس على مقتضاها.

وقال(٥) أبو فراس بن حمدان في ذم الإخوان فأجاد:

تناسـاني الأصحـابُ، إلا عُصيبَـةً ستلحقُ بـالأخـرى، غـداً وتحـولُ!
فمن قبل كانَ الغدرُ في الناس سُبّـةً وذمَّ زمـانٍ واسـتـلامَ خـلـيـل
وفـارق عمـرو بنُ الـزبيـرِ شقيقَـه وخلّى أميـرَ الـمؤمـنيـن عقيـلُ(٦)
ومن ذا الذي يبقى على الدهر؟ إنهم وإنْ كـثُـرتْ دعـواهمُ، لـقليـلُ(٧)
وصـرنـا نَـرَى أنَّ المتاركَ مُحسنٌ وأنّ خـيـلاً لا يـضـرُّ وصـولُ
أقلّبُ طـرفي لا أرى غيـرَ صـاحبٍ يميـلُ مـع النعمـاءِ حيثُ تميـلُ

وقلت:

إلـى كم تـسمتـرُّ عـلى الـجـفـاء ولا تـرعـى حُـقـوقَ الأصـدقـاءَ
فمن لي أن أرَى لـك مثـلَ فـعلي فنصبـح في الـودادِ عـلى استـواءِ
ألا أنـي لأعـرفُ كـلَّ شـيءٍ سـوى خلقِ الـرعـايـةِ والـوفـاءِ
عـريتَ من الـوفـاءِ وليس بـدعـاً لأنـك قـد عـريتَ من الـحيـاءِ
فـإن تـرجـع إلـى الحسنى وإلا فـخيـرُ سبيـلنـا تـركُ الـلقـاءِ
وإن كـانَ التقـاربُ لـيس يُجـدي فـمـا الاجـداءُ إلا فـي الـتـنـائي

---

(١) الجديدان: الليل والنهار.

(٢) احلاس: جمع حِلس: كساء يوضع على ظهر البعير.

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابي، من التابعين، وكبير قيس في زمانه. مات سنة ٧٥ هـ. والبيت في العقد الفريد: ٥/٤٩٩.

(٤) دِمن: جمع دِمنة: أثر الذر والناس.

(٥) ديوان أبي فراس: ٢٣٢.

(٦) في ديوان أبي فراس: «خليله... وخلى».

(٧) في الديوان: «وإن الذي يبقى».

وأنشدنا أبو أحمد، قال[1] أنشدني ابن لنكك البصري لنفسه بذم الزمان:

يـا زمـانـاً ألـبسَ الأحـ ـرارَ ذلاً ومـهـانَـهْ
لستَ عنـدي بـزمـان إنـمـا أنـتَ زُمـانَـهْ

وقلت:

زمانٌ كثوبِ الغـولِ فيـهِ تَلَوُّنٌ فـأوَّلُـهُ صـفـوٌ وآخـرهُ كـدرُ

وقال آخر في خلاف ذلك:

أرى حُـللاً تصـانُ عـلى رجـال وأعـراضـاً تهـانُ فـلا تصـانُ
يقـولـونَ الـزَّمـان بـه فسـادٌ وهم فسدوا وما فسدَ الـزَّمـانُ

وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا أبو بكر بن دريد:

مشى فوقه رجلاه والرأس تحتـه فكبَّ الأعـالي بـارتفـاعِ الأسافـلِ

وقال أبو الشعر موسىٰ بن سحيم:

متى مـا تفكـر فِي الـزَّمـانِ وأهلهِ تـقـل لاعبٌ هـذا ولـيسَ بـلاعبِ

وأنشدنا الآخر أيضاً:

تبلدَ هـذا الـدَّهـر فيمـا رَجَـوْتـه عـلى أنـه فـيمـا أحـاذِره نَـدب

وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا جحظة لمحمد بن يعقوب بن داود:

لا تـعجـبنـك عـمـامتي فـالفقرُ من تحتِ العمـامـهْ
والـفقـرُ فـي زمنِ الـلئـا مِ لكـلِّ ذي كـرم عـلامـه

وقلت في قريب منه:

وليسَ ينفـكُ كشـخـانٌ يجـاذبـنـا عـلامـةُ الحـرِّ أن يبلى بكشخـانِ[2]

وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا جحظة البرمكي لنفسه:

ربٍّ قـد ضـاقت النفـو سُ وقـد قـلَّت الـحِيـلْ
فـلكٌ لا يـدورُ إلا بمـا تشتهـي السفـلْ

وقال أبو تمام[3]:

على أنهـا الأيـامُ قـد صرنَ كلهـا عجـائب حتى ليسَ فيهـا عجـائبُ
ومـن عـادةِ الأيـام أنَّ صُـروفَـهـا إذا سرَّ منها جـانبٌ ساء جـانبُ[3]

وقال قابوس بن وشمكير:

---

(١) البيتان في الأعجاز الايجاز: ٢٧٠.
(٢) الكشخان: الديوث.
(٣) ديوان أبي تمّام: ٣١٤.
(٤) صروف الدهر: نوائبه.

قـلْ للذي بصـروفِ الـدَّهـرِ عيَّـرنـا ... هـل عانـدَ الـدَّهـرُ إلا من لـه خـطرُ
فـإن تكنْ نشبتْ أيـدي الـزمـانِ بنا ... ومسَّنـا من تمـادي بُـؤسـه ضَـررُ
ففي السمـاءِ نجومٌ غيـر ذي عـدد ... وليسَ يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمـرُ[1]
أمـا تـرى البحـرَ يعلو فـوقـه جيفٌ ... وتـستـقـرُّ بـأقصى قـعـره الـدُّرَر

وقريب من هذا ما قلته:

إن كنت تسلم من شغبِ الزمان ولا ... أعـطى السلامـة منه كلمـا شغبا
فـالعـاصفـاتُ إذا مـرَّتْ على شجرٍ ... حـطمنه وتـركن البقـلَ والعشبـا

وأنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا جحظة البرمكي لنفسه في المعنى الأول:

يقـولـونَ زُرنـا واقضِ واجبَ حقنـا ... وقـد أسقـطتْ حـالي حقـوقهمُ عني
إذا أبصـروا حـالي ولم يـأنفـوا لهـا ... ولا لـهـم منهـا أنـفتُ لـهـم منّـي

وأنشدنا أبو علي بن أبي حفص قال أنشدني أبو جعفر للعطوي[2]:

لـيَ خمسـونَ صـديقـاً ... بـيـن قـاضٍ وأمـيـرِ[3]
لبسـوا الـوفـرَ فـلم أخلـ ... ـع بـهمْ ثـوبَ الـفـقـيـرِ
كـلهـمْ كـالَ لـيَ الـحـر ... مـانَ بـالصّـاعِ الكبيـرِ

ومن ههنا أخذ ابن الرومي قوله[4]:

سـألتُ قفيـزينِ مـن حـنـطة ... فجدتَ بِكُرٍّ من المنع وافي[5]

وقد تقدم.

وقلت:

أليس صعبـاً أن تـرى كـاشحـاً ... مـالـك بُـدٌّ مـن مـداراتـه
أصـبـحـت فـي دار إسـاآتـه ... أعـداد أنـفـاسـي وسـاعـاتـه

وأنشدني عم أبي لأبي الأسد الدينوري[6]:

لـيـتـك أدَّبـتـنـي بـواحـدة ... تـقـنـعـنـي مـنـك آخـرَ الأبـدِ
تـحـلفُ لـي لا تـبـرُّنـي أبـداً ... فـإنّ فيهـا بـرداً عـلى كبِـدي[7]

---

(١) وفي رواية: «لا عداد لها».

(٢) العطوي: محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي عطية، كان معتزلياً من المتكلمين له شعر في النبيذ وفي الفتوحات. مات سنة ٢٥٠ هـ.

(٣) البيتان الأولان في خاص الخاص: ١٢٧.

(٤) ديوانه: ٤/٢٣٥.

(٥) القفيز: مكيال للحبوب.

(٦) أبو الأسد: هو نباتة بن عبد الله بن الحماني الشيباني، شاعر مطبوع متوسط الشعر، من أهل الدينور، وكان هجاءً مزّاحاً. والأبيات مع ترجمته في الأغاني: ١٤/١٣١.

(٧) في الأغاني: «تحلف أن لا تبرني».

اشـفِ فـؤادي مِـنِّـي فـإنّ بـه ... عليّ قـرحـاً نكـأتـه بِيَـدي[1]
إن كـانَ رزقي إليـك فـارمِ بـه ... في نـاظـري حيـةٍ عـلى رصـدِ
فـكـيـفَ أخـطأت لا أصبـت ولا ... نـهضـت من عـشـرة إلى سَـدَدِ
لـو كنتُ حُـراً كمـا زعمت وقـد ... كَـدَدتـني بـالـمـطالِ لم أعُـد[2]
لـكنني عُـدتُ ثم عُـدت فـإن ... عـدتُ إلـى مـثـلِ هـذه فـعـد
قـد صـرتُ من سـوءِ ما بليتُ بـه ... أكْـنَى أبـا الـكـلبِ لا أبـا الأسـدِ

وقلت:

الـعيـن تـذرف والـفـؤاد يـذوبُ ... والـوجـد يحضـر والعـزاء يغيبُ
ولـقـلة الـكـرمـاء أنـت مُـضَيَّـعٌ ... ولـكثـرة الجهـالِ أنـت غـريـب
تـالله لم تخـطئـك أسبـاب الغنى ... إلا لأنـك عـاقـلٌ وأديـب
فـاصبر فقـد عـزّاك عن دركِ الغنى ... أن لـيسَ يـدركـه أغـرُّ نـجـيبُ
عـابـوا قـطوبي ان تعـذرَ مـطلبي ... أرأيتَ بـدراً ليس فيـه قـطوب[3]
وشحوب جسمي من مواصلة السرى ... هـل من هـلالٍ ليسَ فيـه شحـوب
ولقـد يَـدلُّ على كمـال كـرامتي ... أني إلى قـلبِ الـكـريـم حبيبُ
ولقـد جـلا حـزني وفـرّج كـربتي ... أنَّ الـلئيـم لـرؤيـتـي مكـروبُ
لا تـلعبنَّ فمـن ورائـك طـالـبٌ ... ومـن العـجـائـبِ لاعبٌ مـطلوبُ

وقال أبو تمام:

هبْ من لـه شيءُ يُـريـدُ حجابَـهُ ... مـا بـال لا شيء عليـه حجـابُ
مـا زالَ وسـواسي لقلبي خـادعـا ... حتى رجـا مـطراً وليس سحـاب
مـا إنْ سمعتُ ولا أراني سـامـعـاً ... يـومـاً بـصحـراء عليهـا بـابُ
مـا كـنـت أدري لا دريـت بـأنـه ... يجـري بـأفنيـة البيـوتِ سـرابُ[4]

---

(١) في الأغاني: «مني جرحاً نكأته». ونكأ: قشر.
(٢) المطال: المماطلة.
(٣) القطوب: العبوس.
(٤) السّراب: ما يتوهمه الرائي عن بعد.

فصل فيما قيل في فضل الوعد ومدح الإنجاز

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي قال: حدثنا ابن زكريا عن ابن دينار قال: حدثنا محمد بن عبيد الله العتبي قال: كلم منصور بن زياد يحيىٰ بن خالد بن برمك في حاجة لرجل فقال عِده عني قضاءها فقال: وما يدعوك أعزك الله إلى العدة مع وجود القدرة؟ فقال له يحيىٰ: هذا قول من لم يعرف موضع الصنائع من القلوب، إن الحاجة إذا لم يتقدمها موعد ينتظر به نجحها، لم تتجاذب الأنفس بسرورها، ولم تتلذذ بتناولها، وإن الوعد تطعم والإنجاز طعام. وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته وتمطق له وتطعمه، ثم طعمه فدع الحاجة تحتم بالوعد، ليكون لها عند المصطنع حسن موقع، ولطف محل، وحلاوة ذوق.

وأخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا الصولي قال: حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي قال: أخبرنا البحتري عن خارجة بن مسلم بن الوليد عن أبيه قال: سألت الفضل بن سهل[1] حاجةً فقال: أسوفك اليوم بالوعد، وأحبوك غداً بالإنجاز، فإني سمعت يحيىٰ بن خالد يقول: المواعيد شباك الكرام، يصطادون بها محامد الإخوان، وإن كان المعطي لا يعد لارتفعت مفاخر إنجاز المواعيد، وبطل فضل صدق القول. وقال عيسىٰ بن ماهان لجلسائه: إني أحب أن أهب بلا وعد وأحب أن أعد لأخرج بالإنجاز من جملة المخلفين، وأدخل في عداد الوافين، ويؤثر عني كرم المنجزين فإن من سبق فعله وعده وصف بكرم فرد وسقط عنه جميع ما ذكرت.

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي. قال: أخبرني عون بن محمد قال: ذكر العتابي المأمون فقال: إن ألقح معروفه عندي بالوعد ونتجه بالنجح، وأرضعه بالزيادة، وشيبه بالتعهد، وهرمه باستتمامه من جهاته وهنأه بترك الامتنان به.

ومن عجيب ما جاء في الحث على الإنجاز ما حدثني به أبو أحمد عن الصولي عن يموت بن المزرع قال: حدثنا عبد الصمد بن المعذل قال: شكا رجلٌ جعفر بن يحيىٰ إلى أبيه بأنه وعده ومطله به. فوقع: يا بني أنتم معاقل الأحرار، ومظان المطالب، ومعادن الشكوى، فكونوا سواءً في الأقوال والأفعال، فإن الحر يدخر وعد الحر ويعتقده وينفقه، قبل ملكته، فإن

---

(١) الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس، وزير المأمون، وصاحب تدبيره، وكان اسلم على يده سنة ١٩٠ هـ، وأسند له فيما بعد الوزارة مع قيادة الجيش. توفي سنة ٢٠٢ هـ. (الأعلام: ٥/١٤٩).

أخفق أمله، كان سبباً لذمه واتهامه، وسوء ظنه حتى يواري قبح ذلك، وحسن تقيته فأنجز الوعد وإلا فقصر القول فإنه أعذر والسلام.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن يونس، عن الحميدي عن سفيان، قال: سمعت الزهري يقول: حقيق على من أزهر بالوعد أن يثمر بالفعل.

ومن جيد ما مدح به المنجز قول أبي تمام:

نؤمُّ أبـا الحسين وكـان قـدمـا فـتى أعـمـارُ مـوعـدة قـصـارُ
تحنُّ عِـداتـه أثـر التقـاضـي وتنتجُ مثلَ ما نُتِجَ العِشـارُ[1]

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن المغيرة بن محمد قال كلم المأمون في الحسين بن الضحاك الخليع أن يردَّ عليه رزقه فقال المأمون: أليس هو القائل في الأمين.

فلا فرحَ المأمون بالملك بعدَه ولا زال في الدُّنيا طريداً مشـرَّداً

فما زالوا به حتى أذن له أن ينشده فأنشده:

إبن لي فـإني قد ظمئتُ إلى الـوعدِ متى تُنجز الـوعـدَ المؤكّد بـالعهـدِ
أعيـذك من صَـدِّ الملوك وقـد تـرَى تقـطع أنفـاسي عليك من الـوجـدِ
فمـا لي شفيـعٌ عنـدَ حُسنـك غيـرهُ ولا سـببٌ إلا الـتـمـسـك بـالـوُدِّ
أيبخـلُ فـرد الحسنِ فـرد صفـاتـهِ عـليّ وقـد أفـردتـه بهـوى فـردِ

فاستحسن الناسُ هذا التشبيب فلما قال:

رأى الله عـبـد الله خـيـر عـبـاده فـمـلكـهُ والله أعـلم بـالـعـبـدِ

قال هذه بتلك وقد عفونا عنك.

فقال: يا أمير المؤمنين، فأتبع عفوك بإحسانك فأمر بردّ أرزاقه عليه، وكانت في كل شهر خمسمائة دينار، فقال المأمونُ: لولا أني نويت العفو عنهُ، وجعلت ذلك وعداً له من قبل ما فعلته، وإنما ذكر العهد في تشبيبه فذكرنيه.

وما أحسن ما قاله بعضُ ملوك العجم: البخل بعد وعد يُضعف قبحه على البخل قبله فما قولك في أمر البخل أحسن منه وأجمل.

---

(١) البيتان في ديوان أبي تمّام: ١٢٥. العِدات: المواعيد. العشار: الحوامل.

ما قيل في الضحك والبشر عند السؤال

أول من أتى بذلك زُهير في قوله[1]:

تـراهُ إذا مـا جئتـه مُتـهـلِّلاً   كـأنـك مُعطيه الـذي أنت سـائلُهْ

ولو قال مكان «إذا جئتهُ» إذا ما سألته» لكان أجود.

ومن الجيد في ذلك قول أبي نواس:

بـشـرهمُ قـبـلَ النـوالِ الـلاحـقِ   كـالبـرقِ يبـدو قبل جـودٍ دافقِ[2]
والـغيثُ يخفي وقعـهُ المـرامـق   إن لـم يجـده بـدليـلِ البـارق

وأخذه أبو تمام هذا فقال[3]:

يستنـزِلُ الأمـلَ البعيـدَ ببشـرهِ   بُشـرى المخيلة بالغيـاث المغـدقِ[4]
وكـذا السحـائبُ قلمـا تـدعـو إلى   مـعـروفـهـا الـرُّوّاد مـا لـم تبـرقِ

وتبعه البحتري فقال[5]:

كـانت بشاشتُـك الأولى التي بـدأتْ   بـالبشـرِ ثم أقتبلنـا بعـدهـا النِّعمـا
كـالمُـزنـة استؤنفَتْ أولى مخيلَتِهـا   ثمَّ استهلّتْ بغـرزٍ تابـعَ الـدِّيَمـا[6]

وقال أبو عبد الله القطر بلي: قلت للبحتري: وقعت دون أبي تمام في هذا المعنى فقال لعمري ولكن سأرضيك فيه فقال في أبي الصقر[7]:

يُـوليك صـدرَ اليـوم قـاصيـة الغنى   بفـوائـد قـد كنَّ أمسِ مـواعـدا[7]

(١) ديوان زهير: ٦٨.

(٢) البيتان ليسا في ديوان أبي نواس. والنوال: العطاء.

(٣) ديوان أبي تمّام: ١٨٨.

(٤) في الديوان: «بالربيع المغدق».

(٥) ديوانه: ٢/١٢٨ عـ.

(٦) المزنة: الدفعة من المطر. الديمة: المطر الدائم.

(٧) أبو الصقر: اسماعيل بن بلبل الوزير.

(٨) في ديوان البحتري: ٢/٢٣٦ عـ: «بعوائد قد كن».

سُوم السحائبِ ما بدأنَ بوارقا   في عارضٍ إلا ثَنيْنَ رواعدا[1]

والرعد لا يكون إلا ومعه الغيثُ فكأنه قال إلا ثنين مواطراً ثم ردّه فقال:

إنما البشرُ روضةٌ فإذا أعـ   ـقب بذلاً فروضةٌ وغدِيرُ

وقال البحتري[2]:

ملكٌ عِندهُ على كلِّ حال   كرمٌ زائدٌ على التقديرِ
وكأنّا من وعدِهِ ونداه   أبداً بين روضة وغدير

وقال[3]:

ضحكات في إثرهنَّ العطايا   وبروق السحابِ قبلَ رُعودهْ

وله أيضاً:

مُتهلِّلٌ طلقٌ إذا وعَدَ الغنى   بالبشر أتبع بشرَه بالنائلِ[4]
كالمزن إن سطعتْ لوامعُ برقه   أجلتْ لنا عن ديمة أو وابلِ[5]

وأنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا الصولي لنفسه:

لست تلاقي سائلاً بردٍّ   تعيد بشر سؤود وتبدي
كالبرقِ يأتيك أمامَ الرَّعدِ   بشرى الغيوثِ بحبابِ رغدِ
يلقى بك الطالبُ نجمَ السعدِ   بلغت في الأعمار أقصى العدِ

---

(١) سوم السحائب: علامات الغيوم.

(٢) ليسا في ديوانه.

(٣) ديوان البحتري: ٢/١٦٨ عـ.

(٤) النائل: الهدية.

(٥) الديمة: المطر الدائم. والوابل: المطر الغزير.

فصل في تعمية الأشعار

عمَّى عبد كان للأحول على أبي صالح محمد بن عبيد الله بيتاً غلط فيه ورسمه:

نـظيف خفيف نـظيف فـايق　　　نـظيف مقيـل بعـلب نـظيف
طـريـف مـدل فـايـق نـظيـف　　　فـايـق مقبـل نـظيف فـايـق
رشـيـق بـدر مـعـلب لـمـن　　　نـظيف مهـذب معشـوق نـظيف

مهذب ملاحظ رشيق مغاضب نظيف. فأخرجه وكان البيت:

إذا قلتُ أسلو دامت العينُ بـالبكـا　　　دمـاءً وحفتـهـا مـدامـعُ حُفَّـلُ

وكان الجواب الصادر:

ألا أيهـا الشخصُ الذي كـان نـزهـةً　　　يـحصِّنـهُ سـتـرٌ مـن اللهِ مسبـلُ
لـمـاذا هتكـتَ السـتـرَ تـعـمـداً　　　ولـستَ بـحمـدِ اللهِ ممن يُـجهَّـلُ
رأيتـك قـد عميتَ بيتـاً رسمتـهُ　　　بـكـلِّ خـطاءٍ فهـو مثلك أحـولُ
وكـان لـمتبـولِ الفـؤادِ مـعـذبٌ　　　أخي حسرةٍ بـالهجرِ والصدِّ يُقتلُ
فقـالَ: وقـد رامَ السلوَّ فلم يجـد　　　وبـات كئيبـاً بـاليـاً يتـمـلـمـلُ
إذا قلتُ أسلو، دامت العينُ بـالبكـا　　　دمـاءً، وحفتـهـا مـدامـعُ حُفَّـلُ

وعمّى حمزة الأصفهاني على أبي جعفر محمد بن أيوب بيتاً رسمه:

نـرجس خيـري بنفسـج حمـاحم　　　شـاهسفـرم اقـحـوان نسـرين[1]
نسرين أقحوان نسرين مرزنجوش　　　ورد يـاسـمـيـن نـسـريـن
زعفـران نمام سُوسن أفـرنجمشـك　　　آس مـنـثـور مـرزنـجـوش
بنفسج بلحية ياسمين مرزنجوش　　　نـسـريـن نـمـام مـنـتـور

خيري منثور اقحوان زعفران سيسنبر خزامى بنفسج مرزنجوش. فأخرجه وكان البيت:

كـفى حـزنـاً أنَّ الـجـوادَ مُـقـتَّـرٌ　　　عليـهِ ولا مَعـرُوفَ عـنـد بخيـل

فكان الجواب الصادر:

---

(١) شاهسفرم: (معرّب): ضرب من النبات. ومثله المرزنجوش وافرنجمشك.

فِداكَ أبا يعلى أخٌ لكَ لم يَزَلْ ... يَعدُّكَ ذخراً عندَ كلِّ جليلِ

إلى أن قال:

فقالَ وقد جابَ البلادَ فلم يجد ... أخا ثروةٍ يسخى لهُ بفتيلِ
كفى حزناً أنَّ الجوادَ مُقترٌ ... عليهِ ولا معروفَ عندَ بخيلِ (١)

ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي سعيد الأصفهاني وقد عمى عليه زياد بن جعفر الهمذاني بيتاً فأخرجه وكان الجواب:

إذا العارضُ السحُّ بالوبلِ جادا ... وأنزل غيثاً أغاثَ البلادا(٢)
وأسرجَ فيه وميضُ البروقِ ... مصابيحَ تزهرُ منه اتقادا
وثج فما شكَّ ذو ناظر ... رأى سيلهُ أنَّ فيهِ مزادا(٣)
فعمَّ بشؤبوبه سادتي ... وخصَّ بأغزرِ سقى زيادا
زياد بن جعفر المستجار ... لصرفِ الزَّمانِ إذا ما تمادى
فداؤك نفسي وإن سمتني ... غناءً طويلاً حماني الرُّقادا
أتتني الطيورُ فساترنني ... ببيت تعمقت فيهِ عنادا
إلى أن تمكنتُ من صيدها ... وقد صدتها إذ عرفتُ المصادا
وقلتُ لها: غرِّدي بالذي ... كتمتِ فأسرعنَ نحوي انقيادا
وأنشدتُ بيتاً مُعادَ الفصول ... ولستَ ترى فيه معنى مُعادا
ومن ذلَّ قلَّ ومن قلَّ ذلَّ ... ومن سادَ جادَ ومن جاد سادا
أردتَ سقاطي فما نلتهُ ... فنلتُ المنى وبلغتُ المرادا
وأبقاك ربي بقاء النعيم ... عليك وملاكَ منه وزادا

وكتب إلى أبي عبد الله جعفر بن القاسم الكرخي جواباً عن مُعمّى:

دمعي على الخدِّ سكبُ ... ونارُ شوقي تشبُّ
وليس يبقى على ما ... يلقاه قلبي قلبُ
لله عهد الليالي ... إذ مورد العيش عذبُ
وإذ شبابيَ لدْنٌ ... وغصنُ قدّي شطب(٤)
يا جعفر القوم يامن ... يدعى إذا جلَّ خطب
فداكَ عبدٌ مَشوقٌ ... إلى لقائك صبٌّ
أبعدتني وسواءٌ ... بعدٌ لديّ وقرب

---

(١) مقتر: بخيل.

(٢) العارض: المطر. والوبل: المطر الغزير.

(٣) ثج: بمعنى سح أي سال.

(٤) لدن: طري.

أخـلاطُ طـيـبٍ أتـتـنـي مـنـهـا يـبـيسٌ ورطـب
قـربـتْـهـا نـارُ طـبـعٍ يـدوم والـنـارُ تـخـبـو
عـودٌ ومـسـكٌ ذكـيٌّ وعـنـبـرٌ مـسـتـحـبُّ
أوردتُـهـا نـارَ فـكـري فـفـاحَ شـرقٌ وغـرب
وهـبَّ لـلـفـهـم مـنـهـا روائـحٌ لا تـهـبُّ
فـنـلتُ بـالـشـمِّ مـا لـم يـنـلـه عُـجـمٌ وعُـرب
بـيـتـا كـمـا اهـتـزَّ روضٌ أو أكـمـلَ الـوشـي عـصـب
شـيـبٌ وسـنٌّ وجـهـلٌ هـذا لـعـمـرك صـعـب
بـجـعـفـرٍ وأخـيـه نـالَ الـورى مـا أحـبـوا
نـفـسـي فـداكـم ومـا قـد أهـلَّ بـالـحـج ركـب
ذنـبـي انـقـطـاعـي إلـيـكـم إن عُـدَّ لـلـنـاس ذنـب
فـذاك لـلـخـلـقِ كـهـفٌ وذاك لـلـمـجـدِ قـطـب
لـيـثٌ إذا عـضَّ دهـر غـيـثٌ إذا اشـتـدَّ جـدبُ
لـي مـنـهـمـا الـيـومَ رأيٌ يُـرى غـداً وهـو كـسـبُ

والتعمية: أن تجعل مكان كل حرف من البيت اسماً على مثال ما تقدم فإذا مضت الكلمة تدير دائرة على ذلك، حتى تأتي على آخر البيت. ووجه استخراج المعمى أن تنظر إلى الأسماء التي جعلت مكان الحرف، فما تكرر منها وكثر في البيت فظن أنه للألف وربما لم يصدق هذا الظن، ولكنه الأمر الأكثر، فاطلب بعده اللامَ فإنها تقع بعد الألف كثيراً، وانظر إلى ما طال في البيت من الكلمات، فإذا رأيت الألف في أولها فظن بالثانية أنها لام وربما تكرر ذلك في موضعين من البيت وثلاثة، ومما يستدل به على معرفة اللام أيضاً أن يقع بعد الاسم إذا ظننت أنه الألف حرفان، على صورة واحدة في مثل اللبيب والليل والليث وفي قولك: الله وما أشبه ذلك، ومما يستدل به على معرفة اللام أيضاً أن يقع في البيت كلمة على حرفين، وقد عرفت الألف واللام فتكون الكلمة تزداد يقيناً في الألف واللام وإذا صحت لك الألف واللام، رأيت في البيت كلمة على حرفين والثاني منهما ألف فظن أنها: «ما» أو «ذا» أو «يا» لأن ذلك أكثر ما يقع فإذا صحت الميم من «ما» ثم رأيت كلمة على حرفين فظن بها أنها «من»، فإن رأيت كلمة على حرفين وأولها ألف فظن بالثاني أنه نون أو واو أو ميم، فإذا عرفت الألف في أول كلمة ورأيت قبلها حرفاً فظن أنه واو أو فاء أو باء أو كاف، فإذا عرفت الألف ورأيتها وقد وقعت آخر البيت، فظن بالحرف الذي قبلها أنه هاءٌ أو كاف لأن ذلك أكثر ما يقع، فإذا تكررت لك هذه الحروف في البيت وقفت منه على أكثر، ثم تعمد إلى الحروف التي يقل تكرارها في البيت، فتنظر إلى الكلمة الرباعية أو الخماسية فتظن أنها أبداً أن فيها أحد الحروف الستة: اللام والراء والنون والفاء والتاء والميم، لأنها لا تخلو من حرف منها أو حرفين. ولا ينفع ما مثلناه من هذه الأمثلة إلا مع جودةِ القريحة وشدة الذكاء والفطنة ومع النشاط وصدق الشهوة.

وذكر بعض أهل العلم، وأظنه أبا الحسن العروضي، أنه عُمِّي له قول الشاعر:

وكـن ذاكـراً بيـت النـويـبـغ إنـه سيحلو على سمـع اللبيب ويعـذبُ

فكانت تعميته:

زيد بكر عمرو سعد بدر بكر بدر سهل صقر فهد شهر عمرو زيد صقر سهل رشد بدر عمرو حمد قصر عقر مكر شهر زيد بدر فخر شهر صقر قصر سلم فخر بدر شهر شهر سهل صقر سهل زيد صقر فخر سعد سهل صقر.

قال: فأول ما استخرجت منه الألف، لأنها أكثر ما فيه من الحروف، ثم عرفت بعدها اللام، لأنهما واقعتان في قوله «النويبغ» وفي قوله: «اللبيب» فلما صحت الألف واللام، رأيت اللام قد تكرر، فعلمت أنها لا تتكرر إلا في مثل اللبيب واللطيف، وكان أقربها في ظني اللبيب، عمدت بعد ذلك إلى الكلمة الثالثة فرأيت الباء والياء فيهما وبقي الحرف الثالث، فعرضته على الحروف فخرج لي بيت وبيد وبيش وبيض وبيع وبين فلم أجزم على شيء منها فتركتها موقوفة ثم قصدت إلى الكلمة السابعة فرأيت فيها اللام والباء، فلم أشك أن الحرف الأول العين وأن الكلمة «على» ثم قصدت الكلمة الثامنة، فرأيت العين في آخرها فطلبت على هذا المثال ما آخره عين فجاءني جمع ورجع ودمع وسمع، فتركتها موقوفة ثم عمدت إلى الكلمة الأخيرة، فرأيت فيها ما تبينته وعرفته الياء والعين والباء فعمدت إلى الياء والعين، فوضعتهما مع سائر الحروف فخرج لي:

يعتب ويعجب ويعذب ويعرب ويعطب وما شاكل ذلك فقابلت ما خرج من وجوه الكلمة الأخيرة على ما يقرب في المعنى مع إدخال اللبيب بينهما فصح لي أن الثامنة «سمع» وأن الأخيرة يعذب وعلمت أن زيداً في أول الكلمة الأخيرة واو، فلما صح «على سمع اللبيب» لم أشك أن الكلمة السادسة «سيحلو» قد ظهرت فيه السين والياء واللام والواو والألف فلما عرضت الكلمة مع سائر الحروف، لم يطابق يعذب في المعنى إلا يحلو، فلما ظهر ذلك علمت بالمعنى والوزن جميعاً أن الذي ظهر من البيت يدل على أنه في ذكر شيء فيه كناية في وسط البيت وأولها ألف والنون تليها كثيراً. فأدى الوزن إلى أن بعدها هاء وأن الكلمة «إنه»، فلما ظهرت النون، وكنت قد عرفت الواو من الكلمة الأخيرة، علمت أن أول كلمة في البيت «وكن» بغير شك وأن الثانية «ذاكراً» لأن الذال ظهرت في يعذب، والألف معروفة والكاف قد بانت من الكلمة الأولى، والألف الثانية معروفة بقيت الراء فلما عرضتها على سائر الحروف لم يجيء غير الراء ثم قصدت إلى الكلمة الرابعة فلم أجد فيها حرفاً غير ظاهر قد عرفته إلا الغين فقط فلم أدر ما هو فلولا أن الوزن أدى إليه بعد طول تعب، لم يكن يظهر فلما علمت أنها «النويبغ» لم أشك أن الثالثة «بيت» وظهر البيت كله.

ومن المعمى بغامض الحساب قول ابن طباطبا:

إن رحت مـا في يـديـه ملتمسـاً وكـنتُ أشكـو إليـهِ ضيـقَ يـدي

أحصت ألوفا يسراهُ أربعة		منقوصة سبعة من العددِ

وفي هذا المعنى شيء كثيرٌ هذا أجوده فاعرف ذلك.

وقلت في ضرب من المعمى:

وأصفرٌ تحمرُّ أطرافه		يا حُسنَه مِنْ مطرف مُعلمِ
صدَّره الانسانُ في بيتهِ		وهو مُهانٌ ليسَ بالمكرم
والمرءُ قد يعلو على ظهره		وهو سليم الدِّين لم يأثم
وهو على ما كان من ذلّة		سُمِّي باسم الملك الأعظمِ

أعني حصيراً والملك يُسمَّى حصيراً.

قال الشاعر:

ومقامه غلب الرّقاب كأنهم		جندٌ لدى باب الحصير قيامُ

وقلت:

وميت لا يكاد المرء يدفنه		إلا إذا عادَ حياً بعد ما ماتا
وميّت غيبوا في الأرض جُثّته		عمداً لكي يجعلوا الأحياء أمواتا

الأول الذكر والثاني الفخ.

ومن مليح المعمى ما أخبرنا به أحمد، قال: حدثنا ابنُ عمار قال حدثنا يعقوب بن إسرائيل قال: حدثنا عبد الحميد بن عقبة قال: حدثني أبو عثمان المازني قال هجا أبو عيينة إسماعيل بن جعفر بن سليمان بشعر مُورّى فلم يفهمه وكان كلما جاءه من يأنس به عرضه عليه حتى دخل رجل فأقرأه إياه وهو قوله:

إني أحاجيك فاعلمنَّ فما		لؤلؤةٌ منك قد ثقبناها
وكرمةٍ من أبيك منبتها		حتى إذا أينعتْ قطفناها
تخبرنا ما هما وما سُبُلٌ		تشعبت منك قد سلكناها
لم نمش فيها ريثاً ولا عجلاً		ولم نطأها وقد وطئناها
فإن تصبها فأنت ذو فطنٍ		وحاجتي أنْ تصيب معناها

فقال: أيها الأميرُ إنه كلامٌ رديءٌ أكره أن أستقبلك به فقال: هاته قال: أما اللؤلؤة فالبنت، وأما الكرمة من أبيك فالأخت، وأما السُّبُلُ التي تشعبت فالأم لم نطأها بالأقدام، ووطئناها بالفعل.

وقال الآخر يذكر دعوة يدعو بها على رجل:

وسارية لم تسرِ في الأرضِ تبتغي		محلاً ولم يقطع بها البيدَ قاطعُ
سرت حيثُ لم تسرِ الركاب ولم تنخ		لورد ولم يقصر لها القيد مانع
تكرّ وراءَ الليلِ والليلُ مظلمٌ		إذا قرعَ الأبوابَ منهنّ قارعُ
إذا وفدت لم يردد اللّهُ وفدها		على أهلها والله راءٍ وسامعُ
وإني لأرجو الله حتى كأنني		أرى بجميلِ الظنّ ما الله صانعُ

أحسن ما قيل في تقبيل اليد

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن خالد، عن أبي بكر بن محمد بن خلاد الباهلي، عن محمد بن الفضل، عن أبي الزناد، عن عبد الرحمٰن، عن ابن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر، قال:

كنت في غزوة في بعض مصالح رسول الله ﷺ، فتلقانا العدو فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، ثم قلنا، حين رجعنا، إلى أنفسنا: كيف ننظرُ في وجوه القوم وقد بؤنا بغضب من الله؟ ثم قلنا: نأتي المدينة فنبيت بها ثم نخرج، فلا يرانا أحدٌ فلما أتينا المدينة، قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فأتيناه فلما خرج إلى الصلاة قلنا يا رسول الله نحن الفرارون. قال: «بلْ أنتم الكرَّارُونَ»[1]، فقبلنا يده، قال: ثم قلنا: يا رسول الله، إنا هممنا بكذا، فقال: إنا فئة المسلمين. ثم قرأ: ﴿إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضِبٍ مِنَ الله﴾[2].

وبإسناد لنا، أن ابن أبي ليلى، قبل يد أبي مسلم فقال له رجلٌ أتقبل يد أبي مسلم؟ قال أوليس أبو عبيدة قبل يد عمر؟ قال أو تجعل أبا مسلم مثل عمر؟ قال أو تجعلني مثل أبي عبيدة. وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن زكريا عن محمد بن عبيد الله العتبي، قال: قبل رجلٌ يد المهدي، فقال: يد أمير المؤمنين أحق يد بتقبيل، نعلوها في المكارم، وطهارتها من المآثم، وإنك ليوسفي العفو، إسماعيلي الصدق شعيبي الرفق، فمن أرادك بريدة خوف أو سوء، فجعله الله طريد خوفك، وحصيد سيفك.

ومن أجود ما قيل في ذلك، من الشعر، ما أنشدنا أبو أحمد، عن الصولي لإبراهيم بن العباس في الفضل بن سهل قال: أنشدنا ثعلب وأبو ذكوان:

لفضل بنِ سهل يدٌ ... تقاصرَ عنها المثلْ
فبسطتُها للغنى ... وسطوتُها للأجل
وباطنها للندَى ... وظاهرُها للقبل

(١) في سيرة ابن هشام عن عروة.
(٢) سورة الأنفال: آية ١٦.

فأخذه ابن الرومي فقال[1] للقاسم بن عبيد الله رحمه الله:

أصبحتَ بين خصاصةٍ وتجمّل ... والمرءُ بينهما يموتُ هزيلا
فأمدد إليّ يداً تعوَّد بطنُها ... بَذلَ النوالِ وظهرها التقبيلا

وقال أيضاً:

لـه راحـةٌ فيها الحطيم وزمزم

وقلت:

فظاهرُها للناس ركنٌ مُقبَّلٌ ... وباطنُها عينٌ من الجودِ عيلمُ[2]
هو البحر لا عينٌ من الجودِ عيلمٌ ... عفاء على عين من الجود عيلم
يجلُّ عن تقبيلِ ظاهرِ كفه ... وباطنها عن أن تقاس بزمزم

ومما جاء في كراهة ذلك: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي عن الغلابي عن العتبي، قال: أستأذن رجل مروان الجعدي في تقبيل يده، فأبى وقال: إنها لمن العربي ذلة، ومن العجمي خدعة، فلا حاجة لي في أن تذل لي، أو تخدع فاعفني من ذلك.

الحض على السلام

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن إبراهيم بن عبد الله النمري، عن الضحاك بن مُخلد، عن ابن عجلان، عن المقبري عن أبي هريرة، قال: قال[3] رسول الله ﷺ: «إذا جاء أحدكم المجلسَ فليسلّم، فإنْ قام والقومُ جلوس فليسلم، فإنَّ الأولى ليست بأحقَّ من الآخرة».

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن إبراهيم بن فهد، عن عبد الله بن رجاء عن سعيد بن سلمة عن أبي بكر، عن نافع عن ابن عمر: أن لاجلا مرّ برسول الله ﷺ وهو يهرق الماء، فسلم عليه الرجل فرد عليه فقال: «إنه ما حمَلني على الرَّدَ عليكَ إلا أني خَشيتُ أنْ تقولَ سَلمتُ عليه فلم يَرُدَّ عليَّ فإذا رأيتني هكذا فلا تسلمْ عليَّ فإنك إن تفعلْ لا أردُّ عليكَ السلام[4]». وعنه عليه السلام: «تمامُ التحيةِ أخذٌ باليد»[5]. وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، عن الغلابي، عن العباس بن بكار، عن المفضل الضبي عن جدته عن مُكعت الأسدي، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت:

يقولُ أبو مُكعت صادقاً ... عليك السلامُ أبا القاسم
سلام الإلّه وريحانهُ وروح المصلينَ والصائمِ

(١) ديوان ابن الرومي: ٥/٨٨.

(٢) عيلم: بحر.

(٣) رواه الترمذي: استئذان ١٥ ولفظه: «إذا انتهى احدكم» ورواه أبو داود: الادب ١٢٩ والإمام أحمد ٣/ ٢٢٠.

(٤) رواه الترمذي: ٢٨٧٥ بلفظ «وهو يبول فلم يرد».

(٥) رواه الترمذي: استئذان ٢١. ورواه الإمام أحمد: ٥/ ٢٦٠.

فقال رسول الله ﷺ «عليك السلام تحيَّةُ الموتى[1]».
قال المصنف تقول العرب للميت «عليك السلام».
قال الشاعر:

عليـك أبـا بشـر سـلامٌ ورحمـةٌ ... وقـد بنْتَ منا كلنـا لـك حـامـدُ
فـلا يُبعـدَنـك الله ميتـاً فـإنمـا ... حياةُ الفتى سيراً إلى المـوتِ قاصدُ

وقال[2] عبدة بن الطبيب:

عليـك سـلامُ الله قيس بن عـاصم ... ورحمتـهُ مـا شـاءَ أنْ يتـرحمـا

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الغلابي، عن ابن عائشة، قال: دخل الحسن بن الكناني على عبد الله بن جعفر[3] ذي الجناحين فأنشده قوله فيه:

عـليـك السـلامُ أبـا جـعـفـرٍ ... وسيـد فهـر لـدى المـحضـر
فـأنـتَ المـهـذَّبُ من هـاشـمٍ ... وخـيـر قـريشٍ إذا تـذكـر

فقال له عبد الله: أخطأت مرتين: «عليك السلام» أكثر ما تستعمل هذه للأموات وقد أمكنك أن تقول:

سـلامٌ عـلـيـك أبـا جـعـفـر

ثم جعلت لي ما كان لرسول الله ﷺ ووصفتني بصفته، قال فاستمع البيت الذي سقت له ما سقت قال: هاته فقال:

فـهـذي ثـيـابي قـد أخلقتْ ... وقـد عضَّني زَمَنٌ منكـرُ[4]

فقال عبد الله: هذي ثيابي لك بها، ودعا بغيرها ودفعها إليه.

السلام على الكفار

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الغلابي، عن العباس بن بكار، عن أبي بكر الهُذلي قال سلم نصرانيٌ على الشعبي، فقال له الشعبي: وعليك السلام ورحمة الله، فقال له رجل سبحان الله تقول لهذا النصراني ورحمة الله! فقال الشعبي أليس في رحمة الله يعيش؟ قال بلى قال: فما وجه الإنكار عليّ عافاك الله تعالى وإيانا برحمته.

رد السلام بالإشارة

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن العباس بن الفضل الأسفاطي عن ثابت عن عبد العزيز، عن هشام بن سعدٍ، عن نافع عن عبد الله، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى البقيع فقام

---

(١) رواه الدارمي: ٢٤، أدب ١٤٠. ورواه الترمذي: استئذن ٢٨ والإمام أحمد: ٤٨٢/٢.
(٢) البيت في الشعر والشعراء: ٦١٤/٢.
(٣) هو جعفر بن أبي طالب ولقبه النبي ﷺ «بذي الجناحين» بعد استشهاده في معركة مؤتة، وقد قُطعت يداه.
(٤) أخلقت: بليت. عَضني زمن: أصابني مكروه.

فصلى، فجاءت الأنصارُ تسلم عليه، قال: فسألت بلالاً كيف كان يردُّ عليهم؟ قال: كان يشير إليهم بيده. وأنشدنا عنه، عن محمد الأسدي، عن أبي هفان، عن أبي محلم لأبي طراد أسعد بن البكا البكري:

مررنا فقلناها السلام عليكمُ ... فبلغها ضيق المحل غيورُ
وما كنت أدري أن في الخير ريبة ... ولا أنّ رجعاً بالسلام يضير(١)

ما جاء في المصافحة

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الأسفاطي، عن يعقوب بن حُميد، عن إسحاق بن إبراهيم بن سعيد، عن صفوان بن سليم، عن إبراهيم بن عبيد بن رفاهة، عن ابن أبي ليلى، عن حذيفة، قال: قال النبي ﷺ: «إذا لَقِيَ المؤمنُ المؤمِنَ فصافحَ أحدُهُما صاحِبَه تناثَرَتِ الخطايا بينهما كما يَتَناثَرُ وَرَقُ الشجرِ»(٢).

وقال الحسن: المصافحة تزيد المودة. وحدثنا عنه، عن الغلابي عن ابن عائشة قال: دخل سوار العنبري على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، على ما أحدث الناسُ اليوم أم على ما كان عليه الأوائل؟ قال بل على ما كان عليه فدنا فصافحه.

وأخبرنا عنه قال: سمعت إبراهيم بن المنذر يقول: دخل الفقهاء على المتوكل، ونحن وقوف بين يديه فاستدناهم فكلٌّ قبَّل يده إلا إسحاق بن إسرائيل، فإنه قال: يا أمير المؤمنين ما ينقصك أن أقبّل يدك ـ ولم يُقبّل يد المتوكل ـ وقد حدثني الفضل بن عياض عن هشام بن حسّان عن الحسن قال: المصافحةُ تزيد في المودة، وتتقي بها المؤمنين فبسط المتوكل يده فصافحه، ووصله المتوكل بأكثر مما وصل به أصحابه.

وأنشدنا عنه عن أحمد بن إبراهيم المازحي لبعض شعراء الشام:

تصافحت الأكفُّ وكان أشهى ... إلينا لو تصافحت الخدُودُ
نموت إذا التقى كفٌّ وكفٌّ ... فكيفَ إذا التقى جيدٌ وجيد

وقال آخر:

فصافحتُ من لاقيتُ في البيتِ غيرها ... وكلُّ الهوَى مني لمنْ لم أصافحْ

وقال أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

أختُ بني الشيبان مرَّتْ بنا ... ممسوطةً كوراً على بغلٍ(٣)
قد نقطتْ في كفِّها نقطةً ... مخافةَ العينِ من الكحلِ
لقيتُه يوماً فصافحته ... فقال دع كفي وخذ رجلي

---

(١) يضير: يضر.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن حذيفة.
(٣) مَسَط: اخرج الماء من السِّقاء.

حياك الله وبياك

معنى حياك الله سلام عليك، والتحية أيضاً الملك فحياك الله على هذا التأويل ملكك الله، والتحية البقاء، وهو على هذا التأويل أبقاك الله، قال الأصمعي بياك أضحكك، وقال علي الأحمري: أرادوا بوَّأك منزلاً، فقال: بياك للاتباع، كما قالوا الغدايا والعشايا، وقال ابن الأعرابي: معناه قصدك بالتحية، وبَيَّت الشيء قصدته واعتمدته. وحدثنا عنه عن زياد بن خليل التستري عن إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن محمد بن سوقة قال: أتانا ميمون بن مهر أن فقلت له: حياك الله فقال: مه هذه تحية الشباب قل حياك الله بالسلام.

وحدثنا عنه، عن المغيرة بن محمد، عن إسحاق الموصلي، قال نزل الطماح العقيلي بقوم من بني تميم فأحسنوا إليه فأراد الرحيل عنهم فقال:

حيَّاكم اللَّهُ فإني مُنقلبْ ... بشكرِ إحسانكم كذا يجبْ
وإنما الشاعر كالكلبِ الكلِب ... يملك عند رغبٍ وإن رهبْ
لا يرعوي لمبغض ولا مُحبّ ... أكثر ما يأتي على فيهِ الكذبْ

وأنشدنا عنه عن المبرد لعمارة:

حيَّا الآله خيالها من دانِ ... لو كانَ زارَ زيارةَ اليقظان
لو كانَ عَرَّج أو تعللَ ساعةً ... حتى نسائلهُ عن الأوطانِ
كفانِ شيدتا بناءَ محامدٍ ... لمهذَّبٍ هشّ أخي إخوان
تلقى له دعة الكهولِ وحلمهم ... وتقاهُمُ وحلاوة الفتيان

وأنشدنا عنه عن أحمد بن إبراهيم:

حيَّاك من لم تكن ترجو تحيتهُ ... لولا الدراهمُ ما حيّاكَ إنسانُ

قولهم مرحبا

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن يزيد المبرد النحوي عن أبي عثمان المازني قال لما أتى الرشيد الرقة تلقاه محمد بن ذؤيب العماني[1] فأنشده:

هارونُ يا بن الأكرمينَ حسباً، ... لما ترحَّلتَ وكنتَ كثبا
من أرضَ بغدادَ تؤمُ المغربا ... طابتْ لناريحُ الجنوبِ والصَّبا
ونزلَ الغيثُ لنا حتى رَبا ... ما كانَ من نشرٍ وما تصوَّبا
فمرحباً ومرحباً ومرحبا

فقال الرشيدُ وبك مرحباً وأهلا، ووصله بصلة سنيه.

(١) العماني: محمد بن ذؤيب بن محمد، الدارمي، أبو العباس، راجز، شاعر من شعراء الدولة العباسية، مات سنة ٢٢٨ هـ. والأبيات مع ترجمته في الأغاني: (١٨/٣١١).

وحدثنا عنه عن عبيد الله بن عبد الله قال لما دخل أبو مضر، أنشده سعيد بن الوليد المعروف بالبطين:

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً يا بن ذي الجودِ طاهرِ بن الحسينِ[1]
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي العرّتين في الدَّولتينِ
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بابن ذي المحتدينِ في المصرينِ[2]
مرحباً مرحباً بمن كفُّهُ البحـ ـرُ إذا فاضَ مُزبد العبرينِ

فوصله وقدمه.

وقديماً ما استعملوا مرحباً في كلامهم ومنه قول طفيل الغنوي[3]:

وبالسهل ميمون النقيبة قوله لملتمس المعروفِ أهلٌ ومرحبُ

وأخبرنا عنه، عن محمد بن العباس اليزيدي، عن محمد بن الحسن الزرقي عن الحسين بن علي العلوي المديني، عن بعض أصحابه عن المازني، قال كان أعرابي يلزمنا وكان فصيحاً، فقال له علي بن جعفر بن سليمان: وكان جافياً لا يعطيه شيئاً إلا مرحباً فقال فيه الأعرابي:

وما مَرْحباً إلا كريح تنسمتْ إذا أنتَ لم تخلطْ نوالاً بمرحبِ

ومثل هذا قول جحظة البرمكي:

قائلٌ إن شدوتُ أحسنتَ زدني وبأحسنتَ لا يباعُ دقيقُ

وأخبرنا عنه عن أبي العيناء، قال استأذن رجل على الحسن بن سهل، فقيل له من أنت؟ قال: رجل أمر له الأمير يوم كذا بشعرة آلاف درهم، فأمر بإدخاله فلما رآه، قال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا وشكر إحساننا إلينا، وأكرمه.

وأخبرنا عنه، قال: سمعت إبراهيم بن المدبر الكاتب الضبي، يثني على ابن الجهم في صداقته ومروءته فقال في ذلك، كنت واقفاً بين يَدي المتوكل، وقد جيء برأس إسحاق بن إسماعيل وجه به بغا، فارتجل علي بن الجهم شعراً وقال[4]:

أهلاً وسهلاً بك من رسول جئتَ بما يشفي من الغليلِ
بجملة تغني عن التفصيلِ برأس إسحاق بن إسماعيل

ومر بأبيات فاستحسن ذلك المتوكل، ووصله بصلةٍ سنية، قال:

وأنشدني ثعلب:

فما لك نعمةٌ سلفتْ إلينا وكيفَ وأنتَ تبخلُ بالسلامِ

(١) طاهر بن الحسين الخزاعي، امير والٍ تولى خراسان وتوفي فيها سنة، ٢٤٨ هـ.
(٢) المحتد: الأصل.
(٣) هو طُفيل بن عوف بن كعب من قيس، شاعر جاهلي فحل مات سنة ١٣ ق هـ.
(٤) ديوان علي بن الجهم: ١٧٤.

سوَى أنْ قلتَ لي أهلاً وسهلاً وكانت رَمية من غير رام

وقلتُ:

تضنُّ بتسليم وَزَوْرَةِ ساعةٍ فكيفَ يُرَجّى جودُ كفيك بالوفرِ

وأنشدنا عنه، عن أبي موسى محمد بن موسى، مولى بني هاشم قال: أنشدني عبد السلام ابن رغبان الحمصي المعروف بديك الجن لنفسه:

بأبي وإن قلتُ لهُ بأبي من ليسَ يَعرفُ غيرَه أربي[1]

قَرْطَسْتُ عشراً في مَوَدَّتهِ لبلوغ ما أمّلتُ من طلبي

ولقد أراني لو مددْتُ يدي شهرين أرمي الأرضَ لم أصب

أنشدنا عنه قال أنشدنا عبد الله بن المعتز لنفسه:

قلتُ يوماً لها وحرَّكتِ العو دَ بمِضرابها فغنَّتْ وغنَّى

ليتني كنتُ ظهرَ عودِك يوماً فإذا ما أخذتِه صِرتُ بطنا

فبكتْ ثم أعرضتْ ثم قالتْ: مَن بهذا أنباكَ في النوم عنّا

قلتُ لما رأيتُ ذلك منها: بأبي ما عليك أنْ أتمنَّى

قال: وسمعت محمد بن عبيد الله بن يحيىٰ الوزير يقول: دخل أبو العيناء إلى أبي فقال له: كيف حالك فقال أبو العيناء: أنت أعزك الله الحال فانظر كيف أنت لي. فوصله ووقّع له بأرزاقه. وحدثنا عنه عن عون بن محمد الكندي عن عبيد الله بن عمر قال: قيل لرجل من قريش كيف حالك؟ فقال: كيف حالُ من يهلك ببقائه، ويسقم بصحته، ويؤتى من مأمنه؟.

ومثله:

ما حال من آفته بقاؤه نغّصَ عيشي كله فناؤه

وقال سعيد بن حميد:

لكَ عبدٌ فلو سألـ ـتَ بهِ كيفَ حالهُ

يا قريباً مزارهُ وبعيداً نوالهُ[2]

حاضراً لي صدوده حينَ يرجى وصاله

مسعدٌ لي مقاله فاتكٌ لي مطاله

محسنٌ في كلامه ومسيءٌ فعالهُ

ما جاء في أطال الله بقاك

أول من قاله عمر رضي الله عنه ـ روي عن رفاعة بن رافع، قال: شهدت نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم عمر وعثمان وعليٌ وطلحة والزبير وسعدٌ يذكرون الموءودة، فاختلفوا فيها،

---

(١) اربي: حاجتي.

(٢) النوال: العطاء.

فقال عمر: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ تختلفون، فكيف بمن بعدكم فقال عليٌّ عليه السلام: إنها لا تكون موءودة[1] حتى يأتي عليها الحالات السبع فقال له عمر: صدقت أطال الله بقاك.

وقال ابن لَهيعة: المعنى لا تكون موءودة حتى تكون نطفة، ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم تظهر ثم تستهل، فحينئذ إذا دُفنت فقد وُئدت وليس كما يقول بعضُ الناس: إن المرأة إذا تداوت فأسقطت فقد وأدت.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أحمد بن يحيىٰ عن عبد الله بن شبيب قال: كتب إليّ بعض إخواني من البصرة إلى المدينة: أطال الله بقاك، كما أطال جفاك، وجعلني فداك، إن كان فيّ فداؤك.

شعر:

كتبت ولو قدرتُ هوىً وشوقاً   إليك لكنتُ سطراً في الكتاب[2]

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله تعالىٰ: والبيت لأبي تمام.

جعلت فِداك

دخل الزُّبير على النبي ﷺ وهو عليلٌ، فقال ما يعمدك جعلني الله فداك. فقال النبي ﷺ: «يا زُبيرُ أما تركتَ أعرابيَّتكَ بعدُ» وحدثنا عنه، عن يحيىٰ بن علي، عن أبي أيوب المديني، عن إسحاق قال: حجبني خادمٌ لجعفر بن يحيىٰ، يُقال له نافذ، فانقطعت عنه فسأل عني، فعرفه سبب انقطاعي فقال: قل له إن حجبك إنسانٌ فافعل به ـ لا يكنى ـ قال فجئت فحجبني فكتبت إليه ارتجالاً في الحال:

جُعلتُ فداءَك من كلِّ سوءٍ   إلى حُسنِ رأيك أشكو أُناساً
يحولونَ بيني وبينَ الدُّخولِ   فما أنْ أسلم إلا اختلاسا
وأنفذتُ أمركَ في نافذٍ   فما زاده ذاك إلا شِماسا

فضحك لما قرأ الأبيات وأدخلني وقال: أفعلت يا أبا إسحاق فقلت بعض ذلك، وتقدم إلى نافذ وغيره أن لا أحجبَ متى حضرت.

دعاء المكاتبة

حدثنا عنه عن أبي ذكوان قال سمعت إبراهيم بن العباس يقول: ما أظن قول الكتاب: وقدّمني الله قبلك، مأخوذ إلا من قول الأغر بن كاسر في أخيه صقر:

أخي أنت في دينٍ ودُنيا كلاهما   أُسرُّ بأن تبقى سليماً وأفخرُ
إذا ما أتى يومٌ يفرِّقُ بيننا   بموتٍ فكن أنت الذي يتأخر

---

(١) الموءودة: البنت التي كانت تُدفَن حيّة.

(٢) ديوان أبي تمّام: ٥٤.

فقيل له هذا يُروى لحاتم، فقال: وما على من لا يدري أن ينسب شيئاً إلى غير قائله.
فأما قولهم «وأتم نِعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه» فهو من قول[1] عدي بن الرقاع:

صلّى الآلـه على امـرىءٍ ودّعتـهُ   وأتـمَّ نـعـمـتَـه عـليـه وزادهـا

وقالوا وأول من قال: «وأسأله أن يُصلي على محمد» إسحاق بن سليمان بن علي. وأنشد للسري في ضدّ قولهم مُتّ قبلك، وإن الحظِ عنده أن يكون هو ومن يحبُّ يموتان في وقت واحد:

لا مُتُّ قبلك يـا أخي لا بـاخـلاً   بـالـنفسِ عنـك ولا تمتْ قبـلي
وبقيتَ لي وبـقيتُ فيـك مُـمتَّـعـاً   بـالـبـرِّ والـنـعـمـاءِ والـفـضـلِ
حـتى إذا قـصـد الـحِـمـامُ لـنـا   مـن بعـدِ عُـمـرٍ وارد الـحـبـل[2]
مُـتنـا جـمـيعـاً لا يُـؤخِّـرُ واحـد   عـن واحـدٍ لـمـرارةِ الـشـكـلِ[3]
وكفـاك من نفسـي شهـيـدٌ نـاطقٌ   يـا صـاحِ أنـك عـنـدهـا مِثلي

وفي نحو ذلك قول الآخر:

إنـي لأشـفـقُ أن أُؤخـرهـا   بـعـدي وأكـره أن أقـدِّمـهـا

وقال يعقوب بن الربيع:

فلو أنهـا إذْ حـانَ وقتُ حِمـامهـا   أُحَكَّمُ في أمـري لشاطرتها عمـري
فحلّ بنا المقـدارُ في سـاعـة معاً   فمـاتت ولا أدري ومتُّ ولا تـدري

وقريب منه قول الآخر:

لا متُّ من قـبـلي ولا مُـتُّ من   قبلك بـل عشنـا إلى الـحشـرِ
حتى نُـوافي المـوتَ في سـاعـةٍ   لا أنـتَ تـدري بـي ولا أدري

كيف أصبحت

حدثنا عنه، عن أيوب بن سليمان بن داود المهلبي، عن محمد بن عباد، قال: كان جرير ابن حازم يقول:

العربُ تقولُ: كيف أصبحتَ من نصف الليل إلى نصف النهار، وكيف أمسيت من نصف الزوال إلى نصف الليل الأول، وتقولُ في يومك كان الليلة كذا إلى الزوال فإذا زالت الشمس قلت البارحة، هذا معروفٌ عندهم. وحدثنا عنه، عن الفضل بن الحُباب، عن التنوخي قال: العربُ تقول: صحبتك الأنعمة بطيبات الأطعمة. وحدثنا عنه، عن البلعي عن أبي حاتم، عن

---

(١) ديوان عدي: ٣٨. وفي الاعجاز والإيجاز: ١٥٣.
(٢) الحِمام: الموت.
(٣) الثكل: أن يفقد المرء عزيزاً.

الأصمعي، قال: قيل لأبي عمرو بن العلاء كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ كما قال الربيع بن ضبع الفزاري:

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إن نفراً
والذِّئبُ أخشاهُ إن مَررْتُ بهِ وحدي وأخشى الرياحَ والمطرا

وحدثنا عنه، عن أبي ذكوان، عن التنوخي، عن الفراء، قال: كنتُ عند الكسائي فقال له رجلٌ: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ كما قال الصمة بن عبد الله بن طفيل القشيري(١):

أصبحتُ ما لي من عزّ ألوذُ بهِ إلا التعَزُّز بعد السيفِ والبدنِ(٢)
بعرضَةٍ جانب الأدنون جانِبها والأهلُ بالشام والإخوانُ باليمنِ

وأنشدنا عنه قال: أنشدنا محمد بن يزيد المبرد النحوي قال: أنشدني المازني عن أبي زيد:

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ مما يُثبتُ الودَّ في فؤادِ الكريمِ

وحدثنا عنه، عن محمد بن الفضل بن الأسود، عن عمر بن شبة، عن الحُسين ابن الضحاك الخليع، قال: كنت في المسجد الجامع بالبصرة، إذ دخل علينا أبو نواس وعليه جبة خز جديد فقلت له: من أين لك هذا يا أبا عليّ؟ فلم يخبرني فتوهمت أنه أخذها من مويس بن عمران، لأنه دخل من باب بني تميم فقمت فأجدُ مُويساً وقد لبس جُبة أخرى فقلت:

كيف أصبحتَ يا أبا عمرانِ يا كريمَ الإخاءِ والإخوانِ

فقال صبحك الله به وأسمعك خيراً.

فقلتُ:

إنَّ لي حاجةً فرأيك فيها إننا في قضائها سيَّانِ

فقال هاتها على اسم الله تعالىٰ فقلت:

جُبةً من جبابك الخزِّ حتى لا يراني الشتاءُ حيثُ يراني

قال خذها، ومد كمه فذرعتها، وجئت فقال ابو نُواس: من أين لك هذه؟ قلت: من حيثُ كانت لك تلك. وحدثنا عنه، عن وكيع، عن علي بن عبد الله بن حمزة بن عتبة اللهبي قال: دخلت على محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد المخزومي أعودهُ فقلت له كيف أصبحت فقال كما قال الشاعِرُ:

إنَّ الليالي أسرعتْ في نقضي أخذنَ بعضي وتركنَ بعضي
أقعدنني من بعد طول نهضي

وقيل لأعرابي كيف أصبحت؟ فقال أصبحت والله كما قال الشاعر:

---

(١) الصمة: شاعر اسلامي مقل، عاش في العصر الأموي.
(٢) ألوذ: احتمي. التعرز: الاخفاء، كالتعريض في الخصومة.

يـا خيـرُ إني قـد جعلتُ أشتمـر أرفـعُ مـن ثـوبيَ مـا كنت أَجُـرّ

وحدثنا عنه، عن الغلابي، عن محمد بن عبد الرحمٰن التيمي، عن أبيه قال: لقي بكر بن عبد الله المزني أبا تميمة الهجيمي فقال: كيف أصبحت أبا تميمة؟ فقال أصبحت بين ذنوب قد سترها الله عليَّ، ما يقدر أحدٌ أن يعيرني منها بذنب، وبين محبةٍ قد ألقاها الله في قلوب الناس، لستُ لها بأهل، وقد خفتُ أن أهلك بين هذين وأنا ضعيف الشكر.

قال وقيل لقريبة الدبيرية كيف أصبحت؟ فقالت:

بخيـرٍ عـلى أنَّ النـوَى مـطمئـنـةٌ بليلي وإنَّ العينَ يجـري مَعينهـا[1]

وقيل لأعرابي كيف أصبحت؟ قال بخير أحتسب على الله بالحسنة، ولا أحتسب على نفسي بالسيئة. وقال رجلٌ لأبي العيناء وقد كبر وضعف: كيف أصبحت؟ فقال في الداء الذي يتمناه الناس لأعدائهم.

وحدثنا عنه، عن الغلابي، عن إبراهيم، عن عمر، عن أبي عبيدة، قال: قيل للنمر بن تولب: كيف أصبحت يا أبا ربيعة؟ فقال ارتجالاً على البديه:

أصبحتُ لا يحمـلُ بعضي بـعضـا أشكـو العـروقَ النـابيـات نبضـا
كـمـا تشـكى الأرحبي الـغـرضـا كـأنـمـا كـان شبـابي قـرضـا

وحدثنا عنه، عن القاسم بن إسماعيل، عن محمد بن سلام عن ابن داب، قال: قيل لمحارب بن دثار كيف أصبحت؟ فقال أصبحت كما قال الشاعر الأعشى[2]:

أرِقتُ ومـا هـذا السُّهـادُ المؤرِّقُ ومـا بي من سُقمٍ ومـا بي، مَعشَقُ
ولـكـنْ أرانـي مـا أزال بـحـادثٍ أغـادي بما لم يُمسِ عنـدي وأطرَقُ

وحدثنا عنه، عن المقدمي عن أبي عمر بن خلاد قال: قال الربيعُ الحاجب لأبي العتاهية كيف أصبحت فقال:

أصبحـتُ والله في مـضيـق هـل منْ دليـلٍ عـلى الـطريقِ
أفٍّ لـدنـيـا تـلاعبتْ بـي تـلاعبَ المـوج بـالـغـريقِ
أصبتُ فـيـهـا دُريـهـماتٍ فـبـغـضـتني إلى الـصـديـقِ

وحدثنا عنه، عن علي بن الصباح، عن بشر بن مسعود المازني، قال: كان لسفيان بن عيينة جارٌ سيء الحال فحسنت حاله، فقال له سفيان: كيف أصبحت؟ وكيف حالك؟ لقد سُررت بما صِرتَ إليه بعد غم بما كنتَ فيه فدعا الرجل له ومضى، فقال له بعض جلسائه: كيف تكلم هذا؟ قال: هو جارٌ. قال: إنه قد صار صراطاً لهؤلاء، قال سفيان إن كان في الناس أحدٌ طلب

(١) المعين: مصدر الدموع.
(٢) ديوان الأعشى: ٢١٧.

الدُّنيا من حيثُ يستحق فهذا.

وحدثنا عنه، عن المغيرة بن محمد المهلبي قال قدم أبو العتاهية البصرة إلى عيسىٰ بن جعفر فأقام شهوراً ثم اعتل فقال:

أصبحتُ بالبصرة ذا غُربة أدفَعُ من همّ إلى كربَه
أطلبُ عُتبي من حبيب نأى وليسَ لي عُتبى ولا عُتبه[1]

وحدثنا عنه، عن المبرد قال: قال الجماز لأبي العالية: كيف أصبحتَ؟ قال: على غير ما يحب الله، وغير ما أحب، وغير ما يحبُّ إبليس، لأن الله تعالىٰ يحب أن أطيعه ولا أعصيه ولست كذلك، وإبليس يحب أن أعصي الله ولا أطيعه ولست كذلك، وأنا أحب أن أكون على غاية الثروة والصحة ولست كذلك.

حدثنا عنه، عن الحسن بن الحسين الأزرق، عن العباس بن محمد، عن عمرو بن الحارث عن محمد بن سلام، قال: قال أبو حراثة وهو من بني ربيعة بن حنظلة ليزيد بن المهلب:

كيف أصبحت أصلح الله الأمير؟ قال: كما تحب يا أبا حُراثة، قال: لو كنت كذا لكنت قائماً مثلي، وكنت أنا قاعداً في مقعدك، وكان قميص ابني المرقوع على ابنك، والتومتان[2] اللتان في أذن ابنك على ابني. قال يزيد فالحمد لله الذي جعلك كذا وجعلني كذا، فقال إلا أني في ضيق أنتظر سعةً، وأنت في سعة تنتظر ضيقاً.

وحدثنا عنه، عن أبي العيناء، عن العتبي قال: قيل لأعرابي: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أعثر بالبعرة، وأقيد بالشعرة، وأفزع من النُّعرة[3]. وحدثنا عنه، عن الغلابي عن دماذ، عن الهيثم بن عدي، قال: كان هرم بن سنان المزني قد آلى على نفسه أن لا يسلم عليه زهير إلا وهب له غرة من ماله، فأشفق عليه زهير من ذلك وكان يمر بالمجلس وهرم فيهم، فيقول: أنعموا صباحاً غير هرم خيركم تركت، ففخر عقبة بن كعب بن زهير بذلك في قوله:

إني لأصرفُ نفسي وهي صاديةٌ عن مصعبٍ ولقد بانت ليَ الطرق[4]
رعوي عليه كما أرعى على هرم قبلي زهيرٌ وفينا ذلك الخلقُ[5]
مدحُ الكرام وسعيٌ في مسرتهم ثم الغنى ويدُ الممدوح منطلقُ

ومثله قول حاجز الأزدي[6]:

---

(١) العُتبى: الرضا.
(٢) تومتان: مفردها تومة: قُرط فيه حبة كبيرة.
(٣) النعرة: صوت في الخيشوم.
(٤) صادية: عطشى.
(٥) هرم: هو هرم بن سنان: من أجواد الجاهلية.
(٦) حاجز الأزدي: حاجز بن عوف بن الحارث. شاعر جاهلي مُقل.

وإني لأستبقي إذا العسرُ مسني — بشاشةَ وجهي حينَ تبلى الطبائعُ
فأعفي ثرى قومي ولو شئتُ نولوا — إذا ما تشكى الملحفُ المتضارع
مخافةَ أن أقلي إذا جئتُ زائراً — وترجعني نحوَ الرِّجالِ المطامع

ومن مليح ما قيل في فديتك:

فدتك النفس وهي أقلُّ بذلٍ — صلي حسن المقال بحسنِ فعل
أريني منك في أمري نهوضاً — يبين أن شغلك بي كشغلي

وأخبرنا عنه، عن محمد بن خلف بن المرزبان، قال: اجتمع عندي أحمد بن أبي طاهر، والناشي ومحمد بن عروس، فدعوت لهم مغنية فجاءت ومعها رقيبة لم ير الناس أحسن منها قط فلما شربوا أخذ الناشي رقعة فكتب فيها:

فديتك لو أنهم أنصفوا — لردُّوا النواظرَ عن ناظريك
تردِّينَ أعيننا عن سواك — وهل تنظرُ العينُ إلا إليك
ألا يقرؤوا ويحهم ما يرونَ — من وحي حسنك في وجنتيك
وقد جعلوك رقيباً علينا — فمن ذا يكون رقيباً عليك

قال: فشغفنا بالأبيات فقال ابن أبي طاهر: أحسنت والله وأجملت، قد والله حسدتك هذه الأبيات، ووالله لا جلست، وقام وخرج من ساعته، ولم يعد إلى الشرب بقية يومه.

ما جاء في الدعاء للخارج إلى السفر

أخبرنا عنه، عن إبراهيم بن فهد الساجي، عن نصر بن علي، عن عبد الله بن داود، عن مسعر، عن ميسرة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ودَّع رسول الله ﷺ رجلاً أراد سفراً فقال: «أستوْدِعُ الله دينكَ وأمانتكَ وخواتيم عَمَلك»(١).

وحدثنا عنه عن أبي علي العتابي قال: رأيت أبا شراعة القيسي آخذاً بسفينة إبراهيم بن المدبر وقد عزل عن البصرة وهو يريد الخروج وأبو شراعة(٢) ينشده:

ليت شعري أيَّ قوم أجدبوا — فأغيثوا بك من طولِ العجفْ(٣)
نَزَل الرَّحْبُ من اللهِ بهم — وحُرمناك لذنبٍ قد سلف(٤)
إنما أنتَ ربيعٌ باكرٌ — حيثما صَرَّفَهُ اللهُ انصرفْ
يا أبا إسحاق سِرْ في دَعَةٍ — حيثما شئتَ فما منك خلفْ(٥)

---

(١) أخرجه الترمذي: دعوات ٤٢. وأبو داوود: ٧٢ وابن ماجة: جهاد ٢٤.

(٢) أبو شراعة: أحمد بن محمد، شاعر بصري جيد الشعر. والأبيات في الأغاني.

(٣) العجف: ذهاب السِّمن. وفي الأغاني:

ليت شعري أي أرض أجدبت — فأغيثوا بك من طولِ العجف

(٤) في الأغاني: «نزل الرحم».

(٥) في الأغاني: «وامض مصحوباً فما».

وأخبرنا عنه، عن الغلابي، عن الزبير، قال: ودع ابن المعافى صديقاً له أراد سفراً فأنشده عند وداعه:

خلفَ الله الذي خلفته ... ووقاك الله وعثاءَ السفرْ
إنني أشكرُ ما أوليتني ... لم يضع حسن بلاء من شكر
ردَّك الله إلينا سالماً ... بَعدَ غنم واغتباطٍ وظفر

الدعاء للقادم من السفر

أنشدنا عنه لمحمد بن عبد الله الأخيطل:

أقدمْ قدمتَ قدومَ عارضِ مُزنةٍ ... يهتزُّ بينَ أهابِها الفضفاضِ[1]
من كلِّ مثعبة الرِّياح ثقيلةٍ ... تمشي به مشيَ الوجى المنهاض[2]
مُسودةٌ مُبيضةٌ فكأنها ... دُهمٌ مولوعةُ الشوى ببياض[3]

وقال[4] ابن الرومي:

قدومُ سعادةٍ وقفولُ يُمنٍ ... وهي السرَّاء تمحقُ كلَّ حُزنِ[5]
أظلتك السلامة ما تغنَّت ... مُطوَّقة على فننٍ تغني[6]

قوله «أظلتك السلامة» في غاية الرشاقة وأحسن منه قوله: تمحق كل حزن.

الدعاء للمهزوم

حدثنا عنه، عن الغلابي عن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي، عن عوانة قال: لما انهزم أسلم بن زُرعة الكلبي من مرداس بن أذينة بآسك[7] وكان في ألفي رجل، ومرداس الخارجي في أربعين رجلاً، وفيهم يقول شاعرهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويهزمكم بآسك أربعونا[8]
كذبتم ليس ذَاك كما زعمتم ... ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هُمُ الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا[9]

---

(١) المزنة: السحابة الماطرة.
(٢) الوجى: الحض.
(٣) الشوى: اليدان والرجلان.
(٤) ديوان ابن الرومي: ٦/٢٠٧.
(٥) في الديوان: «تمحق كل حزن».
(٦) في الديوان: «اظلتك... مطوقة ترنّم فوق غصن».
(٧) آسك: بلد في الأهواز.
(٨) في معجم البلدان مادة (آسك): «أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم».
(٩) في معجم البلدان: «هم الفئة القليلة غير شك».

فدخل أسلم البصرة، فقالت له امرأةٌ من قومه: والله لأن تعيش حميداً خيرٌ من أن تموت شهيداً، ولأن تدوم عبادتك بحياتك، أزلفُ لك من أن تنقطع بمماتك، قال ودخل على ابن زيادٍ فعنفه واستعجزه، فقال: أيها الأمير كنت في ألفين جميعهم مثلي، وقاتلت أربعين كل واحدٍ منهم مثلي ويزيد عليّ، ولأن يذمني الأمير حياً خيرٌ من أن يمدحني ميتاً. وحدثنا عنه، عن القاسم بن إسماعيل، عن رفيع بن سلمة، عن أبي عبيدة، قال: لما هزم أبو فديك أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بهجر، قدم البصرة في ثلاثة أيام فدخل عليه الناس، وفيهم صفوان بن عبد الله بن الأهتم المنقري أبو خالد بن صفوان والناسُ لا يدرون كيف يُدعى للهمزوم، حتى قال صفوان: أم والله أيها الأمير لقد تعرّضت للشهادة جهدك، وطلبتها طاقتك ووسعك، فعلم الله فقرنا إليك، وقلة عوضنا منك، فاختار لنا عليك ببقائك، ولم يختر لك علينا باستشهادك، فالحمد لله الذي زيّن بك مصرنا، وآنس ببقائك وحشنا، وجلا بسلامتك غمّنا. فعلم الناس كيف يُدعى للمهزوم فسلكوا هذا المسلك.

ومن أحسن الاعتذار للمهزوم قول فروة(1) بن مُسيك العطيفي وأجاد:

فإن نهزم فهزّامونَ قدماً ... وإن نهزم فغير مهزمينا
وما إن طبّنا جبنٌ ولكنْ ... منايانا ودولة آخرينا

فقوله «ودولة آخرين» من أحسن الاعتذار الواقع من المهزوم.

الدعاء للمعزول

أنشدنا عنه عن عون بن محمد الكندي لأبي تمام الطائي:

ليهنك إن أصبحتَ مجتمعَ الشملِ ... وراعي المعالي والمحامي عن المجدِ
وإنك صنتَ الأمرَ فما وليتهُ ... وفرّقتَ ما بينَ الغواية والرُّشدِ
فلا يحسب الأعداءُ عزلك مغنما ... فإنّ إلى الإصدارِ ما غاية الورد
وما كنتَ إلا السيفُ جرِّدَ للوغى ... وأخمد فيه ثم رُدَّ إلى الغمدِ

وأخبرنا عنه عن الحسين بن يحيى قال حدثنا إسحاق قال عُزل هشام من إسماعيل المخزومي عن المدينة فاشتد العزل عليه فقال له عروةُ بنُ أذينة(2):

فإن تكن الأمارة عنك زالت ... فإنك للمغيرة والوليدِ
وقد مَرَّ الذي أصبحتَ فيهِ ... على مروانَ ثمَّ على سعيد

وأخبرنا عنه، قال: دخلت يوماً مع أبي العباس محمد بن يزيد النحوي إلى عبد الله بن

---

(1) هو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة، صحابي من الولاة، له شعر. توفي سنة ٣٠ هـ. الأبيات في الأغاني: «فإن تعلب فغلابون قدماً».

(2) هو عروة بن يحيى بن مالك، شاعر غزل مقدّم من أهل المدينة وهو فقيه محدث. مات سنة ١٣٠ هـ. (الأعلام: ٢٢٧/٤).

الحسين القطربلي، وقد صرف عن عمل فقال أقول لك ما قاله[1] أبو عبادة البحتري:

شَهِـدَ الخـرجُ إذ تـوليتـهُ أنّــك في جمعـهِ الأمينُ الأعـفُّ
حيثُ لا عنـد مجتبى منـه إلـظا ... ظ ولا في سياق جـابيـهِ عُنفُ[2]
سيـرةُ القصـدِ لا الخشـونـة عنفٌ ... لتعـدى المدى ولا اللين ضعفُ[3]
وعلى حـالتيـك يستصلحُ النـا ... سُ إبـاءً من جانبيـك وعـطفُ[4]
لن يُـولى تلك الطساسيـج إلا ... خلف منك آخرَ الـدهر خلفُ[5]
إنْ تشكـت رعيـةٌ سـوءَ قـبضٍ ... بـك أو أعقبَ الـولايـةَ صَـرفُ
فقـديمـاً تَـداوَلَ العسـرُ واليسـ ... ـر وكـلّ قذى على الريح يطفـو[6]
يفسـدُ الأمـر ثم يصلحُ عن قـرْ ... ب ولـلمـاءِ كـدْرَةٌ ثم يـصفـو

ولما عُزل إبراهيم بن المدبر عن البصرة أنشد أبو صفوان الثقفي:

أبـا إسحـاقَ إن تكـن الليـالي ... عـطفنَ عليـك بـالعـزلِ اللئيم
فلم أرَ صـرفَ هـذا الـدهـر يجري ... بـمكـروهٍ عـلى غيـرِ الكـريـمِ

وقال أبو العتاهية في محمد بن هشام السدري:

لا يـهنـأ الأعـداء عـزل ابـن هـاشمٍ ... فكـلُّ مُولى قصـرهُ الصـرفُ والعـزلُ
لقـد كـان ميمـونَ الـولايـةِ قـابضـاً ... يَـدَ الجـورِ مبسـوطاً بـه الحقُّ والعـدلُ
يَـرُومُ رجـالٌ حـطهُ وهـو سـابـقٌ ... أبـى الله إلا أن يـطولَ وأن يـعـلو

دعاء الأعياد

أخبرنا عنه، عن جبلة بن محمد الكوفي، عن أبيه قال: قال ابن شبرمة لعيسى بن موسى يوم أضحى: قبل الله منك الفرض والسنة، واستقبل منك الخير والنعمة وقرن بالإقبال يومك.

ما قيل في القيام للأجلاء

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الأكبر قال: حضر بعض العرب مجلساً فجاء صديقٌ له فتلقاه من بعيد وقال:

لئن قمتُ ما في ذاك عنديَ غَضاضةٌ ... عليَّ وإني لـلشـريـفِ مُـذلـلُ[7]

---

(١) ديوان البحتري: ١/٣٠٢ عـ.
(٢) إلـظاظ: الحاح.
(٣) في الأصل: لتعدي الندى».
(٤) في ديوان البحتري: «الأرض إباء».
(٥) الطساسيج: النواحي.
(٦) القذى: ما يسقط في العين.
(٧) غضاضة: تنقيص.

علـى أنـه منـي لـغـيـرك ذِلـةٌ ... ولكنـه بيني وبينـك يجمـلُ

ومن مشهور ما قيل في هذا المعنى:

فـلمـا بـصـرنـا بـهِ مـاثـلاً ... حللنـا الحبى وابْتـدَرْنَـا القيـامـا

فـلا تـنـكـرنَّ قـيـامـي لـهُ ... فـإن الـكـريمَ يـجـلُّ الـكـرامـا

وأنشد أبو أحمد عن الصولي، عن يحيى البحتري، لأبيه في عبيد الله بن عبد الله في قصيدة طويلة:

ومُبجـل وسطَ الرجـالِ خُفـوفهم ... لـقيـامـهِ وقيـامـهـمْ لـقـعـوده

فـاللَّهُ يـكـلؤه لـنـا ويـحـوطُـهُ ... ويُـعـزُّهُ ويـزيـدُ في تـأييـده[1]

وقال غيره:

أتـعـجـبُ أن أقـومَ إذا بـدالـي ... لأكـرمـهُ وأعـظمـهُ هِـشـامُ

فـلا تـعـجـبْ لإسـراعي إلـيـهِ ... فـإنّ لـمـثـلهِ خُـلقَ الـقـيـامُ

وقال البحتري[2]

يقـومُـونَ من بُعـدٍ إذا بصرُوا بـهِ ... لأبلجَ مـوفـورِ الكـرامـةِ أروع[3]

ويبتـدرُ الـراؤونَ منـهُ إذا بـدا ... سنى قمرٍ من سُدَّة الملكِ مَـطلعِ

إذا سـارَ كُفَّ اللحظُ عن كلِّ منظرٍ ... سواه وغُضَّ السمعُ عن كلِّ مسمعِ[4]

فلستَ تـرى إلاّ إفـاضـةَ شـاخصٍ ... إليـهِ بعـينٍ أو مـشيـراً بـأصـبـعِ

ما قيل في شعبان وشهر رمضان وشوال

فمنه قول الفرزدق وأجاد في ذلك:

إذا مـا مضى عشرونَ يومـاً تحـركت ... أراجيفُ بـالشهرِ الـذي أنـا صـائمـه[5]

وطـارتْ رقـاعٌ بـالمـواعيـدِ بيننـا ... لـكيْ يـلتقي مـظلومُ قـوم وظـالمـهْ

فـإن شـالَ شـوّالٌ تُشـلِ في أكـفنـا ... كؤوسٌ تُعـادي الـعقـلَ تـسـالمـه[6]

ومعاني هذه الأبيات كلها مُبتكرة لمْ يسبق إليها الفرزدق.

وأنشدنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الرياشي، عن أبيه:

وقفنـا فلولا أننـا راضنـا الهـوى ... لـهتـكنـا عـنـدَ الـرقيـب نحيـبُ

ومن دونِ مـا نلقاهُ من لـوعةِ الهـوى ... تُـشَـقُّ جُـيـوبٌ بـل تُـشَـقُّ قـلوبُ

---

(١) يكلؤه: يحفظه.

(٢) ديوان البحتري: ١/٨٨ عـ .

(٣) في بعض النسخ: «موفور الجلالة».

(٤) في ديوان البحتري: «وغضّ الصوت».

(٥) أراجيف: اضطرابات.

(٦) شال شوال: دخل شهر شوال.

علـى أنَّ شـوَّالاً أشـالَ يـوصلنـا ومـرتـعـهُ للعـاشـقيـنَ خـصِـيب

وأنشدنا أبو أحمد عن الصولي قال أنشدنا ابن بسام لنفسه:

سقيـا لشهـرِ الـصـوم من شـهـرٍ عـنـدي لـهُ مـا شـاءَ من شُـكـرِ
كـم من عـزيـزٍ فيـهِ فُـزنـا بـه أنـهـضـهُ الـليـلُ مـن الـوكـر
ومـن إمـامٍ كـانَ لـي وصـلهُ إلـى كحيـلِ العيـنِ بـالـسحـرِ
لـو كـانَ يـدري بـالـذي خلفهُ أعـجـلهُ ذاك عـن الـوتـر
وخـلةٌ زارتـك مُـشـتـاقـة فـي لـيـلةِ الـقـدرِ عـلى قـدرِ(١)
فـانـصـرفَ الـنـاسُ بـمـا أمَّلوا وبُـؤت بـالآثـام والـوزر

وأنشد المُبرّد للحارثي:

شهـرُ الصيام وإن عـظُّمت حـرمتـهُ شهـرٌ طويـلٌ بطيء السيرِ والحركـهْ
يمشي الهـوينـا إذا مـا رامَ فـرقتنـا كـأنـهُ بـطةٌ تـنجـرُّ في شـبـكـه
لا يـستـقـرُّ فـأمـا حيـنَ يـطلبنـا فـلا سُليـكُ يُـدانيـهِ ولا سُلكـه(٢)
كـأنـهُ طـالـبُ ثـأراً على فـرسٍ أجَـدَّ في إثـرِ مطلوب على رمكـهْ(٣)
يـا صـدق من قـالَ أيـامُ مبـاركـةٌ إن كان يكنى عن اسم الطولِ بالبركهْ

وقال آخر:

مـضى رمـضـانُ محـمـوداً وأوفى علينـا الـفـطرُ يقـدمـهُ الـسُّـرورُ
وفـي مـرِّ الـشـهـورِ لـنـا فـنـاءٌ ونـحنُ نـحبُّ أن تـفنـى الـشـهـورُ

وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، قال: حدثنا الحسين بن يحيى قال: كتب الحسين بن وهب إلى الحسن بن رجاء يوم شك وقد أفطر الواثق:

هـززْتـكَ للصبـوحِ وقـد نهـانـا أمـيـرُ المؤمـنيـنَ عـنِ الـصـيـامِ
وعنـدي من قنـانِ المصـرِ عشـرٌ تـطيـبُ بهـنَّ دائـرةُ الـمـدامِ
فـكنْ أنـتَ الجـوابَ فـليسَ شـيءٌ أحـبَّ إلـيَّ مـن حـذفِ الـكـلامِ

وقال غيره:

أقـول لـصـاحـبيَّ وقـد بـدا لـي هـلالُ الفـطرِ من تـحتِ الـغمـام
سنسـكـرُ سكـرةً شنعـاءَ جـهـراً ونـنعـرُ فـي قفـا شـهـرِ الصـيـام

وقال محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله الجعفري:

هـل لـكَ في صهبـاءَ مشمـولـةٍ ليست من الـدبسِ الـذي ينبـذُ(٤)

---

(١) الخلة: الصاحبة.
(٢) السليك بن السلكة: شاعر جاهلي عدّاء من الصعاليك.
(٣) الرمكة: الفرس.
(٤) الصهباء المشمولة: الخمرة.

فـإنَّ شـعـبـانَ عـلى طـيـبـهِ   دربٌ إذا فـكـرتَ لا يـنـفـذُ

وقال أحمد بن يزيد:

ألا سقيـاني من معتَّقـةِ الخمـرِ   فلا عُذرَ لي في الصبرِ أكثرَ من شهرِ
وإنْ كنتمـا لم تعلمـا فتعلمـا   بأنَّ زمانَ الصوم ليس من العمرِ

وحدثنا أبو أحمد، عن الصولي قال حدثنا أبو الحسن محمد بن أبي الموج الرازي وقال: حدثني أبي قال: كتب علي بن جبلة، إلى أبي دلف يستسقيه نبيذاً في يوم عيد الفطر فوجَّه إليه بما كفاه وبمائتي دينار فقال علي بن جبلة:

وأبيضٍ عجليٍّ رأيتُ غمـامـهُ   وأسيافهُ تقضي على الحِدْثَانِ[1]
مَددتُ إليـهِ ذمّتي فـأجـارهـا   وأغنى يـدي عن غيـرهِ ولسـاني
شـربتُ وَرَوَّيْت النـديمَ بمـالـه   وأدركـت ثـأرَ الـراح من رمضـانِ
وكـانَ لشـوّالٍ علـيَّ ضـمـانـةٌ   فكـانت عطايـا جودهِ بضمـانِ[2]

وحدثنا عن الصولي قال: حدثنا أبو ذكوان القاسم بن إسماعيل قال حدثنا التوزي عن أبي عبيدة قال أسلم أعرابي في أول الإسلام فأدركه شهر رمضان فجاع وعطش فقال الأعرابي يذكر ذلك:

وجـدنـا دينكم سـهـلاً علينـا   شـرائعـهُ سـوى شهـرِ الـصيـامِ

فصل في معان مختلفة

أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن عمه، قال: كانت عند رجل من بني أسد ابنة عم له، ورآها فدخل إليها يوماً وهي مُتغضبة، فقال ما شأنك؟ قالت: إنك لا تشبب بي كما يشبب الرجال بنسائهم! قال أفعل ثم أنشأ يقول:

تـمتْ عُـبـيـدةُ إلاّ في مـلاحتِهـا   والحسنُ منها بحيثُ الشمسُ والقمرُ
ما خالفَ الظبيُ منها حينَ تُبصِرُها   إلا سـوالِفُـهُ والجيـدُ والـنـظرُ
قُـلْ للذي عَابهـا من حاسـد حَنق   أقصر فرأسُ الذي قد عبتَ والحجر

وأنشدنا للعُديل[3] بن الفرخ العجلي:

هـل تقضينَّ لمستهـامٍ حـاجـةً   نيطت إليك بهـا حبالُ رجـائـهِ
أفنـى تـجـلدَهُ بـقـاءُ دُمـوعـهِ   وأدامَ عَـبـرتـهُ فـنـاءُ عـزائـهِ

---

(١) الأبيات في الأغاني: ٢٠/٣٤. الحِدثان: النوائب.

(٢) شوال: الشهر الذي يلي شهر الصيام.

(٣) هو العُديل بن الفرخ العجلي، ويلقب بالعبّاب شاعر فحل اشتهر في العصر المرواني وهجا الحجّاج ثم هرب إلى بلاد الروم فطلبه ثم عفا عنه فمدحه. مات سنة ١٠٠ هـ. (الأعلام: ٤/٢٢٢).

وحدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد الخراساني قال: كنت في مجلس ابن ثوابة فناظره رجلٌ عن ضيعة له، فاستقصى الحجة وأخذ بنفسه فقال ابن ثوابة: يا مابون فوثب الرجل وهو يقول:

كلانا يرى الجوزاءَ يا جُمل أن بدت ... ونجمُ الثريا والمزارُ بعيدُ

فتحدث الناس بها مدةً. قال أبو بكر ويشبه هذا حديثاً حدثناه أبو العيناء قال: خاصم يوماً جيلان القمي المقبول الزيادي فقال المقبول يا دعي فأنشأ جيلان يقول:

بُثينة قالت: يا جميلُ أربتني ... فقلت: كلانا يا بثين مُريبُ[1]

فبلغ هذا ابن عائشة التيمي فقال: جيلان في التمثل، بهذا البيت في هذا الموضع، أشعر من جميل قائله.

أنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا أبو بكر بن دريد لنفسه يهجو بعض النحويين:

عِفطير إنا اختلفنا ... في الفعلِ من فاعِلينِ
فقال قومٌ يثني ... لجمعنا الهمزتين
وقال قومٌ يعدّي ... بملتقى الساكنين
وأنتَ أعلم منا ... بذا وذاك وذين
لأنَّك إلدهرَ فعلٌ ... يعتلُّ من جهتين

وأنشدني عم أبي رحمه الله:

صحبتكم دهراً طويلاً لعسرتي ... أرجي نجاحاً والظنونُ فنون
فما نلتُ منكم طائلاً غيرَ أنني ... تعلمتُ ذلَّ العيشِ كيفَ يكونُ

وأنشدني أيضاً في مسجون:

لئن حجبتك الحجبُ عنا فربما ... رأينا جلابيبَ السحابِ على الشمسِ

وأنشدنا أبو أحمد عن ابن المسيب عن ابن الرومي[2]:

خيرُ مال موزونهُ لذوي الحمـ ... ـد كما خيرُ حمدِهم مَوْزونَهْ
وأصحُّ الآراءِ ما ظنَّ ذو الأفـ ... ـنِ بذي الرأي أنهُ مأفونه[3]

ومن ههنا أخذ المتنبي قوله[4]:

وإذا أتتك مذمَّتي من ناقصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأني فاضلُ
والمحلُّ الخلاءُ من كلِّ ضَيفٍ ... ومضيف مُعطلٌ مسكونُهْ

---

(١) البيت في ديوان جميل بثينة: ١٧.
(٢) ديوان ابن الرومي: ٦/٢٨٥.
(٣) في الأصل «وأظن الآراء».
(٤) ديوان المتنبي: ٣/٢٦٠.

وأخسُّ الرجالِ من راحَ فيهمْ مُسلمَ العرضِ سالماً ما عونهُ
أنفقِ المالَ قبلَ انفاقك العمـرَ ففي الدهرِ رَيْبهُ ومنونهْ
لا تظننَّ أنَّ مالك شيءُ كدم الجوفِ خيرهُ محقونهْ
قلما ينفعُ الثراءُ بخيلاً علقتْ في الثرى المهيْلِ رهونهْ(١)
كلْ وأطعمْ فربما راع ريعاً زاكياً منْ تعولهُ وتمونهْ(٢)
وإذا ما ظننتَ شرّاً فخفهُ رُبَّ شرٍّ يقينهُ مظنونهْ
كم ركونٍ جنى عليك حذاراً من أطالَ الرُّكونَ قلَّ ركونهْ(٣)

وأنشدنا أبو أحمد عن ابن الأنباري عن أبيه:

يموتُ قومٌ فيحيي العلمُ ذكرَهُمُ ويُلحقُ الجهلُ أحياءَ بأمواتِ

ونحوه قول دعبل(٤):

سأقضي ببيتٍ يحمدُ الناسُ أمرَهُ ويكثرُ من أهلِ الرِّوَايةِ حاملُه
يموت رديءُ الشعرِ من قبلِ رَبِّهِ وجيّده يبقى وإنْ ماتَ قائله

أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي عثمان عن التوزي عن أبي عُبيدةِ عن خالد عن يونس: دخل الطرماحُ بن حكيم على خالد بن عبد الله القسري(٥) فقال له:

أنشدني بعض شعرك فأنشده قوله:

وشيبني أنْ لا أزال مُناهضاً بغيرِ غِنى أسمو به وأبوعُ
وإنَّ رجالَ المالِ أضحوا ومالهم لهم عندَ أبوابِ الملوك شفيعُ
أمُخترمي رَيبُ المنونِ ولم أنلْ من المالِ ما أعصى بهِ وأطيعُ

فأمر له بعشرين ألفاً وقال له اعص بها الآن وأطع إذا شئت.

التفاضل بين الإخوان

أنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر:

وبعضُ الأمرِ أصلحهُ ببعضٍ فإنَّ الغثَّ يحملهُ السمينُ(٦)
ترى بينَ الرجالِ العينُ فضلاً وفيما أضمروا الفضلُ المبين

---

(١) الثرى المهيل: التراب المنهال.

(٢) في الأصل: «فكل ما راع ربعاً».

(٣) الركون: السكون.

(٤) الشعر والشعراء: ٢/٧٢٩.

(٥) هو خالد بن عبد الله القسري، من بجيلة امير العراقين وخطيب مشهور، جواد. تولى مكة ثم العراق، ثم عُزل وسجن وعذب ثم قتل، ورُمي بالزندقة، سنة ١٢٦ هـ.

(٦) الغث: المهزول.

كلونِ الماءِ مشتبهاً وليست ... تخبر عن مذاقته العيون

الحث على موافقة الناس

من أحسن ما ورد في ذلك قول الشاعر:

النـاسُ إن وافقتهم عذبوا ... أولاً فإنّ جناهمُ مُرُّ
كم منْ رياضٍ لا نظيرَ لها ... تُركتْ لأنّ طريقها وعرُ

وقلت:

لما أدلّ أملني فسلوته ... من ذا يدلُّ فلا يملُّ محبُّه
تالله ما اتَّبعَ النبيُّ محمدٌ ... لو كانَ فظاً أو غليظاً قلبه

إغباب الزيارة

قال مسلم بنِ الوليد:

إني كثرتُ عليهِ في زيارتهِ ... فملَّ والشيءُ مملولٌ إذا كثرا
وطعام عمرو ابن أوفى مثله ... ما دامَ يسلك في البطونِ طعام

وقال الكميتُ:

ولو لم تغب شمس النهار لَملَّتِ

فأخذه أبو تمام فقال[1]:

فإني رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبةً ... إلى الناسِ إذ ليست عليهم بسرمدِ

ونقله آخر إلى ذكر الغيث:

عليك بإقلالِ الزيارةِ إنها ... تكون متى دامت إلى الهجرِ مسلكا[2]
فإني رأيتُ القطرَ يسأم دائبا ... ويُطلب بالأيدي إذا هو أمسكا[3]

وقال آخر:

وأغببتُ الزيارةَ لاملالاً ... ولكنْ منْ محاذرةِ الملالِ

وهذا كله من قول النبي ﷺ:

«زُرْغِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً»[4].

وقلت:

ما زلتَ تلقاهُ فضاقَ صَدْرُه ... وعادَ من بعدِ الوصالِ هجرُهُ
من أكثر الغشيانَ خسَّ قدْرُهُ ... لو كثرَ الياقوتُ هانَ أمره

---

(١) ديوانه: ٩٠.

(٢) ويروي: «بإغباب الزيارة إذا كثرت كانت إلى . . .».

(٣) في رواية: «رأيت الغيث». وفي الأصل: «يسأم دائماً» وفي رواية «ويسأل بالأيدي» كما في هامش النسخة.

(٤) رواه البزار وأبو نعيم والبيهقي في الشعب، وابن حبّان في صحيحه.

ولـم يـعـزّ حُـمـرةُ وصُـفـرةُ | ولا عـلا بـيـن الأنـام ذِكـرهُ

في ذم العجائز قول الشاعر

رأيتُ البيضَ قـد أعْـرضنَ عنـي | فـمنْ لـي أن تسـاعـدَني عجـوزُ
كـأنَّ مـجـامـعَ اللحـييـنِ منـهـا | إذا حَـسـرتْ عن الـلحـيـين كـوز

ومن المشهور قول الحرمازي[1]:

لا تنكحنَّ عجـوزاً إنْ دعيـتَ لهـا | واخلَعْ ثيابَك عنهـا ممعناً هـربـا
فـإن أتَوْك وقـالـوا: إنهـا نصفٌ | فـإنَّ أطيبَ نصفيهـا الـذي ذهبـا

وقال آخر:

ومـا غـرني إلاّ خضـابٌ بكفّهـا | وكحلٌ بعينيهـا وأثـوابهـا الصفـرُ[2]
وجـاؤوا بهـا قبـلَ المحـاقِ بليلةٍ | فكـانَ محـاقـاً كلهُ ذلـك الشهـرُ[3]

ما ورد في فضل الحمام

قال السري بن عبد الله الرفاء:

أسعيـدُ هـلْ لـكَ في زيـارةِ منـزلٍ | تـشـنـي عـلـيـهِ جـوارحُ الـزُّوَّارِ
رحب تـرَى الجُـدران فيـهِ ينابعـاً | وتـرَى السمـاءَ كثيـرةَ الأقمـار[4]
ينضـو حيٌّ الـوجـهِ ثـوب حيـائـهِ | فيـه فيخطـرُ كـالحسـامِ العـاري
وتـرى على غـدرانـهِ بُهمَ الـوغى | يخـطـرنَ مـا بين القَنـا الخـطّار[5]
سُلَّتْ سُيـوفـهـمُ بـغـيـرِ بـوارقٍ | وَجـرَت خُـيـولهـمُ بـغيـرِ غـبـارِ

مع أبيات أخر غير مختارة الرصف.

وقلت:

قُـمْ بنـا نَـنـزل في خَـيْـرِ دارٍ | وهـيَ إن مَـيَّـزتَـهـا شَـرُّ دارِ
مـنـزلٌ تـخـلعُ ديـنَـك فـيـهِ | حـيـنَ تـأتـيـهِ خـليـعَ الإزار
لا تـرَى فـيـهِ الـشـمـوسَ نـهـاراً | وتـرى الأقـمـارَ نـصفَ النَّـهـار
وعـلى حيـطـانـهِ أسْـدُ حـربٍ | فَـوقَ أمـهـارٍ وفـوقَ مِـهـار
شَـهـدُوا الـحـربَ بـأرْمـاح زورٍ | وسـيـوفٍ نـابـيـاتِ الـشّـفـار

(١) الحرمازي: أبو علي الحسن بن علي، بدوي راوية، قدم البصرة ونزلها وينسب إلى حرماز بن مالك (الفهرست ٧٢).

(٢) في بعض النسخ: «وما راعني إلا».

(٣) المحاق: ذهاب نور القمر في آخر الشهر القمري.

(٤) في ديوانه: «رحب تلاقي الجدر منه ينابع». و«عليه كالاقمار».

(٥) في ديوانه: «وترى على جدرانه».

ونـرَى الأبـدانِ حـيـنَ أتـتـه   تـكتسي الـصحـةَ وهـي عــواري
بـيـنـابـيـعَ كـقـضـبـانِ دُرٍّ   تـتـكـافـا مـن وراءِ الـجِـدار

وقال[1] عبد الله بن المعتز في ذم حمَّام:

وحـمّـامُـنـا كـالـعـجـوزِ   يـشـقـى بـهـا الـواردُ
فـبـيـتٌ لـهُ مُـنـتـنٌ،   وبـيـتٌ لـهُ بـاردُ

ولقد أخذ هذا اللفظ بعينه بعض المحدثين وزاد فيه فقال:

وحـمّـامُنـا هـذه كـالـعـجـوز   تـلذُّ ويـشـقـى بـهـا الـواردُ
فبيتٌ لـهـا مُـنـتـنٌ ضيـقٌ   وبـيـتٌ لـهـا واسِعٌ بـاردُ

ومن أجود ما قيل في صفة النُورة قول الآخر:

ومـجـرِّدٌ كـالسيفِ أسلم نفسَـهُ   لـمجـرّدٍ يكسـوهُ مـا لا يُـنـسَـجُ
ثـوبـاً تـمـزِّقُـهُ الأنـامـلُ رقـةً   ويُـذيـبـهُ المـاءُ القَـراحُ فيـبهـج
وكـأنـه لـمـا التقى في خَصـرِه   نـصفـان ذا عـاجٌ وذا فـيـروزجُ[2]

الشطرنج ـ قلت فيه

إذا أعـفـيـت الـصـهـبـا   ءُ مـن قـدحٍ ومـن شـجٍّ
وكـانَ الـكـأسُ لا يُـجـدي   ومـزجـي الـراحَ لا يـزجـي

وألـغـى الـلـهـوَ مـن يـلغـى   وأرجـى الـشـربَ مـن يـرجـي
لأيـام أخـاضـتـنـا   مـن الأحـزانِ فـي لـج
فـمنـهـا الجـسمُ فـي نقص   ومـنـهـا الـقـلبُ فـي وهـجٍ
فـمـا أنـفـكُّ فـي حَـرٍّ   وإنْ أصـبـحـتُ فـي ثـلجِ
ومـا مـنْ شَـرِّهـا نـاجٍ   ومـا مـن كـيـدهـا مُـنـجـي
تـمـتـعـنـا بـمـسـمـوعٍ   مـلـيـحِ الـنـظم والـنـسـج
ونـتـلو ذكـرَ مـن نـهـوَى   عـلـى نَـرْدٍ وشِـطـرَنـج
كـأنـا مـنـهُ فـي هـرج   ولـسـنـا مـنـهُ فـي هـرج
تـمـشّـى الـزّنـجُ لـلـرُّوم   وقـامَ الـرُّومُ لـلـزنـج[3]
فـمـا أحـسـنـهـا بـيـضـاً   تـمـشّـيـنَ إلـى دعـج[4]

(١) ديوان ابن المعتز: ١٦٤.
(٢) الفيروزج: الفيروز من الأحجار الكريمة.
(٣) الزنج: جيل من الناس السود.
(٤) الدعج: سواد العين واتساعها.

أقمنا بيننا حَرْباً | بلا عجّ ولا ثجّ[1]
شهدناها بلا طبل | ولا بوق ولا صنج[2]
وجئناها بلا سيف | ولا رُمح ولا زج[3]
ترى أفراسنا تعدو | بلا لجم ولا سرجِ
مشى الفرزانُ مُعوجاً | لأمرٍ غيرِ مُعوجٍ
ورُخٌ ينتحي نهجاً | فلا يعدو عن النهج
وفيلٌ ليسَ يحدوهُ | يدا شلج ولا علج[4]
وعند الشاهِ منصوبٌ | لواءُ النصرِ والفلج[5]
وحولي أوجهٌ غُرٌّ | عليها سيمةُ السرجِ
إذا ما دُوِّنَ الحسنُ | تراهُمْ أولَ الدَّرجِ

ما ورد في النرد

وقال السري بن عبد الله الرفاء :

ومحكمان على النفوسِ وربما | لم يحكما فيهنَ حُكماً عادلا
يلقاهما المرزوقُ سعداً طالعاً | ويراهما المحروم سعداً آفلًا
فإذا هما اصطحبا على كفِّ الفتى | ضرّاه أو نفعاه نفعاً عاجلا

وأما القدح

فأجود ما قيل فيه قول ابن مقبل :

خُروجٌ من الغمي إذا صكَّ صكةَ | بدا والعيونُ المستكفةُ تلمحُ
غدا وهو مجدولٌ وراحَ كأنَّهُ | من المسِّ والتقليب بالكفِّ أفطح[6]
إذا امتحنتهُ من معدّ عِصابةٌ | غدا وبهِ قبلَ المفيضين يقدح

انتظار الفرج

أنشدنا أبو أحمد عن ابن دُريد :

إذا اشتملت على اليأسِ القلوبُ | وضاقَ بما بهِ الصدرُ الرَّحيبُ
وأوطنت المكارهُ واطمأنَّتْ | وأرستْ في مطامِنها الخطوبُ
أتاك على قنوطٍ منك غَوْثٌ | يَمنُّ بهِ اللطيفُ المستجيبُ

---

(١) العج : الغبار. الثج : سيلان الماء.
(٢) الصنج : آلة معدنية تصدر الأصوات الموسيقية.
(٣) الزّج : النصل.
(٤) العلج : الكافر من كفّار العجم.
(٥) الفلج : الظّفَر والفوز.
(٦) أفطح : عريض.

وكـلُّ الـحـادثـاتِ إذا تـنـاهـتْ　　فـمقـرونٌ بـهـا الفـرج الـقـريب

وقلت:

لـكـلِّ مُـلمـةٍ فـرَجٌ قـريـبٌ　　كـمثـل الـليـلِ يتلوه الـصبـاحُ
وإنَّ لـكـلِّ صـالـحـةٍ فـسـاداً　　كـذاك لـكـلِّ فـاسـدةٍ صَـلاحُ
ولـلأيـامِ أيـدٍ بـاسـطاتٌ　　وأفـنـيـةٌ مـوسـعـةٌ فِـسـاحُ
وقـد تـأتـي وأوجـهـهـا صِـبـاحٌ　　كـمـا تـأتـي وأوجـهـهـا قـبـاحُ
ولـلـحـالاتِ ضـيـقٌ واتـسـاعٌ　　ولـلـدُّنـيـا انـفـلاقٌ وانـفـتـاح
فـلا تجـزعْ لهـا واصبـرْ عليهـا　　فـإنَّ الـصـبـرَ عُـقـبـاهُ الـنجـاح
وكـلُّ الـحـادثـاتِ إذا تـنـاهـتْ　　فـمقـرونٌ بـهـا الفـرجُ الـمتـاحُ

معنى آخر

قـد ينفعُ الأدبُ الأحـداثَ في مهلٍ　　وليسَ ينـفـعُ بعـدَ الـكبـرةِ الأدبُ
إنَّ الغصـونَ إذا قَـوَّمْتها اعتـدلتْ　　ولا يَـلـيـنُ إذا قـوَّمـتـهُ الـخـشـبُ

وأجود ما قيل في ازدحام المنتجعين على أبواب المفضلين البيت المشهور:

مَـن أكـثـر الاحـسـانَ مـن فِـعـلهِ　　وعَـمَّ بـالـفـضـلِ جَـمـيـعَ الأنـامْ
يَـزْدَحـمُ الـنـاس عـلى بـابـهِ　　والمشـرَبُ العـذبُ كثيـرُ الزِّحـام

وقال أبو الهول:

إذا الـسـمـاء أبَـتْ إلاّ مـحـاذَرَةَ　　سحَّتْ يد الفضلِ ياقوتاً وعقيانا[1]
تـرَى الـرِّفـاق إلى أبـوابـهِ زمـراً　　وردَ القـطا أقبلتْ مثنى ووحـدانـا

معنى آخر

لـيسَ جـودٌ أعـطيتـهُ بـسـؤالٍ　　قـد يـهـزُّ الـسـؤالُ غيـرَ جـوادِ
إنـمـا الـجـودُ مـا أتـاك ابـتـداءً　　لـم تـذقْ فـيـهِ ذلـةَ الـتـرداد

ومن أجود التشبيهات في المحجمة قول بعضهم

وخضـراء لا من بنـاتِ الهـديـل　　يُـلفـفُ بـالـسـيـر مِـنـقـارهـا[2]
كـأنّ مـشـقّ عـيـونِ الـقـطا　　إذا هـنّ تـؤمـن آثـارهـا

وقال أيضاً في الحجامة[3]:

(١) الياقوت: حجر كريم.
(٢) بنات الهديل: كناية عن الحمام.
(٣) الحجامة: الفصد.

أمـا وأبـيـك لا أنـسـاهُ تـدمـي ... مضـاربُ سيفـهِ البـطلَ الكميـا[1]
وبَـرقـاً فـي أنـامـلهِ إذا مـا ... تـألـقَ فتّـح الـوردَ الـجـنـيـا
إذا ظـمئتْ فـراخُ أبيـك يـومـاً ... سقـاهـا من رقـابِ النـاس ريّـا
وإن جـرَحَ الأخـادعَ مـطمئـنـاً ... كسـا الـوجنـاتِ ديـاجـاً بهيـا[2]
ولـم أرَ مـثـلهُ يـأتـي عُـقـوقـاً ... ويَـدْعـوهُ الـورى بـرّاً تـقـيـا

وقال آخر:

أبـوك أو هـى الـنـجـادُ عـاتقـه ... كـم من كـميّ أدمى ومـن بـطلِ
يـأخـذنَ مـن مـالـهِ ومن دمـهِ ... لـم يمس من ثـأرهِ على وجـلِ

ومما ما قيل في خطل الرأي قول الآخر

عُـذرك عـنـدي بـك مبـسـوطُ ... والـعـتبُ عـن مـثلك مـحـطوطُ
لـيس بمـسخـوطٍ فـعـالُ امـرىءٍ ... كـلُّ الـذي يـأتـيـهِ مـسـخـوطُ

وقال آخر:

يـا مَـنْ يـقـلقـه طـنـينُ ذبـابِ ... ويفـلُّ عـزمتـهُ صَـريـرُ البـابِ
ضـربَ السـرادق في رُواقي بـابـهِ ... والـدَّارُ تعجـزُ عن مقيـلِ ذبـابِ
وأقـامَ للبـوابِ حـاجِبَ حـاجـبٍ ... أرأيـتَ حـاجبَ حـاجبِ البـوَّابِ

إفساد المعروف بالمن

قال بعضهم:

ألـبـانُ إبْـلِ تَـعِـلَّة بـنِ مُـسـاورٍ ... مـا دامَ يـمـلكـهـا عـليَّ حـرامُ
وطـعـام عـمـرو بـن أوفـى مـثـله ... مـا دامَ يسلك في الـبطونِ طعـام
إنَّ الـذين يـسـوغ فـي أحـلاقهـم ... زادٌ يـمـنُّ عـلـيـهـم لـلئـامُ[3]
لـعـن الإلـه تـعـلَّةَ بـنَ مُـسـاورٍ ... لـعـنـاً يـشـنُّ عـليـهِ من قُـدَّام

من يعيب غيره وهو معيب

من المشهور في ذلك قول الشاعر:

أرَى كـلَّ إنسـانٍ يـرى عَيبَ غيرهِ ... ويعمى عن العيب الـذي هـو فيـه
ومـا خيرٌ من تخفى عليـهِ عيوبُـهُ ... ويبـدو لـه العيبُ الـذي لأخيـه

ولأبي دلامة[4] في معناه:

---

(١) الكمي: البطل المدجج بالسلاح.
(٢) الديباج: الحرير.
(٣) يسوغ: يلذ.
(٤) أبو دلامة: هو زيد بن الجون الأسدي، شاعر مطبوع، ظريف، نشأ في الكوفة واتصل بالخلفاء من بني

إذا النـاسُ غـطوني تغـطيت عنهمُ وإن بحثـوا عني ففيـهم مبـاحثُ
وإن حفـروا بئـري حفـرتُ بئـارهم ليعلَم قـومٌ مـا تضـمُّ النبـائث[1]

معنى آخر

صـديقـك حيـنَ تستغني كـثيـرٌ ومـالـك عنـدَ فقـرك من صـديقِ
فـلا تـغضـبْ عـلى أحـدٍ إذا مـا طـوَى عنـكَ الـزِّيـارةَ عنـد ضيق

في مدح قوّادة حاذقة:

تـكـادُ لـو لـم تـك إنـسـيـةً تجري من الإنسانِ مجـرَى الـدم
لا تعصمُ الحسـناءُ من كيـدِهـا ولـو ثَـوَتْ في منـزلِ الأعـصَم[2]

وقول الآخر في ذلك:

تُسـهّـلُ كـلَّ ممتنـعٍ عـسيـرٍ وتـأتي بـالمـرادِ على اقـتـصـادِ
فـلو كلفتهـا تـحصيـلَ طيفِ الـ ـخيـال ضحى لـزارَ بـلا رُقـادِ

وقريبٌ من ذلك قول الآخر:

مَـن ذَمَّ إدريسَ فـي قـيـادتـهِ فـإنـنـي شـاكـرٌ لإدريسِ
منَّ بـمسـتـصعـب فـجـاءَ بـهِ أطـوعَ مـن آدمٍ لإبـليس
وكـانَ فـي سـرعـةِ المجيءِ بـهِ آصف في حمـلِ عـرشِ بلقيس[3]

معنى آخر

مـا ازددتُ في أدبي حـرفـاً أسـرُّ بـهِ إلّا تـزيَّـدتُ حـرفـاً تحتـه شـوم
إنّ المقـدَّم فـي حـذقٍ بصـنعتـهِ أنى تَـوجَّـهَ منهـا فهـو محـروم

وقريب منه:

ولـرُبَّـمـا رُزِق الفتى بسكـوتـه ولـربـمـا حُـرمَ الفتى ببـيـانـه

ومن الجيّد في ذلك قول الآخر:

إذا اجتمـعت فـي امـرَءينِ صـنـاعـةٌ وأحببتَ أن تـدري الـذي هـو أحذقُ
فحيث يكـون النقص فـالمـالُ واسـعٌ وحيث يكـون الحذق فـالـرِّزق ضيقُ

معنى آخر

إذا قـلَّ مـالُ المـرءِ لانتْ قنـاتُـه وهـانَ على الأدنى فكيفَ الأبـاعـدُ

ومثله قول الآخر:

= العبّاس. اتهم بالزندقة لتهتكه. مات سنة ١٦١ هـ. (الأعلام: ٣/ ٤٩).

(١) النبائث: جمع النبيثة: تراب البئر. وفي الأغاني: «ليعلم يوماً كيف تلك النبائث».

(٢) ثَوَت: أقامت.

(٣) آصف: اسم الجني الذي حمل عرش بلقيس.

المرء يكرمُ للغنى ويهان للعدمِ العديم

وقال آخر:

غضبان يعلم أن المالَ ساقَ له ما لم يسقه عِلمٌ ولا أدبُ
فمن يكنْ عن كرام الناس يسألني فأكرم الناسِ من كانت له نشب

وقال آخر:

كفي حزناً أني أروحُ وأغتدي ومالي من مالٍ أصونُ به عرضي
وأكثر ما ألقى صديقي بمرحباً وذلك لا يغني الصديقَ ولا يرضي

وقال آخر في معناه:

أجلك قومٌ حينَ صرتَ إلى الغنى وكلُّ غنيٍّ في القلوبِ جليلُ
وليس الغنى إلا غنى زيَّنَ الفتى عشيةَ يُقري أو غداةَ ينيل

ما ورد في حظ الجاهل

فمن جملة ذلك قول الشاعر:

وما لبُّ اللبيبِ بغيرِ حظٍّ بأغنى في المعيشةِ من فتيلِ
رأيتُ الحظَّ يستر كلَّ عيبٍ وهيهاتِ الحظوظ من العقولِ

والعرب تقول[1]: «إسع بجد أودع».

وقال الحارث بن حِلزة[2]:

والعيش خيرٌ في ظلا ل النوكِ ممن عاش كدًّا[3]

وقلت:

لكلِّ حُرٍّ مبتلى يعيش في حال نكد
والنحسُ في طالعهِ أثبتُ من وصلٍ وتد
فكن رقيعاً ساقطاً تصدُرْ بحظٍّ وترِدْ
وكنْ رفيعاً ماجداً واصبرْ على ما لم ترد
هيهاتَ أن يحظى الفتى بجدِّ سعدٍ دونَ جد

وقال آخر:

الجدُّ انهضُ بالفتى من عقلهِ فانهضْ بجدٍ في الحوادثِ أوذر
وإذا تعسَّرَتِ الأمورُ فارجها واستأنفِ الأمرَ الذي لم يعسر
ما أقربَ الأشياءَ حينَ يسوقها قَدَرٌ وأبعدها إذا لم يُقدر

---

(١) جمهرة الأمثال: ١٠٧/١.

(٢) هو الحارث بن حِلِّزة بن مكروه بن يزيد اليشكري، شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق. وكان ابرص فخوراً يعدّه البعض من اصحاب المعلقات مات سنة ٥٠ ق هـ.

(٣) النّوك: الحمق.

الاستعانة بالجاهل في وقت الحاجة

قال بعضهم:

ولن يلبثَ الجهـالُ أن يتـهضـمـوا   أخـا الحلم مـا لم يستعنْ بجهــولِ

وقال الأحنف بن قيسٍ(١):

وذي ضغـنٍ أمـتّ القـولَ مـنـه   بـحـلـم واستـمـرَّ عـلى المـقـال
ومـن يـحـلـم وليسَ لـهُ سـفـيـهٌ   يـلاقي المعضِلاتِ من الـرجـالِ

وقال غيره:

لا بُـدَّ لـلسـيـدِ مـن أرمـاح   ومـن عـديـدٍ يـتـقـى بـالـرَّاح(٢)
ومـن سـفـيـهٍ دائـم الـنـبـاح

معنى آخر

وما الجودُ من فقرِ الرِّجالِ ولا الغنى   ولكنـهُ خيمُ النفـوس وخيـرُهـا(٣)
فنفسـك أكـرِمْ عن أمـورٍ كـثيـرةٍ   فمـالـك نفسٌ بعـدهـا تستعيـرُهـا
وقـد تخـدعُ الـدُّنيـا فيمسي غنيهـا   فقيـراً ويغنى بعـد بُؤسٍ فقيـرُهـا
وكـم طـامعٍ في حـاجـةٍ لا ينـالهـا   وكم آيسٍ منهـا أتـاهُ بشيـرهـا(٤)

الاقتداء بالقرين

أجود ما قيل فيه قول رسول الله ﷺ «المَرْءُ عَلى دِينِ خليله»(٥).

ومن أقدم ما قيل فيه قول عدي بن زيد العبادي:

عن المـرءِ لا تسـألْ وأبصرْ قـرينَـهُ   فـإنَّ القـرينَ بـالمقـارنِ مُقتـدي

وليس رصفه بالجيِّد. وقال غيره:

ولا يـسـلُ الإنـسـانُ إلا قـريـنَـهُ   وإنْ لم يكونا من قَبيلٍ ولا بلدِ

المأخوذ بذنب غيره

ومن قديم ما قيل في ذلك قول النابغة:

أحـملتـني ذَنْـبَ امـرىءٍ وتـركتـهُ   كـذي العُرِّ يكـوى غَيـرَهُ وهـو راتـعُ

وقال غيره:

---

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية، أبو بحر، سيد تميم، من الفصحاء الشجعان الفاتحين، يُضرب به المثل في الحلم. اعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع علي. تولى خراسان. مات سنة ٧٢ هـ.

(٢) الراح: الخمرة.

(٣) الخِيْم: السجية والطبيعة.

(٤) آيس: يائس. وفي الأصل: «ومن آيسٍ».

(٥) رواه الترمذي: زهد ٤٥. وأبو داوود: أدب ١٦.

إني وقتلي سُليكاً ثم أعقله   كالثورِ يُضربُ لما عافَتِ البقرُ

في النهي عن الظلم قول الأول

البغيُ يصرعُ أهله   والظلم مرتعهُ وخيمُ

وقال النبي ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلماتٌ يومَ القِيامَة»(١).

وقال بعضعهم:

ظُلمك من خُلقك مُستخرَجٌ   والظلمُ مشتقٌّ من الظُّلمة

وقلت في عاملٍ صودر:

لو أنصفَ الظالمُ من نفسهِ   لانصفَ الظالمُ في نفسه

إن كانَ لا يرحمُ في يومهِ   لكانَ لا يرحمُ في أمسه

ما ورد في الجبن

وأفلتنا هجين بني سُليم   يُفدِّي المُهر من حُبِّ الإياب

فلولا اللّهُ والمُهرُ المُفدَّى   لأبْتَ وأنْتَ غِربالُ الإهابِ(٢)

وقال آخر:

باتَتْ تُشجِّعني هندُ وقد علمتْ   أن الشجاعَةَ مَقْرُونٌ بها العطبُ

يا هندُ لا والذي حجَّ الحجيجُ لهُ   ما يشتهي الموتَ عندي من له أدبُ

وقال آخر في المعنى:

نجوتُ نجاءً لم يَرَ الناسُ مثله   كأنِّي عُقابٌ عندَ تيمن كاسِرُ

وقال آخر:

يقولُ ليَ الأميرُ بغيرِ شكٍّ   تقدَّمْ حينَ جدّبنا المِرَاسُ

وما لي إنْ أطعتك من حياةٍ   ومالي بعدَ هذا الرَّأسِ راس

ومن المضحكات قول الآخر

ألم ترني وعمراً حينَ نغدو   إلى الحاجاتِ ليس لنا نظيرُ

أسايرُه على يُمنَى يَديهِ   وفيما بيننا رجُلٌ ضريرُ

ومن المضحكات قول القاساني في الجُبن والتطفيل:

أرَى في النوم رُمحاً أو سِناناً   فأسلحُ في الفراشِ على مكاني

ولكني المُبارز حينَ أدعى   إلى أكل العصيدةِ والفراني

وما عمروٌ هناك أشدّ مني   ولا العبسيُّ عنترة الطعانِ

---

(١) رواه البخاري: مظالم ٨ والترمذي: بر ٨٢.

(٢) المُهْر: الحصان الغر.

ولا زَيْدُ الفوارسِ حينَ أدنو فألقى بالكلاكَلِ والجران[1]
تراني عندها ليثاً نفيراً إذا ما اصطكَّ مني الماضغان
أشُدُّ على الخبيصةِ لا أبالي بأيِّ جنوبها وقعتْ بناني[2]
وكم طبق رَدَدْتُ وليسَ فيه من البقلِ المحصل حبتان

الخلق من الثياب

قال الحمدوني[3]:

طالَ ترِدَادُهُ إلى الرَّفوِ حتى لو بعثناهُ وَحْدَهُ لتهدّى

وقال آخرُ:

قال غسّاليَ لما جئته قولاً صحيحا
يا عزيزي أنا لا أغسلُ بالصابونِ ريحا

وأحسن من ذلك كله وأشهرُ قول الآخر:

يا بن حربٍ كسوتني طيلساناً ملَّ من صُحبةِ الزَّمانِ وصدَّا
إن تنحنحت فيه ينحز عيراً أو تحركتُ فيه ينقدُّ قدَّا

من أحب لبناته الموت

قال بعض الأعراب:

إني وإن سِيقَ إليَّ المهرُ ألفٌ وعبدان وذودٌ عشرُ
أحَبُّ أصهاري إليَّ القبرُ

وقال عُبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر[4]:

لكلِّ أبي بنتٍ يُراعي شؤونها ثلاثةُ أصهارٍ إذا طُلبَ الصهرُ
فبعلٌ يُراعيها وخدرٌ يكنها وقبرٌ يُواريها وخيرُهما القبرُ[5]

جعل القبر خير الثلاثة الأصهار، فإنه نعم الصهر في الستر. كلام الملحدين لعنهم الله: فمنهم ديك الجن عبد السلام بن رغبان الحمصي:

هي الدنيا وقد نعِموا بأخرى وتسويفُ النفوسِ من السوافي
فإن كذبوا أمنت وإن أصابوا فإنَّ المبتليك هو المُعافي

---

(١) الكلاكل: الجماعات من الناس.

(٢) الخبيصة: ضرب من الطعام من السمن والتمر.

(٣) هو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، أبو علي بصري مليح الشعر اشتُهر بقوله في طيلسان ابن حرب. وفيات الوفيات: ١/١٧٣.

(٤) هو الأمير، أبو أحمد، والي بغداد بعد أخيه،وكان رئيساً جليلاًوشاعراًمحسناًومترسّلاًبليغاً،مات سنة ٣٠٠ هـ.

(٥) الخِدر: البيت الذي يستر. يكنّها: يسترها.

وأصدقُ ما أبثُّك أن قلبي بتصديقِ القيامةِ غير صافي

وقال ابن أبي البغل:

باحَ ضميري بِمُضْمرِ الأمر وذاك أني أقولُ بالدهرِ
وليسَ بعد المماتِ حادثةٌ وإنما الموتُ بيضةُ العقرِ

وقال آخر:

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قدَرٌ صحَّ ولا جَبرُ
ما صحّ عندي من جميعِ الورى يُذكَرُ إلا الموتُ والقبرُ

قبحهم الله لقد أعظموا القول ولم ينتفعوا إلا بالفضيحة في الدنيا والاثم في الآخرة. وإنما أورد مثل هذا لتعرف أهله ولأن تسمية الكتاب توجبه. ونحوه قول ابن الرومي وأجاد:

أيا ربّ إن سوّيتَ بيني وبينهُ لما كانَ عدلاً أن نكونَ سواءً
فكيفَ وقد أعليتَهُ وخفضتني فكنتُ له أرضاً وكانَ سماءً

فصل آخر

كتب[1] أبو الشيص إلى رجل كان وعده مخدَّة فأبطأت عليه:

يا صديقي وأخي في كلِّ ما يعرو وشِدَّه
ليتَ شعري هلْ زرَعتمْ بذرَ كتانِ المخدَّه

وأخبرني أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، قال أهدى بعض العمال إلى دعبل بن علي الخزاعي برذوناً[2] زمناً فرده وكتب إليه:

وأهديتهُ زَمِناً فانيا فلا للرُّكوبِ ولا للثمنْ[2]
حملتَ على زَمِنٍ شاعراً فسوفَ يكافي بشعرٍ زمن
أبا الفضل ذمّاً وغُرماً معاً فما كنتَ ترجو بهذا الغَبن[3]

ووعد رجل دعبلاً نعلاً يهديها إليه عند قدومه من الحج فأبطأت عليه فقال دعبل الخزاعي:

وعدتَ النعلَ ثمَّ صَدَفتَ عنها كأنك تشتهي شتماً وقذفا
فإنْ لم تُهدِ لي نعلاً فكنها إذا أعجمتَ بعد النونِ حرفا

وأخبرني أبو أحمد، عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، قال: كتب إليَّ أبو علي البصير يستهديني بخوراً كنتُ أهديتُ منه إلى بعض إخواني، والأبيات:

---

(١) ديوانه: ٤٨.
(٢) البرذون: من الدواب. الزّمِن: ذو العاهة.
(٣) الغرم: الدَّيْن.

يـا شـقـيـقـي ويـا خـلـيـلي إبـاءً المـرجَّى لـكـلِّ خـيـرٍ ومـيـر
أنـتَ مـنِ أطـيـبِ الأنـامِ بـخـوراً غيـرَ أني شـممتـهُ عنـدَ غـيـري
وهـو جمٌّ لـديـك فـابعث بـدرجٍ منـهُ إن لم أكنْ تعـدَّيتُ طـوري

فكتبتُ إليه:

قـد بعثـنـا إلـيـك منـهُ بـدرجٍ وأزرنـاك مـنـهُ أطـيـبَ زورِ
بـيـن نـدٍّ وبـيـنَ عـودٍ مـطرّاً مـالـهُ مشبـهٌ بـنـجـدٍ وغـورِ[1]
أنـتَ منـه أزكـى وأطيـب عـرفـاً وهـو أزكى من كـل طيب وَنـورِ[2]
مـا تـعـدَّيـتَ فـيـه طـوْرَكْ عنـدي فتبخـر منـهُ بـأيمنِ طيـر

وحدثني أبو أحمد، عن أبيه عن أحمد، قال: حدثني أبو دلامة الشاعرُ قال: كتب العتابي إلى مالك بن طوق يستزيده ويستهديه ويدعوه إلى صلة الرحم والقرابة بينه وبينه وكان مما كتب:

إن قرابتك من قرب منك خيره، وإن ابن عمك من عمَّ نفعه، وإن عشيرتك من أحسن معاشرتك، وإن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك، وإن أهداهم إلى مودتك من أهدى إليك، ولذلك أقولُ:

ولقـد بلوتُ النـاسَ ثمَّ سبـرتهـم ووصلتُ مـا قطعـوا من الأسبـاب[3]
فـإذا القـرابـةُ لا تُقـرِّبُ قـاطعـاً وإذا الـمـوَدَّةُ أقـرَبُ الأنـسـابِ

قال أبو هلال رحمه الله: هذا آخر ما رأينا تضمينه هذا الكتاب وبالله التوفيق والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه آمين.

---

(١) السّند: عود البخور. النّجد: ما ارتفع من الأرض. الغَور: ما انخفض منها.
(٢) العرف: الرائحة. النَّور: الزهر.
(٣) بلوت: اختبرت، وسبرت.

الفهرست

كتاب المبالغة

الباب الأول من كتاب ديوان المعاني

الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني

الباب الثالث من كتاب ديوان المعاني

الباب الرابع من كتاب ديوان المعاني

الباب الخامس من كتاب ديوان المعاني

الباب السادس من كتاب ديوان المعاني

الباب السابع من كتاب ديوان المعاني

الباب الثامن من كتاب ديوان المعاني

الباب التاسع من كتاب ديوان المعاني

الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني

الباب الحادي عشر من كتاب ديوان المعاني

الباب الثاني عشر من كتاب ديوان المعاني